

موسوعة

التاريخ الإسلامى

والحضارة الإسلامية

دراسات تحليلية شاملة فى عشرة أجزاء لتاريخ العالم الإسلامى كله
من مطلع الإسلام حتى الآن ، مع دراسة الجوانب الحضارية التى
أسهم بها المسلمون فى ترقية العمران وتطوير الفكر البشرى

١

- مقدمة الموسوعة عن : نطاق التاريخ الإسلامى - تفسير التاريخ - هل التاريخ علم ؟ - فلسفة التاريخ - فائدة التاريخ - مراحل تدوين التاريخ
- تاريخ العرب قبل الإسلام : حياة العرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية
- السيرة النبوية العطرة : جوانب من السيرة تكون لأول مرة
- الدعوة الإسلامية وفلسفتها - عصر الخلفاء الراشدين

تأليف
الدكتور أحمد شلبى

الأستاذ بجامعة القاهرة

الطبعة الثانية عشر مع دراسات جديدة عن حياة الرسول بالمدينة

١٩٨٧



مكتبة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها محمد وأولاده
وآلهم صلوات الله عليهم



Bibliotheca Alexandrina



0101955

مَوْشَرُوعَةٌ

التاريخ الإسلامى

دراسة تحليلية شاملة في عشرة أجزاء لتاريخ العالم الإسلامى كله
من مطلع الإسلام حتى الآن ، مع دراسة الجوانب الحضارية التى
حققتها الدول الإسلامية عَبْرَ التاريخ

١

- (١) مقدمة الموسوعة عن : نطاق التاريخ الإسلامى - تفسير التاريخ - هل التاريخ
علم ؟ - فلسفة التاريخ - فائدة التاريخ - مراحل تدوين التاريخ
(ب) تاريخ العرب قبل الإسلام : حياة العرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية
(ح) السيرة النبوية العطرة : جوانب من السيرة تُدَوِّن لأول مرة
(د) الدعوة الإسلامية وفلسفتها - عصر الخلفاء الراشدين

تأليف

الدكتور أحمد شلبى

دكتوراه من جامعة كبردج (إنجلترا)
أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية
بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

الطبعة الرابعة عشرة (١٤١٦) (١٩٩٦) مع تحقيقات مهمة وزيادات جديدة



مكتبة النهضة المصرية
١٠٠ شارع النصارى - القاهرة

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

- الطبعة الأولى سنة ١٩٤٨
- الطبعة الثانية سنة ١٩٦١
- الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٤
- الطبعة الرابعة سنة ١٩٦٦
- الطبعة الخامسة سنة ١٩٧٠
- الطبعة السادسة سنة ١٩٧٤
- الطبعة السابعة سنة ١٩٧٧
- الطبعة الثامنة سنة ١٩٧٨
- الطبعة التاسعة سنة ١٩٨٠
- الطبعة العاشرة سنة ١٩٨١
- الطبعة الحادية عشرة سنة ١٩٨٣
- الطبعة الثانية عشرة سنة ١٩٨٧
- الطبعة الثالثة عشرة سنة ١٩٨٨
- الطبعة الرابعة عشرة (١٩٩٦)



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا) •

(سورة الممتحنة الآية الرابعة)

التاريخ . . .

شعاع من الماضي ينير الحاضر والمستقبل

أحمد شلبي -

كتب للمؤلف

اولا : موسوعة التاريخ الاسلامي :

دراسة تحليلية شاملة في عشرة مجلدات لتاريخ العالم الإسلامي كله ،
من مطلع الإسلام حتى الآن ، مع دراسة الجوانب الحضارية التي
حققتها الدول الإسلامية عبر التاريخ . (الطبعة الثالثة عشرة)

ثانيا : موسوعة الحضارة الاسلامية :

دراسة تحليلية شاملة في عشرة مجلدات ، تبرز الاتجاهات الحضارية
التي جاء بها الإسلام لهداية البشرية في شئون الفكر ، والسياسة ،
والاقتصاد ، والعلاقات الدولية ، وفي مجال الحياة الاجتماعية.
والتربوية ، كما تبرز نشاط المسلمين لإحياء الحضارة التجريبية
كالطب والرياضة والفلك . . . (الطبعة العاشرة)

ثالثا : مقارنة الأديان :

سلسلة من الكتب في أربعة مجلدات ، تعتمد على أدق المراجع
بمختلف اللغات ، وتمتاز دراساتها بالحيطة والعمق . (الطبعة التاسعة)

رابعا : كتب في الثقافة العامة :

— كيف تكتب بحثاً أو رسالة ؟ (الطبعة العشرون)
دراسة منهجية لكتابة البحوث وإعداد رسائل الماجستير والدكتوراه
— الحروب الصليبية : بدؤها مع مطلع الإسلام واستمرارها حتى الآن

خامسا : كتب بلغات أجنبية :

Islam : Belief- Legislation - Morals

History of Muslim Education

وعشرون كتاباً باللغة الإندونيسية والماليزية .

سادسا : كتابان لخدمة اللغة العربية هما :

١ - تعليم اللغة العربية لغير العرب .
قواعد اللغة العربية والتطبيق عليها .

سابعا : التفسير الميسر للقرآن الكريم :

تفسير موجز وواضح يهدف لأن تفهم القرآن الكريم إذا قرأته أو
سمعته ، مع وقفات تفصيلية عند بعض القضايا القرآنية المهمة .

المكتبة الإسلامية لكل الأعمار

- تخطيط يشمل ١٠٠ جزء ظهر منها ٥٦ جزءاً كالآتي :
- المجموعة الأولى : السيرة النبوية العطرة (١٦ جزءاً)
وتشمل سيرة الرسول كلها وجوانب منها تدون لأول مرة .
- المجموعة الثانية : العشرة المبشرون بالجنة (٧ أجزاء)
المجموعة الثالثة : دراسات قرآنية (٥ أجزاء)
نزول القرآن وتدوينه - القرآن والعلم - فضائل القرآن -
إعجاز القرآن - الأخلاق الإسلامية من القرآن الكريم .
- المجموعة الرابعة : من قصص القرآن الكريم (٧ أجزاء)
المجموعة الخامسة : الدولة الأموية : تاريخ يحتاج الى انصاف (٥ أجزاء)
لماذا انحرف تدوين التاريخ الأموي ؟ ماذا عن محاسن الأمويين ؟
مدعو التشيع وسموهم - قم في التاريخ الأموي .
معاوية - عبد الملك بن مروان - الوليد بن عبد الملك - عمر
ابن عبد العزيز - التوسع الإسلامي والحضارى في العهد الأموي
- قصة استشهاد الإمام الحسين والمسئول عنها .
- المجموعة السادسة : صراع وشهداء وانتصارات (٦ أجزاء)
- من شهداء الإسلام .
- الحروب الصليبية : بدؤها مع مطلع الإسلام واستمرارها حتى الآن
- شهر رمضان وانتصارات المسلمين فيه .
- المجموعة السابعة : الاسلام والمرأة (٥ أجزاء)
حالة المرأة في الحضارات غير الإسلامية - اذا قدم الإسلام للمرأة ؟
نماذج من السيدات المسلمات : من بيت النبوة « السيدة زينب والسيدة
سكينة » ونماذج في السياسة والآداب والعلوم والفنون - زيجات
شهيره في التاريخ : « زبيدة - بوران - قطر الندى » .
- الميراث في الشريعة الإسلامية : دراسة شاملة •
تاريخ الطب في الاسلام •
حركات فارسية ضد الإسلام والمسلمين عبر العصور .

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
مقدمات الطبقات قبل الثالثة عشرة	١٩ - ١٦
مقدمة الطبعة الثالثة عشرة	٢٠ - ١٩
مقدمة الموسوعة	
نطاق التاريخ الإسلامى	٢٤
تفسير التاريخ	٢٥
هل التاريخ علم ؟	٢٧
مراحل البحث التاريخى	٣٠
فلسفة التاريخ بين الإهمال وسوء الاستعمال	٣٢
فائدة التاريخ	٣٥
التاريخ المتصل والتاريخ المنقطع	٤٢
مبدأ الالتزام فى كتابة التاريخ الإسلامى	٤٤
الحضارة الإسلامية	٥٣
مشكلات حول تدوين التاريخ الإسلامى :	
أ - المراجع القديمة والدراسة التحليلية الحديثة	٥٦
ب - أقطار فسيحة منسية	٥٧
ج - مصادر مهمة تجاوزها المؤرخون	٥٨
د - التاريخ الإسلامى جزء من الدراسات الإسلامية	٦٠
هـ - فقدان الروح الإسلامية فى كثير مما كتب حديثاً	٦٠
و - أخطاء شاعت ينبغى تصحيحها	٦١
علم التاريخ بين المسيحية والإسلام	٦٤
مياسة التجميع والتنسيق	٦٧
كلمة عن المراجع والمكتبة التاريخية	٦٨

تاريخ العرب قبل الإسلام

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٨١
تعريف عام بالمنطقة وسكانها :	
جغرافية جزيرة العرب	٨٤
الجنس العربي	٨٧
لغة الشمال ولغة الجنوب	٨٩
التاريخ السياسي للعرب قبل الإسلام	
١ - نظام الحكم في البادية	٩١
مملكة كندة	٩٣
٢ - الحضرة :	
أ - اليمن :	
تسمية اليمن ٩٤ - مملكة سبأ ٩٦ - مملكة حمير ٩٧ - اليمن فريسة للاستعمار ٩٩	
ب - ممالك الشمال :	
الأنباط ١٠٣ - تدمر ١٠٤ - الحيرة وغسان ١٠٦	
الأممية الحضارية للمناذرة والغساسنة ١١٠	
ج - الحجاز :	
الوطن الأول للدعوة الإسلامية ١١٠ - مكة : المدينة المقدسة ١١٢	
حكومة مكة ١١٥ - عام الفيل ١١٩ - غير مكة في الحجاز ١٢١	
اقتصاديات العرب وتجارة قريش	١٢٢
الاتجاهات الاقتصادية في المجتمع العربي قبل الإسلام :	
(١) المناطق العربية التي لم تتأثر بالفكر الخارجي	
١ - القبيلة العربية والاتجاهات الاقتصادية في حياتها	١٣٠
٢ - جماعات الصعاليك واتجاهاتها الاقتصادية	١٣٣
الفلسفة الاقتصادية للصعاليك	١٣٦

الموضوع	الصفحة
٣ - الكرم العربي ومدهاء في تحقيق المشاركة الاقتصادية . . .	١٣٩
(٢) المناطق العربية شديدة الاتصال بالفكر الخارجى . . .	١٤٤
الحياة الاجتماعية فى الجزيرة العربية قبل الإسلام	
الحياة الاجتماعية عند البدو	١٤٩
الشعر	١٥٤
الدين	١٦١
الأمرة	١٧٦

السيرة النبوية العطرة

الرسول منذ ولد إلى أن بعث :

نسب الرسول	١٨٣
العرب العاربة والمستعربة	١٨٣
كلمة عن أجداد الرسول : قريش ، لاهى ، هاشم ، المطلب	
أخو هاشم ، شيبه (عبد المطلب)	١٨٣ - ١٨٥
بطون قريش	١٨٥
عبد الله بن عبد المطلب ووفاته	١٨٦
الكاهنة التى أرادت الزواج من عبد الله	١٨٨
آمنة بنت وهب	١٨٨
مولد محمد	١٨٩
محمد فى كفالة جده عبد المطلب	١٩٠
رضاعته عايه السلام من حليلة السعدية	١٩٠
محمد فى بيت أبى طالب	١٩١
راعى الغنم « الأمين »	١٩٢
قصة بحيرى الراهب	١٩٣
محمد يشترك فى حرب الفجار	١٩٤
محمد يتاجر فى مال خديجة	١٩٤

الموضوع	الصفحة
زواجه عليه السلام من خديجة	١٩٥
عمر السيدة خديجة عندما تزوجها الرسول	١٩٧
بناء الكعبة ووضع الحجر الأسود	١٩٨
أخلاق محمد قبل البعثة	٢٠٠

البعثة النبوية

(وحياة الرسول في مكة)

تدوين جديد للسيرة النبوية	٢٠٣
بعثة الرسول	٢١٠
كلمة عن غار حراء	٢١٢
مراحل الدعوة :	
المرحلة لفردية	٢١٤
دعوة بنى عبد المطلب	٢١٧
الدعوة العامة	٢١٧
مقاومة قريش وأسبابها ومراحلها :	
أسباب المقاومة	٢١٨
مراحل المقاومة :	
١ - العدوان على العبيد والضعفاء	٢٢١
٢ - العدوان على كل المسلمين	٢٢٢
هجرة المسلمين إلى الحبشة فراراً من هذا العدوان	٢٢٤
٣ - العدوان على الرسول	٢٢٨
إسلام حمزة وعمر بن الخطاب وأثره	٢٣٠
مقاطعة بنى هاشم	٢٣٢
وفاة أبي طالب وخديجة	٢٣٥
حالة الرسول بعد وفاة أبي طالب وخديجة	٢٣٥
الدعوة للإسلام بعد موت أبي طالب	٢٣٦

الموضوع	الصفحة
دعوة أهل الطائف	٢٣٦
دعوة الحجيج	٢٣٨
الإسراء والمعراج : دراسة وبيان وتصحيح	٢٣٩ - ٢٦٣
(الإسلام في يثرب)	
دخول الإسلام يثرب وظروفه والعوامل التي ساعدت عليه	٢٦٤
هجرة المسلمين إلى يثرب	٢٦٧
(الهجرة)	
المؤامرة والإذن للرسول بالهجرة إلى يثرب	٢٦٨
الرحلة من مكة إلى يثرب	٢٧٠
وقفه عند غار ثور	٢٧١
يثرب تستقبل الرسول	٢٧٣
دروس من الهجرة	٢٧٥
(الرسول في المدينة)	
الرسول نفسه يؤرخ بالهجرة	٢٨١
أزمة الرسول وأسرته أبي بكر	٢٨٢
المؤاخاة	٢٨٣
نتائج اقتصادية بالمدينة	٢٨٤
معاهدة التعاون بين المسلمين وغير المسلمين	٢٨٥
الحمى تصيب المهاجرين عقب الهجرة	٢٨٦
الرسول يبني المساجد للعبادة والدعوة :	
مسجد الرسول بالمدينة وصفته ٢٨٩ - مساجد الرسول ٢٨٩ -	
أغراض المسجد ٢٩٠ - مظهر المسجد ٢٩١ - الأذان ٢٩٢ -	
المساجد ومكبرات الصوت ٢٩٣ - القبلة ٢٩٤	
الرسول الداعية	٢٩٧
الرسول يربي العلماء والدعاة	٣٠٤

الصفحة

الموضوع

الرسول في بيته :

زوجات الرسول : خديجة ٣٢٦ - سودة ٣٢٧ - عائشة ٣٢٩ -

زينب بنت خزيمة ٢٣٠ - حفصة ٣٣١ - زينب بنت جحش ٣٣٢ -

أم سلمة ٣٣٣ - جويرية ٣٣٤ - صفية ٣٣٥ - أم حبيبة ٣٣٦ -

ميسونة ٣٣٨ .

تعدد الزوجات في الإسلام وتعدد زوجات الرسول بوجه خاص ٣٣٨

مارية ٣٤٧

معاملة الرسول لزوجاته ٣٤٨

الحجاب ٣٥٤

الرسول وأولاده ٣٥٥

الرسول مع خدمه ٣٦٠

الرسول بين أصحابه ٣٦٣

الرسول يربي الفرد المسلم ٣٦٩

الرسول يربي المجتمع الإسلامي ٣٧٥

أخلاق إسلامية يغرسها الرسول ٣٧٨

الرسول يربي القضاة ٣٨٣

الرسول يربي القوة العسكرية ٣٨٨

الرسول يربي الولاة والحكام ٣٩٦

الرسول والعمل ٤٠٠

الرسول والشباب ٤٠٥

توجيهات طيبة يقدمها الرسول ٤١٩

مكرمات الرسول ٤٢٤

الرسول والمنافقون ٤٣٠

الرسول والنصارى ٤٣٨

الموضوع	الصفحة
اليهود والمسلمون	٤٤٤
مقدمة عن الصراع الفكري والصراع العسكري ٤٤٤ - بنو قينقاع	
٤٤٧ - بنو النضير ٤٤٨ - بنو قريظة ٤٥٠ - خيبر وما حولها ٤٥٢ -	
نهاية اليهود بالجزيرة العربية ٤٥٤ - المستشرقون واليهود ٤٥٥	
{ الإسلام والقتال }	
هل انتشر الإسلام بالدعوة أو بالقوة ؟	٤٥٦
عدد قتلى المسلمين وغير المسلمين في جميع الغزوات	٤٥٩
لماذا حدثت الحروب بين المسلمين وغيرهم	٤٦٣
{ الغزوات والسرايا }	
مقدمة عن الغزوات والسرايا	٤٧٣
غزوة بدر الكبرى : زمانها ومكانها	٤٧٥
مقدمة	٤٧٥
سبب غزوة بدر	٤٧٥
الجيشان والمركة	٤٧٧
أهمية غزوة بدر	٤٨١
من أحداث غزوة بدر	٤٨٣
الذين توفواهم الملائكة ظالمى أنفسهم	٤٨٣
نهاية أمية بن خلف وابنه علي	٤٨٣
حمزة في بدر	٤٨٣
المسلمون قتلوا أقاربهم المشركين في بدر	٤٨٤
الرسول يوصى بعدم قتل بعض قريش	٤٨٤
مصائب أبي سفيان وزوجته في بدر	٤٨٤
نهاية أبي لهب	٤٨٥
كعب بن الأشرف يجرؤ على الشار	٤٨٥
غزوة بدر وتعاليم الحروب في الإسلام	٤٨٦
غزوة بدر والتشريع	٤٨٧

الموضوع	الصفحة
غزوة أحد : زمانها - مكانها - سببها	٤٨٩
المعركة	٤٩٠
القرآن الكريم وغزوة أحد	٤٩٢
غزوة حمراء الأسد	٤٩٤
الجزية التي أخافت المنتصر	٤٩٦
بعد المعركة	٥٠٠
مزيد من علاج آثار أحد	٥٠٠
غزوة الأحزاب أو الخندق : زمانها - مكانها - سببها	٥٠١
أثر هذه الغزوة	٥٠٥
غزوة الأحزاب وبذور المستشفيات في الإسلام	٥٠٥
سلمان الفارسي	٥٠٦
غزوة بني المصطلق : زمانها - مكانها - سببها - أحداثها	٥٠٨
الحديبية بين الحرب والسلام	٥١٠
شروط صلح الحديبية ومناقشتها	٥١٣
سورة الفتح وغزوة الحديبية	٥١٨
كتب الرسول للملوك والرؤساء ونماذج منها	٥٢١
غزوة مؤتة وبدء الصراع مع الروم : مكان غزوة مؤتة - سببها	٥٢٥
غزوة الفتح : زمانها ، مكانها ، سببها	٥٢٨
حاطب بن بلتعنة يحذر أهل مكة	٥٢٩
العباس وأبو سفيان	٥٣٠
الفاطخون في مكة	٥٣٢
بعد الفتح :	
نخوف الأنصار أن يبق الرسول بمكة	٥٣٢
الغزو الشامل إلا عن قلائد	٥٣٣
إسلام والده أبي بكر	٥٣٣

الصفحة	الموضوع
٥٣٤	إسلام صفوان بن أمية
٥٣٤	إسلام كعب بن زهير
٥٣٥	مفتاح الكعبة
٥٣٦	الجزيرة العربية في الطريق إلى الاستسلام
٥٣٧	هزوة حنين والطائف : مقدمة - الزمن - المكان - المعركة
٥٤٤	هزوة بؤك : زمانها - مكانها - سببها
٥٤٧	الثلاثة الذين خلفوا
٥٤٨	عام الوفود
٥٤٨	صحح أبى بكر بالمسلمين سنة ٩ وعلّ يودى عن الرسول بعض الأحكام
	نهاية كفاح :
٥٤٩	تمام الدعوة
٥٥٠	حجة الوداع
٥٥١	مرض الرسول ووفاته
٥٥٢	لحة من صفات الرسول

الدعوة الإسلامية وفلسفتها

٥٥٧	١ - لحة عن مبادئ الإسلام
	٢ - طرق نشر الإسلام :
٥٥٨	(أ) القرآن الكريم وأثره في انتشار الإسلام
٥٦٧	(ب) المبادئ الإسلامية وأثرها في انتشار الإسلام
٥٧٢	٣ - أثر الإسلام في العرب

عصر الخلفاء الراشدين

	أبو بكر الصديق :
٥٧٥	تعريف به
٥٧٥	بيعته ومجلس شوراه

الموضوع	الصفحة
المشكلات التي راحها أبو بكر	٥٧٦
التوسع الإسلامي في عهد	٥٨٢
وفاة أبي بكر	٥٨٣
عمر بن الخطاب :	
تعريف به	٥٨٤
توليته الخلافة	٥٨٤
التوسع الإسلامي في عهد أبي بكر وعمر	٥٨٥
الفرس والروم قبيل الزحف الإسلامي وعوامل انتصارات المسلمين	٥٨٦
أشهر المعارك في فارس :	٥٩٨
يوم الجسر ٥٩٠ - يوم مهران أو يوم للنخيلة ٥٩١ - القاصية ٥٩١	
المدائن ٥٩٢ - جلولاء ٥٩٢ - نهاوند ٥٩٤	
أشهر المعارك ضد الروم :	
مقدمة ٥٩٥ - أجنادين ٥٩٨ - دمشق ٥٩٩ - اليرموك ٦٠٠ - مصر ٦٠٣	
حصن بابلون ٦٠٥ - الإسكندرية ٦٠٦	
الغالبون والمقلوبون	٦٠٧
عمر باني الدولة الإسلامية	٦٠٨
كلمة من البريد	٦١٠
مقاتل عمر وعثمان وعلي	٦١١
مقتل عمر	٦١٤
عثمان بن عفان :	
تعريف به	٦١٥
توليته الخلافة	٦١٥
سياسة عثمان	٦١٧
أخلاق عثمان	٦١٨
الحركات العسكرية في عهد عثمان	٦١٩
نهاية عثمان وحراسة الفتنة التي أدت إلى قتله	٦٢٠

الموضوع

على بن أبي طالب :

٦٣١	تعريف به
٦٣٢	اليعة لعل
٦٣٣	مياسة على
٦٣٥	موقعة الجمل وتحليلها ونتائجها
٦٤٠	من المشول عن موقعة الجمل ؟
٦٤٥	موقعة صفين
٦٤٨	التحكيم
٦٥٠	بعد التحكيم
٦٥١	نهاية على
٦٥٢	مضرع عمر وثمان وعلى
٦٥٣	على في الميزان
٦٥٥	ثبت المراجع
٦٦٢	فهارس الأعلام والأمكنة

فهرست الخرائط والمخططات

٨٣	خريطة رقم ١ عن : جغرافية جزيرة العرب
٨٨	مخطط : تفرع القبائل العربية
١٢٥	خريطة رقم ٢ عن : الطرق النجارية بالجزيرة العربية
٤٧٤	٣ : مواقع أشهر الغزوات
٥٩٣	٤ : الجيش الإسلامي بفارس
٥٩٧	٥ : اتجاهات الجيوش الإسلامية للشام
٦٠١	٦ : الفتح الإسلامي للشام
٦٠٤	٧ : الجيش الإسلامي بمصر
٦٢١	٨ : اتساع الدولة الإسلامية في عهد عثمان



أهم الإضافات من طبعة إلى طبعة

الطبعة العاشرة وأهميتها :

كانت الطبعة العاشرة لهذا الكتاب - في الحق - تدويناً جديداً لتاريخ هذه الفترة ، فقد كنتُ قبل الطبعة العاشرة أسيرُ تبعاً للهج الذي انتهجه المؤرخون السابقون ابتداء من ابن هشام حتى الآن ، وكان هذا الهج يجعل الغزوات وحدها موضع دراستهم لتصوير حياة الرسول صلوات الله عليه بالمدينة .

ثم خطرت لي في مطلع الثمانينات أن ذلك تقصير يتحتم تداركه ، فأنشطة الرسول في المدينة كانت متعددة ، وكانت الغزوات تغلطي الجوانب العسكرية فقط ، ومن المقرر تاريخياً أن الغزوة كانت تستغرق يوماً واحداً ، أو عدداً قليلاً من الأيام ، أما باقي أيام العام فكان الرسول دائم النشاط فيها ليقدم الإسلام لغير المسلمين وليس مبادئ الإسلام وقيمه لدى المسلمين .

وانتهجت بكل الجهد لاستيفاء هذا الموضوع وتسجيل حياة الرسول بالمدينة تسجيلاً دقيقاً ، ولما كانت المصادر السابقة لم تُعْنِ بتقديم مادة كافية لهذه الدراسة ، فقد لجأت إلى كتب « الصحاح » فأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام التي دونتها كتب « الصحاح » ثمُتدُّ الباحث في سيرة الرسول بمادة وفيرة ، عن كل جوانب الأنشطة التي قام بها الرسول بالمدينة ، ونتيجة لهذا الجهد أضفت للطبعة العاشرة مثل حجمها تقريباً في موضوعات مهمة مثل :

- الرسول الداعية .
- الرسول يربي العلماء والدعاة .
- الرسول في بيته : زوجاته - أولاده وأحفاده - خدمه .
- الرسول بين أصحابه .
- الرسول يربي القوة العسكرية .
- الرسول يربي الولاة والحكام .
- الرسول والشباب .

— الرسول والعمل .

— توجيهات طبية يقدمها الرسول .

وموضوعات كثيرة أخرى كبيرة الأهمية سيرافها القارئ في مكانها من هذه الطبعة .

إضافات للطبعة الخامسة :

على أن الطبعات السابقة حظيت كذلك بإضافات مهمة ، لا أرى في محل من إغفالها ، فقد حظيت الطبعة الخامسة بإضافات وصفتها في مقدمتها بقولي :
« هناك جديد يستحق الذكر والشكر في تقديم الطبعة الخامسة للجزء الأول من هذه الموسوعة ، فقد أتيج لي أن أزور الأرض المقدسة لأداء فريضة الحج قبل البدء فيها ، وعشت بذلك ردحاً من الزمن في مكة المكرمة ، في الأرض التي شهدت مطلع الفجر ، وشهدت الصراع الطويل بين الحسن والباطل ، وعشت كذلك ردحاً من الزمن في المدينة المنورة ، حيث كان الرسول صلى الله عليه وسلم يبنى المجتمع الإسلامي ويناضل قوى الشر التي أرادت القضاء على هذا المجتمع ، وقد انتهزت هذه الفرصة لأقوم بدراسات وتحقيقات في مواطن الأحداث ، وسيرى القارئ نتيجة هذا الجهد في أمكنة متعددة من هذه الطبعة .

« وهذا يدفعني أن أذكر بالفضل وعرفان الحميل مجموعة الأصدقاء من « آل الأسطل » فقد أحسنوا استقبالي في الأرض المقدسة ، وهياؤوا لي وسائل الانتقالات والزيارات لمواطن الأحداث ، وما كنت بدون عونهم قادراً على أن أحقق الأغراض السامية التي حققتها ، فالشكر لهم ، وأسأل الله لهم حسن الجزاء ،

« ولست أنسى أن أشكر القراء على إقبالهم وتشجيعهم ، فقد فاق ذلك كل تفاؤل وكل أمل .

« وشيء آخر أضعه في القمة دائماً من مقدمة كل كتاب في طبعته الأولى

أو في أية طبعة من طبعاته ، ذلك هو الشكر العميق لله كثير المنن ، على ما أسدى ووهب ، فبعونه وإلهامه تحققت الأسر لما تصادف من نجاح .

« يارب ... ، مزيداً من العون ومزيداً من التوفيق لنصل إلى الغاية التي نرجوها ويرجوها منا القراء ، لنعمل بذلك مع العاملين لخدمة الإسلام والمسلمين » .

إضافات للطبعة السابعة :

أما الطبعة السابعة فقد حظيت بالإضافات التالية :

— المقدمة الفسيحة التي شملت لأول مرة دراسات عن مجال التاريخ

الإسلامي ، وتفسير التاريخ ، وفلسفة التاريخ ، ومبدأ الالتزام في التاريخ

الإسلامي ، وغيرها من القضايا التي تهم الباحث بوجه عام والمؤرخ بوجه خاص .

— دراسة الاتجاهات الاقتصادية عند العرب قبل الإسلام ، وهو لون جديد من دراسة الحياة العربية .

— بحوث عميقة لتصحيح انحرافات حول الإمراء والمعراج .

إضافات للطبعة الثالثة عشر :

أما الإضافات في الطبعة الثالثة عشرة فسنشير لها في المقدمة الخاصة بهذه الطبعة فيما بعد .

وسنظل دائماً نكديح ونسجد ، فسيرة سيدنا رسول الله ثروة ضخمة تفتن من حين إلى حين عن نواح من العظمة وصور من المجد ، والتاريخ الإسلامي حافل زاخر كالبحر كلما خضت فيه وجدت فيه ألواناً من الجواهر والآلاء .

والشكر لله واهب النعم ، والموجه للخير ، الفاتح طرق المعرفة ، ولا يملك العبد إلا شكر سيده .

وثناء عميقاً للقارئ الكريم الذي استجاب لي عندما أقبلت عليه وعملت له ، فأقبل على واحتفى بجهدي ، ودفعني إلى العمل الدائب المتصل .

واقه نسال أن ينفعنا بهذا الجهد ، وينفع به القراء ، ويجعله مشعل هداية
للباحثين عن الهداية .
وهو نعم المولى ونعم النصير ؟

مقدمة الطبعة الثالثة عشرة

في هذه المقدمة لأملك إلا شكر الله العلي العظيم على ما منح وأعطى ،
وأسجد له وأركع تقديراً لِنِعَمِهِ وتوفيقه ، وما كنت بذون ذلك بقادر على
تحقيق ما تمنيت .

ولقد عشتُ مع الرسول صلوات الله عليه ودحاً من الزمن عند ما كنت
أعيد تدوين سيرته العطرة ، ونعمتُ بصحبته ، وتدفقتُ على الإلهامات
والفيوضات خلال هذه الصحبة الكريمة ، وما إن أنعمتُ كتابة السيرة
النبوية ، من جديد ونشرتها ، حتى توالى الإقبال عليها ، كما كان الناس على
موعد مع ظهورها ، مما جعل الطبعة العاشرة تنفذ في وقت قصير ، فأسرعت
بإخراج الطبعة الحادية عشرة والثانية عشرة ثم الثالثة عشرة التي أضعتها الآن
بين أيدي القراء .

وكنت بعد ظهور الطبعة الثانية عشرة قد قدّمت في إذاعة القرآن الكريم
بالقاهرة بعض حلقات عن سيرة الرسول ، وبخاصة عن أسرته ونشأته ،
ولم أقنع في تقديم هذه الحلقات بما ورد في هذا الكتاب ، بل أضفت
الكثير إليه ، وقد أثبتتُ هذه الزيادات في هذه الطبعة الجديدة .

وقبيل إخراج هذه الطبعة تلقيتُ دعوةً من الأستاذ الدكتور محمد
عبد الرحمن الربيع عميد البحث العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
بالمملكة العربية السعودية ، يدعوني فيه لكتابة كتاب لمركز البحوث
بالجامعة عن « السيرة النبوية » ، ففرحت بهذه الدعوة ، ولّمتُ بهذا العمل
بأقصى ما أستطيع من الإجاداة ، وقد أدخلت في هذه الطبعة بعض ما جاء
في هذا الكتاب مما رأيت ضرورته .

وفي هذه الطبعة أيضاً إبراز الخطر الذي تدفق على الإسلام والمسلمين من إيران ، والذي كان من ضحاياه عمر وعثمان وعلى رضي الله عنهم ، وقد قنع السابقون بالقول بأن قاتل عمر هو أبو لؤلؤة المحبسي ، وأن عثمان قُتل في ثورة ، وعلى قُتل في الحوارج ، والحق أنهم جميعاً قتلوا بمؤامرات فارسية يهودية سيجد القارئ تفاصيلها عند الحديث عن الخلفاء الراشدين في هذا الجزء .

إن السيرة النبوية نموذج ينبغي على المسلمين أن يتعرفوا عليه ، ويتقنوا به ، وقد بذلت أقصى الجهد لأبرز سيرة القدوة ، وعلى المسلمين أن يبذلوا الجهد لمحاكاة هذه السيرة ، وصدق الله العلي العظيم الذي يقول : ولقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة .

ومن الحق أن أقدر أن كل جهد مخلص يجد جزاءه عند الله وعند الناس ، في المدى القريب ، أو المدى البعيد ، والله يشهد مدى الجهد الذي أبذله في كل ما أكتب وأدون ، وأن هدي الذي لا أحيد عنه هو مرضاة الله أولاً ، وخدمة مصر الحبيبة والعالم الإسلامي ثانياً .

وقد نلت جزاء طيباً بإقبال الناس على عملي ، مما يستدعي أن أشكرهم أعمق الشكر ، وأعاهدكم على الاستمرار في مواصلة الجهد في كل عمل ، بحيث يظل هذا القلم مسخرأً لكلمة الحق ، غير طامع إلا في إرضاء الله وإرضاء القيم الإسلامية .

ولمى اللقاء في الكتب الأخرى والطبعات التالية إن شاء الله

دكتور أحمد شلبي

المعادى في الثالث من يوليو سنة ١٩٨٨

مقدمة الموسوعة

دراسات حول علم التاريخ وفلسفته

ومراحل البحث فيه

- نطاق التاريخ الإسلامى
- تفسير التاريخ
- هل التاريخ علم ؟
- مراحل البحث التاريخى .
- فلسفة التاريخ
- فائدة التاريخ
- مبدأ الالتزام فى كتابة التاريخ الإسلامى
- الحضارة الإسلامية
- مشكلات حول تدوين التاريخ الإسلامى:
- (أ) المراجع القديمة والدراسة التحليلية الحديثة
- (ب) أقطار فسيحة منسية .
- (ج) مصادر مهمة تجاوزها المؤرخون
- (د) التاريخ الإسلامى جزء من الدراسات الإسلامية
- (هـ) فقدان الروح الإسلامية فى كثير مما كتب حديثاً
- (و) أخطاء شاعت ينبغى تصحيحها
- علم التاريخ بين المسيحية والإسلام
- سياسة التجميع والتنسيق
- كلمة عن المراجع والمكتبة التاريخية

نطاق التاريخ الإسلامى

التاريخ الإسلامى هو تاريخ الشعوب والدول الإسلامية منذ دخلها الإسلام حتى العهد الحاضر ، وبهذا فالتاريخ الإسلامى طويل طول القرون الأربعة عشرة التى اجتازها ، واسع سعة الرقعة التى يشغلها من المحيط الأطلسى إلى المحيط الهادى ، متماسك تماسك مبادئ الإسلام التى يباشرها المسلمون على هذه الخريطة النفسية .

ولدى الدين الإسلامى فرصة لمزيد من الانتشار ، فإنه يتصل بأرض بكر ، وبشرب تتطلع للأديان ، ومن الممكن أن تجذب الكثيرين من هؤلاء للإسلام لو ربينا جيلا من الدعاة يحسن تقديم الإسلام للناس ، وعلى هذا فخريطة العالم الإسلامى مفتوحة قابلة للامتداد ، بخلاف خريطة المسيحية التى قفلت عليها أوروبا وأمريكا ، ولا تجد مجالا واضحا للامتداد ، بل إن مسيحية أوروبا مزعزعة بعيدة عن مسيحية عيسى ، وبعيدة عن الأديان ، مما قد يجعل أوروبا وأمريكا مجالا للدعوة الإسلامية لو صحت همة المسلمين .

وفى الجامعات المصرية وغيرها من الجامعات نجد ألقاباً مختلفة قد تعرض صورة تختلف عن الصورة التى رسمناها عن مدى التاريخ الإسلامى ، ففى هذه الجامعات نجد أستاذاً للتاريخ الإسلامى ، وأستاذاً للتاريخ العصور الوسطى وأستاذاً لتاريخ مصر أو تاريخ الباكستان الحديث ، مع أن تاريخ الدول الإسلامية خلال العصور الوسطى جزء من التاريخ الإسلامى ، وتاريخ مصر الحديث أو تاريخ الباكستان أو أندونيسيا الحديث ، جزء من التاريخ الإسلامى كذلك ، والحق أن هذه التسميات ليست إلا وسيلة مالية خلقها التخطيط الجامعى ليرفع بعض الأساتذة المساعدين إلى كرامى الأستاذية أيام كانت هناك كرامى

للأساتذة ، أما التاريخ الإسلامى لقطر فيبدأ عندما يصبح معتقوه أغلبية في هذا القطر ، ويظل التاريخ الإسلامى ما بقى الإسلام ، ومن هنا انجهدنا في هذه الموسوعة لدراسة تاريخ العالم الإسلامى كله في جميع العصور وجميع الأنحاء ، فكل هذه الأزمنة وكل هذه الأمكنة مجال لهذا التاريخ .

تفسير التاريخ

هناك مدارس أو اتجاهات مختلفة حول تفسير التاريخ وبيان الدوافع التى تحرك الأمواج التاريخية الكبرى ، فالماديون يرون أن المادة و الاقتصاد هو المحرك الرئيسى للتاريخ ، وأن كبريات الأحداث التى غمرت الكون نشأت بسبب الصراع على المادة ، ويتخذون من حروب طروادة ، ومن الصراع القديم بين الفرس واليونان (١) . ثم بين الفرس والروم ، ومن الدوافع التجارية فى الحروب الصليبية ، ومن الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية ، دليلاً على ذلك .

ويُعد أرنولد هيرن (Arnold Hearen) ١٦٧٠ - ١٧٤٢ ، من أسبق من تبناوا هذا الاتجاه ، ثم تزعمه الفكر الماركسى الذى يقرر أن أحداث التاريخ لا ترجع إلى بواعث فكرية ، بل تبرز هذه الأحداث تبعاً لظروف الحياة المادية ، وبالدافع الاقتصادى .

وعلى هذا ، فالفكر - عند الماركسيين - لا يحرك أحداث التاريخ إلا بعد أن تعتنقه الجماهير وترى فيه عوناً مادياً للخلاص من قوة مادية أخرى ، فالقوة - كما يقولون - لا تقاوم إلا بالقوة ، ولكن النظرية تصبح قوة مادية عندما يعتنقها الجماهير ، فالفكر والمادة يتعاشان فى وحدة يؤثر كل منهما على الآخر ويتطور معه .

(١) دونها هيرودوت أبو التاريخ (٤٨٤ - ٤٢٥ ق م) .

وهناك اتجاه آخر يرى أن الجانب الروحي والفكرى هو أهم تفسير للتاريخ ، وأن معظم الهزات العالمية كانت نتائج للاتجاهات الروحية : فالصراع بين قريش والمسلمين كان دينياً ، والحروب الصليبية كان دافعها الرئيسى دينياً ، والصراع بين الأرثوذكس والبروتستانت كان دينياً كذلك ، وكذلك كان الصراع الذى اندفع له الخوارج فى التاريخ الإسلامى .

ومن الواضح أن الاتجاه الفكرى معترف به عند الماديين ، ولكنهم كما أوضحنا آنفاً لا يرونه ذا بال إلا بعد أن تعتنقه الجماهير ، أما أصحاب المذهب الروحى فيرون الاتجاه الفكرى قوياً حتى قبل أن تعتنقه الجماهير . فسموه المسيحيين أمام الرومان الوثنيين ، وصمود القلة المسلمة أمام قوة قريش العاتية التى كان العرب يؤيدونها فى مطلع الإسلام ، كل ذلك خلق من الفكر قوة ، ووجهه البقاء حتى استطاع أن ينتشر ويزدهر ، ولم يكن زحف المسلمين على إمبراطوريتى الفرس والروم مؤيداً بالقوة بمقدار ما كان مؤيداً بالفكر والرغبة فى إحدى الحسينين .

وهناك اتجاه ثالث يفسر التاريخ تفسيراً نفسياً ، فيرى أن أعظم أحداث التاريخ ارتبطت بصراع نفسى لدى شخص معين ، استطاع بطريق أو بآخر أن يحصل على سلطة مادية أو معنوية ، فهو بدافع الصراع النفسى والحقد الداخلى من جانب ، وبقوة السلطة التى حصل عليها من جانب آخر ، يدفع بالجميع إلى الصراع لسبب أو لآخر ، فيخلق الأحداث الكبرى وينظر لها نظرة ترضى انحرافه ، ويقف فى قمة من تصرف على هذا النحو الزبيح بن يونس وابنه الفضل اللذان شغلا أرق المناصب فى قصور الرشيد والأمين ، وعاصرا البرامكة وآل سهل ، مع الفرق الكبير فى المعتقد والأرومة ، فدفعها للصراع النفسى إلى خلق المؤامرات ، وإشعال الحروب العاتية (١) ،

(١) انظر الدراسة النفسية ضهماً فى الجزء الثالث من هذه الموسوعة .

ثم يجيء كارل ماركس الذى عانى الجوع والاضطهاد اللذين قدفع من سهام البروليتاريا إلى ثورة عارمة لم تنته بعد .

والذى يبدو لى أن وضع حواجز حصينة بين هذه الدوافع لا يمكن أن يتم ، فكل منها دافع له وزنه ، وقد يوجد دافعان منها أو توجد الدوافع الثلاثة كلها متعاونة فى حدث واحد . ويتضح ذلك من دراستنا للحرب الصليبية التى تعاونت أسباب عدة فى خلقها^(١) .

هل التاريخ علم ؟

فى مطلع القرن العشرين أعلن الدكتور ج . ب . بيورى J. B. Bury (١٨٦١ - ١٩٢٧) « أن التاريخ علم » ثم كرر هذا الأستاذ إعلانه عدة مرات فى محاضرات متتالية ، وقد أثار هذا الإعلان رأى كثير من الباحثين فى العلوم والآداب ، وشب نزاع خطير حول هذه القضية .

واتضح من الصراع أن تحديد لفظى « العلم » و « التاريخ » كان له دخل كبير فى تقريب وجهات النظر ، أو فى تحسم الخلاف ، فاللورد أكتن (١٨٣٤ - ١٩٠٢) عرف العلم بأنه « اجتماع طائفة كبيرة من الوقائع المتشابهة بحيث تنشأ عن اجتماعها وحدة عامة على هيئة مبدأ أو قانون يمكننا على وجه اليقين من التنبؤ بحدوث وقائع مشابهة للوقائع المذكورة فى ظروف معينة » وبناء على هذا التعريف لم يعتبر اللورد أكتن ومن أخذ برأيه فى تعريف العلم أن للتاريخ علم .

ولكن تعريف اللورد أكتن للعلم ليس موضع اتفاق لأن علم الميثولوجيا لم يصل إلى قوانين دقيقة خاصة بالجو، ومن هنا شاع الخطأ فى تنبؤات الخبراء

(١) انظر الحديث عنها فى الجزء الخامس من هذه الموسوعة .

من جو ، ومع هذا فلا نستطيع أن ننفي صفة العلم عن الميثولوجيا ،
وبهذا سقط تعريف اللورد أكتن للعلم ، وبالتالي سقط استبعاد التاريخ
عن دائرة للعلم .

وانجى الرأى لتعريف العلم بأنه المعرفة المنظمة المبنية التى تؤسس على
البحث الذى لا يتبع هوى النفس ، على أن يكون قد رُدَّ إلى المبادئ
ثلاثة . التصنيف - التوبىب - التقنين .

هل ، تاريخ العلم بناء على هذا التعريف الجديد ؟

قبل أن نجيب عن هذا السؤال نقرر أن التاريخ ليس هو عملية التدوين
معينية بتدوين ضئى لإنشاء أدنى ، واللفظ الدقيق لهذا المعنى هو « تأريخ »
أى كتابة التاريخ .

أما التاريخ فمرحلة تسبق التأريخ والكتابة ، وهو يعنى البحث فى أسوال
السابقين ، وما خلّفوا من آثار ووثائق ثم نقدّها وتأويلها ، والمعرفة عن
طريقها ، وذلك هو المعنى المقصود عندما نستخدم كلمة « تاريخ » وهو
بتلك يشمل الاستقصاء والبحث وطلب الحقيقة ، ثم إنه يتبع مبادئ
التصنيف والتوبىب والتقنين ، وبهذا يكون التاريخ علماً .

وتبعاً لهذا الاتجاه أدخل رينان سنة ١٨٤٨ العلوم التاريخية فى مؤلفه عن
« مستقبل العلم » وردد فوستل ديكلاند (١٨٣٠ - ١٨٨٩) هذا القول
مراراً ، ومن ذلك ما جاء فى كتابه (العصر الوسيط) ونصه : التاريخ علم
لا يتخيل بل يرى ، وهو نظير كل علم ينظر إلى الأحداث ويحللها ويقارن
بينها ، ويحقق الروابط القائمة بين بعضها والبعض ، والمؤرخ يبحث
عن الحدث ويدركه بدرس النصوص بإمعان ودقة وهى نفس الطريقة المتبعة
فى كل علم مؤسس على الملاحظة الدقيقة (١) .

ويبقى سؤال بعد ذلك هو : من أى أنواع العلوم يعتبر التاريخ ؟

الإجابة عن ذلك يوردها Hearnshaw بقوله : التاريخ علم ، ليس علم نقد وتحقيق ، وأقرب العلوم الطبيعية شهاً به الجيولوجيا . فكما أن الجيولوجى يدرس الأرض كما هى الآن ليعرف بقدر المستطاع كيف صارت إلى حالتها الحاضرة ، فكذلك المؤرخ يدرس الآثار المتخلفة عن الماضى ليفسر بواسطتها ويقدر إمكانه ظاهرة الحاضر ، وكما أن الجيولوجى يجد مادته الأساسية فيما سلم من نفايات الطبيعة من أدلة قليلة تثبت التطورات الجيولوجية القديمة ، فكذلك المؤرخ يعتمد فى معرفة الوقائع الماضية على آثار مادية أو سجلات ، سلمت مصادفة واتفاقاً من عوادم الزمن التى لا تبقى ولا تدر ، وهذه الآثار والسجلات هى الحقائق المحسوسة الحاضرة التى ينصب عليها عمل المؤرخ وهى مادة علمه ، وهى ليست ذات قيمة وهامة لذاتها ، ولكن لدلالاتها على الوقائع الماضية ، ثم هى لا تدل على الوقائع الماضية مباشرة ، ولكن بواسطة الضوء الذى يلقى عليها فكر الباحث (١) .

مراحل البحث العلمى

وبمناسبة الحديث عن التاريخ والتأريخ نقرر أن المؤرخ يمر بمراحل ثلاث قبل أن يبدأ فى التدوين : والمراحل الثلاث تكون التاريخ ، أما عملية التدوين فهى التأريخ ، والمراحل الثلاث هى :

أولاً — مرحلة جمع المادة التاريخية ؛ وهذه المرحلة خطيرة للغاية ، لأن المؤرخ كثيراً ما يصادف وقائع لا تخصى متصلة بالفترة التى يؤرخ لها ، وهذه الوقائع لا يمكن أخذها جميعاً ، وعملية الاختيار منها عملية صعبة للغاية ، وليست هناك قاعدة يسير عليها المؤرخون ، ويقول هرنشو^(١).

لو عهد إلى مؤرخين أن يصفوا حركة من الحركات ، أو حادثاً من الحوادث فمن المرجح ألا يتفقا فى القول بأهمية نواح منه بعينها ، لقد كان قدماء المؤرخين يستهويهم من شئون البشر كل ما كان شاذاً ، أو درامياً ، أو حماسياً ، أما المؤرخ العلمى الحديث فأميل إلى أن يختار ما بين يديه من مواد غير متناهية مجرد الحقائق التى يرى أنها تعينه فى بيان تطور المجتمع الإنسانى إلى حالته الحاضرة . وتعتبر الوثائق المكتوبة أعظم المصادر التى تساعد على بلوغ هذا الغرض ، نعم إن هناك مصادر أخرى على شكل مبان وحصون ونقوش ، بل وعلى شكل رواية شفوية أيضاً ، إلا أنه قد بلغ من فضل الوثائق المكتوبة على غيرها أن قيل « لتاريخ بدون وثائق » ثم إن تجميع المواد من الوثائق يقتضى ملكة فنية عالية ، ودراية علمية فائقة بفقہ اللغة وقراءة النقوش ، والقدرة على الغوص فى أعماق المحيط لإخراج اللآلىء ، وكما أن على المؤرخ أن ينتقى أنفع ما عنده من الوقائع التى لا تخصى ،

فإن عليه أن يسمى إلى إضافة كل الوقائع المتيسرة التي يمكن أن يستفيد منها بحته .

ثانياً : مرحلة النقد ؛ وفي هذه المرحلة يفحص المؤرخ ما جمع من مادة تاريخية ليتأكد من صحة أصلها ، ودقة روايتها ، وكون عبارتها قابلة للتصديق ، ولهذا يتحتم على المؤرخ أن يكون على علم بالاتجاهات الفنية المعمارية التي سادت في العصر الذي يدرسه ليتحقق من نسبة الآثار المعمارية إليه ، وأن يعرف ظروف المؤرخين الذين يقتبس منهم ، ومدى ما استمتموا به من حرية ومواهب وخلق .

ثالثاً : مرحلة التأويل ؛ وهي أشق المراحل الثلاث وأصعبها مراما ، ففيها تنجلي عبقرية المؤرخ وسعة خياله بحيث يصبح قادراً على السبح في أعلى الأجواء دون أن يخرج من نطاق الحقيقة ، وسيصادف المؤرخ عقبات جساماً منها ما يتصل بقله الوثائق والمادة التاريخية ، ومنها ما يتصل باختلاف الظروف والقيم بين العصر الذي وقعت فيه الأحداث وعصر المؤرخ ، ومنها ما يتصل بانحراف بعض ما وجدته من كتابات لسبب أو لآخر ، ولكن المؤرخ يتحتم فيه رجحان العقل وال عاطفة جميعاً ليستطيع أن يرسم الصورة التي تعد أقرب إلى الحقيقة ، وأن يصفى عليها من التأويل ما يجعلها واضحة مقبولة .

وبانتهاء هذه المراحل الثلاث يصل المؤرخ إلى مرحلة التأريخ ، وينبغي أن يكون واضحاً أن كل حقيقة تاريخية تعتبر وحدة قائمة بذاتها ، وعلى هذا فلا يؤخر المؤرخ كتابته في كل موضوعه حتى تتم له هذه المراحل في كل الموضوع ، ويجوز له أن يعتنق رأي Edward Carr الذي يقول^(١) .

وفيا بتعاقب بي فلاننى بمجرد أن أطلع على ما أعتقد أنه مراجعى الرئيسية
تزداد لفتى إلى الكتابة وأشرع فيها ، ليس ضروريا من البدء ، بل من
أى موضع ، وعقب ذلك تستمر القراءة والكتابة ، فيضاف إلى الكتابة التى تحت
أو يحذف منها ، أو يعاد تنظيمها ، أو تستبعد ، فى نفس الوقت الذى أقرأ
فيه ، وتسير القراءة الكتابة وتوجهها ، وتجعلها مثمرة ، وكلما استمرت
الكتابة ازدادت معرقى بما أبحث عنه ، وازدادت فهما لأهمية ما اعتديت
إليه ، ومن المحتمل أن يقوم بعض المؤرخين بهذه الكتابة
التحضيرية فى أذهانهم دون استخدام القلم والورق أو الآلة الكتابة ، كما
يلعب بعض الناس الشطرنج فى رؤوسهم دون رجوع إلى اللوحة والقطع الخشبية ،
إنما لمهوبة أحدهم عليها ، ولكنى لا أستطيع أن أجاريهم فيها ، ولانى
على يقين أن العمليتين اللتين بسميهما الاقتصاديون (وارد ومنصرف) يتبان
فى نفس الوقت عند أى مؤرخ جدير بهذا الاسم ، وأنهما من الناحية العلمية
جزءان من عملية واحدة .

فلسفة التاريخ بين الإهمال وسوء الاستعمال

فلسفة التاريخ هى التعليق على الحدث التاريخى ، وبيان أسبابه ، وذكر
فروض مختلفة حوله ، مع محاولة الإجابة عن هذه الفروض ، وإذا استلطنا
أن نجرد الحدث التاريخى عن الفلسفة فإن هذا الحدث يمكن أن يقبله أكثر
المؤرخين كأن نقول : الحلفاء انتصروا فى الحربين العالميتين الأولى والثانية ،
وقد قلنا إن هذا الحدث يقبله أكثر المؤرخين ، ولم نقل يقبله كلهم لأن بعض
المؤرخين لا يرى الحدث قد انتهى بعد ، ويتوقع أن تكون هناك جولات
أخرى تغير من النتائج ، وعلى كل حال فالتحلاف حول الحدث التاريخى أضيق
جداً من الخلاف حول فلسفته ، فإننا إذا تساءلنا : لماذا انتصر الحلفاء ؟ فإن
الإجابات تختلف من شخص إلى شخص ومن فكر إلى فكر ، ومن يوم
إلى يوم ، والمؤرخون القدامى قلما كانوا يعنون بفلسفة التاريخ ، وقد اتجهوا

في الغالب إلى مرد الأحداث بدون تعليق أو بتعليق خفيف ، فلما جاء العصر الإسلامي ظهر مع القرآن الكريم ما يسمى بأسباب النزول ، وظهر في التشريع حكمته ، ودوران الحكم مع العلة وجوداً وعدمًا ، فانفتح الباب بذلك للحديث عن فلسفة التاريخ ، ثم حدث شيء مهم في الإمبراطورية الإسلامية فخلق بوضوح فلسفة التاريخ ، وذلك هو ما أصاب العالم الإسلامي من ضعف وتدهور ، وما نزل به من مخطوب جسام ، فانجم المؤرخ ابن خلدون (٨٠٨ هـ) بسبب ذلك انجماً فلسفياً عميقاً ليتعرف علل الحوادث وأسباب قيام الدول وعلل سقوطها ، ومظاهر العمران وأصول الاجتماع ونحو ذلك ، وأصبح ابن خلدون بذلك فيلسوف مؤرخي العرب قاطبة ، وأصبحت « مقدمة ابن خلدون » عملاً رائداً في هذا المجال ، وعدت بحق أول عمل من نوعه وضع الأساس وشيد البناء حول ما يعرف بفلسفة التاريخ .

والتقط الأوروبيون هذه النظرية في اللقاءات التي تمت بين المسلمين والأوربيين في الأندلس وفلسطين وصقلية ، تلك اللقاءات التي يقول عنها Hearnshaw (١) : لقد خرج الصليبيون من ديارهم لقتال المسلمين ، فإذا هم جلوس عند أقدامهم ، يأخذون عنهم أفانين العلم والمعرفة ، لقد بُهت أشباه الهمج عندما رأوا حضارة المسلمين التي رجحت حضارتهم رجحانا لا تصح معه المقارنة بينهما .

وراح الأوروبيون يستعملون فلسفة التاريخ بعد ذلك في التعليق على الأحداث التاريخية ، وأصبحت فلسفة التاريخ شديدة الأهمية منذ ذلك الوقت ، فلم يعد الحدث التاريخي يمتأى عن فلسفة التاريخ ، وإنما تم امتزاج بين الحدث وبين فكر المؤرخ ، أو أصبحت صلة المؤرخ بموضوعه — كما يقول Edward Carr صلة الإنسان ببيئته (٢) . ويقرر Carr أيضاً أن وقائع التاريخ

(١) علم التاريخ ص ٦٤ من الترجمة العربية .

(٢) ماهو التاريخ ص : ٣٨ - ٢٩ و ص ١٥٣ - ١٥٤

(التاريخ ١ : ٢)

لا يمكن أن تكون موضوعية صرفه لأنها وقائع التاريخ ، وذلك بسبب ما أسبق المؤلف عليها من تأثير لا يحصى عنه ، والموضوعية في التاريخ - إذا أصررنا على استعمال هذا الاصطلاح - لا يمكن أن تكون موضوعية واقعية بل موضوعية صلة فحسب ، أى الصلة بين الواقعة والتفسير ، وبين الماضي والحاضر والمستقبل ^(١) ، ويقرر بوليب أننا إذا انتزعنا من التاريخ البحث عن الأسباب والأساليب والأهداف التى حركت الإنسان وأعمالنا حراسة النتائج التى توخاها من عمله ، ونسبة ما استهدف إلى ما حصل عليه ، فلن يبق من التاريخ سوى تمارين أدبية لا عبرة فيها ، ومتمعة للأذان وملهية للأذهان لا نتيجة لها فى مستقبل الأيام ^(٢) .

وفى العصر الحديث كان المستشرقون أسبق من سواهم فى مزاوله فلسفة التاريخ الإسلامى ، فراحوا يتخلدون من كل حدث الجانب الذى يرضى اتجاههم فى مهاجمة الإسلام ، فإذا كانت هناك حروب بين المسلمين من جانب وبين الروم والفرس من جانب آخر ففسروا ذلك بأن الإسلام انتشر بالقوة ، ومواقف المسلمين من اليهود بالجزيرة العربية ، وتعدد زوجات الرسول ... فسرت كلها بما يهاجم الإسلام ويؤذى شعور المسلمين ، وسار على هذا المنوال الباحثون المسيحيون على العموم حتى الذين يتحدرون من أصل عربى فإنك إذا قرأت تاريخ العرب للدكتور فيليب حتى هالك ما به من تحيزات وتعليقات لا تكاد تخلو منها صفحة من صفحات كتابه الكبير .

ومهمة الباحث الحديث أن يعيد النظر فى هذه التأويلات الجائرة التى اتُخذ بعضها مع الزمن على أنه شىء مسلم به ، مع أنها لا تثبت أمام البحث العلمى العميق كما منرى فى هذه الموسوعة .

(١) Edward Carr : What is History p 153 - 154

(٢) نقل عن جوزيف هورس : قبة التاريخ ص ٢٥ من الترجمة العربية .

فائدة التواريخ

هل يختلف المفكرون في أن للتاريخ فائدة ؟

نستطيع أن نجيب بأن جميع المفكرين يرون في التاريخ فائدة ، ولكنهم يختلفون في نوع هذه الفائدة ومدادها ، ولعل أهم الآراء التي تقلل من قيمة التاريخ هو رأي Sir Ray Lankester الذي يرى أن فائدة التاريخ تنحصر في أن قراءته للذينة ، وأنه منسلةٌ يُتَسَلَّى بها . وهناك باحث آخر هو الأستاذ J . W. Allen يرى أن للتاريخ فائدة غير مباشرة : فيقرر أن دراسة التاريخ تنشط الفكر وتفتحه وتساعد بطرق شتى ، فهو بذلك أداة لرياضة العقل ^(١) ، ويذكر أبو التاريخ هيردوت أنه يدون تاريخه كيلا يطمس الزمان أعمال الرجال ، وكيلا تبقى المآثر الكبرى والإنجازات الباهرة بلا تمجيد ولا إعجاب .

بيد أننا لو عرفنا طبيعة التاريخ لأدركنا جوانب كبيرة الأهمية من فائدته الواقعية ، فالتاريخ ليس سرّداً للماضي ، وليس عودة للوراء ، إنما هو عمل لخدمة الحاضر وخدمة المستقبل ، ولنعُد إلى تلك الدراسة الممتعة التي كتبها Edward carr عن ماهية التاريخ ، وفيها يقول : إن المؤرخ لا يتبع الماضي بل الحاضر ، وإن مهمة المؤرخ ليست أن يعيش الماضي أو يتحرر منه ، بل أن يلم به ويفهمه باعتباره مفتاحاً لفهم الحاضر ، والذي يقرأ ما كتبه المؤرخون الفرنسيون عن الثورة الفرنسية قبل الثورة الروسية (١٩١٧) وبعدها ، يدرك الفرق الكبير في الاتجاهين ، ويعرف تأثير الثورة الروسية على كتابات الذين جاؤوا بعدها ، مما يؤكد تأثير المؤرخ بالحاضر ، وانفعاله بأحداثه ، وهو يكتب عن الماضي ^(٢) .

(١) Hearnshaw : علم التاريخ ١٥٧ ، ١٥٨

(٢) What is History p. 33 - 34

ومثل هذا ما يقرره Collingwood حين يقول^(١) : إن القديس أغسطين قد نظر إلى التاريخ من وجهة نظر المسيحيين الأوائل ، ونظر له نيلا مونت من وجهة نظر الفرنسيين في القرن السابع عشر ، وجيبون من وجهة نظر الانجليز في القرن الثامن عشر ، ومومش من وجهة نظر الألمان في القرن التاسع عشر ، فلا مجال للسؤال : أية وجهة نظر هي الصحيحة ؟ فكل وجهة نظر كانت هي الممكنة بالنسبة للرجل الذي اتبعها .

ويتمجه Hearnshaw نفس الاتجاه تقريباً حين يقرر أن دراسة التاريخ كانت هي من الأجيال من أجل توضيح الحاضر وإلهامه سبيل الرشاد^(٢) وأن التاريخ هو وحده القادر على أن يضع ظواهر الحاضر في وضعها الصحيح^(٣).

ويبرز المؤرخ الإيطالي المعاصر « نيوتوكروش » فائدة التاريخ للحاضر بقوله : إن التاريخ كله تاريخ الحاضر ، فنحن لانبغي حقاً من دراسة التاريخ غير التعرف على الإطار الذي نعيش فيه ومعرفة أصوله ، ولا يتسنى لنا معرفة الحاضر وتفسيره ما لم ندرك الماضي بالبحث في حقيقة وجوده .

وإذا تقرر أن التاريخ لخدمه الحاضر وفتح له ... فإن فائدة التاريخ تصبح أكيدة ، وإذا خالف مؤرخ هذا الاتجاه وعاش في الماضي وللماضي ، فإن عمله يكون قليل الجدوى ، لأنه بعيد عن الخط الصحيح للدراسة التاريخية .

بقي اتجاه آخر ينبغي شير إليه ونناقشه ، ذلك هو الرأي الذي يتمجه اتجاهاً مادياً ومحترم من العلوم ما يطبق تطبيقاً عملياً في شؤون الحياة كالطب والزراعة والهندسة ، وهناك رد شديد على هذا الاتجاه يهمل إلى القول بأن المواد

The idea of History p. xii (١)

(٢) علم التاريخ ص ٢٣ - ٢٢

(٣) نفس المرجع ص ٦٠

الصالحة للدراسة المدرسية والجامعية هي تلك التي لانشوب الاعتبارات النفعية
حصنو الاشتغال بها ، وتؤكد هذه النظرة أن الطبيب يباشر قلمراً ضئيلاً جداً
من ثقافته الطبية في الحياة العملية ، ويقتبس هرنشو قول أحد المربين الانجليز
« إن خير أنواع التربية هو ما نمى أعظم مقدار ممكن من قوى العقل ومداركه »
وهذا يصبح التاريخ عاملاً مهماً من عوامل التربية للفرد والمجتمع ^(١) .

والآن بعد هذا النقاش حول فائدة التاريخ نتجه إلى الفكر العربي
الإسلامي لثقتبس اتجاهاته في هذا المجال :

يقول ابن الأثير ^(٢) موضعاً فائدة التاريخ للفرد : إن ما يحصل
للإنسان من التجارب والمعرفة بالحوادث وما يصير إليه من عواقبها يجعله
لا يحدث له أمر إلا وقد مر به هو أو نظيره ، فيزداد عقلاً ، ويصبح
لأن يقتدى به أهلاً .

ويقول موضعاً فائدة التاريخ للدول والمجتمعات : إن من إلهم الأمر
والتهى إذا وقفوا على مآل وقائع التاريخ من سيرة أهل الجور والعدوان ،
ورأوا ما مدونة في الكتب يتناقلها الناس فيرونها بخلف عن سلف . . .
وما ترتب عليها من فساد وخرائب وهلاك . . . استقبحوها وأعرضوا
عنها ، وإذا رأوا سيرة الولاة العادلين وحسبنا ، وما فيها من الذكر الجميل
بعد ذهابهم ، وأن بلادهم وممالكهم عمرت ، وأموالها نمت استحسنا
ذلك ورغبوا فيه وثابروا عليه . . . هذا سوى ما يحصل لهم من معرفة الآراء
الصائبة التي دفع بها السابقون مضرات الأعداء وخلصوا بها من المهالك ^(٣) .
ويقول السخاوي ^(٤) :

إن الحديث عن ذوى المروءات والأجواد والمتصفين بالوفاء ومحاسن

(١) علم التاريخ ص ١٥٦

(٢) الكامل في التاريخ ج ١ ص ٧

(٣) الكامل في التاريخ ج ١ ص ٨

(٤) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص ٢٢ .

الأخلاق، والمروقين بالشجاعة والفروسية عبر التاريخ يثير في النفوس المهم والتطلع إلى معالي الأمور ، فالتاريخ جُمّ القوائد كبير النفع للنوى المهم العالية ، والقرائح الصافية ، لما جبلت عليه طبائعهم من الارتياح عند معارفهم هذه الأخبار إلى التشبه والاقتداء بأربابها ليصير لهم نصيب من حسن الثناء وطيب الذكر التي حرص عليها خلاصة البشر .

ويقول الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ (١) :

التاريخ ملزمة الأجيال يتعلم فيه الأحياء ما ينفعهم فيعملونه ، وما يضرهم فيجتنبونه ، وهو الجسر الذي يصل ماضى كل أمة بحاضرها ، وبقدرة العناية به ، والاهتمام بتدريسه تستطيع الأمم أن تبنى حياتها على أسس متينة وثابتة ، وكيف لا والحياة كلها بدورها الطويلة المتعاقبة ليست إلا تاريخاً أميناً ، فالיום هو حاضرك لكنه سيكون غداً في حساب تاريخك ، لا يعود إليك ولا تملك تغيير معامله ، والإنسان يبني واقعه على الماضي ، فأنت تلتقي بالأجداد فتشد نفسك إليها ، وتلتقي بالسوء من الأحداث فتحتجز نفسك عن انتهاج الطرق المؤدية إليها ، وإذا رأيت أمة قد اضطربت واختلطت عليها معالم الطريق ، فاعرف أنه في مقدمة الأسباب لذلك انقطاع الصلة بين ماضيها وحاضرها

ويبدى المؤرخون الأوروبيون اهتماماً كبيراً وهم يدونون التاريخ فيعلمون على إبراز فائدته للفرد والمجتمع ؛ ويلتقى عدد كبير منهم في اعتبار التاريخ وسيلة لتهديب الأخلاق والتربية ، فيقررون أن الفائدة الأخلاقية هي بوجه الدقة ما يجعل للتاريخ قيمة من حيث التربية ، يقول بولنجبروك : لقد بان لي أن دراسة التاريخ دون سواها أصلح الدراسات لتعويد الإنسان الفضائل الخاصة والعامة ، وقليل من الناس من يعارض اليوم في وجوب استخدام التاريخ أداة للإلقاء دروس في الأخلاق خارجة عن نطاق البحث التاريخي (٢) .

(١) تقديم كتاب عنوان الجد لا بن بشر .

(٢) Hearnshaw : في التاريخ ص ١٥٨ .

ولنذهب الآن إلى باحث أوروبي آخر لنراه يذكر من فوائد التاريخ مجموعة ذات بال ، ذلك الباحث هو Joseph Horne ، ونقتبس منه بعض لمحات :

- إذا وجهنا سؤالاً ملحاً للمؤرخ وطلبنا منه الإجابة عما يبرر في نظره مجهوده وصبره ، فلن يكتفى إذن بوصف ما يشعر به من المتعة الصافية ، ولن يكتفى بترديد قول ليون هلكان ، بأن الجانب العاطفي نحو القصص والحكايات يرضى نفسه ، وأن جمال القصص يتضاعف هنا بسبب واقعية الرواية والشعور بأن حوادثها حقيقة واقعة ، ولن يقف عند وصف اللذة العميقة الناتجة من معرفة الأشياء الغريبة ، على حد تعبير « لينتز » العظيم ، كما أنه لن يقف عند ذكر الخيلاء التي يشعر بها من يفرد بمعرفة بعض ما يحمله الناس ، بل هو سيجيب بأنه ما دام هدفنا أن نعيش فلا بد من الاستعانة بأى علم ، وألا نهمل علماً يعرفنا كيف عاش الناس قبلنا ، يقول المثل : إن التفرغ إلى الماء يعلم العوم ، ويمكننا القول بأن الحياة تعلم العيش ، وأن ملاحظة أعمال الناس في الماضي تضيف خبرة إلى خبرتنا ، وهكذا نعيش أعماراً كثيرة إذ نحن أضفنا إلى عمرنا أعمار من سبقونا من الناس ^(١)

- في كل لحظة تمثل في ذاكرة الإنسان صورا سواء منها ما كان حفوياً أو إرادياً ، كما تعود إلى ذهنه ذكريات عن أشياء أو حوادث عفا أثرها ، ولكنه عرفها ، وإذا شرع في أمر بدت له أمور مشابهة تمهد له الطريق وتهديه إلى سبل النجاح ، إذ هو يتجنب ما اتضح في الماضي غيباً للأمل وينهج المنهج الذي اختبر في الماضي نجاحه أو اختبره غيره من الناس ، والتاريخ في أبسط رسمه يبدأ عندما يتقوى المرء من بين ذكرياته المتناثرة ما يصلح نماذج لأعماله المستقبلية ^(٢) .

(١) جوزيف هورس : قيمة التاريخ ص ١٢ - ١٣ .

(٢) نفس المرجع ص ١٥

ويقتبس جوزيف هورس من تومسيد يد عبارة تفيد نفس المعنى وهى :
الفائدة التى يمكن أن تستمد من معرفة حقائق الماضى هى تقدير أقبسة
الحوادث المشابهة التى يمكن أن تتولد فى المستقبل من قرار الطبيعة المشتركة
بين البشر .

- لكل مؤسسة محفوظات ورفوف ، ولكل تاجر دفتاره ، ونحن
لا نستطيع أن نعيش وأن نعمل وأن نساير الزمان إلا إذا احتفظنا بالنظام
الوثيق مع الماضى .

- تربية النشء هى العمل الأسمى فى وظائفنا الإنسانية ، ولن تكون
تربية النشء صحيحة وكاملة إذا جهلنا ماضى سلالة من نربى ، وحياة أبوية
وجدوده ، وحالة البيئة التى ينتمى إليها ، والتقليد العائلى أساس متين لا يغنى
عنه التأديب فى أسلوب تربيوى مهما بلغ منهاجه من الكمال ، ودراسة النسب
لا يزال الجوهر الثابت لكل نشاط تاريخى .

وإذا قصدنا من التاريخ هذا المعنى ألفيناه عملاً حتمياً لا بد منه لكل
مجتمع بشرى ، فبدونه لا يوجد شعور باستمرار الوجود خلال الأزمنة ،
وبدونه لا نستطيع مجموعة من الناس التعرف على شخصيتها ولا يتكون عندها
وعى يجمع تراثاً مشتركاً جديراً بانتباه الناس ، فلا يبق من النسيان سوى
التاريخ ، وبدونه لا تنسجم الأجيال المتعاقبة ، كأنهم رجل واحد تلقنه الدهور
دروساً دائمة على حد تعبير بامسكال ، لذلك ننصم بالجمعية تلك الشعوب
التي تفتقر أشد الافتقار إلى ذكريات ماضىها وتنحصر أساليبها المعيشية فى
بعض ممارسات لا يحدون لتحسينها سيلاً بسبب ما يجهلون من أصولها التاريخية
العميقة الجذور (١) .

- من الحتم أن نصيف إلى خبرتنا خبرة الأجيال الماضية ، فالتاريخ

على حد تعبير بعض المفكرين الألمان هو (حاصل الممكنات التي تحققت) ، وهذا التحديد يوحى بأن هناك أشياء لم تتحقق على الرغم من معقوليتها ، والمؤرخ يختبر أعمال الإنسان ويتأمل في سير الحوادث ، فيستطيع توسيع خبرته وتمحيص معرفته بالطبيعة الإنسانية ، وذلك كالطبيب ، فإنه لا يتحكم في تطورات كل مرض عند كل مريض ، وهو كذلك يجهل النواميس التي تدور عليها دقائق التطورات ، ومع ذلك فلا بد من اللجوء إليه لأن خبرته في آلام الناس توحى بنصائح نافعة وعلاجات شافية ، والاطلاع على أفعال الإنسان السابقة يفيد في مسابقة التسلسل الحدثي ، وأحداث التاريخ لا تتكرر كما هي ، ولكن علم التاريخ يكشف خلال تطورات الإنسان نواميس وعوامل طويلة المدى يمكن الاستفادة بها في مقابلة حدث يحدث (١) .

وليكن ختام هذا البحث مقتبسات من كتاب علم التاريخ لهرنشو ، وهو يقرر ما ذكرناه آنفاً من أن التاريخ لا يعيد نفسه ، ولكنه يذكر أن تجارب الماضي تفيد عندما تُقدّم البشرية على عمل جديد مثلما يستفيد الإنسان بتجربته السابقة وهو يحاول عملاً آخر ، والتاريخ بالنسبة للإنسانية هو مستودع التجارب ، فكما يخزن الإنسان تجاربه الخاصة في ذهنه ليستفيد بها ، وفيما يلي كلماته : التاريخ لا يعيد نفسه ، ولكن على الرغم من ذلك يجد كل إنسان عندما يبلغ سن النضج والاكتمال أنه تهديه وتحمكه تجاربه التي تعيها ذاكرته ، ومبادئ السلوك التي يستمدّها من التجارب المذكورة ، وما يقال عن الفرد يقال عن الجنس الإنساني ، مع ملاحظة هذا الفارق الهام ، وهو أن الجنس الإنساني فاقده لما يتصف به الفرد من الشخصية والشعور الذاتي المستمر ، فليس للجنس ذاكرة طبيعية ، ولكيلا يفقد الثروة الضخمة المتجمعة من تجارب الماضي ، وجب أن تنشأ له ذاكرة ، وذاكرة الجنس الإنساني هي التاريخ .

(١) جوزيف هورس : قيمة التاريخ ١٠٧ - ١٠٨ بتصرف .

وهناك فائدة أخرى يشير لها هرنشو وخلاصتها تشجيع جيل من الأجيال لأعمال مجيدة بإشاعة مفاخر أجداده ، واتخاذ ذلك وسيلة لحث الجيل الحاضر على السير نحو تحقيق ماحققه الأسلاف من أعجاد ، وقد سار على ذلك بعض المؤرخين المحدثين في إثارة همم معاصريه^(١) ، بل اتخذ الأوروبيون المستعمرون التاريخ وسيلة لتحقيق أغراض سياسية استعمارية ، فراحوا في مستعمراتهم يسلكون لتحقيق أغراضهم الاستعمارية طريقاً ذا شعبتين ، الشعبة الأولى قطع هذه المستعمرات عن تاريخها ، بحيث بنشأ سكانها كالنباتات الطفيلية بدون جذور فلا يعرفون أصولهم ، ولا يعرفون شيئاً عن ماضى أسلافهم ، وبذلك لا يتمسكون بهذا الماضي ، ولا يحسون بالارتباط به ، أما الشعبة الثانية ، فهي أن يدرس المستعمر العرسي في المستعمرات الفرنسية تاريخ فرنسا ، ويدرس الإنجليز في المستعمرات الإنجليزية تاريخ إنجلترا ، ويقصدون بذلك خلق التقدير والرهبة في نفوس هؤلاء الطلاب عندما يتعرفون على أعجاد الأوروبيين ، وما خاضوه من معارك وما حققوه من نجاح عسكري وعلمي .

* * *

تلك لحة مريبة عن قيمة التاريخ ، وهي لحة تضع التاريخ في مكانه الحقيقي الجدير به بين مختلف العلوم والفنون .

وصدق الله العظيم حين قال : لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب^(٢) ، وصدق سيدنا رسول الله القائل (من ورّخ مؤمناً فكأننا أحياء) أى أحياء بخيره وشره ليكون قدوة أو عظة للأحياء .

التاريخ المتصل والتاريخ المنقطع :

بقى في إبراز فائدة التاريخ أن نوضح أن المؤرخ ومعلم التاريخ يلتزمان

(١) هرنشو : علم التاريخ ١٦٠ - ١٦١ .

(٢) سورة يوسف الآية ١١١ .

يلبراز هذه الفائدة ، وذلك بخلق ما يسمى في المناهج التاريخية بـ « التاريخ المتصل » ونحاشي « التاريخ المنقطع » بقدر الامكان .

ومعنى التاريخ المتصل أن يوضح المؤرخ ومعلم التاريخ الصلة بين الحاضر وبين المعالم والأحداث التاريخية ، فيركّز على إظهار القيم العليا في التاريخ وجهود الأبطال والقسم ، مع بيان ما خلفته هذه الجهود من فوائد وما تركته من آثار ، وفي مقابل هذا يوضح أن المجتمع الحالي في حاجة للتأسي بالماضي . والانتفاع بتجارب السابقين لينال المصلحون في الحاضر ما ناله المصلحون في الماضي من خاود ومن ذكر طيب . ويقف المؤرخ كذلك ومعلم التاريخ عند انحرافات صانعي التاريخ في الماضي ، فيوضح أن هذه الانحرافات عادت على البلاد والعباد بالويل والنساد ، وأن الذين قاموا بهذه الانحرافات لم ينجوا في النهاية إلا الخزي وسوء الذكر ، ويحذر أن يقع المعاصرون في مثل هذه الهاوية .

ذلك هو التاريخ المتصل الذي يربط بين أحداث الماضي وواقع الحاضر بكل صور النقد والمقارنة ، والأمثلة على ذلك كثيرة تمتد عبر التاريخ الإسلامي طوال العصور وفي جميع البلدان ، حيث تقابل الصالح والطالح ، وحيث يتحتم أن نخلق نوعاً من الارتباط بين الأمور المتناسبة والمقاربة في أحقاب الماضي وفي الزمن الحاضر .

أما التاريخ المنقطع فيتبعه المؤرخ ومدرس التاريخ الذي لم يتكامل وعيه ، وهذا النهج يضيع فائدة التاريخ ويجعله أقرب للقصص والأساطير ، وطريقته أن يجري الحديث عن حدث من الأحداث أو شخص من الأشخاص دون نقد أو مقارنة أو تعليق ، ومن هنا يجيء الحديث متقطعاً عن الحاضر ، ويكون في عزل عن مجريات الأمور ودنيا الواقع ، فيقل تأثير التاريخ وربما ضاع التأثير .

إن الاهتمام بالتاريخ المتصل يجعل التاريخ حياً نابضاً ، ويقوّي الارتباط بين العصور والأحداث ، ويحقق المعنى السامي الذي تحمله الآية الكريمة « لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب »

مبدأ الالتزام في كتابة التاريخ الإسلامى

إذا كان النقاد من الأدباء يرون أن فكرة الالتزام في الأدب فكرة حديثة ، وأنها وليدة هذا العصر ، ولم يعرفها للنظر القدي في العصور الماضية ، وأن المصطلح نفسه - يعنى الالتزام - مصطلح جديد في ميدان الأدب ، لم يستخدمه الأقدمون ولم يعرفوه^(١) ، أقول إذا كان النقاد من الأدباء يرون ذلك فإن المؤرخين والمفسرين المسلمين ، عرفوا الالتزام والتزموا به منذ مطلع الإسلام ، فكثيرون من المسلمين وقفوا ضد الإسلام بعنف فترات طويلة قبل أن يدخلوا الإسلام ، وأدرك الرسول بحكمته أن السابقين قد يعترضهم العجب والثبة ضد المتأخرين في دخول الإسلام فذكر أن الإسلام يحب ما قبله ، وأوصى بأصحابه جميعاً حين قال : لا تسبوا أصحابي ، فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أسد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه (صحيح مسلم) ، فهذا الموقف بالنسبة لأصحاب الرسول هو الالتزام بعينه .

وبعد وفاة الرسول قامت حروب بين المسلمين بعضهم والبعض كحرب الجمل وحرب صفين ، وقادها مسلمون من رجال الصف الأول كعلي بن أبي طالب ، كرم الله وجهه وكالسيدة عائشة وكطلحة والزبير ومعاوية بن أبي سفيان ، ومن انضم إلى هذا المعسكر أو ذاك من كبار صحابة سيدنا رسول الله ، واتجه أكثر المؤرخين إلى عدم الخوض في دراسة هذه المعارك بما يعنى إلى بعض الصحابة ، أو بصيغتهم بما لا يناسب قدرهم ، وهناك أراجيز وأشعار تحمل هذا المعنى أذكر منها قول الشاعر :

واحفظ رسول الله في أصحابه فقامهم بمقامه موصول

وقد صار أكثر المؤرخين المسلمين المعتدلين على هذا الدرب ، معتقدين
مبدأ الالتزام منذ أمد بعيد .

وفى الدراسات العلمية هناك اتجاه يرى دراسة العلم للعلم ، فتجرى تجاربه
للوصول إلى نتائج مقصودة لذاتها بصرف النظر عن فائدتها . فتند يكون
البحث مفيداً أو لا يكون ، ولعل الصعود للقمر في العهد الحاضر يعد مثالا
لهذا اللون ، فهو حدث ضخم ، وتقدم هائل في مجال العلم ، ولكن
لو سألتنا : ما فائدته ؟ لانجد إجابة واضحة حتى الآن ، وهذا الاتجاه ترف
علمي يعرف بأنه لا التزام فيه ولا غاية محددة له .

أما الاتجاه الغالب فهو أن العلم للحياة ، ويدخل في هذا كل التجارب
التي تجرى لزيادة الإنتاج ، والتقدم التكنولوجي ، والحصول على أدوية
للأمراض ، واختراع الجديد من الصناعات أو تحسين ما هو موجود
منها ... وهذه دراسات ملتزمة ، أى أنها دراسات لها هدف وفائدة
محددة مطلوبة .

فإذا جئنا إلى الفن وجدنا أنه مر بمراحل ثلاث ثم انتهى إلى الالتزام ،
وهذه المراحل تبدأ بمرحلة ارتباط الفن بالعقيدة الدينية ، وقد عبرت هذه
المرحلة فترة طويلة كانت كل الجهود الفنية خلالها في خدمة العقيدة الدينية ،
ثم اتجه الفن للارتباط بالعقيدة متمثلة في فرد ، فأصبح هذا الفرد ينال كل
عناية الفن ، إذ تمثلت فيه كل الآمال ، ثم حصل التمرد على الفرد واتجه الفن
ليكون للفن ، وكانت هذه ثورة على الخضوع للعقائد ، ولكنها في الوقت
نفسه انتهت بأنها جعلت الفن عقيدة ، فجاء تحول جديد جعل الفن
للحياة وللمجتمع ، والتزم الفنان أن يكون فنه في خدمة المجتمع وحل
مشكلاته .

ولعلنا بذلك نستطيع أن نحدد معنى الالتزام ، ولعل أوضح معنى للالتزام

هو وجوب مشاركة المفكر في قضايا قومه الدينية والوطنية والإنسانية ،

١- يتانون من آمال ، فليس للمفكر أن يستغرق في التجريدات على حين يعانى وطنه مذلة احتلال ، أو طغيان ظالم مستبد .

هل نطبق مبدأ الالتزام في كتابة التاريخ الإسلامى ؟ أولا نطبقه ؟ أو بعبارة أخرى . هل يدرس المؤرخ قضايا التاريخ مرتبطة بقضايا عصر المؤرخ ؟ أو يدرس قضايا التاريخ منفصلة عن قضايا العصر ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال واضحة تمام الوضوح إذا تذكرنا ما ذكرناه آنفا عند حديثنا عن « فائدة التاريخ » من أن التاريخ ليس مردا للماضى وليس عودة للوراء ، إنما هو عمل لخدمة الحاضر وخدمة المستقبل ، وأن المؤرخين جميعا تأثروا بحاضرهم وهم يكتبون الماضى ، ومن هنا يتحتم أن تكون دراسة التاريخ الإسلامى ملتزمة .

ولكن ليس معنى هذا أن نغير فى التاريخ ، فالتاريخ مقدس ، ومن الخيانة أن تلعب به الأهواء ، ولكن هناك وسائل كثيرة للمؤرخ يحقق خلالها مبدأ الالتزام فى خدمة مجتمعه ، وفى الوقت نفسه نجعله بمنأى عن تريف التاريخ الذى لا يرضى به أحد وبخاصة المسلم .

ومن هذه الوسائل نسوق بعض نماذج .

١- أن يرعى المؤرخ الدين والوطن فى فلسفة التاريخ ، فإذا تحدث عن حروب الصحابة عبرها دون إدانة ، ذاكراً وجهات النظر التى لا تجرح أحداً ولا تقوض تراثاً ، ومثل ذلك أيضاً إذا تحدثنا عن هزيمة يونيو سنة ١٩٦٧ ، فإننا نشرف بذلك ، ونحذر من تكراره ، ولكننا نجعل تعليقاتنا على هذا الحدث يبعث فىنا الأمل ويشحذ الهمة ، كأن نذكر أن هذه الهزيمة تسببت عن خطأ يمكن تداركه ، أو غفلة أمكن التغلب عليها ، ومثل هذا يتبع عند الحديث عن خلافات بين دولتين إسلاميتين ، فنسرد الأحداث دون تعليق يشبر القلق ويزيد من الحطاب .

٢ - أن يتحاشى الغمزات التي تضر وطنه ودينه ، فمن الظلم ومن البعد عن الالتزام أن ذهب بعض الأشخاص مرة لزيارة دولة عربية ، وهناك التي محاضراته مهاجماً الشيخ محمد عبده ، ورشيد رضا ، وضعد زغلول وصفية زغلول وغير هؤلاء من الأعلام ، وارتفع صوت عاقل بقول : لمصلحة من ندمر تاريخنا ونقضى على المهالة الطيبة التي دعيها الزمن لزمعنا في الفكر والسياسة ؟ .

وقد قرأت رحلة ابن جبير ، وهي رحلة ثمينة صورها المؤلف في صورة نابضة حية ، وأثناء فيها بما صادفه من خير ، وانتقد بعض الانحرافات التي رآها . وفي مرة كنت أفتح المذياع فوجدت غرضاً للقطات من هذه الرحلة ، ولكن الذي التقط هذه اللقطات كان عجيباً ، إنه جمع فيما كل ما يضر بمصر وتاريخ مصر وما يسيء إلى العرب ويخط من قدر المسلمين ، وراح يفصل القول عن ظلم الجمارك بمصر في عهد صلاح الدين الأيوبي ، وعن قطاع الطرق الذين ينهالون على مواكب الحجاج ، وبخاصة في الطريق من مصر إلى الحجاز ، وعن أهل اليمن الذين كانوا يقومون بمساخر وهم بالحجاز ، وعن بغداد التي فقدت كل شيء .

وإن أي إنسان ليسائل نفسه ، لمصلحة من ندمر تاريخنا وتاريخ أعظم قائد عرفه عصر الحروب الصليبية ؟ ولماذا اقتبس هذا الباحث كل تلك الغمزات المريرة ، ولم يذكر سطرأ واحداً من المفاخر الإسلامية والشهامة العربية التي تنساب في ثنايا هذه الرحلة الممتعة ؟ إن باحثاً كهذا ليس منزماً بل ليس عادلاً .

٣ - ومن الالتزام في التاريخ كذلك أن تقدم للتلاميذ والطلاب في المدارس والجامعات ، وأن تقدم للقراء والمثقفين بوجه عام صوراً تبعث القوة وتشجذ الهمة من التاريخ الإسلامي ، والتاريخ الوطني ، لعلنا نربي بذلك النشء تربية تجعله يحب دينه ويحترم الأسلاف ، ويسعد بالتراث

ميرتبط به ، إن لأجدادنا مفاخر ينبغي أن نتذكرها ونتمثلها ، وبين أسلافنا
 قم يتحتم أن ندرس تاريخهم ، ونسعد ونحن نعيش هذا التاريخ ، ولشيوخنا
 وباحثينا الأقدمين جولات علمية وابتكارات فكرية تعطر تاريخنا وتشرفنا ،
 ومن الالتزام أن نقدم كل هذه القمم وتلك القيم لنُدفع بالجيل الجديد أن
 يرتبط بالتراث وأن يسير على نمط الأجيال السابقة ليحقق ما حققت من
 خير ورفاهية وانتصارات .

٤ - ومن الالتزام في التاريخ أن نغني في بلادنا بدراسة الاستعمار
 والصهيونية وتبيان خطرهما على أوطاننا وأهلينا ، وأن نوضح ما عانيناه من
 الاستعمار الأوروبي من جوع وحرمان ، وقتل للحرريات ومحاربة التطور ،
 وأن نوضح أن الاستعمار قبل أن يرحل وضع إسرائيل في بلادنا ولا يزال
 يؤديها ، لتؤدي ننس اللور الذي كان يؤديه من إضعاف وتدمير :

وينبغي أن تكون وقفتنا مع العدو الصهيوني طويلة نشرح فيها عقليته
 وانحرافات ، وتحريفه للديانة الموسوية ، وأطماعه ، وسوء علاقته بالناس
 والأوطان جميعاً ، ونتدارس مواقفه العدوانية التي ارتكبها ضد كل البلاد
 التي نزل بها . مما يجعله أنانياً يعادى اليوم من صادق بالأمس ، وليس أهلاً لثقة
 أو تقدير ، ونذبح كذلك جبهته وانهاره عند ما تقابله قوى صادقة صابرة .

وعلى كل حال فليس من الالتزام ما يمكن أن نسميه بالإلزام ، أي أن
 يستخير الفكر لخدمة نظم سياسة خاصة أو لخدمة بعض الحكومات أو
 الأحزاب أو بعض القيادات والزعامات ، فهذا كله خطأ قد ساعد على انتشاره
 تورط بعض الكتاب - في كثير من البلاد - في تسخير أقلامهم هذا
 التسخير ، ثم تعليق آثامهم على مشجب « الالتزام المزعوم » تماماً كما تُعلم
 المسجون في بعض البلاد باسم الحرية ، وكما تشن حروب باسم السلام .

إن مفهوم الالتزام - كما يصفه أصحابه بعيداً عن انحرافات أدهيائه -
 هو أن يتخذ الإنسان ، بحسب إرادته واختياره الحر ، موقفاً فكرياً وعملياً

من قضايا وطنه ، ومشكلات قومه ، وأزمات الإنسانية بجمعاء ، بحيث يكون هذا الموقف الفكرى مناصراً لقضايا الحق ، ومسهماً في حل مشكلات التقدم ، ومؤازراً لكل عمل بناء يقصد إلى تفريج أزمات الإنسان في كل مكان ، وتكون الغاية النهائية في كل ذلك هي توفير الحرية للفرد ، وتحقيق التعاون للمجتمع ، ومساعدة الفرد والمجتمع دائماً على أن يسعد بحياة أفضل^(١) .

ولكن الغربيين غالباً ساروا في الالتزام على غير النهج السليم ، ويلوم Hearnshaw^(٢) هذا الاتجاه عند الغربيين فيقول : قلما كان التاريخ يدرس لذاته ، بمعنى أنه كان يدرس ويستغل لتأييد ما هو أجنبي عنه من الصوالم السياسية أو الدينية ، لا ابتغاء الوصول إلى الحقيقة في أحداث الماضي الخطيرة من حيث عللها ووصفها ونتائجها ، فحتى فولتير لم يتورع عن تسخير علمه في مناوأة رجال الدين ، وكان « تاريخ إنجلترا » للفيلسوف هيوم مجرد نشرة مسهبة تحمل روح حزبه ، حزب المحافظين .

وينبغي أن نلاحظ أن المستشرقين والمستعمرين وضعوا الأسس الحديثة لكتابة تاريخنا الإسلامى وتاريخنا الوطنى ، وكانوا ملتزمين بما ينفعهم ، وما ينفعهم كان في الغالب يصيبنا بالضرر فقد اتجه أكثر المستشرقين في كتابة التاريخ الإسلامى اتجاهاً يثير الفتى بين المسلمين ، ويضعف كيانهم ، وبصور لهم تراثهم تصويراً تشمئز منه النفوس ، فأسرفوا في تصوير الصراع بين بنى أمية والشيعة لتغفل عن تاريخ الأمويين لأن به عمالة يمكن الافتخار بهم ، وهاجوا تاريخ الأتراك العثمانيين ولم يدعوا من وسيلة للحط منهم إلا قدموها ، ورسموا أسوأ صورة للخديوى

(١) دكتور أحمد هيكال : الأديب بين الحرية والالتزام - مقال بمجلة الأدباء العرب للعدد الرابع .

(٢) علم للتاريخ : (ترجمة الأستاذ المبادئ) ص ١١٧ .

إسماعيل . ولأحمد عرابي . وهكذا راحوا يتتبعون كل قيمنا ليحطوا منها ،
وانحدعنا بها ، وسرنا فيه إلى مدى بعيد ، بل راحوا — عند ما كان في يدهم
الأمر — يقدمون تاريخهم لأولادنا ليخلقوا الهبة في نفوس الجيل الجديد ،
وليقيموا رباطا قويا بين النشء هنا وبين أبطالمهم .

وباسم مبدأ الالتزام نحن نأدعو إلى العودة للطريق الصواب ، لتتخذ من
ماضينا مشاعل تهدي طريقنا في الحاضر والمستقبل ، ومن سار على هذا
النهج من الباحثين المحدثين الأستاذ العقاد الذي يقول في مقدمة كتابه (عبقرية
محمد) واليوم ونحن نضع كتابنا هذا عن (عبقرية محمد) بين يدي
القراء نقول : إننا التزمنا فيه الباعث الذي أوحى بتأليفه
فكتبناه ونحن نستحضر في الذهن تبرئة المقام المحمدي من تلك الأقاويل
التي يلغظ بها الأغرار والجهلاء عن حذلقه ، أو سوء نية .

وفي مقدمة (عبقرية الصديق) يقدم المرحوم العقاد دراسة تصور
حدود الالتزام ، وليس كلام الأستاذ العقاد بعيداً عما أوردناه آنفاً ، ، وسنسوقه
هنا لمزيد من التعرف على هذه الحدود ، يقول رحمه الله :

قصدتُ أن أرسم للصديق صورة نفسية التزمت فيها التوقير ، والصدق
كل الصدق ، وليس من غرضنا التجميل الذي يخرج بالصورة عن حقيقتها ،
إذ لا نريد أن يطلع القارئ على تلك الصورة فلا يعرفها ، ولا يعرف
أبا بكر منها ، وعلى هذا فالنوقير شيء والتجميل شيء آخر ، النوقير إبراز
ما في الشخصية من محاسن ، وامتداح هذه المحاسن ، أما التجميل فإضافة
صناعية تضلل الناظر فلا يعرف الحقيقة .

ومن التوقير ألا تروح تبحث عن العيوب وتبرزها . ولا يتنافى هذا مع
الحقيقة التاريخية ، فلنك حين تعد ثروة رجل فنقول : إنه صاحب عشرة
بيوت لا يلزمك بعد ذلك أن تقول : ولكنه ليس بصاحب أرض زراعية ،

ولا أوراق مالية ، ولا معامل صناعية ، ولا مرئيات حكومية . وإذا أنت
سكت عن هذا قاصداً أو غير قاصد ، لم يجوز لأحد أن يلومك أو يظن بك
تعمد الإخفاء والسكوت فحسبك أنك ذكرت ثروته في البيوت بدقة ،
ولم تضيف إليه ما ليس من ماله .

وكذلك الشأن في ثروات النفوس حين يحصيها المقلدون ، تصدقُ إن
ذكرت للإنسان ما يملك ، ولا يفوتك الصدق إن فاته أن تغني كل ما ليس
له بملك ، فليس هذا بغرض من أغراض الإحصاء أو التعريف ^(١) .

ونستمر في إبراز ضرورة الأخذ بمبدأ الالتزام في التاريخ الإسلامي
موردين مزيدياً من الشروح التي تنسب للأستاذ أحمد أمين والأستاذ العقاد ،
وقد كان الأستاذ العقاد كتب كتابه (عبقرية عمر) قبل كتابه (عبقرية الصديق)
وكان ذلك سنة ١٩٤٣ ، ويُعتقد أن السبب في ذلك هو أن المرحوم الدكتور
محمد حسين هيكل كان قد أخرج كتابه آنذاك (الصديق أبي بكر) فيبدو
أن العقاد قصد أن يترك الجو رديحاً من الزمن لكتاب الدكتور هيكل ،
أو أنه أراد أن يتأني لينتدars هذا الكتاب قبل أن يخرج كتابه في نفس
الموضوع . والمهم أن الأستاذ أحمد أمين علق على كتاب (الصديق أبو بكر)
للدكتور هيكل وكتاب (عبقرية عمر) للأستاذ العقاد ، وقد اقتبس العقاد
بعض فقرات من هذا التعليق وناقشها في مقدمة كتابه (عبقرية الصديق) ،
واتجهت هذه الأقلام الرائدة الثلاثة لمبدأ الالتزام ؛ فيقول الأستاذ العقاد ^(٢) :

قال زميلنا الباحث الفاضل الأستاذ أحمد أمين عن نقده لكتاب الدكتور
هيكل باشا (الصديق أبو بكر) وكتابي (عبقرية عمر) :
بقيت مسألة هامة كثيراً ما اختلفت وجهة نظر الكتاب فيها ، وهي أن العظيم

(١) عبقرية الصديق ص ٤ - ٥ بتصرف .

(٢) عباس محمود العقاد : عبقرية الصديق ٧ - ٨

مهما عظم له أخطاءه ، وإلا ما كان إنساناً ، فالعصية لله وحده ، فهل
وابجب كاتب تاريخه أن يعرض لكل ذلك في تفصيل ، فيذكر كل ماله
ويشيد بذكره ويذكر خطأه ويتقدما . . . ؟ أو واجبه فقط تجلية نواحي
العظمة ، والتأويل والدفاع الدائم عن نواحي الخطأ ؟

أنا أرى أن الرأي الأول أوجب ، . . . ، والمؤلفان الفاضلان إلى
الرأي الثاني أميل ،

« والواقع أننا إلى الرأي الثاني أميل ، كما قال زميلنا الأستاذ ؛ ولكنه
الميل الذي نأخذ به بما قدمناه من حدود ، ونحتاج له بما بيناه من أسباب ،
ويخيل إلينا أن الأستاذ نفسه يستطيع هذا الميل حين قال في صدر مقاله
عن الكتابين : (. . .) إن الأوروبيين قد وجدوا من علمائهم من يشيد
بعظماهم ويستصفي نواحي مجدهم ، بل قد دعتهم العصبية أحياناً أن
يتزايدوا في نواحي هذه العظمة . . .) أما نحن فقد كان بيننا وبين عظمائنا
سدود وحواجز حالت بين شبابنا وجمهورنا والاستفادة منهم . . . فهذه
السدود كثيرة في الشرق ، كثيرة في العصر الحاضر ، وهي التي تعجز لنا -
بل تفرض علينا - أن نوفي العظماء حقهم من التوقير ، وأن نصورهم
كما خلقهم الله ، ثم لاعلينا أن نرفع الصورة حيث شئنا بعد الصدق
في التصوير . »

هذه لحة قصيرة عن مبدأ الالتزام ومسده ، لعلها وضحت هذا
الموضوع الخطير .

الحضارة الإسلامية

في السنين الأولى من هذا القرن ، كانت الحضارة الإسلامية تبيراً محدود المدلول ، وكنا ندرس الحضارة الإسلامية على أنها قصر الحمراء ، بغرناطة ، والجامع الأزهر بالقاهرة ، والجامع الأموي بدمشق ، وبعض مظاهر العمران ، وعندما أخرج جورجى زيدان كتابه (التمدن الإسلامى) خلط فيه بين ما هو إسلامى وبين ما فعله المسلمون . وعندما تقرأ هذا الكتاب تخرج منه باللائمة على المسلمين أكثر مما تمدح دورهم الحضارى ، وظهر كتاب آدم متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، فكان أقرب إلى الإنصاف ، ولكنه كان محدود الزمن ، وغير شامل للدور الذى قام به المسلمون فى ميادين الحضارة .

وقدّر لى أن أربط بدراسة (الحضارة الإسلامية) منذ أخذت فى إعداد رسالتى للدكتوراه بجامعة كبرج عن (تاريخ التربية الإسلامية) فى منتصف هذا القرن ، وظللت على صلة بالحضارة الإسلامية حتى كتابة هذه السطور ، ومن طرل الدراسة والبحث والمقارنة ، وصلت إلى ما أعتقد أنه المدلول الحقيقى للحضارة الإسلامية ، فقد ظهر لى أن الحضارة الإسلامية نوعان :

النوع الأول — حضارة إسلامية أصيلة وتسمى حضارة الخلق والإبداع وقد كان الإسلام مصدرها الوحيد ، وعرفها العالم لأول مرة عن طريق الإسلام .

النوع الثانى — حضارة قام بها المسلمون فى الأمور التجريبية ، إحياء وامتداداً وتحسيناً لما هرفه الفكر البشرى من قبل ، وتسمى حضارة البعث والإحياء .

والحضارة الإسلامية الأصلية جاءت في الأمور التي لم يستطع العقل البشرى أن يصل إليها بنفسه ، جاءت في نظم السياسة والاقتصاد والتشريع والأخلاق ... ، فإن البشرية قد عجزت عن الوصول إلى نظم سياسية سليمة ، ولم تستطع الإنسانية أن تعرف العدالة الاجتماعية ، أو تتفق على نظام سليم للميراث ، وكانت الأخلاق مثار خلاف كبير بين الناس ، فالعدل مثلاً عهدٌ فضيلة عند بعض الناس ، واعتبره الآخرون دليل خدش ، فجاءت حضارة الإسلام تبرز لنا الحق في هذه الأمور التي اختلفت فيها الأُفهام ، وضعفت العقول عن جلها ، ومن هنا فزأى الإسلام في السياسة والاقتصاد والأخلاق رأى أصيل ، أنقذ المجتمع البشرى من انحرافه ومتهاته ، بل فرض نفسه على المجتمع البشرى ، فاقبسته كل النظم حتى أصبحت كلمة (ديمقراطية) على كل لسان ، وأصبحت كلمة (اشتراكية) منارة البشر ، وليست الديمقراطية إلا صدى للشورى التي جاء بها القرآن الكريم لأول مرة ، وليست الاشتراكية إلا فهماً للعدالة الاجتماعية التي كان الإسلام أول صوت نادى بها .

أما حضارة البعث والإحياء فكانت في العلوم التجريبية كالرياضة والطب والفلك والموسيقى وغيرها ، وهى تبين لنا مدى ماوصل له المسلمون من تقدم في هذا الميدان ، إذ ورثوا الحضارة المصرية التي كانت قد تحولت إلى اليونان وورثوا كذلك ثقافة الفرس وثقافة الهند ، وكانت هذه الحضارات كلها قد ذبلت وماتت بسبب الكهنة والتسلسل وأحيائها المسلدون ، وعكذا انتفع المسلمون بما كان لدى المجتمع البشرى من خبرات ، فأحيوا التراث الإنساني الذى كان على وشك الفناء ، وأضافوا إليه تفسيراتهم وشروحهم ، حتى وصل المسلمون بهذه الحضارة إلى غاية بعيدة ، ثم راح المسلمون في هذا المجال يتسكرون ويضيفون حتى أصبحت أفكارهم رائدة ، وانتقلت أفكار المسلمين ومؤلفاتهم إلى أوروبا ، فكان ذلك أساس النهضة الأوروبية، وتحقق بذلك ما سبق أن اقتبسناه من Hearnshaw

من « أن الصليبيين خرجوا من ديارهم لقتال المسلمين راحلهم مرهان
ماجلسوا عند أقدامهم يأخذون عنهم العلم والمعرفة »

ونتيجة لصلتي الطويلة بدراسة الحضارة الإسلامية بنوعها ، حملة امتدت
حوالى ثلاثين عاماً ، استطعت أن أخرج « موسوعة النظم والحضارة
الإسلامية » فى عشرة أجزاء ، وتكلمت فى هذه الأجزاء عن اتجاهات
الإسلام فى السياسة والاقتصاد والتربية والحياة الاجتماعية والسلم والحرب
والقضاء ... كما شرحت ما وصل له المسلمون من تقدم فى الحضارة التجريبية .

بقى نوع من أنواع الحضارة ، وهذا النوع مرتبط بدراسة التاريخ ،
وذلك النوع هو ما تقوم به دولة من الدول الإسلامية لرفع شأن الإنسان
وخدمته ، وهذا النوع من الحضارة يلزم أن يقوم به معلم التاريخ ، وأن يعنى
به عناية تامة ، فإذا درس تاريخ الدولة الأموية أو العباسية أو الفاطمية كان
عليه أن يقف عقب الانتهاء من دراسة الأحداث وقفة كافية يشرح فيها
ما قدمته هذه الدولة فى مجال الحضارة ، أى ما قدمته لخدمة الإنسان ورفع
قدره ، ويشمل ذلك جهود الدولة فى الميدان الاقتصادى (الزراعة والتجارة
والصناعة) وفى ميدان العمران ، وفى ميدان التربية والتعليم ، وفى ميدان
الأمن بالداخل والأمن من العدوان الخارجى وغير ذلك من الميادين .
وهذا النوع من الحضارة شديد الارتباط بموسوعة التاريخ الإسلامى التى
نقدم الآن جزأها الأول .

مشكلات، حول تدوين التاريخ الإسلامى

(١) المراجع القديمة والدراسة التحليلية الحديثة :

ظهر فى كتابة التاريخ الإسلامى طريقتان :

أحدهما سررد الأحداث فى نظام الحوليات أو بدمنه ، من غير تعليق عليها ، ويدون عملهاها والبحث عن دوافعها ونتائجها القريبة والبعيدة .

والطريق الثانى أنجه إلى الاهتمام بالتعليق والتحليل لحدث من أحداث التاريخ دون الاهتمام بسررد الأحداث التاريخية المتتابعة .

وقد عنى المؤرخون القدامى بالطريق الأول فألفوا الكتب الضخمة لسررد الأحداث التاريخية ، وعنى المؤرخون المحدثون بالطريق الثانى فامتازت كتاباتهم بأنها تحليل لحدث واحد من أحداث التاريخ ، أو شخصية واحدة من الشخصيات التاريخية .

ومن الواضح أن الطريقين يكمل أحدهما الآخر ، ولايستقيم أحدهما وحده ، فالأحداث التاريخية دون فهم وتحليل عمل يعتبر ساذجاً محدود النفع ، وتحليل حدث واحد دون فهم سلسلة الأحداث التاريخية غير كاف ، فهو ترف علمى يحتاج إلى أساس ينبى عليه .

والمؤرخون القدامى بالإضافة إلى عدم اهتمامهم بالتحليل والنقد كانوا غالباً يدونون التاريخ على نسق تدوين حديث الرسول ، فيذكرون الروايات المختلفة للحدث الواحد ويذكرون الرواة متسلسلين الواحد بعد الآخر ولا يهتمون بالأسلوب الذى يكتبون به ، وكل هذا جعل دراسة التاريخ فى العهد الجاضر صعبة المثال .

وفي سنة ١٦٥٦ هـ حدث حادث خطير في العالم الإسلامي هو سقوط بغداد في أيدي التتار ، وقتل الخليفة العباسي ، وإنهاء الخلافة العباسية بالعراق ، والذي يعني من هذا الحادث هنا هو خطورته على كتابة التاريخ الإسلامي ، فقد كانت الخلافة العباسية حتى فترات ضعفها رابطاً يربط بين أجزاء العالم الإسلامي ، وكان من المؤرخين من يكتب تاريخ العالم الإسلامي كله جملة واحدة ، فلما سقطت بغداد وانقطع الخيط الذي كان يربط بين أجزاء هذا العالم ، انفرط عقد البلاد الإسلامية . وأصبح لكل منها تاريخ ومؤرخون ، وكثر أن نجد عراقياً مثقفاً يجهل تاريخ اليمن ، ونصرياً يجهل تاريخ إيران ، وهكذا .

وعلى هذا يعاني الباحثون في التاريخ الإسلامي مصاعب تشمل تاريخ العصور الإسلامية قبل سقوط بغداد ، وبعده ، فقبل سقوط بغداد كتب التاريخ الإسلامي ، ولكن بدون تحليل وبأسلوب ونسق بعيدين عن أسلوب العصر الحديث ونسقه ، وبعد سقوط بغداد انجم الاهتمام إلى التاريخ المحلي للبلدان الإسلامية ، وقل الاهتمام بالتاريخ العام للعالم الإسلامي ، كما انجم أكثر اهتمام الجامعيين في العصر الحاضر إلى التحليل والنقد لحادث واحد من أحداث التاريخ كما سبق القول .

وفي هذه الموسوعة محاولة حاسمة لدراسة التاريخ الإسلامي كله من جانب ، وتحليل أحداثه المهمة من جانب آخر . -

(ب) أقطار فسيحة منسية :

في جامعات الدول العربية وغير العربية توجد مادة اسمها « التاريخ الإسلامي » ولكن المدلول الواقعي لهذا التعبير هو التاريخ العربي أو ما يحيط به ، أو تاريخ الخلافة الإسلامية حتى سقوط بغداد ، وعندما ألف الأستاذ الدكتور حسن إبراهيم كتابه « تاريخ الإسلام » توقف عند سقوط بغداد ، فكانه بذلك أنهى الشوط ، وربما كان ذلك هو ما دعا Philip Hitti إلى

تسمية كتابه : تاريخ العرب ، حتى لا يقع في الخطأ الذي وقع فيه سواء وهو أن يحمل عنوان حديثه أو عنوان بحثه « التاريخ الإسلامي » ، ثم لا يتحدث إلا عن التاريخ العربي . وفي بعض الأحوال يمتد حديث المؤلف إلى تركيا أو إيران كما فعل بروكلمان لشدة ارتباط هذين القطرين بالتاريخ العربي .

ولذلك فنحن ننتف بأن من الضروري تصحيح المدلول ، فالتاريخ الإسلامي هو تاريخ العالم الإسلامي الذي أشرنا إليه آنفاً ، وذلك يشمل الإسلام جنوب صحراء إفريقيا ، ويُدخل في نطاق العالم الإسلامي دولاً كثيرة في هذه المنطقة هي موريتانيا والسنغال وجامبيا وغينيا ومالي والنيجر ونيجيريا وتشاد والصومال وشرقاً من تنزانيا كان إلى عهد قريب يسمى زنجبار كما يشمل الدول الإسلامية غير العربية بآسيا كإيران وأفغانستان والباكستان وبنجالاديش وماليزيا واندونيسيا ، ويشمل التاريخ الإسلامي تاريخ الأقليات الإسلامية في آسيا وإفريقية وأوروبا .

وكثير من الدول الإسلامية لم يكون تاريخه الإسلامي ، ويتطلع سكانه إلينا لندون لهم هذا التاريخ ، ويتحتم علينا أن نستجيب لذلك ، تحقيقاً لمسؤولياتنا العلمية ، وتعرفاً بإخوان لنا تربطنا بهم مقدسات الإسلام وتعاليم الإسلام ، وهذا هو النهج الذي ارتبطنا به هذه الموسوعة .

(ج) مصادر مهمة تجاوزها المؤرخون :

من العجيب أن كثيراً من الكتب لم تتخذ القرآن الكريم وأحاديث الرسول مراجع لها عند دراسة حدث تكلم عنه القرآن أو الحديث ، والحق أن القرآن الكريم جلى مواقف ما كان يمكن التعرف عليها بدونها كما منرى فيما يأتى ، وفي كتب الأحاديث أبواب عن مغازى الرسول لا يتم فهم الغزوات بدون الاطلاع عليها ، ولستنا نعرف السبب في إهمال هذه المراجع المهمة إلا أن يكون ذلك بسبب الاتجاه الإغريقى الذى يرى أن الكتب

السموية لا تصلح مرجعاً تاريخياً ، ولكن ذلك إن جاز بالنسبة للتوراة والإنجيل ، فإنه لا يجوز بالنسبة إلى القرآن لاحتمال الوضع والتحريف في الكتابين الأولين ولعدم احتماله في القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذي تعهد العلي العظيم بحفظه من أي انحراف أو تغيير ، فإذا تكلم القرآن الكريم عن شيء أو ورد في الحديث للصحيح وصف لحدث تاريخي ، فلما آنذاك إزاء مصدر لا يمكن تجاهله من مصادر التاريخ الإسلامي ، ولا يتم تصوير الحدث التاريخي بملونه .

والمعجب أن الطبري المؤرخ المفسر ، اتبع أيضاً هذا النهج ، فكتب من غزوة بدر دون أن يقتبس من سورة الأنفال ما يشي الغلة ، مع أن سورة الأنفال اتصلت تماماً بغزوة بدر وتحدثت عن مشكلاتها ، ولم يقتبس الطبري من هذه للسورة إلا آيات قليلة لا تدخل في بناء الحدث ، وإنما هي آيات أشبه بالوعظ والحكم ، وكذلك فعل مع باقي الغزوات . ولما جاء ابن الأثير واختصر روايات الطبري ، اختصر كذلك ما أورده الطبري من آيات قرآنية ، فأوشك كتابه أن يخلو منها ومن أحاديث الرسول ، واعتمد في بناء الحدث على الرواية التاريخية فقط .

وقد حاولنا في هذه الموسوعة أن نضع القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة في مكانهما الحقيقي ، فنمرت آيات سورة الأنفال تصويرنا لغزوة بدر ، وجاءت آيات سورة آل عمران توضيح مجريات الأمور في أحد ، واعتمدنا على سورة الأحزاب في رسم صورة صراع الخندق أو الأحزاب ، وهكذا ، وفي الحق أن هذه السور الكريمة قدمت فائدة عظيمة للأحداث التاريخية .

واعتمدنا اعتماداً واسعاً على كتب الحديث في تدوين السيرة النبوية وبخاصة الجوانب الجديدة التي ظهرت في هذا الجزء ابتداء من الطبعة التاسعة ، كما اعتمدنا على القرآن والحديث اعتماداً واسعاً كذلك في تدوين الحضارة الإسلامية .

(د) التاريخ الإسلامى جزء من الدراسات الإسلامية :

التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية جزء من الدراسات الإسلامية . ولا يمكن إطلاقاً اعتبار التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية شيئاً مستقلاً عن الدراسات الإسلامية ، وقد ظلت هذه الحقيقة مهمة جداً أو مهوياً ، مما أتاح لقليل البضاعة فى الدراسات الإسلامية أن يكتبوا فى التاريخ الإسلامى ، وعلى هذا جاءت كتاباتهم ضحلة قليلة الغور ، وقد كان المنشقون أكثر وعياً لهذه الحقيقة ، فلم يكتبوا فى التاريخ الإسلامى ، أو قل لم يتجهوا للتاريخ إلا بعد أن اتجهوا بكتاباتهم انهماكاً كاملاً للدراسات الإسلامية فى أكثر شعبها ، أو فى جميعها ، فحصلوا منها على قدر قليل أو كثير ، ونريد لهذا أن نقول بصراحة : إن الذى يكتب فى التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية لابد له من الإلمام بدراسة القرآن وقراءاته ، وأسباب نزوله ، وأخذ الأحكام منه ، وبلاغته وصلته بالأحداث الإسلامية والعربية . ونفسيره ، وكذلك معرفة الحديث والفقه وأصول الفقه والتوحيد وتاريخ التشريع الإسلامى وغيرها من العلوم الإسلامية ، فذلك تعتبر أهم مصادر التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ، وبدونها يقع الكاتب فى أخطاء قد يكون بعضها خطيراً .

(هـ) فقدان الروح الإسلامية فى كثير مما كتب حديثاً :

فلنا أننا إن المستشرقين أخذوا من الدراسات الإسلامية قدرًا قليلاً أو كثيراً قبل أن يقدموا على كتابة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية وهذه ناحية تستحق الثناء فى ثقافة المستشرقين ، ولكن هناك ناحية أخرى مؤسفة تتعلق بما كتبه المستشرقون عن الإسلام . تلك هى عدم الإنصاف الذى ظهر فى أكثر ما كتبه هؤلاء ، صحيح إن فهم من هم منصفون أو أميل إلى الإنصاف ، ولكن هؤلاء قليلون جداً إذا قيسوا بالجمهرة العظمى منهم ، فأكثرهم كان نتاجهم يهاجم الإسلام والمسلمين قصداً : أولئكة فهم لهذا الدين ، وجميع الكتاب المسلمين يدركون ذلك ، استمع إلى الدكتور عبد الحليم

النجار وهو يقدم الترجمة التي قام بها لكتاب (مذاهب التفسير الإسلامى) لجولد زيهر حيث يقول : « ويشتمل الكتاب على قائل من النزعات الدينية وهى نزعات لا يكاد يخلو منها كتاب من كتب المستشرقين ، لاسيما فيما يتصل من الدين بسبب أو نسب ، يملأها عليهم إلف لازم ، أو هوى متبع . أو قصد جائر » .

ويلاحظ أن هذا الانحراف ارتبط بجميع الدراسات الإسلامية ، كالعقيدة والتشريع وغيرها .

وهذه المسألة يترتب عليها مسألة أخرى أكثر خطورة ، ذلك أن هؤلاء المستشرقين سبقوا المسلمين فى دراساتهم ذات الطابع الحديث ، وكانوا أسانذة للكثيرين من المسلمين الذين أوفدوا إلى أوروبا للتعلم فى الدراسات الإسلامية وطرق البحث فيها ، وقد تأثر بعض هؤلاء المسلمين بأسانذتهم المستشرقين ، وعادوا فكتبوا ، ونقرأ ما كتبوه فتلمس أن كتاباتهم تنمى روح الإسلام فى كثير من الأحيان ، والذي سبب ذلك هو أن هؤلاء الموفدين لم يكونوا قبل إيفادهم على علم واسع بالدراسات الإسلامية .

وقد قلت آنفا إن كتابة هؤلاء المسلمين أكثر خطورة من كتابة المستشرقين أنفسهم . ومرجع ذلك أن القراء يقرءون للمستشرقين بحذر ، ولكنهم قد يستسلمون للكاتب المسلم ولا يحذرون منه .

وقد أشرت إلى هذه النقطة إشارة مجملة متعمداً عدم التفصيل لظروف آمل أن يدركها القارئ ، ولو أردت الإمهاب لعرضت اقتباسات هجبية دونتها أقلام مسلمين .

(و) أخطاء شاعت ينبغى تصحيحها :

هناك فى التاريخ الإسلامى موضوعات كتبت تحت تأثير معين فسودت صفحات بعض الأفراد أو الدول ، وتلقى الخلف عن السلف هذا الانحراف فأصبح الخطأ كأنه حقيقة مسلم بها ، ولما آلت الوصاية على التاريخ الإسلامى للمستشرقين فرحوا بما دونته الكتب الإسلامية عن هذه الموضوعات فأبرزوها وبالفراغ فى إبرازها لتخدم هدفهم الرئيسى وهو النيل من الإسلام والمسلمين ،

وأنا هنا أعرض هذه الفكرة داعياً إلى إعادة النظر في هذه الموضوعات لنحق الحق ونبطل الباطل ، وفيما يلي بعض نماذج التحريف .

— لقد كتب تاريخ الدولة الأموية في عهد أعدائها العباسيين ، فهل نتوقع أن ينال الأمويون ما يستحقونه من إنصاف ؟ .

— وكتب تاريخ الأمين بن هارون الرشيد في عهد المأمون ، وجيوش المأمون هي التي قتلت الأمين ، وتأثر مدونو تاريخ الأمين بهذا الوضع وهم يكتبون تاريخه .

— وحدث خلاف واسع بين الحاكم بأمر الله وبين أخته لأبيه ست الملك ومعها بعض الأعوان ، وقد انتصرت ست الملك في هذا الصراع ، وقُتل الحاكم ، فأبرزته أخته مجنوناً ركب حماره واختفى ولم يعد ، فهل من العدل أن نقبل عن الحاكم كل ما قيل عنه ؟ .

— وتاريخ عصر المماليك بمصر يلزم أن يكتب من جديد ، لقله مؤدوا صفحته ، وبعض صفحات هذا التاريخ ناصمة البياض .

— والخديوى إسماعيل سلطان مصر عزل الإنجليز وكتبوا تاريخه ، وذكروا أن عزله كان لإسرافه ولأنه متلاف ، والتاريخ المنصف يذكر أن عزله كان لأن أوروبا كانت تتجه لاحتلال إفريقية ، وكان الخديوى إسماعيل عقبة في طريق أوروبا لتوغله في إفريقية توغلاً ناجحاً ، ولنشره الإسلام والحضارة في كل الربع التي دخلها الجيش المصرى حتى رحب أكثر الإفريقيين بالزحف المصرى ، وقاوموا كل المحاولات لسحب هذا الجيش ، وأكبر أخطائه في نظر التاريخ هو أنه عين على الامتدادات المصرية بإفريقية حكاماً أوروبين ، فوضعوا الأساس للقضاء على الإمبراطورية المصرية .

— أسكيا محمد سلطان صغنى أخذ مكانه بعد سُنى على الكبير ، فنقل السلطنة بذلك من أسرة إلى أسرة ، وقهر أولاد سنى على ، وتأثر المؤرخون بذلك وهم يكتبون تاريخ سنى على وتاريخ أسرته .

وهناك أحداث كثيرة جداً مماثلة في التاريخ ، ولا يمكن أن يُقبَل كل ما كتب عن هذه الأحداث ، ويتحتم أن نعرف بأن هناك مظالم في تدوين التاريخ ينبغي أن نوقفها ، وأن نعيد كتابة التاريخ في ضوء النهم الحقيقي ، وفي ضوء الإنصاف والعدل .

ربما تسألني : كيف نستطيع أن نصصح تاريخنا ووصل لنا مزيفاً ؟ .

والإجابة أن عناصر صدق تفرض نفسها دائماً ، وتأتي هذه العناصر في ثانيا الكلام ، وعلى المؤرخ أن يلتقط هذه العناصر ، ويجعلها أساس بحثه ، ففي إنصاف الدولة الأموية مثلاً ، لدينا الواقع الذي يصف الانتصارات الضخمة التي حققها الأمويون في مختلف الميادين العسكرية ، مما يجعل جزءاً كبيراً من العالم الإسلامي مديناً لجهود الأمويين ، ولدينا تعريب الدواوين الذي قام به عبد الملك بن مروان وابنه الوليد ، ولدينا صنوف التفكير الذي أنتجها العقل الأموي كالسكة وتنظيم الجيوش والبريد والإصلاحات الداخلية والعمرانية التي تنصب لمعاوية وعبد الملك والوليد ، ولدينا الإصلاحات التي ترتبط بعمر بن عبد العزيز ، وهكذا ، ولست أسترسل في بيان وسائل إصلاح الخطأ ، فالقارئ سيجد لها في أمكنتها مصححة بهذه الموسوعة إن شاء الله .

علم التاريخ بين المسيحية والإسلام

عندما تنصر أول امبراطور روماني تمسطين (٢٠٦ - ٣٣٧ م) وانتصرت الكنيسة المسيحية على الوثنية الرومانية ، كان لهذا أثر عميق على العلوم بوجه عام ، وعلم التاريخ بوجه خاص ، فقد حاربت الكنيسة مختلف العلوم كما حاربت العلماء ، واحتكرت الكنيسة بعض المجالات الفكرية ، كدراسة التاريخ ، وقاومت بعضها كالطب والرياضة والفلك ، إذ ألقت الكنيسة كتبها في مغارات لا يطلع عليها أحد ، واستمرراً لهذه السياسة نجده الكنيسة تحكم بكفر من قال بدوران الأرض ، ولم يتخذ هذه الكتب من مخابها ومدافنها إلا المسلمون كما أوضحنا ذلك عند الحديث عن العصر العباسي الأول في الجزء الثالث من هذه الموسوعة .

وكان التاريخ - كما ذكرنا آنفاً - من العلوم التي احتكرتها الكنيسة ، فألت السلطة عليه إلى أيدي القسس والرهبان ، وبقي في أيديهم زهاء ألف سنة ، وأصبح التاريخ خلال هذه الفترة خاضعاً للاهوت مسخراً له ، وفقاً لكل صفة علمية ، وأصبح لا يكثر بما هو حق أو محتمل الوقوع ، وغدا مشحوناً بأخبار الخوارق والكرامات غير مكرث إلا بما له صلة بالدين ، وفقد حاسة النظر إلى الأشياء موضوعه في مواضعها ، وبجملة القول إن تحول التاريخ إلى رجال الدين كان معناه نحو التاريخ الصحيح من الوجود محواً دام ألف عام ، وعندما تصدعت الإمبراطورية وحلت الهمجية محل النظام بها ، لم تبق إلا الكنائس موثلاً لخيوط رفيع من الفكر بما في ذلك التاريخ ، فضربت الكنيسة حول التاريخ نطاقاً جامداً من التوقيت الخرافي لم يستطع التاريخ حتى يومنا هذا أن يتحرر منه ، وجعلته ركناً من الأساطير القائمة على التحيز والهو (١) .

وقد ظل هذا الاتجاه موجوداً في الكنيسة حتى عصرنا الحاضر ، فلا يزال رجال الكنيسة يُدخِلون على التاريخ ما ليس منه ، ومن ذلك ما يقوله الأب بولس إلياس في مجال الفخر بعيسى ومعجزاته : « ومن مزية التي لا يفاضلها فيها نبي ولا رسول أنه أفضى بالقدرة على إثبات المعجزات إلى تلاميذه ، ثم جدد منحها لهم بعد قيامه من الموت وصعوده إلى السماء ، وأورث كنيسته تلك القدرة أيضاً . » (١)

ولا شك أن هذا بعيد كل البعد عن الحقيقة والتاريخ ، فلا يحصى أفضى بالقدرة إلى أحد ، ولا هو كان يستطيع ذلك ، ولا أحد من تلاميذه بأمره فعلاً هذه المعجزات . وليس ذلك إلا من بقايا الانحراف الكنسي في دراسة التاريخ ، ومثل ذلك أيضاً ادعاء الكنيسة القبطية بمصر أن السيدة العذراء ظهرت بها وشفّت المرضى ومنحت الإبصار للعميان . . .

والسيدة العذراء لم تكن تشفى المرضى وهي حية ، فكيف تستطيع ذلك بعد الممات ، وهي بالطبع لم تظهر بدليل أن الزوبعة هُذأت ، وأمسك الذين قالوا بهذه الخرافات عن الأسرسل فيها .

وفي الفصل السادس من كتاب « قيمة التاريخ » الذي ألفه جوزيف هورس أورد المؤلف صوراً من تحريف التاريخ ، ومن الصكوك المزيفة التي قامت بها الكنيسة ، وقرر أن الوثائق المزيفة فاق عددها الحصر ، وأن المراسيم الكاذبة فاق العد .

فإذا جئنا إلى التاريخ في ظل الإسلام وجدنا أن التاريخ كان امتداداً للحديث الشريف ، حتى إنه ليقال أن التاريخ ابن الحديث ، وذلك لأن الحديث الشريف تكلم عن المغازي ، وبعد الرسول استمر التاريخ يصف الأحداث الحربية التي بدأت في حياة الرسول ، واتخذ التاريخ نفس النمط الذي كان متبعاً في رواية الأحاديث وهو الرواية الدقيقة ، على ما وضحه علم

(١) يسوع المسيح ص ٨٩

مصطلح الحديث ، ويقول الأستاذ العبادي (١) :

إن المسلمين أول من ضبط الحوادث بالإستاد ، وأنهم مدوا حدود
البحث للتاريخي ونوعوا فيه ، وأنهم أول من كتب في فلسفة التاريخ ،
وأنهم حرصوا على العمل جهد طاقاتهم بأول واجب المؤرخ ، وهو الصدق
والتزامه في الحكم ، ونحن على هذا الدرب لا نزال نسير .

(١) منشور : علم التاريخ ص ٦٩ (إضافة المترجم الأستاذ العبادي)

سياسة التجميع والتنسيق

هناك اتجاه حرصت عليه في هذه الموسوعة ، ذلك هو أن أجمع في وحدة واحدة جميع المعلومات المتناثرة التي تكوّن فكرة تاريخية واحدة ، وهذا سيتضح وضوحاً دقيقاً في القضايا المهمة التي دونناها عن حياة الرسول بالمدينة مثل حديثنا عن الرسول الداعية أو الرسول مربّي الدهاة والتوجيهات الطيبة التي قدمها الرسول وهكذا ، ومثل التوسع في العهد الأموي فإني لا أدرسه متناثراً مع خلفاء العهد الأموي ، بل أجمعه في مكان واحد أتناول فيه أسباب هذا للتوسع ، وأسير مبيناً مدى نشاطه ، وأشرح توقعه ، وتدقيقه ثم أقرر نتائجه ، ومثل هذا يتبع مع نشاط الشيعة ونشاط الخوارج ، والحروب الصليبية ، والحركة الإصلاحية في نجد ، والحركة السنوسية ، وهكذا ، فإن هذا يحمي الفكرة من التمزق ، ويجعلها سهلة التناول ، وبخاصة أن هذه الأحداث كانت بعيدة الأثر في تاريخ المسلمين ، فنحن نحقق أن تستقل بدراسة ، ولا تكون تابعة لعدد من الخلفاء متناثرة مع تاريخهم ، ضائعة أو شبه ضائعة في خضم الأحداث .

وبهذه المناسبة نقرر أن الأحداث التي لا غناء لها لن تطول عندها وقفنا ، فنصب أمير الأمراء مثلاً لا يستحق منا رقعة نشرحه أو تتدارسه ، فلم يكن هذا المنصب إلا نوعاً من القرصنة لا يستحق إلا الإيجاز دون ذكر تفاصيل الخلافات بين أولئك الذين سعوا ليشغلوه ، إذ من الواضح أنه لم يكن لهؤلاء أثر يذكر في توجيه الحياة الإسلامية ، ولم يكن صراعهم إلا صراعاً فردياً لا قيمة له .

وهناك دول لم يكن لها في التاريخ دور كبير ، وهذه سنمر عليها مروراً سريعاً ، فنذكر كيف نشأت ، وكيف سارت ، ثم انهارت ، ونعدد ملوكها ثم تتجاوزها إلى سواها

ونحن نطمح مستعينين بالله العلي العظيم أن يوفقنا في السير في هذا العمل الكبير ، وفي تحقيق الأمل الذي يُعدّ عون الله أساس الوفاء به .

كلية عن المراجع والمكتبة التاريخية

فما يتعلق بالمراجع سأتبع القانون العام الذي وضحته في كتابي « كيف تكتب بحثاً أو رسالة » وخلاصة هذا القانون أن تذكر المراجع بدقة في الأحداث المهمة، والأفكار المقتبسة، للثبوت من أحداث التاريخ، ولنعطي كل ذي حق حقه، ونفهد الطريق للراغب في الاستزادة، على أن هذه الموسوعة ليست مراداً لأحداث التاريخ فقط، وليست جمعاً لمباريات الآخرين، وإنما هي جزء من مؤلفها، فكثير من أحداث التاريخ أصبح من الشبهة بحيث لا نريد مصداقاً نرجعه إليه بقدر حاجتنا إلى التفكير في ذلك الحدث ودواعيه ونتائجه تفكيراً يجعل مصدره الكاتب نفسه. وقد كتب الأستاذ الدكتور طه حسين كتابه « الفتنة الكبرى » بجزأيه : « عثمان » و « علي وبنوه » وفي هذا الكتاب كثير من الحقائق التاريخية ؛ ولكن أهم ما فيه هو تفكير مؤلفه وفهمه للأحداث، ولهذا لم تكثر فيه المراجع المباشرة، وإن كانت مراجعه غير المباشرة كثيرة.

وقد دعاني إلى ذكر ذلك ملاحظته من اتجاه بعض المؤلفين إلى الإكثار من ذكر المراجع بحيث تجد في السطر الواحد ثلاثة مراجع أو أربعة أحياناً، وبحيث يشار في صفحة واحدة عشر مرات إلى مرجع واحد لم يتغير، أو قل إلى صفحة واحدة من ذلك المرجع الواحد، ولست أنقد هؤلاء المؤلفين، ولكني أقول إن هذه لن تكون طريقتي لأنني سأتدخل في دراسة الأحداث بأفكارى، ولن أدع القارئ طويلاً دون أن يجدني محاولاً أن أبحث أكثر مما أحاول أن أجمع.

والمصادر التي أمدت هذه الموسوعة بما بها من مادة، كثيرة ومتلونة، وهي طبعاً تختلف باختلاف الزمان واختلاف المكان، وتختلف في دراسة الحضارة عنها في دراسة التاريخ.

وقبل أن نذكر المصادر الرئيسية التي اعتمدنا عليها نقرر أن الآثار والنقوش والعملة تعتبر عادة من أهم المصادر التي تساعد على دراسة التاريخ، وقد كانت الآثار الفرعونية أهم المصادر التي حفظت لنا تاريخ الفراعنة وحضارتهم ، ولكن - للأسف - يعتبر تاريخ العرب قبل الإسلام والتاريخ الإسلامى فى مرحلته الأولى (عصر صدر الإسلام) قليل البضاعة من هذه المصادر لعدة اعتبارات أهمها :

١ - البداوة التى كانت طابع العرب التى لم تحفرهم على النقش ، إذ كانوا فى الغالب رحلا ، والنقوش والآثار تحتاج إلى استقرار وإقامة :

٢ - كثرة الحروب بين قبائل العرب قبل الإسلام وكثرة الحروب بعد الإسلام ، كأيام العرب فى الجاهلية ، والغزوات وحروب الردة وغيرها بعد الإسلام ، وهذه وتلك أفنت ما قد يكون ظهر من هذه النقوش أو تلك الآثار .

٣ - كان المسلمون الأول قريبي صلة بعبادة الأوثان ، ولذلك لم يهتموا بالآثار والأحجار خوفاً من أن تصبح فى يوم مقدسة عند ضعاف القلوب .

٤ - وجد المسلمون القرآن مصتدرا لا يعدله مصدر ؛ ويحجى بعده الحديث والرواية ، فلم يهتموا بتسجيل أحداثهم عن طريق النقوش والآثار .

وعلى هذا لم يبق لنا إلا بعض النقوش والآثار والعملة وبخاصة فى الأماكن المتحضرة كاليمن والأنباط وتدمر ، وتمدنا هذه المصادر ببعض المعلومات المفيدة نستمد منها مما كتبه الرحالة والعلماء الذين زاروا هذه الآثار ووصفوها أو نستمد منها من ملاحظاتي التى دونتها عند زيارتي لبعض هذه الأماكن .

ونعود بعد ذلك إلى المصادر الرئيسية للتاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، فنقرر أن في قتها للقرآن الكريم ذلك الكتاب المقدس الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذى لم تعبت به السنون ولم يلحقه تحريف ولا تشكيك، فإذا حدثنا القرآن الكريم حديثاً واضحاً عن بعض الأحداث التاريخية فإننا لا نحتاج معه إلى مصدر آخر، وأى مصدر يبلغ في الدقة والعمق مبلغ القرآن ؟ .

فالقرآن مثلاً يحدثنا عن اجتماع قريش قبيل الهجرة حيث تناقش المجتعمون ليجعلوا طريقاً يسلكونه ضد محمد ، قال تعالى « وإذ يمكركم الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » (١) . فهذا المصدر هو أدق مصدر يحكى هذه المؤامرة وما جرى فيها .

والقرآن يصور لنا حال المسلمين في غزوة الخندق أدق تصوير يقول . « إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر » (٢) وهو بهذا يفنينا عن أى مرجع آخر . والقرآن يعطينا معلومات ضافية عن غزوة بدر في سورة الأنفال ، وعن غزوة أحد في سورة آل عمران ، وعن غزوة الأحزاب في السورة المسماة باسمها ، وعن صلح الحديبية في سورة الفتح ، وعن غزوة تبوك في سورة التوبة ، وهكذا .

ويجىء بعد القرآن حديث الرسول ، وقد كانت أحاديث الرسول أهم مرجع اعتمدنا عليه ونحن ندرس حياة الرسول بالمدينة ، والمصدران بالغا الأهمية بشكل أنخص في دراسة الحضارة الإسلامية . فإن هذه الدراسة اتخذت أسسها منهما .

(١) سورة الأنفال : الآية ٣٠ .

(٢) سورة الأحزاب : الآية العاشرة .

وبعد القرآن والحديث تجيء الوثائق ، والوثائق باللغة الأهمية في دراسة التاريخ الإسلامى ، ولكن للأسف فقدت أغلب الوثائق في الحروب الداخلية التي كثيراً ما التهمت نيرانها هذا المصدر الهام من مصادر التاريخ ، ومنع هذا فلا تزال لدينا مجموعة ذات بال ، وقد جمع السيد حميد الله الحيدر آبادى في كتاب خاص « مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة » كما جمع الأستاذ أحمد زكى صفوت أكبر مجموعة من هذا النوع في كتابين هما « جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة وهو في أربعة أجزاء كبيرة ، وجمهرة خطب العرب وهو في أربعة أجزاء أيضاً .

وبعد الوثائق تجيء كتب المؤرخين ، والحديث عن كتب المؤرخين يقتضي أن نتحدث قليلاً عن رأى المسلمين الأول في التدوين (١) .

أول كتاب دونه المسلمون هو كتاب الله ، ويروى المؤرخون أن المسلمين ترددوا طويلاً قبل أن يقدموا على تدوين القرآن ، وربما جاز لنا أن نعود قليلاً إلى الوراء لنذكر أن الرسول كان بعد أن يتلقى الوحي يملئ ما تلقاه على كتاب الوحي ، وكان هؤلاء يكتبون ما يسمعون من الرسول على عسيب النخل أو الجلد أو العظام أو الحجارة الرقيقة ، ولكن جل الاعتماد على صيانة القرآن كان على الحفظ ، فقد كانت ذاكرة العرب قوية وحافظتهم مشهوداً بها . بيد أن كثيرين من الحفاظ ماتوا في حروب الردة وحروب المتنبيين ، فأشار عمر على أبى بكر أن يجمع القرآن ويدونه ، وقد تردد أبو بكر حيناً ثم وافق عمر ، وانتدبا لذلك زيد بن ثابت ، ولكنه تردد أيضاً حيناً ثم وافق (٢) .

(١) انظر كتاب تعيين العلم للخطيب البنادى .

(٢) اقرأ كتاب تاريخ التشريع الإسلامى وتاريخ النظم القضائية في الإسلام المؤلف

فإذا جئنا إلى تدوين الحديث وجدنا التردد أكثر ، فقد كان القرآن يدون عتب نزوله كما قلنا ، ولكن الحديث لم يكن يدون خوفاً من أن يختلط بالقرآن ، وبعد وفاة الرسول وظهور الأحاديث الموضوعة أمر أبو بكر الناس ألا يحدثوا عن الرسول ، وصار عمر على هذا النهج بل بالغ فيه فحبس ابن مسعود وأبا الدرداء وأبا مسعود الأنصاري لأنهم أكثروا التحديث عن الرسول ، ولهذا لم ينشط تدوين الأحاديث إلا في منتصف القرن الثاني الهجري حيث شغل به يالك بالمدينة ، وابن جريح بمكة ، وسفيان الثوري بالكوفة وحامد بالبصرة ... (١) .

وإذا كان المسلمون ترددوا على هذا النمط في تدوين الحديث فإن ترددهم في تدوين سواه من العلوم كان أكثر ، ومن هنا وجب علينا الحذر في تلقي الأخبار التي دونها المؤرخون ، فإن الأحداث الأولى لم تصل للمؤرخين مدونة وإنما وصلتهم من الرواة ، وعلى هذا يصادف المؤرخ أحياناً بعض التناقض ، وإن كان ليس من العسير على المؤرخ المدرب أن يصل إلى الحقيقة حتماً أو تقريباً من بين طيات ذلك التناقض .

ومن الكتب الهامة التي ستمدنا بمادة غريزة كتب التراجم وعلى رأسها سيرة سيدنا رسول الله : سيرة ابن هشام (٢١٣ هـ) . وقد برع المسلمون في موضوع التراجم براعة لم تصل إليها أية أمة ؛ واتجهوا بها اتجاهات تخصص دقيق ، فجعلوا بعضها للأعيان مثل « وفيات الأعيان » لابن خلكان (٦٨١ هـ) وتكلمته « فوات الوفيات » لابن شاکر الكتبي (٧٦٤ هـ) والوفاء بالوفيات للصفدي (٨٦٤ هـ) وجعلوا بعضها للأدباء كمعجم الأدباء لياقوت (٦٢٦ هـ) وبعضها للفقهاء كطبقات الشافعية للسبكي (٧٧١ هـ) وبعضها للأطباء كتراجم الحكماء لابن القفطى (٦٤٦ هـ) .

ومن الكتب الهامة كذلك كتب الحوليات وفي قمتها تاريخ الطبري (٨٣١٠) والكامل في التاريخ لابن الأثير (٦٣٠ هـ) .

ومن الكتب الهامة أيضاً كتب التاريخ العام التي ليست من الحوليات ومن أهمها تاريخ يعقوبى الذى دون التاريخ الإسلامى حتى سنة ٢٥٦ هـ وكذلك العبر لابن خلدون (٨٠٨ هـ)

وكتب المغازى والفتوح وأهمها فتوح الشام للواقدي (٢٠٧ هـ) وفتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم (٢٥٧ هـ) وفتوح البلدان للبلاذرى (٨٢٧٩).

وكتب الجغرافية وأهمها مروج الذهب للمسعودى (٢٤٥ هـ)؛ وكتاب صورة الأرض لابن حوقل (٢٦٧ هـ) ومعجم البلدان لياقوت (٦٢٦ هـ) .

وهذه المراجع — كما هو واضح — عامة تمدنا بمادة هامة عن القرون الأولى للتاريخ الإسلامى فى مختلف بقلعه ، ولكننا نحتاج بعد ذلك إلى الكتب التى اتجهت لدراسة كل قطر على حدة عندما انفرط عقد العالم الإسلامى .

فاذا وصلنا إلى العصر الحديث لعبت الوثائق والمراجع الحديثة وتصريحات صانعى التاريخ ، وشهود العيان ، أكبر دور فى إمدادنا بالمعلومات اللازمة وهو ما اتضح فى الجزء الرابع وماتلاه من أجزاء .

فاذا جئنا للحضارة الإسلامية وجدنا لوناً من الصعوبة ، فإن المؤرخين والكتّاب الأول لم يفرّدوا كتباً وبحوثاً خاصة لإعطاء دراسة كافية للحضارة الإسلامية ، ولذلك كان علينا أن نصبر وأن نثابر حتى نجد الحضارة الإسلامية متناثرة فيما كتبه ، وعلى كل حال فبين ما كتبه الأولون كتب تميل إلى جانب الدراسات الحضارية أكثر من ميلها إلى الدراسات التاريخية ، ونستطيع - مع الصبر - أن

نمسخ المادة من هذه الكتب ونرتبها ، فنخرج لنا فكرة عن حضارة الإسلام
كاملة أو قريبة من الكمال ، ومن هذه الكتب ما يلي .

- | | |
|---------------|---|
| أبو يوسف | (١٩٢ هـ) في كتابه الخراج . |
| الكلبي | (٢٠٤ هـ) في كتابه الأصنام . |
| الجاحظ | (٢٥٥ هـ) في كتبه : الحيوان - البيان والتبيين - التاج
في أخلاق الملوك . |
| ابن قتيبة | (٢٧٦ هـ) في كتبه . المعارف - الإمامة والسياسة -
عيون الأخبار . |
| ابن عبد ربه | (٢٣٨ هـ) في كتابه العقد الفريد . |
| الجهشياري | (٣٣١ هـ) في كتابه الوزراء والكتاب . |
| قدامة بن جعفر | (٣٣٧ هـ) في كتابه الخراج . |
| الأصفهاني | (٣٥٦ هـ) في كتابه الأغاني . |
| الماوردي | (٤٥٠ هـ) في كتابه الاحكام السلطانية . |
| ابن حزم | (٤٥٦ هـ) في كتابه الفصل في الملل والاهواء والنحل ، والمحلى . |
| الغزالي | (٥٠٥ هـ) في كتبه : الإحياء - إلهام العوام - الرسائل . |
| الشهرستاني | (٥٤٨ هـ) في كتابه الملل والنحل . |
| ابن الجوزي | (٥٩٧ هـ) في كتابه : مناقب عمر بن الخطاب - مناقب
عمر بن عبد العزيز |
| ابن الطقطقي | (٧٠٩ هـ) في كتابه الفعري في الآداب السلطانية . |
| ابن خلدون | (٨٠٨ هـ) في المقدمة . |
| القلقشندي | (٨٢١ هـ) في كتابه صبح الأعشى . |
| ابن حجر | (٨٥٣ هـ) في كتابه رفع الإصر عن قضاة مصر . |

السيوطي (١٩١١ م) في كتبه • الانتقان في علوم القرآن - نزهاء
الجلساء - تاريخ الخلفاء •

ويجىء بعد ذلك مجموعة كبيرة من كتب المحدثين ، وذلك مثل مؤلفات
محمد عبده الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية •

أحمد أمين : فجر الإسلام - صفى الإسلام - ظهر الإسلام -
يوم الإسلام •

عباس العقاد : العبقريات - الديمقراطية في الإسلام - حقائق الإسلام
وأباطيل خصومه

طه حسين : على هامش السيرة - الفتنة الكبرى : عثمان - على وبنوه
محمد كرد على : الإسلام والحضارة العربية •

محمد الخضرى : أصول الفقه - تاريخ التشريع الإسلامى - محاضرات
في التاريخ الإسلامى •

محمد حسين هيكل : حياة محمد - الصديق أبوبكر - الفاروق عمر
جورجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى .

فريد رفاعى : عصر المأمون .

على عبد الرازق : الإسلام وأصول الحكم .

حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام .

عبد المنعم مازد . التاريخ السياسى للدولة العربية (حتى سقوط الدولة الأموية)

أحمد شلبى : « موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية »
في عشرة أجزاء .

« موسوعة النظم والحضارة الإسلامية » في عشرة أجزاء .

سلسلة « مقارنة الأديان » في أربعة أجزاء .

ومجموعات كثيرة أخرى من الكتب غير هذه .

وقد أدت كتب المستشرقين دوراً كبيراً في هذه الدراسة التاريخية
والحضارية ، ومن أهم الكتب التي قدمت فائدة تذكر كتب :

Stanley Lane Poole :]

History of Egypt in the Middle Ages

The Moors in Spain

Muhammadan Dynasties

ومن كتب المستشرقين أيضاً ذات الفائدة :

Nicholson : A Literary History of the Arabs .

Browne ; A Literary History of persia

Gibb : Muhammadanism

Thomas Arnold ; The Caliphate

The Breaching of Islam

Margolioth ; Muhammed and the Rise of Islam

H . Wells : A Short History of the world

G Kirk ; A Short History of the Middle East

ومن الكتب ذات الفائدة العظيمة التي كتبها شرفيون مسلمون أو
غير مسلمين بغير اللغة العربية .

Sayid Ameer Ali : A Short History os the Saracens

: The spirit of Islam

Rhuda Bakhsh : Islamic Civilization

ph . Hitti ; The History of the Arabs ‘

وقد قدمت دوائر المعارف العربية والأوربية مادة وفيرة ومساعدات
جمة لهذه الموسوعة سنجلدها متأثرة في أجزائها .

وفي هذا الجزء (الجزء الأول) تحدثت عن العرب قبل الإسلام ، وعن
سيرة الرسول ، وعن الخلفاء الراشدين ، وأريد هنا أن أثبت حقيقة باللغة
الأهمية ، وهي أنني حينما كنت أكتب سيره سيدنا رسول الله صلوات الله عليه
كنت أجهد الفكرة ميسرة ، والأسلوب موالياً وكنت أنعم بلذة لا تعلمها
لذة ، وسرور لا يدانيه سرور ، وكنت أحس بدافع قوى يدفعني لمواصلة
العمل ، وكنت أدخل حجرة مكتبي وكأنني مقبل على شيء
بهيج ، فإذا جلست لمكتبي وتفرغت للعمل غمرتني سعادة ليس لي عهد
بمثلها ، ولم أدرك مبعث هذا الإحساس حتى انتهيت من كتابة سيرة
الرسول وبدأت فيما تلاها من أبحاث ، فرأيتني أعود إلى طبيعتي أحب
العمل حيناً وأنفر منه حيناً ، فأدركت أن صحبة الرسول كانت هي مبعث
اللذة ، وكانت مصدر الغبطة ، وجدير بهذه الصحبة الكريمة أن
تكون كذلك .

وبعد ، إنني أدرك أن الغاية التي أسعى لها شاقة ، ولكنني أرجو من
الله العون ، وأسأله أن ينفع بهذا العمل كاتبه وقارئه إنه سميع مجيب .

تَارِيخُ الْعَرَبِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ

مقدمة :

لا بد من معرفة فكرة عن العرب قبل الإسلام ، ذلك لأن العرب هم الجنس الأول الذى تلقى الإسلام ، وحمل ألويته ودعوته ، فجدير بنا أن نتعرف عليهم ، ثم إن العرب كانت لهم قبل الإسلام دياناتهم وعاداتهم وأخلاقهم ونظم حياتهم ، وجاء دين الإسلام وله نظمه وأخلاقه . فالدين الجديد نزل على قوم ليسوا جددًا ، فالتقى الدين الإسلامى بأديان الجاهلية ، والتقت نظم الإسلام بنظم العرب قبله ، وحدث صراع طويل لا يمكن أن نحيط به إلا إذا عرفنا شيئاً عن حياة العرب قبل الإسلام ، ومثل ذلك يجب أن يتبع إذا تحدثنا عن دخول الإسلام مصر أو الشام أو إندونيسيا ... فلا بد أن نعرف شيئاً عن هذه البلاد قبل الإسلام ، فذلك الذى سنعرفه سيوضح لنا أسباب الطريقة التى استقبل بها الإسلام فى أى من هذه البلاد .

وسنذكر فيما بعد أن سكان الجزيرة العربية قسماً : بدو وحضر ، وإذا كنا نعرف شيئاً كافياً عن تاريخ الحضرة فى الجنوب والشمال والحجاز ، فإن تاريخ البادية والبدو يكاد يكون مجهولاً ، وأقدم ما نعرفه عنهم هو ما امتد قبل الإسلام بحوالى ١٥٠ سنة فقط . وسبب ذلك أنهم كانوا قبائل متعادلة متحاربة ، وكانت الحرب عندهم فى الأصل ضرورية للحفاظ على الحياة ، فالقوى هو الذى يستطيع أن يمتلك منازل الماء ومراعى السائمة ، أما الضعيف فليس له سبيل للحياة الكريمة . واشتغال البدو بالحروب استنفد جهدهم فلم يتجهوا للحضارة ، فإذا حدث أن اتجه بعضهم للحضارة أفنى أعداؤه حضارته التى بناها ومجده الذى شيده ، ثم إنهم كانوا يجهلون الكتابة فلم يدونوا لنا تاريخهم وحياتهم ، وعلى هذا لم نعلم آثاراً أو أبنية تحدثنا عن تاريخهم ، ولم توجد كتابة تعلمنا ذلك التاريخ ، ولم يصل لنا عن الأقدمين إلا ما أورده الكتب المقدسة ، أما المائة والخمسون سنة التى (٢ - ٦ الرابع)

سبق الإسلام فقد جاءتنا المعارضات عنها مما أثبتته الشعر أو تحدث به الرواة .

وسنورد فيما يلي مباحث كافية تجلّى لنا إلى حد كبير حياة العرب قبل الإسلام ، وسنلم في دراستنا بالموضوعات الآتية :

- تعريف هام بالمنطقة وبالسكان .
 - التاريخ السياسي للعرب قبل الإسلام .
 - الانجازات الاقتصادية لدى المجتمع العربي قبل الإسلام .
 - الحياة الاجتماعية في الجزيرة العربية قبل الإسلام .
-



خريطة الجزيرة العربية والعجاز بوجه خاص

تعريف عام بالمنطقة وسكانها

في هذا التعريف ندرس الموضوعات التالية :

— جغرافية جزيرة العرب .

— الجنس العربي .

— لغة الشمال ولغة الجنوب .

وهذه الموضوعات ستساعدنا على التعرف على المنطقة ، وعلى سكانها
فلنأخذ في ذلك :

جغرافية جزيرة العرب :

يطلق العرب على بلادهم « جزيرة » مع أن الماء يحيط بها من الشرق والغرب والجنوب فقط ، أما في الشمال فتوجد « بادية الشام » ولذلك كان إطلاق كلمة الجزيرة على بلاد العرب هو من باب التجوز ، أو لأن العرب في رحلاتهم التجارية بين الشمال والجنوب وبين الشرق والغرب كانوا يسرون مع شواطئ البحار ، فظنوا أو فاعتبروا أرضهم محاطة بالبحار من جميع النواحي ، فأطلقوا عليها كلمة « جزيرة » ، وكثير من المؤلفين المعاصرين يقولون « شبه الجزيرة » وضعاً للأمر في نصائها .

والذي ينظر إلى « الخريطة رقم ١ » يجد الجزيرة العربية على شكل مستطيل غير متوازي الأضلاع مع انبعاج في قاعدة المستطيل الجنوبية ، وحدود الجزيرة هي بحر القلزم (البحر الأحمر) من الغرب ، والمحيط الهندي من الجنوب وخليج عمان والخليج العربي من الشرق ، أما في الشمال فتقع بادية الشام ولا تصل الجزيرة العربية إلى البحر الأبيض المتوسط إلا تجوزاً كما سبق القول وطول الجزيرة العربية يزيد عن ألف كيلو متر وعرضها يبلغ نحو ألف من الكيلو مترات .

وهذه المساحة الشاسعة يمكن أن نقسمها قسمين هما .

١ - قلب الجزيرة ،

٢ - دائرها .

ويختلف كل من هذين القسمين عن الآخر من الناحية الجغرافية اختلافاً كبيراً ، فقلب الجزيرة يشكون من ملامل من الجبال المرتفعة ، بينها بعض الوديان ، ولا تسقط عليه الأمطار إلا قليلاً ، ومن ثمّ كان قليل السكان ، وكان سكانه رحلاً يبحثون على مساقط الأمطار أو منابع الماء ، ويبقون حولها يرعون العشب ويشربون الماء حتى ينفد العشب ويجف الماء ، وحينئذ يبحثون عن مكان آخر وهكذا ، وطبيعى أن قوماً كهؤلاء ، لم تكن لهم مساكن يأوون إليها ، وإنما كانوا يستعملون الخيام ، وكان الحمل عونهم الكبير في تنقلاتهم ولذلك يسمى « سفينة الصحراء » ، أما الغنم فهي مادة حياتهم يشربون لبنها ويأكلون لحمها ويستعملون جلودها ملابس في البرد ، ويصنعون من أصوافها خيامهم وملابسهم ، ويسمى هؤلاء القوم « البدو » كما يسمى قلب الجزيرة العربية « البادية » ، ولم تسم حياة البادية للبدو أن يعملوا في الزراعة أو الصناعة ، فهاتان من حرف الاستقرار الذى لم ينعم به سكان البادية .

وبالإضافة إلى سلاسل الجبال الهائلة المنتشرة في الجزيرة العربية ، توجد منطقتان مهمتان إحداهما في الشمال ويطلق عليها (نجد) والأخرى في الجنوب ويطلق عليها « الأحقاف » أو « الربع الخالى » ، ومع قلة السكان في نجد فإنهم أكثر نسبياً من سكان الأحقاف ، ولذلك يطلق على الأحقاف « الربع الخالى » لخلوه تقريباً من السكان ، وتختلف طبيعة الأرض في نجد عنها في الأحقاف ، ففي الأحقاف رمال تغوص تحت أقدام السائرين وتبتاع مياه الأمطار إن نزلت عليها ، ولهذا كان هذا القسم قليل السكان ، أما نجد

فأرض صحيرية، ومن عوامل التحات والتعرية تكونت في بعض الأنحاء بنجد طبقة زراعية من قبور الصخر الظاهرية، وبقيت الأرض صحيرية في الداخل فلا تبتلع المياه التي تهبط عليها، ومن ثم كانت نجد أكثر قبولا للزراعة، وبالتالي أكثر عمراناً من الأحقاف.

أما دائر الجزيرة العربية فهو عبارة عن شريط ضيق في الغالب يمتد مع الشواطئ المحيطة بالجزيرة العربية. وينفسح هذا الشريط قليلا عند التقاء البحر الأحمر بالمحيط الهندي فتكون اليمن، ودائر الجزيرة العربية يختلف عن قلبها اختلافاً ظاهراً، فالأمطار تسقط على دائر الجزيرة بشكل مستظم تقريباً ضمن للناس نوعاً من الزراعة ومن ثم نوعاً من الاستقرار، فقامت ممالك ومدن وقرى على الشاطئ وهي كما يتضح من الخريطة السابقة: الأحساء أو البحرين - عمان - مهرة - حضرموت (من مهرة وحضرموت تتكون الآن جمهورية اليمن الشعبية) - اليمن - (تطلق اليمن أحياناً على الساحل الجنوبي كله)، وأهم هذه المناطق، من ناحية الدراسة التاريخية المتصلة بهذه الفترة اليمن والحجاز، وسنوليها العناية الكافية بهذا الجزء، على أن مناطق الجزيرة العربية كلها قد خصص لها الجزء السابع من هذه الموسوعة ليشمل تاريخها من مطلع الإسلام حتى العصر الحاضر.

وفي شمال الجزيرة العربية تكونت مملكتان هما الحيرة وغمسان، وكانت هاتان المملكتان حداً فاصلاً بين الجزيرة العربية وبين دولتي الفرس والروم وقد تأثرت حياة المملكتين العربيتين بالفرس والروم لعمق الصلة بين الحيرة وبين الفرس. وعمقتها كذلك بين الغساسنة وبين الروم كما سيأتى، وهناك قبل الغساسنة قامت مملكتان ببادية الشام هما مملكة الأنباط وعاصمتها البتراء، ومملكة تدمر وعاصمتها تدمر، وعلاقة هاتين المملكتين بالدراسات الإسلامية أقل بكثير من علاقة الغساسنة والمناذرة بطبيعة الحال، لأن ملك الغساسنة والمناذرة استمر حتى ظهور الإسلام، بخلاف مملكتي الأنباط وتدمر،

ولكننا مع هذا لن نهمل هاتين المملكتين عند ذكر التفاصيل عن ممالك شمال الجزيرة العربية .

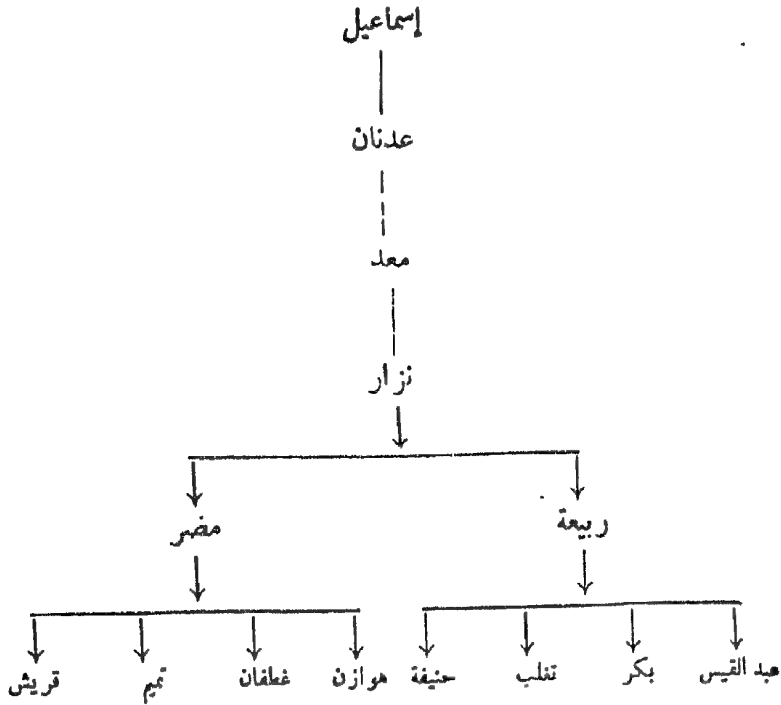
الجنس العربي :

الجنس العربي هو أحد الأجناس السامية ولعله أكثرها محافظة على خصائص الساميين ، واللغة العربية هي إحدى اللغات السامية ولكنها أيضاً أكثرها محافظة على خصائص اللسان السامي^(١)، وترجع هذه المحافظة إلى طبيعة الحياة في الجزيرة العربية . فلقد حرصت هذه الحياة الجنس العربي واللغة العربية من الملجبات التي تعرض لها غير العرب من الساميين وغير اللغة العربية من فروع اللسان السامي .

وقد جرى المؤرخون على وضع حد فاصل بين قسمين من العرب هما : العرب البائدة والعرب الباقية ، وكلام المؤرخين يوحى بأنه لا توجد علاقة بين الاثنين ، وكلمة البائدة تفيد الاندثار والفاء ، وفي هذا القسم توضع عاد وثمود وطسم وجديس ، ويرى هؤلاء المؤرخون أن الكتب المقدسة هي التي روت لنا شيئاً من أخبار بعض هذه الجماعات ، وأن ذكرها ورد أحياناً في بعض المراجع القديمة .

أما العرب الباقية فهم الذين لا يزالون حتى اليوم ، ويبدو أن وضع حد فاصل بين القسمين غير مفهوم ، وأن ارتباطاً ما ينبغي أن يلاحظ بين السابقين واللاحقين ، والعرب الباقية تنقسم بالتالي قسمين : قحطانية وعدنانية ، والقحطانيون موطنهم الأصلي جنوب الجزيرة ، ومنهم ملوك اليمن وقبائل سبأ وحير ، وقد خرجت منهم جماعات وقبائل في ظروف متعددة ونزلت بأجزاء مختلفة من الجزيرة العربية ، ومن هؤلاء اللخميون الذين نزلوا الحيرة

وكونوا ملكا بها ، ومنهم كذلك أولاد جفنة ملوك النساسنة ، ومنهم ملوك كندة ، كما أن منهم الأزدي الذين تفرع منهم الأوس والخزرج ، أما العدنانية فيسمون العرب المستعربة أى الذين دخل عليهم دم ليس عربيا ثم تم اندماج بين هذا الدم الدخيل وبين العرب ، وأصبحت اللغة العربية لسان المزيج الجديد ، وهؤلاء هم عرب الحجاز وموطنهم الأصلي مكة المكرمة والدم الجديد الذى نزل بهم هو إسماعيل الذى جىء به إلى مكة وهو صغير ، ونشأ بين سكانها من قبيلة جرهم كما سيأتى ، ثم صاهر العرب وعاش أولاده بينهم بعد أن استعربوا . ومن أهم أولاد إسماعيل عدنان الذى تنسب له هذه الطائفة ، ويحىء بعد عدنان ابنه معد ثم نزار بن معد ، ونزار هذا فرعان هامان يتبعان ولديه : ربيعة ومضر ، ومن أشهر قبائل ربيعة عبد القيس وبكر وتغلب وحنيفة ، ومن أشهر قبائل مضر هوازن وغطفان ونمير وقريش .



ولم تسع مكة لعرب الشمال فبدأوا يهاجرون للبحث عن مساقط الماء ومناجيع العشب ، فنزّل عبد القيس البحرين ، ونزل بنو حنيفة الجمامة ، ونزل بنو هوازن بنواحي أو طاس شرق مكة .

وكان لعرب الجنوب مدنية أعمق ومعرفة بشئون السياسة أكثر من عرب الشمال ، ولذلك لما هاجر عرب الجنوب للشمال أقاموا لهم مدنات وممالك في الشمال ، ومنهم يتكون حضر الجزيرة في الغالب ، أما عرب الشمال فلم يظهر لهم مجد ذو بال إلا في ظل الإسلام ، وكانوا يكونون بدو الجزيرة . وسرى أن الإسلام قد نادى بزوال الفوارق ، وعمل محمد ﷺ وعمل خلفاؤه من بعده على تكوين أمة إسلامية لا عصبية فيها ، ولكن الخلاف بين عرب الجنوب وعرب الشمال لم يتوقف ، وكان يبدو قوياً مدمراً من حين إلى آخر ، وبخاصة عندما يكون الخليفة ضعيفاً أو عندما ينسى المثل الإسلامية وينتصر لهؤلاء أو أولئك .

لغة الشمال ولغة الجنوب :

ستد لنا الأبحاث التالية على أن اليمن كانت سيدة الحضارة في الجزيرة العربية ، وكانت في يدها تجارة الشرق كله ، وكانت لها مستعمرات على طول الطريق من اليمن إلى الشام بالإضافة إلى خطوطها البحرية ، وهذه المستعمرات لم تدع حاجة لاستخدام البدو الذين يسكنون شمال الجزيرة ، وعلى هذا قل الاختلاط بين عرب الجنوب وعرب الشمال ، ثم إن اليمن جذبت لها طوائف من المهاجرين بسبب صلاتها التجارية ، وأهم هؤلاء مهاجرو إفريقية والحبشة عبر باب المندب ، ولهذا الأسباب وجدت في الجنوب لغة غير لغة الشمال ويبدو أن لغة الجنوب كانت أقوى حضارة بسبب رقي المتكلمين بها وسمو آدابهم ؛ ولكن دخلتها ألفاظ أجنبية كثيرة بسبب كثرة المتكلمين بها من غير العرب ، فأصبحت الوية الموضوع ضعيفة الأسلوب ، ولغة الجنوب هذه لها صلة وثيقة بلغة الحبشة ، إحدى اللغات السامية ، وتسمى اللغة الحميرية نسبة إلى حمير ، وبهذه اللغة نفشت بعض أخبار الحميريين التي لا تزال موجودة

أما لغة الشمال فهي لغة قريش ، وتختلف عن لغة الجنوب في تصاريف الأفعال والضمائر ، ولكنها تتفق معها في كثير من المفردات وفي الجموع المكسرة ^(١) ، وهذه اللغة وإن كانت أقل حضارة إلا أنها كانت سليمة فصيحة .

ودالت دولة الجنوب ، وانتقلت التجارة بالجزيرة العربية إلى عرب الشمال كما سيأتي إيضاحه ، وكثر الاهتمام بمكة كمركز ديني للعرب جميعاً تنمو مكانته يوماً بعد يوم ، وهذا جعل لغة الشمال تنمو ولغة الجنوب تتقهقر ، وجاء الإسلام ونزل القرآن بأغة قريش لغة الشمال ، وتم لهذه اللغة بذلك السلطان في الجزيرة العربية كلها ولم يبق للغة الجنوب إلا آثار لاقيمة لها ، ومع هذا فلم تدع لغة الشمال هذه البقية دون أن تدخل عليها كثيراً من خصائصها ومفرداتها حتى ضاقت الهوة ، وأصبحت لا تعدو أن تكون لهجة من لهجات لغة الشمال .

(١) انظر تاريخ العرب للدكتور فيليب حتى ج ٢ ص ٢٨ و ٦٧

التاريخ السياسى

للرب قبل الإسلام

إن الفكر السياسى عند البدو يختلف عنه عند الحضرة ، فبينما عاش البدو فى نظام الوحدة الصغيرة والقبيلة استطاع الحضرة أن يكوّنوا ملك لها ملوك ونظم سياسية ، ومن هنا لزم أن نتكلم عن البدو وعن الحضرة ، كل على حدة ، مع ملاحظة أن نظام الحكم القبلى متشابه ، فأعطاء فكرة عنه سيغنيننا عن تتبع القبائل هنا وهناك ، ولو أردنا أن نتبع كل القبائل ما استطعنا ، لقلنا ما لدينا من مادة ، ولعدم الاستقرار فى سلطاتها السياسية :

١ - الحكم فى البادية

يعيش البدو فى الصحراء فى نظام قبلى ، والوحدة فى البادية هى القبيلة ، وهى وحدة يربط بينها الدم والعصبية ، ويعتبر من أفراد القبيلة هؤلاء الضعاف أو العبيد الذين يلجأون للقبيلة ويعيشون فى جوارها وحمايتها ولو لم تكن بينهم وبين القبيلة صلة دم .

وقد تطغى قبيلة على أخرى وتغلبها على أمرها فيخضع المغلوب للغالب لمدة قصيرة أو طويلة ، حتى يتاح للقبيلة المغلوبة من أبنائها من يشهر السيف فى وجه الغالبين ويكسب لقبيلته استقلالها .

والقبيلة العربية تخضع لدستور صارم نظمته التقاليد والعرف ، وبخلاصة هذا الدستور أن يحس الفرد برابطته القبيلة ، ويلتزم بتأييد مصالحها ، والعمل لها بكل ما يملك من قوة^(١) ، وأفراد القبيلة جميعا متضامنون فيما يرتكبه أحدهم

(١) الميدانى : مجمع الأشكال ج ١ ص ١٧

تضامنا حازما ، فتأتى مسئولته على سيد العشيرة الذى عليه أن يتحمل
التبعة باسم القبيلة ، وله - من أجل هذا - حق الطاعة على أفراد القبيلة ٥

وسيد القبيلة يُختار من بين من تجمعت فيهم صفات الشجاعة والكرم
والحلم ، أو قل إن الامتياز فى هذه الصفات يفرض صاحبه ليكون سيداً
القبيلة ، وقد يحىء لرئيس القبيلة ابنٌ يعدله فى الشرف والسودد وحينئذ
يستطيع أن يرث مكانة أبيه ، وإذا تكررت رياسة التبيلة فى بيت من بيوتها
عرف هذا البيت بالخذ والجاء .

ومسئوليات سيد العشيرة أو رئيس القبيلة أكثر جداً من حقوقه ، فهو فى
السلم جواد كريم مسئول عن إكرام الضيوف الوافدين . وإغاثة المحتاجين
من أبناء القبيلة ، وإجارة المستجير ، وهو فى الحرب يتقدم الصفوف ويساعد
من لا اعتاد له ، وهو يتحمل باسم القبيلة تبعة ما قد يرتكبه أفراد القبيلة من
أخطاء ، ولكن إذا ارتكب فرد من أفراد القبيلة جرماً ترفض القبيلة أن
تنحمل نتائجه ، أو إذا أخطأ فى حق قبيلته نفسها ، فإنه يطرد منها ، ويسمى
هذا الطرد خلعاً ويسمى الطريد خليعاً .

أما حقوق رئيس القبيلة فهى الطاعة المطلقة على كل أفراد القبيلة ، وليس
لدى رئيس القبيلة قوة مادية يرغم بها أفراد القبيلة على الطاعة ، وإنما هى
التقاليد والعرف ، وللبدوى أن يتمرد على أى قرار يتخذه رئيس القبيلة ،
ولكن عليه فى هذه الحال أن يدع القبيلة وأن يهجرها هجراً تاماً ، وكثيراً
ما لجأ البدوى إلى هذا للتصرف ، فإن أهم ما يمتاز به البدو عدم الخضوع ،
فالحرية عند البدوى هى خير ما يعتزُّ به ، ولا يستطيع أن يتنازل عن أى جزء
منها لقاء أى شئ ، فما نعرفه فى العصر الحديث من أن كل فرد ينبغي أن
يتنازل عن جزء من حريته لتحقيق الحرية للمجموع ، هذا الانجاء كان
البدوى يعتبره خدعة ولا يقبله ، والموت أو الهجرة عن الوطن أيسر على
البدوى من فقدان حريته .

والدارس لتاريخ البادية ونظام الحكم بها يجد أن تمرد أفراد من القبيلة على حكم رئيسها كان كثير الوقوع وكانت الحرية المطلقة ، والأناية المفرطة ، والأثرة ، من أهم العوامل التي تتحرك في نفوس البدو ، فلا يخضعون لحكم يصدره رئيس القبيلة ويؤثرون أن يخلعوا أنفسهم وبهمون على وجوههم مع نظرائهم من الخلعاء .

ومن مظاهر الأناية والفردية عند البدو ما روى من أن بعضهم كان بعد دخوله الإسلام يهتف داعياً : اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً :

ومن أجل هذا لم يكن سهلاً أن يتم بالبادية ارتباط بين عدد من القبائل لتكوين ممالك ، فالقبيلة الواحدة كانت معرضة للانقسام بطوراً كلما كبرت ، وكان أفراد كثيرون منها يتركونها أو يطردون منها من حين لآخر كما ذكرنا ، وعلى هذا فالإنجاء في البادية كان للانقسام لا للتجمع .

مملكة كندة :

وهناك مملكة وحيدة قصيرة العمر قامت في أواسط الجزيرة العربية بين الحكم القبلي وهي مملكة كندة (٤٨٠ - ٥٢٩ م) وكان أحد ملوك تبع^(١) قد قهر بعض القبائل في أواسط الجزيرة فعين (حجر) آكل المزارع ملكاً عليها ، وقد استطاع حفيده الحارث أن يستولى على الحيرة ويتخذ له عاصمة يغلب أن تكون الأنبار ، ولكن سرعان ما انهزم ملوك كندة أمام وثبة جديدة قام بها الأعميون ملوك الحيرة ، وقد تسبب عن انهزام ملوك كندة في الشمال أن تفتت ملكهم في قلب الجزيرة وعادت الحياة القبلية إلى الظهور . وينسب امرؤ القيس أحد شعراء المعلقات إلى ملوك كندة ، وقد حاول أن يعيد مجد آبائه ولكن محاولته لم تكلل بالنجاح .

(١) التبابعة لقب ملوك اليمن الأقدمين .

٢ - الحضرة

مناطق الحضرة المهمة في الجزيرة العربية تتركز في ثلاث مناطق هي :

(أ) اليمن .

(ب) ممالك الشمال وتشمل :

١ - الأنباط . ٢ - ثمود . ٣ - الحيرة وغسان .

(ج) الحجاز .

ومن تكلم عن كل منها على حدة :

(أ) اليمن

قلنا فيما سبق إن دائرة الجزيرة العربية عبارة عن شريط ضيق يمتد مع الشواطئ المحيطة بالجزيرة العربية ، وينفصح هذا الشريط قليلاً عند التقاء البحر الأحمر بالمحيط الهندي فيتكون اليمن ، ونضيف هنا أنه في هذا الملتقى تكونت حضارة تعتبر أرقى حضارات الجزيرة العربية . كما أنها ذات قيمة كبيرة بين الحضارات العالمية .

تسمية اليمن :

وقد اشتق اسم اليمن من اليَمَن لأنها بلاد يمن وبركة وخير ^(١) ، إذا قيست بالصحرارى القريبة منها ، وقد جاء اليَمَن إلى اليمن من خصوبة أرضها ، وهبوط الأمطار عليها هبوطاً منتظماً . وكذلك من مهارة أهلها بحيث استطاعوا أن يحفظوا هذه المياه من الغيباع ، فأقاموا السدود وخزنوا بها المياه بين الجبال وخلف هذه السدود ، ثم من عوامل اليَمَن أيضاً لليمن موقع هذه البلاد

(١) انظر ياقوت : معجم البلدان كلمة « يمن » وانظر كذلك مادة « Yaman » في

بحيث أصبحت ملتقى الرحلات البحرية التجارية التي تأتي من الهند ومن إندونيسيا والصين حيث تلتقي بالرحلات البرية وقوافل الجبال التي تسير بين اليمن في أقصى الجنوب وبين الشام في شمال الجزيرة ، وعلى هذا أصبحت اليمن سوقاً هامة تعرض بها البضائع التي ترد من الرحلات البحرية والبضائع التي تعود بها قوافل الجبال من الشمال . وصيأتى فيما بعد مزيد من الكلام عن الحركة التجارية بالجزيرة .

وموقع اليمن هذا حرمها مما سبق أن ذكرناه كميزة للبادية وهو نقاء العنصر وسلامة النسب ، فقد استقبلت اليمن عناصر مختلفة من الناس ، وجذبت أسواقها تجاراً من بقاع مختلفة من الجزيرة ومن خارج الجزيرة ، وكان بعض هؤلاء التجار يقيمون بها مدداً قصيرة أو طويلة ، فاختلطت الأنساب باليمن كما اختلطت اللغة ، وكثيرون من هؤلاء جاءوا عبر باب المنذب من إفريقية وبعضهم جاء من الهند أو جزر الهند الشرقية (إندونيسيا الآن) وبعضهم جاء كذلك من سوريا مع التجارة الهابطة من الشمال ، وتم بين هؤلاء وبين القحطانيين سكان البلاد الأصليين روابط مصاهرة ، كما عاد بعض التجار اليمنيين والحضارة الذين كانوا يرافقون التجارة إلى الهند وإندونيسيا ومعهم زوجات من هذه البقاع ، وعلى هذا لا يبعد أن نتصور سوق اليمن وبها خليط من الأجناس وخليط من الحضارات وخليط من اللغات :

وغنى اليمن جلب إليها نوعاً من نظام الحكم لم يعرفه سكان البادية ، وسبب ذلك أن الناس ، كما يقول Kirk^(١) ، كانوا قبل الاهتمام إلى الزراعة يعيشون على حالة البداوة المزرعة في جماعات صغيرة متناثرة ، وكانوا لا يملكون وسيلة لسد حاجات معيشتهم إلا عن طريق الشيوع ، فلما نمت الحضارة الزراعية ووجد فائض عن الحاجة أعطى هذا الفائض إلى قوم امتازوا عن الباقي بميزة ، كرجال الدين أوقادة الحروب ... وهذا ما حدث

في اليمن ، فقد كان الدخل أكثر مما يستهلك ، وبذلك وجدت طبقة من الحكام ذوى الغنى واليسار والقوة ، وظهرت في اليمن ألقاب الملك والسلطان ، وكانت هذه الألقاب تتناسب مع رقعة الملك ، فهناك من يسمى « ذو » وهناك من يسمى « قَيْل أو مقول » وهناك أيضاً « الملك » وهى متدرجة إلى أعلى في معانيها (١) ، وفي عهود الضعف كان يكثر الانحلال والتفكك ويظهر ما يسمى بالمخاليف ، فشكل رئيس مخلاف يضيق سيطرته أو يتسع بحسب قوته . أما في عهود القوة فكانت تظهر الممالك التى كانت تذوب فيها المخاليف أو كانت تندمج فيها إذا لم تذوب هذه المخاليف نهائياً ، كما كانت هذه الممالك تمتد أحياناً فتشمل حضرموت . وأهم الممالك الكبيرة التى قامت باليمن مملكة معين ومملكة قتبان ، ومملكة حمير ، والمعلومات التى لدينا عن المملكتين الأولىين قليلة ، وكانت هاتان المملكتان متعاصرتين ، فكانت معين في أواخر الألف الثانى ق م (حوالى ١٢٠٠ ق م) وقد ظلت حتى قامت سبأ فاستنفقت أرضها ولم يبق منها في القرن السابع ق م إلا جزء يسير . أما قتبان فقد بدأت حوالى أوائل الألف الأول قبل الميلاد (١٠٠٠ ق م) وكان لها الإشراف على باب المندب . وقد ورثها سبأ أيضاً كما ورثت دولة معين .

مملكة سبأ :

لمملكة سبأ شهرة واسعة سنتحدث عنها فيما بعد ، ولكن هذه الشهرة تتصل بالدولة عند نهضتها ، أما المعلومات التى بين أيدينا عن نشأتها قليلة ، ويبدو أن مملكة سبأ بدأت على إثر ما انتاب دولة معين من ضعف ، وعاصرت سبأ كلا من معين وقتبان ، وكانت سبأ فتية ناشئة في وقت كانت معين وقتبان يبدو عليهما الهرم وتؤذنان بالزوال ، وقد استطاعت سبأ أن

(١) انظر المقد الفريد لابن عبد ربه ج ٢ ص ٧٤ .

نفسح حدودها على حساب كل من هاتين الدولتين حتي ورثتهما نهائياً في آخر الأمر ، كماضمت لها حضرموت ، وقد بدأت سبأ في منتصف القرن العاشر قبل الميلاد تقريباً (٩٥٥ ق م) وظلت حتى سنة ١١٥ ق م ، وكانت عاصمتها مأرب .

وترجع شهرة سبأ إلى سببين كبيرين أولهما ملكتها بلقيس وقصتها مع النبي سليمان والهدد^(١) ، وثانيهما سد مأرب ، فقد كانت الأمطار تهطل على اليمن ثم تنحدر إلى البحر فلا يُستفَع بها إلا في موسم نزولها ، وكان لمملكة سبأ فن في العمارة ، فعمد المهرة في فن العمارة إلى مكان ضيق يوشك أن يلتقي عنده جبلان كبيران ، وفي هذا المضيّق أقام هؤلاء سداً عظيماً هو سد مأرب الشهير ، وكانت فائدة هذا السد مزدوجة ، فقد احتفظوا بواسطته بالماء لينتفعوا به وقتما يشاءون ، فكثرت بذلك الزراعة وتعددت دوراتها كل عام ، وكذلك تحكّم هذا السد في السيول التي كانت تقضي بالفرق والإتلاف على المزارع والقرى التي تقع في المنخفضات ، فكانت نتيجة هذا السد أن كثّر الرخاء باليمن وعمت الخيرات .

ولكن مثل هذا السد يحتاج إلى عناية وتجديد مستمر ، بيد أن فترة الضعف التي نزلت بالمملكة في آخر أيامها شغلتها عن رعاية السد ، فبدأ يضعف ، وقات مقاومته للسيول الجارفة ، فانهار بعضه أمامها ، وبدل هذا الحادث الحياة في اليمن ، فهاجر كثير من السكان إلى الشمال وآذن ذلك بسقوط مملكة سبأ وقيام مملكة حمير .

مملكة حمير :

على إثر الضعف الذي انتاب مملكة سبأ بدأت قبائل حمير تكوّن لها

(١) انظر سورة النمل الآيات ٢٠ - ٤٤ وانظر الطبري ج ١ ص ٤٣٥ وما بعدها

نفوذاً وسلطاناً في اليمن ، وكان ذلك في المائة الثانية قبل الميلاد ، ولما سقطت دولة سبأ سنة ١١٥ ق م استكمل ملوك التابعة الحميريون نفوذهم ، وأصلح هؤلاء الملوك ما فسد من نظم الزراعة والسدود وأصبح لهم جاه وسلطان عظيم ، حتى ليقال إنهم ساروا بجيوشهم محارين مهديدين حتى وصلوا العراق والبحرين ^(١) .

ثم آن الأوان لهذه الدولة أن تهزم وأن تنهار ، فقلت العناية بالسدود وبخاصة سد مأرب الذي كان قد ضعف منذ عهد سبأ ، وكانت نتيجة هذا الإهمال أن انكسر السد أمام سيل العرم الذي ورد ذكره في القرآن الكريم ^(٢) فجرفت السيول مزارع القوم وبساتينهم ^(٣) وخاف انكسار السد أرضاً تحتاج للماء في الشمال وأرضاً غارقة به في الجنوب ، وكان ذلك إيذاناً بالهجرات الراسعة التي قام بها سكان اليمن إلى الحجاز وغيره في شمالي الجزيرة وخارج الجزيرة ، وكان ذلك أيضاً إيذاناً بضعف اليمن ضعفاً أدى إلى تدخل الفرس والروم رجاء احتلال البلاد السعيدة ، وسنتكلم فيما بعد على الصراع على اليمن من الدول الطامعة .

وقد خلّفت سبأ وحيراثاً تدل على العظمة والرقى ، وهي تشمل كثيراً من الأطلال والنقش ، كما كان لها أسطول ضخم ينقل البضائع بين موانئ اليمن وبين موانئ الهند والصين والصومال وسواطرها ، بحيث كانت التجارة شبه احتكار في يدها ^(٤) . ومن اليمن كانت التجارة تصعد إلى الشمال بقوافل

(١) ابن قتيبة : المعارف ص ٣٠٧

(٢) سورة سبأ : الآية السادسة عشرة

(٣) في رأى ياقوت (معجم البلدان ٤ : ٣٨٣) أن تصدع السد كان في عهد الأحباش والظاهر كما شرحنا أن السد ضعف أمام السيول عدة مرات وفي كل مرة كانت تغني السيول على جماعة تهاجر وهكذا

(٤) أنظر Periplus of Erythraean sea Translated from Greek

نقلا عن الدكتور ماجد : التاريخ السياسي للدول العربية ١ : ٧٣

برية تسيطر عليها اليمن أيضاً قبل أن ينتقل مركز هذه القوافل إلى مكة كما سيأتى فيما بعد، فقد كانت سبأ في إبان عظمتها التجارية تسيطر على طرق النقل التجارية التي تجتاز الحجاز متجهة شمالاً حتى موانئ البحر المتوسط ، وكان لها مستعمرات أنشئت على هذه الخطوط ، ويرى الدكتور حتى أن بلقيس لم تكن ملكة على بلاد اليمن وإنما كانت ملكة على أحد معاقل سبأ ومراكزها التجارية سالفه الذكر (١) . وقد كان تجار اليمن من الذكاء للرجة أنهم حافظوا على أسرار تجارتهم فلم يعرف أهل الشمال مصادر كثير من البضائع التي كانت ترد إلى اليمن من الهند وإندونيسيا والصين وغيرها حتى ظن بعض مؤرخي اليونان والرومان أن جميع هذه البضائع كانت من إنتاج اليمن (٢) .

اليمن فريسة الاستعمار :

كان الهدف الرئيسي للتسابق بين الفرس والروم على احتلال اليمن هو السيطرة على هذا الموقع المهم والانتفاع بغنى اليمن الناتج عن تجارته وحاصلاته الزراعية ، ولكن هذا الهدف الرئيسى توارى - كما تفعل دول الاستعمار دائماً - خلف أسباب أخرى ثانوية كما سيتضح مما يلي :

قلنا إن الحميريين كانت لهم السلطة في اليمن منذ سنة ١١٥ ق م ، وجاء المسيح وانتشر الدين المسيحي ولا تزال للحميريين السلطة والملك في اليمن ، ثم ضعفت حمير كما قلنا وكان ذلك في القرن الخامس الميلادي وما يليه ، وكان ملك حمير في هذه الأثناء اسمه ذو نواس وكان قد اعتنق اليهودية (٣) ، وفى

(١) فيليب حتى : تاريخ العرب ١ : ٥٤

(٢) المرجع السابق ص ٥٩ - ٦٩

(٣) تسربت اليهودية إلى اليمن بسبب الاتصال الذي تم بين ملوك اليمن ويهود الشمال =

الوقت نفسه كانت المسيحية قد انتشرت في نجران شمال اليمن . وقد جاءت المسيحية من الحبشة ، وبسبب التعصب الديني من جهة ، ومن جهة أخرى بسبب خوف الحميريين أن يمتد نفوذ الحبشة إلى بلادهم عن طريق المسيحيين بنجران ، بسبب هذا وذاك ، خيّر ذونواس المسيحيين في نجران بين اعتناق اليهودية أو الموت ، فاختاروا الموت ، فحفر لهم أخنوخاً أفناهم بين حرق وقتل ^(١) . وقد فرّ من أهل نجران رجل وذهب إلى الحبشة يستنصر بالنجاشي المسيحي ضد ملك حمير اليهودي الذي أوقع بالمسيحيين وحرق الإنجيل ، فاستجاب النجاشي للرجل وأرسل النجاشي إلى قيصر الروم حامى المسيحية يخبره بذلك ويطلب منه بعض السفن لنقل الأحباش إلى بلاد اليمن ، وفي رواية أخرى أن المسيحي الفار ذهب إلى قيصر يستنصره فأرسل قيصر للنجاشي أن ينوب عنه في الدفاع عن المسيحية وأمهده التيعصر بالسفن ، وعلى كل فقد قامت حملة اشترك فيها قيصر بالسفن وحليفه النجاشي بالرجال ، بقيادة أرباط ، وقد استطاع هذا الجيش أن ينتصر على الحميريين ، ورأى ذونواس هزيمته ، فاقترح البحر بفرسه ففرق ، وأصبحت اليمن تابعة للحبشة ،

= في أثناء رحلات تام بها هؤلاء الملوك شمال . (انظر كتاب الأصنام لابن الكاظم ص ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ٥٨) .

(١) انظر سورة البروج ١ - ٧ وانظر الطبري ج ١ ص ٥٤٤ .

ويعترض بعض الباحثين على سير القصة على هذا النحو لأن القرآن الكريم وصف المعتدى عليهم بالإيمان بالله ، قال تعالى « وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود . وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » (سورة البروج الآيتان ٧ - ٨) . وهذا يفيد أن المعتدى ليس مؤثماً بالله ، وبالتالي ينبغي أن ذا نواس كان يهودياً ويحتم وثنية . أو ينفى ارتباط القصة بذي نواس أصلاً ويربطها بملك وثني لم تحدده المراجع التاريخية . انظر « الحياة العربية من الشرع الجاهل للدكتور أحمد الخوفى ص ١٥١ - ١٥٣ » .

وربما جاز لنا أن نبقي القصة كما ذكرناها على أن يكون تصرف ذي نواس هو من اتجاهات التعصب التي عرفت عن اليهود في كثير من الأزمنة والأمكنة : وعلى هذا يكون القرآن الكريم يمين على ذي نواس هدوائه على المؤمنين التابعين لغير الدين الذي يمتنقه .

وأرسل أرباط إلى النجاشي السبأيا والغنائم^(١) .

ولم يخلص الأمر طويلاً لأرباط فقد تمرد عليه أبرهة أحد مساعديه ، ثم تبارز أرباط وأبرهة ولكن أرباط سقط في المبارزة بغدرة دبّر لها له أبرهة بأن أكن عبداً له ضربه من الخلف ضربة قتله وخلص بذلك الأمر لأبرهة^(٢) . وعند ما كان عبد المطلب بن هاشم سادن الكعبة كان أبرهة صاحب النفوذ في اليمن ، وبعد أبرهة حكم ولداه يكسوم ثم مسروق وفي عهد مسروق غلب الفرس على اليمن وأخرج الأحباش منها ، وقد دامت مدة الأحباش باليمن اثنتين وسبعين سنة^(٣) ، أما انتصار الفرس على الأحباش فحديثه فيما يلي :

كانت فارس تنقم على الأحباش والروم استعمار اليمن : وحانت الفرصة لتدخل فارس ، فإن أحد أولاد ملوك حير واسمه سيف بن ذي يزن فر إلى الفرس يطلب النجدة والعون لإخراج الأحباش من بلاده ، واستجابت فارس وأرسلت جيشاً إلى اليمن بقيادة وهرز ، وانتصر وهرز هذا وتعاون هو وسيف في القضاء على الأحباش ، ولما تم انتصار الفرس أمر كسرى أن يتزوج سيف بن ذي يزن ملكاً على اليمن^(٤) وأن يعود وهرز إلى فارس ؛

(١) تاريخ الطبري ج ١ ص ٥٤٨ .

(٢) تاريخ الطبري ج ١ ص ٥٥٨ .

(٣) يختلف المؤرخون في ذكر تاريخ استعمار الحبشة لليمن وفي المدة التي قضاها الأحباش هناك ، فبينما يذكر الطبري أن الاستعمار بدأ سنة ٥٢٥ واستمر ٧٢ سنة يذكر بروكلمان (دون أن يثبت مصدراً) أن الاستعمار بدأ سنة ٤٣٠ واستمر ٤٠ سنة ، ورواية الطبري أوضح لأن مولد الرسول حصل في عام الفيل في أثناء حكم أبرهة سنة ٥٧١ وإن كان بروكلمان ينسكرك ذلك (انظر تاريخ الشعوب الإسلامية ١ : ١٤ - ٣٤)

(٤) وقيل إن الذي توج هو مد يكر ب بن سيف لأن الأخير كان قد مات قبل زحف الجيش الفارسي . والذي في العقد الفريد يؤيد أن الذي توج هو سيف بن ذي يزن نفسه وأن أنشرف العرب وفيهم عبد المطلب ذهبوا لتهنته (انظر الجزء الثاني ص ٢٣ وما بعدها)

ولكن هذا الملك قتل بعد قليل : يقال قتله من استبفاهم عبيداً له من
الأحباش ويقال إنه قتل بتدبير الفرس ، وبعد قتله أرسل كسرى وهرز
ليكون حاكماً لليمن تابعاً للفرس ، وبعد وهرز حكم أبائوه وأحفاده :
المرزبان بن وهرز ثم الينجان بن المرزبان ثم خر خسره بن الينجان ، ثم
غضب كسرى على هذا فعزله وعين باذان على اليمن ، وعند بعثة محمد
صلوات الله عليه كان باذان حاكماً لصنعاء من قبل فارس (١) . وكان يجواره
باليمن وحضر موت أقيال وملوك من العرب ، وقد دخل باذان في الإسلام
عندما دعى إليه . كما ذكرنا في الجزء السابع من هذه الموسوعة .

(ب) ممالك الشمال

١ - الأنباط :

الأنباط أو النبطيون قبائل بدوية نزحت من الأرض المعروفة اليوم بأرض « شرق الأردن » ونزلت جنوب سوريا وكونت لها مملكة امتدت من غزة شمالاً حتى العقبة جنوباً ، وعلى هذا اتخذت هذه المملكة مكاناً مهماً في طريق التجارة بين الشمال والجنوب ، وكانت لهم إتاحة على التجارة الصاعدة والهابطة .

وعاصمة الأنباط مدينة « البتراء » أو « بطرة » وهي مدينة شهيرة في بلاد العرب حتى اليوم ، تمتاز بأنقاضها الضخمة وبخاصة أنقاض المعبد الذي كان به الآلهة التي عبدها سكان الأنباط ، ولا تزال أعمدته الشاهقة شاهد صدق على ما وصلت له البتراء من حضارة ورفق .

وقد بدأت دولة الأنباط في حوالى القرن الرابع ق . م ولكنها بلغت غاية مجدها في القرن الأول الميلادى حيث امتدت إلى دمشق التي أصبح حاكمها والياً تابعاً لملك الأنباط ، وهذا الوالى هو الذى حاول القبض على بولس الرسول يقول بولس ، « في دمشق والى الحارات الملك الذى يحرم مدينة الدمشقيين يريد أن يسكنى ، فتدلبت من طاقة في زنبيل من السور ونجوت من يديه (١) »

وامتدت الأنباط في نفس القرن جنوباً حتى مدائن صالح (الحجر) في شمال الحجاز (٢) .

(١) رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس « الإصحاح الحادى عشر : ٢٢ - ٢٣ .

(٢) أنظر فيليب حتى : تاريخ العرب ١ : ٩٠ .

ومن أشهر ملوك الأنباط الحارث الثالث (٨٥ - ٦٠ ق . م) ويسميه اليونان Arethas وعبيدة الثاني (٢٨ - ٩ ق . م) ويسميه اليونان Obudas والحارث الرابع (٩ ق . م - ٤٠ م) وهو عصر المسيح وفيه امتدت الأنباط إلى دمشق كما سبق القول .

ومن أهم العوامل التي أضعفت من شأن البتراء ومن شأن مملكة الأنباط اتجاه أهل الملاحه من الرومان إلى السفر بجراً إلى الهند ، وتحول خط القوافل بين الشرق والغرب إلى منطقة شمالية ، وهذا التحول الذي أضعف من شأن البتراء رفع شأن تدمر المدينة التي كانت عاصمة مملكة تدمر وهي في الشمال بالنسبة لمدينة دمشق (١) ولما ضعفت مملكة الأنباط أذن ذلك برقي شأن تدمر .

هذا من الناحية الاقتصادية ، أما من الناحية السياسية فإن أباطرة الرومان خافوا من التوسع الذي وصلت له الأنباط ، وخافوا من أن تصبح هذه المملكة منافساً لهم ، ولذلك لم يقتنعوا بالتحالف الذي كان معقوداً بينهم وبين ملوك الأنباط وهاجمهم الإمبراطور تراجان « Trajanus » ودمر عاصمتهم سنة ١٠٥ وضم بلادهم لإمبراطوريته ، وأصبحت مملكة الأنباط مقاطعة في الإمبراطورية الرومانية . ولذلك كان يطلق عليها « المقاطعة العربية » وكان ذلك في العام التالي تهديم البتراء .

٣ - تلمر :

وتلمر هي باليونانية (بالميرا) وهي عريقة في القدم ، ولا يعرف بالضبط تاريخ هجرة العرب إليها ، ويبدو أن ذلك كان في وقت مبكر جداً ، وقد ورد لها ذكر قبل الميلاد بأكثر من ألف عام ولكن شهرتها ترجع إلى

(١) فيليب حقي : تاريخ العرب ج ١ ص ٦٦ .

المجد الذى حققته فى القرنين الثانى والثالث بعد المسيح فقد استطاعت مملكة تدمر أن تقف فى الغالب موقف الحياد بين جارتها القويتين : الفريين (الإيرانيين) والرومان ، وقد انتفعت بهذا الانتفاع كبيراً ، ونالت عون الدولتين ، ثم كان لموقعها الجغرافى وما بها من مياه معدنية مما سبب لها الرخاء والمجد .

وعلى الرغم من محاولة الحياد فقد تورطت تدمر فى صراع مع الفرس حيناً ومع الروم حيناً .

وتدل بعض النصوص الأثرية على أن تدمر ارتبطت سياسياً بالرومان منذ القرن الميلادى الأول ، ولكنها لم تفقد استقلالها الداخلى ، وظلت تدبر شئونها بنفسها ، وبحكم هذا الارتباط بالرومان خاضت تدمر حروباً مدمرة ضد الفرس كعب لتدمر النصر المؤزر فيها ، وردت شاور الأواه إلى عاصمته بعد أن كان قد استولى على جزء كبير من أرض الشام ، وكان ملك تدمر آنذاك أذينة (٢٩٥ م) وقد منحه إمبراطور الرومان لقب « إمبراطور الشرق » اعترافاً له بخدماته ونجاحه . وبسط أذينة سلطانه على سوريا كلها ، وبعد أذينة تولت الحكم زوجته زنوبيا (وتسمى أيضاً زينب والزباء) وصبة على ابنها القاصر ، ولكن زنوبيا تحدى الرومان وصارعتهم بيد أنها انهزمت فى نهاية الصراع ، ودخل الإمبراطور أورليانوس مدينة تدمر ودمرها وأمر الملكة العربية البطلة ، ولكن الأقمريين سارت يبطولتها عبر البوادي والحراضر (١) .

وكانت هزيمة الزباء نتيجة لخيلة دبرها الإمبراطور أورليانوس فقد تظاهر بالانكسار فى إحدى المعارك وتراجع ، وأمر جنوده بنصب كمين لها وراء تلال أنطاكية وبساتينها ، وظن جيش تدمر أن الرومان قد هزموا

(١) انظر بروكلمان : تاريخ الشعوب الاملاية ١ : ٢٢ .

فعلا ، فاندفعوا إلى الأمام ، ووقعوا في الكين ونزلت بهم خسارة فادحة ، وتراجعت الزباء بمن نجى من جيشها إلى تدمر ، ولحق بهم أورليانوس حيث حاصر المدينة مدة طويلة حتى ضعفت المقاومة ، وأدركت الزباء أن الأمل قليل في الانتصار وفك الحصار ، وعز عليها أن تسلم فامتطت هجينا وانطلقت به تجاه بلاد فارس ولكن جنود الرومان أدركوها وهى تعبر الفرات ، فقبضوا عليها وأعادوها أسيرة ، وشق على الملكة أن ترى نفسها في الأسر وأن ترى دولتها تنهار ، فأعلنت الصوم عن الطعام إلى أن قاضت روحها (١) .

وكانت مدينة تدمر مزيجاً من اليرمانية والسورية والفريية ، وهذه المدينة تبين ذرى الثقافة التى يستطيع العرب من أهل البادية أن يبلغوها إذا ما تسنت لهم المهيئات . . . ومن ينعم النظر فى أطلال تدمر الباقية يفقه سر تلك المدينة الزاهرة ، ويتبين أن بناء المدينة جاء وفقاً لتصاميم وضعها لها جماعة حذاق مهرة فى هندسة البناء . وقد حملت إليها حجارة ضخمة من الجرانيت من شلال النيل الأول بمصر ، وكان يحف بشارع المدينة الرئيسى نحو ٨٥٠ عموداً كورنياً من الحجر الكلثى الأبيض الوردى ، وارتفاع كل منها نحو ٥٥ قدماً ، وكان أول الشارع العظيم قريباً من قوس النصر الذى رفعوه إلى جانب هيكل معبودهم الأكبر « شمس » ولا يزال هيكل الشمس وبعض الأعمدة قائمة حتى الآن (٢) .

٣ - الحيرة وغان :

كانت مملكة الفرس من جهة ومملكة الروم من جهة أخرى معرضتين لهجمات بعض القبائل البدوية التى كانت تعيش شمال الجزيرة ، وكانت هجمات هذه القبائل سريعة ، يختطفون خلالها ما يستطيعون الحصول عليه ،

(١) انظر كتاب (الإسلام : انطلاق لاجود) للدكتور مصطفى الرافى ص ١٤٦ .

(٢) فيليب حنى : تاريخ العرب ١ : ١٠٠ - ١٠١ .

ثم يفرون عائدين فيتوغلون في قلب الجزيرة حيث لا تستطيع جيوش الروم ولا جيوش الفرس أن تنبهم خوفاً من وعورة الطريق وقلة المياه .

ولهذا عمد الفرس كما عمد الروم إلى أن يقيموا حاجزاً بينهم وبين العرب ، وكان ذلك الحاجز عبارة عن بعض القبائل العربية ، تألفتها الفرس والروم وأسكنوها في شمال الجزيرة ، وأمدت الفرس والروم هذه القبائل بعون من السلاح والمال ، وكانت هذه القبائل تعرف مسالك الجزيرة وتستطيع الوقوف في وجه هجمات العرب ، وبهذا تكونت مملكة الحيرة تحمي الفرس ويحميها الفرس ، وتكونت مملكة بفسان تحمي الروم ويحميها الروم ، وكانت المقدرة على رد هجمات العرب من أبرز الصفات التي يلزم أن تتوفر فيمن تسند له السيادة في كل من الحيرة وغسان . يروى أن كسرى عند ما أراد أن يسند ملك الحيرة إلى النعمان بن المنذر سأله : أتكنيني العرب ؟ فأجاب النعمان : نعم . قال كسرى : كلها ؟ فأجاب النعمان : نعم كلها . فاستطرد كسرى قائلاً : كيف ياخوتك ؟ فأجاب النعمان : إن عجزت عنهم فأنا عن غيرهم أعجز ، فلئكة كسرى وخلع عليه^(١) .

وهناك سبب آخر استدعى قيام مملكتي الحيرة وغسان ، وهو أن الروم أرادوا أن يستعينوا بالعرب في حروبهم ضد الفرس ، فلجأ الفرس إلى نفس الخيلة ، وقربوا بعض القبائل العربية إليهم واستعملوهم على حدودهم ليقف العرب في وجه الفرس وليكونوا عوناً لحلفائهم ضد أعدائهم ، وسعطي مزيداً من التفصيل عن كل من هاتين المملكتين فيما يلي .

مملكة الحيرة :

لتكوين مملكة الحيرة ظروف خاصة بجانب ما أوضحناه آنفاً ، وتلك

(١) حاد المار ، ملاحه : أداء العرب في الحاملة م ١٣

الظروف تتصل بالحالة ببلاد فارس عند قيام هذه المملكة ، وخلاصة ذلك أن الإسكندر المقدوني - عملاً بنصيحة أستاذه أرسطو - قسم بلاد الفرس إلى دويلات وجعل على كل منها ملكاً له جيش ووزراء ليضمن الإسكندر بذلك تفريق الكلمة وضعف القوة ، وكان للإسكندر ما أراد ، ويسمى هذا العهد عهد ملوك الطوائف ، وقد استمر من سنة ٣٣٢ ق . م إلى سنة ٢٣٠ م .

وخلال هذا العهد حدثت هجرة عرب الجنوب بسبب سيل العرم ، وقد استطاعوا بسبب ضعف ملوك الطوائف أن يكونوا لهم ملكاً في منطقة الحيرة لم يكن قوياً ولكنه لم يكن أضعف من ممالك الطوائف .

ثم ظهر سنة ٢٣٠ أردشير بن بابك واستطاع أن يعيد للبلاد وحدتها وأن يخضع هذه الممالك لسلطانه ويزيل هؤلاء الملوك ويكون الدولة الساسانية ، ولم يجد أردشير بداً من إخضاع مملكة الحيرة كما أخضع سواها من ممالك الطوائف ، ولكن للاعتبارات الخاصة بالعرب التي سبق إيرادها أبقى على مملكة الحيرة واكتفى بخضوع ملوكها إليه ، وبأن يتولى هو عند اللزوم تعيين هؤلاء الملوك ، ومن أشهر ملوك الحيرة عمرو بن عدى ، والمنذر بن ماء السماء ، والنعمان بن المنذر ، وقد غضب كسرى على النعمان هذا لأنه أنف أن يزوج بناته وأخواته من كسرى وأولاده ، فتوعد كسرى وطلبه ، ولكن النعمان هرب ثم سلم نفسه فألقاه كسرى في السجن حتى مات^(١) ، وبعد النعمان عين كسرى إياس بن قبيصة على الحيرة ، ولم يفرد بالحكم وإنما أشرك معه رجلاً فارسياً اسمه « النخرجان » وفي هذا العهد قدم خالد بن الوليد إلى الحيرة يقود جيش المسلمين ، فصالحه إياس على الجزية وكان ذلك سنة ١٢ هـ^(٢) ، ثم دخل الناس بعد ذلك في الإسلام .

(١) اترأ القصة كاملة في « أيام العرب في الجاهلية » لجاد المول وزميله ص ٦ - ٣٩ .

(٢) الطبري ج ٢ ص ٥٥١ - ٥٥٢ .

مملكة غسان :

هناك تشابه بين قيام مملكة الحيرة ومملكة غسان من عدة وجوه ،
فبينما كانت فارس تمر بفترة ضعف في عهد ملوك الطوائف كانت الروم
تجتاز أيضاً فترة اضطراب تسمى عهد القوضى العسكرية (١) ، والقوضى
هنا وهناك كانت أثراً لزحف الإسكندر المقدوني السريع الذي لم يعقبه
استقرار ، وفي القرن الثالث الميلادي عاد الاستقرار إلى فارس كما رأينا
وفي نفس هذا القرن (سنة ٢٨٦ م) انتهى عهد القوضى العسكرية بالروم ،
وعندما هاجرت قبائل من اليمن واستقرت بالحيرة هاجرت قبائل أخرى من
اليمن واستقرت ببادية الشام ، وكما اتخذ الفرس عرب الحيرة درعاً يشقون
بهم هجمات البدو ويقوون بهم ضد الروم ومعانينهم من العرب ، اتخذ
الروم عرب الشام لنفس الأغراض كما سبق القول .

ولعل أول القبائل التي حظيت بهذه المكانة في بادية الشام هي قبيلة
الضجاعة ، وقد مكنت هذه القبيلة مدة طويلة تلى أمر العرب في هذه البقاع
وولى الرومان عليهم ملكاً منهم ، ومن أشهر ملوكهم زياد بن الهيرة (٢) .

وقبل نهاية الضجاعة كانت قبيلة بني جفنة قد نزلت ببادية الشام حول
بئر ماء اسمه « غسان » (٣) وقد عرف بنو جفنة لذلك بالغساسنة ، ولما أدرك
الغساسنة ضعف الضجاعة استولوا على السلطة في بادية الشام وأقرهم الرومان
على ذلك واختاروا منهم ملك العرب ، واتسع ملكهم وكانت « جلق »
عاصمة لهم وهي التي تسمى « دمشق » الآن . ومن أشهر ملوكهم الحارث

(١) Wells . A Short History of the world ص ١٥٢ من الترجمة العربية .

(٢) الخفري : تاريخ الأمم الإسلامية ج ١ ص ٢٤

(٣) ياقوت : معجم البلدان ج ٦ ص ٢٩٢

ابن جبلة والمنذر بن الحارث وجبلة بن الأيهم ، وهو آخر ملوك الغساسنة ،
وفى عهده دخل المسلمون بلاد الشام ، ويقال إن جبلة دخل الإسلام ثم ارتد
بعد ذلك و هرب إلى الروم في حادثة مشهورة في عهد عمر بن الخطاب .

الأهمية الحضارية للمناخنة والغساسنة .

كان ملوك الحيرة وغسان بوصفهم من سلالة يمنية يحتفظون في مظاهرهم
وحضارتهم بعناصر يمنية ، وأبرز مثال لذلك القصران العظيمان اللذان بناهما
ملوك الحيرة عماكين بهما قصور اليمن ، وهذان القصران هما « الخورنق
والسدير » ، على أن أهم دور قامت به هاتان المملكتان هو أنهما كانتا جسراً
عبرت عليه ألوان من حضارة الفرس والروم إلى الجزيرة العربية ، وأهم
هذه الألوان الحضارية هي الأديان ، وضروب من المعارف العامة ،
والقراءة والكتابة ، والفنون الحربية وغيرها .

(ج) الحجاز

آخرنا كلامنا عن الحجاز لنصل حديثنا عنه بالحديث عن التاريخ الإسلامى ،
ثم لنعطيه مزيداً من التفصيل لمكانته في ذلك التاريخ .

والحجاز هو الموطن الأول للدعوة الإسلامية ، فيه ولد الرسول ،
وعلى أرضه خطا ، وهو منزل الوحي ، ومشرق النور ، نقل الإسلام
الحجاز من مكان مغموّر إلى مركز حضارة غمرت الكون ، ومن الحجاز
انطلقت صيحة الإصلاح ودعوة الإسلام ، ولا تزال تحت السيفى الآفاق
توقظ الهاجع وتهدى النضال ، تنقذ الملايين من عبادة الأحجار وعبادة
الأشخاص وعبادة الأشجار ، وتردهم الهدى وتوجههم إلى عبادة الله الخالصة
وإلى التوحيد المطلق الصافى ، وتمدهم فى شئون دنياهم ودينهم بما يكفل

لهم السعادة ويزيل عنهم غبار الجاهلية التي غطت الفكر العالمي أو وجهته
وجهة خاطئة على مر السنين .

وقد نقل الإسلام الحجاز من مكان عربي إلى مكان إسلامي أو قل عالمي ،
وجدير بالحجاز الذي نبت فيه محمد أن يصير كذلك ، فالنور الذي جاء به
محمد لا يعرف وطناً ولا حدوداً ، إنه نور انتفعت به بقاع كثيرة من العالم
ولا تزال تنتفع ، بل ربما جاز لنا أن نقول إن قسط الحجاز نفسه في الانتفاع
بمدينته الإسلام لا يرتفع إلى قسط سواه ، وذلك يرجع طبعاً إلى عوامل
داخلية منتضحة في دراستنا عن التاريخ الإسلامي .

والحجاز من الحواضر كما قلنا فيما سبق ، ولكنه يمتاز على غيره من
الحواضر بأنه حافظ على استقلاله ، فإذا كانت جيوش الأحباش والفرس
قد وطئت اليمن ، وإذا كان نفوذ الفرس والروم قد امتد إلى الحيرة
وغسان ، فإن نفوذاً أجنبيّاً لم يستطع أن يتعمق في قلب الجزيرة أو يصل
إلى الحجاز ، ولعل ذلك يرجع لموقع الحجاز في الجزيرة ، ولحرص العرب
جميعاً على استقلال هذا المكان المقدس ، ثم لأن الحجاز لم يكن بلداً غنياً
يُطمع فيه المختلين الأجانب ، ولعل المحاولة الوحيدة لإخضاع الحجاز
للاستعمار كانت تلك التي قام بها عثمان بن الحويرث ، فلقد تنصر عثمان هذا
وانصل بقيصر ، وأراد أن يلحق مكة بالروم وأن يكون ملكاً عليها تابعاً
لقيصر كلوك الفساسنة ، ولكن أهل مكة ثاروا عليه فقر من وجههم
وحاول أن يؤولب عليهم القيصر وأتباعه من الفساسنة ولكن أهل مكة
احتالوا عليه حتى أطعموه طعاماً مسموماً مات به .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن تاريخ الحجاز حفظه لنا اتصاله بالأديان
وبالكتب المقدسة ، وسنعمد - مع كتب التاريخ - على بعض اقتباسات
من القرآن والحديث لتتبع نشأة الحياة في الحجاز .

مكة : المدينة المقدسة :

هناك قصة رواها البخارى عن بئر زمزم نوجزها فيما يلى :

جاء إبراهيم بابنه اسماعيل وهو طفل رضيع مع أمه هاجر . ووضعهما بالقرب من مكان بئر زمزم الحالى ، وترك لهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء ، ثم اتجه إبراهيم عائداً ، فنادته أم إسماعيل : يا إبراهيم أين تذهب وتركننا فى هذا الوادى ؟ فلم يلتفت لها إبراهيم . فسألته آله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذا لن يضيئعنا . وبعد أيام نفذ الطعام والماء ، وجف تبعاً لهذا لبن أم إسماعيل ، وجعل إسماعيل يبكى ، وأخذت أمه تردد مهرولة بين جبلى الصفا والمروة لعلها تجد من يساعدها ويمدها بالطعام والشراب ، وكان ترددها بين الصفا والمروة سبع مرات . ولذلك يسمى الحجاج بينهما سبع مرات . ولما أتممت السابعة ظهر لها ملك فى صورة طائر نقر الأرض فانبتت منها الماء . وفى رواية أخرى أن الماء انبتت عند رجل إسماعيل التى كان يدق بها الأرض وهو يصيح .

تلك هى بئر زمزم وقد فاض ماؤها على هذه الصورة تبعاً لما ترويه الروايات المقدسة ، وقد جعلت هاجر تقيم حوضاً حول الماء المنبت حتى لا يسيل . وكانت هذه البئر تسمى « بئر إسماعيل » ثم سميت بئر زمزم لأن هاجر كانت تحفظ الماء من الضياع بإقامة حائط ترائى حوله (١)

هل كانت بئر زمزم أساساً للعمران فى هذه المنطقة ؟ لا بد أن يكون الجواب بالإيجاب ، فالماء فى الصحراء هو الحياة ، وعند ما يوجد الماء تدب الحياة فيما حول الماء ، على أن الماء فى هذه المرة لم يكن ماء فحسب ، وإنما شاعت هذه الصورة التى انبتت بها هذا الماء ، وعرف البدو قصة البئر الجديدة والظروف التى نبع فيها ماء تلك البئر ، والطفل الذى نبع الماء عند مضرب قدمه . وأمثال هذه الأشياء عميقة التأثير وبخاصة فى عهد يعتبر عهد طفولة البشرية ؛ وكل ذلك ساعد على عمران هذه المنطقة .

(١) فى المنجد : زمزمه رد أطرافه وحفظه .

وغير بعيد من هذه البئر كان هناك مكان فيه عمران قليل وكان هذا المكان يسمى مكة ، ووقعه في منتصف الطريق تقريباً بين جنزب الجزيرة وشمالها جملة مكاناً مناسباً لاستراحة القوافل ، كما كان البدو يحطون به رحالهم فترة قصيرة أو طويلة في أثناء تجوالهم بالجزيرة ، وكان انبثاق بئر زمزم خيراً وبركة على مكة ، فالتسّع عمرانها وامتد حتى اتصل العمران بالبئر أو كاد ، كما كثر زوارها الذين يفدون للتبرك بماء زمزم ولرؤية إسماعيل الذي انبثق الماء تسكريماً له .

وجاء إبراهيم بعد حين ليزور ابنه إسماعيل ، ورأى إبراهيم المكانة التي حظى بها ابنه بين سكان مكة ، كما رأى كثرة الزائرين الذين يفدون من كل الجهات لرؤية إسماعيل وللتبرك بماء زمزم ، فبنى إبراهيم وابنه الكعبة المشرفة « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم » (١) .

والكعبة المشرفة هي بيت الله أو البيت العتيق ، وهي بناء مربع تقريباً ، بنى في أوسع نقطة من الوادى ، ويبلغ ارتفاعه خمسة عشر متراً ، وطول جداره الشمالى والجنوبى عشرة أمتار تقريباً وطول جداره الشرقى والغربى اثنا عشر متراً تقريباً ، وفي الجدار الشرقى يقع باب الكعبة ، وهو يرتفع عن الأرض بحوالى مترين ونصف متر .

ويروى الطبرى (٢) خبراً يتصل بباب الكعبة وبئر زمزم فيقول : إن قبيلة جرهم (وسبأى الحديث عنها) عندما أخرجت من مكة وضعت ببئر زمزم غزالين من ذهب كانا بالكعبة ووضعت كذلك أسيافاً ودروعاً

(١) سورة البقرة ١٢٧ - ١٢٨

(٢) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٢

من الصليب وأهالت عليها التراب فردمت البئر ، وكانت جرهم تأمل أن تعود الى مكة فتستخرج هذه الكنوز وتعيد حفر البئر ، ولكنها لم تعد ، وظل الحال على ذلك حتى عهد عبد المطلب ، فأعاد حفر البئر ، فوجد هذه الكنوز من الصليب والذهب فضرب الأسياف باباً للكعبة وجعل من الغزاليين صفائح ذهبية غطى بها هذا الباب ، وفي الركن الجنوبي الشرقي للكعبة من الخارج يقع الحجر الأسود ، وهو مبدأ الطواف ، ويرتفع عن الأرض بمقدار متر ونصف متر تقريباً .

ولما أتم إبراهيم بناء الكعبة هتف مناجياً ربه « ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات » (١) . فاستجاب الله لدعائه ووجهه لتحقيق ذلك بقوله : « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » (٢) فأذن إبراهيم بالحج واستجاب له الناس ومنذ ذلك الحين والناس يفدون حاجين ملين من مختلف البلاد ومختلف النواحي .

وكانت الشعائر الدينية في أول الأمر تؤدي في الكعبة ، ثم ضاق هذا البناء الصغير بزواره والحاجين إليه ، ولذلك اصططح العرب منذ عهد طويلة على اتخاذ جزء من الأرض حول الكعبة ليكون مكاناً للشعائر الدينية ، وقدسوا هذا الجزء وسموه حرماً ، ولما جاء الإسلام ورفضت الصلاة كانت الصلاة تؤدي في هذا الجزء ، ولذلك سمي المسجد الحرام ، وقد ظل ذلك الجزء من الأرض فراغاً لا يحيط به سور حتى عهد عمر بن الخطاب وكانت تحيط به دور من أكثر جهاته (٣) .

(١) سورة إبراهيم الآية ٣٧

(٢) سورة الحج الآية ٢٧

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ص ٧١

وفي عهد عمر أصبح واضحاً أن هذا المكان لم يعد يتسع لوفود الحجاج التي تأتي من كل حذب وصوب من العالم الإسلامي ، فرأى عمر ضرورة توسيعه كما رأى ضرورة فصله عن هذه الدور بإقامة جدار يحيط به فاشترى عمر دوراً وهدمها وزادها فيه ، واتخذ للمسجد جداراً دون القامة ^(١) .

وابتاع عثمان منازل أخرى وأدخلها في المسجد واتخذ له الأروقة .
ولما احترقت الكعبة في عهد عبد الله بن الزبير هدمها هذا وأعاد بناءها وأدخل فيها حِجر إسماعيل ^(٢) .

ولما انتصر الحجاج على ابن الزبير بعد أن استعمل المنجنيق الذي زلزل جدران الكعبة والمسجد الحرام أمره عبد الملك أن يعيد بناء الكعبة والمسجد الحرام ، ففعل الحجاج ولكنه رد الكعبة إلى أصلها قبل أن يبنها ابن الزبير فأخرج الحجر منها ^(٣) .

وعنى الخلفاء والملوك والسلاطين بالكعبة والمسجد الحرام ، في جميع العصور حتى العهد الحاضر وكانت مصر منذ عهد شجرة الدر تقدم كسوتها كل عام ، وفي عهد جمال عبدالناصر حصل خلاف بينه وبين المملكة السعودية كان من نتائجه أن اضطلعت المملكة العربية السعودية بإعداد هذه الكسوة .
ويهتم ملوك المسلمين ورؤساؤهم جميعاً بتعمير البيت الحرام وتحسينه ^(٤) .
حكومة مكة :

لم تكن مكة منذ هتف إبراهيم بالحج واستجاب له الناس ملئاً للمكيين ، وإنما كانت مكاناً مقدساً لدى العرب جميعاً ، ومن هنا نجد السلطة في مكة متصلة بالسلطات في نواحي الجزيرة العربية كلها ، أو بعبارة أخرى نجد العرب جميعاً يتفقون على شيء بهيء لهم فريضة الحج في أمن وبسر ، فاتفقت

(١) المرجع السابق في نفس الصفحة .

(٢) الأذوق ، أخبار مكة ص ١٤٣ .

(٣) البلاذري ص ٥٩ - ٦٠ .

(٤) انظر الحديث عن مدى الاهتمام بالبيت الحرام في الجزء السابع من هذه الموسوعة .

كلمة العرب على تحريم القتال في الأشهر الحرم وهي الشهور التي يفد فيها العرب إلى مكة حاجين أو معتمرين ، أو يقفلون منها إلى بلادهم ، وهذه الشهور هي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم للحج ، وشهر رجب للعمرة ، ويروى الطبري ^(١) أن قصي بن كلاب عندما أراد أن يعود من الشام ليلحق بأعمامه وأسرتهم بمكة قالت له أمه : يا بني لاتعجل بالخروج حتى يدخل عليك الشهر الحرام فتخرج في حاج العرب فإنني أخشى عليك أن يهيبك بعض الناس . فأقام قصي حتى إذا دخل الشهر الحرام فخرج حاج ففصاة فخرج معهم ...

وبجانب الأشهر الحرم اتفق العرب على تحريم القتال عند حرم مكة دائماً ، وقرروا أن من دخل الحرم كان آمناً ، ومن هنا كانت الأسواق الأدبية والتجارية تقام حول الحرم دون أن يمس المشتركين فيها سوء ، إذ كان ذلك باتفاق الجميع لمصلحة الجميع ، ولما وقعت الحرب بين قريش وكنانة وبين قيس على حدود الحرم سميت حرب الفجار لأنها مست حرمة البيت ، ولذلك عقدت قريش بعد الصلح حلف الفضول الذي تحالف فيه بنو المطلب وبنو أسد وبنو زهرة وبنو نعيم ' ألا يجحدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم إلا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى تُردَّ عنه مظلّمته ، وقد تم هذا الصلح في دار عبد الله بن جدعان وحضره الرسول وكانت منه حوالي عشرين سنة . وعنه يقول . . . لقد شهدت مع عمومتي حلفاً في دار عبد الله بن جدعان ما أحب أن لي به حمر النعم ، ولو دعيت مثلثه في الإسلام لأجبت . . . ويعتبر هذا الحلف استرداداً لمكانة الحرم ، تلك المكانة التي كانت قد أصيبت بضربة في حرب الفجار .

وتحريم القتال في الأشهر الحرم وفي مكة نظام قديم لعله يرجع إلى المهود الأولى لتشريع الحج :

(١) تاريخ الطبري ج ٢ ص ١٥ .

تلك كانت الصلة بين السلطة في مكة وبين السلطات المختلفة بالجزيرة العربية ونعود بعدها للحديث عن السلطة في مكة وفي يد من كانت .

لقد عرفت مكة أول ما عرفت قبائل من العماليق ، ولم تكن لمكة في ذلك الحين مكاتها المقدسة فإن ذلك كان قبل عهد إسماعيل ، ونزح إلى مكة أيضا قبائل من جرهم ، وسكنوا مع العماليق فيها ، ثم غلبوهم عليها وأخرجوهم منها وخلص لجرهم الأمر في مكة ، وفي هذه الأثناء وفدت هاجر ومعهما إسماعيل ، ولما شب إسماعيل انفصل بجرهم وتزوج منهم ، وبني البيت هو وأبوه كما مر ذكره ، وتكونت حكومة مكة لحماية الحجيج والسهر على مصالحهم ، ويبدو أنه كان للجراهمة أمور السياسة وتفرغ إسماعيل لخدمة البيت وأمور الدين ، وكان ذلك شبه أساس للوظائف التي ظهرت واضحة فيما بعد وهي السقاية والرفادة واللواء وكانت لقادة جرهم ، أما الحجابة فكانت لإسماعيل .

وبعد لإسماعيل زاد ثراء جرهم فانغمسوا في الملاذ ونسوا واجباتهم الدينية ، وأهملوا السهر على بئر زمزم وعلى البيت الحرام حتى نصب ماء البئر ، ففكرت خزاعة - وكانت قد حلت بمكة - أن تستولي على السلطة من جرهم ، ولما يئس مضاض بن عمرو الجرهمي من إيقاظ قومه ألقي بيئر زمزم سبوقاً ودروعا من الصلب وغزالتين من الذهب كانتا بالكعبة وأهال التراب عليها كما سبق القول ، وخرج هو وقومه آملاً أن يعود لمكة يوماً ليستخرج هذه الذخائر ، وكان خروجه حوالي سنة ٢٠٧ ق . م ومنذ ذلك التاريخ استولت خزاعة على مكة وخلصت لها وظائف الكعبة كلها ما كان منها متصلاً بالرياسة السياسية أو الرياسة الدينية^(١) . وظلت الحال

(١) انظر كتاب الأصنام لابن الكلبي ص ٨ .

كذلك حتى سنة ١١٠ هـ حين انتقلت السلطات إلى قريش التي كانت قد نزلت إلى مكة قبل ذلك فأصبحت أمور الكعبة كلها في يد قصي بن كلاب الجلد الرابع للرسول ، وانتقلت السلطة من قصي إلى أولاده على ما سيأتي تفصيله فيما بعد .

وكانت أم قصي قد انتقلت به وهو طفل بعد موت أبيه كلاب من مكة إلى الشام لتعيش مع زوجها الجديد ربيعة بن حرام ، فشب قصي بالشام لا يعرف له أبا غير ربيعة حتى نما ، ثم عبّس به بعض بني ربيعة بأنه ليس منهم ، فسأل أمه ، فقالت له : إنك يا بني أكرم منهم نسبا وأنت ابن كلاب ابن مرة وأهلك بمكة ، فرحل لهم كما سبق القول ، وهناك تزوج فتاة من خزاعة كان لأبيها السلطان على الكعبة ، وقدمه له هذا الزواج أن يستولى على السلطان بعد موت هذا الأب ، والتف حوله قومه لما رأوا فيه من مروءة وشهامة ونصروه على خزاعة فخلص له الأمر .

وقصّي هذا هو الذي بنى دار الندوة ليجتمع فيها أهل مكة للتشاور فيما يهمهم تحت إشرافه ، وهو الذي رتب وظائف الكعبة وحدد مدلولاتها وهذه الوظائف هي .

السقاية : كان الماء عزيزاً بمكة بعد ردم بئر زمزم (أعاد عبد المطلب حفرها فيما بعد كما قلنا آنفاً) فكان من يلى أمر السقاية يحضر الماء من آبار بعيدة ويضعه في حياض ويحلّيه بشيء من التمر والزبيب ليشرّب منه الحجاج .

الرفادة : وهي تقديم طعام لغير القادرين من الحجاج ، ويروى أن قصيا فرض على قريش أن يقدم كل منهم شيئاً إليه ليصنع طعاماً للفقراء الحجيج ، وقال قصي في ذلك . . يا معشر قريش ، إنكم جيران الله وأهل بيته ، وإن الحاج ضيف الله وزوار بيته وهم أحق الضيف بالكرامة ،

فاجعلوا لفقراهم شرايا وطعاما أيام هذا الحج حتى يصدروا عنكم . ففعلوا ، فكانوا يُخرجون لذلك كل عام جزءاً من أموالهم فيدفعونه إليه ، فيصنعه طعاما للناس (١) !

اللواء : الدعوة إلى الحرب برفع راية فوق رمح ويتبعها قيادة الجيوش .

الحجاجة .. وهى خدمة الكعبة وتولى مفاتيحها .

وبعد قصى انتقلت وظائف الكعبة إلى ابنه عبد الدار لكبر سنه مع أن عبد مناف بن قصى كان أعظم منه ذكراً وأعلى شأنًا بين أئداده ، ولذلك نجد أبناء عبد مناف يريدون أن يأخذوا لأنفسهم هذه الوظائف من أبناء عبد الدار وانضمت بعض قريش إلى أبناء عبد مناف وانضم آخرون إلى أبناء عبد الدار وأوشكت أن تقع بينهم حرب طاحنة لولا نجاح بعض المساعى التى قسمت وظائف الكعبة بين هؤلاء وأولئك ، فأعطت السقاية والرفادة لأبناء عبد مناف وأعطيت الحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار . وقد تولى هاشم بن عبد مناف حينذاك السقاية والرفادة وتولاها بعده أخوه المطلب ثم عبد المطلب بن هاشم ، وفى عهد عبد المطلب عز شأنه وذاع صيته وأصبح مرجع كل الأمور بمكة ، وفى عهده كذلك حاول أبرهة الحبشى هدم الكعبة على ما سنوضحه فيما يلى :

عام الفيل :

أوضحنا من قبل أن الحبشة كانت قد استولت على بلاد اليمن ، وأن الأمر آل إلى أبرهة بعد أن فتك بأرياط ، قائد النجاشى ، ولما رأى أبرهة غضب النجاشى عليه لفتكه بأرياط أراد أبرهة أن يرضى النجاشى فكتب

إليه يقول : « سأنو. إليك كنيسة لم يبن مثلها أحد قط ، ولست تأرثها العرب حتى أصرفهم لها عن بيتهم الذي يحجون إليه »^(١) ويبدو أن أبرهة أراد أن يهدئ ثورة النجاشي ، أما اتجاهه الحقيقي فكان سياسياً أكثر منه دينياً ، فقد هاله تقديس العرب لمكة وسيرهم إليها في إجلال وطاعة حاملين الهدايا والهبات إلى مكانها ، ولذلك عزم على أن يبنى بيتاً أعظم من الكعبة وأن يدعو الناس إلى أن يحولوا وجوههم ومزارهم إليه ، فبنى كنيسة مماها «القليس» زينها بالرخام وجيد الخشب المذهب ، وكانت مرتفعة البناء بحيث يشرف المطل منها على مدينة عدن ، واستدل أبرهة في بنائها أهل اليمن وجسمهم أنواعاً من السحر ، ونقل إليها من قصر بلقيس الأعمدة من الرخام المجزع والحجارة المنقوشة بالذهب ونصب فيها صليباناً من الذهب والفضة ، ومنابر من العاج والأبنوس ، ودعا الناس إلى الحج إليها^(٢) فغضب العرب ، وثار رجل من بني مالك بن كنانة وأقسم ليعيث بهذه الكنيسة ، وقدم اليمن ودخل الكنيسة كأنه متعبد حتى إذا أظلم الليل ونحلا المكان قام يعيث بأثاث الكنيسة ويلطخ جدرانها بالقاذورات . ولما علم أبرهة في الصباح بما أصاب كنيسته من العدوان ، وعرف أن عربياً كان يبيت بها وأنه المتهم بالعبث بالبناء المقدس ، حلف لهدم الكعبة ، وسار في جيش كبير من الأحباش سيّراً أمامه القبيلة ، حتى حط رحاله بالقرب من مكة .

كان سيد مكة في هذا الوقت عبد المطلب بن هاشم جد الرسول صلوات الله عليه ، وقد أخذ أبرهة إبلاً يملكها عبد المطلب كانت ترعى عند مكان نزل فيه أبرهة بالقرب من مكة وأرسل إليه يطلبه ، فلما جاء عبد المطلب قال

(١) ابن الكلبي : كتاب الأصنام ص ٤٦ - ٤٧

(٢) انظر كتاب الأصنام لابن الكلبي ص ٤٦ - ٤٧ وانظر تعليق المحقق بهامش صفحة

٤٦ ، ويقصيف صاحب الروض الآن أن هذه الكنيسة أقترنت عقب تلاشي ملك الحبشة من اليمن ، وأن بقية أنقاضها بيعت في عهد أبي العباس السفاح بواسطة عامله على اليمن ، وغنا بذلك رسمها ودرست آثارها .

له أبرهة : إني لم أجيء لحربكم بل جئت لأهدم هذا البيت ، فإن تعرضتم لي حاربتكم ، وإلا فلا حاجة لي في دمائكم .

قال عبد المطلب : لا قوة لنا في التعرض لك ، والذي أطلبه منك أن ترد على إيلي التي أخذتها .

قال أبرهة : كنت هبتك حين رأيته ، ثم زهدت فيك حين كلمتني ، أتكلمني في شأن الإبل ؟ وتترك البيت الذي هو دينك ودين آبائك ؟ .

قال عبد المطلب : أما الإبل فهي لي ، وأما البيت فله رب يحميه .

وعرض عبد المطلب على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع دون أن يهدم البيت ، فأبى أبرهة وأصر على هدم هذا البناء . فعاد عبد المطلب وطاف بالبيت منشداً والناس يرددون :

يا رب لا أرجو لهم سواك يا رب فامنع منهم حماكا

إن عدو البيت من عاداكا

واستجاب الله لهاتف عبد المطلب ، ويحكى القرآن الكريم نهاية أصحاب الفيل في الآيات الكريمة : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ؟ ألم يجعل كيدهم في تضليل ؟ وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول »^(١) .

وكانت حادثة الفيل كبيرة الأهمية عند العرب فأخذوا يؤرخون بها أحداثهم ، وفي عام الفيل ولد محمد صلوات الله عليه .

غير مكة في الحجاز :

بجانب مكة كانت هناك في الحجاز مدن أخرى أهمها الطائف ويثرب

وإذا كان البيت الحرام أكسب مكة نوعاً من الاستقرار فإن غزارة الماء وخصوبة التربة في يثرب والطائف جعلاً مكانهما يشتغلون بالزراعة وغرس الأشجار بما سبب لهم الاستقرار أيضاً ، ولقد لعبت يثرب فيما بعد أعظم دور في تاريخ الإسلام ، ففيها وجد محمد الحماية ، ومنها انتشر الإسلام ، ولعبت الطائف كذلك دوراً هاماً ، فقد أخرجت لدولة الإسلام مجموعة كبيرة من القادة ، كالمغيرة بن شعبة ، وزياد ، والحجاج ، ومحمد بن القاسم ، وهذه المدن الثلاث هي التي استقرت على الإسلام يوم انتشرت الردة والتنبؤ وكبر الضلال عقب وفاة الرسول ، ومنها خرجت الجيوش التي أعادت الحق إلى نصابه ونهزت الباطل .

ولمكة على العموم مكانة خاصة بين مدن الحجاز ، ولذلك أطلق عليها القرآن الكريم « أم القرى » إشارة إلى ذلك ، قال تعالى : « وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها » (١) .

اقتصاديات العرب وتجارة قریش

إن مصادر الثروة الشهيرة هي الزراعة والصناعة والمعادن والتجارة ، وقد عرفت هذه المصادر في الجزيرة العربية .

أما الزراعة فارتبطت بالأمطار ، والأمطار قليلة بالجزيرة ، ويحدث جفاف قاتل أحياناً ، ولكنها أحياناً تهطل بغزارة شديدة حتى تهدد الكعبة المشرفة كما حدث سنة ١٩٦٩ ، وكما حدث قبل ذلك عدة مرات ، والأمطار تخلف فيضاً من المراعى ، ويزرع البدو عليها الشعير والقمح ؛ ومع كثرة المراعى تنمو الأغنام وتكثر ، كما تنمو الإبل ويتكون منها جزء كبير من مصادر الثروة عند العرب .

(١) سورة الأنعام الآية ٩٢ .

وتكثر الوديان في الجزيرة ، وتوجد مع الوديان سيول تفسمن زراعة بعض الحاصلات من حين إلى حين .

ومنطقة المدينة والطائف غنية بالمرروعات ، وتكثر الفواكه في الطائف كثرة واضحة ، أما في اليمن فتسقط الأمطار بانتظام ، وتزرع الأرض بالتالي زراعة منتظمة .

ويكثر النخيل في الحجاز ، والقمح في اليمن ، واللبن في مهرة ، والصمغ في عسير ، والكروم في الطائف . أما عمان فتلعب الأفلاج (الينابيع الجبلية) فيها دورا مهما ، وتنحدر الأفلاج من الجبال فتروى مزارع النخيل الفسيحة ، كما ينبت بها أنواع من الحبوب ، وقد رأيت الأفلاج في زيارتي لعُمان في نوفمبر سنة ١٩٨٠ وشربت من مائها العذب المصفى ، ورأيت انسيابها بين الحقول حيث تملأ الأرض خيرا وبركة

أما الصناعة في الجزيرة العربية فكانت قبل انبثاق البترول ترتبط بالصوف والوبر ، وكانت صناعة الصوف والوبر يدوية ، وقد اشتهر المغزل والنسيج عند العرب وكان ذلك من مصادر الثراء ، يروى أن الوضين بن عطاء زار أبا جعفر المنصور ، فسأله هذا عن عياله فقال الوضين : ثلاث بنات والمرأة . فقال المنصور : أربع نساء في بيتك ؟ وكررها ثلاث مرات حتى ظنَّ الوضين أن المنصور سيكثر عطاءه ، ولكن المنصور رفع رأسه وقال : أنت أيسر العرب ، أربع مغازل يدرون في بيتك^(١) .

وهناك أيضا صناعة الآلات الحربية والآلات ، وهناك صناعات ارتبطت بالحاصلات الزراعية كصناعة النبيذ والصناعات المرتبطة بالنخيل .

وأما المعادن فقد عرفت الجزيرة العربية استخراج اللؤلؤ من منطقة عمان والبحرين على خليج عمان والخليج العربي ، ووجدت كذلك مناجم للملح في بعض البقاع ، وظلت هذه معادن الجزيرة حتى انبثق البترول فكان أعظم مصادر الثراء . على أن أهم مصادر الثروة عند العرب قد ارتبطت بالتجارة . وقد

اشتهر العرب في الجاهلية بالتجارة شهرة واسعة حتى قيل : « إن كل عربي تاجر » وكانت الجزيرة العربية تمثل بحراً واسعاً تخترقه قوافل الإبل في شبه مجموعات من السفن تمخر عباب البحر الفسيح ، وقد حلت هذه القوافل محل الملاحة بالبحر الأحمر الذي كانت الملاحة فيه عسيرة كما ذكرنا من قبل .

ومن الطبيعي أن طرق القوافل في الجزيرة العربية كانت تتبع المسالك المروقة حيث تتوافر آبار المياه على طول الطريق ، وحيث يكون الطريق آمناً لكثرة من يطرقه من الناس ، وعلى هذا كان هناك طريقتان رئيسيتان للقوافل أحدهما من الشمال إلى الجنوب غير بعيد من البحر الأحمر ، وهو في الشمال يتفرع إلى الشمال الشرقي تجاه سوريا ، وإلى الجنوب الغربي تجاه فلسطين ومصر ، وهو في الجنوب يسير شوطاً مع ساحل حضرموت ، أما الطريق الثاني فهو يخترق الجزيرة العربية من البحر الأحمر إلى الخليج العربي ماراً بمكة . ويتفرع في قلب الجزيرة فرعين يتجه أحدهما إلى الشمال الشرقي فيصل شط العرب ، ويتجه الآخر إلى الجنوب الشرقي ويسير هذا مع الخليج العربي ماراً بدي ومسقط وظفار . (انظر الخريطة رقم ٢) .

وقد تحدثنا من قبل عن النشاط التجاري في اليمن في عهد مملكتي سبأ وحِمْيَر ، وقلنا إنه كان يشمل نشاطاً بحرياً إلى الهند والصين وسومطرة ؛ ونشاطاً برياً داخل الجزيرة العربية ، ولما وقعت اليمن فريسة الاستعمار الحبشي ثم الفارسي استطاع المستعمرون أن يسيطروا على النشاط البحري ، الذي انكمش انكماشاً ظاهراً ، أما النشاط البري داخل الجزيرة فقد انتقل إلى مكة لأن نفوذ القوى الأجنبية لم يستطع قط أن يمتد إلى قلب الجزيرة كما سبق القول .

وهناك عوامل ساعدت مكة لتلعب هذا الدور ، فقد هاجر إليها في ظروف متعددة كثير من اليمنيين الذين لهم خبرة واسعة بهذه الحركات التجارية ، ثم إن شهرة مكة الدينية كانت تنمو يوماً بعد يوم بسبب وجود البيت المقدس بها وتوافد الحجاج عليها كل عام ، وقد هيا ذلك لقريش احترام العرب وإجلالهم وبخاصة أن قريشاً كانت تحسن استقبال الحجاج وتعنى بخدمتهم وإكرامهم وتتكفل بمحبتهم ، وموقع مكة في منتصف الجزيرة العربية تقريباً بين الشمال والجنوب قوى هذه العوامل ، كما قواها أيضاً أنها في مكان قاحل قليل الماء عديم الزرع مما جعل أهلها يهتمون بالتجارة كمصدر رئيسي من مصادر رزقهم .

وكانت عبر قريش تحمل من صنعاء ومن موافى اليمن الطيب والبخور والمر والصبوغ العطرة والأخشاب الزكية والعاج والأبنوس وجلود الفهود واللبان والذهب والمجوهرات والأرقاء والعاج والمنسوجات الحريرية والمعادن والأسلحة والتوابل ، وبعض هذه الأشياء من منتجات اليمن وبعضها مما يرد إلى الموافى من إندونيسيا والصين والهند أو من إفريقية عبر باب المندب ، وكانت العير تحمل هذه البضائع إلى أسواق الشام ، إذ كان الطيب والبخور من أهم ما تعنى به المعابد والكنائس والقصور الواقعة في بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط وفي الهلال الخصيب ، ولذلك كانت تلاقى رواجاً كبيراً ، وكانت هذه الإبل تعود من مصر والشام حاملة القمح وزيت الزيتون والحبوب والمنسوجات .

أما الخط التجاري الذي يخترق الجزيرة العربية من الشرق إلى الغرب . فقد كان اللؤلؤ المستخرج من الخليج العربي وتوابل الحبشة من أهم السلع به .

ومن الطبيعي أن تقوم على طول هذه الطرق التجارية مجموعة من الأسواق تنزل بها القوافل التجارية ، ويقبل إليها سكان هذه المناطق والمناطق

التي تجاورها بسعهم ، ويقوم بين الطرفين تبادل تجارى ترحل بعده القوافل ببعض ما تنتجه هذه المناطق ، ويعود سكان هذه المناطق ببعض ما كانت تحمله هذه القوافل مما يحتاجون إليه ولا تنتجه بلادهم ، ومن أهم هذه الأسواق سوق دني ، وسوق عدن ، وسوق الراية بمضرموت وأسواق عكاظ وذى الحجاز ومجنة في منطقة مكة ، وسوق حباشة بمنطقة تهامة ، وإليه أرسلت السيدة خديجة محمداً صلى الله عليه وسلم ، قبل البعثة في تجارتها^(١) .

وكان بنو عبد مناف الأربعة يتوجهون إلى الجهات الرئيسية الأربعة التي كانت تنتج لها تجارة قريش ، فكان هاشم يتجه للشام ، وعبد شمس إلى الحبشة ، والمطلب إلى اليمن ، ونوفل إلى فارس ، وكان تجار قريش يذهبون إلى هذه البلاد في ذمة هؤلاء الإخوة الأربعة لا يتعرض لهم أحد بسوء^(٢) ، على أن رحلتى الشمال والجنوب كانتا أكثر انتظاماً وأعظم نشاطاً ، ولهذا وردتا في القرآن الكريم : «لإيلاف قريش ، لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت ، الذي أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف»^(٣) وكانت رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام ، ويروى الطبري^(٤) « أن هشاماً هو أول من من لقريش رحلة الشتاء ورحلة الصيف » . والمعتقد أنه كانت هناك رحلات إلى الشمال والجنوب قبل هشام ولكن هشام جعلها منتظمة لا تختلف ولا تتخلف .

وقد سببت هذه التجارة أرباحاً كثيرة لعدد كبير من أفراد قريش كأبي سفيان والوليد بن المغيرة وغيرهما ؛ على أن هناك ربخاً أدبياً كبيراً حصلت عليه قريش من جراء هذه التجارة ، وهو دراسة سياسة البلاد التي تجرى معها للتجارة ومعرفة أحوالها الاجتماعية ، وقد أدى ذلك إلى تطور فكري في هذه القبيلة . فلم تعش بمعزل عن الحضارات التي كانت تحيط بها في الشمال والجنوب .

(١) انظر الحديث عن هذه الأسواق بمعجم البلدان لياقوت وانظر الشراء الصالح في مصر الجاهل للكتور يوسف خليف ص ١٢٦ - ١٢٧ .

(٢) الطبري ج ٢ ص ١٢ ، ١٣ وسبائك الذهب في معرفة قبائل العرب ص ٢١٥ .

(٣) سورة قريش .

(٤) تاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ١٢ .

الاتجاهات الاقتصادية

في المجتمع العربي قبل الإسلام

تحدثنا من قبل عن مصادر الثروة عند العرب ، وابتداء من الطبعة السابعة لهذا الكتاب أسعدني أن أوردت دراسة عن الاتجاهات الاقتصادية في المجتمع العربي قبل الإسلام ، وقد أهمل الباحثون السابقون الحديث عن هذه الاتجاهات ، فخلت منها الموسوعة الكبرى التي كتبها الدكتور جواد علي عن تاريخ العرب قبل الإسلام ، مع أن المؤلف أسهب في الحديث عن أديان العرب ، وأوثانهم وقبائلهم وتاريخهم السياسي ، وعاداتهم ، وحروبهم ويكاد ذلك ينطبق على المؤلفات الأخرى عن ذلك العصر . ولكن إذا جاز ذلك في الماضي ، فإننا لا نستطيع الآن أن نغفل مثل هذه الدراسة لأن التيارات الاقتصادية في العهد الحاضر تحرك العالم وتجعله يعيش على فوهة بركان يوشك أن ينفجر ، وكلمات الرأسمالية والاشتراكية والشيوعية تملأ الآفاق ، فجدير بنا أن نتعرف على الاتجاهات الاقتصادية عند العرب قبل الإسلام لتعرف موقف العرب آنذاك من دنيا المال ، فلا شك أن ذلك الموقف كان شديد التأثير على موقفهم من الإسلام عندما جاء الإسلام .

ومن الواضح أن هذه الدراسة تستلزم كثيراً من الجهد وتحتاج لاطلاع واسع ، ولكن النتيجة التي يحصل عليها الباحث تزيل أثر الجهد ، وتمنح كثيراً من السعادة :

وقد تبين لي من البحث الطويل الذي قمت به أن الجزيرة العربية - في مجال الاتجاهات الاقتصادية - تنقسم قسمين رئيسيين :

١ - مناطق عربية، قل أو انعدم فيها التأثير بالفكر الخارجي ، وتمثل

هذه في مناطق البدو بقلب الجزيرة وفي بعض جهات الساحل التي لم تجذب لها غير العرب .

٢ - مناطق عربية كانت شديدة الاتصال بالفكر الخارجي .

وسنقوم بدراسة كل من هذين القسمين على حدة :

١ - المناطق العربية التي لم تتأثر بالفكر الخارجي :

المناطق العربية التي لم تتأثر بالفكر الخارجي أو كان تأثيرها به محدوداً هي مناطق البدو وتوجد بشكل خاص في قلب الجزيرة العربية ، وقلب الجزيرة العربية يتكون من سلاسل من الجبال المرتفعة ، بينها بعض الوديان ، وهو قليل الأمطار ، سكانه رحل يبحثون عن مناطق الأمطار ، أو منابع الماء ، ويعتقون حولها يرعون العشب ويشربون الماء حتى ينفد العشب ويجف الماء ، وحينئذ يبحثون عن مكان آخر ، وهكذا ، ويعيش في هذا القسم قبائل العرب في ظل ما يعرف بالعصية القبلية ، تلك العصية التي تجعل من القبيلة وحدة متماسكة ومتميزة عن سواها من القبائل ^(١) ، وقد تصادف القبيلة واحة لا يجف منها الماء ، وحينئذ تستقر بهذا المكان .

وقلب الجزيرة العربية يمثل حقيقة الفكر العربي ، والبدو في قلب جزيرته حصفوا أسمى مراحل أنشطته ^(٢) الاقتصادية فيما بينهم ، فاقسموا - بنوع واضح من العدالة - مصادر الثراء الضئيلة التي قدمتها لهم الطبيعة ، - اقتسمت القبائل التي تعيش في عمان ما يحصل عليه رجالها من لؤلؤ وأسماك ، واقتسمت القبائل الأخرى مناجم الملح وبلح النخيل والمراعي ومزارع الشعير

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٦٥ .

(٢) آثرنا في هذا البحث أن نستخدم كلمة « مشاركة » بدل كلمة « اشتراك » إذ أصبح لهذه الكلمة الأخيرة معنى اصطلاحى خاص .

ولبان مهرة وصمغ عسير ، وهناك عوامل ثلاثة حفقت المشاركة في هذه المجتمعات العربية الأصيلة ، وهذه العوامل هي :

١ - القبيلة وتكوينها .

٢ - جماعات الصعاليك واتجاهاتها الاقتصادية .

٣ - الكرم العربي ومدلوله الاقتصادي . .

وستتكلّم عن كل من هذه العوامل كلمة تشرح مكانه في خلق الاتجاه الاقتصادي بهذه المناطق .

القبيلة العربية والاتجاهات الاقتصادية في حياتها :

تقوم الهيئة الاجتماعية عند البدو على نظام العشيرة ، ووحدتها الأسرة التي تمثل الواحدة منها الخيمة أو البيت ، والجنى عبارة عن مضرب الخيام ، وأعضاء الجنى يطلق عليهم لفظ قوم ، وتتألف القبيلة من أقوام أو عشائر تربطها أواصر النسب ، وينظر أبناء العشيرة الواحدة بعضهم إلى بعض كأبناء دم واحد ، وهم يؤدون الطاعة لرئيس واحد هو شيخ القبيلة ، . . ويرجع اسم العشيرة في الغالب إلى الجد الأعلى الذي تنسب إليه ، فيقال بنو تميم أو بنو شيان وهكذا ^(١)

والذي يعنينا من هذا التكوين أن نصل إلى حقيقة هامة جداً هي أن ثراء القبيلة هو ملك للقبيلة ، شركة مشاعة ينتفع الجميع بها بمقدار حاجتهم ، ويعمل الجميع لتنمية هذا الثراء بمقدار طاقتهم ، ويذكر Philip Hitti ^(٢) أن الخيمة وما بها من أثاث لا قيمة له ، ملك لصاحبها ، أما الماء والمرعى والأرض التي يستنبت منها القمح أو الشعير فهي ملك شائع للقبيلة كلها .

(١) فؤاد حزة : قلب الجزيرة العربية ص ١٢٢ .

(٢) Philip Hitti : History of the Arabs p. 26

صحيح أن للقبيلة رئيساً ، ولكن إذا لاحظنا دوافع اختيار الرئيس ومسئوليته ، وجدنا أنه كان يُعدُّ ركناً هاماً من أركان شركة الشيوخ التي ذكرناها آنفاً ، فالرجل يختار لرياسة القبيلة إذا توافرت فيه صفات ثلاثة : الكرم والشجاعة والحلم ، والكرم أبرزها ، فالعربي حين يقصد الناس رفده يحس أنه صار ركناً مكيناً من أركان المجتمع في القبيلة ، أو في أحباء العرب ، يلجأ إليه المرملون والضعفاء وطلاب الحاجات ، وأنه سائر في طريق المجد الذي يوصله إلى سيادة قومه ورياستهم ، فإذا وصل إلى تلك المنزلة حافظ عليها ما وسعه جهده وماله بالذل وإرضاء الناس ، فيحمل الكَلَّ ويغيث الملهوف ويفك العاني ، ويطعم الفقير ؛ وينتصف للمظلوم ، وذلك لأن السيادة لم تكن مبنية على الغلبة والقهر والاستبداد ، وإنما كان منشؤها الاحترام والإجلال ، لما يمتاز به الرئيس من صفات تدفعه إلى الصدارة في مجتمعه هذا ، ومن أقوى هذه الصفات الكرم لأن حاجة القوم إليه أشد ، فهم ينزلون الرئيس منزلة الوالد الذي يحنو عليهم ويرعى شئونهم ^(١) .

وقد ذكر عرابة بن أوس مقطوعة من الشعر يبين بها الأسباب التي جعلته سيداً في قومه قال :

وأصبحت في أمر العشيرة كلها كذي الحلم يُرضى ما يقول ويعرف
وذاك لأنني لأعادي سراتهم ولا عن أخى ضرائهم أتنكف
وإني لأعطي مسائل ، ولربما أكلف مالا أستطيع فأكلف

والدارس للحياة الاجتماعية لدى القبائل العربية يدرك أن مسئوليات رئيس القبيلة أكثر جداً من امتيازاته ؛ فهو كثير البذل والعطاء من نصيبه الذي يناله من ثراء القبيلة ، وهو يقود القبيلة في الحروب والغارات ويدود عنها العدوان ، وهو يحمي اللاجئين ويحلّم على الجاهلين ، ونظير ذلك يتحتم

(١) عمر الدسوقي : الفتوة عند العرب ص ٦٨ — ٦٩ .

على أفراد القبيلة أن يطيعوا أمره وأن يستجيبوا لتوجيهه . بيد أن دوافع الحرية المطلقة والأناية المفرطة والأثرة ، كثيراً ما تتحرك في نفوس البدو فلا يخضعون لحكم يصدره رئيس القبيلة ، إذ لم يكن لرئيس القبيلة سلطان يرغم به أفرادها على خضوع لحكمه ، وكان للبدوى أن يتمرد على هذا الحكم ويهجر القبيلة كلها كما شرحنا ذلك من قبل ، وهكذا كانت مسئوليات رئيس القبيلة أوسع جداً من امتيازاته ، وما كان يمكن أن يكون له من ثراء وحوله جائعون أو محتاجون ، وقد عبّر الشاعر العربي عن ذلك بقوله :

وإن سيادة الأقوام عبء يضاق به ومطلبها جليل
أتر هو أن تسود ولا تُعنى وكيف يسود ذو الدعة البخيل؟

تلك هي صورة القبيلة العربية ؛ أسرة واحدة ، ثروتها شركة ، لا صيد فيها ولا مسود ، بل « سيد القوم خادهم » كما جرى بذلك المثل العربي ، ورئيس القبيلة يحمل من المسئوليات أضعاف ما ينال من امتيازات إن كانت له امتيازات .

هذا وينبغي هنا أن نشير إلى مظهر الحياة في البادية ومدى ما ينتشر بها من فقر وفاقة ، وما يؤدي له هذا الفقر من نتائج في المجال الاقتصادي ، فقد كانت البادية شحيحة قاصية ، فلم تجد الجماعات المنتشرة بها وسيلة لسد حاجات معيشتها إلا عن طريق الشيوخ^(١) فكان هؤلاء يلتقطون غذاءهم ويتقاسمون ، وكانت أدوات الإنتاج تتمثل في الأقواس والسهام والشباك وكلاب الصيد ، وكانت كلها مملوكة للقبيلة ملكاً عاماً ، فكان من الحق أن تكون ما تلوه من نتائج ملكاً عاماً أيضاً ، كما كان الغزو والغارة وهما من أركان البناء الاقتصادي في تلك الهيئة الاجتماعية يجلبان ثراء تقتسمه

القبيلة كلها ، على أن مما ألزم اتباعَ هذا النظام الاقتصادي أنه لم يكن هناك فائض في السلع ، وكان الناتج لا يزيد عما تتطلبه الحياة ، ومن هنا لم يكن من الممكن أن يُدخِر شيء عند إنسان ويجوع إنسان آخر ، فقد كان الكل يعملون ويوزع الناتج على الجميع ، وتعرف هذه المرحلة في رأى علماء الاقتصاد بمرحلة الشيوعية البدائية^(١) .

٢ — جماعات الصعاليك واتجاهاتها الاقتصادية :

والصعاليك يسمون أنفسهم « الفتيان » ويسمى زعيمهم عروة بن الورد « الإخوان » وفي ذلك يقول :

ولا أترك الإخوان ماعشت للردى كما أنه لا يترك الماء شاربُهُ^(٢)

والحديث عن الصعاليك يقتضينا أن نعود مرة أخرى للكلام عن القبيلة العربية وعن عناصر تكوينها وظروف حياتها ، فقد قلنا إن القبيلة أسرة كبيرة ، وأن رئيسها يُختار ممن توافرت فيهم صفات الكرم والشجاعة والحلم ، وعليه مسؤوليات أكثر من امتيازاته ، وليس له أن يرغب أفراد القبيلة على الخضوع لحكمه ، ولأى منهم أن يتنرد على قراره ويهجر القبيلة كلها .

ومن هؤلاء الذين هجروا قبائلهم لسبب أو لآخر تكونت في الجزيرة العربية جماعات لا يربط بينها الدم الذى يربط بين أفراد القبيلة بعضها والبعض الآخر ، وإنما يربط بينها رباط مطلقه القرد ، ثم يدعم هذا الرباط بعناصر اجتماعية واقتصادية هي المقصودة في هذا البحث كما سنرى ، ومن هذه الجماعات يتكون الصعاليك أو الفتيان بالجزيرة العربية .

(١) انظر كتاب « النظم الاقتصادية في العالم عبر العصور وأثر الفكر الإسلامى فيها »

للمؤلف ص ١٧-١٩ .

(٢) ديوان عروة ص ١٥١

والناظر في أخبار هؤلاء الصعاليك ، المتبع لظروف نشأتهم وحياتهم ،
يستطيع أن يلاحظ في وضوح ثلاث طوائف مختلفة تتألف منها جماعاتهم
وهذه الطوائف هي :

١ - طائفة « الشذاذ والخلفاء » الذين شذوا على الدستور القبلي
وتحردوا عليه ، فخلعتهم قبائلهم وتبرأت منهم ، وطردتهم من حماها ،
وقطعت ما بينها وبينهم من صلة ، وتحملت بهذا من العقد الاجتماعي الذي
يربط بينها وبينهم ، والذي يصوره المثل العربي القديم « في الجزيرة تشترك
العشيرة » فأصبحت لا تحتمل لهم جريرة ولا تطالب بثأر لذنوب يرتكبه
الآخرون ضدهم ، ومن هؤلاء حاجز الأزدي وأبو الطمحان القيني .

٢ - طائفة الأغربة السود الذين سرى إليهم السواد من أمهاتهم الإماء ،
فلم يعترف بهم أبائهم العرب ، ولم ينسبهم إليهم ، لأن دماءهم خالطها
دماء أجنبية سوداء لا تصل في درجة نقائها إلى درجة الدم العربي ومن هؤلاء
تأبط شرا والشنفرى والسليك بن السليكة .

٣ - طائفة الفقراء المتمردين الذين تصعلكوا نتيجة للظروف الاقتصادية
الصعبة التي كانت تسود المجتمع الجاهل ويمثلهم عروة بن الورد^(١) .

ومن هذه الطوائف الثلاث تكونت جماعات الصعاليك ، وكلمة
« الصعلكة » في اللغة معناها الفقر ، ولكنها ذات مدلول أدق مع هذه
الطوائف ، فهي معهم تفيد الاستعداد للغزو ، والتجرد للغارات ، والثورة
ضد النظام القبلي السائد الذي يقوم على روابط الدم والنسب ، ويمكننا
بذلك أن نرى في ثورة البروليتاريا التي دق ناقوسها كارل ماركس في
القرن التاسع عشر عناصر مقتبسة من ثورة الصعاليك ضد القبائل^(٢) . ولكن

(١) الدكتور يوسف خليف : الشعراء الصعاليك في العصر الجاهل ص ٦٥ - ٦٦ .

(٢) انظر خاتمة البيان الشيوعي في كتابه Isaiah Berlin بكتابه « Karl Marx »

الثورة العربية كان فيها نبل العرب كما سنرى بعد قليل ، ولكن كارل
ماركس صيغ ثورته بالدم وجعلها مملوءة بالحق والضعيفة .

وقبل أن نتحدث عن خلق المشاركة عند الصعاليك ينبغي أن نتعرف
على أخلاقهم ، فقد كانت أخلاقهم واتجاهاتهم النفسية أساساً قوية لسياستهم
المالية :

من أبرز صفاتهم الشجاعة وعدم الخوف من الموت أو الرهبة منه ،
بل إنهم يرون الموت أكرم من الخضوع الذى ثاروا عليه وأنفوا منه ،
يقول عروة :

فَلَمُوتٌ خَيْرٌ لِلْفَتَى مِنْ حَيَاتِهِ فَقِيراً ، وَمَنْ مَوْتٌ تَدْبُ عَقَارِبُهُ^(١)

ولماذا لا يقتحمون المعارك خشية الردى ، والموت يدهم الوديع المستقر
بين أهله ، وقد ينجو منه البطل الذى يخوض المعارك ، وقد عبر تأبط شرا
عن ذلك بقوله :

لعل الذى يخشون منه مواجهياً يصادفه فى أهله المتخلف^(٢)

ولا بد للإنسان أن يموت ، فإذا لم يجيء الموت اليوم فسيجى غدا ،
يقول عروة :

فإن فاز سهم للمنية لم أكن جزوعاً ، وهل من ذاك من متأخر^(٣)
وقد خلقت « الصعلكة » من هذه الجماعة قوة متماسكة متعاونة ،
للضعيف فيها حقه لدى القوى ، وحل عروة بن الورد من الصعاليك محل
رئيس القبيلة من القبيلة ، فأصبح يحس بما عليه من مسئوليات تجاه جماعته ،

(١) ديوان عروة ص ١٥١ .

(٢) الأغاني ج ١٨ ص ٢١٧ .

(٣) جهرة أشعار العرب ص ٢١٤ .

ومن أجل هذا لقب بعروة الصعاليك أو بأبي الصعاليك ، وكان يسعى للحصول على المال ليعين به محتاجاً ، أو يرد به ضرراً ، وهو في ذلك يقول :
دعني أطرف في البلاد لعلني أفيد غنى ، فيه لذي الحق محملٌ
أليس عظيماً أن تلم ملمة وليس علينا في الحقوق معول^(١)

ومن أبرز ما اعتر به الصعاليك من خصال أنهم كانوا لا يتعرضون لأموال الفقراء ولا لأموال الأغنياء الأسقياء ، بل كانوا يتبعون الأغنياء المترفين ، وبخاصة البخلاء منهم^(٢) واعتبروا ما يحصلون عليه منهم حلالاً لهم غنموه بعد أن حرّموه ، فاستراحوا إلى أنهم يثأرون من الأغنياء والأشياء^(٣) .

ومن الصفات التي عرفت عن الصعاليك ، الكرم ، وقد برزوا في هذه الصفة إلى حد كبير حتى ضرب المثل بذلك فقيل « كل صعلوك جواد^(٤) » وكان عروة بن الورد نظيراً لحاتم الطائي في جوده وكرمه ، وقد أثر عن عبد الملك بن مروان قوله : من زعم أن حاتمًا أسح الناس فقد ظلم عروة ابن الورد^(٥) .

الفلسفة الاقتصادية للصعاليك :

لم تكن الرابطة بين الصعاليك هي رابطة الدم والنسب كذلك التي تربط بين أفراد القبيلة ، وإنما كانت هناك عصبية جديدة تضم الصعاليك ، وهي عصبية اجتماعية تتخذ من اتجاهها الاقتصادي أهم أسسها ، وجميع الدارسين لحياة الصعاليك يواجهون هذا الاتجاه الاقتصادي بين أفراد هذه

(١) ديوان عروة ص ٣١ .

(٢) دكتور يوسف خليل : الشعراء الصعاليك في العصر الجاهل ص ٤٥ .

(٣) دكتور أحمد الحوق : الحياة العربية من الشعر الجاهل ص ٣٠٠ .

(٤) الميداني : مجمع الأمثال ج ٢ ص ٩ .

(٥) الأغاني ج ٣ ص ٥٨٤ .

الجماعة ، ويعلمون هذا الأساس كواحد من أبرز الأسس التي التفت عندها هذه الطائفة ، فالدكتور أحمد الحوى يذكر أنه « تبين من دراسة شعر الصعاليك أنهم دعاة إلى نوع من الاشتراكية العملية القسرية^(١) » والدكتور يوسف خليف يصف صعلكة عروة بن الورد بقوله : كانت الصعلكة عند عروة نزعة إنسانية نبيلة ، وضريبة يدفعها القوى للضعيف ، والغنى للفقير . وفكرة اشتراكية تُشرك الفقراء في مال الأغنياء وتجعل لهم فيه نصيباً ، بل حقاً يغتصبونه إن لم يُؤدَّ لهم ، وتهدف إلى تحقيق لون من ألوان العدالة الاجتماعية ، والتوازن الاقتصادي ، فالغزو والإغارة للسلب والنهب لم يعد عنده وسيلة وغاية ، وإنما أصبح وسيلة غايتها تحقيق نزعة الإنسانية وفكرة الاشتراكية^(٢) .

وقد وصل الصعاليك في الجاهلية إلى فكرة سامية وصحها الإسلام فيما بعد ، هي أن المال مال الله ، وأن مَنْ منحه الله الغنى عليه أن يرعى الفقير ، ويعطيه بما أعطاه الله « وآتوهم من مال الله الذي آتاكم »^(٣) ، ولكن بعض الأغنياء بالجاهلية أغضوا الطرف عن الفقراء ، وضمنوا بالمال ، وعاشوا وعندهم فائض ويجوارهم محتاج مظلوم ، ومن أجل هذا استباح الصعاليك أن يغيروا على أموال الأشياء فيأخذوا منها حقوقهم التي منعوها ظلماً وعدواناً ، ومن هنا كانت غاراتهم تنجس إلى الأغنياء الأشياء ؛ فلم يكن من دستورهم أن يعترضوا ذوي الكفاف ولا ثراء الكرماء ، وقد رويت عن صعلوك متأخر هو الأحجير السعدى مقطوعة شعربة جميلة تمثل اعتقادهم أن المال مال الله ؛ وأن لكلٍّ من خلق الله نصيباً فيه . وهو في هذه المقطوعة يعلن خجله من مخالفة ناموس الخالق الأعظم ، إذ يسير بجبل ليس به بعير ، ولبل الله يزدحم بها الكون ، ويملك الأشياء أعداداً كبيرة منها ، وهاك جزءاً من هذه المقطوعة :

(١) الحياة العربية من الشعر الجاهل ص ٣٠٤ .

(٢) الشعراء الصعاليك ص ٤٧ .

(٣) سورة النور الآية ٣٣ .

وإني لأستحي من الله أن أرى أمسر بجبل ليس فيه بعير
وأن أسأل الجبس اللثيم بعيره ويعران ربي في البلاد كثير ^(١)

وقد اتخذ الصعاليك هذا الاتجاه دستورهم كلها حصلوا على مال ، فقد كانوا حريصين على المنح بسعة . وتوزيع ما حصلوا عليه على كل المحتاجين منهم ، بحيث لا ينال واحد منهم أكثر من سواه ولو كان في هذا التقسيم ما يمس به سوء ، وقد صرخ أبو الصعاليك عروة بن الورد في وجه أحد الأغنياء مقطوعة راتعة تشرح هذا الاتجاه ، وفي هذه المقطوعة يسخر عروة من الغنى لأنه سمين وزاد شحمه في حين ظهرت النحافة على عروة ، وليس ذلك إلا لأن طعام عروة يقدسه مع كثيرين ، ولكن طعام الغنى للغنى فقط ، ويختم هذه المقطوعة أروع ختام حين يعلن أنه يقسم جسمه في جسام كثيرة ، فهو موجود في كل جسم ، ويكفيه قليل من الماء والطعام إذا شبع الآخرون استمع إليه يقول :

أتهزأ مني أن سمعت ؟ وأن ترى بجسمي مس الجوع والجوع جاهد
فإني امرؤ يحشو لزادي جماعة وأنت امرؤ يحشو لزدك واحد
أقسم جسدي في جسام كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد

وعروة كما قلنا زعيم الصعاليك ، ومُتَقَنَّ حياتهم ، فلنسر معه مرحلة أخرى لنرى الانجماهاة الاقتصادية التي جعلها دستور جماعته :

يروى ابن السكيت ^(٢) أن عروة بلغه عن رجل من كنانة أنه أبخل الناس وأكثرهم مالا . فبعث عليه عيوناً فأنوه بنجره ، فشد على إبل هذا البخيل واستاقها ، ثم قسمها في جماعته .

ويروى أبو الفرج الأصفهاني ^(٣) من أخبار عروة أنه كان إذا أصابت

(١) الشعر والشعراء ص ٤٩٥ والجبس هو اللثيم الجبان .

(٢) شرح ديوان عروة ص ١٨١ .

(٣) الأغاني ج ٣ ص ٧٨ - ٧٩

الناس سنة شديدة ، يجمع المرضى والضعفاء والمسنين من عشيرته ، ثم يحضر لهم الأضراب ويكسب عليهم الكنف ويكسبهم (يكسب لهم) ومن قوى منهم : إما مريض يرأ من مرضه ، أو ضعيف تثوب قوته ، أخرجه به معه فأغار وجعل لأصحابه الباقي في ذلك نصيباً ، حتى إذا أخصب الناس وألبنوا وذهبت السنة ألحق كل إنسان بأهله ، وقسم له نصيبه من غنيمة إن كانوا غنموها ، فربما عاد الإنسان منهم إلى أهله وقد استغنى .

وكان الصعاليك - كما قلنا - يتساوون في القسم لا فرق بين قوى وضعيف ورئيس ومهرءوس .

٣ - الكرم العربي ومداه في تحقيق المشاركة الاقتصادية .

الدراس لحياة العرب في الجزيرة العربية يدرك أن شبح الفاقة كان يهددهم ، فالسما قد تشح بالمطر ، فتجذب الأرض ويجف الفرع^(١) ، وقليل من العرب من لم يتعرض لمجاعة في ظرف من الظروف أو وقت من الأوقات ، وكانت هذه الحال تدعو القادر أن يحمل الكل غفاة أن يصبح القادر كلاً والغنى محتاجاً ، وقد عبّرت أم حاتم الطائي عن سبب كرمها بقولها .

لهمرك قدماً عضني الجوع عضه فأليت ألا أمنع الدهر جائعاً
فقولاً لهذا اللائمى اليوم : أعفني وإن أنت لم تفعل فعرض الأصابع

وفي ضوء هذا الاتجاه حفل التاريخ العربي بأفانين من الكرم والتفنن للعطاء ، حققت للمعوز حقه في مال الواجد ، وخلقت اتجاه مشاركة يصوره الأدب أجمل تصوير ، والأدب العربي مصدر مهم من مصادر التاريخ العربي والإسلامي ومنه نقتبس بعض نماذج^(٢) .

(١) أنظر حديثاً عن عام الرمادة بكتابتنا « المجتمع الإسلامي » ص ١٤٢ - ١٤٥ .

(٢) هذه النماذج مقتبسة من :

١ - المعلقات العشر ٢ - أسرار الحسانه للإستاذ سيد علي المرصفي .

٣ - الأدب العربي وتاريخه للإستاذ محمد هاشم عطية .

٤ - الحياة الاجتماعية في الشعر الجاهل للدكتور أحمد الحوق .

كانت الصحراء الفسيحة الصامته تبتلع في الليل القرى والنجوم ، فيوشك السارى أن يضل الطريق ، فكان من عادة العرب أن يشعلوا النيران على ربوات عالية ليهدوا بها الضال ، وكانت النيران تمثل لدى العرب دعوة للقرى ، وكان حاتم شديد الرغبة أن تجلب ناره الضيفان ه فكان بحث غلامه أن يثابر على إشعالها ، ويغذيها بالخشب والعيدان لترتفع ، لعل ضيفا يجيء لها ، ويعده بالحرية إن جلبت ناره ضيفا ، استمع إليه يقول :

أَوْقِدْ فَإِنَ اللَّيْلَ لَيْسَ قَرُ

وَالرَّيْحُ يَا غِلَامَ رِيحِ صِر

عَسَى يَرَى نَارَكَ مِنْ عَمْرِ

إِن جَلَبْتَ ضِيفًا فَأَنْتَ حَرٌّ

وكان المضيف يفرح بالمضيف ، ويهدده ويهش له ، ويحمله محل أولاده ، قال جابر بن حيان .

وما وجد الأضياف فيما ينوبهم لهم عندِ عِلات الزمان أبا مثلى
وقال الخطيئة في ذلك .

فبات أبوهم من بشاشته أبا لضيْفهم والأم من بشرها أما وقصيدة الخطيئة التي اقتبسنا منها هذا البيت تمثل صورة بديعة عن روعة الكرم والإحساس بالمسئولية تجاه الضيف عند العرب ، وبيان الإحساس بالمسئولية مداه لأن الخطيئة ليس عنده ما يقدمه للضيفان ، فيتقدم ابنه إليه يطلب أن يذبحه ويقدم لحمه طعاماً للضيف ، وربما لعب الخيال بالشاعر ، ولكن وصول الخيال إلى هذا الحد شيء جدير بالتقدير .

استمع إلى الخطيئة يقول :

رَأَى شَبَحًا وَسَطَ الظَّلَامِ فَرَاغَهُ فَلَمَّا رَأَى ضِيفًا تَشْمَرُ وَاهْتَمَّا

وَقَالَ : هِيَ رِبَاهٌ ، ضِيفٌ وَلَا قَرَى بِحَقِّكَ لَا تَحْرِمُهُ تَا اللَّيْلَةَ اللَّحْمَا

وَقَالَ ابْنُهُ لَمَّا رَأَاهُ بِحَيْرَةٍ أَيَا أَبْنَى اذْبَحْنِي وَبَسْرَ لَهْ طَعْمَا

ولا تعتذر بالعدم على الذى ترى يظن لنا مالا فيوسعنا ذمنا
فروى قليلا ثم أحجم برهة وإن هو لم يذبح ففناه فقد هُما

وتسير القصيدة تروى أن قطيعا من حمر الوحوش ظهر ، فصاد منه
الحطيئة ما قدمه قرئ لضيفانه ، بعد أن هم يذبح ابنه .

ويرسم زهير بن أبى سلمى صورة لهرم بن سنان المرى وهو يعطى ،
فيصوره مهللا سعيداً كأنه ينال ويأخذ ، وهو فى الحقيقة يعطى ويرقد ،
قال زهير :

تراه - إذا ما جئته - مهللا كأنك تعطيه الذى أنت صائله
وكان المال عند العرب وسيلة لا غاية ، كان وسيلتهم لفك العثار
ومساعدة المحتاج وما يتبع ذلك من كسب المحامد ، ومن أجل هذا عاب
العرب قيس بن عاصم لأنه فى وصيته لأبنائه جعل المال غاية لا وسيلة ،
فأوصاهم بجمعه والإكثار منه ، ويقول أبو الفرج الأصفهاني فى ذلك (١) .
أوصى عاصم بن به و كان أكثر وصية أن يحفظوا المال ، والعرب لا تفعل
ذلك وتراه قبيحا .

وهكذا كان العرب يحبون الغنى ليمتحوه ، ويجمعون المال ليعطوه ، فما
كان الثراء يستقر بيد إلا ريثما تدبر هبته ، والناطقة الجعدى يبرز هذه الصورة
فى قوله .

فتى كملت خيراتى غير أنه جواد فما يبق من المال باقيا
ومثل ذلك قول الآخر .

كريم رأى الاقتار عاراً فلم يزل أنا طالب للمال حتى نمؤلا
فلما أفاد المال عاد بفضلله على كل من يرجو جداه مؤملا

والرائع أن كلمة المشاركة وردت في الشعر العربي القديم فأغننا هذا التعبير في تراثنا عن استعمال كلمة « الاشتراكية » الدخيلة ، وقد وردت كلمة المشاركة في أبيات سنروها بعد هذا التقديم ، وسنراها في هذه الأبيات تحمل مع الاشتراك معنى آخر هو الإعطاء من القليل الكفاف وإن كانت هناك حاجة إليه ، وألا ينتظر الإنسان الغنى لمنح ، فمن لم يمنح مع الكفاف لن يمنح مع الإثراء ، وفيما يلي هذه الأبيات .

سأمنح من قدرى نصيباً لجارتي وإن كان ما فيها كفافاً على أهلي
إذا أنت لم تشرك رفيقك في الذي يكون قليلاً ، لم تشاركه في الفضل
ويقول المفسر الكندي في هذا المعنى بيتاً مشهوراً هو :

ليس العطاء من الفضول سماحة حتى تجود وما لديك قليل
وعن حرص العربي على أن يجد له رفيقاً في الزاد يقول حاتم الطائي
لامرأته :

إذا ما صنعت الزاد فالتمس معي أكبلاً ، فإنني لست آكله وحدي
أخاً طارقاً ، أو جاريت ، فإنني أخاف مذمات الأحاديث من بعدي
وقد جاءت رسالة الإسلام تضع أسمى الأخلاق في قضية العطاء والعون ، فقررت أن العطاء يجب ألا يصحبه من رلا أذى ، وأن الطريق لنيل البر أن ينفق الإنسان مما يحب ، قال تعالى :

— الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا
ولا أذى^(١) .

— لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون^(٢) .

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٢ .

(٢) سورة آل عمران الآية ٩٢ .

والذى يعيننا هنا من هذه الآيات الكريمة أن من العرب من وصل في
الجاهلية إلى هذه المعاني وباشرها فعلا ، فلو الإصيح العدواني يقول :

إني لعمرك ما باني بلدى غلق على الصديق ، وماخبرى بمكنون
(الغلق : ما يغلق به الباب)

ويقول الآخر يذكر أنه في القرى يعمد إلى أسمن نوقه فينحرها للضيفان
فما يقدم في الكرم إلا أحسن العطاء ، استمع إليه يقول :

فأعضضته الطولى سناما ، وخبرها بلاء ، وخبر الخبر ما يُتخير

أى جعلت سيفى بعض ويجزر أطول النوق سناما وأكثرها شحما .

وكان لحاتم الطائي فلسفة رائعة يخلربها الأغنياء من جمع المال ، فطالما
تمنى الورثة موت المورث الغنى ليرثوه ، وربما كان من بين الورثة جواد
كريم يمنح من هذا المال ما يكسب به المحامد والمفاخر لنفسه دون من جمع
المال وكنت في الحصول عليه ، وهو في هذا يقول :

ولا تشقين فيه فيسعد وارث به حين تغشى أغبر الجوف مظلم
يقسمه غنا ويشرى كرامة وقد صرت في خط من الأرض أعظم
قليلا به ما يحمدنك وارث إذا نال مما كنت تجمع مغن

وهكذا حقق الكرم نوعا مهما من المشاركة في المال ، فلم يبق في
المناطق العربية التي لم تتأثر بالفكر الخارجى غنى متخم يعيش بجواره فئة
عضه الجوع .

ومن المعروف أن الشرائع من جهة والقوانين الوضعية من جهة أخرى
فرضت على الغنى أن يدفع قدرا من ماله للفقير أو للحكومات لتعالج مشة
الفقر ، ومن الواضح كذلك أن كثيرين من الناس يتهبون بطريقة
بأخرى بما تلزم به الشرائع أو القوانين ، وذلك لأن نفوسهم لم ته
بالإخوة الإنسانية ، ولم ترق فيهم عواطف الخير والتعاون ، فإذا فعل الله
في هذا المضمار ؟

يقول Wacyf Ghali : (١).

إن العرب جميعاً أعلنوا الحرب على الفاقة والعوز ، شكا المحتاجون أمرهم
لذوى اليسار والسعة فطارده هؤلاء الفقر ، وأمطروه وابلا من مهام كرمهم
حتى رقع أمامهم ، وارتد على عقبيه ، فاستلوا من صدور الفقراء بذور
البغضاء والحسد ، وجعلوا لسانهم يلهج بالمديح المستطاب والثناء العطر .

ويقول الأستاذ عمر الدسوقي (٢) : إن العربي ربيب الصحراء وصل
في مضمار المنح إلى ما تطمح إليه أرقى المجتمعات البشرية ، وكان الإعطاء
عنده طبيعة متأصلة ، فهو لا يجود ، أداء لواجب أو إطاعة لقانون ،
وإنما لأن الجود يشبع في نفسه رغبة ويدخل عليها مسرة ، وهذه هي
الغاية القصوى في تربية الفضائل الاجتماعية .

وبعد ، لقا أجمع الباحثون والنقاد على أن الشعر العربي هو المرأة التي
تعكس عليها حياة العرب قبل الإسلام ، وأنه من أهم مصادر هذه الحياة ،
وهامو ذا ينطق بأجلى بيان موضعاً اتجاهات المشاركة في المال ، هذه الاتجاهات
التي سادت بقلب الجزيرة العربية ، فلم تدع الجوع يعيش بجانب التخم ،
وهذه الاتجاهات تحمل شعارات الفخر لهذا المجتمع العظيم الذي سلك هذا
السبيل بحكم تكريمه من جهة ، وبمكرم ميوله الفطرية الطيبة من جهة أخرى .

٢ - المناطق العربية شديدة الاتصال بالفكر الخارجي .

تمثل هذه المناطق في الأمكنة التي اتصل فيها العرب بطريق المعينة أو التجارة
بغير العرب كأرض الفساسنة واليمن ، كما تمثل في المناطق التي زحف لها عنصر ليس عربياً
واستوطنها مثل يثرب وتمثل كذلك في مكة حيث كان البيت المقدس يستقبل حجاجا

(١) Tradition Chevaleres que des Arabes P. 321

(٢) الفتوة عند العرب ص ١٨ ، ١٦ بتصرف .

من الشمال أو الجنوب لهم اتجاهات اقتصادية برزت في مواكبهم إلى مكة، وأخذها عنهم سدة السكبة وكبار الشيوخ بالمدينة المقدسة ، وفي هذه المناطق أو تلك كان مظهر الاقتصاد مختلفاً عن مظهر الاقتصاد عند العرب الخنص الذى شرحناه آنفاً ، وسنقوم فيما يلي بإبراز مظاهر هذا الاقتصاد :

فى جنوب الجزيرة العربية باليمن كانت الأرض خصبة ، وكانت الأمطار تهطل بشكل منتظم ، وقد عنى القوم - كما ذكرنا من قبل - بالسود لحسن الانتفاع بهذه المياه ، وترتب على ذلك أن استطاع أهل اليمن أن يباشروا الزراعة ، وتحقق لهم الاستقرار تبعاً لذلك ، فقامت ممالك ومدن وقرى على هذا الشاطئ ، وتكوّن فيها ما يمكن أن يسمى بمصيبة المملكة أو المدينة ، وهى تقابل العصية القبلية بقلب الجزيرة ^(١) ، وحظيت اليمن بغنى عظيم نتيجة للزراعة ونتيجة للتجارة البحرية والبرية التى كانت تباشرها ، وقد تكلمنا عنها من قبل ، فأصبح لدى اليمن فائض امتلكه بعض الناس فامتازوا به على سواهم وظهر تبعاً لذلك نظام الطبقات باليمن .

وفى دائر الجزيرة العربية من ناحية الشمال وجدت دولتنا المناذرة والساسنة وكانت هاتان الدولتان تمثلان حلقة الاتصال ، أو - بتعبير آخر - الحاجز الوقائى بين البدو فى الجزيرة العربية من جانب ، ودولة الفرس ودولة الروم من جانب آخر ، وملوك الحيرة وغسان من صلالة بمنية نبتوا فى أرض الطبقات أو بتعبير العصر الحديث أرض الرأسمالية ، ثم التقوا فى حياتهم الجديدة بدول الشمال التى كان النظام الطبقي بها فى أشد مظاهره ، وعلى هذا عنى ملوك الحيرة وملوك الساسنة بحياة الرف وحباء القصور محاكين قياصرة الرومان وأكاسرة الفرس ، وكان هؤلاء الملوك العرب

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٦٥

وثيق العسله بتاريخهم القديم فجعلوا قصورهم الضخمة على مثال قصور اليمن ، وأعظم دليل على ذلك ، هذان القصران العظيمان اللذان بناهما ملوك الحيرة محاكين بهما قصور اليمن ، وهذان القصران هما « الخورنق والسدير » .

وهكذا وجدت حياة الطبقات في دولتي الشمال امتداداً لحياة الطبقات في اليمن وتأثراً بحياة الطبقات في دولتي الفرس والروم .

وهناك مركز آخر في الجزيرة العربية وضحت به مظاهر الطبقية ، ذلك المركز هو مكة المكرمة ، ومكة المكرمة مكان مقدس عند العرب منذ بنى إبراهيم وإسماعيل البيت الحرام ، وكان كثير من الوافدين إلى مكة من اليمن أو من دولتي الشمال يمثلون مظاهر الغنى والثراء ببلادهم ، وكانت مواكبهم العظمى تمثل الحياة الطبقية أدق تمثيل ، وقد انتقلت عن طريق هؤلاء حياة الطبقية إلى مكة ، فوجدت بها طبقة أرستقراطية تنعم بالغنى والترف ، كما وجد بها جحافل من العبيد والضعفاء .

ولم يكن الحجاج فقط هم الذين جلبوا الغنى وبالتالي نظام الطبقات إلى مكة ، بل إن تجارة قريش كانت أيضاً سبباً مهماً لهذه النتيجة .

وكان تجار مكة يربحون في تجارتهم الدينار ديناراً ، فأصبحت مكة جمهورية صغيرة تجارية ، يرأسها الموسرون من أكابر قريش ومقدميها الذين أتاح لهم مسوارد التجارة ومناصب البيت الحرام جاهاً ، ووسائل للترف على أوسع نطاق .

وراجت تجارة مكة فأخلدت قريش توطن مركزها في البلد الحرام ، فسُتت - كما قلنا من قبل - رحلتى الشتاء والصيف ، رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام ، فارتفعت مكانة مكة في الجزيرة ، واعتُبرت العاصمة المعروفة بها ، وسُمّت منزلة سوق عكاظ فأصبح ملتقى الخطباء وقطب

الدائرة الفكرية في الجزيرة ، وهو أمر لم يسبق له مثيل في ثقافة اليمن القديمة أوفى مجالس الأدب وحلقاته الزاهرة في بلاط الحيرة والغساسنة . وكان قصي مؤسسَ مجد قریش فابتنى في الشطر الأخير من القرن السادس دار الندوة ليجتمع فيها كبراء أهل مكة تحت إمرته ولينشاوروا في مهام بلدتهم ^(١)

وهكذا كان النظام الطبقي هو صورة الحياة في مكة ، وعندما جاء الإسلام كان بمكة الوليد بن المغيرة الذي قال القرآن الكريم عن مكانته وعن ثرائه : ذرني ومن خلقت وحيداً ، وجعلت له مالا مملوداً ، وبينين شهوداً ، ومهدت له تمهيداً ، ثم يطمع أن أزبدا . كلا . . . ^(٢) كما كان بها من الأغنياء أبوسفیان وعثمان بن عفان وأمية بن خلف ، وبيوارهم جبهة من الفقراء والضعفاء والمحتاجين .

ومن مظاهر الغنى لدى أرسنقراطية مكة أن زحف هؤلاء فامتلكوا كثيراً من أرض الطائف الخصبية وحدائقها الغناء لتكون مصيفاً لهم ومصدراً من مصادر ثرائهم .

بقى في الجزيرة العربية مركز رأسمال طبق لم تكونه الظروف السابقة ، بل كونه هجرة عنصر غريب إليه ، وهذا العنصر يهتم بالمال وجمعه اهتماماً بالغ للغاية ، وهذا المركز هو يثرب ، والعنصر الغريب هم اليهود ، وإلى الشمال من يثرب وجدت مراكز مماثلة ولكنها أصغر حجماً وأقل نشاطاً وهي خيبر وتبء ووادي القرى وفدك .

وكان اليهود يشتغلون بالتجارة ويعقدون الأسواق ليفصلها الأعراب

(١) انظر الترجمة العربية لكتاب "History of the Arabs" ج ١ ص ١٤٥
ففيه زيادة عن الأصل الإنجليزي p.104 (مترجم الكتاب هو مؤلفه الدكتور فيليب حتى)
(٢) سورة المدثر الآيات ١١ - ١٦ .

للامتياز ، وكانوا أيضاً يزرعون الأرض التي يعيشون بها وينتجون ما يحتاجه الأهليون ، كما كانوا يجتفون بعض الحرف مثل الصياغة ، وهى حرفة اشتهروا بها منذ عهد بعيد ، على أن جل اعتماد اليهود كان على معاطاة الربا وقرض الأموال بربا فاحش للأعراب ، واشتغال اليهود بالربا جلب لهم أرباحاً طائلة ، ولا يعنى الربا عندهم إقراض مال بمال فقط ، بل كان اليهود يرابون بالأشياء العينية كالقمح والشعير في مقابل أضعافها عند استحقاق الأجل وفي مقابل أشياء عينية من نوع آخر أحياناً لأن النقود بأنواعها لم تكن كثيرة آنذاك ، وقد كان تحريم الإسلام للربا ضربة قاصمة لظهورهم ، وكان من أسباب وقوفهم موقف التحدى للإسلام . ومن المظاهر الاقتصادية التي مارسها اليهود ، أنهم كانوا يجلبون الخمر من بلاد الشام ، كما كانوا يبيعون بأجل نظير رهن يودعه المشتري ^(١) .

وبهذه الوسائل تكسدت أموال طائلة عند اليهود ، وأصبح تجارهم يكوّنون طبقة عظيمة الثراء ، وعن ثرائهم يتحدث القرآن الكريم : (وآورثكم أرثهم وديارهم وأموالهم ، وأرضاً لم تطفوها ^(٢)) .

ولمجاراً لكل ما سبق نقرر أن المشاركة كانت مظهر الحياة عند البدو في قلب الجزيرة العربية ، وأن حياة الطبقات والرأسمالية كانت مظهر الحياة الاقتصادية في اليمن ودولتي الشمال وفي مكة ومراكز اليهود .

(١) دكتور جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام ج٦ صفحات ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤
بنسرف .

(٢) سورة الأعراب الآية ٢٧

الحياة الاجتماعية

في الجزيرة العربية قبل الإسلام

فيما يلي من صفحات ، نورد أبرز صور الحياة الاجتماعية في الجزيرة العربية قبل الإسلام ، وهذه الصور لها أهمية كبيرة في فهم موقف العرب من الإسلام عندما ظهرت دعوته ، ويلاحظ أن الفروق من الناحية الاجتماعية بين البدو وبين الحضرة أقل جداً من الفروق في الناحيتين السياسية والاقتصادية لأن وحدة النضر العربي ، والصلة بين البدو والحضر عبر القرون وحُدت الانبجاعات الاجتماعية تقريباً وأشاعت هنا وهناك عادات وتقاليد واحدة أحياناً ومتقاربة في أكثر الأحيان ، ثم إن العوامل الطارئة لا تستطيع أن تؤثر في الحياة الاجتماعية بمثل تأثيرها في الحياة السياسية والاقتصادية . وسنبداً بإيراد أهم ملامح الحياة الاجتماعية عند البدو ، تلك الملامح التي يتميز بها البدو عن الحضرة ، ثم ندرس موضوعات كبيرة لإهمية هي : الشعر والدين والأسرة ، وسنمدنا تلك الموضوعات بأهم ما يعيننا في دراسة المجتمع العربي قبل الإسلام .

الحياة الاجتماعية عند البدو

أهم ما يمتاز به البدوى أن نسبه صريح لم يدخله اختلاط ، وذلك لعمقه في الصحراء في حياة لا تغرى أحداً بها ولا تجذب الأنظار إليها ، بل إنها خيفة لا يستطيع الرواد أن يأملوا في السلامة فيها إن اقتحموها ، ومن هنا بقى العنصر البدوى سليم النسب كما حدث في مضر وكثانة وثقيف وغيرها (١) :

وكما ضمنت انبادية سلامة النسب للبدو فقد ضمنت لهم أيضاً سلامة اللغة العربية عندما فسدت هذه اللغة في موطن الحضر بسبب الاختلاط الذى تَمَّ بين العرب وغير العرب ، وأصبحت البادية لذلك مدرسة يدخلها من أراد أن يتلقى اللغة الصحيحة والعربية الفصيحة (١) .

وحياة البادية استلزمت العصبية ، إذ كانت العصبية وحدها وسيلة لحماية القبيلة من اعتداء الآخرين ، ولا يمكن أن يعيش في البادية شخص أو أشخاص دون أن يكونوا أفراداً في قبيلة يحمونها وتحميهم ، فإذا وجد شخص أو أشخاص قليلون في البادية تحفظتهم القوى البدوية التى ترى من حقها أن تمتلك الضعيف وتأسره إلا أن يلجأ هذا الشخص إلى جوار قبيلة ، وحينئذ تحميه عصبية هذه القبيلة التى دخل في جوارها (٢) . وقد قرب على ذلك أن فقد البدوى شخصيته فأصبح فرداً في قبيلة يثور معها عندما تثور دون أن يسأل : لماذا تثور (٣) .

وإذا كانت القوة هى سلاح البدوى يعتدى بها على الضعيف دون سبب ، فإن الثأر هو أقرب ما يكون للعدالة في البادية ، وقانون الثأر هو أنه إذا قتل رجل من قبيلة فرداً من قبيلة أخرى ، فإن الأخذ بالثأر يصبح لازماً على أفراد قبيلة المقتول ، فيحق لكل منهم أن يقتل من يصادفه من أفراد قبيلة القاتل ، ومن الواضح تبعاً لذلك أن قتل شخص من قبيلة كان يستدعي حروباً طويلة قد تمتد عدة سنوات لتعدد الأخذ بالثأر ، ولهذا ظهرت أيام العرب التى تصف حروبهم ومعاركهم التى كانت تشترك فيها أحياناً عدة أجيال ، مع أنها لم تقم

(١) اقرأ ما كتبه المؤلف عن « البادية » في كتابه « تاريخ التربة الإسلامية » واقرأ نماذج لفساد لغة الحضر في عيون الأخبار لابن قتيبة والعقد الفريد وغيرهما .
(٢) اقرأ مقدمة ابن خلدون ص ١٢٧
(٣) اقرأ المجتمع الإسلامى للمؤلف .

في بادئ أمرها إلا للأخذ بشار شخص واحد^(١) . وإنما قلنا آنفا إن الثأر أقرب ما يكون للعدالة لأنه ناجم عن اعتداء سابق فهو قصاص غير منظم ، والثأر بالنسبة لحياة البادية أعدل من الاعتداء دون سبب الذي كان كثيراً ما يقع في البادية كما ذكرنا آنفا .

واحتراماً لحرمة الكعبة التي كان يفد إليها العرب حاجين أو معتمرين ، اتفق العرب - كما سبق القول - على تحريم القتال والغارات في شهور أربعة من السنة سميت الأشهر الحرم ، وهي ذو النعدة وذو الحجة والمحرم وتلك هي شهور الحج ثم رجب وهو شهر تكثر العمرة فيه ، غير أن البدو كان يثقل عليهم أن يوقفوا الغارة ثلاثة شهور متتالية ، ولذلك كانوا كثيراً ما يستبدلون بالمحرم صفرأ فيحلون المحرم ويحرمون صفرأ بدله ، وذلك ما يسمى بالنسيء وكانوا ينخرون بذلك ، وفيه يقول شاعرهم :

ألسنا الناسئين إلى معد شهور الحل نجعلها حراماً

وقد غاب القرآن الكريم عليهم ذلك قال تعالى : (إنما النسيء زيادة في الكفر . .)^(٢)

وبرى بعض الكتاب^(٣) أن تحريم القتال في هذه الأشهر كان بسبب رغبة العرب في الحد من سفك الدماء ، ورأى أن التجاءهم للنسيء وشوقهم للغارة يعارض هذا القول ، ولذلك أميل إلى ما ذكرته آنفا من أن تحريم هذه الأشهر كان ذا علاقة بالحج ، واتخذ التحريم وسيلة لأمان التجارة والتنقل ، أما شهر رجب فقد حرموه لأنهم استنطالوا الشهور التسعة في الحرب والصراع

(١) اقرأ أيام العرب في الجاهلية للاستاذ جاد المول وزميله .

(٢) سورة التوبة الآية ٣٧

(٣) انظر التاريخ السياسي للدولة العربية للدكتور ماجد ج ١ ص ٥٠

وما يسببه ذلك من كساد للتجارة ، ثم انتهزوا فرصة تحريره فاعتمروا فيه .
والشجاعة من مستلزمات البادية فإذا كان الحضر قد ألقوا جنوبهم على
مهاد الراحة كما يقول ابن خلدون ووكلوا أمرهم في المدافعة عن أموالهم وأنفسهم
للحاكم ... فإن أهل البدو قائمون بالمدافعة عن أنفسهم ، فهم دائماً يحملون
السلاح ويتفردون في القفر ، لهذا صار لهم اليأس خلقاً والشجاعة سجية^(١) .

وإذا قارنا أخلاق البدو التي ذكرناها آنفاً بما يقابلها من أخلاق الحضر
وأضفتنا لها شظف الحياة في البادية ولين العيش في الحضر انفتح لنا ما يقوله
ابن خلدون من أن البدو للحضر كالوحش غير المقدور عليه وكالمفترس من
الحيوان^(٢) ويدل على أن ابن خلدون وصف جانباً وترك جانباً آخر أكثر شيوعاً
في العلاقات بين البدو والحضر ، فالبدو مع ميله للسلب أدرك أن السلب سينتج
حرمانه ؛ لأن الحضر سيعملون على حماية أنفسهم منه . ولذلك لجأ البدو إلى أساليب
آخر للكسب من الحضر ، وذلك عن طريق العمل لهم والمقايضة معهم وغير ذلك من
الأساليب ، وإن كان ذلك لم يضع حداً لأسلوب العنف الذي وصفه ابن خلدون .

وكان من نتيجة صفات البادية وصفات البدو التي أشرنا لها فيما سبق أن
أصبح قلب الجزيرة مجهولاً ، إذ أنه لم يجذب إليه الرحالة ، ولم يستطع أهل
الحضر أن يجازفوا بدخول هذا المجهول ، ولم تزل البادية كذلك إلى أن
أناحت لها الأقدار ، بعد ظهور محمد عليه الصلاة والسلام ، أن يقص أخبارها
من نزع عنها من أهلها وأن يقف العالم على كثير مما كان العالم من قبل ذلك
في أتم الجهل به^(٣) . وعلى هذا فمعرفةنا بالبادية لا تتعدى قرناً ونصف قرن
قبل الإسلام كما سبق القول .

(١) المقدمة ص ١٢٥

(٢) المرجع السابق ١٢١

(٣) دكتور ميكل : حياة محمد ص ٧٤

وكان من نتيجة صفات البادية أيضاً أن نجت الجزيرة العربية من الاستعمار ، فليس في الصحراء القاحلة ما يجذب أنظار المستعمرين من الفرس أو الروم الذين كانوا يبحثون عن الصيد للسمين كما يبحث البلوى عن مواطن العشب ، واكتفت إنجلترا أم الاستعمار في العصر الحديث بالساحل تحرس به مصالحها البحرية حتى إذا ظهر الذهب الأسود في بعض نواحي البادية بدأ الاستعمار يتطلع لها ولكن يقظة العالم حالت دون زحف الاستعمار ، كما أن الاستعمار استحدث أساليب استعمارية جديدة تناسب العالم العربي والعالمي .

على أن هؤلاء البدو استطاعوا أن يلبوا دوراً هاماً في تجارة العالم في تلك الأزمان السحيقة ، فكما أن الطريق المائي عبر قناة السويس يلعب الآن دوراً هاماً في تجارة العالم ويربط الشرق بالغرب ، فقد كان طريق القوافل في العهد الجاهلي يلعب نفس الدور في ههد لم تكن قناة السويس قد شقت ، ولم تكن سفن ذلك العهد تستطيع استعمال البحر الأحمر المملوء بالجزر التي تجعل الملاحة خطراً عليها ، ومن عيوب الملاحة في البحر الأحمر أيضاً أن شواطئه قليلة الموانئ وأن به كثيراً من الشطوط الضحلة التي كان اقتراب السفن منها أمراً محفوفاً بالخطر^(١) . ولم تكن السفن كذلك تستطيع استعمال الخليج الفارسي بسبب وجود الفرس على ساحله الشمال وهم أعداء لسكان حوض البحر المتوسط . وعلى هذا أصبحت المواصلات البرية هي الطريق المهم للتجارة عبر البادية بين الشمال وبين الجنوب ، ثم بين الشرق وبين الغرب ، وقد حدد البدو أماكن للراحة والاستجمام على طول الطريق فكانت بمثابة محطات يتزودون منها بالماء والرزاد ، وكانت كذلك بمثابة مخازن يودعون بها بعض المتاجر لتلحق بقافلة أخرى عبر طريق آخر^(٢) ، وقد أوردنا مزيداً من الكلام عن هذا الموضوع عند الحديث عن تجارة قريش .

(١) تصور الازدهار في الجزيرة العربية: مقال للدكتور نقولا زيادة بمجلة القافلة

(رمضان ١٣٧٨ هـ) ص ٢

(٢) انظر حياة محمد للدكتور هيكمل ص ٧٧ .

الشعر^(٥)

نفيدنا دراسة الشعر الجاهلي من ثلاث نواح :

أولاً - دراسة الشعر العربي لذاته كفن له قيمة خلافة عند العرب .

ثانياً - دراسة الشعر العربي كعامل شديد التأثير في الحياة العربية .

ثالثاً - دراسة الشعر العربي كمصدر بصور لنا كثيراً من عادات العرب وأخلاقهم .

وفيما يلي دراسة موجزة لكل من هذه النواحي .

فالشعر عند العرب كان أجمل الفنون التي يحتفون بها ويمجدونها ، وطالما كانوا يجتمعون حول الشعراء ليسمعوا لهم وليصفقوا لقصائدهم ، كما يجتمع الناس الآن حول مغن عظيم أو موسيقى شهير ؛ وكانت هناك أسواق العرب : عكاظ ومجنة وذو الحجاز^(١) ، وفيها كان العرب يجتمعون للتجارة وكان الشعراء ينتهزون فرصة هذا الاجتماع ليلقي كل منهم أجود ما أهدأ من شعر ، وكانت قبيلة الشاعر تقف حوله وهو يفسد شعره تشجعه وتفخر به ، وكانت أمهات القصائد تُختار لتعلق في الكعبة غير بعيد من معبوداتهم كما سبق القول ، وكانت عكاظ أشهر الأسواق في مجال الشعر .

وكانت منزلة الشعراء عند العرب عالية جداً ، وكانت لهم أسمى مكانة في نفوس الناس ، فإذا ظهر في القبيلة شاعر مجيد أقبلت إليها وفود القبائل الأخرى للتهنئة ، وكانت قبيلته تقيم الأفراح وتنحر الذبائح ، وتقدم الأطعمة للناس ، وتخرج نساء القبيلة يعزفن الموسيقى ويرقصن ويغنين ، إذ كان

(٥) مراجعنا في الحديث عن الشعر وأثره عند العرب كثير من كتب الأدب والتاريخ وبخاصة كتاب المرحوم الأستاذ محمد هاشم عطية « الأدب العربي وتاريخه » فهو من خير ما كتب في ذلك الموضوع .

(١) عكاظ بين نخلة والطائف ، وذو الحجاز ومجنة حول مرفات .

الشاعر يدافع عن القبيلة بشعره ولسانه أكثر مما يدافع الفارس عنها بسيفه
وحرا به ، كما كان هو الذى يسجل الأحداث والوقائع ، ويرد على شعراء
القبائل الأخرى إذا تحدثوا عن قبيله بما لا تحب .

. . .

أما عن تأثير الشعر والشعراء عند العرب فإن الشاعر كان يمدح الحامل
فيرفع ذكره ، ويذم الشريف فيقلل قدره ، وفيما يلى نماذج قليلة تدل على
مدى ما كان للحجر عند العرب من تأثير عميق :

الاعشى وعبد العزى بن عامر :

كان عبد العزى بن عامر رجلا كثير البنات سيء الحال ، ورغب طلاب
الزواج عن بناته فكهدن ، فدحه الأعشى بقصيدة قال فيها :

أبا مسمع سار الذى قد فعلتمو فأبجد أقوام به ثم أعرقوا
يداك يدا صدق ، فكف ميده وأخرى إذا ماضن بالمال تنفق
فسار ذكره ، وحسنت حاله وتزوجت بناته .

الخطيئة وبنوأنف الناقة :

وكان جماعة من تميم ينتسبون إلى جدهم « أنف الناقة » ، ولكنهم كانوا
يخجلون من هذه النسبة ، وإذا مثل الواحد منهم عن نسبه قال :
عن بنى قريظ بن عوف (والدجهم أنف الناقة) ولا يذكرون أنف الناقة ،
فزارهم الخطيئة فأكرموا . فقال فيهم قصيدة منها :

قوم هم الأنف والأذنان غيرهم ومن يسوى بأنف الناقة الدنيا ؟
فاحترمهم العرب لهذا التسبب بعد ذلك ، وأصبحوا هم ينتسبون لجدهم
أنف الناقة ، ويفخرون به بعد أن كانوا يخجلون منه .

حسان بن ثابت وعبد المدان :

كان بنو عبد المدان يمتازون بطول الأجسام وعظمتها ، وكانوا يفخرون
بذلك على الناس فهجاهم حسان بن ثابت بقصيدة قال فيها :

لابأس بالقرم من طول ومن غلظ جسم البغال وأحلام العصافير

فشاع ذلك البيت بين الناس وحفظوه ، وكان بنو عبد المدان كلما ظهر واحد منهم يجسمه الفاره صاح الأولاد يرددون هذا البيت حتى أصبح بنو عبد المدان يستحون من طولهم ويتعنون لو كانوا قصاراً . فأتصل بعضهم بحسان بن ثابت وقدم له هدية ثمينة ، وشكاه ما نالهم بسبب شعره . فقال حسان : سأصلح ما أفسدت ، ونظم قصيدة أخرى قال فيها :

وقد كنا نقول إذ التفينا بذى جسم يهاب وذى بيان

كأنك أيها المعطى بياناً وجسماً من عبد المدان

• • •

ذاك هو الشعر وتلك أهميته وتأثيره ، ونجىء بعد ذلك إلى الشعر كمصدر يصور لنا حياة العرب وأخلافهم وعاداتهم ، والباحثون يتفقون على أن الشعر الجاهلي كان أهم مصدر حفظ لنا صورة من حياة عرب الجاهلية ، وكان وسيلة سُجِّلَ بها تاريخ العرب . كما كانت الأهرام والمعابد والمصلات وما نقش عليها مصدراً لتاريخ المصريين ، فالذى يقرأ الشعر العربي يجد فيه حياة العرب واضحة ، فيجد الصحراء والخيام ، والملاعب وموارد المياه ، ويمجد أحاديث السادة ، ومنجبات النساء ، وعناق الخيول ، وأوصاف السيوف ، ويرى تاريخ وقائع العرب وحروبهم وصور عاداتهم وأخلافهم ، وسنذكر فيما يلي بعض النماذج الشعرية التي تصور هذه الحياة الاجتماعية وتدون تاريخ الحياة العربية ونظمها :

البسوس :

حرب البسوس من أهم الحروب التي وقعت بين العرب . وكانت بين بكر وتغلب ، وقد استمرت أربعين سنة ، وسبب هذه الحروب أن جساس ابن مسرة بن بكر قتل كليب بن ربيعة من تغلب ، وكانت جليلة أخت

جساس زوجة لكليب ، فلما جلس نساء تغلب في مأتمه طلبوا أن تخرج
جليلة من المأتم لأنها أخت القاتل ، فخرجت باكية على زوجها ، ولكن
أخت القاتل انتهت جليلة بالميل لأخيها ، فأنشدت جليلة القصيدة
الرائعة الآتية :

يا ابنة الأتوام إن شئت فلا	تعجلي باللوم حتى نسأل
فإذ أنت تيننتِ الذي	يوجب اللوم فلوى واعذلى
إن تكن أخت امرئ ليمت على	شفق منها عليه فافعللى
جلٌ عندي فعل جساس فبا	حسرتى عما انجلت أو تنجللى
يا قتيلا قوض الدهر به	سقف يبنى جميعا من عل
هدم البيت الذى استحدثته	وانثنى فى هدم بيتى الأول
يشقى المدرك بالثار وفى	درك ثارى ثكل للمشكّل

وكان من أعظم الأيام التى انتصرت فيها تغلب على بكر يوم الذنائب
(موضع بنجد) وقد سجله مهلهل بن ربيعة فى قصيدته التى يقول فيها :

فإن بك بالذنائب طال ليلى فقد أبكى من الليل القصير
فلو نهش المقابر عن كليب ليُخبر بالذنائب أى زير ؟
وهكذا كان للشعر أهم مصنر يرينا أحداث هذه الحرب الضروس
عقر الرواحل على قبور الأبطال :

كان من عادة العرب فى الجاهلية أن يعفروا رواحلهم على قبور أبنائهم
وساداتهم ، وقد مر حسان بن ثابت على قبر أحد الأبطال فقال :

نفرت قلوصى من حجارة حرة بنيت على طلق البدن وهوب
لولا السفر وبعد خرق مهمه لتركها تحبو على العرقوب

كرم العرب ووسائل الاستضافة :

واشتهر العرب بالكرم ، ولهم فيه ضروب شتى ، وها هو حاتم الطائي ذائع الصيت في الكرم ، يروى عنه أنه مر بأسير لا يستطيع أن يفتدى نفسه وطلب منه الأسير المساعدة ، ولم يكن مع حاتم ما يدفعه فداء للأسير ، فلم يجد حاتم طريقاً إلا يضع نفسه موضع الأسير ليُطْلَقَ الأسير ؛ وظل حاتم في الأسر حتى افتداه أهله . والشعر العربي هو أعظم سجل لكرم حاتم ولاهتمام العرب بالكرم والثناء على الكرماء .

وكان من عادة العرب أن يشعلوا النيران على ربوات عالية ليراها السارون في الصحراء فيهتدوا بها ويأتوا ضيوفاً على أصحابها ، ومن عاداتهم كذلك أن السارى إذا ضل طريقه ولم ير نارا ينبج كما تنبج الكلاب ؛ فتجيبه الكلاب على نباحه ، فيتهدى بذلك إلى مكان الحى ، وكانت الكلاب التى تهدى ضالا تكافأ على ذلك بنصيب من لحوم الماشية التى ستذبح لاستضافة القادمين ، وكل هذه العادات عرفناها من قول نابغة بنى جعدة :

عوى فى سواد الليل بعد اعتسافه لينبج كلب أو ليفزع نوءم
فجاوبه مستسمع الصوت للقرى له عند إتيان المسلمين مطعم
يكاد إذا ما أبصر الضيف مقبلاً يكلمه من حبه وهو أعجم

وظل الكرم صفة مميزة عند العرب بعد الإسلام ، وكان لطلحة بن عبيد الله باع واسع في مجال المشاء حتى أصبح اسم « طلحة » يعنى الكرم ، وطلحة المطلحات يعنى أكرم الكرماء ، وعن كرم طلحة يقول قبيصة ابن جابر : صحبت طلحة بن عبيد الله فما رأيت أعطى لجزيل مال من غير مسألة منه ، وقد اشتهر بالكرم المطلحات خمسة هم طلحة بن عبيد الله الذى كان يلقب طلحة الفياض ، ثم طلحة بن عامر ويلقب طلحة الجواد ،

وطلحة بن عبد الله بن عوف ويلقب بطلحة النداء ، وطلحة بن الحسن بن علي ويلقب بطلحة الخير وطلحة بن عبد الله بن خلف ويلقب بطلحة الطلحات^(١) ، وكانت التسمية بطلحة تيمناً بطلحة بن عبيد الله وتفاؤلاً بأن يسير المسمى على منواله في الكرم رضي الله عنه .

الطلاق :

وكان العرب يعرفون الطلاق . وفي ذلك يقول الأعشى :

أيا جارتى بيني فإنيك طالق كذاك أمور الناس غاد وطارق

أسماء الخيول :

سجل العرب أسماء خيولهم العتاق في الشعر ، كقول خالد بن جعفر في حصانة « حذقة » :

فمن يك سائلاً عنى فإني وحذقة كالشجا تحت الوريد

منجبات النساء :

وكان العرب يهتمون بالمنجبات من النساء ويشيرون إليهن في الشعر ، وقد عرف ذلك من قول لبيد في رجز طويل :

نحن بنى أم البنين الأربعة .

تحريم الخمر :

ومن العرب من حرم الخمر على نفسه ، ومن هؤلاء قيس بن عاصم وفي ذلك يقول :

لعمرك إن الخمر ما دمت شارباً لسألة مالى ومذهبة عقى
وتاركة بين الضيوف قراهم ومورثة حرب الصديق بلا ذحل

(١) ابن ناطق البندادى : الجمان في تشبيهات القرآن ص ٢٨٥

زواج امرأة الأب :

وكان قرجل يتزوج امرأة أبيه بعد موته ، وقد سجل عمرو بن
معد يكرب ذلك حينما كرهته زوجته التي كانت زوجة أبيه :

فلولا إخوتى وبنى منها ملأت لها بنى شُطْب يمينى
الله والحساب :

وبين وثنية الجاهلية كان هناك من أدرك أن للخلق خالفا . وأن لهم
معاداً ولأعمالهم حساباً ، يقول زهير بن أبى سلمى :

فلا تَكُنْ من الله ما فى نفوسكم ليخفى، وفهما يُكْتَم الله يعلم
يؤخّر فيوضع فى كتاب فيلخر ليوم حساب أو يعجل فيُنْقَم

• • •

وهكذا كلان الشعر مصدرا مهما صور حياة العرب وأخلاقهم وعاداتهم :

الدين

هناك حقيقة متقرّرة عليها بين علماء تاريخ الأديان وهي أن الإنسان متدين بطبعه ، وقد عبر معجم (لاروس) للقرن العشرين عن هذه الحقيقة بقوله : « إن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية حتى أشدها همجية ، وأقربها إلى الحياة الحيوانية ، وإن الاهتمام بالمعنى الإلهي وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية . . . وإن هذه الغريزة الدينية لا تختفي بل لا تضعف ولا تذبل » (١) .

ويقول الفلاسفة العالميون أن الإنسان شديد الارتباط بالدين ، فيقول برجسون الفيلسوف الأمريكي : قد نجد في الماضي أو الحاضر مجتمعات بشرية لا تعرف العلم ، أو الفن ، أو الفلسفة ، ولكن ليس ثمة مجتمع بلا دين . ويقول الفيلسوف وليم جيمس : يرجع لدينا أن الناس سيظلون يصلون إلى آخر الزمان .

ويقول إرنست رينان : من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شيء نحبه ، وكل شيء نعدّه من ملاذ الحياة ونعيمها . . . ولكن يستحيل أن يمحي الدين (٢) .

وشرح بارتيمى سانت هيلير نشأة الدين بقوله : ما العلم ؟ ما الإنسان ؟ من أين جاء ؟ من صنعهما ؟ ما نهايتها ؟ ما الحياة ؟ ما الموت ؟ ماذا بعد

(١) Larousse Article Religion نقلا عن كتاب « الدين » للدكتور محمد

عبد الله دواز ص ٧٥ - ٧٦ .

(٢) اقتباسات من « آفة ذاتا وموضوعا » للأستاذ عبد الكريم الخطيب ص ١٩

(١١ - التاريخ)

الموت ؟ . . . هذه الأسئلة لا توجد أمة ولا شعب ولا مجتمع إلا وضع لها حلولاً جيدة أو رديئة ، مقبولة أو سيئة ، وهذا هو الدين ^(١) .

وعلى هذا إذا ظهر في الدنيا أفراد أو جماعات ينكرون وجود الله ويحاربون الدين فليس ذلك إلا مقاومة للغريزة الموجودة فيهم ، وطالما تقاوم الغرائز للدافع من الدوافع .

ثم إن الغريزة الدينية صفة من الصفات التي تربط بين البشر ، وهي تفوق في قوتها علائق الدم والجنس والوطن .

ويختلف علماء تاريخ الأديان في تحقيق الظروف التي تنمى غريزة الدين ، فيرى بعضهم أنها تنمو حيث يرقى الفكر وتسمو الثقافة وحيث يصل الإنسان إلى مستوى يفكر فيه في نفسه وكيف خُلِقَ ، وفي القسوى التي منحت له ، وكيف يسمع ويبصر . . . (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) ^(٢) . ويفكر في الكون الذي يحيط به وفي ملكوت السموات والأرض (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت) ^(٣) .

ويرى علماء آخرون أن هذه الغريزة تنمو حيث يواجه الإنسان قوى الطبيعة ، وحيث يشتد إحساس الإنسان بالضعف أمام بعض القوى ، وإحساسه بالحاجة إلى حماية نفسه منها ، كالإنسان البدائي الذي يرى المطر والريح ، والأمراض والموت والحيوانات الفتاكة ، فيحس بالضعف ويطلب الحماية .

وقد أدرك الغرب أن الغريزة الدينية موجودة دائماً ، كما أدرك أنها من أقوى

(١) Muhamet et le Coran نقلاً عن « كتاب الدين » ص ٧٦ .

(٢) سورة الذاريات الآية ٢١ .

(٣) سورة النازعات الآيات : ١٧ - ٢١ .

الصلوات بين البشر ، وأدرك كذلك سهولة إيقاظ هذه الغريزة عند مَنْ يواجهون قوى الطبيعة من سكان إفريقيا وآسيا ، فاستغل الغرب هذه المعارف لنشر المسيحية في هذه البقاع .

وهناك رأى ثالث يرى أن غريزة التدين تنمو تبعاً للرخاء وهدوء البال ، إذ يجد الإنسان فراغاً من الوقت ليفكر في غير أمور المعاش ، وليصل في تفكيره إلى الكون وخالقه ومدبّرهِ .

وتبعاً للعلّة في نمو غريزة التدين يتخذ العرب مكانهم بين المتدينين ، فالذين يرون الرأى الأول وهو ربط التدين برقى الفكر يعتقدون أن العرب لم ترقَ عندهم غريزة التدين إلا لدى من أتيح له العلم والثقافة كأمية بن أبى الصلت وورقة بن نوفل ، والذين يتجهون الاتجاه الثانى وهو مواجهة الإنسان لقوى الطبيعة يرون أن نمو الغريزة الدينية عند العرب كان قويا نتيجة لهذا الوضع في حياتهم ، والذين يرون الرأى الثالث وهو أن الرخاء وهدوء البال لها أكبر الأثر في إبراز غريزة التدين ، يرون أن هذه الغريزة كانت أعمق حيث الغنى باليمن والمدينة وكانت الغريزة سطحية في أماكن الجفاف والفقر .

على أن جفاف الجزيرة العربية هو في الحقيقة حديث عهد بالنسبة لعمر الإنسان ، فقد دلت الأبحاث العلمية على أن الجزيرة العربية كانت قديماً رياضاً خضراء منحت أهلها ألواناً من الرخاء ، فلا يبعد أن يكون نمو الروح الدينية انحدر من ذلك التاريخ ، وإنما نقول ذلك لأن من المشاهد الذى لا ريب فيه أن روح التدين قوية جداً عند العرب ، وأن قوة هذه الروح كانت من الأسباب التى جعلتهم يصارعون الإسلام عندما جاء ، تمسكهم بأديانهم وشدة ارتباطهم بمعتقداتهم ، ولو كانوا قليلي الاهتمام بالتدين لتركوا الإسلام يلحق به من يشاء ويعرض عنه من يشاء ، ولكنهم حاربوه بعنف حتى هزموا ، ثم تمسكوا به بعد ذلك ، وأصبح الإسلام بمرور الزمن عقيدتهم الراسخة ،

وجزءاً هاماً من فكرهم الاجتماعى : ولا يزال العربى حتى اليوم - متعلماً كان أو غير متعلم - شديداً الحرص على دينه ، يعمل على نشره ويذود عنه ما وسعه ذلك ، وفى إندونيسيا رأيت العرب الحضارمة ورأيت الهنود ورأيت الصينيين وليس بين هذه الطوائف طائفة حريصة على دينها وعلى نشره كالعرب ، مع أن الصينيين والهنود أغنى بكثير من العرب . والتدين الذى نقصده هنا هو التدين العام ، أما الطقوس والعبادات فطالما ضجر منها البدوى لأنه كان يعتبرها قيوداً وهو لم يالف حياة القيود .

والإنجاء للتدين استقام أحياناً وانحرف كثيراً ، فإذا كان بعض الناس عرفوا الله أو قربوا منه فإن أكثر الناس عبدوا الأشجار والكواكب ، والأبطال والحيوانات والأحجار ، ويقول موريس دييموبين^(١) إنه فى عهد الجاهلية كانت الآلهة ذات الصفات المحدودة تسيطر كل منها على قبيلة مهمة أو غير مهمة ، وكانت عبادة القبيلة لهذه الآلهة قلما تتميز عن عبادة الأوثان المقدسة ومنابع المياه والأشجار ، ونجد عند كل قبيلة طقوساً للطواف والوقوف بأشكال معينة ، والمهرولة فى صورة مواكب احتفالية وحمل المشاعل ، وكل هذه فيما يبدو تشير إلى عبادة قديمه للشمس ، لكن الأجرام السماوية الأخرى كانت تتمجد كذلك ، وقد تبقّى فى مكة طقس دينى هو التحية الخاصة الهلال عند ظهوره ، وهو يرجع إلى الجاهلية دون شك .

• • •

ومع هذا فيمكن القول عامة إن عبادة الله كانت أقدم عبادة عرفها البشر منذ آدم ، وهى العبادة التى ترتاح لها النفس المفكرة الباحثة ، ولكن هذه النفس ما تكاد تصل إلى التوحيد المطلق وما تكاد تستريح إليه حتى تبدأ فى البعد عنه ، لأن « عقيدة الألوهية المجردة عن الأجرام عقيدة صعبة

(١) النظم الإسلامية ص ١٦ مترجم عن الفرنسية (ترجمة صالح الشماخ وفصل السامر) .

المنال لا يدركها إلا خاصة الخاصة ، وإن أدركوها فسرعان ما ينسرها ويميلون إلى التجسيد^(١) .

وهكذا اتجه العالم إلى التجسيد منذ أقدم العهود ، وهكذا وجدت الحاجة للأنبياء ليعيدوا للناس الرشد والهداية ، وكان كثير من العرب من المهتدين بالفطرة ، أو بسبب التعاليم التي وصلت لهم عن طريق صلتهم بإبراهيم وإسماعيل ، ولكن أكثر العرب عادوا إلى الأحجار التي عرفت من عهد نوح فنصبوها في الكعبة وأنجسوها لها عابدين ، واختلط دين الفطرة بالوثنية ، وأوشكت الوثنية أن تغطي عليه أو تملأه فعلا .

كيف تحول العرب عن عبادة الله إلى الوثنية ؟ .

تختلف الآراء في الإجابة عن هذا السؤال ، فهل يرجع ذلك إلى بقايا « طوطمية » تطورت ، على أن هذه الكلمة لا تزال موضع بحث في أصلها ، وأوضح الآراء عنها هو أن الجماعات الأولى اهتمت بالحيوان أو النبات الذي ارتبط بطعامها اليومي ، ثم تطور الاهتمام فأصبح اعتقاداً بأنهم انحدروا منه ، ويحملون لذلك اسمه أحياناً (ولعل أسيرة الجمل والغراب ونحلة من ذلك) ويلزمون أنفسهم بشعائر وطقوس معينة في مواسم خاصة ، وتسبب عن ذلك تحريم أكل (الطوطم) فحرمت جماعات أكل البقر ، وحرّم آخرون أكل الطيور وعند ما حرّم « الطوطم » نُظِرَ له بتقدير ، وانتهى هذا التقدير إلى العبادة ، ثم تحول ذلك خطوة أخرى فعُمل تمثال له يحل محله ، وكان ذلك منشأ عبادة الأحجار .

هذه فكرة في غاية الإيجاز عن « الطوطمية » فهل كانت عبادة الأحجار عند العرب بقايا « طوطمية » ؟ إن الباحث لا يستطيع أن يجيب بالإيجاب أو بالنفي في صورة تأكيد ، وكل ما يمكن أن يقوله الإنسان إن

ذلك ممكن ، وإن كان يؤخذ على ذلك أن العرب لم يحرموا أكل الإبل والغنم والتمر ولم يتخذوا منها طواطم مع أنها تكوّن أقدم الأطعمة التي عرفها العرب . ولا نظن أن حيوانات أخرى أو طعاماً آخر كانت أشد ارتباطاً بهم منها

وهناك رواية يذكرها ابن الكلبي^(١) تبين لنا تاريخ تحول العرب عن عبادة الله إلى الوثنية وسبب ذلك ، يقول ابن الكلبي إن عمر بن لحي من خزاعة كان حاجب الكعبة ، ثم مرض مرضاً شديداً فذهب إلى البلقاء في الشام ليستحم وماء هناك ، فاستحم وشفى ، ووجد أهل البلقاء يعبدون الأصنام . فقال : ما هذه ؟ فقالوا نستقي بها المطر ونستنصر بها على العدو . فسأهم أن يعطوه منها ففعلوا ، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة . ويمكن أن يعد ذلك بدء دخول الوثنية في قلب الجزيرة العربية . أما انتشارها فيوضحه لنا ابن الكلبي أيضاً في قوله^(٢) : وكان الذي سلح بالعرب إلى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعن من مكة ضاعن إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيما للحرم وصباية بمكة . فحينما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة ، تيمنا منهم بها وصباية بالحرم وحياً له . وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة ، ويحجون ويتمررون ، ثم سلخ ذلك أنهم عبدوا ما استحبوا ونسوا ما كانوا عليه . واستبدلوا بدين إبراهيم ، واستماعيل غيره . فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم ، واتبعوا ما كان يعبد قوم نوح منها على إرث ما بقي فيهم من ذكرها .

وهذا تعليل نرضاه لأنه يبين لنا السبب في إقامة الأصنام في بلادهم ومع ذلك يحجون للكعبة ويعظمون مكة ، فالأصنام التي في بلادهم لم تكن أول الأمر إلا حجارة من الحرم عظموها وربوا لها بيوتاً وكبروها ، وبقيت للكعبة

(١) الأصنام ص ٦

(٢) المرجع السابق ص ٨ .

مكاتها السامية ، ثم لما اختلط عليهم الأمر لقلوا من معبوداتهم الحجرية الى الكعبة وملئوها بالأصنام ، ولكنهم مع هذا لم ينسوا مكانة الكعبة ، وما كانوا يرضون أن يكلسوا معبوداتهم في مكان آخر ، أو أن يحجوا الى مكان آخر ، ومن هنا يتضح كيف اختلط دين الحق بعبادة الأصنام ، ويقول ابن الكلبي^(١) في ذلك - استمراراً لما سبق أن اقتبسناه منه آنفاً - :: واستبدل العرب بدين ابراهيم واسماعيل غيره . . . وفيهم على ذلك بقايا من عهد ابراهيم واسماعيل يتمسكون بها : من تعظيم البيت ، والطواف به ، والحج والعمرة والوقوف على عرفة والمزدلفة ، وإهداء البدن ، مع إدخالهم في الدين ما ليس منه .

ويرى بعض الباحثين أن العرب كانوا يعبدون الله ، وكانوا يعظمون الكواكب على أنها أعظم خلقه ، ثم تطور تعظيمهم للكواكب فصار عبادة خالصة ، وهناك بعض حجارة بركانية اعتقد العرب أنها ساقطة من السماء ، فلها صلة بهذه النجوم فعظموا هذه الأحجار ، وانقلب التعظيم إلى عبادة ، ثم عبدت الأحجار الأخرى وإن لم يظنوا أنها ساقطة من السماء^(٢) .

ومثل هذا ما آل له أمرهم مع إساف ونائلة وهما في الأصل كما يروى ابن الكلبي رجل وامرأة من جرهم وكان الرجل يعيش المرأة ثم قدما للحج ، فدخلوا الكعبة فوجدا غفلة من الناس وخلوة في البيت فواقعها ، فَمُسِخًا حجرين ، فوضعا عند الكعبة ليتعظيها الناس ، فلما طال مكثهما وعُبدت الأصنام ، عُبدا معها^(٣) .

(١) المرجع السابق ص ٦ .

(٢) انظر حياة محمد للدكتور ميكل ص ٩٢ .

(٣) الأصنام لابن الكلبي ص ٢٩ ، ٩ .

وبرى بعضهم أن الأوثان لها صلة بالقبور والحجارة التي تعودوا أن ينصبوها على قبور الأبطال، أو أنها تجسّد لأبطال مشاهير احتلوا عند العرب مكان التقديس ، فلما ماتوا اتخذوا لهم التماثيل ، وأجلّوها ثم عبدوها .

الحنفاء :

وغلّبت عبادة الأحيار على العرب وخضعوا لها وأنسوا بها ، ولكن بين هذا الظلام كان هناك من يدرك أن القوم في ضلال ، فقد روى أنه اجتمع - في أحد الاحتفالات التي كان يقيمها العرب لأصنامهم - أربعة من العرب هم : ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث وعبيد الله بن جحش وزيد بن عمرو ؛ وقال هؤلاء بعضهم لبعض : والله ما قومنا على شيء ، لقد أخطئنا دين إبراهيم ، ما حجر نطوف به لا يبصر ولا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ؟ التمسوا لأنفسكم ديناً غير هذا الدين^(١) ، وقد أخذ هؤلاء يفكرون فاهتدى ورقة وعثمان للنصرانية ، والتبس الأمر على عبيد الله فبقي على حاله من الالتباس حتى ظهر الإسلام فأسلم ثم هاجر للحبيشة وهناك تنصر ، وأما زيد فلم يدخل النصرانية ، ولكنه أبعد عبادة الأصنام عن نفسه^(٢) وأنكر ما رآه على العرب من أكل الميتة والدم وغيرها واعتقد بذلك أنه عاد إلى دين إبراهيم ، ولذلك كان يسند ظهره إلى الكعبة ويقول يامعشر قريش والذي نفس زيد بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيري . وكان يناجي ربه قائلاً : يارب ، لو أني أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به . ولكني لا أعلم^(٣) ، وهو الذي يقول :

(١) الخفري : تاريخ الأمم الإسلامية ص ٦٠ .

(٢) الأسنام لابن الكلبي ص ٢١ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٢ .

تركت اللات والعزى جميعاً كذلك يفعل الرجل الحبير
فلا العزى أدين ولا ابنتها ولا صَمْسَى بنى غم لزور
ولا هُبَلا أُجِيلُ ، وكان ربياً لنا في الدهر إذ حلمي صغير^(١)
ومن هؤلاء أيضاً أمية بن أبي الصلت وقيس بن مسعدة الإباضى .

الأصنام والأوثان والأنصاب :

وقد سبق أن أشرنا إلى أصنام العرب وقلنا إنه كانت لهم أصنام في الكعبة
أو حَوْلَهَا ، كما كانت لهم أصنام في بيوتهم ، وأخرى في ملتهم ، وفي مواقع
أخرى لهم ، ويجدر بنا قبل أن نذكر أهم هذه الأصنام أن نوضح أن كلمة
الأصنام قد تذكر ويراد بها الأوثان والأنصاب ، فكل منها قد تنوب عن النوعين
الآخرين في الاستعمال العام ، وقد سى ابن الكلبي كتابة « الأصنام » مع أنه
تحدث فيه عن كل هذه الأنواع ، ولم يوضح ابن الكلبي الفرق بين هذه الأنواع
توضيحاً شافياً ولعله كما يلي^(٢) .

النصب : صخرة ليست على صورة إنسان ، ويغلب ألا يكون لها
صورة خاصة .

الأوثان : ما كان على صورة إنسان من حجر .

الصنم : ما كان على صورة إنسان من معدن أو خشب .

وأهم أصنام العرب^(٣) وهبل ، وكان من العقيق الأحمر على صورة إنسان ،

(١) المرجع السابق ص ٢٢ .

(٢) انظر كتاب الأصنام ص ٣٣ ، ٤٢ ، ٥١ : ٤٣ .

(٣) ماورده هنا عن الأصنام هو إيجاز لأهم ما ذكره ابن الكلبي في هذه أسكنة

من كتاب الأصنام ، انظر ص ٩ إلى ص ٦٠ .

وكان مكسور الذراع فأبدله القرشيون ذراعاً من ذهب وكان هبل كبير الآله ومصره الكعبة المكرمة .

وهناك أصنام أخرى كثيرة عند العرب ، أهمها :

اللات . صخرة مربعة أقيم عليها بناء بالطائف وهي عند ثقيف نسبى كل الأصنام .

العُزَّى : كانت تعبد في الحجاز ، وكانت أعظم صنم عند قريش بعد هبل وربما نافسته .

مناة : صنم على ساحل البحرين المدينة ومكة ، وكان العرب جميعاً تعظمه وكانت الأوس والخزرج تذبح له وتقدم الهدى ، وقد ورد ذكر هذه الأصنام الثلاثة في الآية الكريمة (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثلاثة الأخرى)^(١) .

ود : تمثال رجل عظيم معه أدوات الحرب ، وكان بدومة الجندل لكلب وقضاعة .

سواع : بأرض بضع لهذيل .

يعوق : بأرض الطائف لطى ومذحج .

يغوث : باليمن وكانت تعبده همدان .

مسر : باليمن وكانت تعبده حمير .

ويقول ابن الكلبي إن هذه الأسماء الخمسة كانت في الأصل أسماء لقوم صالحين ، ولكنهم ماتوا في شهر ، فجزع عليهم أقاربهم : فقال لهم رجل يعمل بالنحت : هل لكم أن أعمل نكم خمسة أصنام على صورهم

على أنى لا أقدر أن أجعل فيها أوراها ؟ قالوا : نعم . فنحت لهم خمسة أصنام على صورهم ونصبها لهم ، فكان أقاربهم يأتون إليهم معظمين ، وفى القرن التالى زاد تعظيم الناس لهم ونحروا وأهلوا ، وفى القرن الثالث خطوا خطوة أخرى فعبدوهم ، وقد بدأ ذلك قبل نوح ^(١) .

وكانت هذه الأصنام الخمسة تعبد فى عهد نوح ويبدو أن عرب الجاهلية جددوا عبادتها بعد نوح كما سبق القول ، وقد ورد ذكرها فى صورة نوح قال تعالى . (قال نوح : رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً ، ومكروا مكراً كباراً ، وقالوا لا ننزلن آلهتكم ، ولا ننزلن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسراً) ^(٢) .

التثليث عند عرب الجنوب :

وبالإضافة إلى الأصنام حَرَفَ الثالوث طريقه إلى عرب الجنوب ، وكان هذا الثالوث يتكون عند قتيان من « عم » ، وقد صورته عبادة إلهاً ذكراً وقدموه على « الشمس » التى اعتبروها زوجته ، أما الأقنوم الثالث فى ثالوثهم الدينى فهو « عثر » ابنهما ^(٣) .

عبادة الأصنام لم تكن ذاتية :

وينبغى أن يتضح أن عبادة العرب للأصنام لم تكن عبادة ذاتية وإنما كانت فى نظرهم وسيلة يتمربون بها إلى الله (مانعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) ^(١) وهذا دليل على أنهم لم ينسوا إله إبراهيم حتى حينما كانوا فى ظلماتهم يعمهون ، وما يؤكد ذلك أن آلهتهم التى انتشرت فى الجزيرة العربية والتى

(١) كتاب الأصنام ص ٥١ - ٥٣ * يتصرف .

(٢) سورة نوح الآيات ٢١ - ٢٣ .

(٣) فيليب حنى : تاريخ العرب ج ١ ص ٨٠ .

(٤) سورة الزمر الآية الثالثة .

أقاموا لها البيوت ورتبوا لها السدنة لم تشغلهم عن الكعبة بيت أبيهم إبراهيم فظلوا لها يحجون كما سبق القول ، والدارس لذلك الموضوع يدرك اضطراب هؤلاء العرب بين موحدين على إبراهيم ، وبين وثنيين عبدة للأصنام . ويقول ابن الكلبي ^(١) . ويوسونة بالتلبية : ويُدْخِلُون معه آلهتهم ويجعلون ملكها بيده ، يقول الله عز وجل : (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) ^(٢) . أي ما يوحدونني بمعرفة حتى إلا وجعلوا معي شريكاً من خلقي .

وكان العرب يتقربون لهذه الآلهة بالقرابين من الماشية ، وكانوا في وقت ما يتقربون لها بالقرابين من البشر ، ويدل على ذلك حادثة عبد المطلب الذي كان على وشك أن يتقرب للآلهة بذبح ابنه عبد الله والد الرسول كما سيأتي الحديث عن ذلك ، وكانوا كذلك يستقسمون عندها فيضربون بالأزلام ليروا ما قسم لهم ، فكان الواحد منهم إذا أراد أن يقدم على شيء ذي بال كالزواج والمفر ذهب للكعبة ليستقسم وليرى ما تريده له الآلهة ، وكان يقوم بالاستقسام سدنة البيت .

عبادة الأصنام لم تكن جدية :

استعرضنا أديان العرب في الجاهلية ، وبيننا كيف انحرف العرب عن دين إبراهيم إلى عبادة الأصنام ، وأوردنا أشهر الأقوال في سبب هذا الانحراف كما ذكرنا أن عبادة الأصنام لم تشغل العربي عن دين إبراهيم بل ظل على صلة به ، وأوضحنا أن عبادة الأصنام كانت الغالبة في الجزيرة العربية .

(١) الأصنام ص ٧ .

(٢) سورة يوسف الآية ١٠٦ .

وإن الذي يقرأ بإمعان كتاب الأصنام لابن الكلبي - وهو بلا شك أهم مرجع في هذا الباب - يصل إلى حقيقة هامة هي أن عبادة الأصنام عند العرب لم تكن جدية ، وأنها لم تتعمق في قلوبهم ، وأن الثورة على هذه الأصنام كانت تحدث من حين إلى آخر ، فيطيح الثائر برأس صنمه وينهال عليه تهيباً وسخرية ، وليس هذا فقط من العقلاء المفكرين كزيد بن عمرو ، وورقة بن نوفل وغيرهما ممن تحدثنا عنهم ، بل إن الثورة على الأصنام كانت تحدث من عابديها وأتباعها ، فكان العابد ينقلب فجأة إلى ماسخر ساخط لأدنى الأسباب مما يدل على أن عبادتهم للأصنام كانت في كثير من الأحوال سطحية لا تعمق فيها ، وسنورد هنا بعض ما ذكره ابن الكلبي مما يدل على ذلك .

كان لكتانة صنم يقال له « سعد » بساحل جدة ، فأقبل رجل من كتانة بإبل له ليقيها عليه ، يتبرك بذلك فيها ، فلما دنا من الصنم - وكان عليه أثر دماء - نفرت الإبل ، وذهبت في كل وجه وتفرقت ، فأسف صاحبها لذلك وغضب على « سعد » وتناول حجراً ورماه به ، وقال : لا بارك الله فيك إلهاً ، أنفرت على إبلي . ثم خرج في طلبها حتى جمعها وانصرف وهو يقول :

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا فشتتنا سعد فلا نحن من سعد
وماسعدُ لإضحرة لا هُدَى لها يُرَجَى ، ولا تدعى لفي ولا رشد^(١)

وكان لمزينة صنم يقال له : نهم ، وكان له سادن يسمى خزاعي ابن عبد نهم ، فلما سمع بالنبي الله عليه وسلم ثار على الصنم فكسره وأنشأ يقول :

ذهبت إلى نهم لأذبح عنده عترة نسك كالذي كنت أفعل
فقلت لنفسى حين راجعت عقلها أهذا إله ! أبكم ليس يعقل
أبيت ، فدينى اليوم دين محمد ورنى الإله الماجد المتفضل^(١)

• • •

وكان الخثعم وبجيلة وأزد السراة ومن قاربهم من بطون العرب
ومن هوازن صنم يقال له « ذو الخلصة » وكان موضوعاً بشالة بين
مكة واليمن على بعد سبع ليال من مكة ، وكانوا يعبدونه ويستقسمون
عنده ، فلما أقبل امرؤ القيس بن حجر يريد الغارة على بنى أسد لأنهم قتلوا
أباه ، عرج على « ذو الخلصة » فاستقمم عنده ثلاث مرات ، فعخرج
« الناهي » أى الأمر بمنعه مما أراد من الهجوم على بنى أسد والثأر منهم .
فلما كانت الثالثة ناهية أيضاً كسر امرؤ القيس القداح وضرب بها وجه الصنم
وقال . « عضضت بإير أهلك ! لو كان أبوك قُتِلَ ماعوثتى » وسار امرؤ
القيس فى طريقة للثأر وهو ينشد :

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا

مثلى ، وكان شيخك المقبورا

لم تنه عن قتل العداة زورا

ويقول ابن الكلبي ، إن امرأ القيس بعس ذلك غزا بنى أسد
وظفر بهم^(٢).

الآديان السماوية بالجزيرة العربية قبل الإسلام :

وبجانب عبادة الأوثان عرّفت الديانات السماوية طريقها إلى العرب
قبل الإسلام ، وقد سبق أن تكلمنا عن ملك الين الذى اسمه ذو نواس ،
وقلنا إنه اعتنق اليهودية واعتنقها معه كثير من رعيته ، وقد أخذ ذو

نواص اليهودية من اليهود الذين هاجروا إلى اليمن كما كان هناك يهود في يثرب بخيبر ووادي القرى وغيرها ، ويقلب أن يكون هؤلاء اليهود نازحين من فلسطين وربما كان فيهم بعض العرب الذين اعتنقوا اليهودية .

وعرفت النصرانية طريقها إلى الجزيرة العربية كذلك ، وقد أشرنا إلى نهري نجران الذين قبض عليهم ذونواس السالف الذكر . ودخلت المسيحية اليمن في أثناء حكم الحبشة ، أما دولتنا الشمال الغساسنة والمناذرة فقد عرّفنا المسيحية أيضاً وبخاصة دولة الغساسنة التي كانت وثيقة الصلة بثقافات الروم ، ودخلت المسيحية أيضاً الحيرة حيث تنصرت الأميرة المالكة أوأغلها ، وقد كانت بالحيرة «بيعة» أورد ياقوت (١) الكتابة التي كانت على واجهتها ونصها «بَنَتْ هذه البيعة هند أمة المسيح وأم عبدة» وقد جاءت المسيحية للعرب عن طريق سوريا ومصر والحبشة في أزمنة متعددة غير معروفة تماماً ، ويغلب أن تكون في القرنين الرابع والخامس ، وربما دخلت المسيحية قبل ذلك مع المسيحيين الفارين من التعذيب والاضطهاد قبل أن يعتنق إمبراطور الروم المسيحية .

على أن اليهودية والمسيحية لم تكونا معظمتي الخطر واسعتي الانتشار في الجزيرة العربية ، فأما اليهودية فكانت دين الشعب المختار ؛ وكان دخول العربي فيها لا يحقق المساواة مع اليهود من أبناء إسرائيل ، ولذلك لم يقبل العربي أن يدخل ديناً يضعه في طبقة أسفل من طبقة دعاة ذلك الدين ، وأما المسيحية فهي مملوءة بالتعقيدات التي لم يستغفها ذهن العربي ، ومملوءة بالخلافات الحادة التي سببت الغموض للدين ، وصرفت عنه من كان يمكن أن يتبعه من العرب .

وقد وضعنا ذلك في سلسلة «مقارنة الأديان» .

الإمارة

هناك ظاهرة تكثر تكون واضحة عند كل القبائل العربية وهي الحرص على المرأة واعتبار عرضها أغلى من النفس والمال والولد ، ومن مظاهر هذا الحرص أن ظهرت عند العرب عادة أخذ النساء في مؤخرة الجيوش ليدرك المحارب أن هزيمته ستجعل عرضه مباحاً لأعدائه ، وكان هذا كفيلاً أن يستميت المحارب في الصراع^(١) .

على أن المرأة كثيراً ما كانت تنتهز فرصة التحاقها بالجيوش فتشجع الرجال وتشد أزهرهم ، وفي يوم « ذى قار » الذي كان بين الفرس وبين بكر وقفت امرأة من بني عجل تشد مستحثة الرجال على الجلال ، واعدة - باسم صواحبا - المتصرين ، مهددة المهزومين ، قالت المرأة في رجز لها :

إن تهزموا نعائق ونفرش النصارق
أو تهزموا نفارق فراق غير وامق^(٢)

وطالما اشتغل هذا الحرص فسيب المآسى والمصائب والعار والشنار ، فعمرو بن المنذر بن ماء السماء سيد الحيرة ، يسأل يوماً جلساءه : هل تعلمون أحداً من العرب يأنف أن تخدم أمه أمى ؟ فقالوا : لا ، إلا أن يكون عمرو بن كلثوم . فاستضاف عمرو بن المنذر وأمّه هند ، عمراً بن كلثوم وأمّه ليلى بنت مهلهل ، وطلب ابن المنذر من أمه أن تستخدم ليلى في زحزحة بعض الأطباق ومتاولتها لها وهن يأكلن ، ففعلت هند ولكن ليلى أجابها قائلة : لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها ، وحاولت هند ذلك مرة أخرى ولكن ليلى أدركت مايراد بها وأن كرامتها جرحت فصاحت : واذلاه ! فسمعها ابنها فسارع إلى سيف معلق فاخطفه وقتل به عمرو بن هند .

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧١ .

(٢) انظر أيام العرب في الجاهلية لجاد المول وزييليه ص ٣١ .

ومن هذه القصة التي أوردناها موجزة تظهر لنا مكانة المرأة العربية ممثلة في هند وليل ، وتظهر لنا حساسيتها المرفقة ممثلة في ليلي ، ثم ندرك أن كلمة واحدة نطقت بها ليلي معبرة عن استيائها تسببت في مصرع الملك .

ومن اشتطاط الحرص ، وأد البنات الذي عرف في بعض قبائل العرب خوفاً عليهن من العار أو الأسر ، ولم يكن وأد البنات بطبيعة الحال كثير الانتشار وإنما وجد في بعض بني أسد وتميم .

وتتكون الأسرة العربية في الغالب تكويناً عادياً ، بأن يختب للرجل المرأة من ذويها ، فإذا قبِلت خطبته أخذها إلى بيته وبنى بها ، ويكثر أن تستشار المرأة في أمر زواجها ، وتقص كتب الأدب والتاريخ حكاية عن أوس ابن حارثة وبناته الثلاث حينما جاءه الحارث بن عوف خاطباً ، فاستدعى أوس كبرى بناته وعرض عايتها خطبة سيد العرب ، فاعتذرت بأن فيها بعض الميوب وليست هناك بينها وبين الحارث قرابة يرعاها بها ، ولا هو جار لأبيها فيستحي منه ، وقالت إني أخشى أن يطلقني فيشق ذلك علي ، فاستدعى أوس الوسطى فقالت كما قالت أختها . فاستدعى الصغرى فقبلت ، فذكر لها أبوها امتناع أختها والأسباب التي دعت لهذا الامتناع ، فقالت للصغرى : لكني والله الجميلة وجهاً ، الصنّاع يداً ، الرفيعة خلقاً ، الحسبية نسباً . فسأل أبوها : ألا تخافين الطلاق ! فأجابت . إن طلقني مع ما بي فلا بارك الله فيه . فزوجها منه .

ومن هذه القصة ندرك كذلك أن العرب كانوا يعرفون الطلاق وكانوا يخافونه ويتفرون منه .

وكان الطلاق بيد الرجل إن شاء أبى وإن شاء طلق ، ولسكن بعض

النساء كن لا ينزوجن إلا إذا كان لهن حق الطلاق . ومن هؤلاء سلمى بنت عمرو إحدى نساء بني النجار وهي أم عبد المطلب بن هاشم .

ومن عادات العرب ألا يزوجوا بناتهم لغير العرب . وقد حاول كسرى ملك الفرس مرة أن يخطب لنفسه من بنات تابعيه النعمان بن المنذر ملك الحيرة فقبل له : أيها الملك ، إن شر شيء في العرب أنهم يتكرمون عن المعجم . ولكن ذلك لم يثن كسرى عن رغبته فأرسل بها إلى النعمان . وثار النعمان لذلك وقال : أما في مها السواد وعين فارس ما ينفخ به كسرى حاجته ؟ وكتب النعمان لكسرى يقول : إن مطلب الملك ليس عندي ، وقد دفع النعمان حياته ثمناً لموقفه ذلك كما سبق ، ولكن العرب ظلوا على هذه الحال كما لا يزال الكثيرون منهم حتى الآن . فلنبرز هنا أن هذه العادة عربية وليست إسلامية^(١) .

وكانت المرأة البدوية لا تحب أن تنزوج في الحضر ، وأعظم مثال لذلك ميسون زوجة معاوية وأم يزيد التي لم تطق حياة دمشق والقصور والنعم ، وتافت إلى الخيام والانطلاق في الصحراء ، وكتبت في ذلك قصيدة طويلة منها :

ولبس عباءة وثقر عيني . أحب إلى من لبس الشفوف
وأطياف الرياح بكل فج . أحب إلى من قصر منيف
وأكل كسيرة من كسر بيتي . أحب إلى من أكل الرغيف

فلما عرف معاوية ذلك أعادها إلى أهلها بالبادية .

(١) كثير من العرب الحضارة الذين هاجروا إلى بلاد الشرق الأقصى لا يزالون يرفضون تزويج بناتهم لكان هذه البلاد ، وذلك امتداد لفكر العرب قبل الإسلام .

ولم يكن عدد الزوجات عند العرب في الجاهلية محدوداً ، وقد أوردت كتب الفقه الإسلامى نماذج كثيرة لأزواج أسلموا ونُحِت الواحد منهم عدد يزيد عن الأربعة ، ومنهم من كانت زوجاته عشرة وأمرؤا باختيار أربعة ومفارقة الباقيات . ويجب العرب كثرة البنين ودعاؤهم عند الزواج هو : بالرفاء والبنين . ومن الواضح أن البنين هم عماد الأسرة العربية التى لا تعيش إلا فى حراسة السيوف والدروع التى يستعملها للشبان .

والمرأة العربية خير رفيق لزوجها وخير عون له ، لأنها نجيد من الفنون ما يجعلها فى مستوى ثقاتى يلائم زوجها ، فالرعى ، والاستقاء ، والغناء ، وقول الشعر ، والرقص ، والغزل ، والنسيج ، وشد الخيام ، وضمها ، اكمل ذلك كانت نجيده المرأة العربية بالإضافة إلى واجباتها كأم وربة بيت .

ولم تعرف المرأة العربية الحجاب فى عصور الجاهلية ، كما لم تعرفه لقطة البادية حتى الآن ، فإنها لا تزال تصحب زوجها متأبطة يده على نطق ما يفعل الأوربيون^(١) ، أما الحجاب المنتشر فى هذه الجزيرة العربية الآن ، سواء منه غطاء الوجه أو المنع من الخروج للحياة العامة المعروف بنظام « الحریم » فهو نظام أدخله الأتراك إلى العالم الإسلامى إبان سلاطنتهم وقد صبغوه بصبغة إسلامية^(٢) ، وقد أصبح الآن عادة متبعة فى بعض البلاد بالجزيرة العربية .

ومن الأشياء التى قاستها المرأة العربية فى بعض الأحوال أن زوجة الأب كانت تورث كما يورث المتاع ، وقد كان ذلك غير شائع وكانوا يسمونه نكاح المقت ، وكان مقصوداً على المرأة التى ليس لها أولاد

(١) حافظ وهبة : جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ١١٣ .

(٢) انظر « الحياة الاجتماعية فى التفكير الإسلامى » للمؤلف .

كبار ، ويعلل له بعضهم بأنه نتيجة لنظام العرب في الزواج ، ذلك النظام الذي كان يعتبر زواج المرأة إلحافاً لها بزوجها وقطعاً لفصلة التي كانت لها بأبيها وأسررتها .

وكانت الأسرة وحدة ينتصر أفرادها بعضهم لبعض في الظلم والعدل ، ومن أمثلتهم الشائعة « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » ، وإذا كان هذا هو موقف الأخ من أخيه فإن أبناء الاثنين (أبناء العم) سرعان ما يصبحون أعداء ، وسرعان ما تنشب بينهم الحروب كالعداء الذي حصل بين بني عبد الدار وبني عبد مناف ابني قصى وكالعداء الذي حصل بين ابني عبد مناف . هاشم وأمية ، والذي حصل بين العباسيين والعلويين والفرعان من أولاد عبد المطلب بن هاشم وهكذا .

• • •

وقبل أن نتحدث عن رسول الإسلام وعن مسير دعوته يجدر بنا أن نوصي القارئ بالتعرف على الأديان التي سبقت الإسلام ، وبالتعرف على المقارنة بين قضاياها المختلفة ، فلذلك سيوضح مكانة الإسلام بين هذه الأديان ، وقد أبرزنا ذلك في سلسلة « مقارنة الأديان » التي تشمل أربعة أجزاء هي :

- ١ - البوذية .
- ٢ - المسيحية .
- ٣ - الإسلام .
- ٤ - أديان الهند الكبرى (الهندوسية - الجينية - البوذية) .

والآن ننتقل إلى الدراسة الرئيسية في هذا الجزء ، وهي دراسة السيرة النبوية المطهرة :

مَحْدُوقُ بِلِ الْبَعْثَةِ

الرسول منذ ولد إلى أن بُعث

نسب الرسول :

محمد هو ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي
ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر . وفهر هذا هو
قريش عند الأكثرين وهو الجلد العاشر للرسول .

وفهر هو ابن مالك بن النضر ويرى بعض الباحثين أن النضر هو قريش .
والنضر هو ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار
ابن معد بن عدنان وعدنان هو الجلد العشرون للرسول .
وينتهي نسب عدنان إلى إسماعيل عليه السلام .

العرب العاربة والمستعربة :

العرب العاربة هم الأقدمون الذين كانوا قبل إسماعيل أو عاصروه ،
أما المستعربة فهم أبناء إسماعيل ، أخذوا اللغة العربية من العرب العاربة أي
الأصلاء في اللغة ، وسموا مستعربة لأن جدّهم إسماعيل ليس عربيا ، فهو ابن
إبراهيم الخليل ، زعيم العبرانيين ، ولكن إسماعيل نشأ بين العرب وعرف
لغتهم ، وتعرّب هو وأولاده فسُموا مستعربة .

كلمه عن أجداد الرسول

قريش :

قريش هو الجلد العاشر للرسول كما ذكرنا ، وكان قريش يكفي حاجة
الاحتياج ، وكان ملجأ المظلوم والطريد والخائف .

قصي :

وقصى الجلد الرابع للرسول ، وهو الذي استعاد سلطان أجداده على الحرم ، إذ أخرج خزاعة من مكة ، وكانت خزاعة قد سلبت السلطة من أبناء إسماعيل ، وسيطرت على مكة ردحا من الزمن ، فلما شب قصي أعلن أنه أحق بالسلطة على مكة ، لأنه من نسل إسماعيل الذي رفع مع أبيه قواعد البيت ، والذي نبع له ماء زمزم ، وقد حقق قصي مأربه ، ثم بنى دار الندوة وربط وظائف الكعبة .

هاشم :

وهاشم هو الجلد الثاني للرسول صلوات الله عليه ، وكان يتولى السقاية والرفادة وكان اسمه عمرا ، وسمى هاشما لأنه كما تقول الرواية كان يتلقى معونات من قريش لإطعام فقراء الحجاج ، ولكن حدث عام مجاعة فلم يكلّف هاشم بنى قومه شططا ، وأخذ كل ماله وذهب إلى الشام فاشترى كمية كبيرة من الكمك الجاف وعاد به فهشمه هاشما ليجعله صالحا لأن يكون ثريدا ، فسُمي الهاشم .

وكان هاشم سفير قريش لدى الملوك ، وهو الذي عقد حلفا تجاريا باسم قريش بينها وبين هرقل ملك الروم لتذهب تجارة قريش آمنة إلى الشام ، وكثيرا ما كان يقود التجارة بنفسه إلى الشام ، ومات هاشم في إحدى رحلاته التجارية وهو عائد إلى مكة ، وكانت وفاته في غرة (١) .

المطلب أخو هاشم :

والمطلب أخو هاشم ، وكان أصغر منه سنا ، وبعد موت هاشم تولى المطلب السقاية والرفادة وكان ذا فضل وشرف في قومه ، وكانت قريش تسميه « الفيض » لمباحته وفضله .

شيبة (عبد المطلب) :

وكان هاشم الذى سبق الحديث عنه قد قدم المدينة و يثرب : فزوج سلمى بنت عمرو أحد بنى عصى بن النجار ، وكانت امرأة ذات شأن ومكانة ، فكانت لا تزوج إلا إذا كان أمرها فى يدها ، وقد ولدت لهاشم ولداً سمي ه شيبة ، وتركه هاشم مع أمه يثرب حتى شب وأصبح غلاماً ، فلما مات هاشم خرج أخوه المطلب إلى المدينة ليحضر ابن أخيه لمكة ايعيش بين قومه وأهله ، وقد تمسكت أمه به أولاً ، ولكن المطلب صاح بها قائلاً : نحن أهل بيت كريم ، لنا شرف فى قومنا ، نل أمورهم ونحمل تبعاتهم ، وقومه وأهله أولى به ، فاستجابت أمه لذلك وأسلمته .

ودخل به المطلب مكة وقد أردفه خلفه ، فظنت قريش أنه عبد اشتراه المطلب فقالوا : عبد المطلب ، فقال المطلب : وبحكم إنه شيبة ابن أخى ولكن لقب عبد المطلب غلب عليه ^(١) .

ومات المطلب فأخذ عبد المطلب ابن أخيه هاشم مكانه وتولى السقاية والرفادة ، وأقام لقومه ما كان آباؤه يقيمون قبله لقومهم ، وبلغ فى قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه ، وأحبه قومه وعظم فيهم ^(٢) .

بطون قريش

واستكمالاً للحديث عن أجداد الرسول نذكر أن بطون قريش الناعشر

بمنا هي :

١ - بنو عبد مناف ، وعبد مناف هو جد الرسول الثالث ، وأشهر أولاده هاشم جد الرسول الثانى وعبد شمس والد أمية الذى تنسب له الأميرة الأموية .

٢ - بنو تيم أجداد أبى بكر .

٣ - بنو عصى أجداد عمر .

(١) ابن هشام ١ - ١٢٦ - ١٢٧ .

(٢) ابن هشام ١ - ١٣١ .

- ٤ - بنو أسد أجداد خديجة .
 ٥ -- بنو زهرة أجداد آمنة .
 ٦ - بنو مخزوم أجداد خالد بن الوليد .
 ٧ - بنو سهم أجداد عمرو بن العاص .
 ٨ - ١٢ بنو عبد الدار وبنو عامر وبنو الحارث وبنو جميع وبنو محارب

هيد الله بن عبد المطلب :

رؤى أن رجلاً جاء إلى الرسول صلوات الله عليه فقال له : . . .
 يا بن الذبيحين ، فلم ينكر الرسول عليه ذلك ، والذبيح الأول هو إسماعيل
 ابن إبراهيم عليهما السلام ، والذبيح الثاني هو أبو الرسول عبد الله بن
 عبد المطلب .

وقد قص القرآن الكريم قصة الذبيح الأول في قوله تعالى : (فشرناه
 بغلام حلیم ، فلما بلغ معه السعی قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك
 فانظر ماذا ترى ؟ قال : يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين ،
 فلما أسلما وتله للجبين ، وناديناہ أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك
 نجزي المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم . وتركنا
 عليه في الآخرين ، سلام على إبراهيم) ^(١) .

أما قصة الذبيح الثاني فترويها لما كتب التاريخ وبخاصة كتب الأسماء
 لابن الكلبي ^(٢) وتاريخ الطبري ^(٣) ، وهي تريتنا بعضاً من عادات العرب التي
 سبق الحديث عنها ، فالعرب كانوا يتقربون إلى الآلهة بتقديم القرابين التي
 تكون أحياناً من دماء البشر ، كما انتشرت عندهم عادة الضرب بالنداح
 واتباع ما توصي به هذه القداح ، وخلاصة هذه القصة أن عبد المطلب كان

(١) سورة العنكبوت الآيات ١٠١ - ١٠٩ وانظر الطبري ج ١ ص ١٨٩ وكتاب
 اليهودية للمؤلف .

(٢) (٣) ٢ - ١ ص ٦ .

(٢) ص ٨ و ٢٧ - ٢٨ .

عليه سقاية الحاج ، وكان عليه أن يحضر الماء لذلك من آبار بعيدة ويقضه في أحواض ليشرب منها الحجيج كما تقدم ، وكان هذا العمل صعباً يحتاج إلى أيد كثيرة وإلى جهد كبير ، ولذلك فكر عبد المطلب في إعادة حفر بئر زمزم ، ولكنه وجد كثيراً من العنت من قريش ، ولولا صبره ودأبه ما نفذ هذا العزم ، ومن أجل هذا نزل ثلث ولید له عشرة بنين ثم شبوا وأصبحوا ممنوناً ، لينحرن^(١) واحداً منهم عند الكعبة تقرباً لآلهة قريش ، فلما حقق الله أمنيته وأصبح له عشرة أولاد^(٢) أراد أن يني بنذرهم ، فجمع أولاده عند (هبل) وهو أعظم الأصنام التي تعبد بها قريش ، وطلب إلى صاحب القداح أن يضرب عليهم ، فخرجت القرعة على عبد الله وهو أصغر أولاد عبد المطلب وأحبهم إليه . فأخذ عبد المطلب بيده وأخذ الشفرة وذهب به ليذبحه عند أساف ونائلة وهما وثنا قريش اللذان تقدم عندهما القرابين ، فكفته قريش وكفته بنوه وقالوا : لا تذبحه أبداً حتى تبصر الأمر ، وأشاروا عليه أن ينطلق إلى عرّافة شهيرة ليستشيرها ، فذهب إليها ، فأشارت عليه أن يعبد الضرب بين عبد الله وبين عشرة من الإبل ، فإن خرجت القرعة على الإبل فلتكن هذه دية لعبد الله وإن خرجت على عبد الله زيد عليها عشرة أخرى وهكذا حتى ترضى الآلهة بالدية ، فاستجاب عبد المطلب لرأى العرّافة ، وظلت القرعة تخرج على عبد الله حتى بلغت الإبل مائة ، فخرجت على الإبل ، فنحرها عبد المطلب وترك لحمها حلالاً للناس والحيوان والطيور .

ونجا عبد الله بذلك من الذبح ، ولكن هذه الحادثة أذاعت اسمه وأكسبته شهرة عظيمة ، وأصبح موضع عناية الناس وحديثهم وحبهم ، وزوجه والده بعد ذلك من آمنة بنت وهب ، وعاش معها فترة قصيرة بعد الزواج ، ثم تركها وسافر متاجراً إلى الشام . ومات في الطريق دون أن يعود إلى زوجته ، ولكن بعد أن أودع في بضعها نطفة^(٣) كان مقدراً لها أن تكون أعظم شخصية في تاريخ البشرية . فكأنما نجا عبد الله من الذبح

(١) كان لعبد المطلب عشرة بنين وست بنات (انظر العقد الفريد ج ٤ ص ٢٥٢) .

(٢) ابن القيم : زاد المعاد ج ١ ص ١٧ .

لغرض واحد هو الالتقاء بأمنة وتكوين هذا الجنين ؛ وبعد أن أدى عبدالله الغرض أذن بالرحيل .

الكاهنة التي أرادت الزواج من عبد الله

عندما نجا عبد الله من الذبح انصرف به أبوه عبد المطلب عائداً إلى البيت ، وفي طريق عودة عبد الله إلى دور بني هاشم رآته امرأة من بني أسد بن عبد العزى تدعى رقية بنت نوفل ، وهي أخت ورقة بن نوفل ، وكانت لها فراسة ومهارة ؛ فرأت في وجهه نوراً أحست أنه سينتقل إلى ابن عبد الله ؛ وتمنّت أن تكون هي الأم التي يحبها هذا الابن عن طريقها ، فعرضت لعبد الله ؛ وحادثته ثم عرضت نفسها عليه ، ولكن عبد الله أعرض عنها فطلبت منه أن يتزوجها وقالت له : لك مثل الإبل التي نحررت عنك لو تزوجتني ، ولكن ذلك لم يدفع عبد الله للاستجابة لطلبها ؛ وتقول الرواية أن عبد الله قال شعراً يحمي نفسه من أية صلة غير مشروعة بأية امرأة ، وهذا الشعر هو :

أماً الحرام فالحمامُ دونهُ والحلُّ لاحتلُّ فأمستينه .
فكيف بالأمر الذي تبغيه يحمي الكريمُ عرضَه ودينَه

ويقال إن عبدالله تزوج آمنه بعد ذلك بقليل ، ومراً بهذه المرأة بعد أن دخل بأمنة وبعد أن حملت آمنه منه ، ولكنها أعرضت عنه ، فسألها عبدالله ما سبب إعراضك ؟ فقالت : فارقك النور الذي كان معك ، فليس لي بك اليوم حاجة ^(١) .

آمنة بنت وهب :

إذا كان عبد الله قد أدى مهمته في الحياة بزواجه بأمنة وتكوين هذا الجنين ، فإن مهمة آمنه لم تنته بذلك ، فالحمل والحضانة والإشراف على الطفل كانت لازمة لهذا الطفل ، ففضل الله ومدَّ عمر آمنه بضع سنين ، والباحث

(١) ابن مشام ١ : ١٤٣ و ١٤٥ .

النفسي يسدرك سرور آمنة بزواجها من عبد الله ذى الشباب الغض والشهرة
الذائعة؛ وبدرك أن موت عبد الله بعد هذا الالتقاء الوجيز كان جديراً أن يحطم
قلب آمنة؛ ولكن التاريخ يُثبت لنا هدوء آمنة في غمرة الحزن ورضاها
مع الأمسى، وقد وجدت آمنة سلواها في الجنين ثم في الطفل، ولكنها
مرعان ما ماتت عندما كان طفلها في السادسة من عمره. وكانت وفاتها في
موضع يقال له الأبواء بين مكة والمدينة^(١).

لقد شاء الله - فيما يبدو - أن يتولى هو تربية محمد وأن يزرعه من أسرته
ليصبح في رعاية الله تمهيداً للأسرة الكبيرة التي سيكون محمد زعيمها، والتي
لا تتم بنجس ولا لغة، وإنما أكرم الناس فيها هو أكثرهم تقوى لله،
وقد عبر القرآن عن هذا المعنى بالآية الكريمة: (ألم يجدك يتيماً فآوى)^(٢)
وعبر عنه الرسول بقوله: «أدبني ربي فأحسن تأديبي».

مولد محمد :

كان محمد ثمره الالتقاء القصير بين عبد الله وآمنة، ولقد ولد في التاسع
أو الثاني عشر من شهر ربيع الأول (٢٠ إبريل سنة ٥٧١ م) ، وكان
مولده في مكان غير بعيد من الكعبة ، وقد أقيمت مكتبة في المكان الذي
ولد فيه الرسول عليه السلام، ويؤمها الآن كثير من الحجاج ليعيشوا رداً من
الزمن في المكان الذي شهد مولد المصطفى .

وكانت ولادته في عام الفيل ، ويبدو لي أنه تكريماً لمولد الرسول
دافع الله سبحانه وتعالى عن البيت الحرام بواسطة الطير الأبابيل التي دمرت
الفيلة التي كانت عماد جيش أبرهة وهو يزحف لتدمير الكعبة ، وقد خطر
لي هذا الخاطر لأن الكعبة هوجمت قبل الإسلام وبعده عدة مرات^(٣) ،
وكانت هذه المرة هي المرة الوحيدة التي تصدّت القوة العليا للدفاع عن
البيت الحرام .

(١) ابن القيم : زاد المعاد ١ : ١٧ . (٢) سورة الضحى الآية ٦ .

(٣) اقرأ هذه المرات في كتاب : حركات فارسية ضد لإسلام والمسلمين عبر العصور

محمد في كفالة جده عبد المطلب :

ذكرنا من قبل أن عبد الله والد محمد مات عقب زواجه من آمنة بشهور قليلة ، وبهذا لم ير محمد أباه فكفله جده عبد المطلب ، ويروى أنه لما تمت ولادة محمد - وكانت قد تمت بكل اليسر كما تؤكد الروايات التاريخية - أرسلت آمنة إلى جده عبد المطلب بذلك ، فأمرع إليها ، وفرح بالمولود أشد الفرح ، وتقول الرواية إن عبد المطلب أخذه إلى الكعبة وطاف به وشكر الله أن منحه عوضاً عن ابنه عبد الله ، وقال قصيدة طويلة مطلعها .

الحمد لله الذي أعطاني هذا الغلام الطيب الأردان

ورضاعته عليه السلام من حليلة السعدية :

تمنّت السيدة آمنة أن يُستاح لابنها ما يتاح لأبناء السادة من قريش من الحياة بالبادية مع إحدى المرضعات لتقوى عظامه ، وتمكن شخصيته الاستقلالية ، ولينعم بسلامة الجور ، وينشأ على سماع اللغة العربية الفصحى .. فطلبت من عبد المطلب أن يحقق لها هذا الأمل ، وكان عبد المطلب شديد الحرص على تلبية رغبات آمنة لعله يجبر خاطرها إذ أنها فقدت زوجها بعد حياة قصيرة معه .

وسرعان ما دخل عبد المطلب على آمنة ومعه امرأة أعرابية هي حليلة ابنة أبي ذؤيب من بني سعد .

وتقول حليلة السعدية إنها خرجت من موطنها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه ، وكانت ضمن نسوة من بني سعد يلتصقن الرضعا .

وتقول حليلة إن ذلك كان في سنة عجماء ، وقد خرجت على ناقه نحيلة ، وليس بثدي حليلة لبن يذكر من قلة الطعام ، وكان ما بثديها من اللبن لا يكاد يغني ابنها الذي حملته معها ، وتستمر حليلة قائلة : قدمنا إلى مكة ، وعرض محمد بن عبد الله على أكثر المرضعات فأبين أخذه لأن يتيم ، والأمل قليل في عطاء أمه وجده ، واستطاعت كل مرضعة أن تبه

رضيعاً ، ولم يبق إلا أنا ، فلما أوشكنا على العردة ، قلت لزوجي : والله
إني لأكره أن أرجع بين صواحي بدون رضيع ، وأشرت عليه أن نأخذ
الطفل اليتيم ، فوافق على ذلك ، فذهبت إليه وأخذته ، وما حملني
على أخذه إلا أنني لم أجده غيره .

وتقول حليلة ورجعت به إلى رحلي ، وسرعان ما امتلأ ثدياي باللبن ،
وشرب حتى روي ، وشرب ابني حتى روي كذلك ثم ناما ، واتجه زوجي
إلى ناقتنا فإذا باللبن يكاد يقطر من ضرعها ، فحلب منه ما قضى حاجتنا .

وفي طريق العودة كانت ناقتنا أسرع النرق سيراً ، حتى ظننت صواحي
أنها ليست الناقة التي وفدنا عليها ، ولكنني قلت لمن : إنها والله هي هي .

وفي دُورنا رأيت كل شيء في حياتنا قد تغير ، فأغنامنا سمحت ، وفاض
لبنا : وحياتنا قد ملأها السرور والخير ، ولما انتهت فترة الرضاعة ،
قدمنا به إلى مكة ونحن نأمل أن نعود به مرة أخرى ، فكلمت أمه في ذلك
وقلت لها : لو تركت ابني عندي حتى يغلظ ؟ فإني أخشى عليه وباء مكة ،
ولم نزل بها حتى ردته معنا .

ثم حدثت أحداث غير عادية فيها يمن وبركة للرسول صلوات الله
عليه خلال إقامته في بني سعد مما جعل حليلة تخاف عليه فردته إلى أهله ،
إشفاقاً منها عليه .

محمد في بيت أبي طالب :

أوصى عبد المطلب وهو في النزع الأخير أولاده بمحمد ومطلب منهم
أن يعرضوه ما فقد من حنان أبيه وأمه وجدته ، وذكر لهم أنه يتوقع
لمحمد مستقبلاً عظيماً ، ويخشى عليه من الحساد والأعداء ، ومطلب منهم
مساعدته بكل ما يستطيعون .

وقد انبرى أبو طالب آنذاك يطمئن والده على محمد ، ويتعهد بالعناية به
وبمجاوبته والدفاع عنه حتى لا يمسسه سوء ، وكان أبو طالب أخاً شقيقاً لعبد الله

ولذلك كان أرحم أعمام النبي صلى الله عليه وسلم به ، وأولاهم برعائه (١) .

وتوفي عبد المطلب عقب ذلك وكانت سن الرسول ثمانى سنوات .

وانتقل محمد إلى بيت أبي طالب ، وكان هذا رجلاً شهماً كثير العيال ، وأقبل على محمد وفضله على كل أبنائه ، وأظهر محمد قناعة وأدباً فزاد حب أبي طالب إليه ، وكان طعام محمد مع عمه غالباً وليس مع أبناء عمه .

وامضى الغم « الأمين » :

ولما شبَّ محمد أخذ يرعى غنم عمه أبي طالب ، وكان مثلاً للرعى الأمين ، يهتم بأغنامه رعيًا وسقيًا ، فإذا مرضت إحداها غسل بجدٍ على رعايتها وعلاجها ، فكثرت أغنام أبي طالب وعظمت ، مما جعل بعض أهل مكة يطلبون أن يضموا أغنامهم لأغنام أبي طالب طلباً للثناء والخير ، ولما ظهر لهم حرص محمد على حسن أداء العمل وحسن رعايته لأغنامه أطلقوا عليه لقب « الأمين » .

وكان هناك رعاة آخرون يخرجون بأغنامهم للرعى ، ولكن محمداً لم يكن كثير الاختلاط بهم ، ولم يُقَدِّم على ما كانوا يعملون من نزوات الصبيان وأهوائهم .

وحدث مرة أن أراد محمد أن يشارك أترابه ما كانوا يقومون به من مسرات ومهرات ، وهو يروى ذلك عندما أصبح نبياً ، فيقول :

ذهبت حتى أتيت داراً من دور مكة ، وسمعت العزف والغناء ، ولكن سرعان ما شملنى النوم ، فوالله ما أيقظنى إلا مسُّ الشمس .

وكررت ذلك مرة أخرى فحدث نفس الشيء ، فوالله ما عُدْتُ لذلك بعدها حتى أكرمنى الله عز وجل بالنبوة .

وسراه فيما يلى وهو يصحب عمه فى تجارته إلى الشام .

(١) العقد الفريد ٢٥٢٥٤ وفى الكامل للبرد (١ ، ٢٥٧) أن الزبير بن عبد المطلب كان أبقاً شقيقاً لعمه الله .

لقصة بحيرى الراهب :

وخرج أبو طالب مرة في تجارته للشام ومعه محمد ، فحدث حادث مهم ترويه كتب السيرة والراث ، ففي الطريق إلى الشام نزل الركب بصرى من أرض الشام ، وكان بها راهب يسمى بحيرى ، وكان له عِلمٌ بالكتب المقدسة ، كما كان راهباً يعيش في الصومعة التى كان يعيش بها الرهبان . .

وكان من عادة بحيرى ألا يهتم بالقوافل التجارية ، فليس له بها شأن ، ولكنه في هذه المرة أبدى اهتماماً كبيراً بقافلة قريش ، إذ رأى همامة تسير مع القافلة وتقف إذا وقفت القافلة ، وكان ذلك دليلاً يفسر ما يجده بحيرى من قرب ظهور نبي آخر الزمان ، ومن صور إكرام الله له ، فأراد بحيرى أن يستوثق من أن بالقافلة نبي آخر الزمان ، فأقام مأدبة كبيرة دعا لها كل تجار القافلة ، وطلب منهم ألا يتخلف أحد عن الحضور .

ودهمش تجار القافلة من صنع بحيرى ، فلم يكن من حادثه أن يحتنى بهم . وحضر التجار إلى مكان المأدبة إلا محمداً لصغر سنه ، فقد بقى يحرس الرجال والطلع ، ورأى بحيرى أن الغامة لا تزال هناك عند المكان الذى نزلت به القافلة ، ولم تصحب الغامة القوم إلى بيت بحيرى ، فسألم : هل بقى منكم أحد لم يحضر مأدبتي ؟ فقالوا : حضرنا كلنا إلا غلاماً واحداً تركناه عند الرجال . فقال : لا بد من إحضاره وسأرسل من رجالى من يحرس متاعكم ، وحضر محمد .

استقبل بحيرى محمداً وسأله باللات والعزى أن يصدقه فيما يسأله عنه ، فصاح به محمد : لا تسألنى باللات والعزى شيئاً ، فوالله ما أبغضت شيئاً قط بغضى لهما .

فأدرك بحيرى مكانة محمد وأجله ، وعاد يسأله : بالله إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه . فقال له محمد : سألنى عما بدا لك ، فجعل يسأله عن

أشياء من حاله في نومه وهيبته وأمره ، وحمد يجيب حتى استوثق بحيرى من أنه أمام رسول آخر الزمان .

وحينئذ اتجه بحيرى إلى أبى طالب وسأل : ما هذا الغلام منك ؟

قال أبو طالب : هو ابنى .

قال بحيرى : ما هو ابنك ، وما ينبغى أن يكون لهذا الغلام أب حى .

قال أبو طالب : أنه ابن أختى ، مات أبوه وأمه حامل به .

فقال بحيرى : صدقت ، أوجع بابن أخيك واحلوه عليه من اليهود ، فوالله لو عرفوا عنه ما عرفتم لأوقعوا به شراً ^(١) .

محمد يشترك في حرب الفجار :

وعند ما كانت سن^١ محمد أربع عشرة سنة وقعت حرب الفجار الرابعة وكانت بين قريش وكنانة من جهة وهوازن من جهة أخرى ، وقد حضر الرسول هذه الحرب ويروى عنه قوله : كنت أنبل على أعمامى يوم « الفجار » وأنا ابن أربع عشرة سنة أى أناولهم النبل وسميت حرب الفجار لوقوعها في الأشهر الحرم ، وحروب الفجار خمسة اشتركت فيها القبائل التى سبق ذكرها : قريش وكنانة وهوازن ^(٢) .

محمد يتاجر بمال خديجة :

كانت خديجة بنت خويلد بن أسد سيدة ذات شرف ومال ، وكانت تتاجر الرجال للعملى في مالها وتجعل لهم هيباً نظير ذلك ، إما مضاربة أو أجراً ، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ، ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته ، وكرم أخلاقه ، بعثت إليه وعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام على أن تعطيه أفضل ما كانت تعطى لمن سبقه من الرجال الذين عملوا في مالها .

(١) ابن هشام ١ - ١٦٥ ، ١٦٧ .

(٢) العقد الفرید لابن عبد ربّه - ٥ من ٢٥١ وما بعدها .

فقبل محمد ذلك وسار في ركب التجارة ومعه غلامها ميسرة ، ويقول
ميسرة إن راهباً اسمه (نسطُوراً) اعترضه في مكان نزله به القافلة للاستراحة ،
وسأل الراهب ميسرة : من هذا الرجل ، فقال له ميسرة : إنه رجل من
قريش أهل الحرم .

فقال الراهب : إن لهذا الغلام لشأناً^(١) .

ووصلت التجارة إلى الشام ، وباعها الرسول فربحت كما لم تربح تجارة
من قبل ، واشترى محمد من سلع الشام تجارة عاد بها ، وفي مكة بيعت
هذه التجارة بضعف ثمنها فكان في ذلك ربح وفير .

وتحدث ميسرة لخديجة لا عن الربح فحسب ، بل عن شرف محمد
وأمانته ، وعن كلام الراهب نسطورا ، فكان لهذا الكلام وهذه المعاملة
وقع عميق في قلب خديجة أدَّى إلى الزواج بها كما سنرى فيما يلي :

زواجه عليه السلام من خديجة :

يقول ابن هشام^(٢) أن خديجة كانت امرأة شريفة نبيلة ، وكانت من
أوسط نساء قريش نسباً ، وأعظمهن شرفاً ، وأكثرهن مالاً ، فلما أخبرها
ميسرة بما لاحظته على محمد خلال رحلة التجارة قررت خديجة أن تحطب
محمداً لنفسها بطريق غير مباشر ، فأرسلت إليه امرأة ذكية اسمها « نفيسة »
بنت منبه ، ودار بين هذه المرأة وبين محمد الحديث التالي :

نفيسة : لماذا يا محمد لا تقدم على الزواج ؟

محمد : تكاليف الزواج يا أماء لم تيسر لي بعد .

نفيسة : وماذا يا محمد لو كفيناك هذه التكاليف ، واقترحت عليك

امرأة من أعظم سيدات قريش حسباً ومالاً ؟

محمد : ومن تكون هذه السيدة ؟

نفيسة : خديجة بنت خويلد .

محمد : إنني أعرف أن كثيرين تقدموا إليها ورفضت الزواج .
نفسه : إذا قبلت أنت يا محمد كان عليّ أن أكل الموضوع .

وتمّ الاتفاق على أن يتمّ زواج بينهما ، وخطب أبو طالب خديجة لابن أخيه ، وقدّم لها عشرين ناقة لتكون مهرأ لها ، وألّى أبو طالب خطبة في أهل خديجة قال فيها : إن محمداً ابن أخي شاب لا يوزن به فتى من قريش إلا زاد عليه شرفاً وخلقاً ، وإن كان قليل المال فالمال ظل زائل ، وله في خديجة بنت خويلد رغبة : ولها فيه مثل ذلك ، وقد ساق محمد إليها عشرين ناقة مهرأ .

فقام عم خديجة ورد على الخطبة بقبولها وبارك الزوجين ، وأقيم حفل الزواج فنحرت النبايع وأطعم الناس ، وفُتِحَت دار خديجة أبوابها لتُسلم الولائم وتستقبل رموس العشائر مهنتين ، وضم بيتها الكريم أعظم زوجين .
وما يذكر أن الزواج كان يتم في بيت الزوجة فيقيم الرجل في بيت زوجته عدة أيام ثم يأخذ زوجته إلى داره ، ولكن خديجة طلبت من الرسول أن يبقى في بيتها الواسع ، وأن يدير تجارتها ويشرف على أموالها فقبل .

وكان الرسول عند الزواج في الخامسة والعشرين وكانت السيدة خديجة في الأربعين^(١) من عمرها تزوجت قبله مرتين^(٢) .

عمر السيدة خديجة عند زواجها بالرسول :

على أن تحديد سن السيدة خديجة حين زواجها بالنبي ﷺ ، هو من المسائل التي اختلفت فيها الآراء ودار حولها نقاش كثير ، وذلك لاختلاف روايات المؤرخين الثقات وهي المصدر الذي نعتمد عليه في هذا الموضوع .

فقد روى كثير من المؤرخين على رأسهم الطبري^(٣) : أن السيدة خديجة كانت تبلغ من العمر أربعين سنة يوم تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم ،

(١) ابن القيم - زاد الماد ١ - ١٨ . (٢) ابن تقيي: المعارف ص ٦ .

(٣) تاريخ الطبري ص ١١٢٧ .

واعتمد على هذه الرواية كثير من الدارسين المحدثين كالذكور محمد حسين هيكل (١) والذكورة عائشة عبد الرحمن (٢) وغيرهما ، وقد أخذ أصحاب هذا الرأي في اعتبارهم أن السيدة خديجة قد تزوجت قبل النبي صلى الله عليه وسلم مرتين وأنجبت فيهما أطفالاً ، ثم أنها مكثت بعد الزواج الثاني فترة ترفض من يتقدم إليها من أشرف قريش يطلب نكاحها ، وانصرفت إلى التجارة تنمي ثروتها وتهتم بها ، حتى تاجر الرسول في مالها فاقتنت به ، ورعيته زوجاً لها ؛ لأنها رأت فيه صفات الرجل الذي تنشده ، ويؤيد هذه الرواية التي تقول إنها كانت في الأربعين من عمرها رواية أخرى تقول : إنها توفيت قبل الهجرة بثلاث سنوات ، وكان عمرها آنذاك خمساً وستين سنة ، وكان عمره عليه الصلاة والسلام خمسين سنة .

وهذا الرأي يؤخذ عليه أنها أنجبت في هذه السن المتأخرة ، ولكن يجاب على ذلك بأنه من المشاهد وجود بعض السيدات ينجبن ليس فقط بعد الأربعين ، بل بعد الخمسين أيضاً ، ويتوقف ذلك على عوامل متعددة — توفرت للسيدة خديجة — كالوسط الاجتماعي ، ومدى ما تعيش فيه المرأة من ترف ورفاهية .

على أن هناك روايات أخرى أشار إليها ابن كثير (٣) تذهب إلى أن السيدة خديجة كانت في الخامسة والعشرين أو الثامنة والعشرين عندما تزوجها الرسول ، ويرجح هذا الرأي المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد (٤) حيث يرى أن المرأة في بلاد كجزيرة العرب يبكر فيها الهرم ، فلا تنصدي للزواج بعد الأربعين ، وإن كان يؤخذ على هذا الرأي أن الحكم العام قد لا ينطبق على امرأة كالسيدة خديجة عاشت في ترف من العيش ، كما ذكرنا آنفاً .

رهكذا تتعدد الآراء وتختلف حول هذه القضية ، ويؤكد كل فريق ما يذهب إليه بروايات مأثورة ، ومشاهدات ما تزال تعيش بيننا حتى الآن .

(١) حياة محمد ص ١١٠ . (٢) نساء النبی ص ٢١٧ .

(٣) السيرة النبوية ج ١ ص ٢٦٤ - ٢٦٥ . (٤) فاطمة الزهراء والفاطميون ص ٢٠ .

بناء الكعبة ووضع الحجر الأسود :

عندما كان الرسول صلوات الله عليه في الخامسة والثلاثين من عمره اجتمعت قريش لبناء الكعبة ، وعند الحديث عن بناء الكعبة يجدر بنا أن نفتس قوله تعالى : « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل » والتعبير « يرفع القواعد » يفهم منه بعض الباحثين أنه كانت هناك قواعد للبيت قبل إبراهيم .

ولعله من الأنسب أن نتحدث عن مرات بناء الكعبة كما يرويها التاريخ ، فيقولون إن الكعبة بنيت خمس مرات :

الأولى : حين بناها شيث بن آدم ، وفي رواية أن الملائكة هم الذين بنوها لأول مرة .

والثانية : حين بناها إبراهيم وإسماعيل على القواعد الأولى .

والثالثة : هي تلك التي نتكلم عنها والتي حدثت قبل الإسلام بخمسة أعوام .

والرابعة : حين احترقت في عهد عبد الله بن الزبير وأعاد ابن الزبير بناءها ووسع مساحتها .

والخامسة : في عهد عبد الملك بن مروان حينما ضربها الحجاج - وابن الزبير «تحدثين» بها - فلما سقط ابن الزبير هدمها عبد الملك وأعاد بناءها على قواعدها التي كانت عليها في عهد الرسول ،

بماسة الحديث عن الكعبة نذكر أن المسجد الحرام بُسِيَ لأول مرة في عهد عمر بن الخطاب ، إذ رأى أن الناس ضيقوا على الكعبة ، وألصقوا دورهم بها أو بنوا هذه الدور على مقربة منها ، فقال عمر : إن الكعبة بيت الله ، ولا بد للبيت من فناء ، فاشترى تلك الدور من أهلها وهدمها ، وبني المسجد المحيط بها ، وفي عهد عثمان اشترى هذا دوراً أخرى وأغلى في ثمنها وزاد في

سعة المسجد ، فلما كان ابن الزبير زاد في إتقان المسجد وتجميله ، وجعل فيه أعمدة من الرخام ، وزاد في أبوابه ، فلما جاء عبد الملك زاد في ارتفاع حائط المسجد ، وحمل إليه السوارى في البحر إلى جده ، ثم في البر إلى مكة .

وزاد عليه الخلفاء العباسيون زيادات واسعة ، كما اهتم سلاطين مصر بتوسيعه وتجميله وبخاصة الظاهر بيبرس وبرقوق وقايتباي .

وفي النصر الحديث بلغ اهتمام ملوك المملكة العربية السعودية بالحرم المكي أقصى حد ، توسعاً وتجيلاً ، حتى أصبح تحفة معمارية رائعة .

ولنعد لحديث بناء الكعبة قبيل الإسلام ، تقول الرواية إن العرب ترددوا في هلمها ، وهايوا ذلك ، فقال الوليد بن المغيرة : أنا أبدأ بهذا العمل ، وأخذ المِعْمُول وبدأ الهدم وهو يقول : اللهم إنا لا نريد إلا الخير ، وبعد ذلك تقدم الناس وساعدوا الوليد حتى انتهى الهدم إلى الأساس الذي رفع عليه إبراهيم وإسماعيل القواعد .

ووضعت قريش دستوراً لبناء الكعبة حدده الوليد بن المغيرة بقوله : يا معشر قريش لا تدخلوا في بنائها من كَسْبِكُمْ إلا طيباً ، لا يدخل في بنائها مهرٌ بغي ، ولا بيع ربا ، ولا مظنة أحد من الناس .

ولما ارتفع البناء اختلفت قريش في وضع الحجر الأسود في مكانه واختصموا في ذلك ، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى ، واشتد الأمر ، واستعد القوم للقتال ، وهنا صاح أبو أمية بن المغيرة ، وكان أكبر قريش سنّاً فقال : يا معشر قريش حكموا في هذا الأمر أول من يدخل من باب هذا المسجد ليقضى بينكم . فارتضوا هذا الرأي .

وبعد قليل دخل الرسول عليهم من هذا الباب ، فلما رآه قالوا : هذا الأمين رضي بنا بحكمه ، وأخبروه الخبر ، فقال : هلم إلى ثوباً ، فأتى به ، فأخذ الحجر ووضعه فيه بيده ، ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ،

ثم ارفعوه جميعاً ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ثم بنى عليه وأرضى الجميع (١) .

وتقول الرواية إن إبليس ظهر آنذاك في صورة شيخ نجدى وصاح بأعلى صوته قائلاً : يا معشر قريش أَرْضَيْتُمْ أَنْ يَضَعَ مُحَمَّدٌ هَذَا الْحَجَرُ فِي مَكَانِهِ دُونَكُمْ ؟ وَأَرَادَ بِذَلِكَ أَنْ يَبْشُرَ شَرًّا ، وَلَكِنَّ النَّاسَ أَعْرَضُوا عَنْهُ .

أَخْلَاقُ مُحَمَّدٍ قَبْلَ الْبُعْثَةِ :

اتفق المؤرجون والباحثون على أن محمداً لم يعبد صنماً قط، وبُغِضَتْ إليه الأوثان ودين قومه (٢)، وإنما كان يخلو لنفسه ويفكر في الكون وصانعه، وكان يجاور في غار هراء من كل سنة شهراً (٣). واستمر كذلك حتى عَهِدَ اللهُ على دين إبراهيم الخليل الذي كان يدين به بعض العرب الذين لم يقبلوا عبادة الأوثان مثل قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي وأمية بن أبي الصلت . وكما تنزه محمد عن عبادة الأصنام فإنه تنزه كذلك عن مذمومات الجاهلية التي كان يفرق فيها شباب العرب في ذلك العهد (٤) .

ولم يكف محمد قبل الإسلام بالبعد عن الأصنام ، بل كان ينهى عن عبادتها ما استطاع لذلك سبيلاً ، يروي زيد بن حارثة أنه ذهب مع الرسول مرة للطواف بالبيت ، وكان لقريش صنان يتمسح بهما للعرب ، فطاف محمد ولم يتجه للصنمين ، أما زيد فقد تمسح بهما كما كان يفعل سواء من الناس ، فقال له محمد : لَا تَمْسَسْهُمَا يَا زَيْدُ فَدهش زيد من ذلك وقرر أن يمس الصنمين مرة أخرى ليتأكد له موقف محمد من ذلك ، ومسح زيد الصنم في طواف آخر ، فهره محمد قائلاً : أَلَمْ تَنْتَه ؟ قَالَ زَيْدُ : الْآنَ قَدْ انْتَهَيْتُ .

وكان يُعَدُّ محمد عن الأصنام وعن مذمومات الجاهلية إعداداً له ليتلقى رسالة الله ، وهي الفترة التي سنتحدث عنها فيما يلي :

(١) الأوزق : أخبار مكة ص ٢٨ و ٢٩ . (٢) زاد المواد ج ١ : ص ١٨ .

(٣) ابن هشام ج ١ : ص ١٥٣ . (٤) مسند ابن جرير ص ٧٤ .

الْبُعْثَةُ النَّبَوِيَّةُ

وحياة الرسول في مكة

تدوين جديد للسيرة

لقد سعدت بكتابة تاريخ السيرة العطرة منذ أكثر من عشرين عاماً ، وصرت فيما كتبت على النمط الذى اتبعه الأوائل ؛ ولكنى أحس اليوم بأن السيرة النبوية وبخاصة فى عهد المدينة ينبغي أن تدوّن من جديد ، فقد راعى أن تدوين السيرة على مر التاريخ ابتداء مما كتبه ابن هشام حتى الدراسات التى كُتبت فى العهد الحاضر ، أغفلت جوانب كبيرة الأهمية من حياة الرسول بالمدينة ، فمن الطبعى أن حياة الرسول بالمدينة كانت حافلة بمجالات الأعمال ، بنى فيها الرسول الفرد المسلم ، وبنى المجتمع الإسلامى ، وكانت له مواقف رائعة مع أسرته تعتبر نموذجاً لكل رب أسرة ، ومواقف رائعة مع أصحابه تعتبر قدوة لكل رفيق ، وفى هذه الفترة أسس الرسول أخلاقاً جديدة ، ووضع الأسس لعلاقات الفرد بالفرد . والفرد بالمجتمع ، كما وضع الرسول أساس العلاقات بين المسلمين ، وقام بالدعوة للإسلام فى المدينة وفى الجزيرة العربية ، وخارج الجزيرة مبنياً وسائل الدعوة هنا وهناك ، وفى المدينة واجه الرسول اليهود والمنافقين ، وربى الحكّام والولاة والدعاة ، وغير ذلك من الأعمال التى حفلت بها الحياة اليومية للرسول صلوات الله عليه .

ماذا نرى فى كتب السيرة ؟ .

إننا للأسف نرى تركيزاً قوياً على الغزوات . فأن يتم حديث كتاب السيرة عن الهجرة حتى أنتج جهودهم للغزوات . فيحدثون عن غزوة بدر الكبرى فى العام الثانى للهجرة ، وغزوة أحد فى العام الثالث . والصراع ضد بنى النضير فى العام الرابع ، وغزوة الخندق فى العام الخامس . والحديبية فى العام السادس ، وخيبر فى العام السابع ، وفتح مكة وغزوة مؤتة فى العام الثامن ، وتبوك فى العام التاسع ، ثم الوفود وحجة الوداع ووفاة الرسول .

يالله ١١ كأن حياة الرسول كانت حروباً متصلة ، وكان الإسلام دين دماء ، وذلك ما يخالف الواقع ، ويتضح هذا لو لاحظنا أن حروب ذلك الزمان كانت بالسيوف والحراب ، وكانت لقاء لا يطول مداه ، تنتصر فيه جماعة ونهزم أخرى ، بعد جولة أو عدة جولات وبكلمات محددة نذكر مثلاً أن غزوة أحد بما كان بها من أحداث ومد وجزر حدثت في يوم واحد هو يوم السبت النصف من شعبان ، وكانت غزوة الخندق أطول الغزوات ولكنها أيضاً ليستغرقت أسابيع قليلة ، فإذا كان الرسول يفعل خلال باقى أيام العام ؟ ثم إن بعض الغزوات كانت بقيادة بعض الأبطال من المسلمين مثل غزوة مؤتة ، وكان الرسول مقيماً بالمدينة يزاوّل فيها الإسلامية التواصلة ، ومثل هذا كان يحدث عندما كان الرسول يرسل السرايا ، وتدلنا أحداث التاريخ أن الرسول خلال السفر للغزوات كان أيضاً يباشر تربية الفرد وتربية المجتمع وغرس أخلاق الإسلام والدعوة له فلماذا أغفل كُتّاب السيرة هذه الجوانب المهمة ، وركزوا اهتمامهم على الغزوات والحروب ؟ .

إن الإجابة على هذا السؤال الخطير ترينا سبب هذا الخطأ ، وبالتالي تفتح أمامنا الأبواب لنصحح هذا للوضع ونتدارك ما فات السابقين .

إن الإجابة تكمن في أقدم كتاب عن سيرة الرسول ، ذلك هو ما كتبه ابن اسحق (٨٥ - ١٥١ هـ) الذى تلقى عن التابعين وتابعهم ، وجاء بعده ابن هشام الذى جمع كلام ابن اسحق وهذبه فنُسب له وأصبح معروفاً بسيرة ابن هشام .

ماذا فيها كتب ابن اسحق مما سبب هذا الخطأ الذى نحاول أن نفتح الباب لإصلاحه ؟ .

الإجابة أن ابن اسحق كتب كتابين يتصلان بالسيرة العطرة ، أحدهما هو « كتاب المبتدأ » أو « كتاب المبدأ وقصص الأنبياء » وهو كتاب

يتحدث عن تاريخ الأنبياء ويمتد حتى هجرة الرسول محمد صلوات الله عليه إلى المدينة ، والكتاب الثاني هو « كتاب المغازي » ويتحدث فيه عن غزوات الرسول ، ويقال إنه كتب كتابه الأول بناء على طلب الخليفة أبي جعفر المنصور ليكون وسيلة لتثقيف ابنه المهدي ، وكان قد كتبه مطوياً ولكن الخليفة طلب منه اختصاره ففعل . أما الكتاب الثاني وهو كتاب « المغازي » فكان استجابة للفكر العربي والعالمي آنذاك ، الذي كان يهتم بالحروب ويسجل صور البطولات ، فطالما نظم الشعراء قصائد إعجاب بأبطال الحرب ودونوا سيرة أولئك القادة المشاهير الذين كان عليهم الدفاع عن الديار وحماية الزمار .

وسمى ابن اسحق لا غبار عليه ، فهو قد اختار موضوعاً لهذا الكتاب وموضوعاً لذلك وكتب فيهما ، ولكن المشكلة تبدأ من ابن هشام الذي اقتبس من « كتاب المبتدأ » الجزء الخاص بسيرة الرسول حتى الهجرة ، وأضاف إليه كتاب ابن اسحق الثاني وهو « كتاب المغازي » وكون بذلك كتاباً أسماه « السيرة النبوية » واعتبر هذا الكتاب اسماً لكُتِّبَت السيرة عبر العصور ، فتج عن هذا التصرف ما يلي :

أولاً : دونت السيرة النبوية لابن هشام تفاصيل دقيقة لحياة الرسول في مكة حتى تمام الهجرة ، إذ كان ابن اسحق قد دون ذلك بتفصيل واسع .

ثانياً : حفلت الغزوات بتفاصيل دقيقة عن خطواتها وأحداثها ونتائجها لأن ابن اسحق كان قد عنى بذلك أيضاً .

ثالثاً : لم تنل مواقف الرسول بالمدينة في غير الغزوات أى اهتمام لأن ذلك لم يدخل ضمن الإطار الذي وضعه ابن اسحق لدراسته ، ولأن ابن هشام ومن جاء بعده غفلوا عن ذلك فقتنوا - سهواً - بما ذكره ابن اسحق ، مع أن دراسة ابن اسحق عن الرسول بعد الهجرة كانت مرتبطة بالغزوات فقط .

وأصبح هناك منهج للسيرة يذكره محقق سيرة ابن هشام بقوله في المقدمة التي وضعها لهذا الكتاب :

« تبدأ السيرة بسرد نسب النبي صلوات الله وسلامه عليه ، وقد تطلب هذا إشارة إلى أنساب بعض أخيار العرب وأفاضلهم ، وذكر أخبارهم في الجاهلية ، وعاداتهم وتقاليدهم وعباداتهم ، وذكر الأحداث

الهامة التي وقعت بينهم كإعادة حفر بئر زمزم على يد عبد المطلب بن هاشم ، ثم تنتقل للحديث عن مولد الرسول صلى الله عليه وسلم ، ونشأته ومبعثه ، ومن استجاب لدعوته ، وآمن برسالته ، وما لقيه النبي في سبيل نشر الدعوة ، من أذى وتعنت ، وما عاناه المؤمنون من إيذاء الكفار لهم ، ومهجرهم الأولى والثانية إلى الحبشة ، وعرض الرسول نفسه على القبائل حتى قبيل أهل يثرب دعوته ، فهاجر إلى المدينة هو ووالدين آمنوا معه .

« وفي المدينة بحىء ما وقع فيها بين الرسول وبين اليهود حتى تظهرت المدينة منهم ، ومن المدينة انطلقت جحافل جيوش المسلمين تدعو إلى الحق وترفع لواء الإسلام ، ومنها أرسلت الوفود ، حتى جاء نصر الله ، ودخل الناس في دين الله أفواجا .

» وبعد ذلك نجيء أخبار أزواج النبي ثم مرضه وانتقاله إلى الرفيق الأعلى ، (١) .

ويقول محقق الكتاب إن هذا هو النهج الذي سار عليه ابن هشام ، ومن دراسة هذا المنهج يتضح لنا أن حياة الرسول بمكة درست بكثير من التفصيل تبعاً لما كان ابن اسحق قد دونه ، أما حياة الرسول بالمدينة فليس فيها إلا موقف الرسول من اليهود ومصراعه في الغزوات والموقفان يجمعهما الحروب ، وهذا هو مجال النقص الذي وجد في تدوين السيرة على يد ابن هشام وهو الذي اتبعه من دونوا السيرة من بعده .

ولأن بعض الأحداث كانت بارزة في حياة الرسول بالمدينة ، فلأن المؤرخين لم يستطيعوا إسهامها ، ولكنهم للأسف جعلوها أجزاء من الغزوات ، ولم يفردها بدراسة خاصة متكاملة .

ومن أشهر من كتبوا سيرة الرسول من المحدثين ، الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه « حياة محمد » والدكتور هيكل رجل واسع الثقافة ، ولكنه سلك نفس الطريق الذي سلكه السابقون ، فإِنْ انتهى من الحديث عن أول العهد يثرب في الفصل الحادى عشر حتى أتجه للغزوات ابتداء من الفصل التالى فعقد الفصل الثانى عشر للحديث عن السرايا والمناوشات الأولى ، والفصل الثالث عشر عن غزوة بدر الكبرى وهكذا .

وقد كتب الأستاذ الأستاذ « عبقرية محمد » وللاستاذ العقاد روحه ومنهجه في العبقریات ولكنه حدد عمله حين قال : « إن هذا الكتاب ليس كتاب سيرة نبوية جديدة ، وإن المحاولة فيه اتجهت لتبرئة المقام المحمدي من الأقاويل التي يلغظ بها الأغرار والجهلاء . ولهذا كان أطول فصوله الفصلان الخاصان بالحرب وبالحياة الزوجية ، وعلى هذا النهج صار الشيخ محمد الخضرى والدكتور حسن إبراهيم وغيرهما .

وكتبت أنا عن صدر الإسلام الجزء الأول من موسوعة التاريخ الإسلامى على نمط ما كتب الأوائل ، وأعيد طبعه تسع مرات ولكنى لم أعد أفتح بما كتبت بعد أن خطر ببالى خاطر التصحيح الذى شرحته فيما سبق .

لأننى أستعين بالله وأفتح هذا الباب ليس لأحاوله وحدى . وإنما أدعو كل المفكرين المسلمين إلى محاولته كل بقدر استطاعته لتعيد تدوين السيرة من جديد كما ينبغى أن تكون ، ولنضع صورة أقرب إلى الواقع للرسول عليه الصلاة والسلام الذى حملته الله قدوة للمسلمين ، قال تعالى : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » (١) .

ولاشك أننا عند ما ندون تاريخ الرسول وفق هذا الاتجاه نصصح

خط ٣ طال مداه ، ثم نبرز حياة الرسول للناس ليروا ما بها من أفانين في مختلف الشئون ليستطيعوا أن يمثلوا حياته وينتفعوا بها في تربية أنفسهم وفي تصرفاتهم في كل المجالات ، ومن الواضح أن عهد المدينة كان عهداً خصباً بعد أن أصبح للإسلام مركز ينطلق منه ، وبعد أن علت كلمة الله ، ولهذا حفل عهد المدينة بما لم يكن لسكة عهد به .

القرآن وسيرة الرسول :

وضع القرآن الكريم صيغة الحياة للمسلمين ، ونظم لهم شئون الدين والدنيا ، وأفاض القرآن الكريم في تشريعات المال والتشريعات الخاصة بالمرأة ، والحدود ، والنظم ، والأخلاق ، وغير ذلك من التشريعات ، ومن الثابت كذلك أن الرسول كان خلقه القرآن كما رُوِيَ ذلك عن السيدة عائشة رضي الله عنها ، وعلى هذا فإننا عندما ندون السيرة النبوية ببرز الرسول شارحاً كلام الله ومنفذه ، فسلوكه عليه السلام كان تطبيقاً عملياً للقيم والتعاليم والآداب التي وضعها الإسلام ، قال تعالى : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » (١) ، وقال : « أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة » (٢) ، وقال : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » (٣) .

وعلى هذا فإننا في تدوين السيرة النبوية نتابع الرسول حركة حركة ما أمكن ذلك ، ونحاول أن نضع أمام المسلم صغراً نرجو أن يكون شاملاً لهذه الحياة الحافلة بالكفاح والمجد والعطاء

(١) سورة النحل الآية ٤٣ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٥١ .

(٣) سورة المائدة الآية السابقة .

وبعد أن عزمتم على التصحيح وهيأت نفسي له سألت : ما المراجع التي ستساعدني علي القيام بهذا العمل إذا كان مدونو سيرة الرسول على مر التاريخ ساروا على نهج ابن هشام ؟ .

وسرعان ما ملعت الإجابة في خاطري ، فقد أحسست أن كتب الحديث حافلة بوصف شامل لتصرفات الرسول وإرشاداته ، وجمعت حولي كتب الصحاح ، ورحلت أقرؤها بصبر ، وأقتبس منها وأصنف الأبواب والأحداث ، ونتيج عن ذلك مجموعة رائعة من الدراسات ذكرت بعضها في مقدمة الكتاب ، وسرد في هذا الكتاب عند الحديث عن الرسول في المدينة .

على أن حياة الرسول في مكة قد أضيفت لها أيضاً دراسات مفيدة عثرتُ عليها وأنا أقرأ وأجمع المادة للنهج الجديد ، وكلما زادت السيرة النبوية وضوحاً كلما كانت أشعة النور والمهدي للمسلمين أقوى وأعظم .

بعثة الرسول

هيا مال خديجة للرسول فرصة ليتفرغ للعبادة ، فقد تزوج محمد خديجة
فاغتني بما لها (ألم يحدك يتما قأوى ، ووجدك ضالاً فهدى ، ووجدك عائلاً
فاغنى) (١) . وكان محمد كما قلنا يخلو لنفسه ويفكر في الكون ، ومنحه الغنى
فرصة للفراغ والمزيد من التفكير ، ومنحه تقدم سنه مزيداً من العمق ،
ومنحه أخلاقه الحسنة مزيداً من الصفاء ، وشملت عناية الله فرأى أن يخلو
لله ، وشجعت زوجته الصالحة على رغبته فكانت تعد له الطعام . فيأخذه
ويذهب إلى غار حراء ، حيث يخلو ليفكر في الكون وخالقه . والموت
ومصير الناس بعده وهكذا ، وصفت نفس الرسول فأصبحت رؤاه تتحقق
ولانكاد تتخلف .

بدء الرحي : وظل محمد يخلو ويفكر حتى نزل عليه جبريل يوم الاثنين
السابع عشر من شهر رمضان ، وصمه إليه ضمة شديدة ثم أطلقه وقال له :
اقصراً .

فأجاب الرسول : ما أنا بقارىء .

فعاد جبريل فضمه بشدة ثم أطلقه وقال له : اقرأ .

فأجاب الرسول وقد أرهقه الصم والخوف : ما أنا بقارىء .

فضمه جبريل مرة ثالثة ثم أطلقه وقال له : (اقرأ باسم ربك الذى خلق
خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم علم الإنسان
ما لم يعلم) (٢) .

(١) سورة الصم الآية ٦-٨

(٢) سورة العلق الآيات ١ - ٥

وكانت هذه أول آيات نزل من القرآن الكريم (١) ، ومن الملاحظ أن هذه الآيات لم تخبر محمداً بدعوة ، ولم تكلفه برسالة ، ولم تكن إلا إعلاماً بشيء غير عادي لم يدرك محمد كنهه عند وقوعه ، ومن أجل هذا أسرع محمد إلى البيت وهو يرتجف فقص على خديجة ما رآه ، وقال لها : لقد خشيت على نفسي ، فهدأت خديجة من روعه ، وقالت له : والله لا يخزيك الله أبداً ، ولم تعرف خديجة كزوجها كنه هذه الحالة ، ولذلك أشارت عليه أن يذهب إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ، وكان شيخاً جليلاً واسع الاطلاع عميق الخبرة : فاستجاب الرسول لرأيها وذهب إليه حيث قص محمد قصته . فقال ورقة : هذا هو الناموس الذي ينزل على الأنبياء ، وبإيتي أكون معك حين يخرجك قومك . فسأله محمد : أو مخرجي هم ؟ فأجاب ورقة : لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرأ مؤزراً . ثم لم يلبث ورقة أن توفي .

وانقطع جبريل عن الرسول مدة بعد ذلك ، وكان الرسول يترقبه في الغار وخارج الغار ، فسمع مرة وهو يمشي صوتاً ، فرفع رأسه للسماء ، فرأى جبريل على نحو ما رآه في الغار ، فهاب المنظر وارتعب ، ورجع إلى بيته في حالة من الخشية ، وقال لأهله : دثروني دثروني : فدثروه ؛ وجاءه جبريل وهو في هذه الحالة فألقى إليه نداء ربه : (يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر) (٢) .

فكانت هذه الآيات هي الآيات الأولى التي كلفت الرسول بالدعوة ، واتضح بها ما كان غامضاً ، ونهض محمد عليه السلام ليحمل هذا العبء الكبير .

وهدأت بذلك رسالة محمد ، تلك الرسالة التي وضعت حداً لعصر

(١) زاد المأد : ١٩ - ٢٠

(٢) سورة المدثر الآيات ١ - ٧

الجاهلية الذى سبق أن نكلمنا عنه وافتتحت عصرها جديداً للعرب هو عصر النور أو عصر الإسلام ، ومن الواضح مما ذكرناه من قبل عن العرب قبل الإسلام أن كلمة الجاهلية لم يقصد بها الجهل ، فقد كان فى الجزيرة العربية حضارة ، وكان لكثير من ممالكها ثقافة ومجد ، ولكن المقصود بالجاهلية هو التخليط فى المسائل الدينية ، فجاء الإسلام ليضع حداً لهذه الضلالة ويدعوهم لدين واحد وإله واحد .

ويروى أن الرسول كان يتصبب عرقاً عندما تركه جبريل بعد أن ألقى إليه أمر ربه ، فقالت السيدة خديجة له : استرح يا محمد قليلاً ، ولكن الرسول قال لها : لم يعد هناك وقت للراحة يا خديجة ، ونهض ليؤدى واجبه تجاه الدعوة على ماسرى .

كلمة عن غار حراء :

وينبغى لنا أن نقف وقفة عند غار حراء ، ذلك المتعبد الذى شهد الرسول فترات طويلة قبل البعثة ، والذى نزل به جبريل على سيدنا رسول الله أول مرة ، حيث أقرأه الآيات الأولى من سورة العلق .

وقد زرت هذا الغار فى ذى الحجة سنة ١٣٨٩ هـ (فبراير سنة ١٩٦٩) عند رحلتى للأرض المقدسة لأداء فريضة الحج ، والجبل الذى يقع فى قننه هذا الغار يسمى جبل النور ، وهو يقع إلى الشمال الشرقى من مكة ، ويبعد عنها حوالى خمسة كيلو مترات ، ويذهب إليه الآن كثير من الناس للتبرك والزيارة .

وقد صعدت هذا الجبل مع وفد من الرفاق من «آل الأسطل» ، وصعوده شاق للغاية ، وطريق الصعود صخري ، ومن هنا فليس ممهداً على الإطلاق ، وقد يحتاج الصاعد إلى استعمال يديه ورجليه فى بعض الأحيان ليتقن السقوط ، ويستغرق الصعود حوالى الساعتين ومثلهما فى الهبوط .

وعندما تصل قمة الجبل تجد ما ليس فى الحسبان ، فهناك بركة ماء منتظمة الشكل يقال إن الماء بها لا ينقطع صيفاً ولا شتاء ، وعلى حافتها مكان فسيح مهاد مستو ، مساحته حوالى عشرين متراً مربعاً (أربعة أمتار عرضاً وخمسة طولاً) والجو فى هذا المكان جميل للغاية ، ونقى من الأتربة ، وهادئ كل الهدوء ،

ويعتقد أن ذلك المكان كان يشتمله الرسول للراحة من حين إلى حين .

وينحدر الإنسان من هذه القمة قليلاً ليصل إلى الغار ، وقد أعدت العناية الإلهية هذا الغار إعداداً دقيقاً للإقامة الطويلة به ، فهو يشبه حجرة صغيرة مدخلها إلى الأمام وفي خلفها الجبل الشاهق ، أما الجانبان فيتكونان من صخور الراحدة منها فوق الأخرى تاركة فراغاً قليلاً ينفذ منه الضوء والهواء ، فهو بذلك متجدد الهواء أو قل مكيف الهواء .

وقد ساءلت نفسي وأنا بتلك القمة سؤالاً هو : كيف كان يبيت الرسول ويعيش وحده في هذا المكان الموحش ، وجاءني الجواب دون إبطاء ؛ لقد كانت معه عين الله ، وكانت رعايته تؤنسه ؛ فلم يحس محمد بوحشة قط حتى انبثق النور من هذا المكان فلاً الأرض رحابة وأمناً وطمأنينة .

وسرى عند الكلام على غار ثور الفرق الكبير بين الغارين ، لأن لكل منهما مهمة تمتاز عن الأخرى ، وكان الغار في كل منهما مناسباً تماماً لأداء هذه المهمة .

مراحل الدعوة

قلنا آنفاً إن آيات سورة المدثر هي التي أمرت محمداً أن ينذر الناس ، وأن يدعوهم للدين الله ، وقد بدأت بهذه الآيات مراحل الدعوة للدين الجديد^(١) وهذه المراحل ثلاث هي :

— المرحلة الفردية .

— دعوة بنى عبد المطلب .

— الدعوة العامة .

— عن كل منها فيما يلي :

المرحلة الفردية :

هي المرحلة الأولى من مراحل الدعوة ، وفيها دعا الرسول صراً أهل بيته ، كما دعا خاصة أصدقائه ، وكان يدعوهم لمبادئ الإسلام الأولى التي ذكرتها هذه الآية وهي الإيمان بالله ونبذ عبادة الأوثان ، فأمن به في هذه المرحلة زوجته ، وابن عمه علي ، وزيد مولاه ، ثم دعا الرسول أبا بكر وكانت له به صلة منذ مدة فأمن به ، وعن طريق أبي بكر أسلم السابقون الأولون : عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص وهب الرحمن بن عوف ، وطلحة بن عبيد الله ، وأبو عبيدة بن الجراح ، ودخل مع هؤلاء مجموعة من الموالى والفقراء^(٢) . وقد استمرت هذه الدعوة للسرية ثلاث سنوات .

(١) انظر زاد المعاد ١ : ٢٠ .

(٢) ابن هشام ١ : ١٦٥ وزاد المعاد ١ : ٤٢ - ٤٣ .

وإسلام أبي بكر يحتاج إلى مزيد من التفصيل ، فقد كان صديقاً للرسول قبل البعثة ، وكان يتردد على بيته ، وبحس فيه بعمق الصدق وطيب الفطنة ، فلما أنجبه محمد إلى الخلوة في غار حراء زاد أبو بكر تعلقاً بالرسول وإيماناً بصفاته ، فلما جاء الوحي للرسول بالآيات الأولى من سورة اقرأ ومن سورة المدثر التقي الصديقان ، وسأل أبو بكر : لقد افقدتك طويلاً يا محمد فكيف حالك ؟ .

فسأله الرسول بالتالي : أنصديقى لو حدثتك بحالى ؟ .

فقال أبو بكر : ومن سواك ! صدق إذا لم أصدقك ؟ .

فأخبره الرسول بخبر الوحي وقرأ له آيات سورة اقرأ وآيات المدثر ، وأضاف الرسول أن هذا مطلع شعاع النور الذى أرجو أن يهتدى به الناس من الضلال وعبادة الأصنام ومن أكل الربا ومن الفسوق والعصيان .

وصرعان ما قبل أبو بكر ما قاله الرسول ، وسأله : ماذا أفعل لأصدقك ؟ فأجابه محمد : تنطق بالشهادتين فتقول أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله فنطق أبو بكر بالشهادتين عدة مرات .

ويقول الرسول : ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبرة (تردد) إلا أبا بكر .

وحمل أبو بكر عقب ذلك عبء الدعوة إلى الإسلام فدخله السابقون الأولون كما ذكرنا آنفاً .

ومما يذكر عن إسلام طلحة أن بنى تيم قومه وقوم أبي بكر سخطوا على إسلامهما ، وعبر نوفل بن خويلد الذى كان يدعى « أسد قريش » عن هذا السخط بأن تقدم ، وربطهما في حبل واحد ، وأخذ يشهرُهما ، ولذلك سميا القرينين^(١) ، وظلت هذه التسمية شرفاً يحرمس عليه طلحة .

ومن بكّر بالإسلام من أقارب طاحه عمه عمرو بن عثمان وقد كان ضمن المهاجرين إلى الحبشة ، أما عمه الآخر عمير بن عثمان فقد قُتل في بدر مع المشركين ، وأسر أخوه خالد بن عبيد الله في بدر أيضاً ومات أسيراً^(١) .

وانجى الساقون الأولون إلى أصدقاتهم يدعونهم إلى دين الله وقد استجاب هؤلاء عدد من خيرة قريش مثل : سعيد بن زيد بن عمرو وزوجته فاطمة بنت الخطاب ، وأم الفضل زوجة العباس ، وأبي سلمة بن عبد الله الخزومي ، والأرقم بن أبي الأرقم ، الذي كانت داره على جبل الصفا منعزلة عن مكة ، فاتخذها الرسول مقراً للدعوة السرية للدين الجديد ، فكان يلتقي بها مع أتباع الدين يعلمهم ويرشدهم .

ومن الذين استجابوا للدعوة السابقين خالد بن سعيد بن العاص ، وكان أبوه من أغنى القرشيين ، ولإسلام خالد قصة جذيرة بالذكر يرويها خالد بقوله : سمعت عن دعوة محمد وكنت منردداً في قبولها ، ثم رأيت فيما يرى النائم أني على وشك أن أقع في هاوية فأدركني محمد وخلصني من الوقوع فيها ، فلما أصبح الصبح اتجهت إليه لأتعرّف على تفاصيل الدين الجديد ، وسألت محمداً السؤال التالي : إلام تدعونا يا محمد ؟ .

فقال صلى الله عليه وسلم : « أدعوا إلى الله وحده لا شريك له ، وأن تخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر ، ولا يضر ولا ينفع . »

وأدعوا إلى الإحسان إلى والدك ، وألا تقتل ولدك خشية الفقر ، وألا تقرب الفاحشة ما ظهر منها وما بطن ، وألا تقتل نفساً حرم الله قتلها إلا بالحق ، وألا تقرب مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن .

وأن توفي السكيل والميزان بالقسط ؛ وأن تعدل في قواك ولو حكمت على ذوى قرباك ، وأن تنى بما عاهدت .

قال خالد : فرأيت أن ما يدعو إليه حق ، فأسلمت واتبعت دينه .

دعوة بنى عبد المطلب :

هذه هي المرحلة الثانية من مراحل الدعوة ، وقد بدأها الرسول عندما نزل عليه قوله تعالى (وأنذر عشيرتک الأقربين)^(١) فدعا بنى عبد المطلب ليجتمعوا به ، فلما حضروا قال لهم : إني ما أعلم شاباً جاء قومه بأفضل مما جئتم به ، فلقد جئتم ببحر الدنيا والآخرة . وبلغهم دعوته ، فصدق به بعضهم وكذب به آخرون ، وكان عمه أبو لهب هو وزوجته من أشد الناس قسوة عليه ، فقد هتف به أبو لهب قائلاً : تبأ لك ، الهذا دعوتنا ؟ فنزل قوله تعالى : (تبث يدا أبي لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى ناراً ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، في جيدها حبل من مسد)^(٢).

وكانت زوجة أبي لهب (أم جميل) أخت أبي سفيان بن حرب فجذبت زوجها ليكون مع قومها من عبد شمس ضد بنى هاشم امتداداً للعصبية بين الجماعتين .

وقد كانت هذه المرحلة بدء الجهر بالدعوة للدين الجديد ، ولذلك مهدت للمرحلة الثالثة من مراحل الدعوة وهي التي سنتكلم عنها فيما يلي :

الدعوة العامة :

نزل قوله تعالى (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين)^(٣) فانطلق الرسول يدعو للإسلام جهرأكل طوائف الناس ، يدعو السادة والعبيد ، يدعو الأقربين والغرباء ، يدعو أهل مكة ثم يتجاوزها إلى البلاد الأخرى ، وكذلك يدعو الحجاج الذين يفدون إلى مكة من مختلف البلدان وقد أسلم في هذه المرحلة الوليد بن الوليد بن المغيرة ، وسلمة بن هشام أخو أبي جهل وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، وجماعة غيرهم أراد الله لهم الهداية^(٤) .

(٢) سورة المسد .

(١) سورة الشراء الآية ٢١٤

(٣) سورة الحجر الآية ٩٤ .

(٤) ابن عبد البر : الدرر ص ٤٧ .

مقاومة قريش وأسياسها ومراحلها

بدأت الدعوة للإسلام سرّاً كما قلنا ، وربما عرفت قريشُ أخبارها آنذاك ، ولكن قريشاً لم تعلن العداء على محمد إبان هذه المرحلة السرية ، إذ لم تتصور قريش أن الدعوة ستقوى وتشتد ويعتقها أفراد كثيرون ، كذلك لم تهتم قريش بدعوة محمد لبني عبد المطلب ، فقد رأت هذه حالة داخلية في نطاق الأسرة ، فلم تتدخل فيها ، وكأنما اكتفت بمقاومة أبي لهب وأمثاله لها ، ولكن ما إن بدأ الرسول يمجهر بالدعوة حتى أعلنت قريش حنقها على هذا الدين ، وسلكت كل السبل للقضاء عليه ، وقبل أن نتحدث عن هذه السبل أو ما سنسميه مراحل المقاومة يجدر بنا أن نبين الأسباب التي جعلت قريشاً تقاوم دين الإسلام هذه المقاومة القاسية .

أسباب المقاومة :

نستطيع من دراستنا لحياة العرب وأخلاقهم قبل الإسلام أن نستنبط أسباب مقاومتهم للإسلام وللمسلمين ، وتلك الأسباب هي :

- ١ - كان الرق منتشرأ في الجزيرة العربية انتشاره في كل بلاد العالم ، وكان العبد رقيق العقل والقلب بالإضافة إلى الرق الجسماني ، بمعنى أنه لم يكن له أن يتدين بغير دين سيده ، ولا يحب أو يكره إلا تبعاً لحب سيده وكرهه ، وكان جسمه خاضعاً لأوامر سيده ، فلما جاء الإسلام لم يعترف برق العقل أو القلب ، وقرر أن العقل والقلب لا ينطرق لهما الرق ، فالرقيق حر في فهمه وتدينه وحبه وكرهه ، وأن رق الجسم غير مطلق ،

أى أن لارتق حقوقاً لدى سيده فى الطعام والكساء والزواج ، وليس لسيده أن يطلب منه الحرام أو ما يشق عليه من العمل .

ودخل بعض العبيد الإسلام كما قلنا . ورحب بهم محمد ، واعتبر السادة هذا التصرف تمرداً من العبيد : كما اعتبروا محمداً مشيراً للفتن ، وأنه لم يكف بذويه يدعوهم لعقيدته بل راح يدفع الإسلام إلى القصور عن طريق العبيد على الرغم من إرادة أصحاب القصور .

٢ - كان الصراع فى الجزيرة العربية بدور لأنفه الأسباب ، فإذا جاء دين جديد يهاجم معتقدات القوم ، فما أجدرهم أن يهبطوا فى وجهه ليُرضوا ما بأنفسهم من شوق للغارة والحروب .

٣ - السيادة القبلية والتنافس عليها : لم تستطع قريش أن تفرق بين النبوة وبين السيادة ، أو بين النبوة وبين المُلْك ؛ وحسبوا أن التسليم بدين محمد معناه التسليم بالزعامة له ولآله من بنى عبد المطلب ، وكانت هناك منافسة شديدة بين قبائل العرب على الرياسة والسلطان ، فلم يكن من الممكن أن تسلم قريش زمامها لمحمد ولبنى عبد المطلب وأن تفقد بطونُها المختلفة مكائنها وسيادتها .

٤ - المساواة بين السادة والعبيد : كان العرب يهيمون بالطبقات اهتماماً شديداً ، فلكل إنسان طبقته التى يجب ألا يتعدها . وإذا بدعوة محمد تجعل المساواة بين الناس أساساً هاماً من أسسها ، وتسرى بين السيد وعبيده ، بل تجعل العبد أفضل من سيده لو كان أكثر منه ثقى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) (١) ومن أجل هذا لم يقبل السادة أن يدخلوا فى هذا الدين الذى يهدم تقاليدهم ، وأسس الحياة عندهم ، ويسوى بينهم وبين العبيد الأذلاء .

٥ - النزع من البعث : يقرر الدين الإسلامى أن هناك بعثاً بعد الموت

(١) سورة المحبرات الآية ١٣ .

وأن هناك حساباً للناس ، يكافأ المحسن فيه على إحسانه ، ويعاقب المذنب على سيئاته وآثامه ، قال تعالى (القارعة ما القارعة ، وما أدراك ما القارعة يوم يكون الناس كالفرأش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش ، فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية ؛ وأما من خفت موازينه فأما هاهوية ، وما أدراك ما هيه ، نار حامية) (١) .

وقال (فإذا جاءت الصاخة ، يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل أمرىء منهم يؤمئذ شأن بغيه) (٢) .

ولم تستطع قريش أن تقبل هذا الدين الذي يعيد الإنسان للحياة بعد الموت ، ويعيده ولا سلطان له ولا نفوذ بيده ، ثم يحاسب هذا الإنسان بعدالة على ما ارتكبه ، ما أبشع الصورة التي تصورها زعماء قريش للإسلام ، تلك الصورة التي دفعتهم إلى رفض هذا الدين الجديد وعدم اتباعه والدخول فيه ، إنها صورة العدالة التي لا يرضاها الظالم ؛ وصورة الحساب الذي يقر منه المذنبون .

٦ - تقليد الآباء : كان تقليد الآباء واتباع سلوكهم في العبادات والمعاملات شيئاً راسخاً عند العرب ، ولذلك كرهوا أن يخرجوا من دين آبائهم وأن يتبعوا ديناً جديداً ، وصاحوا في غباء وجمود (حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا) فهزى بهم سبحانه وتعالى بقوله (أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون) (٣) .

٧ - سبغ الأصنام : كان هذا السبب مادياً ، فقد كان بين العرب من يجترأ نحت الأصنام على شكل اللات والعزى ومناة وهبل ، وكان هؤلاء يبيعون هذه الأصنام للحجاج الذين كانوا كثيراً ما يشترونها للتبرك والذكرى .

(١) سورة القارعة . (٢) سورة عبس الآيات ٣٢ - ٣٧ .

(٣) سورة المائدة الآيتان ١٠٤ و ١٠٧ .

فلما جاء الإسلام حرم عبادة الأصنام ونحتها وبيعها ، ووجد هؤلاء التجار في الإسلام حائلاً بينهم وبين أرباحهم وعاملاً يقضى على تجارة الأصنام بالكساد والبوار ، ولذلك سرعان ما قاوموا الإسلام وثاروا عليه .

ومما يتصل بهذا السبب المسالى أيضاً إحساس مدنة الكعبة بأنهم سيفقدون ما كانوا يتمتعون به من ثروة ونفوذ بسبب خدمتهم للأصنام ورعايتهم لزائريها (١) . كما ظن أهل مكة على العموم أن الكساد سوف يصيبهم جميعاً بسبب إغراض الحجيج عن مكة إذا بطلت عبادة الأصنام بها .

مراحل المقاومة

كانت مراحل المقاومة ثلاثاً ، إذ اتجهت أولاً إلى العبيد والضعفاء ، وثانياً إلى سواهم من المؤمنين ، وثالثاً إلى الرسول نفسه ، وسنتكلم عن كل من هذه المراحل على حدة فيما يلي :

١ - العدوان على العبيد والضعفاء :

لم توجه قريش اهتماماً ذا بال لمقاومة الإسلام في أول عهده كما قلنا ، وظنوا أن دعوة محمد ليست إلا حركة نفتر وتختنى بعد قليل من تلقاء نفسها .

ولكن سرعان ما بدا لهم أن الدعوة تدخل عليهم بيوتهم وأن عبيدهم الذين كانوا يُعَدُّون ضمن متاعهم يدخلون هذه الدعوة الجديدة ، بعد أن وُضِعَ لهم الإسلام أن الرق لا يمتد للعقل ولا للقلب ، وإنما هو مقصور على الجسم وبشروط محدّدة في ذلك أيضاً (٢) . لذلك اتجهت الخطوة الأولى من خطوات المقاومة إلى العبيد والضعفاء ، لأن محمداً إن كان حراً يقول ما يريد

(١) انظر حياة محمد الدكتور هيكل ص ١٧٥ - ١٧٩ .

(٢) انظر الرق وموقف الإسلام منه بكتاب الإسلام المؤلف .

فهؤلاء في نظرهم ليسوا أحراراً في أبدانهم ولا في عقولهم ، وعلى هذا تعرض ياسر وابنه عمار وزوجته سمية كما تعرض بلال وخباب بن الأرت وغيرهم إلى ألوان قاسية من العذاب ليس فيها خلق ولا رحمة ، وقد شمل هذا العذاب الضرب والحرق من الطعام والشراب ، وامتد العذاب بهؤلاء العبيد حتى كانت تثق ظهورهم بالرمضاء وتوضع فوقهم الحجارة الثقيلة ، وقدمات ياسر وهو يعذب ، ولما صرخت أمراًه شاكية طعنها أبو جهل بحربة فقتلها (١) . وكان من نتائج تعذيب هؤلاء أن اشترى أغنياء المسلمين كثيرين من هؤلاء العبيد وأعتقوهم . وقد أعتق أبو بكر بلالاً وأمّه حمامة ، وأعتق عامر بن فهيرة وأعتق خمسا من النساء ، ويقال إن فيه نرات الآيات الكريمة « وسيتجنبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتركى ، وما لأحد عنده من نعمة تجزي إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى » (٢) .

٢ - العدوان على كل المسلمين :

ونجى بعد ذلك المرحلة الثانية حيث امتد الاعتداء إلى أتباع الدين الجديد جميعاً من غير العبيد والضعفاء ، إذ رأت قريش أن الدعوة راد انتشارها وانضم لها بعض الأشراف . وبدأ حطرها يظهر . فعم الاعتداء كل المسلمين وأصبح كل مسلم هدفاً للهجوم والإيذاء من المشركين سها كانت مكانته في قريش ، ومهما كان ثراؤه . ومهما كان جاهه وقوته ، وعلى هذا تعرض للأذى سادة أنجاد مثل أبي بكر وعثمان والزبير وأبي عبيدة ، وربما كان من الممكن أن يدافع هؤلاء عن أنفسهم . ولكن الإذن باستعمال

(١) ابن هشام ١ : ١٧٢ ، ٢٠٢ وابن القيم ٢ : ٤٢ .

(٢) سورة الليل .

القوة - ولو للدفاع - لم يكن قد جاء بعد ، كما سيأتي تفصيله عند الحديث عن الإسلام والقتال ، ولذلك احتل المسلمون الأول ألوانا من العسف والقسوة والطغيان أنزلها بهم قوى الشر عمكة .

وقد أودى أبو بكر إيداء شديداً على الرغم من صنه ومكانته في قريش ، ولقد هم بالهجرة إلى الحبشة من شدة ما عانى ، ولكن أحد سادة قريش قابله وقد أزمع الهجرة فخرج أن يهاجر رجل مثل أبي بكر من مكة ، فأعاده معه في جواره ، ولكن أبا بكر سرعان ما رد هذا الجوار حتى لا ينعم بالأمن في وقت يعاني فيه باقي المسلمين ألواناً من العنت والعذاب ، وقد صبر أبو بكر وصابر حتى هاجر مع الرسول إلى المدينة ومن نزل به ، الأذى في هذه المرحلة عثمان بن عفان ، فقد حبسه عمه الحكم بن العاص في حجرة مظلمة وقيدة بسلاسل من حديد وهدده بأنه سيقى هكذا إلى أن يعود إلى آلهة قومه ، ويترك إله محمد ، ولكن عثمان أكد أنه لن يعود إلى الكفر بعد أن ذاق حلاوة الإيمان ، أما ما يعاني من قسوة فلا مناص من احتماله في سبيل الله .

وتعرض الزبير بن العوام إلى مخطط عمه نوفل بن خويلد ، وأقسم نوفل أن ينزل بالزبير من العذاب ألواناً حتى يعود إلى دين آبائه وأجداده وتنفيذاً لهذا القسم وضعه نوفل في حجرة مظلمة مكتوف الأيدي وأطلق دخاناً كثيفاً بالحجارة حتى ضاقت أنفاسه وهو صابر لقضاء الله ، ولم ينقذه من الموت إلا أمه صفية التي هددت بأنها ستدخل نفس الدين إذا استمر نوفل في إنزال العذاب بابنها .

وإذا كانت صفية قد دافعت عن ابنها ، فإن شاباً مسلماً آخر هو سعد ابن أبي وقاص كانت أمه (حمئة بنت أبي سفيان) مصدر تعذيبه وللتكيل به ، وسرى ذلك عند الحديث عن « الرسول والشباب » .

ويمكن القول إن الرسول نفسه لم يحسه إيداء يذكر في هذه المرحلة لمكانة

بنى هاشم ومكانة أبي طالب الذى أخذ على نفسه حماية ابن أخيه ومن نتائج الإيذاء الذى وقع على المسلمين أن هاجر هؤلاء إلى الحبشة كما سنوضحه فيما يلى ، ثم نعود - بعد الكلام عن الهجرة إلى الحبشة - إلى استكمال مراحل المقاومة بشرح المرحلة الثالثة حيث تعرض الرسول نفسه للإيذاء والاعتداء

هجرة المسلمين إلى الحبشة :

لما نزل الأذى بالمسلمين . وأنصاهم البلاء من قريش ، وأصبحت حالة المسلمين تدعو للأذى بسبب ملافوه من قريش من إيذاء وهجوم ، بدأ الرسول يفكر فى بلدة أخرى يرسل لها المسلمين المستضعفين ليعدوا عن مريش وعن هجمات قريش ، أما المسلمون الأشداء فقد بقوا بمكة يحيطون بالرسول ويدفعون بهائم العدوان عن أنفسهم . ومن هؤلاء على بن أبى طالب وطلحة بن عبيد الله وكثيرون صواهما .

أى البلاد يختار الرسول لراغبي الهجرة من المسلمين ؟

هل يرسلهم إلى اليمن ؟ لا ، إن اليمن خاضعة للفرس ، والفرس لا يعتنقون الأديان السماوية ولا يحترمونها بدليل أن كسرى ملك الفرس أرسل إلى باذان عامله على اليمن يقول له : ابعث إلى هذا الرجل الذى بالحجاز رجلين جلدين من عندك فليأتياى به .

هل يرسلهم إلى مواطن أهل الكتاب من اليهود والنصارى بالخزيرة العربية ؟ لا ، فقد كان أهل الكتاب فى نزاع ومنافسة ، فهم لا يقبلون منافساً جديداً يقول بالله الذى يقولون به على غير ما يعتقدون .

هل يرسلهم إلى الشام أو الحيرة ؟ لا ، فإن الشام والحيرة مكانان لقريش فيها نفوذ كبير بسبب الصلات التجارية التى تربطهم بسكانها ، هذا بجانب نفوذ الروم والفرس الذى لا يسمح بتأييد الدعوة الجديدة .

إلى أين يرسلهم ؟ هل يرسلهم إلى الحبشة التى كان الرسول يعرف أن

بها ملكاً لا يظلم عنده أحد ؟ نعم ، لقد استقر الرأي على ذلك ، فوجه الرسول أتباعه عبر البحر الأحمر إلى أرض الأحباش .

وكانت هجرة المسلمين إلى الحبشة على مرحلتين تعرفان بهجرة الحبشة الأولى ، وهجرة الحبشة الثانية ، وكانت الهجرة الأولى في السنة الخامسة للدعوة وقوامها أحد عشر رجلاً وأربع نساء فيهم عثمان بن عفان وزوجته رقية ابنة الرسول والزبير بن العوام وأبو حذيفة وأمرأته ، وكان عثمان بن مظعون رئيس هؤلاء المهاجرين .

أما الهجرة الثانية فقد حدثت بعد ذلك بأشهر قلائل واشترك فيها ثمانون رجلاً وامرأة واحدة هي أم حبيبة بنت أبي سفيان مع زوجها عبيد الله بن جحش ، وكان جعفر بن أبي طالب زعيم المهاجرين في هذه المرة ، وبعد فترة قصيرة اتصل بمن كان في أرض الحبشة من المهاجرين خبر إسلام عمر ومجاهرته بالعبادة ، فتشجع بعضهم للعودة ليشارك عمر شجاعته وثباته ونضاله . كما بلغهم كذلك نوع من الهدنة بين قريش وبين المسلمين لحرص قريش على ألا تقوم حرب أهلية بين الفريقين ، وحب الوطن طبيعة في الإنسان ، والغريب يتلمس المعاذير ليعود للوطن ، وباسم حب الوطن ، الذي — فيما نظن — نفع الأمسياب ردياً الحجاج ، عاد بعض هؤلاء المهاجرين إلى مكة ، ولكنهم ما إن وصلوها حتى ظهر لهم أنهم كانوا متفائلين ، وأن حدة العداء بين المسلمين والمشركين لم تهدأ ، ولذلك — كما يقول ابن هشام (١) — لم يدخل أحد منهم مكة إلا بجوارٍ أو مستخفياً ، أما باقي مهاجري الحبشة الذين لم يخضعوا للنفائول ، أو الذين آثروا البقاء في معتزلهم حتى تعلق كلمة الله ، فقد بقوا هناك حتى السنة السابعة للهجرة .

وقد أحست قريش عقب هجرة المسلمين إلى الحبشة أن اختيار المسلمين

« شدة سببه استعداد النجاشي لإكرامهم ، وأمنهم على نفوسهم ودينهم في مغتربهم ، فقررت أن تكيد للمغتربين لتحريمهم هذا الملجأ ، فاختارت لذلك عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة المخزومي وأرسلتهما إلى النجاشي ، وكان لعمر بن العاص جاه في الحبشة وفي بلاط النجاشي ، وأرسلت مع البعثة مجموعة كبيرة من الهدايا للنجاشي وبطارقته ، وأذاعت أن المسلمين يقولون في عيسى وفي أمه قولاً عظيماً ، فعقد النجاشي مجلساً استمع فيه لرأى جعفر ابن أبي طالب في هذه التهم ، وقد نجح جعفر في عرض الفكر الإسلامي مما جعل النجاشي يقول : إن هذا والذي جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة ، ويقال إنه آمن بالإسلام فثار عليه قومه لذلك ، وفي العام السابع للهجرة أرسل الرسول من حمل هؤلاء المهاجرين في سفينتين وأحضرهم إلى المدينة ، وكان ذلك عقب استسلام خيبر ، وروى أن الرسول قال عندما رأى جعفر بن أبي طالب ، ما أدرى بأيهما أنا أسر ، بفتح خيبر أم بقدم جعفر (١) .

ونعود بعد ذلك للحديث عن الجوار الذي أشرنا إليه فيما سبق ، فقد قلنا إنه لم يدخل مكة من العائدين من الحبشة إلا من دخل في جوارٍ ومن دخل مستخفياً ، وكان من عادة العرب أن من دخل في جوار شخص أصبح ذلك الشخص مسئولاً عنه وعن حمايته ، ويكون الاعتداء على المستجير اعتداء على المخير وهتكاً لحرمته (٢) ، وقد دخل عثمان بن مظعون - عقب عودته من الحبشة ومعرفة أن المسلمين لا يزالون بسامبون العذاب - في جوار الوليد بن المغيرة ، ولكن عثمان رأى ما فيه المسلمون من البلاء وهو يقتل ويروح في أمان ، فخجل من ذلك وقال : والله إن عُذُوِي ورواحي آمنًا

(١) هذا العرض هو أدق ما استطعنا فهمه من الروايات المختلفة . انظر صحيح البخاري وابن هشام وابن سعيد والتويري وقد ذكر ابن عبد البر (الدرر ص ١٣٩) أن إرسال وفد قريش للحبشة كان بعد غزوة بدر وجاء أن يسلمهم النجاشي مهاجرين فيقتلوهم بدل أسراهم .

(٢) انظر مدى اهتمام العرب بحماية المستجير في المقد للفريد لابن عبد ربه ج ١ ص ١٥٩ وما بعدها .

بحوار رجل من أهل الشرك ، وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله مالا يصيبني لنقص كبير في نفسي ، فشى إلى الوليد بن المغيرة وقال له : يا أبا عبد شمس وفتّ ذمتك ، وقد رددت إليك جوارك . قال : يا ابن أخي ، لعله آذاك أحد من قومي ؟ قال : لا ، ولكني أرضى بحوار الله ولا أريد أن أستجير بغيره : قال المغيرة : فانطلق بنا إلى الكعبة فاردد على جوارى علانية كما أجرتك علانية : فانطلقا حتى أتيا الكعبة ، فقال الوليد : هذا عثمان جاء يرد علي جوارى . قال عثمان : صدق ، قد وجدته وفيه كريمة الجوار ، ولكني أحيت ألا أستجير بغير الله ، فقد رددت عليه جواره . ورأى عثمان عقب ذلك لبيد بن ربيعة الشاعر في مجلس من قريش بنشدتهم . فجلس معهم عثمان وأنشد لبيد :

• ألا كل شيء ما خلا الله باطل •

قال عثمان : صدقت . وتابع لبيد إنشاده قائلا :

• وكل نعيم لآحالة زائل •

قال عثمان : كذبت ، نعيم الجنة لا يزول :

ولما سمع لبيد من يكذبه صاح : يا معشر قريش • والله ما كان يؤذى جليسيكم ، فتى حدث هذا فيكم ، قال رجل من القوم : إن هذا سفيه من سفهاء معه قدفار قوا ديننا فلا تجدن في نفسك من قوله . فرد عليه عثمان بكلام يدافع عن نفسه ، فاشتبكوا في عراك ، ولطم القرشي وجه عثمان لطمه أثرت في عينه . قال الوليد : يا عثمان ، قد كنت في غنى عما أصابك فقد كنت في ذمة منبة . قال عثمان : والله إن عيني الصحيحة لفقره إلى مثل ما أصاب أخيها في الله ، وإنّي والله لفي جوار من هو أعز منك وأقلر^(١) .

وما يروى أيضاً عن أحاديث الجوار أن أبا بكر لما أصابه الضر

ورأى الأذى يصيبه ويصيب الرسول ولا يطبق له دفعا استأذن الرسول في الهجرة فأذن له ، فخرج أبو بكر وسار يوماً أو يومين فلقبه ابن الدغنة وهو أخو بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة وهو يومئذ سيد الأحابيش (١) . فسأل : إلى أين يا أبا بكر ؟ فأجاب : أخرجني قومي وآذوني وضيقوا علي . قال ابن الدغنة : ولم ؟ وإنك والله لتزين العشيرة وتعين على النواصب وتفعل المعروف وتكسب المعدم ؟ ارجع وأنت في جوارى . فرجع معه حتى إذا دخل مكة قام ابن الدغنة فقال : يامعشر قريش ، إني قد أجرت ابن أبا بكرة فلا يعرض له أحد إلا بخير . ومنذ ذلك الحين كفت قريش عن أذى أبي بكر . وكان لأبي بكر مسجد عند باب داره فكان يصلي فيه ويقرأ القرآن ، وكان رجلاً رقيقاً إذا صلى خضع وإذا قرأ القرآن بكى واستبكى ، وكان ذلك يجذب حوله الصبيان والنساء في إعجاب ظاهر ، فخاف رجال قريش عاقبة ذلك ومشوا إلى ابن الدغنة وشكوا له أبا بكر وطلبوا أن يصلي وأن يقرأ القرآن داخل داره ، فكلّمه ابن الدغنة في ذلك : فأجابه أبو بكر : إرد عليك جوارك وأرضي بجوار الله . قال : فاردد علي جوارى . ففعل أبو بكر وتعرض بعد ذلك إلى عنت قريش من جديد (٢) .

٣ - العدوان على الرسول :

نتكلم الآن عن المرحلة الثالثة من مراحل مقاومة قريش للإسلام ، وفي هذه المرحلة تعرض الرسول نفسه للهجوم والإيذاء ، وقد بدأ ذلك عقب هجرة المسلمين إلى الحبشة ، فقد أزعجت هذه الهجرة قريشاً وتوقعت أن

(١) الأحابيش معناها العجميات من تعبشوا أي تجمعوا : وتطلق على بني الحارث وبني المون من كنانة وبني المصطلق من خزاعة (انظر الروض الأنف ٢ : ٢٣١) .

(٢) ابن هشام ج ١ ص ٢٣١ ويروى المبرد مجموعة من القصص تبين اهتمام الأنبا بحماية من استجار بقبور آبائهم ، أو حمل بعض الخصاص من هذه القبور . (انظر الكامل للمبرد ج ٢ ص ٤٢٩ وما بعدها) .

يُبشِّر المسلمون في كل النواحي داعين إلى دينهم ، وأن تمهد هذه الهجرة لهجرة محمد نفسه ، وبذلك تتغلب عبادة الله على عبادة أصنامهم ، ولهذا اتجهت قریش إلى رأس هذه الحركة ، إلى محمد بن عبد الله للضغط عليه لإغرائه حتى يكف عن هذه الدعوة الجديدة .

واتبعوا في إغراء الرسول العروض المالية السخية ، ولكن محمداً سخر منهم ومن أموالهم ، فتجاوزوا المال إلى الملك ، فعرضوا عليه أن يكون عليهم ملكاً ، ولكن محمداً صاح بهم صبيحة وضعت حداً لهذه العروض الرخيصة حين قال قولته المشهورة : « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمال ما تركت ذلك الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه » (١) .

ولما لم يفد الإغراء اتجهوا للهجوم - الإيذاء وكانوا راغبين في إنزال الأذى مصرّين على المقاومة ، ولكنهم في الوقت نفسه كانوا يخافون نتائج هذا الإيذاء ويتوقعون الشر من إقدامهم عليه ، فأبو طالب يحتل أرفع مكانة بين العرب ، وحوله بنو هاشم فيما عدا أبا لهب ، ولذا تنوعت المقاومة فأتجه ثقلها إلى المقاومة السلبية وضرب الحصار كما سنوضح ذلك عندما نتكلم عن « مقاطعة بنى هاشم » واتجه بعضها إلى إنزال الأذى بالرسول مباشرة ، فأم جميل زوجة أبي لهب كانت تلقى الأقدار والأشواك أمام داره في غسق الليل لتؤذي الرسول عند خروجه مبكراً ، وكان أبو جهل يلقي فوقه القاذورات وهو في أثناء صلاته .

ولكن حماية أبي طالب ردت عن الرسول كثيراً من الأذى ، وورقت زوجته خديجة وكأنها بلسم يشفي ما يصيبه من آلام ، لقد كانت تحسن استقباله إذا عاد إلى البيت كثيراً ، وكانت تؤاسيه وتشجعه حتى يعود له نشاطه ويسترد عزمه وقوته .

وكان المجاهرون بالظلم لرسول الله ، ولمن آمن به كثيرين أهمهم
 عمه أبو لهب ، وابن عمه أبو سفيان بن الحارث وهما من بني هاشم ، وعتبة
 وشيبة ابنا ربيعة ، وعقبة بن أبي معيط وأبو سفيان بن حرب وابنه حنظلة ،
 والحكم بن أبي العاص بن أمية وهم من بني عبد شمس ، ومن بني
 عبد الدار النضر بن الحارث ومن بني أسد بن عبد العزى زمعة بن الأسود
 وأبو البختري العاص بن هشام ، ومن بني مخزوم أبو جهل بن هشام ،
 وأخوه العاص وعمه الوليد بن المغيرة ، ومن بني سهم العاص بن زائل
 وابنه عمرو بن العاص ، ومن بني جمح أمية بن خلف وأخوه أبي ،
 وكان هؤلاء يواصلون الأذى للرسول والمسلمين ، ويروى ابن عباس أن
 النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي فجاءه أبو جهل واعتدى عليه ،
 وحاول نفيه عن الصلاة ولكن الرسول زجره وهدده ، فقال أبو جهل :
 يهددني محمد وقد علم أن ما بها رجل أكثر نادياً مني ؟ فأنزل الله فيه الآيات
 الكريمة : « أرايت الذي ينهى عبداً إذا صلى ؟ أرايت إن كان على الهدى أو
 أمر بالتقوى ؟ أرايت إن كذب وتولى ؟ ألم يعلم بأن الله يرى ؟ كلا لئن لم ينته
 لنسفنا بالناصية ، ناصية كاذبة خاطئة ، فلیدع ناديه ، سندع الزبانية ، كلا ،
 لا تطعه واسجد واقترب » قال ابن عباس والله لو دعا ناديه لأخذته
 الملائكة (١) .

إسلام حمزة وعمر بن الخطاب ونائج ذلك :

وبينا كانت الدعوة بين إصرار الرسول وكفاح قريش ، إذ دخلها في
 السنة الخامسة للدعوة بطلان عظيمان هما حمزة بن عبد المطلب وعمر بن
 الخطاب (٢) وقد كانا معروفين بالقوة والصلابة فعزَّ بهما الإسلام واشتد
 الأمل في انتصاره ، وسنكلم عن ظروف إسلام عمر في « فاسفة الدعوة

(١) ابن عبد البر : الدرر من ٤٨ والآيات من سورة الملق : ٩ - ١٩ .

(٢) ابن هشام ١ : ٣٢٦ .

الإسلامية ، ولكننا هنا نقرر أنه كان لإسلام عمر وحمزة رد فعل قوى عند قريش ، فقد أدركت أن مسألة محمد ستؤدي إلى انتصار منه ما دام هذا الدين قد بدأ يجذب له الأقوياء الأشداء من أمثال حمزة وعمر ، وأدركت كذلك أن العدوان على المسلمين قد يؤدي إلى حرب داخلية ، فإن عمر وحمزة لا يصبران على الضيم ، وبخاصة أن إسلام حمزة ارتبط بعدوان أبي جهل على الرسول ، فغضب حمزة لذلك وأعلن إسلامه ، وقصد أبا جهل وشجّه وهدد بالانتقام من أى عدوان .

ومن أجل هذا اتجهت قريش وجهة جديدة طابعها المفاوضة لرغبتها في أن يتم القضاء على محمد دون إثارة بنى عبد المطلب ، فأخذوا يترددون على أبي طالب يطلبون إليه أن بسكت ابن أخيه الذى يسب دينهم ويحقر آلهتهم ، ولكن هذه الخطوة لم تأت بباطل ، وحينئذ خطت قريش خطوة أخرى فيها شدة وتهديد فقد ذهبت وفودهم إلى أبي طالب وصاحت فيه :

يا أبا طالب ، إن لك سناً وشرفاً ومنزلةً فينا ، وإنا قد استبينناك من ابن أخيك فلم تنه عنا ، وإنا والله لن نعبر على شتم آبائنا ونسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا ، فإما أن تكفه عنا وإما أن ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين^(١) .

ولم يفد التهديد بشيء فخطوا خطوة ثالثة هي أنهم ساروموا أيا طالب وأرادوا أن يعطوه عمارة بن الوليد بن المغيرة ويأخذوا محمداً ليقتلوه ، وقالوا في ذلك لأبي طالب : إن عمارة أنهد فتى في قريش ، وأجل شباب العرب ، فخذ ، فلك عقله ونصره واتخذك ولدك وأعطانا محمد . وسخر منهم أبو طالب ، وقال : بش ما تساوموننى ؛ أتعطوننى ابنكم أغدوه لكم وأعطيكُم ابني تقتلونه ؟^(٢) .

(١) ابن هشام ج ١ ص ١٧٠ .

(٢) المرجع السابق ص ١٧٠ .

مقاطعة بني هاشم :

وانتقل العداء خطوة جديدة ، فقد أدركت قريش أن قوة محمد مصدرها أهله الذين يحمونه ويدافعون عنه ، سواء منهم من اتبع دينه أو من بقى على دين آبائه وأجداده ؛ ولهذا عازمت قريش على محاصرة بني هاشم جميعاً ، ورغبة عن الحرب وما تجره من ويلات انجھوا في مقاومتهم لبني هاشم انجھاً سليماً ولكنه عنيف ، فاجتمعت قريش وكتبت صحيفة قررت فيها مقاطعة بني هاشم فلاitzوجون منهم ولايزوجونهم . ولايبعون لهم ولايشترون منهم ، ولابكلمونهم ، ولايزورون مرضاهم ولايشيعون موتاهم ، وأكروهم أن يلزموا الشَّعب وهو طريق بين جبلين . . وقد كانت هذه المقاطعة قاسية جداً على بني هاشم ، منهم بسببها الضر بل الجوع والحرمان ، وقد استمرت حوالى ثلاث سنوات ، ولم تنفض إلا بعد أن أشفق بعض القرشيين على بني هاشم بسبب مانالهم من أذى وعذاب فزقوا هذه الوثيقة وعادوا إلى الاتصال بهم (١) .

وكان أبو طالب شديد الرعاية للرسول صلى الله عليه وسلم طيلة مدة بني هاشم في الشعب ، فكان يأمر الرسول أن ينام في فراشه الخاص أول الليل حتى يراه الناس وقد أوى إلى هذا الفراش ، فإذا نام الناس أمر أبو طالب أحد بنيه أو إخوته أو بني عمه فأخذ مكان الرسول ، وأمر رسول الله أن ينتقل إلى فرشهم فيرقد فيها ، وذلك ليضلل أعداء الرسول الذين قد يتجهون إلى العدوان على الرسول صلوات الله عليه .

وما يذكر عن نهاية الصحيفة أن الله بعث عليها الأرضة فلحست كل

(١) ابن هشام ١ : ١١٠ .

(٢) ابن هشام ١ : ٢٣١ وابن القيم ٢ : ٤٦ .

ما كان فيها من عهد لهم وميثاق ، ولحست اسم الله عز وجل ، ولم تترك فيها إلا كلمات الظلم والشرك والقطيعة ، وهناك رواية مضادة ترى أن الأرضة أتت على كل شيء ، ولم تدع إلا اسم الله جل وعلا ، وقد أوحى الله لمحمد بذلك ، فنقل ذلك إلى عمه أبي طالب ، فتحدى أبو طالب جماعة المشركين ، وأحضروا الصحيفة فظهر صدق محمد ، ومع هذا اعتبروا ذلك معزاً وزاد بغيتهم وعدوانهم .

ولكن كان بين المشركين نفر عارضوا المقاطعة ومشوا في نقض الصحيفة ، ومن هؤلاء هشام بن عمرو بن الحارث وهو كاتب الصحيفة ، وأبو البختري العاص بن هشام والمطعم بن عدي ، وزهير بن أبي أمية وأمه عاتكة بنت عبد المطلب عمه رسول الله ، وزمعة بن الأسود^(١) .

وكان أبو جهل من أحرص الناس على النيل من المسلمين وحرمانهم ويروى ابن هشام^(٢) أن أبا جهل لقي حكيم بن حزام بن خويلد ومعه غلام يحمل قمحاً إلى خديجة بنت خويلد زوجة الرسول وعمه حكيم فتعلق به أبو جهل وقال : أتذهب بالطعام إلى بني هاشم ، والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفصحك بمكة ، فجاءه أبو البختري وقال له : مالك وله ؟ إنه طعام كان لعمته عنده رغبت إليه فيه ، فكيف تمنعه ؟ فأبى أبو جهل ، وقام نزاع كان من أسباب إغفال الصحيفة ونهاية المقاطعة .

وأبو جهل الذي كان شديداً في غيبة محمد ، كان يهاب محمداً ويحس بالرهبة أمامه ، يروى ابن هشام أن رجلاً من إراش باع لإبلا له إلى أبي جهل بشئ مؤجل ، فلما طالبه الإراشي بالثمن مطله أبو جهل وذهب الإراشي إلى حشد من الناس حول الكعبة وقال لهم : يامعشر قريش ، ما من رجل يؤديني ديناً على أبي الحكم بن هشام ، فلاني رجل غريب وقد غلبني على حتى ؟ فرأى أحد الجالسين

(١) ابن عبد البر : القدر : مقتبسات من ص ٥٧ - ص ٦٠

(٢) السيرة النبوية : ج ٢ ص ٥٠ .

أن يهزأ برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان الرسول يجلس في ناحية بعيدة عن القوم ، فقال للأراشي : رأيت هذا الجالس هناك ؟ إنه هو الذي يستطيع أن يأخذ لك حقك من أبي جهل .

وصدق الأراشي كلام القرشي ، وذهب إلى الرسول وقص عليه الخبر ، قال الرسول للرجل : انطلق معي إليه ، وذهبا معاً تجاه منزل أبي جهل .

وأراد القرشيون أن يعرفوا ماسيتم عليه الأمر . فألحقوا بالرسول والأراشي رجلاً منهم لينقل لهم خبر ماسيتم من أحداث . وعاد الرجل ليقول لقريش كلاماً عجباً ، فقد دق الرسول باب أبي جهل ورد أبو جهل سائلاً من الذي يدق الباب ؟ فقال الرسول : أنا محمد إخرجني إلى فخرج أبو جهل وقد امتنع لونه ، وما في وجهه قطرة من دم ، فقال له الرسول : أعط هذا الرجل حقه . قال أبو جهل : نعم في التو والساعة ، ودخل وعاد ومعه ثمن الإبل للأراشي .

وسرعان ما جاء أبو جهل إلى الكعبة ، فقال له المشركون : ويحك ماذا حدث لك ؟ قال : ويحكم أتم . والله ما هو إلا أن ضرب بابي وسمعت صوته حتى ملئت رعباً ، ولما خرجت إليه وجدت كأن فوق رأسه قرة هائلة أرعبتني ، وأحسست أنني نرايت هلكتي . فعجب القوم من شأن أبي جهل وشأن محمد (١)

وفاة أبي طالب وخديجة :

وفي السنة العاشرة للدعوة فقد الرسول أعظم اثنين ساعدها وكانا له قوة وملاذاً في نضاله لنشر الإسلام ، هما أبو طالب وخديجة ، وكانت خديجة أول من أسلم من النساء ، وكانت تشد عضد الرسول بقوة شخصيتها وبما لها وجاهاها وحسن معاملتها ، أما أبو طالب فقد كان درعاً يقي الرسول ويحميه بقوة وصلابة ، ومما أثر عنه قوله :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا

وقد مات أبو طالب وله سبع وثمانون سنة ، وأغلب المؤرخين يرون أنه مات دون أن يدخل الإسلام ، ولكن أثر عن العباس أنه سمع أبا طالب وهو على فراش الموت يقول شعراً جاء فيه :

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية ديناً

ومثل هذا الشعر يجعل بعض الباحثين يرى أن أبا طالب دخل في دين محمد وإن لم يعان ذلك . وكانت المدة بين موت أبي طالب وخديجة ثلاثة أيام فقط كما ذكر ذلك ابن القيم (١) .

حالة الرسول بعد أبي طالب وخديجة :

وبموت أبي طالب ومن بعده خديجة تعرض الرسول لأهوال جسام من قريش ، يقول ابن اسحق (٢) : ولما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى ما لم تكن تنال منه في حياة عمه أبي طالب ، وكان أشد قريش عداً للرسول أبو لهب عمه ، والحكيم بن العاص ، وعقبة

(١) زاد المادج ٢ ص ٤٦ .

(٢) ابن هشام ١ : ١٦٠ .

ابن أبي معيط ، فإنهم كانوا جيران الرسول وكانوا يؤذونه بما يلقون عليه وقت صلاته وفي طعامه من قاذورات .

وكانت زوجة أبي لهب أكبر عون لزوجها في إيذاء الرسول ووضع الأشواك ليلاً على بابه حتى تؤذيه إذا خرج مبكراً للصلاة كعادته ، وقد ذكر القرآن الكريم قصتها في سورة خاصة هي سورة المسد (وقد سبق إيرادها) .

وكثيراً ما كانوا يضعون القاذورات عليه وهو يصلي في المسجد ، وقد خنقه بعضهم مرة ، وأوشكوا على قتله ، لولا أن دخل أبو بكر وصاح فيهم وهو يخلصه (أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله) (١) .

وكان الرسول يعلم أصحابه مرة في المسجد ، فاغتاضت قريش وأوسعومهم ضرباً وإيذاء ، وكان نصيب الرسول وأبي بكر من هذا الضرب شديداً قاسياً .

الدعوة للإسلام بعد موت أبي طالب

دعوة أهل الطائف :

أدرك الرسول أن لامقام له بمكة بعد موت أبي طالب وخديجة ، وبعد إسراف المشركين في إيذائه إسرافاً بعيداً عن الكرامة والإنسانية ، وبعيداً عن الخلق الكريم ، فوضع خطته لنشر الإسلام خارج مكة ، لعله يجد مركزاً آخر يطيب له المقام فيه ، فبدأ بزيارة بعض القبائل وعرض نفسه ومبادئ الدين الجديد على أهلها ، وطالما لقي الرسول عناء في هذه الرحلة أيضاً ، وطالما سمع أهل هذه البلاد يقولون : لو كان في دعوته خير لتقبلها أهلها وذووه ، ومن أشق المواقف التي تعرض لها الرسول ومسسه فيها الأذى ما يذكره التاريخ من أنه ﷺ انجه إلى الطائف ودعا فريقاً من أشرفائها (٢) إلى وحدانية

(١) سورة غافر الآية ١٢ .

(٢) يقول ابن هشام (٢ : ٢٨٥) إنهم دعوة ثلاثة من ثقيف هم عبد ياليل بن عمرو

ومسمود بن عمرو وسبيب بن عمرو .

الله ؛ ولكنهم لم يستجيبوا له ولم يردوه رداً كريماً ، فقد كانت هناك علاقات ود وجوار بين أهل الطائف وبين قريش ، وكان كثير من أغنياء قريش يمتلكون حدائق بالطائف ، وكانت مكة موطن الكعبة حيث يقدحجاج الطائف كل عام فيجدون من قريش كل ترحيب وتكريم ، ولهذا تقرب أهل الطائف لقريش بإيذاء محمد ، فأغروا به أحداً منهم وسفهاءهم يسبون ويصيحون به ويرمون بالحجارة (١) ، ولكن الرسول لم يأس وسط هذه الأزمة القاسية وأخذ يهتف : رباه ، إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي (٢)

وفي رحلتي إلى الأرض المقدسة زرت مدينة الطائف ، وأدركت لأول مرة العناء الضخم الذي لحق بالرسول في هذه الرحلة ، فالطائف تبعد عن مكة بحوالي خمسة وعشرين كيلو متراً ، والطريق كله صعود متصل إذ تقع الطائف على ارتفاع شاهق بالنسبة لمكة ، مما يجعل هذه الرحلة شاقة على السيارات والآلات حتى بعد تمهيد الطريق ورصفه ، يا الله ! كيف قطع محمد هذا الطريق الصاعد الوعر الموحش ؟ ولكن العقيدة يهون دونها كل جهد وعناء .

وفي الطائف التي وصلها الرسول بعد جهد طويل قابل عليه السلام جماعات الساعرين والمتهمين الذين أشرنا إليهم ، ثم كان هدفاً للسفهاء والصبيبة الذين أمطروه بوابل من الحجارة ووابل من سقط القول وفحشه ، وكان النبي الكريم يتوارى من أذاهم وعدوانهم ، وتراجع الصبيبة بعد أن غادر الرسول منازل الطائف ، وكان العناء قد مس الرسول فلجأ إلى حائط (حديقة) لعتبة وشيبة ابني ربيعة (٣) وألقى بكوعه على كوة صغيرة بالسور ، وراه غلام اسمه عداس وهو في هذه الحال ، فأشفق عليه ، وحمل له بعض أعناب من الحديقة ، فتقبلها الرسول ، ودعا له وحادثه ودعاه إلى الإسلام فلخل عداس الإسلام .

(١) ابن هشام ١ : ٢٦٠ .

(٢) ابن القيم : زاد الماد ٢ : ٨٦ .

(٣) ابن هشام ٢ : ٢٨٥ .

وفي هذا المكان بُنِيَ مسجد يسمى مسجد الكوع ، وقد زرته ورأيت
الشيوخ يتذكرون هذه الأحداث التي يتوارثها جيل عن جيل .

دعوة الحجيج :

اتجه الرسول بعد الطائف إلى دعوة الحجيج ، فأخذ يقابل وفود العرب
القادمة من هنا ومن هناك . ويعرض نفسه عليهم ، ويشرح لهم دعوته
ومبادئ الدين الجديد^(١) وكانت هذه اللقاءات تتم بمجئة وعكاظ ومنى^(٢) ،
وخدمت قريش الدعوة من حيث لا تدرى ، إذ أرسلت وفودها إلى جماعات
الحجيج تحذرهم من دعوة محمد ، وترميه بالجنون والسحر وغيرها من الصفات
الندمية ، وتدّخل قريش هذا جعل جماعات الحجيج يتوقون إلى رؤية محمد
ليشاهدوا بأنفسهم صاحب هذه الدعوة الجديدة ، وليحققوا مقدار صدق
قريش فيما تدّيع ، وهكذا بدّل أن يسعى محمد للناس أصبح الناس يسعون
إليه سرّاً وعلانية ، لقد كانوا يسعون ليروا المجنون فإذا بهم يجدونه أرشد
الناس عقلاً ، وليروا الساحر فإذا به بعيد عن السحر والشعوذة ، وسمع
الناس وبخاصة أهل يثرب القرآن واستمعوا إلى آراء محمد ودعوته ودينه
وفلسفته فأحبوه ، وبدأ الأمل يظهر ، وبدأت الدعوة تنتشر ، وكان
لإعجاز القرآن وفلسفة الدعوة أهم الأسس التي جذبت الناس لدين الإسلام ،
وستكلم فيما بعد عن هذين الموضوعين .

(١) ابن هشام ج ١ ص ٢٦٣ .

(٢) الطبقات ج ١ ص ٢٠٧ .

الإسراء والمعراج

في هذا الوقت أي قبل الهجرة بعام^(١) ، تمّ الإسراء والمعراج وشهدت مكة يوماً من أيامها العاصفة ، إذ أصبح محمد صلى الله عليه وسلم يحدث الناس بأنه أسرى به إلى المسجد الأقصى ، ثم عُرِج به إلى السماء وعاد من ليلته ، وقد فرحت قريش بما قاله محمد ، وظنت أن ذلك دليل باهر على كذبه ، وأن هذه المبالغة التي ترى قريش أنها تجاوزت الحد يمكن أن تكون سبباً ينفض أصحاب محمد منه ، ويمكن كذلك أن تكون سبباً يرد المترددين عن التفكير في متابعة محمد والتسليم بدينه :

ومرعان ماخاب ظن قريش ، فقد سعت وفودهم مسرعة إلى أبي بكر لتقول له : أنصدق يا أبا بكر ما يقوله محمد من أنه أسرى به إلى بيت المقدس وعرج به إلى السماء ثم عاد من ليلته ؟ قال أبو بكر في يقين أذهل القوم : إن كان محمد قال ذلك ، لقد صدق ، قالوا : أتصدقه يا أبا بكر على ذلك ؟ قال : لقد صدقته على أكثر من ذلك ، على الوحي له من السماء^(٢) . وانهارت آمال قريش عند أبي بكر وعند المسلمين ، ومع هذا فقد اتخذت قريش الإسراء والمعراج وسيلة للتشنيع على محمد ورميه بأقسى الصفات ولكن هذا التشنيع لم ينتج إلا اهتمام الناس بمحمد وبمحاولة التعرف إليه والتحقق من أخلاقه والاستماع لما يقوله بشأن الدين الجديد . وبهرت الكثيرين منهم الآيات الكريمة التي سجلت الإسراء والمعراج بما فيها من بلاغة ساحرة وقوة عظيمة قال تعالى (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا ، إنه هو السميع البصير)^(٣) .

(١) زاد المعاد ٢ : ٤٩ .

(٢) ابن هشام ج ١ ص ٢٤٦ .

(٣) سورة الإسراء الآية الأولى .

وقال : (والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ؛ إن هو إلا وحى يوحى ، علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى ؛ ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفئارونه على ما يرى ، ولقد رآه نزلة أخرى ، عند مدرة المتهى ، عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى ، مازاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى) (١) .

والإسراء والمعراج من أهم الأحداث التي شهدها الإسلام ، ولا يزال المسلمون حتى اليوم يحتفلون بهذه المناسبة ، ويعيدون الإسراء والمعراج منحة من الله لرسول الإسلام جديرة بالثناء والتقدير ، وقد حدث الإسراء والمعراج فيما أرى بالروح والجسد كما سنبهرن فيما بعد ، ولكن هذا الحدث كان مجالا تعرض أكثر من سواء للحدس والادعاء ووضع الروايات ، ذلك لأنه حدث غير عادى لا يخضع لماديات الحياة ، فراح أعداء الإسلام وراح بعض المسلمين يخضعونه للمادة ، ويصورونه صورة لا تتفق مع جلال هذا الحدث ومع طبيعته .

ما الصورة التي يرويها هؤلاء عن الإسراء والمعراج ؟

إن الصورة تشمل النقاط التالية :

١ - ركب الرسول براقاً تصفه الرواية بأنه حيوان فوق الحمار وتحت الحصان ، وأنه يضع رجله عند نهاية بصره .

٢ - فى بيت المقدس صلى الرسول بالأنبياء ركعتين .

٣ - صعد الرسول ومعه جبريل إلى السماء ، ووقف أمام كل سماء ليدق جبريل الباب ، ويسأله الملاك الواقف بالباب : من أنت ؟ ومن معك ؟ أو بُعِثَ محمد ؟ وهل أذن له ؟ وبعد الإجابة يفتح الباب لهما ويسيران إلى الباب التالى وهكذا . . .

٤ - بعد السموات السبع توقف جبريل وطلب من الرسول أن يتقدم هو ، لأن جبريل لا يستطيع أن يتقدم أكثر من ذلك .

٥ - فُرضت الصلاة على المسلمين خمسين صلاة في اليوم والليلة ، ولكن في عودة محمد احتبسه موسى في السماء السابعة ، وسأله عما فُرض عليه وعلى أمته ، فأعلمه الرسول ، فقال له موسى : أمتك لا تقوى على ذلك ، ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فعاد محمد ، فجعلها الله خمساً وأربعين ثم أعاده موسى مرة ثانية وثالثة ورابعة وفي كل مرة تنقص خمساً إلى أن صارت خمس صلوات وقد حاول موسى أن يعبد الرسول مرة أخرى بعد ذلك ، ولكن الرسول أجابه بأنني أخجل من ربي أن أعود بعد ذلك ، وفي رواية أنه هاد فعلاً ولكن الله قال له : لا تبدّل القول لدى وثبّتها خمساً .

ما المصدر الذي اعتمدت عليه هذه الرواية ؟

إن المصدر يتمثل في أحاديث وردت في كتب الصحاح ، وقد كانت هذه الأحاديث موضع دراسة للمفكرين المسلمين في مختلف العصور ، وبخاصة أن بها ما يتعارض مع الفكر الإسلامي الثابت كتحديد مكان الله ، والله لا مكان له ، وكوضع موسى في موضع المعلم لمحمد . . .

ومن الذين تدارسوا هذه الأحاديث ابن كثير ، وقد وصف بعض ما ورد من أحاديث حول الإسراء والمعراج بالاضطراب ، وحدد ما ينبغي أن يعتقده المسلم وما ينبغي أن يتركه :

وفيما يلي كلمات ابن كثير :

وإذا حصل الوقوف على هذه الأحاديث صحيحها وحسنها

وضعيفها ، يحصل مضمون ما اتفقت عليه ، والحق أنه عليه السلام أسرى به من مكة الى بيت المقدس ، وهناك صلى ركعتين ثم عُرِجَ به الى السماء ، وفرض الله عليه الصلوات خمسين ثم خففها الى خمس رحمة منه ولطفًا بعباده . وذلك القدر هو ما ينبغي أن يقتنع به المسلم ويستبعد ما سواه (١) .

واعتمادى أن رأى ابن كثير هو أحكم الآراء حول الإسراء والمعراج ، وينبغي أن يتمسك به المسلم ، وأن يستبعد ما عداه مما ذكر حول هذا الحادث العظيم .

وواضح أن كلام ابن كثير يقرر ما يلى :

- ١ - الإسراء تمّ من مكة إلى بيت المقدس دون ذكر الوسيلة ؟
- ٢ - صلى الرسول ركعتين بدون ذكر أنه أمّ الأنبياء .
- ٣ - عُرِجَ به إلى السماء بدون حاجة إلى دق باب ووقوف أمام الأبواب .
- ٤ - فرض الله عليه الصلاة خمسين ثم خففها إلى خمس تفضلاً منه بدون وساطة موسى عليه السلام وبدون تعدد للذهاب والعودة .
- ٥ - يقرر ابن كثير ضرورة استبعاد ما سوى ذلك وضرورة تركه تماماً وهذا هو ما نراه .

ومن العلماء الثقات المعاصرين الذين تدارسوا أحاديث الإسراء والمعراج فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجليل عيسى عضو مجمع البحوث الإسلامية ، وقد ذكر أن أحاديث الإسراء والمعراج وردت في البخارى في سبع روايات مختلفة في تحديد زمان الإسراء والمعراج ، وفي تحديد المكان الذى بدأ منه الإسراء ، وفي تحديد الطريقة ، واختلاف الروايات في حديث

ما على هذا النمط ينفي عنه - عند علماء الحديث - صفة الحديث الصحيح والحسن .

وسنعود فيما بعد لننقل كلام الشيخ عبد الجليل عيسى كله .

ولما كانت الأحاديث المرتبطة بهذا الموضوع موضع شك العلماء والباحثين ، وتحالف ما هو معلوم من الدين بالضرورة كالمكانبة بالنسبة لله ، فإن من الواجب أن نلجأ لكتاب الله ليكون رائدنا في هذا الموضوع .

وسأحاول هنا - راجياً من الله التوفيق - أن أصور الإسراء والمعراج في الصورة التي أراها سليمة أخذاً من أدق الروايات وأتقن الاتجاهات .

١ - وأول موضوع تناقشه هو ذلك الموضوع الذي يثار دائماً في هذه المناقشة وهو : هل كان الإسراء والمعراج بالروح والجسد أو بالروح وحدها ؟

والذي أراه أن المسلم الذي تلقى القرآن وآمن به لا يجوز أن يردد في أن الإسراء والمعراج حدثا بالروح والجسد جميعاً ، ففي القرآن الكريم آيات تصور حدثنا قريب الشبه بالإسراء ، قال تعالى :

(أَيْكُمْ يَأْتِينِي بَعْرُشَهَا قَبْلَ أَنْ يُوْتُونِي مُسْلِمِينَ ؛ قَالَ عَفْرَيْتُ مِنَ الْجَنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِي أَمِينٌ . وَقَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ . فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِي رَبِّي . .)^(١) .

فهذه الآيات تقرر أن عرش بلقيس نُقِلَ هذه المسافة الطويلة من اليمن إلى فلسطين في لمح البصر وقبل ارتداد الطرف ، فإذا كنا قد آمنا بذلك فينبغي أن نؤمن بإيماناً كاملاً بنقل سيدنا رسول الله إلى حيث شاء الله دون اعتبار للمادة أو مقياس الزمان والمكان ؟

وربما تعرض بعض الناس إلى العقل ، وأرادوا أن يقيسوا هذا الحدث بما يعرفون من مقاييس عقلية ، ونحب - في إيجاز - أن نذكر هؤلاء الذين يتكلمون عن العقل بضعف عقولهم ، فالغالبية العظمى من الملايين الذين يحملون الساعات لا يعرفون كيف تعمل هذه الساعات ، والغالبية العظمى الذين يمتلكون المذياع أو التليفزيون لا يعرفون كيف ينقل المذياع الأصوات عبر القارات والمحيطات ، ولا كيف ينقل التليفزيون الصورة والصوت ، والغالبية العظمى من الناس لا يعرفون كيف يتكلمون أو كيف يفكرون ، وطالما ضعف العقل عن فهم فكرة واستطاعت عقول أخرى أن تفهمها ، ولهذا فنحن نهيب بالناس ألا يغتروا بعقولهم التي تقصر عن إدراك الأحداث المتكررة التي يفهمها الآخرون ، فبايهم يتعرضون لما هو أسمى من العقل البشري من أحداث ؟

٢ - وننتقل إلى نقطة ثانية : إلى الآيات الكريمة التي سبق إيرادها من سورة الإسراء وسورة النجم لنقف قليلاً عند بعض كلماتها ، فهذه الكلمات لها مدلولات يتحتم التعرف عليها ؛ فعن الإسراء يقول الله تعالى :

سبحان : مَطْلَعٌ يَدُلُّ عَلَى التَّزْوِيهِ وَعَلَى أَنَّ مَا سِيرَ دَعْدُهُ جَلِيلُ الشَّأْنِ عَظِيمِ الْخَطَرِ .

الذي أسرى	} بعباده لبلا	الليل فيه هدوء وصفاء ويغلب أن تقع به الأحداث الكبرى ،
بعباده لبلا		وقوله تعالى « بعبده » إبعاد لأية محاولة لتأليه محمد كما
		حصل لبعض الأنبياء قبله عندما منحهم الله قدرات عظيمة ،
		فليس محمد - مع خصوصية الإسراء والمعراج - إلا عبداً لله .
من المسجد	} الحرم إلى	المراد مكان السجود ، فالرسول كان يصلي عند الكعبة وصلى
الحرم إلى		كذلك بيت المقدس ، أو المراد ما سيكون ، لأن في علم الله أنه
المسجد الأقصى		سيكون بمكة مسجد حرام وبيت المقدس مسجد أقصى ، أو
		المراد من مكة إلى بيت المقدس ، باعتبار مكة كلها حراماً .
الذي باركنا	} حوله	ليست البركة خاصة به فقط . إنما تشمل ما حوله ، وللعلماء
حوله		كلام كثير في مدى هذه البركة ونوعها .

لنريه من آياتنا } السرى نفسه آية كبرى ، والتعرف على جلال الله وعلى صور من عظمته آية عظيمة أيضا .
وآيات سورة النجم التى تشير إلى المعراج هى .

يقول المفسرون إن المعنى : وما ينطق بقرآن قط } وما ينطق عن الهوى
من هنده ، ويقول ابن كثير إن المعنى : ما يقول شيئاً عن هوى وغرض .

هو أى القرآن ؛ فالقرآن كله وحى من الله بدون شك ، ويقول ابن كثير إن الرسول يبلغ ما أمير به كاملاً موفوراً من غير زيادة ولا نقصان ، وروى عن الرسول قوله : ما أخبرتكم أنه من عند الله فهو الذى لا شك فيه . } إن هو إلا وحى يوحى

علمه شديد القوى : نقله له جبريل وهو شديد القوى .

ثم دنا فعدلى فكان } قرب جبريل من الرسول عليه السلام .
قاب قوسين أو أدنى

فأوحى إلى عبده : فأوحى جبريل إلى عبد الله أى محمد .

ما أوحى : شيئاً عظيماً يستحق الإعجاب .

ولقد رآه نزلة أخرى } لقاء آخر تم بين جبريل وبين سيدنا رسول الله فى السموات العلى عند سدره المنتهى ، ولهذا روى أن الرسول رأى جبريل على صورته عند سدره المنتهى } الطبيعية مرتين وهذا التفسير هو ما نميل إليه .

إذ يغشى السدرة ما يغشى : إشارة إلى نجلسى الله سبحانه على المكان .

ما زاغ البصر وما طغى : لم يتجاوز البصر حدوده المرسومة له .

لقد رأى من آيات ربه الكبرى : لقد رأى العجائب فى هذه المناسبة ويمكن أن نفترض أن الرسول صلوات الله عليه

قد رأى الأرض كرة ، ورأى القمر معنا بعكس ضوء
الشمس ، وأن هناك مجموعات شمسية أخرى ، ولكن
الباحثين الأقدمين انجذبوا إلى عبارات الوعظ ؛ ورووا
في ذلك أحاديث تذكر أن زرعاً ينمو بسرعة كناية عن
الخير والبركة ، وأن رجلاً يسيل منه الصديد لأنه يكثر من
للغية والنجمة

ويتجه البعض إلى أن الرسول رأى الله جل جلاله . ويروى ابن كثير
أن الرسول مثل عن ذلك فقال: رأيت نوراً ، وفي رواية : رأيتته بفؤادي ،
وتقول السيدة عائشة رضي الله عنها: لم ير الرسول ربه وإنما رأى جبريل
فقط ، وتؤكد أن رؤية الله غير ممكنة لقوله تعالى :

— لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار (١) .

— وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب (٢) .

٣- ونقطة ثالثة هي البراق الذي تقول الرواية إن الرسول انتقل بواسطته ،
وقد وصفه الرواة بأنه حيوان فوق الخمار وتحت الحصان وأنه يضع رجله
عند نهاية بصره وهكذا . . . ، وإن أهيى بالباحثين أن يستبعدوا فكرهم
المادى وهم يتدارسون هذه الأمور التي لا تخضع لقوانين المادة ، وليتذكر
الباحثون أن عرش بلقيس نُقِلَ في أقل من لمح البصر ، فلماذا يحتاجون إلى
حيوان كالبراق ؟ بل يتأدون في الحديث عنه فيرون أن جبريل عقب
الوصول إلى بيت المقدس عمد إلى حجر هناك فغزه بأصبعه فثقبه ، ثم
ربط البراق فيه ، واعتقادي أن هذه الروايات موضوعة تأثراً بماديات
الحياة ، ومن الخير أن نعتقد أن الرسول نقل إلى حيث أراد الله بمثل الوسيلة
التي نقل بها عرش بلقيس أو بوسيلة أشرف منها تناسب أشرف الأنبياء .

والله سبحانه يطوى السماء والأرض « يوم نظوى السماء كطى السجل للكتب » (١) ومن الممكن أن يطوى الله الأرض فيصبح بيت المقدس متصلاً بمكة ، ويخطو محمد خطوة واحدة ، ثم تعود الأرض إلى وضعها الطبيعي فيصبح الرسول ببيت المقدس ، والمهم أن وسائل الله سبحانه وتعالى كثيرة لنقل محمد من مكة إلى بيت المقدس في لحظة من الزمان .

٤ - ونقطة رابعة نعرضها أيضاً هي ما يروى عن قصة صعود سيدنا رسول الله مع جبريل إلى السموات العلى ، فالرواية تصور هذا الحادث الجليل تصويراً مادياً محضاً ، وتتصور السماء سقفاً كسقف البيت ، وترى أن جبريل استفتح الباب ، فسئل من الذى يستفتح الباب ؟ فأجاب : أنا جبريل فسئل مرة أخرى : ومن معك ؟ فأجاب : محمد . فسئل ثالثاً : هل أذن له ؟ فأجاب نعم ، وهكذا يقف عند كل سماء على هذا النمط حتى يصل إلى مكان لا يستطيع جبريل أن يتقدم إليه ، فيقول جبريل لمحمد : تقدم أنت ، أما أنا فليس لى أن أتقدم خطوة واحدة بعد ذلك

وهذا التصوير مادى محض يؤخذ عليه ما يلى :

أولاً : ليست هناك أبواب صلبة تُدَقُّ .

ثانياً : إذا فرض وكانت هناك أبواب فإن الحواجز لا تمنع الملائكة من الرؤيا أو النفاذ ، فلا معنى لقول الملاك الواقف بالباب مَنْ الذى يَدُق الباب أو من الذى يستفتح ؟

ثالثاً : جبريل يروح ويغدو بالوحى منذ مطلع البشرية ، فهو بالتأكيـد معروف لكل الملائكة ، وهل يوقف أمام الباب كل مرة ؟

رابعاً : السؤال الثانى وهو « من معك » يفهم منه أن الملاك يرى أن شخصاً مع جبريل ، فلماذا لم ير جبريل ؟ وقد أخطأ واضح الحديث وكان عليه أن يقول : هل معك أحد ؟ ولو فعل ذلك لرددناه أيضاً .

وعلى كل حال فإنه عندما يُطلب سيدنا رسول الله لهذا اللقاء السامى فلا بد أن تكون الأوامر قد صدرت لكل من بالطريق لىبىء السبيل لهذا اللقاء ، ولا يقف محمد بهذا النمط الذى تصوره الرواية .

ثم إن الرواية تصور الله جل وعلا كأنه هناك فى مكان يسمى له محمد مع أن القرآن الكريم يقول (وسمع كرسيه السموات والأرض)^(١) ويقول « إني قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان »^(٢) ، ويقول « ما يكون من نجوى ثلاثة إلهو رابعهم ، ولا خمسة إلهو سادسهم »^(٣) ويقول علماء التوحيد إن الله فى كل مكان أو ينزّهونه جل وعلا عن المكان فيقولون إن الله ليس له مكان وعلى هذا فالصورة السابقة مرودودة تماماً بنص القرآن وبحكم الفكر الإسلامى .

والقرآن الكريم يوضح أن القمر فى السموات قال تعالى . (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً ، وجعل القمر فىهن نوراً)^(٤) .

وقال : (تبارك الذى جعل فى السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقرراً منيراً)^(٥) .

وقد استطاع الرواد الأمريكيون أن يصلوا إلى القمر وأن يهبطوا عليه ، وإننا نتساءل هل وقفوا بسنفتحون أبواب السماء ، ومن الذى فتحها لهم ؟

٥ - ونقطة خامسة جديدة بالذكر هى فرض الصلوات الخمس ، والرواية فى هذا الموضوع مادية للغاية فى تقديرى ، فهى تصور موسى فى السماء السادسة أو السابعة ، وتصوره يسأل محمداً ، ماذا فرض الله عليك وعلى أمتك ؟

(١) سورة البقرة الآية ١٨٦ .

(٢) سورة المجادلة الآية السابقة .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٥٥ .

(٤) سورة نوح : الآيتان ١٥ - ١٦ . (٥) سورة الفرقان : الآية ٦١ .

فيقول : خمسون صلاة في اليوم واليلة . فيقول له موسى : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف . ويستجيب محمد ويعود مرة أخرى وثالثة ورابعة . . على مامر ذكره .

واعتقادی أن هذه القصة من الإسرائيليات التي ترمى إلى وضع موسى في موضع المعلم لمحمد، وصاحب الفضل على المسلمين، وكأناه أعترف بأمة محمد من محمد ، وقد تسربت رائحة الإسرائيليات من الروايات المتصلة بهذا الموضوع ، فقد جعلت بعض الروايات موسى في السماء السابعة وجعلته يقول عندما رأى محمداً يتخطى السماء السابعة إلى ما فوقها : رب لم أكن أظن أن ترفع على أحد ، ثم إن الروايات تقسوف تصوير اعتراض موسى لمحمد ليعود إلى ربه ، وعبارتها هي : عندما عاد محمد احتبسه موسى وهو تعبير لا يليق بسيدنا رسول الله .

وكم عانى المفكرون المسلمون من أشياء وضعها الوضع ، وتقبلها بعض المسلمين ، وراحوا يدافون عنها بحجاسة متصورين أن الشك في حديث واحد من أحاديث البخاري أو مسلم يسقط كل أحاديث البخاري أو أحاديث مسلم ، ولست أريد هنا أن أخوض في دراسة عن الحديث، ولكني وأنا أعرف أن حديث الغرائق والسحر وغيرهما وردت في هذه الكتب المهمة أقرآن هناك أحاديث موضوعة وجدت طريقها إلى البخاري أو مسلم ، ولكنها قليلة جداً ، والحكم بوضعها لا يمس من قريب أو بعيد باقي الأحاديث ، فوجود خطأ أو أخطاء محدودة في أي كتاب من الكتب لا يضيع من قيمته ، وكل كتاب يُحتمل فيه الخطأ والذات . إلا كتاب الله ، وليس من المعقول أن ترتفع بالبخاري ليصبح من العصمة في درجة تساوي القرآن .

وقد أدرك الإمام أبو حنيفة (١٥٠) في القرن الهجري الثاني أن هناك أحاديث موضوعة ، فبنى فقهه على القرآن الكريم وعلى الرأي . ولم يعتمد على الحديث لخوفه أن يكون موضوعاً ، وسمى مذهبه لذلك مذهب أهل الرأي ^(١) .

ومن العجيب أننا عندما نحاول أن نفند الإسرائيليات وننقّس منها الفكر الإسلامي يتصدى لنا بعض المسلمين الذين وضعوا أنفسهم حماة للإسرائيليات دون أن يشعروا ، واعتراضنا على القصة السابقة من عدة وجوه :

أولاً - أنها تصور الله سبحانه وتعالى - كوسى - في وضع مادي يمشى له محمد ويعود لموسى ثم يرجع إليه ، وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ثانياً - تصور الله تعالى على غير ما هو معروف عنه من وفرة المنح ومن الكرم العظيم ، ففي تصوره ينقص الخمسين إلى خمس وأربعين ثم ينقصها في جولة أخرى إلى أربعين ، ثم إلى خمس وثلاثين . . . ونحن نصرخ في وجهه من يقول هذا القول بأن كرم الله تصوّره آياته « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » (١) و (من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة) (٢) ولا يمكن - إلا في خيال مادي - أن تتم هذه الصورة ، تعالى الله عن ذلك

ثالثاً - أنها ترمى إلى وضع موسى في موضع المعلم لمحمد ، ومحمد خاتم الأنبياء وأفضلهم وإمامهم ، ومعلم البشرية والرسول الذي أرسل للناس جميعاً ، وكان عليه السلام حينذاك قد تجاوز الخمسين من عمره .

رابعاً - كيف يتصور العقل محمداً ذاهباً وعائداً عدة مرات ، بناء على طلب موسى ، والابن لا يطيع أباه إلى هذا المدى مهما كان في ذلك من خير إليه .

واعتقادي أن الصلوات فرضها الله من أول الأمر خمساً في العمل وخمسين في الأجر ، أو فرضها خمسين فاستعطفه سيدنا رسول الله فاستجاب الله إليه وجعلها خمساً في العمل وخمسين في الأجر .

٦ - ونقطة سادسة وأخيرة هي أن حدث الإسراء والمعراج لم يُتَّخذ معجزة

من معجزات محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأن دين الإسلام لا يتخذ الخوارق معجزات ، فهو دين لا يبنى على المعجزات التي تَشْدُهُ العقول وتفهم ، إنما معجزاته هادئة باقية كما وضحتها في كتابنا « الإسلام » من سلسلة مقارنة الأديان ، والدليل على اتجاه معجزات الإسلام هو قوله تعالى « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون » (١) ويقول الأستاذ العقاد في ذلك :
والنبي في الإسلام ليس بصاحب الخوارق والأعاجيب التي تشل العقول ؛ وتهول الضمائر ، وتخطب الناس من حيث يخافون ويعجزون .

ثم إن طبيعة المعجزة أن يظهر التحدى فيها ؛ كالعصا التي يلقها النبي فتصبح ثعباناً يلتقط الأفاعى ، وكإبراهيم الأكمه والأبرص ، وكالقرآن الكريم ، فهذه معجزات يقدمها الأنبياء دليلاً على صدقهم ، ويتحدون أن يأتي أحد بمثلها ، أما إذا قال محمد للمعارضين إنني أمري بي وعرج بي ، فما أسر أن يقولوا له : هذا كذب ولا نصدقك ، وعلى فرض أنه طار أمامهم وهم ينظرون إليه فإن ذلك لا يكفيهم ، فقد حكى القرآن الكريم عن قریش الوسائل التي اشترطوها ليؤمنوا به : قال تعالى على لسانهم « لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً ، أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً ، أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى في السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ، قل سبحان ربي ، هل كنت إلا بشراً رسولاً » (٢) .

فحتى الرقى في السماء لم يكن وحده عندهم كافياً للتصديق بل لابد أن يُنَزَّلَ من السماء كتاباً ليقرءوه .

(١) سورة الإسراء الآية ٥٩ .

(٢) سورة الإسراء الآيات ٩٠ - ٩٣ .

وعلى هذا فالإسراء والمعراج تكريم للرسول وليس من معجزاته ،
وستعود فيما بعد للحديث عن « مكرمات الرسول » ونفرد بين المكرمة
وبين المعجزة ؟

* * *

ومن الدروس المهمة المتصلة بالإسراء والمعراج أن الله سبحانه وتعالى
أنّاح للرسول عليه السلام بها فرصة أن يرى العوالم الكبرى ، فصغرت
بذلك مكة في نفسه ، وما بها من رجال وعتاد ، وماذا تكون مكة ومن
بها بالقياس إلى هذا العالم الفسيح ؟ وإلى صاحب القوة الجبارة التي صنعت
معجزة الإسراء والمعراج ؟

ومن هذه الدروس كذلك وَضَعَ المسلمين قبل الهجرة في بوتقة اختبار
لتنقيتهم من المترددين قبل أن يبدأ الشوط التالي الذي سيكون حافلا بالجهاد
والتضحية بالمال والأهل والوطن بعد الهجرة إلى المدينة .

وَيُعَدُّ الإسراء في التفكير الإسلامي من مكة - حيث بنى إبراهيم
الكعبة ، إلى بيت المقدس حيث دعوة موسى وزكريا ويحيى وعيسى - بمثابة رحلة
تربط بين عقائد التوحيد الكبرى من إبراهيم إلى محمد ، وبمباشرة إعلان
وراثته خاتم الرسل لمقدسات من سبقه من رسل الله ، وأن رسالته
مشملة على هذه المقدسات ، وهذا المعنى هو ما يحسه القارئ في قوله
تعالى (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك
وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى) (١) .

ومنذ ذلك التاريخ أحس المسلمون بأن فتح فلسطين ضرورة اقتضتها رعاية
الله وتوجيهه ، ليشرف المسلمون على مقدسات الماضي .

تعليق :

كتبت هذه الدراسة عن الإسراء والمعراج منذ حوالى ثمانى عشرة سنة أى فى سنة ١٩٦٣ تقريباً ، ولكنى للحق لم أستطع طبعها فى مكانها من هذا الكتاب إلا فى سنة ١٩٧٣ خوفاً من أولئك الذين يتصدون لكل عمل جديد بالهجوم أو الذين يرون فى القديم كل الخير ، ولا يجوز أن يتعمقوا فى الاطلاع ويُعملوا العقل لخدمة الإسلام والمسلمين .

وانخذتُ وسيلة غير الطباعة لنشر هذه الأفكار ، ومن أهمها وفود الشيوخ من الأئمة والوعاظ الذين تستقدم وزارة الأوقاف كل شهر مجموعة منهم بمعهد الدعاة ، وأشارك فى إلقاء المحاضرات عليهم ، وقدمت لهم هذه الأفكار مع ما قدمت ، فاستراحوا لها ، وقدمت هذه المعلومات كذلك فى محاضراتى العامة والخاصة فلقيتُ كل ترحيب .

وقد شيعنى ذلك على وضعها فى مكانها من هذا الكتاب فى طبعته السادسة التى ظهرت فى مطلع سنة ١٩٧٤ وكان المجتمع عند حسن الظن به ، فأحسن استقبال ما كتبتُ ، وسمعتُ وقرأتُ عنها ما جعلنى أطمئن إلى أن العمل الجاد المخلص يلقى دائماً ما يستحقه من نجاح .

وفى صبيحة الجمعة ٢٣ / ٨ / ١٩٧٤ نشرت الأخبار مقالا للمصاحب الفضيلة الأستاذ الجليل عبد الجليل عيسى يتحدث فيه عن بعض نقاط من موضوع الإسراء والمعراج ، ويسير فى نفس الطريق الذى سرت فيه ، وإذا كان فضيلته قد اطلع على كتابى وأيد رأى فهذا فضل الله ، وإذا كان هذا الاتجاه من ابتكار فضيلته وبالتالي مما يسمونه توارد الحواطر ، فهو أيضاً فضل الله ، وأنا هنا أنقل هذه الكلمة التى تؤيدنى وأؤيدها لخدمة الهدف الأسمى ، وهو رفعة الإسلام والمسلمين ، وإزالة خرافات علقت بالفكر الإسلامى عدة قرون ، وفيما يلى نص هذه الكلمة مع عنوانها :

بعيدا عن الشطحات والخيال

البلاغة عند علماء العربية : مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، وهى معنى قولهم : لكل مقام مقال ، وقد تمتعت على الله أن يكون حديثنا عن الإسراء والمعراج فى هذه الذكرى المباركة مناسباً للمقام الذى نحن فيه .

وقد انتظرت حتى انتهى أو أوشك أن ينتهى هذا المهرجان الذى احتشد له الخطباء على المنابر ، والكتاب فى الصحف ، والمتحدثون فى الإذاعة والتليفزيون ، فوجدت السواد الأعظم من هؤلاء جميعاً يخطبون بليل ، ويجمعون كل ماصادفهم من غرائب الأحاديث عن الإسراء والمعراج من روايات الإخباريين والقصص التى إن أعجبت العامة وبهرتهم فلما تقع عند كثير من المثقفين موقع التنزية لمقام الإسراء من هذه الشطحات البعيدة ، وذلك الخيال المجنح .

إن من الحق أن أقرر هنا أن قلة قليلة تعد على أصابع اليد الواحدة وقفوا بالحديث عن الإسراء عند حدوده التى ينبغى أن يقف عندها كل مسلم ، حين يوضع هذا الحديث فى إطار الآية الكريمة : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير) حيث يتضح أن الإسراء ضيافة خاصة لرسول الله فى رحاب الحق سبحانه وتعالى ، وقد أطلعه مرلاه فى هذه الضيافة على عجائب ملكوته ، فكان له من ذلك زاد عتيد يمدده بإمداد القوة والمضاء فى مسير دعوته ، وفى حمل ما يلقاه فيها من أعباء تنوء بحملها الجبال ، وحيث يرى المسلم من الربط بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى فى مسرى الرسول الكريم آية من آيات الله على أن هذين المسجدين أخوان قد آخى بينهما الإسلام وجمعهما فى رحابه ، وأن هذا الإخاء بينهما يدعو المسلمين دعوة صارخة إلى الضرب بكل قوة على أى يد آثمة تحاول التفريق بين ما جمعه الله .

وإذا كان لي من عتب على أولئك الذين أضافوا إلى حديث الإسراء والمعراج من ذبول جرارة ، وما لوّنوه بها من ألوان صارخة سواء في ذلك الخطباء والكتاب والمتحدثون ، فإن عتبي شديد على الشيخ محمد متولى الشعراوى الذى أكثر من هذا الحديث فى التلفزيون والإذاعة ، ثم لم يكتف بذلك فأخرج هذه الأحاديث فى كتاب منشور يقرأه ألوف المسلمين ، وغير المسلمين .

ولو كان الشيخ الشعراوى واحداً من أولئك المتحدثين الذين نمر أحاديثهم دون أن تشد انتباه الكثيرين إليها لكان الأمر ، ولكن الشيخ وراه معجبون كثيرون وكثيرون . ومن هنا يكون الخطر لكلمته فى مقام النفع ، أو الضرر على السواء .

وقد كان الشيخ فى غنى عن أن يحمل حديث الإسراء والمعراج ما حمله من تقول وخلافات واجتهادات ما كان أغنى حديث الإسراء والمعراج عنها .

ويكفى أن أشير هنا إلى الحديث المروى فى صحيح البخارى ، والذى صدر به الشيخ الشعراوى كتابه ، وهو الحديث الذى يشير إلى صعود الرسول الكريم مع جبريل إلى السموات السبع سماء سماء ، وفى كل سماء يستفتح جبريل ، فيقول له الملك : من أنت ؟ فيقول جبريل : أنا جبريل .. فيقول الملك : ومن معك ؟ .. فيقول : محمد .. فيقول الملك : أوقد بعث وأرسل إليه ؟ .. فيقول ، نعم : . فيفتح لها .. وهكذا فى كل سماء حتى بلغ السماء السابعة .

ويسأل السائلون هنا : ألا تعرف ملائكة السماء جبريل — وهو طاووس الملائكة — حتى يسأله : من أنت ؟ .. ثم ألا يأتونه على من يدخل معه ؟ .. ثم ألا تعلم الملائكة بأمر مبعث محمد ، وجبريل يغدو ويروح بالروحى إليه منذ مبعثه إلى اليوم الذى أسرى به أو عرج به ؟ .

إن هذه التساؤلات إن وجدت لها تأويلاً مقنعاً عند الشيخ الشعراوى فإنها مع النظرة العميقة للموضوع لا تعطى هذا الاقتناع ، لأن هذا الحديث رغم رواية البخارى له ، قد جاء بسبع روايات فى أبواب مختلفة .

وهذه الروايات السبع مختلفة في تحديد عام الإسراء وفي شهره وفي يومه ، وفي كيفية وفي المكان الذي جاء الملك إلى النبي فيه ، وفي ربط البراق بالصخرة ، ومن الذي ربطه ، وكيف ربطه ، وفي مراجعة الرسول لربه في تخفيف الصلاة .

واختلاف الروايات في حديث ما على هذا النمط ينشأ عنه — عند علماء الحديث — صفة الحديث الصحيح والحسن .

هذا رأي في القضية . . وعلى الله قصد السبيل .

عبد الجليل عيسى

مزيد من الدراسة حول الإسراء والمعراج :

ذلك ما نشره الأستاذ عبد الجليل عيسى وهو رائد إسلامي عظيم ، وقد حدث أن قابله عقب ذلك بمؤتمر الفقه الإسلامي الذي عقد بالرياض في أكتوبر سنة ١٩٧٦ وتدارسنا هذه المسألة طلباً لمزيد من التفصيل حتى نزيل الشبهة ونعيد المسلمين للفكر السليم في هذه القضية التي يهتم بها الباحثون والخطباء كل عام كلما دخل علينا النصف الثاني من شهر رجب ، وقد جلس معنا بالرياض بعض العلماء والباحثين وحضروا هذه المداورة .

وقد سألت فضيلة الأستاذ عبد الجليل عيسى مزيداً من التفصيل عن حديث الإسراء والمعراج وسألته عن قوله : إن الاختلافات الواسعة في روايات هذا الحديث بالبخارى تجعله لا يدخل في نطاق الحديث الصحيح أو الحسن ؟ فأجاب سيادته : إن روايات البخارى متعددة ومختلفة في تحديد المكان الذي ابتداء منه الإسراء ، ومختلفة في تحديد زمانه ، وغير ذلك من وجوه الاختلاف فمن المكان تقول إحدى الروايات إن الرسول صلوات الله عليه قال : بينما كنت في المسجد ، وفي رواية أخرى : بينما كنت نائماً في دار أم هانئ ،

وفى رواية ثالثة إن رحلة الإسراء بدأت من بيت عائشة ، وأن عائشة قالت إن مضجع الرسول لم يبرد لسرعة عودة الرسول إليه .

أما اختلاف الزمان فواضع جداً حتى لا يوجد عندنا تاريخ محدد بدقة أو بوجه التقريب لهذا الحدث الجلل . واختلاف الروايات هكذا في المكان والزمان يجعل الحديث لا يدخل في نطاق الحديث الصحيح أو الحسن كما يقول علماء مصطلح الحديث .

وفى الحديث كذلك أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) صلى بالأنبياء في بيت المقدس ، والمعروف إسلامياً أنه لا عبادة بعد الموت ، وهناك حديث صحيح يقول : إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم نافع ، أو ولد صالح يدعو له ، والأنبياء هم من بنى آدم ، وقد انقطع عملهم بوفاتهم إلا من هذه الأشياء الثلاثة ، وعلى هذا فلا معنى لتصوير الأنبياء يصلون خلف الرسول .

وفى الحديث روايات مختلفة عن أمكنة الأنبياء في السموات ، فمن منهم في السماء الأولى ؟ ومن في الثانية ؟ . . . خلاف ظاهر ، مع أنه لا ضرورة على الإطلاق لوجودهم في أى منها ، فمن المحقق أنهم ماتوا ودفنوا ، وأن أرواحهم عند الله ، والروح كائن نوراني ، ولا يعلم كنهها إلا الله ، والجسد قد اختفى تماماً في الأرض ، ومع قدرة الله على إحياء الأنبياء لاستقبال الرسول . . . فلا داعي للقول بذلك على الإطلاق .

ومسألة تخفيف الصلوات فيها روايات متعددة ، فهناك رواية ترى أن الرسول عند ما طلب التخفيف أسقط الله سبحانه وتعالى نصف الخمسين في المرة الأولى ، وفى المرة الثانية أسقط نصف النصف الباقي ، وهناك رواية تقول إن الله أسقط عشراً فعشراً أربع مرات ثم أسقط خمساً ، وهناك رواية تقول إن الله أسقط خمساً في كل مرة ، واختلاف الروايات هكذا بشكك في صحة الحديث .

والرواية تقول إن جبريل دقّ للباب فسئل : من ؟ فأجاب : أنا جبريل .
ومما يدعو للدهشة أن يوجه هذا السؤال لجبريل وهو طاووس الملائكة ، يروح
ويجىء عدة مرات حاملاً آيات القرآن للرسول عليه السلام وتوجيهات الله
لرسله من قبل ، وطبعاً هو معروف للملائكة ، ثم إن جبريل والملائكة
لا تقف الأبواب حائلة أمام رؤياهم . ولا يحتاج الملاك الموكل بالباب - على
فرض وجود باب - إلى هذا السؤال ، لأنه يرى من هو خاف الباب ،
ثم تقول الرواية إن الملاك عاد فسأل جبريل قائلاً : من معك ؟ ومعنى
هذا أنه رأى شخصاً مع جبريل فلماذا لم ير جبريل ؟ وكان عليه أن يقول :
هل معك أحد ؟ وإن كان هذا أيضاً ليس سؤالاً عادياً فلا يمكن أن يتعرض
جبريل لهذا السؤال في كل مرة يمر بها .

ونقول الرواية أيضاً إن جبريل قال للملاك : هذا محمد . فسأله الملاك :
هل أذن له ؟ وفي رواية ، أو بعث ؟ وهى أسئلة لا تليق من إنسان عادى
فابالك بالملائكة المقربين . فلا يمكن أن يتجه الرسول هذه الوجهة في
المعراج بدون إذن ، ولا يمكن القول بأن الملائكة لا يعرفون أنه قد بعث .

(انتهى كلام الشيخ عبد الجليل)

خلاصة

١ - الإسراء والمعراج حادثان عظيمان ، واعتقادى أنهما ثبتا بالقرآن الكريم ،
وأنهما حدثتا بالروح والجسد .

٢ - في الإسراء ربطاً بين عقائد الديانات السماوية التي كانت باقية عند ذلك
العهد والتي لا تزال باقية حتى الآن ، وبالتالي في الإسراء إعلان ورائة
الإسلام لهذه الديانات .

٣ - وفي المعراج بعدد عن الأرض التي غمرتها الخطايا منذ مطلع البشرية
- عندما قتل أحدُ ابني آدم أخاه - حتى الآن حيث لا يزال
بالأرض مظالم كثيرة ، مثل سفك الدماء البريئة ، وهناك بعيداً عن هذه
الأرض ، عند سدرة المنتهى ، تجلى الله على رسوله ﷺ إذ يغشى

السدره ما يغشى ، وأيسرُ معنى نذكره للتجلى هو أن يحس الإنسان أنه في حضرة الله تعالى ، ونستطيع أن نذكر مقارنة بين هذا الحدّث وبين حدّث آخر مشابه يرويه القرآن الكريم ، قال تعالى يحكى كلام موسى ونتأجبه : رب أرني أنظر إليك ، قال : لن تراني ، ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني ، فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقاً ، فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك ، والفرق بين التجلى هنا وهناك أن موسى عليه السلام هو الذى طلب الرؤية ، فالتجلى استجابةً للطلب ، والمقصود هو التدليل على وجود الله وعظمته ، وأن الجبل نفسه لا يحتمل أن يتجلّى عليه الله ، وفي هذا إقناع لموسى ، وقد اقتنع فعلاً ، أما التجلى في المعراج فنحة من الله لم يطلبها محمد ، ولذا كان رخاء ويمناً وبركة وآيات كبرى ، والآية الكريمة : « إذ يغشى السدره ما يغشى » تشير إلى جلال التجلى في هذا المكان الذى اختاره الله ليتجلّى على الرسول فيه .

٤ - وعلى هذا فموضوع الإسراء والمعراج لاشك عندي فيه : ويتحتم على كل مسلم الإيمان به . وبهذا تتفق فيه الدراسات .

٥ - أما مواضع الخلاف فهي تفاصيل تذكرها بعض النصوص التى أشرنا إليها ، ويدعى البعض أنها أحاديث للرسول ، وذلك ما لا يقبله أفذاذ العلماء ، وقد تدارس العلامة الشيخ عبد الجليل عيسى عضو جماعة كبار العلماء هذه النصوص وقرر أنها ليست من الأحاديث الصحيحة أو الحسنة ، وعلى كل حال فالكلام عن هذه النصوص ينقلنا من الحديث عن الإسراء والمعراج إلى حديث عن مدى قدسية ما دونه الإمام البخارى .

٦ - وأقرر إجمالى التام لأحاديث الرسول صلوات الله عليه ، وقد انتفعت بالملئات والآلاف منها في دراساتي المختلفة وبخاصة في الحضرة الإسلامية .

٧ - ولكن هل كل ما ورد في البخارى هو فعلاً من كلام الرسول صلوات الله عليه بدون شك ؟ إننا لم نقلنا بذلك فإننا نضع البخارى في مستوى

القرآن الكريم ، فالقرآن الكريم هو وحده الذى أنزله الله وحفظه ،
وتعهد ألا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وقد أجمع العلماء على أن صحيح البخارى هو أصح كتاب بعد
كتاب الله ، وليس مثل كتاب الله ، وهذا الإجماع يتيح لنا الفرصة أن
نفكر فى الأحاديث الواردة بالبخارى وفى غيره من كتب الصحاح
لنستبعد منها ما لا يتفق مع القرآن الكريم ، ومع المبادئ الإسلامية
المسلم بها ، وذلك كحديث الغرائق والسحر والمسيخ النجاس ، وبعض
أحاديث الإسراء والمعراج وغيرها مما سنشير إليه فيما بعد .

٨ - واستبعاد هذه النصوص يحى على اعتقاد أنها ليست ثابتة الصلة
بالرسول ، فقد تكون من أخطاء الإمام البخارى ، والإمام البخارى
ليس معصوماً ، أو تكون دُست عليه بعد وفاته ، ويقول بعض
المتسرعين إننا لو شككنا فى حديث مما رواه البخارى فإننا نعرض كل
أحاديث البخارى للتشكيك ، واعتقادى أن وضاع الأحاديث هم الذين
قالوا هذا القول ، ليحرسوا ما وضعوه من نصوص نسبوها للرسول ،
والحق أن إخراج فكرة خاطئة من كتاب ، يجعله أعظم قدراً ،
وتقربه من الكمال .

٩ - وهناك كثيرون من الأئمة السابقين ناقشوا البخارى ، ولم يعترفوا
بتقديس عمله ، ومن هؤلاء :

- (أ) الجيلى فى كتابه : الأوهام الواقعة فى صحيح البخارى .
- (ب) ابن عبد البر فى كتابه : الأجوبة المزعجة عن المسائل
المستغربة من البخارى .
- (ج) البلقينى فى كتابه : الإفهام بما وقع فى البخارى من الإبهام .
- (د) ابن خلف فى كتابه : التعديل والتجريح لرجال البخارى ؛
- (هـ) العامل فى كتابه : الكشكول .

وفي ص ٣١١ من الكتاب الأخير يقول العالمى : كنت أنا نقاش أحد العلماء فى موضوع ، فأردت الاحتجاج بحديث من صحيح البخارى فطعن هذا العالم فى صحيح البخارى وقال : البخارى لا يوثق بكل ما فيه من الأحاديث . فقلت له : الأحاديث الضعيفة فى صحيح البخارى حوالى ستين حديثاً .

فهذا اتفاق بين عالين على ردّ وتضعيف بعض أحاديث البخارى .

١٠ - ويتجه العلماء إلى مناقشة كبار الأئمة الذين سبقوا البخارى . وعُرف فضلهم فى مجال الدراسات الإسلامية كالإمام أبى حنيفة (١٥٠ هـ) والإمام مالك (١٧٩ هـ) والإمام الشافعى (٢٠٤ هـ) والإمام أحمد بن حنبل (٢٤١ هـ) . فلماذا لا تناقش البخارى المتوفى سنة ٢٥٦ هـ .

وكان أبو جعفر الطحاوى إماماً للحنفية فى مصر ، وكان فى الوقت نفسه من كبار علماء الشافعية ، فقد تفقّه على خاله « المزنى » ، صاحب الشافعى . وقد استفاد من جمعه بين المذهبين ، وكان ينقد الحديث نقد معنّى وإن صحّ السند فى نظر المحدثين .

١١ - نشر مجموعة من الأساندة عدة مقالات فى الصحف (الأخبار فى ٧٦/١٢/١٨ ، ٧٧/١٢/٣٠) وأوردوا نماذج مما رواه البخارى ولا يقبله عقل سليم ، ومن ذلك :

(أ) أن موسى عندما جاءه ملك الموت لقبض روحه صكه ففقأ عينه .

وملك الموت مرسل من عند الله ، وطبيعى أن يحترم موسى ملك الموت فهو رسول من الله ، وليس للملك الموت عين نفقاً .

(ب) أن الحجر هرب بملابس موسى عندما نزل ليستم .

(ج) أن إبراهيم كذب ثلاث كذبات منها كذبتان فى ذات الله .

(د) أن سليمان أقسم أن يطوف فى ليلة واحدة على تسعين امرأة من نساءه ، وأن كلا منهن مستحمل بفارس . فقال له صاحبه : قل « إن شاء

الله » فلم يقل .

(هـ) أن الرسول رأى في السماء الدنيا « أى الأولى » نهرين يطردان ، فقال لجبريل : ما هذان النهران يا جبريل ؟ فأجابه جبريل : هما النيل والفرات .

(و) أن موسى احتبس محمداً ، وقال له : أمتك أضعف أجساداً وقلوباً وأبداناً وأبعصاراً وأسماعاً ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف .

وهكذا تحشدت هذه الرواية أوصافاً قاسية لأمة محمد ، وهي أوصاف لا تطابق الواقع ، ولا يمكن أن تقال عن خير أمة أخرجت للناس ، وعن الأمة التي جعلها الله أمة وسطاً . (آل عمران ١١٠ والبقرة ١٤٣) .

١٢ - لمباحة العلامة الشيخ عبد العزيز بن باز رئيس إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية دراسة عن الإسراء والمعراج ، وعن رفض القول بخروج أجسام الأنبياء من قبورهم بعد دفنها .

وقد وردت هذه الدراسة في كتابه « التحذير من البدع » ، وهذا العلامة يقول عن الإسراء والمعراج ما يلي : تواتر عن رسول الله ﷺ ، أنه أُخرج به إلى السموات ، وفتحت له أبوابها حتى جاوز السماء السابعة ، ففرض الله عليه الصارات الخمس ، وكان الله سبحانه وتعالى قد فرضها أولاً لخمس صلوات ، فسأله الرسول التخفيف ، فجعلها خمساً في الفرض وخمسين في الأجر لأن الحسنه بعشرة أمثالها (ص ٧) .

وهكذا لم يذكر الإمام ابن باز دق الأبواب ولا أن الرسول صلى بالأنبياء في بيت المقدس ، ولا أن أنبياء الله كان كل منهم في سماء من السموات ، ولا أن موسى احتبس محمداً صلوات الله عليه ، وردّه إلى ربه عدة مرات . أحسن الله للإمام ونفع به ،

وعن البعث بعد الموت والدفن ، تعرض الإمام ابن باز لهذا الأمر بكثير من التفاصيل ، فقال ص ٦ من الكتاب المذكور ما يلي :

ادعى بعض الجهلاء أن الرسول محمداً صلوات الله عليه يحضر بعض الموالد والمناسبات ، وهذا من أعظم الباطل وأقبح الجهل ، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يخرج من قبره قبل يوم القيامة ، ولا يتصل بأحد من الناس ، بل هو مقيم في قبره إلى يوم القيامة ؛ وروحه في أعلى عليين عند ربه في دار الكرامة كما قال تعالى في سورة « المؤمنون » : (ثم إنكم بعد ذلك لميتون ، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون » . وقال عليه الصلاة والسلام : أنا أول من ينشق عنه القبر يوم القيامة . فهذه الآية الكريمة وهذا الحديث الشريف ، وما جاء في معناهما من الآيات والأحاديث كلها تدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم وغيره من الأموات إنما يخرجون من قبورهم يوم القيامة ، وهذا أمر مجمع عليه بين علماء المسلمين ليس فيه نزاع بينهم . فينبغي لكل مسلم التنبيه لهذه الأمور ، والحذر مما أحسنه الجهال وأشباههم من البدع والخرافات التي ما أنزل الله بها من سلطان .

وهكذا أثبت العلامة ابن باز أنه بعد الموت والدفن لا يخرج إنسان من قبره قبل يوم القيامة ، واستدل فضيلته بالآية والحديث وعداً من يقول بغير ذلك بأنه في عداد الجهال ومختلق البدع والخرافات ؛ وذكر عن روح محمد وأمثاله من الأنبياء أنها في أعلى عليين في دار الكرامة ، ولا يجوز لنا أن نحرك الروح ؛ ولا أن نروى عنها بعد قوله تعالى « ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربي » .

• • •

وعلى هذا ينبغي أن تسكت الألسنة التي تحشد أنبياء الله في بيت المقدس ، وتوقف كل واحد منهم في سماء من السموات ؛ أو تضع موسى في موضع المعلم المرشد بالنسبة لمحمد خاتم الأنبياء وأشرفهم ؛ وكل ما يقال عن ذلك هو من الإسرائيليات التي ضاقت بأن يكون لمحمد هذه المكانة المنفردة عند الله ، فراحت تختلق هذه الروايات ليشارك موسى وغيره في هذا التكريم .

الاسلام في يثرب

دخول الإسلام يثرب وظروفه والعوامل التي ساعدته :

هدأت بذور النجاح تظهر في يثرب ، وبدأ الأمل يعقد على أن يثرب ستكون المدينة التي يتفجر منها ضوء الإسلام وينتشر على الأرض .

والحقيقة أنه كان لعرب يثرب ظروف خاصة خلقت منهم استعداداً لتقبل الإسلام والدخول فيه ؛ لقد كانت يثرب ملتقى طائفتين مهمتين إحداهما قادمة من الشمال وهي اليهود ، والأخرى مهاجرة من الجنوب وهي قبائل عربية أهمها الأوس والخزرج ، والتقاء هاتين الطائفتين في يثرب أنتج العوامل الآتية :

أولاً — كان عرب يثرب أقرب العرب إلى الأديان السماوية لكثرة ما سمعوا من اليهود عن الله والوحي ، وعن البعث والحساب ، والجنة والنار ، ونحو ذلك .

ثانياً — ما ذكره ابن هشام^(١) من أنه كان هناك عداء يكاد يكون متصلاً بين العرب واليهود ، وكان العرب إذا انتصروا على اليهود قال اليهود : إنه تقارب زمان نبي يبعث كما نجد في كتبنا ، فإذا بعث انبشاه وتقوينا به عليكم ونقتلكم بعونه قتل عاد وإرم^(٢) ويصور القرآن الكريم ذلك بقوله : « وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به »^(٣) .

(١) ج ٢ ص ٢٨ .

(٢) ابن القيم : زاد المعاد ٢ :

١١ : الآية ٨٩ .

ثالثاً - كان هناك خلاف وحروب بين الأوس والخزرج ، وكانت كل منهما تسعى لتجد من تتعاقد معه لتقوى به على الأخرى ، ومن أشهر الحروب التي وقعت بين الأوس والخزرج تلك الحرب المعروفة بيوم بعاث وقد حدثت قبل الهجرة بسنوات قليلة^(١) .

لهذه الأسباب اعتنق الأوس والخزرج الإسلام ، بل سارعوا إليه ، حتى لا يسبقهم اليهود ؛ وسارعت الأوس حتى لا يسبقها الخزرج ، كما سارعت الخزرج حتى لا يسبقها الأوس .

وقد مر إسلام الأوس والخزرج خلال مراحل ثلاثة^(٢) :

١ - في السنة الحادية عشرة للبعثة قدم نفر من الخزرج يريدون الحج ، فاستقبلهم الرسول وتعرف إليهم ، وجلس معهم عند العقبة^(٣) . وتحدث إليهم ودعاهم إلى الله . فقالوا له : إنا قد تركنا قسومنا وبينهم من العداوة والشر ما بينهم ؛ وعسى أن يجمعهم الله بك ، وستقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك لعل الله أن يجمعهم عليك ، فلما عادوا إلى يثرب ونقلوا لقومهم الدعوة الجديدة دخل كثيرون في الدين الجديد ، ولم تبق دار من دور العرب في يثرب إلا وقد دخلها ذكر الرسول وتحدثت عنه^(٤) .

٢ - في السنة الثانية عشرة للبعثة تمت بيعة النساء أو بيعة العقبة الأولى وسميت بيعة النساء لوجود امرأة هي عفراء بنت عبيد بن ثعلبة بها ، وسميت بيعة العقبة لحدوثها عند العقبة .

(١) الأغاني ج ٢ ص ١٦٢ .

(٢) انظر تفاسيل هذه المراحل في زاد المعاد ١ : ٢٥ و ٢ : ٥٠ - ٥١ .

(٣) العقبة بين منى ومكة عند موقع رمى الجمرات .

(٤) ابن هشام ١ : ٢٦٧ .

وقصة هذه البيعة أن اثني عشر رجلاً ومعهم المرأة السابقة قدموا على رسول الله واجتمعوا به عند العقبة وبايعوه ، قال عبادة بن الصامت كنت فيمن حضر بيعة العقبة ، وقد بايعنا الرسول على ألا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأثي بيهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصاه في معروف . (١)

وقد أرسل الرسول مع هؤلاء مصعب بن عمير يُقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويؤمهم في الصلاة ، وقد نشط مصعب في الدعوة للإسلام في يثرب ، حتى دخله القادة والرؤساء (٢) كما سئى ذلك عند الحديث عن الدعاة الذين رباهم الرسول .

٣ - في السنة الثالثة عشرة للبيعة تمت بيعة العقبة الثانية ، وحديث ذلك أن ثلاثة وسبعين شخصاً من يثرب قدموا إلى مكة وقد عزموا على أن يدعوا الرسول للهجرة إلى يثرب وبايعوه على أنه نبهم وزعيمهم .

وقد اجتمع هؤلاء بالرسول عند العقبة أيضاً . وكان مع الرسول عمه العباس وكان لم يعلن إسلامه بعد . فلما جلسوا كان العباس أول من تكلم قال : يا معشر الخزرج إن محمداً منا كما علمتم ، وقد منعناه من قومنا ، فهو في عز من قومه ومنمة في بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز لكم والحق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه وما نعوذ من خالفه فأنتم وما تحمّلتم في ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه فزى الآن فدعوه .

قال زعيم وفد يثرب . قد سمعنا ما قلت يا عباس . فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت ، فتكلم الرسول وتلا آيات من القرآن الكريم ثم قال : أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأولادكم . فبايعوه على ذلك

(١) ابن هشام : ١ : ٢٦٨ .

(٢) المرجع السابق : ١ : ٢٦٩ .

وأضافوا أنهم يبايعونه على هلاك الأموال ، وقتل الأشراف ، والاحتمال في كل الأحوال (١) .

ويروى عبادة بن الصامت وكان أحد النقباء نص البيعة قال : بايعنا رسول الله على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا ، ومنشطنا ومكرهنا وإثارة علينا ، وألا نتنازع الأمر أهله ، وأن نقول الحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم (٢) .

هجرة المسلمين إلى يثرب :

عندما ظهرت تباعث النجاش في يثرب أمر الرسول أتباعه بالهجرة إليها فراراً بدينهم من ظلم قريش ، والتجاء إلى المسلمين الجدد بهذه المدينة ، وقد ندفع المسلمون عقب ذلك مهاجرين إلى المدينة إذ كانت الهجرة إليها أيسر بكثير من الهجرة للحبيشة ، كانت هجرة لأرض عربية ولقوم مسلمين ، ولم يكن هناك بحر في طريقهم .

وكانت الهجرة ليثرب ، سراغالباق قد هاجر طلحة بن عبيد الله وصهيب بن سنان الرومي معاً ، وكان صهيب ذا مال ، فاتبعته قريش ليقتلوه وليأخذوا ماله ، فلما أشرفوا عليه ونظر منهم ونظروا منه قال لهم : قد تعلمون أني من أركم رجلا والله لا نتسلون إلى أريمت منكم عدد كبير ، فأتروني وشأني . قالوا : فأترك مالك . فألقي إليهم ما كان معد من مال : ودلهم على ماله بمكة ليأخذوه ، وأعطاهم دليلاً على ذلك ، فانصرفوا عنه إلى مكة ، ونزلت فيه الآية الكريمة « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد » (٣) .

(١) ابن هشام ج ١ ص ٢٧٥ ، ٢٧٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٣١١ .

(٣) ابن عبد البر : الدرر في اختصار المغازي والسير ص ٨٣ والآية رقم ٢٠٧

سورة البقرة .

وقد حاولت قريش بمختلف الوسائل أن تمنع من استطاعت منعه من الهجرة ، وبلغت في ذلك أنها كانت تحول بين الزوج وزوجته ، وكانت تحبس من تستطيع حبسه ممن تخشى هربه ؛ ورغم هذا أفلت كثيرون من قريش ، دخلوا يثرب ، وقد هاجر عمر بن الخطاب علانية بعد أن تحدى قريشاً ، صرخ فيهم قائلاً : من أراد أن تذكله أمه . أو يتيم ولده ، أو ترمل زوجته ، فليلقني وراء هذا الوادى . . . فلم يتبعه أحد (١) :

وكان أبو بكر يستأذن في الهجرة إلى يثرب فيقول له الرسول : لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً ، أما على فيبدو أنه لم يخطر له أن يهاجر ويدع الرسول بمكة .

الهجرة

المؤامرة والأذن للرسول بالهجرة إلى يثرب :

انزعجت قريش من هجرة المسلمين إلى يثرب ، وخافت أن ينضم محمد إلى أتباعه بها وأن يقيم له مركزاً حصيناً هناك ، وفي هذه الحالة لا تكون المسألة مسألة دين فقط ، بل ستكون مسألة اقتصادية أيضاً ، ربما ترتب عليها ضياع التجارة وخراب البيوت ، فيثرب تقع في الطريق بين مكة والشام وإذا كانت معادية لقريش تعرضت تجارة قريش إلى الضياع والخسران ، ومن هنا وجدوا أنه لا مناص من أن يعملوا شيئاً هاماً ويخطوا خطوة حاسمة ، لعلهم يقضون على هذا الدين الذي أصبح خطراً على أديانهم وعلى أرزاقهم.

ماذا يعملون ؟

اجتمعوا وتشاوروا في الأمر ، وقص الله قصتهم في كلامه العزيز :

(١) الرياض النضرة في مناقب العشرة ج ١ ص ٢٥٩ .

قال الله تعالى : وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين ، (١) .

وكان أمام قريش أن يسلكوا حلا من هذه الحلول الثلاثة التي وردت في الآية : هل يحبسون محمداً ؟ لا ، فإن أهله لابد سيقاتلون دونه ويطلقونه .

هل يخرجونه من ديارهم فيذهب بعيداً عنهم ؟ لا ، فلا بد أنه سيتجه إلى يثرب وفي هذا قضاء على تجارتهم و ثرواتهم .

لم يبق إلا أن يقتلوه . ولكن كيف يقتلونه وأهله سيقتلون من يقتله ؟ لقد وجد لهم أبو جهل لذلك حلاً هو أن يختاروا من كل قبيلة شاباً جلدأ ، وأن يشترك هؤلاء الشبان في قتله ، فتتوزع دماؤه بين العرب فلا يستطيع بنو عبد مناف أن يثأروا له من الجميع ، ولا يجدون بداً من قبول الدية (٢) .

ذلك رأى وجدوه سليماً ، فأخذوا يعدون له العدة ، وفي إحدى الليالي عرفوا أن محمداً أوى لبيته ، فأطلقوا شبانهم ليحيطوا بالبيت وينتظروا حتى يهدأ الناس فينقضوا عليه ويقتلوه .

وبلغ الله الرسول حديث القوم وتآمرهم ، وأذن له بالهجرة إلى يثرب (٣) ، وكان الرسول يحس بكثير من الوحشة بمكة بعد هجرة أصحابه ، ولذلك سُرَّ الرسول بهذا الإذن ، وأخبر به أبا بكر ، وطلب أبو بكر من الرسول أن يأذن له في أن يصحبه في هذه الرحلة التاريخية فأذن له ، وحينئذ أخذ أبو بكر يعد العدة للرحلة ، وأمر الرسول علياً أن يبيت

(١) سورة الأنفال الآية ٣٠ .

(٢) ابن هشام ١٠١ . ٣٩١ وابن القيم ٢ : ٥٢ .

(٣) ابن هشام ج ٢ ص ٢ .

في مكانه ليومهم القوم أنه في فراشه ، ثم ليرد في اليوم التالي الودائع التي كانت عند الرسول لأصحابها^(١) ثم نثر الرسول على الشبان تراباً من يده وقال : شأنت الوجوه ، فعرثهم غشاوة لحظة خرج فيها الرسول دون أن يروه ، وصدق الله العظيم الذي يقول : فأغشيناهم فهم لا يبصرون .

الرحلة من مكة الى يثرب :

سبق أن قلنا إن أبا بكر أعد العدة للقيام بهذه الرحلة التاريخية ، وكان أبو بكر كالعهد به كريماً وفيئاً مخلصاً ، فسخر للهجرة كل شيء يملكه أو يشرف عليه .

أعد راحلتين ودفعهما إلى عبد الله بن أريقط ليركبهما الرجلان العظيمان في رحلتهم البعيدة ، وخاطر أبو بكر بنفسه فصحب الرسول مع علمه أن قريباً ستنبعها وتهم بالحصول عليهما ، وأمر ابنته عبد الله أن تسمع لما تقوله قريش عن الرسول ورفيقه هاراً ثم يأتيهما ليلاً بما يكون في ذلك من الخير ، وأمر عامر بن فهيرة مولاة أن يرعى الغنم نهاره ثم يذهب بالغنم ليلاً إلى جبل ثور حيث سيختفي الرسول والصديق ليحتلب لهما ما يحتاجانه من اللبن ، وكلف ابنته أسماء أن تأتيهما كل مساء بما يحتاجان له من الطعام والشراب ، وحمل أبو بكر ماله كله ليكون عوناً للرفيقين في هذه الرحلة النائية^(٢) .

أما سير الرحلة فقد وصفه ابن هشام بقوله : جاء الرسول متخفياً إلى دار أبي بكر ، ثم خرجا من نخوة (فتحة صغيرة) في ظهر بيته ، ولما غادرا مكة وقف الرسول وتطلع إليها وقال : والله إنك لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت^(٣) . واتجه الرسول وصاحبه إلى جبل ثور بأسفل مكة ، وعمدا إلى غار في ذلك الجبل فدخلاه واختفيا فيه .

(١) ابن هشام ج ٢ ص ٢ .

(٢) ابن هشام ج ٢ : ص ٤ وابن القيم ج ٢ ص ٥٣ .

(٣) رواء الترمذي والنسائي . انظر كذلك زاد المعاد ج ١ ص ٨ .

وقفه عند غار ثور :

يقع جبل ثور على بعد حوالى خمسة كيلو مترات جنوب مكة المكرمة :
وقد سبق أن تحدثنا عن غار حراء وعن المشقة التى لاقيناها ونحن نصعد
الجبل للوصول إلى هذا الغار ، ويمكن القول إن الصعود إلى غار ثور أشق
وأصعب ، فهو جبل كثير القمم ، وللوصول إلى غار ثور يتحتم أن يصعد
الإنسان إلى قمة من قمم الجبل ، ثم ينحدر بضع عشرات من الأمتار ، ثم يصعد
ثانياً قمة أخرى من قمم الجبل ثم يعود للانحدار ، وهكذا عدة مرات إلى
أن يصل إلى القمة التى يقع فيها الغار الذى اختبأ فيه الرسول وصاحبه .

وفى جبل حراء ليس هناك إلا غار واحد هو غار حراء . أما فى جبل
ثور فهناك العديد من الغيران (جمع غار) وهذا جعل من الصعب البحث فى
كل غار عن محمد وصاحبه لكثرتها وانتشارها هنا وهناك ، وربما بحث قریش
فى غار وآخر وثالث ... ثم توقفت لكثرة الغيران وللإحساس بعدم جدوى
البحث فيها .

وإذا كان غار حراء يناسب التجبد فإن غار ثور يناسب الاختفاء ، فهو أشبه
بكهف منحوت فى الصخر مع فتحة صغيرة أمامية وفتحة صغيرة خلفية ،
وتقع الفتحتان إلى أسفل ، ولا يدخله الداخل إلا زاحناً أو منحنياً ، أما صخرة
السقف فهلالية تشبه المظلة (الشمسية) ، وليست هناك فتحات جانبية مما يجعل
الماشى بجوار الغار لا يرى مَن بداخله ، وطالما تذكرت قول الرسول وهو
يصف الغار بأن الواحد من الأعداء لو نظر مكان قدميه لرآنا^(١) : فمن بالداخل
يرى أقدام الماشين فى الخارج ، أما الباحثون بالخارج فلا يرون مَن بالداخل
إلا إذا انحروا ووضعوا رءوسهم مكان أقدامهم :

(١) صحيح البخارى رواية أنس .

وجلل ثور في موقع يناسب حال الاختفاء من ناحية أخرى ، هي أنه
يرجد في سفحه سهل به بعض المراعى مما يتيح لعامرين فهيرة أن يرعى غنم
أبى بكر غير بعيد عن الغار حتى يستطيع أن يصعد للغار ليلا يحمل ألبان
الأغنام للرسول وصاحبه .

* * *

هذا ما كان من أمر محمد وأبى بكر ، أما كفار قريش فسرعان
ما عرفوا حيلة محمد ، وأدركوا أنه فر من مكة واعتقدوا أنه أخذ طريقه
إلى يثرب ، فأعلنوا أن من يأتيهم به حياً أو ميتاً له مكافأة قدرها مائة
ناقة ، وأسفر العداء ، وانتشر شبان قريش في الطريق من مكة إلى المدينة
محاولون الظفر بالجائزة وبشرف القبض على عدوهم اللدود ، ووصل بعضهم
في البحث إلى الغار حيث يختفى محمد وصاحبه ، وصاروا بحيث لو نظر
أحدهم تحت قدمه لرآهما ، وقد أحسن أبو بكر بالخوف عند ذلك ، لآعلى
نفسه ، ولكن على صاحبه وعلى الحق ، ولكن الرسول طمأنه وهذا خوفه
وقال له : ما ظنك يا أبا بكر في اثنين الله ثالثهما ؟ وقد حكى القرآن
الكريم ذلك في الآية الكريمة « لا تنصروه فقد نصره الله ؛ إذ أخرجه الذين
كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا . فأنزل
الله سكينة عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى . وكلمة
الله هي العليا . والله عزيز حكيم » (١) .

ويروى أن العنكبوت نسج خيوطه على فتحتى الغار ، وباض الحمام ،
وكأن الله أراد أن يسمخر من القوم فسخّر أضعف الأشياء لتحمى محمداً
منهم .

وبعد أن هدأت قريش وظنوا أن الرسول قد وصل إلى يثرب ، بدأ
الرسول يخرج من الغار مع صاحبه ، وكان عبد الله بن أريقط قد قدم في

(١) سورة التوبة الآية ٤٠ .

الموعد المحدد ، فركبا وسار بهما عبد الله في طريق غير مطروق بالقرب من ساحل البحر الأحمر .

ويروى أن أبا بكر في رحلة الهجرة كان يسبق الرسول مرة ويتبعه مرة أخرى : فسأله الرسول عن ذلك فقال : يا رسول الله . أذكر الترسد فأسبقك ، وأذكر الطلب فأتبعك (١) .

يثرب تستقبل الرسول :

أما أهل يثرب فكانوا قد عرفوا أن الرسول قد خرج متجهاً إليهم ، وأخذوا ينتظرون ، ولم يظنوا أنه عرج على الغار ، فلما مرت الفترة اللازمة من الوقت للرحلة من مكة إلى يثرب ولم يصل الرسول ؛ بدأ على مسلمي يثرب شيء من القلق والخوف ، وأخذوا يصعدون أعلى الأمكنة المحيطة بيثرب وينظرون لعلهم يرون ركب الرسول ، وظلوا كذلك حتى أطل عليهم وهم في أشد الشوق واللهفة .

ويروى البخاري بسنده إلى البراء بن عازب قال : مارأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله . وروى أبو داود عن أنس قال : لما قدم النبي المدينة لعبت الحبشة بحراهم فرحاً بقدومه وأشرقت المدينة بجلوله فيها وسرى السرور إلى القلوب .

وعنه أيضاً قال : شهدت يوم دخول النبي المدينة فلم أر يوماً أحسن منه ولا أضوأ ، ولقد صعدت ذوات الخدور على الأجاجير (الأسطحة) عند قدومه يقلن تهتة له حال دخوله :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
 وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
 أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع^(١)

وكان دخول الرسول يثرب في الثاني عشر من ربيع الأول^(٢)

وينبغي أن نذكر أن الرسول نزل قباء قبل أن يدخل يثرب ، وبقي فيها أربعة أيام ، وأسس بها مسجد قباء الشخير^(٣) ، وقد لحق علي بن أبي طالب بالرسول في قباء بعد أن رد الودائع إلى أصحابها ودخل على يثرب في موكب الرسول^(٤) .

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بقاء في محلة بني عمرو بن عوف من يوم الإثنين وخرج من بين أظهرهم يوم الجمعة فأدركته الجمعة في بني سالم ابن عوف غصلاًها في بطن الوادي ، فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة فأثاء عتيان بن مالك وعباس بن عباد ، في رجال من بني سالم بن عوف فأمسكوا بزمام الناقة وقالوا : يا رسول الله أقم عندنا في العدة والعدة والمنعة . قال : خلوا سبيلها فإنها مأمورة فخلوا سبيلها ، فسارت بعد أن خلوا سبيلها وانطلقت ، حتى إذا أنت دار بني مالك بن النجار بركت في المكان الذي به مسجده صلى الله عليه وسلم وهو يومئذ ملك لغلامين يتيمين من بني النجار هما سهيل وسهيل ابنا عمرو ، وكانا في حجر معاذ بن عفراء ، فلما بركت الناقة ورسول الله عليها لم ينزل ، ثم وثبت فسارت غير بعيد ورسول الله واضع لها زمامها لا يثنها به . ثم التفتت إلى خلفها فرجعت إلى مبركها أول مرة فبركت فيه ، ثم تلحلت وأرزمت (أحدثت صوتاً) ووضعت جرائنها (مقدم عتقها) على الأرض ، فنزل عنها رسول الله صلى الله عليه

(١) هذا هو الشائع حول هذه الايات ، ويروى ابن القيم أن أهل المدينة استقبلوا الرسول بهذه الايات عند عودته من غزوة تبوك لأن ثنيات الوداع تقع شمال المدينة (انظر زاد المعاد ٣ : ١٣) وذوق الشعر أميل لوتوعها متصلة بالمجرة .

(٢) ابن قتيبة : المعارف ص ٧٥ .

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ص ١٩ وفي زاد المعاد لابن القيم أن الرسول بقي في قباء أربعة عشر يوماً (انظر ج ١ ص ٢٥) وانظر ابن هشام ٢ : ١١ .

(٤) ابن هشام ٢ : ١٠

وسلم فاحتل أبو أيوب الأنصاري رَحَلَ الرسول إلى بيته ، وبقي الرسول في بيت أبي أيوب سبعة أشهر بنى خلالها مسجده في المكان الذي بركت فيه الناقة . كما بنى حول المسجد حجرة لزوجته سودة ، ثم حجرة أخرى تزوج فيها الرسول من عائشة .

ويروى أن الرسول سأل عن مالك الأرض التي بركت فيها الناقة ، فقال له معاذ بن عفراء : هي يا رسول الله لسهل وسهيل ابني عمرو وهما يتيمان في حجرى ، وسأعطيها بدلها ، وقد ظل الرسول يتابع هذا الأمر حتى تأكد من وصول البذل المناسب للغلامين^(١) وأصبحت يثرب من يوم الهجرة تعرف بالمدينة^(٢) .

دروس من الهجرة :

في دراسة التاريخ الإسلامى نماذج رائعة جدية بأن يُقتدى بها وننتفع بما فيها من خلق طيب ، فالانتفاع بما في التاريخ من أمثلة ممتازة هدف مهم من أهداف دراسة هذه المادة ، والهجرة حدث عالمي لم يقلل من أهميته أحد من المسلمين ولا من أعداء الإسلام ، وبالهجرة صور بديعة أخلاقية جدية أن نقف عندها وقفة نفصل بعض الشيء ما أجملناه عند الحديث عنها لنرى ألواناً زاهية من الإيثار والتضحية والوفاء .

في القمة من الدروس التي نقتبسها من الهجرة عظمة محمد التي تجلّت في قوة عزمته وصبره على الشدائد دون أن يتطرق اليأس إلى قلبه حتى في أحلك الأوقات ، وقد ظل يكافح ، فنجح كثيراً وناله أحياناً بعض الفشل ، ولكنه انتفع بالنجاح وبالفشل ، انتفع بالنجاح بتنميته والحرص عليه ، وانتفع بالفشل بأن حاول جاهداً ليجد طريقاً آخر يحقق خلاله ما فشل في تحقيقه من قبل ، فحين ضعف أمله في الفوز بمكة أسرع فترك مسقط

(١) ابن هشام ج ٢ ص ١٠٣ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٨٣ .

رأسه ؛ وترك متاعه وأهله إلى أرض جديدة أكثر خصوبة وأكثر استعداداً
للنبت الصالح ، إنها العقيدة ، أهم عند الأبطال من راحتهم ومن حياتهم .
ومن الدروس الرائعة إخفاء موعدها الهجرة تماماً عن كل الناس ما عدا
أبا بكر ، فجاءت الهجرة مفاجأة ساعدت على نجاحها .

ومن هذه الدروس أنه عليه السلام ترك علياً في فراشه ، وذلك
للتمويه وتضليل الأعداء مما ساعد على تحقيق الهدف .

ومن الفراسة البارعة تلك الحيلة أو تلك الحيل التي قام بها الرسول
وصاحبه لتضليل المطاردين ، فقد كان الرسول يدرك أن جماعات قريش
ستتشر في طريق جثرب باحثة عنه ، محاولة الحيلولة بينه وبين هدفه ،
ولذلك نجده يقوم بمجموعة من الحيل البارعة التي ضمنت له النجاة ؛
كما يلي :

أولاً - بدل أن يصعد إلى الشمال حيث سبوجه القوم اهتمامهم ، يهبط
قليلاً إلى الجنوب ، حيث سيقبل البحث عنه في هذا الاتجاه .

ثانياً - لا يأخذ طريقه مباشرة إلى المدينة وإنما ياجأ للغار بضع ليال
حتى يتعب الباحثون ويعودوا دون أمل إلى دورهم .

ثالثاً - لا يسير في أحد الطريقين العادين بين مكة والمدينة ، وإنما
يتخذ طريقاً ثالثاً يقل أو ينعدم فيه السير حتى لا تصل أخباره إلى قريش .

وبجانب الرسول نجد الهجرة تعلمنا درساً خالداً في الوفاء عند الشدة ،
يضره لنا أبو بكر الصديق ، فكلم تخلى صديق عن صديقه عند الأزمات
خوفاً أن تمتد له هذه الأزمات أو تصيبه بمكروه ، ولكن أبا بكر سخر -
كما قلنا آنفاً - كل شيء يملكه أو يشرف عليه لتنجح الهجرة ، وقد شمل
ذلك نفسه وابنه وابنته وماله ومتاعه . ومن أجل ما يروى في ذلك ما سبق
أن ذكرناه من أن أبا بكر وهو في طريقه إلى الغار مع الرسول جعل مرة

يمشي أمام الرسول ومرة يمشي خلفه ، فسأله الرسول عن السبب فأجاب :
أذكر التردد فأمشي أمامك ، وأذكر الطلب فأمشي خلفك^(١) .

ويضرب لنا على بن أبي طالب مثلاً لامعاً في التضحية والإيثار .
لقد قبّلَ على عن طيب خاطر أن ينام في فراش الرسول مع أن الموت
كان قاب قوسين أو أدنى ممن ينام في هذا الفراش .

فعلى الإنسان المسلم أن يتعلم هذه الدروس ، وأن ينفع بها في حياته ،
وأن يسير على الهدى الذى رسمه له هؤلاء القادة وأولئك الصفوة من بناء
الإسلام ، لينالوا الخير فى الدنيا والآخرة .
الهجرة قلبت موازين القوى :

وينجاح الهجرة أصبح المسلمون أقوى من أعدائهم ، ولم يردوا
يحتملون العدوان بل واجهوا المعتدين وكسروا شوكتهم ، ويوماً بعد يوم
استسلمت قريش وحملت الراية مع المسلمين ، وانهار اليهود بعد فيض من
التضحيات جعل حقدهم ضد العرب والمسلمين ينمو ويزداد ، وأحس
أباطرة فارس والروم بأن نوراً جديداً انبثق من قلب الجزيرة العربية ، وأنه
يسير كالطوفان قوة واندفاعاً ، فحاولت الدولتان الوقوف أمامه ، ولكن
نور الحق كان أصلب عوداً ، وكانت الدولتان أضعف من مواجهته ، أما
قيادات الروم فقد فرّت من الميدان ، وتركت سوريا ومصر والشمال
الإفريقي ليغمرها نور الإسلام ، وأما بلاد فارس فاستسلمت عسكرياً بسرعة
غير متوقعة ، ولكن قادتها بدعوا يثيرون المتاعب والشبهات والشكوك منذ
عهد الفتح إلى الآن فى حركات الشعوبية ، والباطنية ، والزنادقة ، والزنج ،
والقراطة ، والمدرزية ، والبابية والبهاية ، والحمينية . وقد واجه المسلمون
هذه الحركات بحزم من جيل إلى جيل .

لقد كانت الهجرة مطلع النور والقوة ، وستظل ذكرها تبعث الهمم بين
جماعات المسلمين إلى الأبد .

(١) ابن القيم : زاد المعاد ج ٢ ص ٥٢ .

الرَّسُولُ فِي الْمَدِينَةِ

مقدمة :

كانت فترة المدينة - كما قلنا من قبل - حافلة بمجالات الأعمال في مختلف المجالات ، و سجل فيها بلى أبرز مواقف الرسول في هذه الفترة :

الرسول نفسه يؤرخ بالهجرة

عقب الهجرة أصبح العام الذي هاجر فيه الرسول بدءا للتاريخ الإسلامى أو التاريخ الهجرى ، وقد كان العرب كغيرهم يؤرخون بالأسداث الكبرى ، ولا شك أن الهجرة كانت من أكبر الأحداث ، فأرخ بها المسلمون منذ وقوعها كما أرخ العرب من قبل بعام الفيل وغيره من الأحداث العظام .

ويروى الطبرى^(١) أن الرسول لما قدم المدينة أمر بالتاريخ بالهجرة .

وذكر القلقشندى^(٢) أن ابتداء التاريخ بالهجرة حدث منذ العام الأول للهجرة .

ويؤكد السيوطى أن الرسول لما كتب لنصارى نجران ، أمر عليا - وكان يكتب له - أن يذكر أنه كُتِبَ لخمس من الهجرة .

وقد شاعت نسبة وضع للتاريخ الهجرى إلى عمر بن الخطاب ، ويبدو لى أنه ليس هناك خلاف يذكر ؛ فالعرب - كما ذكرنا - كانوا يؤرخون بالأحداث الكبرى ، وقد أرخوا بالهجرة تبعاً لذلك منذ حدوثها ؛ ولكن دور عمر كان أن تبّنت الهجرة لتكون مبدءاً للتاريخ عند المسلمين بحيث لا يترك التاريخ بها إلى أى حادث آخر يجرى بعدها ، ولعل عمر شاهد محاولة للتاريخ بسقوط دولة الفرس في يد المسلمين أو دخول المسلمين دمشق ، فأعلن ألا شىء يعدل الهجرة لأنها باب الفتح والنصر . وثبّتها مبدءاً للتاريخ

(١) تاريخ الامم والملوك ج ٢ ص ١١٠ - ١١٤ .

(٢) صبح الأعشى - ٦ ص ٢٤٠

الإسلام ، ومما ينسب إلى عمر كذلك مرتبطا بالتاريخ بالهجرة أنه جعل بدء سنة الهجرة شهر المحرم في حين أن هجرة الرسول تمت في شهر ربيع الأول ، فقضى عمر بذلك على خلاف ظهر بين الناس ، إذ عد بعضهم نهري المحرم وصفر (من السنة التي نلت الهجرة) عاما ثانيا ، وعدهما بعضهم عاما أول لأن الهجرة لم يمر عليها عام . واستمر هذا الخلاف على مر السنين ، فقضى عمر على هذا الخلاف بأن أعلن اعتبار السنة التي هاجر فيها الرسول كلها سنة أولى . وأن مطلع المحرم من العام الثاني يعتبر مطلع عام ثان على اعتبار أن الهجرة كأنها حدثت في مطلع العام ، وهو أنجاه ساد بعد ذلك وأصبحنا نحتفل بالهجرة في مطلع المحرم ، ولعل ذلك أيضا مما جعل التاريخ بالهجرة ينسب إلى عمر .

أسرة الرسول وأسرة أبي بكر

يقول البلاذرى : عقب الهجرة وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا رافع وزيد بن حارثة إلى مكة لحمل فاطمة وأم كلثوم ابنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسودة زوجته وأخذ من أبي بكر خمسمائة درهم فدفعها إليهما لما يحتاجون إليه ، وأعطاهما بعيرين وكتب أبو بكر رضي الله عنه إلى عبد الله ابنه يأمره بحمل أم رومان امرأته ، وعائشة وأسماء ابنتيه وتوجه مع زيد وأبي رافع عبد الله بن أريقط ، فوافوا طلحة بن عبيد الله يريد الهجرة فتصاحبوا إلى المدينة ، فخرج زيد وأبو رافع بفاطمة وأم كلثوم وسودة بنت زمعة ، وحسب زينب زوجتها أبو العاص بن الربيع ، وكانت رقية قد هاجرت من قبل مع زوجها عثمان بن عفان ، وحمل زيد أيضا امرأته أم أيمن وأسامة بن زيد ابنه ، وخرج عبد الله بأم رومان وأخته عائشة وأسماء ، فقدموا المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يبني المسجد ويبني بيوته حول المسجد ، وكان طلحة حين هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم موجودا بالشام ، فلما عاد إلى مكة وجد أن الرسول قد هاجر للمدينة فهاجر مع أسرة النبي صلى الله عليه وسلم وأسرة أبي بكر .

وكان عند أبي بكر عندما أسلم أربعون ألف درهم ، ولما خرج إلى المدينة للهجرة لم يكن يملك إلا خمسة آلاف درهم ، فبعث ابنه عبد الله فحملها إليه إلى الغار ، ففضى بها معه (١) .

المؤاخاة

ابتكر الرسول صلوات الله عليه نظام المؤاخاة في الإسلام ، وجعل لهذه المؤاخاة قوة أخوة النسب بما في ذلك الميراث . وقد بدأ هذا الاتجاه في مكة قبل الهجرة ، فقال الرسول لأصحابه : تأخوا في الله أخوين أخوين ، وأخذ علي بن أبي طالب وقال : هذا أخى .

وكان حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة مولى رسول الله أخوين ، وإليه أوصى حمزة يوم أحد إن حدث به حادث الموت .

فلما هاجر المسلمون إلى المدينة اتسع نطاق المؤاخاة بين المسلمين ، فجدد الرسول مؤاخاته لعلى بن أبي طالب ، وجدد حمزة مؤاخاته لزيد بن حارثة ، واتجه المسلمون إلى المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار لتقوية المهاجرين من جانب ، وتخفيف مشكلاتهم المالية من جانب آخر ، ثم لمساعدتهم في احتمال مشكلات الغربة التي ظهرت بعد الهجرة ، وتمت المؤاخاة على النحو التالي :

أبو بكر تأخى مع خارجة بن زهير الخزرجى .

عمر بن الخطاب تأخى مع عتبان بن مالك الخزرجى .

أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح تأخى مع سعد بن معاذ من بنى الأشهل .

عبد الرحمن بن عوف تأخى مع سعد بن الربيع الخزرجى .

عثمان بن عفان تأخى مع أوس بن ثابت من بنى النججار .

طلحة بن عبيد الله تأخى مع كعب بن مالك من بنى سلمة .

(١) البلاذرى : أنساب الأشراف ص ٢٦٩ - ٢٧٤ و ٢٦١ .

وتآخى بلال مؤذن الرسول وهو مولى أبى بكر مع أبى رويحة القشعمى .

(١)

وقد ظل التوارث يتم بين هؤلاء حتى نزلت الآية الكريمة « وأولى الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » فبدأ بذلك الميراث بالنسب والمصاهرة ، ثم جعل الله سبحانه وتعالى المؤمنين جميعا أخوة فى النواد وشمول الدعوة بقوله تعالى : « إنما المؤمنون أخوة »^(٢) .

متاعب اقتصادية بالمدينة

عقب الهجرة

إن الأندلس نشئون المدينة قبل الهجرة يدرك أن أهم ثرواتها كان فى أيدى اليهود إذ كانت الحركة التجارية فى أيديهم ، وكانوا يبتزّون الكثير من أموال الأوس والخزرج عن طريق الربا . كما كانوا يصنعون السلاح ويبيعونه العرب الذين كانوا فى حرب توشك أن تكون مستمرة ، وكانت أكثر الأراضى الزراعية والبساتين فى أيديهم ، مما يجعلنا نقرر أن أغلب ثراء المدينة كان فى أيدى اليهود ، وأن الأنصار كانوا يعيشون فى حياة كفاف غالبا .

فإذا أضفنا إلى ذلك أن الأنصار فتحوا بيوتهم للمهاجرين . وأن زحفا من الأسر المهاجرة نحر المدينة المنورة ، فإننا ندرك ما عاناه المهاجرون والأنصار جميعا من متاعب اقتصادية فى مطلع الهجرة ، ولكن الحال سرعان ما تغيرت . فإن المهاجرين قدموا من مكة ، ولمكة وأهلها شهرة واسعة فى مجال التجارة والمال ، وكان المهاجرون يتجهون للاعتماد على أنفسهم ،

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٢ ص ١٠٩ - ١١٠ تحقيق طه عبد الرؤوف .

(٢) البلاذرى : أنساب الأشراف ص ٢٧٠ والآية الأولى رقم ٧٥ من سورة الانفال والآية الأخيرة رقم ١٠ من سورة الحجرات .

ولا يريدون أن يصبحوا عالة على الأنصار ، ويروى أن عبد الرحمن بن عوف نزل على سعد بن الربيع ، وأكرمه سعد كل الإكرام ، واتسعت دار المضيف وثروته للضيف ، ولكن عبد الرحمن سرعان ما صاح بمضيئة قائلا: جزاك الله خيرا من مضيف سمح ، ولكني أرجو أن تدلني على السوق واندفع عبد الرحمن إلى السوق بخبرة أهل مكة وحماستهم ، وسرعان ما أصبح من الأغنياء ، وسلك كثيرون مسلك عبد الرحمن ، فقد اتجه أبو بكر لبيع الثياب ، واتجه عثمان للتجارة في المحاصيل الزراعية والفاكهة ، فكان يشتري البساتين ويبيعها ، وامتد نشاطه إلى الشام ، واتخذ الزبير مجزرا له في البقيع ، وعمل عمر وسيطا بين التجار ، ورجع الإسلام كفة المسلمين في الميدان التجاري ، إذ حرص المسلمون على اتباع تعاليم الإسلام ؛ فلا غش في البيع والشراء ولا ربا ، ولا تطفيف لسكيل أو ميزان ، ومن هنا اتجه أكثر المتعاملين للمسلمين ، وقل الإقبال على اليهود ، وكان ذلك من الأسباب التي أثارته الحقد في نفوس اليهود ، وجعلتهم يكيدون للمسلمين بكل الوسائل والطرق .

معاهدة التعاون بين المسلمين وغير المسلمين

كان سكان المدينة بعد الهجرة ثلاث طوائف هم :

١ - المسلمون من المهاجرين والأنصار .

٢ - اليهود من بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة .

٣ - العرب الذين لم يدخلوا الإسلام بعد .

وقد أراد الرسول أن يخلق جوا للتعاون والتسامح بين هذه الطوائف وبخاصة مع اليهود الذين كانوا يمثلون عنصرا مهما في المدينة ، فتنقرب لهم الرسول ووثق صلته بهم ، وتحدث مع رؤسائهم ، وربط بينه وبينهم برابطة المودة باعتبار أنهم أهل كتاب موحدون ، وبلغ من ذلك أن كان يصوم يوم

رهم «عاشوراء» وأثرعنه بحبل عطفه عليهم ، وفيض بره بهم^(١) ، وكل هذا مهد لعقد معاهدة بين المسلمين وغيرهم لتصبح المدينة وحدة واحدة تدافع عن كيائها وتواجه أعداءها وتتعاون تعاوناً كاملاً في داخلها ، وقد أورد ابن هشام نص هذه المعاهدة^(٢) وقدم ابن هشام لها بقوله : **وَأَدْعَ الرُّسُولَ الْيَهُودَ فِي هَذِهِ الْمَعَاهِدَةِ وَعَاهِدَهُمْ وَأَقْرَهُمْ عَلَى دِينِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ، وَشَرَطَ لَهُمْ وَاشْتَرَطَ عَلَيْهِمْ . وَخِلَاصَةُ هَذِهِ الْمَعَاهِدَةِ هِيَ :**

١ — أن للجماعة شخصية دينية وسياسية ومن حق الجماعة أن تعاقب المفسد وأن تؤمن المطيع .

٢ — إن الحرية الدينية مكفولة للجميع .

٣ — على سكان المدينة من مسلمين وغير مسلمين أن يتعاونوا مادياً وأدبياً وعسكرياً ، وعليهم أن يردوا متساندين أى اعتداء قد يوجه لمدينتهم .

٤ — الرسول هو الرئيس الأعلى لسكان المدينة وتعرض عليه القضايا الكبرى وصور الخلاف بين طائفة وأخرى ليفصل فيها .

وعلى الرغم من موقف المسلمين السمع كان اليهود غير مخلصين لهذه المعاهدة ، ويبدو أنهم قبلوها ربما يدبرون أمرهم كما سنرى عند الحديث عن علاقة المسلمين باليهود .

الحمى نصيب المهاجرين

عقب الهجرة

يقول ابن هشام^(٣) **لأن يثرب كانت أوطأ أرض الله من الحمى ، فلما**

(١) دكتور محمد حسين هيكل : حياة محمد ص ٢٢٠

(٢) سيرة ابن هشام : ج ٢ ص ١٥٦ وما بعدها .

(٣) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٦٩ - ١٧٥ (تحقيق طه عبد الرؤوف) وتلك هي الطبعة التي اعتمدنا عليها في دراساتنا الجديدة « موضوعات » الرسول في المدينة « وفيما عدا ذلك فإن اعتمادنا كان على الطبعة القديمة »

قدم المهاجرون إلى يثرب ، ولم تكن بهم حصانة ضد أوبئة يثرب أصيبوا بالحمى والمرض ، وصرف الله ذلك عن نبيه صلى الله عليه وسلم . قالت عائشة رضى الله عنها : دخلت على أبي ومعه عامر بن فهيرة وبلال في بيت واحد فوجدتهم قد أصيبوا بالحمى ، وسألت أبي عن حاله فقال : .

كل امرئ مصبَّح في أهله والموت أدنى من شراك نعله

وبمثل هذا كان يشكو عامر بن فهيرة وبلال ، ونستمر عائشة فتقول : ذكرت ذلك للرسول صلى الله عليه وسلم ، فاتجه الرسول إلى ربه داعياً : يارب حبيب إلينا المدينة كما حبيت إلينا مكة أو أشد ، وبارك لنا في مُدَّها وصاعها ، وانقل عن المدينة وباءها ، وأراد الرسول أن يشجع المهاجرين على مقاومة المرض فدعاهم للصلاة معه ، وأدرك أن أكثرهم يريدون أن يصلوا وهم قعود فقال لهم : اعلّموا أن صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم . فتجشم المسلمون القيام على ما بهم من الضعف والسقم إثمياً للأجر والفضل ، وبسبب دعاء الرسول صلوات الله عليه ومقاومة المسلمين زالت الحمى وعادت السلامة .

وكانت هذه الحمى مع ما عاناه المهاجرون من الحاجة والغربة اختصاراً من الله للمسلمين صمد فيه المسلمون ، وظهروا أبطالا يتحملون كل عناء من أجل العقيدة وصدق الله العظيم الذى يقول : وأحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون^(١) .

ومما حدث للمسلمين في أول العهد بالمدينة أن مرت عدة شهور لم تلد المهاجرات خلافاً أى مولود ، وقد اتخذ اليهود والمنافقون ذلك وسيلة للتقليل من شأن المسلمين وتهديدهم بالانقراض ، وفي السنة الثانية للهجرة ولد أول مولود بالمدينة من أصحاب رسول الله وهو عبد الله بن الزبير ، ففرح المسلمون به ، وتلاه أطفال آخرون ، فخرست السنة الباطل^(٢) .

(١) سورة النكبات الآية الأولى .

(٢) البلاذرى : أنساب الأشراف ص ٢٧٢ .

الرسول يبنى المساجد للعبادة والدعوة

كان من أسرع الأعمال التي قام بها الرسول عقب الهجرة بناء المساجد ، ولعل سبب التبكير بإنشاء المسجد هو أن المسلمين أحسوا بأن البيوت تضيق باجتماعاتهم ولا تمنحهم حرية العبادة واللقاء كما يشتهون، ومن هنا أسسوا المسجد وأطلقوا عليه « بيت الله » إشارة إلى أن الداخل فيه لا يحتاج إلى استئذان أو استئناس ، ثم إن العرب قبل الإسلام كانوا يتخلون البيت الحرام متعبدا لهم ، ذلك البيت الذي رفع إبراهيم وإسماعيل قواعده ، والذي أصبح كعبة يحج لها العرب من أصقاع الجزيرة العربية كلها ويتعبدون فيها ، ولما انحرف العرب عن عبادة الله وعبدوا الأصنام جعلوا الكعبة مقرا لأصنامهم ، فكان يلتقي في العبادة بالكعبة الموحدون من العرب ، وعبداء الأصنام ، فلما جاء الإسلام عظم المسلمون البيت الحرام أيضا وأجلّوه حتى قبل أن نزول منه الأصنام ، فقد اتخذ الرسول مصلاه فيه بين الركنين : الركن الأسود والركن اليماني .

فلما أخرج المسلمون من مكة وحُرموا الالتقاء والعبادة في البيت الحرام فكروا سريعا في أن يعتاضوا به مكانا آخر ، بل أمكنه أخرى يجتمع فيها المسلمون في كل صقع أو بلد للعبادة والدعوة . . . ولهذا فإن الرسول وهو في طريقه إلى المدينة مهاجرا ، أقام بقباء أربعة أيام وأسس فيها مسجد قباء ، وهو أول مسجد أسس في الإسلام ، ويقال إن فيه نزلت الآية الكريمة « لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا » (١) .

فلما وصل الرسول المدينة ، وبركت ناقته في الأرض الفضاء التي تحدثنها عنها

(١) سورة التوبة الآية ١٠٩ وانظر في ذلك ابن هشام والطبري والتبرية الاسلامية

أقام الرسول مؤقتاً في بيت أبي أيوب الأنصاري ، وبدأ دون تأخير في بناء مسجد المدينة وبناء حجرتين حول المسجد لزوجه سودة ولزوجه المرتقة عائشة .

مسجد الرسول بالمدينة وصفته : -

كان مسجد الرسول صغير المساحة فقد كان طوله حوالي ٣٥ ذراعاً وعرضه ٣٠ ، وكان محاطاً بجدار من اللبن أساسه من الحجارة ويبلغ ارتفاعه حوالي ثلاثة أذرع ، ولم تكن أرض المسجد مفروشة بشيء ، فلما نزل المطر فرشوا الأرض بالحصى ليتحاشوا الطين ، ولم يكن للمسجد سقف إلا ناحية منه أقيمت بها أعمدة من جذوع النخل وسقفت بالجريد إذ كان يعيش بها أهل الصفة الذين تفرغوا للعبادة ومذاكرة الدين معرضين عن ترف الحياة وزينتها ، وكان سقف بيوت الرسول التي تحيط بالمسجد غير مرتفع ، ويقول الحسن بن أبي الحسن : كنت أدخل بيوت الرسول وأنا غلام مراهق فأناال السقف بيدي ، وكان الرسول يبنى حجرة لكل زوجة يتزوجها تُضمُّ إلى حجرات أمهات المؤمنين .

وقد بقيت بيوت زوجات الرسول حتى توفيت آخر واحدة من أمهات المؤمنين في عهد الدولة الأموية ، فقام الخليفة عبد الملك بن مروان أو ابنه الوليد بهدم هذه الحجرات وضم مساحتها إلى المسجد ، وقد توالى توسيع المسجد وتجميله بعد ذلك على مر الزمن حتى أصبح تحفة فنية رائعة .

مساجد الرسول :

اهتم الرسول ببناء المساجد في كل الأمكنة التي زحف الإسلام لها فيما بين المدينة وتبوك ، ويعدد ابن هشام^(١) مساجد الرسول فيذكر أنها وصلت

(١) سيرة ابن هشام : ج ٢ ص ١٢٩

ثمانية عشر مسجدا ، وربما جاز لنا أن نستطرد قليلا لنذكر أن المساجد زادت بعد ذلك وانتشرت مع انتشار الإسلام ، وأصبح من المتبع أن يُبنى مسجد أو أكثر في كل مكان دخله المسلمون ، أو في كل قرية أو مدينة أسسوها ، فقد روى أن عمر لما فتح البلدان كتب إلى أبي موسى وهو على البصرة يأمره أن يتخذ مسجدا للجماعة ، ويتخذ القبائل مساجد ، فإذا كان يوم الجمعة انضموا إلى مسجد الجماعة ، وكتب إلى سعد بن أبي وقاص وهو على الكوفة بمثل ذلك وكتب إلى عمرو بن العاص وهو على مصر بمثل ذلك^(١) ومن الشرف لمصر أن تقرر أن مسجد عمرو بن العاص بمصر هو أقدم مسجد بقارة إفريقية .

أغراض المسجد :

كان مسجد الرسول متعدد الأغراض ، فقد كان — كما قلنا آنفا — يسمى « بيت الله » وفي هذا البيت كان المسلمون يلتقون للعبادة والاعتكاف ، والتعلم والقضاء ، وكان الرسول يجمع فيه المسلمين إذا أراد أن ينفر للحرب ، وأقام به خيمة في غزوة الأحزاب لعلاج المصابين مما كان أساسا للمستشفيات الإسلامية المرتبطة بالمساجد ، ومن أجل هذا ينبغي أن نعود بمساجد اليوم إلى روح الاتجاه الذي بنى عليه مسجد الرسول بالمدينة المنورة نريد أن يكون مسجد اليوم « مجمعا » به — بجانب العبادة — مكتبة إسلامية وثقافية ، وبه قاعة للمحاضرات والاجتماعات ، تعمل لارشاد الكبار ، وأحيانا لمساعدة التلاميذ والطلاب على النجاح في الامتحانات ، وبه استعدادات صحية تصغر أو تكبر حسب القدرة ، وحوله مكان للشبان يمارسون فيه بعض الألعاب الرياضية المباحة حتى إذا أذن المؤذن للصلاة هرعوا لأدائها ، ونريد أن يكون في كل مسجد مكان للنساء به نفس الوسائل والتيسيرات الخاصة

(١) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٢٤٦ والسيوطى : حن المأطرة ج ٢ ،

بالرجال كدورات المياه ، وأماكن الاستماع للدروس والمحاضرات ، فالدين الإسلامي ليس للرجال فقط ، والمرأة المسلمة المتدينة ستبحث أولادها على ارتياد المسجد ، وستلقنهم التعليمات الإسلامية الأولى إذا شُغل الأب عن هذا الواجب بصراعه في الحياة ، وكل مسجد ليس به مكان للمرأة فهو مسجد ينقصه شيء مهم ، ويمكن أن يكون هذا المكان بدور علوى مستقل أو بقطاع خاص من المسجد ، له مدخل مخصص للنساء ، وقد كانت النساء على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم تصلين خلفه في المسجد كما سنرى فيما بعد ، إننا إذا فعلنا ذلك بمسجد اليوم نخلق مركزا دينيا سيكون واسع الأثر في خدمة الإسلام والمسلمين كما كان مسجد الصدر الأول للإسلام .

مظهر المسجد :

أما عن مظهر المسجد فإن حديث الرسول يحدده ، يروى أنه قال لصحبه : ابنوا لى عريشا كعريش موسى ، ثمامات وخشبات ، وظلّة كظلّة موسى . فقالوا له : وما ظلّة موسى ؟ فأجاب : كان إذا قام أصاب السقف رأسه . ويعلق أحد الباحثين على هذا الحديث بقوله : قصد الرسول بقوله هذا أن يبنى له مسجد متواضع ليس فيه شيء من زينة الدنيا^(١) .

وقد اقتدى عمر بن عبد العزيز بالرسول صلوات الله عليه في هذا المجال ، فقد كان يكثر من المساجد ولكن لم يكن يتأنق في تشييدها ، ولما طلب منه أن يدفع مبلغا لتزيين مسجد أجاب : لأن أنفقه على أكباد جائعة أحب إلى من أن أنفقه على الجدران والأثاث^(٢) .

(١) أحمد التاجي : سيرة النبی العربی ح ١ ص ٣٢٩ - ٣٣٠

(٢) انظر الجزء الثاني من موسوعة التاريخ الإسلامي للمؤلف ص ٨٨

ذلك هو أصل التفكير الإسلامى فى هذا الموضوع ، ولكن لا بأس من فخامة المباني إذا كان ذلك يهيئ المساجد لتأدية الأغراض التى طرأت فى العصر الحاضر كقاعات المحاضرات ومكان المكتبة الإسلامية ولا بأس كذلك فى تقديرى إذا كان ذلك فى مواجهة منافسة دينية ، فإذا عني المسيحيون أو اليهود أو البوذيون بكنائسهم ومعابدهم فى قرية من القرى أو مدينة من المدن ، فإن المسلمين لا يقنعون بمسجد متواضع الشكل لا يمكن أن يتنافس هذه المعابد التى تبرز أحياناً بهيجة مثلاًثة .

ومعنى هذا أنه ليس هناك ما يدعو لتشييد مساجد ضخمة فى قرى ليست فيها منافسة دينية ، وبخاصة إذا كانت هذه المساجد غير مستوفاة لمظاهر النشاط الدينى ، أو كانت بنيت على حساب فقراء يحتاجون لمسا أسهموا به من مال فى سد حاجة أو كبد جائعة ، وفى ريفنا المصرى مثل شائع يقول « الذى يلزم لبيتك يحرم على الجامع » وهو مثل ينطبق تمام الانطباق على التفكير الإسلامى .

الأذان :

يقول ابن هشام^(١) نقلاً عن ابن إسحق : إن الرسول صلى الله عليه وسلم اطمأن بالمدينة واجتمع إليه إخوانه من المهاجرين والأنصار ، واستحكم أمر الإسلام ، وأقيمت الصلاة وفرضت الزكاة والصيام ، وفرض الحلال والحرام . . . وكان المسلمون يجتمعون للصلاة فى أول مواقيتها بدون دهرة ، فكان منهم من يتأخر لعدم معرفته بدخول الوقت ، فهم الرسول أن يستعين ببوق كبوق اليهود ، ولكنه كره ذلك ، ثم هم أن يستعين بناقوس وأراد عمر أن يشتري خشبتين للناقوس ، ولكنه نام قبل أن يفعل فرأى فى المنام من يقول له : لا تستعملوا الناقوس ، بل أذنوا (الله أكبر

(١) السيرة النبوية ج ٢ ص ١١١ - ١١٢ (تحقيق طه عبد الرؤوف) .

الله أكبر . . .) فذهب عمر إلى النبي صلى الله عليه وسلم لينخبره بذلك ،
فما راع عمر إلا بلال يؤذن بنفس الكلمات ، وقال الرسول لعمر حين أخبره
بما رأى في المنام : قد سبقك الرحي .

ويروى ابن هشام رواية أخرى تذكر أن الذي رأى الرؤيا هو عبد الله
ابن زيد الخزرجي ، وأنه ذهب إلى الرسول بذلك ، فقال الرسول : إنها
رؤيا حق ، قم مع بلال فألق عليه كلمات الأذان كما رأيته في المنام ليؤذن
بها ، فإنه أقوى صوتا ، ولما سمع عمر كلمات الأذان جاء للرسول يقول
له : والذي بعثك بالحق ، لقد رأيت في منامى مثل ما أرى الآن في يقظتي .

ويروى ابن هشام^(١) كذلك عن امرأة من بني النجار أن بيتها كان
أعلى بيت حول المسجد ، فكان بلال يؤذن عليه للفجر ، وكان قبل الفجر
يدعو ويسبح بصوت رقيق حتى يدخل موعد الفجر فيؤذن بالأذان ،
وتقول هذه المرأة والله ما علمته كان يترك ذلك ليلة واحدة .

المساجد ومكبرات الصوت :

ونمناسبة الحديث عن الأذان ينبغي أن نقول كلمة عن مكبرات الصوت
التي خلقها الفكر الحديث ، ورأى أنه لا مانع من استعمال مكبرات الصوت
في الأذان ، فرفع الصوت بالأذان عمل إسلامي لإبراز دخول وقت الصلاة ،
أما فيما عدا الأذان فلا يقر الفكر الإسلامي استعمال هذه المكبرات حتى
لا يؤذى عالم يبحث أو طالب يذاكر أو مريض يعانى ، والقرآن الكريم
يقول « والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا
بهتاناً ولأنا مبيننا^(٢) » .

(١) السيرة النبوية ج ٢ ص ١١٢

(٢) سورة النساء الآية ١١١

والعجيب في سوء استعمال هذا الجهاز أن الناس يثبتونه خارج المجتمعات والسرادات ليصرخ لمن لا يجلسون للاستماع ، فيتأذى به الكثيرون ، وإذا قرىء القرآن الكريم فن واجب المسلمين الاستماع له قال تعالى « وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا^(١) » ولكن ما العمل إذا كان الإنسان يعمل لكسب عيشه ؟ أويذاكر لامتحان ؟ أو نحو ذلك فن المسئول عن إذاعة القرآن الكريم لمن هو ليس مستعدا في هذا الوقت لتلقى القرآن الكريم .

لقد أسىء استعمال هذا الجهاز وأكبر إساءة له توجد في مصر وحدها ، وإن ما يخسره مستعملو هذا الجهاز أكثر جداً مما يكسبون ، فليت الناس يفهمون .

القبلة :

هناك موضوع مهم يتصل بالمسجد ذلك هو موضوع القبلة ، وفلسفة الإسلام تنفضي بخلق روابط بين المسلمين بعضهم والبعض في أكثر أمور الدين والدنيا ، فهم جميعا يصومون شهر رمضان ويصلون صلوات موحدة ، ويحجون إلى بيت الله العتيق ، وهكذا ، ومن هذه الأشياء أن يتجه المسلمون جميعا إلى مكان واحد وقت الصلاة ، ليحصل التجانس بين صفوف المصلين وبخاصة في صلاة الجمعة والجماعة والصلاة في المسجد أو نحو ذلك ، لتطرد الوحدة التي عنى بها الإسلام ، أما المكان الذي اتجه له المسلمون في صلاتهم قبل المحرة ، فهو الكعبة لأنها بيت الله العتيق . وبناء إبراهيم ، وموضع فخار العرب .

غير أن بعض المسلمين الأول ظنوا في اتجاههم للكعبة أن المكان نفسه معظم ، فأراد الله أن يعلمهم أن اتجاههم إنما هو في الحقيقة لوجهه تعالى ، وليس فضل الكعبة إلا لأن هذا المكان شهد دين إبراهيم وشهد عبادة الله منذ آلاف السنين ، ولكن إذ تعلق بعض العرب بالكعبة تعلقا

ذاتيا ، وإذ غفل بعضهم عن أن الاتجاه إنما هو لله ، فقد انجبت حكمة الله أن يختار مكانا آخر ليختبر عمق إيمان المسلمين وطاعتهم ، وليثبت في نفوسهم هذه الحقيقة الهامة التي ذكرناها من قبل ، وهي أن الاتجاه يجب أن يفهم على أنه لله تعالى ، وفي هذا المعنى وردت الآية الكريمة :

« والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله »^(١) وقد قال المفسرون في تفسير هذه الآية : إنه لا يختص مكان دون مكان بخصوصية ذاتية تمنع إقامة غيره مقامه^(٢) .

وكانت هذه الآية - كما قال المفسرون - توطئة لتوجيه المسلمين في صلاتهم إلى غير الكعبة ، كما كانت تعليما للمسلمين بأن الاتجاه لله لا للمكان ، وأن اختيار المكان إنما هو مطابق لفلسفة الإسلام التي سبق ذكرها والتي تقضى بخلق روابط بين المسلمين ، فلو لم يحدد مكان واتجه كل مسلم حيث يريد لضاعت الرابطة التي يحرص الإسلام عليها .

ولهذه العوامل اختار الله للمسلمين قبله جديدة عقب الهجرة ، وهي الاتجاه لبيت المقدس^(٣) واستجاب المسلمون لإرادة الله وأدركوا حكمته تعالى .

ثم ظهرت عوامل أخرى ، فقد كان بيت المقدس قبله اليهود ، فإذا هؤلاء يأخذون من اتجاه المسلمين إلى قبلتهم وسيلة للسخرية بهم ، وانطلقوا يقولون : محمد لا يتبع ديننا ويتبع قبلتنا ، وشق على العرب أن يتجهوا إلى قبله اليهود ، ولكنهم في الحقيقة استجابوا بكل قوة وإيمان متحملين سخرية اليهود لوجهه تعالى ، وبقيت الحال على ذلك مبعة عشر شهرا ، ثبت خلالها في نفوس المسلمين أن الاتجاه في الصلاة إنما هو في الحقيقة لله ، وأن المكان يمكن تغييره .

(١) سورة البقرة الآية ١١٥

(٢) انظر تفسير البضاوى ص ٣٤ .

(٣) فكان بيت المقدس بذلك أولى القبلتين في اختيار الله ، أما الصلاة للكعبة قبل الهجره فكانت من اجتهاد الرسول ، أركان استمرارا لتنظيم الكعبة ، وكان تعظيمها معترفا به لدى المسلمين .

وقد توقع الرسول ووقع في روعه أن الله سيحول به إلى الكعبة مرة أخرى ، وكان الرسول يتطلع إلى الله في صمت ودون دعاء ، آملا أن يحقق له ذلك إرضاء للمسلمين وردا على سخزية اليهود ، وقد عبر الله تعالى عن ذلك بقوله : (قد نرى ثقلب وجهك في السماء ، فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره) (١)

وكان ذلك إذنا للتسليم بالعودة إلى قبلتهم الأولى ، ويروى أن هذه الآية نزل بها الوحي والرسول يؤم الناس في صلاة الظهر في مسجد بني سلمة ، وقد جاء نزولها بعد أن صلى الرسول ركعتين من الظهر متجها إلى بيت المقدس ، فتحول إلى الكعبة حيث صلى الركعتين الأخيرتين ، وتحول الناس (٢) ولذلك يسمى هذا المسجد « مسجد القبلتين » :

ولم يكن هذا نهاية الموضوع ، فإن اليهود بعد أن ترك الرسول قبلتهم راحوا يقولون : لو ثبت محمد على قبلتنا لكنا نرجو أن يكون صاحبنا الذي ننتظره ، وكانوا يقصدون بذلك أن يعود إلى قبلتهم لا ليتبعوه ، ولكن ليحدثوا اضطرابا في الفكر ، وبلبلة في النفس ، ولذا قطع الله أمهم وكشف سريرتهم بقوله :

(ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك ، وما أنت بتابع قبلتهم ، وما بعضهم بتابع قبلة بعض) (٣) :

وكان تحول القبلة إلى بيت المقدس بعد الهجرة بقليل ، وصرفت القبلة عن الشام إلى الكعبة في شهر رجب على رأس سبعة عشر شهرا من مقدم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة (٤) .

(١) سورة البقرة الآية ١٤٤ .

(٢) انظر البيضاوي ص ٣٤ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٤٥ .

(٤) ابن هشام ٢ : ١٧٦ .

الرسول الداعية

عَنِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ عناية كبيرة بالدعوة للإسلام ، وقد اهتم بذلك في مكة وفي المدينة ، ولكن الدعوة للإسلام في المدينة كانت أوسع نطاقاً ، وأعظم جدوى ، ثم إن الرسول اهتم - كما قلنا آنفاً - بإنشاء المساجد بعد الهجرة ، وجعل من أغراضها أن تكون مراكز للدعوة الإسلامية ، وطالما جلس فيها يستقبل الوافدين ليعرفهم بالإسلام ، أو يتوسط المسلمين ليزيدهم علماً ومعرفة بدينهم ، كما كان يجلس في بيته أوفى بيوت أصحابه ليعلم النساء .

وإذا كانت هناك أديان لا تهتم بالدعوة والانتشار كالهندوسية الخاصة بالهنود والكونفوشية الخاصة بالصينيين ، واليهودية الخاصة ببنى إسرائيل ، فإن الإسلام من أديان الدعوة ، لا يختص بقطر دون قطر ولا بجنس دون جنس ، ويتنافس في ذلك دينان آخران هما المسيحية والبوذية ، وإن كانت البوذية تقنع غالباً بمنطقة من الأرض هي شرق آسيا .

ونجىء الآن إلى الحديث عن محمد ، كيف كان يدعو للإسلام ، ولا شك أن موقف الرسول سيساعدنا كثيراً في العصر الحاضر لاحتذى حذو الرسول ونسير على نهجه في هذا الموضوع الخطير .

وفي التقديم للحديث عن محمد كداعية ، نذكر بعض آيات الذكر الحكيم التي تبهرز عالمية الإسلام ، ثم بعض آيات الذكر الحكيم التي ترسم الطريق للداعية ، فعن عالمية الإسلام يقول الله تعالى :

— وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين (١) .

— وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً (١) .

— تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً (٢) .

وعن الطريق للدعوة يقول تعالى :

— ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن (٣) .

— ولتكن منكم أمة بأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون (٤) .

كيف دعا الرسول للإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ؟ وكيف كان نموذجاً فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؟

هذا ما سنوضحه فيما يلى :

كانت حياة نبي الإسلام وطريقته لنشر هذا الدين صورة رائعة للداعية ، وإذا كانت حياة النبي هى مقياس للسلوك لعامة المسلمين فإنها بالنسبة للدعوة أكثر لزوماً وضرورة لمن يعملون فى هذا المجال ، ومن الواضح أن الرسول بدأ دعوته فى مكة ولاقى هناك عنتاً شديداً ، ولكنه صبر وصابر كما تحدثنا عن ذلك من قبل ، واتبع الرسول فى عمله خطوات تُعدُّ نموذجاً رائعاً لكل داعية ، فقد دعا للدين سرّاً بادية الأمر ثم خطا خطوة إلى الأمام فدعا أهله وعشيرته ، ثم ارتقى إلى القمة عندما جاهر بالدعوة لكل الناس ، وكان القرآن الكريم هدياً له فى هذه الخطوات ، وهو بذلك هدى لكل داعية ألا يندفع إلى خطوة قبل أوانها ، بل يترقب الداعية بالناس ، ولا يتجاهل بعدهم فى العقيدة عنه ، ويتلمس الوسيلة للوصول إلى

(١) سورة سبأ الآية (٢٠٨) .

(٢) سورة الفرقان الآية الأولى .

(٣) سورة النحل الآية (١٦٥) .

(٤) آل عمران الآية (١٠٤) .

قلوبهم ، وقد تكون الوسيلة بدعوة الأصفياء وتحاشى القساة ، أو بالاعتماد على صلات القرابة ، فإذا وَجَدَتْ الدعوة بعض الاستجابة عن هذين الطريقين راح يجهر بها بعد أن يكون قد قوى جانيه .

ومن الواضح أن الرسول ضحى من أجل الدعوة بما يملك من جهد ومال ، ولذلك سَخِرَ منهم عندما قالوا له : إن كنت تريد مالا أعطيناك مالا ، وإن كنت تريد الرياسة ملكناك علينا . . . فما كان له في ذلك هدف ، وكلما ترفع الداعية عن متاع الدنيا كلما كان أعمق تأثيرا وأكثر نجاحا .

ولم تنجح الدعوة في الانتشار بمكة ، وكانت المقاومة عنيدة ومستمرة ، ولكن الداعية العظيم لم يلبس ولم يضعف ، وراح يتلمس أمكنة أخرى يلزم فيها بدوره الطيبة ، فلجأ إلى الطائف ، بيد أن رحلة الطائف على الرغم من وعورة الطريق وصعوبة الزاد لم تأت بباطل ، ولكن الداعية العظيم يتلمس مرة أخرى طريق النجاح ، فاتخذ من مواسم الحج فرصة لنشر الدعوة بين وفود القبائل التي كانت تتدفق إلى مكة ، ولكن جبايرة الشرك لاحقوه في هذه الخطوة ، وبخاصة عمه أبولهب الذي كان يتبعه ، ويصبح في القوم الذين يلقاهم محمد قائلا : « إنه لصابيء يريدكم أن تنسأخوا عن دين آبائكم إلى ما جاء به من بدعة وضلالة » وكان جاءه قريش وسطوة أبي لهب تنال الغلبة في كثير من الأحوال ، فكانت جماعات الحجيج تقول لمحمد إن قومك وذوي قرابتك أعرف الناس بك ، ولو كنت على حق لا تتبعوك وساعدوك ، ولكن ذلك لم يوهن عزيمته ، فاستمر في لقائه بجماعات الحجيج ، حتى صادف جماعة من يثرب فدعاهم وتلطف إليهم ، وكان ذلك بدءا لافتتاح الأبواب المغلقة والقلوب المقفلة .

ونمت الدعوة بين أهل المدينة من يوم إلى يوم لأسباب ذكرناها من قبل ، وفي أحد اللقاءات جاءت الدعوة من مسلمي المدينة إلى محمد ليهاجر إليهم بعد أن انتشر دين الله ، فدخل كل بيت من بيوت المدينة تقريبا واستجاب لهم الرسول وهاجر إليهم ، وبدأت الدعوة للإسلام بالمدينة

تأخذ «لأبعا جديدا فقد بنيت مساجد أصبحت سراكز للدعوة ، وأصبح للدعوة جاه وجاهة» ، وأصبح المسلمون بعد هذا الجهد الجهاد أقوى من أعدائهم في هذا المقر الجديد .

ووضح أن الدعوة الإسلامية في المدينة أصبحت ذات شقين كبيرين ، الشق الأول مع المسلمين لتعليمهم التزامات الدين الجديد ، وشرح التشريعات الجديدة التي بدأت تتدفق في القرآن الكريم في هذا العصر ، والشق الثاني المواجهة مع الكتل الكبرى بالمدينة التي كانت لم تدخل الإسلام بعد ، ثم الاتجاه للدعوة للإسلام خارج المدينة .

ففي الشق الأول اهتم الرسول بالمسلمين اهتماما كبيرا ليثبت الدعوة في قلوبهم ، وليعلمهم ما جئ من نشريات ، فأطال جلساته بالمسجد ، والمسلمون يحيطون به ، يعلمهم ويرشدهم ، وهم يسألونه عما يشغلهم فيجيبهم ويهديهم ، واهتم الرسول كذلك بالمرأة اهتماما كبيرا ، ومن ذلك قوله « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » وكان - فيما يرويه البخاري - يصلي خلفه بعض النساء صلاة الفجر ، وكان من حكمته عليه السلام أنه عقب السلام ونية الخروج من الصلاة ، كان يبق في مكانه فترة لينصرف النساء في الصفوف الخلفية ، فإذا اطمان إلى انصرفهن قام وقام معه الرجال ، وكان يخفف صلاته إذا سمع بكاء طفل خلفه خشية أن تفتن به أمه فتصرف عن صلاتها (١) .

وسأل النساء رسول الله أن يجعل لهن مجالس خاصة يعلمهن فيها ويحب عن أسئلتهن ، فقلن له : يا رسول الله ، غلبنا عليك الرجال ، فاجعل لنا مجلسا لئلقاك فيه ، فكان يلقاهن مرة أو مرتين كل أسبوع ، وكان يجلس معهن في أحد بيوته أو في بيوت أصحابه .

واهتم الرسول اهتماما كبيرا بمن سيصبحون علماء الأمة ودعاة الإسلام

فيما بعد ، أولئك ، الذين ستثول إليهم قيادة الحركة العلمية ، وستكلم عن تربية هؤلاء عند الحديث عن « الرسول يربي العلماء والدعاة » .

وفي الشق الثاني وهو دعوة غير المسلمين للإسلام كانت سياسة الرسول غاية في الروعة والذكاء ، وقد بدأ أولاً بالمدينة لتأمين المركز الإسلامي الجديد ، وكان في المدينة منافقون تظاهروا بالدخول في الإسلام ، وعرب تمسكوا بوثنيتهم ، وجماعات اليهود .

ففيما يتلعن بالمنافقين أغضى الرسول الطرف عن نفاقهم وأظهر أنه لا يعرفه ، وأخذ يلاطفهم ويتودد إليهم ؛ حتى أزال النفاق من قلوب الكثيرين منهم .

أما العرب الوثنيون واليهود فقد عقد معهم معاهدة التعاون بين المسلمين وغير المسلمين وقد ذكرناها من قبل ، وأمن المسلمين بذلك الحياة في المدينة المنورة ، وأصبحت الدعوة هي الشغل الشاغل للرسول بعد أن استقرت الأمور بالمركز الجديد .

وقد زاول الرسول دعوة عرب المدينة الذين كانوا لم يدخلوا الإسلام بعد ، وبوماً بعد يوم استجاب هؤلاء لدعوته حتى شمل الإسلام عرب المدينة كلهم تقريباً .

واتجه الرسول إلى اليهود فظل يتخير أفضلهم ويدعوهم إلى الإسلام حتى دخل منهم جماعة مستجيبين لهذه الدعوة ، ومن هؤلاء عبد الله بن سلام الذي كان يدعى الحصين بن سلام قبل الإسلام .

ويروى أن عبد الله بن سلام عندما دخل الإسلام جاء إلى الرسول ليثبت مكانته بين اليهود ، وقال يا رسول الله : أدخلني بعض بيوتك ثم أسأل اليهود قبل أن يعرفوا إسلامي لتعرف منهم مَنْ أنا بينهم . فأدخله الرسول بعض بيوته ، واستدعى الرسول بعض اليهود ، وبعد حديث بينه وبينهم سلمهم : أي رجل الحصين بن سلام فيكم ؟ فأجابوا : سيدنا وابن سيدنا وحرنا وعالمنا ،

«اضربوا في الثناء عليه . فلما فرغوا من قولهم خرج عليهم عبد الله بن سلام فقال : يا معشر يهود اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به محمد ، فوالله لتعلمون أنه لرسول الله ، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته ، وإني أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

فقال اليهود : خست وكذبت ، وراحوا يلصقون بعبد الله بن سلام ألواناً من سبىء الخصال ودنىء السجايا ، فقال عبد الله للرسول : ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قومٌ بهتٍ وضلال ، وأسلم عبد الله وأسرته وحسن إسلامهم ، ومثل هذا حدث مع بعض اليهود الآخرين مثل ثعلبة بن سمية وأسد بن عبيد^(١) .

وتطّلع الرسول بعد المدينة إلى خارجها ، وكان اهتمامه واضحاً بالنصارى ، فهم أهل كتاب يؤمنون بالله ، فدعاهم إلى لقائه ، فوفدت له وفود منهم ، من نجران ، وكان الرسول يحسن استقبالهم ويدعوهم إلى الإسلام ، ويدكرهم بما في كتبهم مما جاء عنه ، فأسلم منهم عدد كبير ، كما أسلم عدى بن حاتم الذي كان قد اعتنق النصرانية ، وسنتحدث عن إسلام عدى عند الكلام عن « الرسول والنصارى » .

ثم اتجه الرسول إلى قلب الجزيرة العربية داعياً ، وكان يهتم بالرؤساء الذين يعرف فيهم الدعة والاستقامة ، فاستجاب الكثيرون منهم ، وكان دخول هؤلاء الرؤساء في الإسلام ، يفتح الباب لتدفق أتباعهم .

وانتشر الإسلام في قلب الجزيرة العربية بوسائل الدعوة الرشيدة التي اتبعها الرسول ، وسرعان ما تطاع عليه السلام إلى أطراف الجزيرة ، فأرسل الدعاة واستقبل الوفود ، ولاقت الدعوة كل نجاح بهذا الطريق أو ذاك ، بل تطلع عليه السلام إلى الممالك والدول التي تحيط بالجزيرة العربية فأرسل هؤلاء رسائل ومبعوثين ، ودقّ بذلك هذه القلوب ، فكان ذلك إيذاناً بالفتوح الإسلامية التي جاءت في العصور التي تلت عصر الرسول .

وستحدث عن الوفود والرسائل في حينها أى في أواخر عهد الرسول
بهذه الحياة الدنيا .

وهكذا كان محمد الداعية نموذجاً عظيماً لحمل الدعوة ، وشرحها ،
وتقديمها للناس ، والدفاع عنها ، فما أوجبنا أن نتدارس بعمق طريقته
لنتأسي بها ، وأن نحاول أن نتخلق بالحكمة والملاحظة الحسنة والصبر والدأب
ونحن ننقل فكرنا إلى أية جماعة من جماعات البشر .

الرسول يربى العلماء والدعاة

من أبرز ما يقوم به القادة الموهوبون المخلصون أن يربوا الصف الثاني الذى يأخذ عنهم ويحمل العبء معهم وبعدهم ، بل أن يربوا صفوفاً متتالية أشبه بدرجات السلم ، لتسير أمور المجتمع فى مأمن من الأحداث ، بحيث لومات قائد أو اختفى بسبب ما ظهر خُلفه يحمل العبء دون توقف أو اضطراب ، وتعتبر تربية الصفوف التالية أبرز ما يهتم به القادة إن كانت لهم قِيَمٌ يحرصون عليها وأهداف يسعون لنيلها .

وموقف الرسول صلوات الله عليه من تربية الصفوف التالية موقف نموذجي ، يتحتم على المسلمين أن يتعرفوا عليه ليقنطروا به ويسيروا على هديه ، وقد اهتم الرسول بتربية الصفوف التالية فى مختلف الميادين ، فى ميدان السياسة والحكم ، وفى ميدان الحرب والجهاد ، وفى ميدان العلم والدعوة ، وسنتدارس جهود الرسول فى كل ميدان من هذه الميادين فى حينه ، وهنا - ارتباطاً بالمسجد وبالرسول الداعية - نتحدث عن الرسول وهو يربى العلماء والدعاة .

كان للرسول صلوات الله عليه قدرة هائلة فى اختيار الأشخاص الذين يحملون راية العلم بعده ، ويتحملون مسئولية توصيل المعارف إلى الناس ، وإذا كانت الحياة فى الجامعة تُعطى اهتماماً كبيراً لاختيار المعيدى وطلاب الدراسات العليا ليكون منهم أساتذة المستقبل ، فإن ذلك مأخوذ من حكمة الرسول وفطنته ، فقد كان شديد الاهتمام باختيار العناصر الصالحة التى يفضى لها بمزيد من الخبرات والمعارف لتحمل رسالة العلم بعده ، ومن أبرز صفات حَمَلَةِ العلم الدأب على البحث ، وسعة الطاقة ، والرغبة فى العطاء الفكرى ، ويروى أن الرسول صلوات الله عليه كان يختار لذلك مجموعة من

خاصة المسلمين ليعطيهم من التفاصيل الفكرية ما لا يمكن أن تطيقه أفكار سواهم ، فقد كان الصحابة يتفاوتون في العلم والهدى ، فمنهم من أخذ عن النبي صلى الله عليه وسلم بنصيب وافر ، ومنهم من أخذ قدرأ متوسطا ، ومنهم من كان قليل البضاعة صاحب النبي وكأنه لم يصاحبه ، ولذلك تروى عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما أظن فلاناً وفلاناً يعرفان ديننا الذي نحن عليه » (رواه البخارى) وتروى أم سلمة عن الرسول قوله : « إن من أصحابي من لا يرانى بعد أن أفارقه » أى أنه سينسى بعض ما قدمت من تعاليم وأفكار .

أما القسم من الصحابة الذين يصدق عليهم قوله صلى الله عليه وسلم : « العلماء ورثة الأنبياء » فكان منهم على بن أبى طالب ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبى حذيفة وحذيفة بن اليمان وكثيرون أمثالهم ، وكان الخلفاء الراشدون يلجأون هؤلاء إذا حزب أمر فكري ، فكان على رضى الله عنه أقضى القضاة ، كما كان منهم مجالس الشورى للخلفاء ، وسنتحدث فيما يلى عن نماذج من هؤلاء الذين برزوا في ميدان العلم والمعرفة ،

على بن أبى طالب :

لاشك أن على بن أبى طالب يقف في القمة بين العلماء ، فهو أول من أسلم من الصبيان ، وكان يعيش في بيت الرسول ، ومن هنا كان أسبق من تلقى عنه ، وكان أصنى المؤمنين قلبا ، وأبعدهم عن ترف العيش ، إذ أصبح منذ نشأته وهو يرى الرسول مثله الأعلى وأمله في الحياة ، فتخلق بأخلاقه ، واغترف من فيض علمه ، ثم كان من كتاب الوحي ، وبهذا كان من أسبق المسلمين لتلقى كلام الله وتدوينه ، والعمل بما جاء به .

ولم تكن الدنيا عند على ذات بال ، وذلك على النمط الذى اتبعه الرسول صلوات الله عليه ، ومن هنا بات على في فراش الرسول ليلة الهجرة وهو

يعلم أن قريشا ستقتل من تجده في هذا القراش ، وهي مغامرة لا يطيقها إلا الأبطال ، ثم إن الرسول ترك له أن يرد الأمانات إلى أصحابها وهي ثقة واسعة ، ولما انتهى على من هذه المهام لحق بمعلمه في المدينة حتى لا يضيع منه شيء من التلقي والمعرفة (١) ، وفي غزوة بدر وقف على مبارزا عملاقا ، فضرب بسيفه أول ضربة في الغزوة الأولى ، وكذلك كان في كل الغزوات ، وزوجه رسول الله من أحب بناته إليه ، من السيدة فاطمة ، وقال لها الرسول : زوجتك أقدم الناس أسلاما وأكثرهم علما . ولما سئل ابن عباس عن علم علي أجاب : ما أنا إلا قطرة من بحار علمه ، وإذا كان الرسول مدينة العلم فعلى بابها ، وقد دعا رسول الله لعل أن يهديه في القضاء بقوله : اللهم اهد قلبه وثبت لسانه ولقنه الصواب ، ومن هنا كان على أنقضى الناس حتى ضرب به المثل فكانوا يقولون : قضية ولا أبو حسن لها ، وحثه الرسول على استعمال العقل والفكر فقال له : يا علي إذا تقرب الناس إلى الله بأنواع البر تقترب أنت إليه بحكمة العقل ، تسبقهم بالدرجات والزلنى عند الناس وعند الله ، ويعلق بعض الباحثين (٢) على هذا الحديث بقوله : إن رسول الله يذكر أن ثروة على كانت في علمه وعقله ، ويستطيع بها أن يتقرب إلى الله بتعليم الجاهل وحل مشكلات الخلق ، وهو بذلك ينال الحظوة عند الله والناس .

معاذ وسالم :

فإذا انتقلنا بعد هذه العجالة عن علي إلى معاذ بن جبل وسالم مولى أبي حذيفة فإننا نروى عن الإمام البخارى قوله : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « خذوا القرآن عن أربعة : عن ابن مسعود وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبي حذيفة » وكان المهاجرون الذين قدموا

(١) البلاذرى : أنساب الأشراف ص ٢٦١ .

(٢) محمد التاجي : سيرة النبي العربي ج ٢ ص ٤٢٠

إلى قباء يؤمهم سالم مولى أبي حذيفة لأنه أكثرهم قرآنا وإن فيهم عمر بن الخطاب وأبا سلمة بن عبد الأسد (١)

حذيفة بن اليمان :

وكان حذيفة بن اليمان يسمى صاحب السر ، لأن الرسول أفضى إليه ببعض الخصاص التي كان يقوى على تفهمها أكثر مما يقوى سواه ، وذلك عملا بأمر الله الذي ألزم العلماء أن يخاطبوا الناس بقدر عقولهم ، ولذلك كان عمر يسأل حذيفة كيف يراه بعين بصيرته (٢) مما يدل على أن لحذيفة بصيرة ليست لسواه .

فلك لمحة عن بعض نماذج من العلماء الذين عنى الرسول بتربيتهم وتنقيفهم ، وحديثنا عن العلماء امستمر ، وبخاصة أولئك الذين اختارهم الرسول ليحملوا أعباء الدعوة معه في حياته ، أو ليحملوها بعده ، وأول مبعوث للرسول مصعب بن عمير الذي أرسله الرسول إلى يثرب قبل الهجرة ، ومن مبعوثي الرسول على بن أبي طالب الذي أرسله إلى اليمن ، وأبو عبيدة بن الجراح الذي أرسله إلى نجران ، ومعاذ بن جبل الأنصاري الذي أبقاه الرسول بمكة عقب فتحها وعودة الرسول إلى المدينة ، وأبو ذر الغفاري الداعية الناجح الذي أسلم قومه وجيرانهم بدعوته لهم .

ما الصفات التي لاحظها الرسول في هؤلاء الذين اختارهم ليكونوا دعاة الإسلام ؟ وما الوصايا التي قدمها لهم وهم يخطون لحمل هذه المسئولية ؟

(١) البلاذري : أنساب الأشراف ص ٢٦٤ .

(٢) سيره النبي العربي ج ٢ ص ٤١٠ .

لقد تكلمنا من قبل عن بعض هؤلاء في مجال العلم ، ولكننا نتحدث عنهم هنا والرسول يختارهم دعاة لحمل الرسالة ، وأبرز الصفات التي يلزم أن تتوفر في الداعية هي العلم ، وعدم الحرص على ترف الحياة ، والرغبة في العطاء ، وقوة البيان ، وسماحة النفس ، ونقاء السريرة ، والشجاعة في مواجهة الشدائد ، وهذه الصفات جميعها كانت واضحة المعالم في الدعاة الذين اختارهم الرسول لحمل مسئولية الدعوة إلى الله ، وسندار من صفات هؤلاء الأعلام الذين كانوا مطلع الدعاة لنجعلهم أئمة لنا في مجال الدعوة .

مصعب بن عمير :

مصعب بن عمير أول الدعاة ، فقد اختاره الرسول كما ذكرنا من قبل ليذهب إلى يثرب مع نفر الذين بايعوا الرسول في بيعة العقبة الأولى ، وكان مصعب بذلك مُقَدِّماً على عمل خطير ؛ إنه يقتحم يثرب ليواجه فيها جمهرة واسعة من الذين لم يدخلوا الإسلام بعد ، وكان مصعب جديراً بحمل هذه المهمة ، فقد كان من السابقين إلى الإسلام ، وقد دخل هذا الدين على الرغم مما توقعه من تهديد أمه التي كانت قوية الشكيمة ، تُهاب إلى حدٍّ الرهبة كما كانوا يقولون ، ونمَّذت أمُّه تهديدها فيه بعد أن دخل الإسلام ، فحرمته ما كانت تغدقه عليه من مال ونعيم ، واضطهده أهله وحبسوه ولكنه فرَّ منهم وهاجر إلى الحبشة ، بيد أنه مرعان ما عاد من الحبشة ، لأنه آثر أن يواجه الشدائد على الفرار منها ، وسنعود فيما بعد إلى الحديث عن مصعب كشاب اعتنق الإسلام على الرغم من أمه ، ونواصل هنا حديثنا عن مصعب كداعية .

وقد اكتسب مصعب بتجربة الحبشة خبرة واسعة في مجال عرض الدعوة وشرحها ، ثم إن التجربة القاسية التي عاناها مضطهداً في مكة علمته أن يحتل الاضطهاد ، وإذا أضفنا إلى ذلك سعة العلم ، والحنكة السياسية ، وسعة الأفق ؛ أدركنا أن الرسول رأى فيه الصفات التي ترشحه ليكون الداعية الأول لينشر الإسلام بالمدينة ، ويقرئ المسلمين القرآن ، ويفقههم في الدين ،

وليرشد المسلمين هناك إلى آداب الإسلام وتعاليمه (١)

ويقول أحد الباحثين (٢) أن الرسول اختار مصعب الجير وهو يعلم أنه يكل إليه أخطر قضايا الساعة ، ويبقى بين يديه بمصير الإسلام في المدينة التي ستكون دار الهجرة ومنطلق الدعوة والدعاة ، والمبشرين والغزاة ، بعد حين من الزمان قريب ، وحمل مصعب الأمانة مستعيناً بما أنعم الله عليه من عقل راجح وخلق كريم ، فغزا أفئدة أهل المدينة بزهده وترفه وإخلاصه ، فدخلوا في دين الله أفواجاً ، وأثبت مصعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عرف كيف يختار .

وفي المدينة اتخذ مصعب دار أسعد بن زرارة مركزاً له ، وكان أسعد من أسبق الأنصار في الإسلام ومن حضروا بيعة العقبة الأولى (٣) فكان المسلمون يجتمعون حول مصعب ليقراء لهم القرآن ويؤمهم في الصلاة ، وفي بعض الأحيان كان مصعب وأسعد ينتقلان في دور بني عبد الأشهل لدعوة الناس إلى الإسلام .

ولما عرف سعد بن معاذ وأُسَيد بن حُصَير شيخاً بنى عبد الأشهل ذلك ، ضاقا بهذا التصرف ، ويروى أن سعد بن معاذ قال لأُسَيد : انطلق إلى هذين الرجلين (مصعب وأسعد) اللذين أتيا دارنا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما وانهما عن أن يأتيا دورنا ، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة منى حيث قد علمت لكفيتك (وكان أسعد ابن خالة سعد بن معاذ) واستجاب أسيد لسعد وتناول حربته وانطلق إلى حيث يوجد أسعد ومصعب ، وصاح بهما : ما جاء بكما إلينا ، اعتزلانا إن كانت لكما حاجة للحياة ، فأجاب مصعب في هدوء : أو تجلس فتسمع ، فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٢ ص ٥٨ .

(٢) خالد بن محمد خالد : رجال حول الرسول ص ٤٦

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٢ ص ٥٦ .

كرهته قاومته . فجلس أسيد وسمع لمصعب الذى مضى يشرح مبادئ الإسلام ويقرأ آيات من القرآن الكريم ، فتأثر أسيد بذلك وصاح مأخوذاً : كيف يصنع من أراد أن يدخل هذا الدين ؟ فأجاب مصعب : يشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فاستجاب أسيد وردد شهادة الإسلام ، ثم قال : إن ورأى رجلاً (يقصد سعد بن معاذ) إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه . وجاء سعد إلى حلقة مصعب وتأثر بما سمعه كما تأثر أسيد ، وأعلن دخوله دين الله ، ورجع إلى قومه يلتهب حماسة ، وصاح فيهم قائلاً : يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمرى فيكم ؟

قالوا : سيدنا ، وأفضلنا رأياً ، وأعمتنا نقيبة ، فقال سعد : فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله . وتدفق بنو عبد الأشهل يدخلون دين الله ، ويعمل هذه الحداثة كان نشاط مصعب الذى امتد من ربوع إلى ربيع ، ومن جماعة إلى أخرى في كل الربوع العربية في المدينة .

وفي موسم الحج التالى عاد مصعب مع وفد المدينة إلى مكة ، ويروى أنه اتجه على إثر وصوله إلى بيت النبي صلى الله عليه وسلم ليروى له ما حدث في المدينة ، فلما عرفت أمه خبر مقدمه أرسلت له تقول : أنت ابن عاق ، تدخل بلداً أنا فيه ولا تبدأ بي ، فقال مصعب : لحامل رسالة أمه قل لها : ما كنت لأبدأ بأحد قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم . وذهب مصعب لأمه عقب لقائه الرسول فصاحت به افتقدتك بالحبشة مرة ويثرب مرة أخرى ، أما أن لك أن تجلس هنا ؟ فأجابها : إني أفرّ بدبني خرف أن تفتنوني . فقالت له : لأحبسك . فأجاب : لأن حدث هذا لأحرص على قتل من يتعرض لى . فيئست منه أمه وتركته لشأنه (١) .

على بن أبى طالب :

سبق أن تحدثنا عن على بن أبى طالب وذكرنا أنه نال من العلم والصفاء

(١) ابن هشام : ج ٢ ص ٥٨ وما بعدها بتصرف .

فيصاً اكتسبه من عشرته للرسول ومن نشأته في بيته ، حتى يمكن القول إن علياً كان أكثر المسلمين تأثراً بالرسول في هذين المجالين .

أما الحديث عن زهد علي فيوضحه أنه عاش عمرة فقيراً اقتداءً بسيد البشر، وكانت زوجته السيدة فاطمة تطحن القمح بيدها حتى كالت هذه اليد ، وتحمل القربة حتى أثرت في نحرها ، وكنت البيت حتى اشبرت ثيابها ، ولما قص عليٌ على الرسول ألم ابنته من الطحن وحمل القربة ، وأعمال المنزل ، وأنها تحتاج خادماً يقيا عناه ما تلاقى ، التفت لها الرسول وقال : يا فاطمة : اتقى الله وأدى فريضة ربك ، واعمل عمل أهلك، وىروى أنه نزلت في زهد علي ورغبته في العطاء الآية الكريمة « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » (١).

أما بطولة علي فكانت مضرب المثل ، وقد صارع عليٌ أبطال الشرك وصرعهم ، ومن أعنى هؤلاء عمرو بن ود الذى ضربه ضربة قاضية في غزوة الخندق . ومما يدل على بطولته وحبه لله ورسوله ما رواه البخارى من أن الرسول قال يوم خيبر : لأعطين هذه الراية رجلاً يحب الله ورسوله يفتح الله على يديه . قال عمر ما أحيت الإمارة إلا يومئذ ، فتساورت (تطلعت) للرسول رجاء أن أدعى لها، ولكن الرسول دعا علي بن أبي طالب وأعطاه الراية .

وفصاحة عليٌ مضرب المثل فقد رويت عنه نصائح غراء لولائه عندما أتت له الخلافة ، وهي نصائح تحمل البلاغة وقوة البيان من جانب ، كما توضح من جانب آخر أنه في مجال الفكر والخلق كان إنساناً مثالياً ، إنه القائل : أطلق عن الناس عقدة كل حقد ، وتغاب عن كل مالا يصح لك ، ولا تمجلن إلى تصديق ساع ، فإن الساعى غاشٌ وإن تشبه بالناسحين ، ولا تدخل في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الإحسان ويخوفك الفقر ، ولا جباناً يضعفك عن الأمور ، ولا حريصاً يزين لك الشره بالجور ، فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله ، والصق

أخلى الورع والصدق ، ثم رُضُّهُم (عودهم) على ألا يطروك ، فإن كثرة الإطراء تُحدث الزهو ، وإليك والإعجاب بنفسك ، فإن ذلك من أوثق فرص الشيطان يمحى به ما يكون من إحسان المحسنين ، وإياك والمن على رعبك بإحسانك فإن المن يطل الإحسان ، وأعلم أن الأمر مأخوذ منك لغيرك (١)

وعلى هذا فقد كان على من أجدر المسلمين بمكانة الداعية ، وقد فتح الله له الأبواب في بلاد اليمن؛ ويسر له كل صعب ، مما سهل انتشار الإسلام في هذه الأصقاع .

أبو عبيدة بن الجراح :

أبو عبيدة من السابقين الأولين ، ومن مريدى مدرسة الأرقم بن أبي الأرقم ، ومن هنا فقد كان في مقدمة القاملة في العلوم والمعارف .

وقد هاجر أبو عبيدة إلى الحبشة ، ولكنه سرعان ما عاد ليلاقى أى خطر من أجل دينه ، فلم يكن أبو عبيدة بالذى يرضى بالهرب ويؤثر السلامة ، وهاجر بعد ذلك إلى المدينة ، وصحب الرسول في غزوة بدر وغزوة أحد وبقية المشاهد جميعا . ولأبى عبيدة في غزوة أحد موقف جدير بالذكر ، ففي هذه الغزوة سقط الرسول صلوات الله عليه في حفرة أعدها المنافقون ، وشُجَّ في رأسه ، ونشبت حلقتان من حلق المفقر في وجهه ، فتقدم أبو عبيده لينتزعهما ، ولم يتم له ذلك إلا بعد أن سقطت ثنيته من فرط الجهد ، وكان أبو عبيده يفخر بالهتم الذى حدث له وهو يزيل الأسى عن الرسول .

وجاء إلى الرسول وفد نجران يعلنون إسلامهم ، وقد أكرمهم الرسول أيما إكرام ، وطلبوا من الرسا، أن يبعث معهم من يعلمهم القرآن، وعلوم السنة والفكر الإسلامى ، فقال الرسول لهم : لأبعث معكم رجلا أميناً حقاً أمين ، حقاً أمين ، وسمع الصحابة هذا الوصف

فتمنى كل واحد منهم أن يكون هو الذى عناه الرسول ، واشرباً كل منهم لتقع عليه عين الرسول لعله يكون هذا الذى شهد له الرسول بالأمانة وكرر الشهادة ، وأخذ الرسول يسرخ ببصره بين أصحابه حتى التفت عنه بعين أبى عبيدة بن الجراح فدعاه إليه وقال له : اخرج مع هؤلاء علمهم واقض بينهم فيما اختلفوا فيه ، وأصبح أبو عبيدة منذ ذلك الحين معروفاً بأنه أمين الأمة .

ومما يدل على إثارة وعدم اهتمامه بمظاهر الحياة أن الرسول صلوات الله عليه أرسله أميراً على مدد بعث به لمساعدة عمرو بن العاص فى غزوة ذات السلاسل ، وكان ضمن جنود أبى عبيدة أبو بكر وعمر ، وقال الرسول لأبى عبيدة : تعاون مع عمرو ولا تختلفا . ولما التقى القائدان برزت مظاهر الخلاف ، فقد قال عمرو : أنا أمير الجيش وأنتم جئتم لمساعدتى فأنتم تحت إمرتى ، وقال بعض جنود أبى عبيدة لقد جئنا تحت إمرة أبى عبيدة ونحن تتبع أمره ، ولكن أباً عبيدة حسم الخلاف بسرعة وقال : ما لمظاهر الحياة سعينا ، وقد أوصانى الرسول ألا نختلف ، وأنا يا عمرو أحد جنودك فمرنى ومراً من معى بما تشاء .

ومن إثارة المصلحة العامة ما يروى أن خالد بن الوليد كان أمير جيش المسلمين فى حرب الشام ، ولما مات أبو بكر الصديق وجاء عمر بن الخطاب فنقل عمر قيادة الجيش إلى أبى عبيدة ، وتلقى أبو عبيدة أوامر عمر والمركة تدور ، وأخفى الأمر حتى انتهت المركة ، ثم قدمه إلى خالد ، وخضع خالد للأمر ، وقال لأبى عبيدة : لماذا لم تخبرنى عند وصول أمر الخليفة إليك لأننى لك عن الأمانة ؟ فقال أبو عبيدة : يا خالد ما للإمارة سعينا ، وقد كرهت أن أكسر عليك جهدك ، وما سلطان الدنيا نريد ، ولا للدنيا نعمل .

وعندما تم فتح الشام صار أبو عبيدة أميراً لها ، وزار عمر الشام آنذاك ، ودخل بيت أبى عبيدة ، فوجد مظاهر الخشونة بارزة فيه ، فسأله عمر : لم لم تتخذ لنفسك منزلاً أطيب مقاما وأغنى أثاثاً ؟ فأجاب : هذا يبلغنى المقبل .

وكان عمر يفكر في أن يسند الخلافة من بعده إلى أبي عبيدة ، فشهادة الرسول بأنه أمين الأمة تهيئة ليكون أمير المؤمنين ، ومن أجل أن يحقق عمر رغبته بعث يستدعى أبا عبيدة من الشام عندما فشا الطاعون هناك لينجر أبو عبيدة من الموت ، فكتب له عمر كتابا يقول فيه : . . أتى عَرَضْتُ لِي إِلَيْكَ حاجة أريد أن أشفئك فيها ، فعزمتُ عليك إذا نظرت في كتابي هذا ألا تضعه من يديك حتى تُقبل عليّ . ولكن أبا عبيدة أدرك ما أراده عمر ، وعزَّ عليه أن يترك جيش المسلمين وينجو بنفسه ، فكتب إلى عمر يقول : إني قد عرفت حاجتك إليّ ، وإني في جند من المسلمين لا أجد بنفسى رغبة عنهم ، فحللْتُ من عزمتك يا أمير المؤمنين . وجاء الكتاب إلى عمر فلما قرأه بكى ، فسأله الناس : هل مات أبو عبيدة ؟ فأجاب : لا وكأنَّ قد . ومات أبو عبيدة بعد ذلك في وسط الوباء^(١) .

تلك لحظة من سيرة أبي عبيدة ، وهى توضح أنه كان جديرا ليكون داعية الإسلام ومبعوث الرسول إلى جانب من الأرض ، وقد أدى أبو عبيدة عمله خير أداء وترك أعظم الآثار في المنطقة التى ذهب إليها .

معاذ بن جبل :

ترك الرسول صلوات الله عليه معاذ الأنصارى بمكة عقب فتحها عندما أراد الرسول العودة إلى المدينة ، واختيار معاذ لهذا العمل اختيار انبى على حكمة عليا لاحظها الرسول ، ففيه - بالإضافة إلى صفات العلم والإيثار والشجاعة وسماحة النفس - تكريم للأنصار أن يصبح شاب من شبابهم داعية الإسلام بمكة ، ثم أن مصعب بن عمير الذى أرسل من مكة للهداية والتعليم يثرب يقابله الآن واحد من الأنصار يبق فى مكة لنفس الأغراض ، ومن الملاحظات كذلك أن بلاد الإسلام وحدة واحدة ، فليست هناك نوازع إقليمية تتدخل أو تحرك الأمور .

(١) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٢٠١ والكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٢٧٥ .

وكان معاذ من السابقين للإسلام من أبناء يثرب ، وقد حضر بيعة العقبة الثانية حيث دعا أهل يثرب الرسول للهجرة وتعهدوا بحمايته ، ومنذ ذلك الحين وهو يقف بحوار الرسول مريدا ومجاهدا ، وقد وصل إلى القمة في الجانبين ، فكان في العلم منارا ، وفي الجهاد سيفا بشارا ، وكان معاذ سمحا كريما حتى ذهب جوده بكل ما يملك ، والرغبة في العطاء من أهم الصفات التي تحتاجها الداعية ولا يمكن أن ينجح في الدعوة الرجل الكر الذي يسعى ليأخذ ويعيش لينال .

وقد وصل معاذ في العلم والمعرفة ، درجة كبيرة ، ويروى أن الرسول قال عنه : إن العلماء إذا حضروا ربهم عزوجل كان معاذ بينهم ، وكان أصحاب رسول الله إذا جلسوا يتحدثون وفيهم معاذ نظروا إليه في هيبة ، وكان المتحدثون إذا اشتد عليهم من الحديث شيء ، ردوه إلى معاذ ، فأفتاهم .

وكان معاذ حريصا على العمل بالعلم ، وهو في ذلك يقول : تعلّموا ما شئتم فلن ينفعكم الله بالعلم حتى تعملوا به ، وكان يميل إلى القصد في العبادة ، وهو في ذلك يقول : صُمِّمُ وأفطر ، وصلِّ ونم ، . . . وإياك ودعوة المظلوم .

وبالإضافة إلى العلم وسماحة النفس والرغبة في العطاء كان معاذ يمتاز بالحكمة والفكر والتدبرة على الاجتهاد ، وكان الرسول يحس فيه هذه الصفات ، ولذلك اختاره ليكون داعية الإسلام باليمن ، وقاضي الجماعة هناك ، ودار بينه وبين الرسول حوار أثبت فيه معاذ ما أرضى الرسول عن وفادته ، وفيما يلي نص هذا الحوار :

— يا معاذ بم تقضى بين الناس ؟

— بكتاب الله

— فإن لم تجد في كتاب الله ؟

— أفضى بسنة رسوله

— فإن لم نجد في سنة رسوله ؟

— أجنهد رأيي .

وفرح الرسول بإجابات معاذ وقال : الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضى الله ورسوله .

ومات معاذ في بلاد الشام وكان قد هاجر إليها بعد فتحها ليعلم أهلها وينشر الإسلام بها ، وعندما مات أبو عبيدة وإلى الشام ولاه عمر مكانه ولكن عُسِرَ في الولاية لم يكن طويلاً . ولأق هناك ربه .

وعندما حانت وفاة عمر وسأله المسلمون أن يولى عليهم خلفاً له كان فيما قال لهم : ولو كان معاذ حياً لوليته بعد أن سمعت النبي يقول : معاذ بن جبل إمام العلماء يوم القيامة .

وهكذا نجد معاذاً رائداً عظيماً من رواد الدعوة في الإسلام :

أبو ذر الغفاري :

مع أبي ذر الغفاري نقابل داعية ناجحاً أسلمت على يده قبيلته غفار وقبيلة أسلم التي كانت تجاور قبيلته ، ولم يكلفه الرسول بدعوة هؤلاء ، فقد كان الوقت مبكراً ، ولم يجهز الرسول بالدعوة بعد ، ولكن الدعوة إلى الله لا تحتاج إذناً ولا تكليفاً ، فعندما يطبقها الداعية ينبغي أن ينطق بها لوجه الله ، ولعلَّ أبا ذر و جندب بن جنادة ه كان وحيداً في هذا المجال .

لقد كان أبو ذر غير مقتنع بالأصنام ، وكان يسخر منها ومن عابديها ، وكان يتطلع إلى الهدى ، ويحس بأن الإله خالق عظيم ، ولا يمكن أن يكون من نوع هذه الحجارة أو الأشجار ، وبينما كان أبو ذر في حيرته وتفكيره مرّت قافلة بأرضه وافدة من مكة المكرمة ، وعلم أبو ذر من رجالها أن رجلاً ظهر بمكة يقول بأنه يوحى له من السماء ويهاجم الأصنام ويدعو إلى الله . فأرسل أبو ذر أخاً له يدعى «أنيس» إلى مكة ليتعرف له خبر هذا الداعية ، وذهب أنيس . وكان هذا كاشيه متمرداً على عباده الأصنام ، ولذلك أعجب بما سمعه

من الرسول ، وعاد يحمل هذه الأنباء الطيبة إلى أخيه أبي ذر ، فأسرع أبو ذر بالرحيل إلى مكة ليرى بنفسه حقيقة الأمر ، وفي مكة واجه أبو ذر رسول الله وقال له : أنشدني مما تقول .

فأجابه الرسول : ما هو بشعر حتى أنشدك . إنه قرآن كريم .

قال أبو ذر : اقرأ عليّ . فقرأ الرسول عليه فهتف أبو ذر بالشهادتين ، ودخل أبو ذر الإسلام والدعوة لا تزال سرّاً ، فكان من العشرة السابقين للإسلام ، ويقول أبو ذر : كنت رُبُع الإسلام ، أسلم ثلاثة وكنت الرابع (١) .

ودخل قتي من غفار في الإسلام كان خطيراً لأن قبيلته غفار من أخطر القبائل العربية وأعتاها ، حياتها قطع للطريق وعدوان على الآمنين ، ولكن الله يهدي من يشاء ، ونشأة أبي ذر في قبيلة كهذه جعلته يستصغر كل صعب ، ويميل للمغامرة والمخاطرة ، ومع علمه بأن الدعوة كانت مراراً لم تعرف الجهر بعد ، فقد أحدث بمكة حدثين خطيرين .

في الحدث الأول راح إلى الكعبة وهي تعج بالأصنام وعابديها وصرخ : لا إله إلا الله محمد رسول الله . وتجمع القوم عليه وأوسعوه ضرباً ولكأ ولابداء ، حتى خر من فرط الضرب ، ولم تُسقله من أيديهم إلا صيحة خبير قرشي نادى بأعلى صوته : يا معشر قريش إن الرجل من غفار ، وإن استعدى قومه الذين يعيشون في طريق تجارتكم فالويل لكم . ونجا أبو ذر بسبب حكمة العباس عم النبي الذي قال هذا القول (٢) .

أما المخاطرة الثانية فكانت عند ما رأى امرأتين وثنتين تطوفان بالأوثان ، وتتلسمان منها البركة وتقدّمان القرابين ، فاعترضهما أبو ذر ، وهاجم الأصنام والعقول التي تعبدّها ، وكان تعرضه للنسوة مثيراً للرجال ، فأقبلوا عليه وضربوه ضرباً مبرحاً حتى سقط مغشياً عليه .

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ج ٢ ص ٣٨ .

(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ٣٧ .

ووجد الرسول أن من الحكمة أن يبعد أبا ذر عن قريش ، فليس أبو ذر بالرجل الذى يُسرُّ عبادة الله ، وليست قريش بالجماعة التى تقبل كلمات التوحيد ، ولهذا طلب الرسول من أبي ذر أن يعود إلى قومه غفار ، فذلك خير له وللإسلام (١) .

وعاد أبو ذر ، وكان الجهر بالإسلام فى غفار على يده أسبق جهر بالإسلام فى قطعة من الأرض ، فإذا كان أبو ذر قد جهر بالإسلام فى مكة بين صلابة الباطل ، فما أيسر أن يجهر بالإسلام بين بني قومه ، وسرعان ما استجاب لأبي ذر أهله وذووه ، ثم امتدت الاستجابة فشملت غفار كلها . ثم انتقل إلى قبيلة أسلم التى كانت تجاور قبيلته ، فارتضى الكثيرون منها دين الله ، واهتدى على يد أبي ذر أولئك الذين كانوا بالأمس قطاع طريق ومثيرى الشغب .

وشهدت المدينة المنورة عقب الهجرة موكباً حافلاً يخترق الصحراء ويثير الغبار ، حتى ظنَّ بعض الناس أنه حملةٌ من أعداء الإسلام على المدينة ، ولكن سرعان ما تبين أنهم وفد غفار وأسلم ، جاءوا لمقابلة الرسول والتميم بلفاقه .

وهكذا نرى داعية من نوع جديد ، داعية مبكراً بالدعوة لدين الله ، ربما أرسله الرسول إلى غفار لحمايته من قريش ، ولكن أبا ذر ما كان يخاف إلا الله ، فراح يحمل الدعوة إلى قومه ولاقى منهم استجابة طيبة نقلت الأشرار إلى أطهار والمعتدين إلى داعين ، ولذلك وصفه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : ما أقلَّت الغبراء ولا أظلت الخضراء أصدق لهجة من أبي ذر .

وعاش أبو ذر بنفس طاهرة لم يلوثها المال والأنكباب على الدنيا ، وعاش عدواً للانتهازية والحرص ، وكان فى ذلك جريئاً جرأة سببت له

كثيراً من المشكلات والمتاعب ، ولكن جرائه كانت أمينة ومعارضته كانت نزيهة ، فلم يرفع سيفاً ، ولم يقبل أن ينضم للثوار ضد عثمان ، وكان يعارض بعض التصرفات المالية ، ولكن لا يثور على الخليفة ، وقد لخص أبو ذر اتجاهاته في وصية كان يروها عن الرسول وهي :

أوصاني خليلي بسبع : أمرني بحب المساكين والذين منهم ، وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني ولا أنظر إلى من هو فوق ، وأمرني ألا أسأل أحداً شيئاً ، وأمرني أن أصل الرحم ، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مرأى ، وأمرني ألا أخاف في الله لومة لائم ، وأمرني أن أكثر من قول لاحول ولا قوة إلا بالله ^(١) .

وكان أبو ذر حامل راية غفار يوم حنين ، واشترك في غزوة تبوك ، كما اشترك في الحروب خارج الجزيرة العربية في عهد أبي بكر وعمر ، ولكن الحرب التي اهتم بها كانت حربه ضد مكنتزي الأموال ، وقد ظهر تحديه لهؤلاء إبان عهد عثمان الذي أجزل العطايا للأغنياء ، وكان أبو ذر يرى أن الفقراء أولى بها ، وأنكر أبو ذر على الصحابة أن يكتزوا الأموال ، وراح يعلن رأيه في كل مكان ، وزار الشام وكان معاوية والياً عليها ، وهاجم ما رآه من بذخ في قصور معاوية ، ويروى أن معاوية أراد أن يختبر أبا ذر ويرى صدق اتجاهه إلى الرغبة عن المال فأرسل إليه ألف دينار في جنح الليل ، وأخذ أبو ذر دون ثوانٍ في تفريقها على المحتاجين حتى إذا طلع النهار كانت داره قد خلت منها جميعاً ، فلما صلى معاوية الصبح دعا رسوله فقال : اذهب إلى أبي ذر فقل له : أنقذ جسدي من عذاب معاوية . فإني أخطأت ولم تكن الهدية لك ، فقال أبو ذر : يابني 'عد' إلى معاوية فقل له : والله ما بقي في دارنا من المال شيء ، ولكن أنظرنا ثلاثاً حتى نجتمع لك دنائيرك ، فلما عرف معاوية حقيقة الرجل خاف منه ، فكتب إلى عثمان يقول : أما بعد فإن كان لك بالشام أو بأهله حاجة

(١) اللهبي : سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ٤٠ .

إلى أبي ذر ، فإنه قد غل صدور الناس ، فكتب إليه عثمان يستدعيه ،
فقدم عليه (١)

وقد حاول الثائرون على عثمان أن يضموه إلى صفوفهم ، فرفض وقال :
ما لهذا خرجت . وكان رأى عثمان أنه ليس من حق الخليفة أن يفرض
الزهد على الناس ، ومن هنا كان اختلاف الرأى بينه وبين عثمان ، وكانت
النهاية الطبيعية لأبي ذر أن يعيش في الربذة ، فلاة من الأرض ، ليعبد عن
الثروات والثروات ، وعاش بها حتى مات . تحققاً بذلك قوله صلى الله
عليه وسلم : يرحم الله أبا ذر ؛ يمشى وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده .
وصايا الرسول للدعاة :

لدينا عدة وصايا قدّمها الرسول للدعاة الذين أرسلهم لحمل الإسلام
إلى بقاع مختلفة ، ولتعلم المسلمين ، ومن الطبعي أن هذه الوصايا نماذج
حية ينبغي أن نستفيد بها في حاضرتنا ومستقبلنا ، وسنوجز فيما يلي بعض
هذه الوصايا :

قال صلوات الله عليه لمعاذ بن جبل : إنك ستأق قوما أهل كتاب ،
فلذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ،
فإن أطاعوك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة ،
فإن هم أطاعوا فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم
فترد على فترائهم ، فإن هم أطاعوا فأبذك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة
المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب .

وأرسل رسول الله صلوات الله عليه خالد بن الوليد إلى بني الحارث بن
كعب وأمره ألا يقاتلهم ثلاثة أيام ، وأن يدعوهم إلى الإسلام ويعلمهم دعائم
الدين وكتاب الله وسنة نبيه ، فذهب خالد بذلك ، فاستجاب له بنو الحارث ،

وكتب خاله بذلك للرسول ، فأجابه الرسول بكتاب يحمد الله فيه أن اهتدى هؤلاء إلى الإسلام ، وطلب من خاله أن يبشرهم وينذرهم ، كما طلب منه أن يعود إليه ومعه وفد منهم . وعاد خاله ومعه هذا الوفد ، والتقى بهم الرسول فوعظهم وزكاهم ، ثم أرسل معهم عمرو بن حزم الأنصاري ليفقههم في الدين ويعلمهم السنة وتعاليم الإسلام ، وكتب إليه كتابا طويلا يكون دستوراً في هذا العمل ، ونقتبس منه بعض فقرات :

أمره يتقوى الله في الأمر كله « فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » وأمره أن يأخذ الحق كما أمره به الله ، وأن يبشر الناس بالخبر ويأمرهم به ، ويعلم الناس القرآن ، ويفقههم في الدين ، وينهى الناس عن الشر ، ويلين إلى الناس في الحق ، ويشدد عليهم في الظلم (١) .

ذلك هو الطريق الذي ربي الرسول الدعاة عليه ، وهو بذلك يعطينا نموذجاً ينبغي أن نقتدى به في عهدنا الحاضر وفي المستقبل ، فداعية اليوم ينبغي أن يكون عالماً واسع الفكر والفقه ، وأن يحفظ القرآن الكريم أو أكثره على الأقل ، ويحفظ مجموعة مناسبة من أحاديث الرسول ، وأن يكون واسع الاطلاع وبخاصة في العلوم الإنسانية التي ترفع شأنه وتطلق لسانه بين الجماهير ، ويتحتم على داعية اليوم أن يكون عالماً بعلوم العصر التي تفيد أكبر إفادة في نطاق الدعوة مثل مقارنة الأديان والحضارة الإسلامية ، وأن يكون ذا عقل راجح يتعرف أحداث التاريخ بذكاء وعمق ، فلا يخدعه ما وجد في التاريخ الإسلامي من انحراف ، بل يكون قادراً على تصحيح جوانب هذا التاريخ .

ويتحتم على داعية الحاضر والمستقبل أن يجيد لغة أوربية عالمية حتى يستطيع أن يحضر المؤتمرات الإسلامية العالمية ويحادث المسلمين غير العرب وقد كنا حديثاً في مؤتمر إسلامي في باكستان ، وقبل ذلك كنا في مؤتمر بماليزيا

وأسبانيا وكانت اللغة الإنجليزية هي لغة المؤتمر والمؤتمرين . وبالإضافة إلى اللغة العالمية ينبغي على الداعية أن يجيد لغة البلاد التي يعمل بها ، وعلى الداعية المسلم بوجه عام والعربي بوجه خاص أن يجيد اللغة العربية ، وأن تكون لديه القدرة على الأداء بها ومعرفة أساليب البلاغة فيها ، فهي اللغة الأصيلة للدعوة الإسلامية .

ويتحتم أن يكون داعية الحاضر والمستقبل بعيداً عن حدود الوظائف التي تسعى للمال وتعمل للاستزادة منه ، إذ ينبغي لهذا الداعية أن يكون فيه خلق العطاء . كما رأينا من النماذج التي أسلفنا الحديث عنها ، وليس معنى هذا أن يكون الداعية محروماً ، بل ينبغي أن تعطيه الحكومات ما يحتاجه ، ولكننا نريده هو متطوعاً للبقاء أكثر من تطلعه للنعم الزائل .

ويتحتم أن يكون داعية الحاضر والمستقبل حسن العشرة سمح النفس واسع القدرة على الحوار الذي ينطبق عليه قوله تعالى « وجادلهم بالتي هي أحسن » وقوله « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » .

ويتحتم على داعية الحاضر والمستقبل أن يبشر بالخير ويعترف على روح الإسلام وألا تكون مجالسه حافلة بالتخويف من الآخرة ، بل أن يكون الأمل في النجاة منهجاً له ، وأن تكون وسائله للوصول إلى الغاية سهلة يسيرة ، فالدين يسر لا عسرفيه ، ويتحتم عليه أن يهتم اهتماماً كبيراً بمشكلات الناس والحياة وأن يحاول أن يعالجها بروح الإسلام ، وأن يتذكر دائماً جانب المعاملة في الفكر الإسلامي ، فليس الإسلام عبادة فقط كما يصوره كثير من الدعاة ، بل إن الإسلام يهتم بعلاقة الإنسان بربه كما يهتم بعلاقة الإنسان بالإنسان والمجتمع

ولاشك أننا إذا ربنا الداعية المسلم على هذا النمط أمثلنا منه خيراً كثيراً للإسلام والمسلمين .

- خطر ينبغي الحذر منه :

وبعد أن تحدثنا عن محمد الداعية وعن وسائل تربية الدعاة نصل إلى نقطة خطيرة ، هي أن نشاط الدعاة المسلمين الأول سواء أولئك الذين رباهم الرسول أو الذين نجاءوا على شاكلتهم في القرون الأولى هو الذي دفع سواهم من أتباع الديانات الأخرى ليسيروا سيرتهم في الدعوة لأديانهم ، وعلى هذا فعندما نستعرض الحركات الدينية بالعالم خلال القرون الماضية نجد أن الإسلام قد انتشر بطريقة رائعة في مختلف البلدان ، فيما يسمى اليوم بالعالم العربي ، وفي شبه جزيرة الهند وفي الأندلس ، وفي جنوب الصحراء الإفريقية ، كما نجد أن انتشار الإسلام في تلك النواحي وسواها جاء على حساب أديان ومعتقدات أخرى كانت في تلك المناطق وآثرت الانكماش والتخلي عن بعض مناطق نفوذها للزحف الإسلامي ، الذي كان يهدر ولاستطيع قوة أن تقف أمامه .

ولكن هذا النشاط الإسلامي دفع بعض الديانات التي تراجعت إلى إعداد دهاة ومبشرين للصمود والمقاومة والمهجوم ، وبينما كان هؤلاء يتجهون هذا الاتجاه ، كان الدعاة المسلمون يرجعون القهقري ، وينكصون عن الاستعداد ، وأصبح أكثر الدعاة المسلمين لا يتمتعون بالكفاءة والمثابرة التي كان يتمتع بها أسلافهم ممن حملوا الإسلام إلى مختلف البقاع .

وهذا الوضع يصور كارثة كبرى ومحاولة لقلب كفتي الميزان ، لترجح الكفة التي كانت شائلة ، ولتشيل الكفة الإسلامية التي كانت راجحة ، وهذا يدعو إلى سرعة التصرف لنعد للدعوة رجالاً أفاضاً يحملون العبء الذي كان يحمله المسلمون في العهود السابقة .

وإعداد هؤلاء الدعاة يجعلنا نحتاج إلى شباب لهم مواهب عالية ، وإلى مناهج تنمى هذه المواهب ، وتسكب في هذه العقول صور الفضائل ،

وصور الفكر، ليحملوا المشعل، وليسروا بالهداية إلى كل مكان ، أما الشباب ذوو المواهب فيجب البحث عنهم وتشجيعهم بكل الوسائل ليتجهوا هذا الاتجاه ، ومن عجب أننا نلاحظ قوى هائلة تبحث عن الأصوات الجديدة للغناء وتبحث عن الوجوه الجديدة للتمثيل ، ولا نجد من يبدل أى اهتمام أو أى جهد للبحث عن القدرات التى تحمل الهداية للبشرية ، وتقدم للناس خاتمة البيانات .

أنها صحيحة ، نرجو الله أن ييسر من المسلمين مَنْ يحمل عبأها ويسعى لتنفيذها .

الرسول في بيته

ينبغي للمسلم أن يتعرف على حياة الرسول في أسرته ، فجاءة الرسول في بيته نموذج رائع ، وبخاصة أن بيت الرسول عرف الغنى والثراء أيام السيدة خديجة وعرف الكفاف بل ما هو أقل منه في كثير من الأيام ، وفي بيت الرسول كانت هناك زوجات كلهن طاعة وإخلاص ، ولكن بين زوجات الرسول مَنْ كانت تعوزها بعض الصفات العالية حتى حاول الرسول أن يطلقها أو يطلقها فعلاً ، وكان في بيت الرسول غيرةً ومنافسة ومؤامرة ضده أحياناً ، ومعنى هذا أن الرسول وهو صفوة ممتازة بين البشر كان بيته في بعض جوانبه عادياً ، وهذا يفيدنا فائدة كبرى نتعلم من الرسول كيف عالج أمور هذه الأسرة ، وكيف كان ربان السفينة ماهراً فجعل سفينته تتغلب على الأنواء والعواصف ، ولو قد كانت أسرته مثله صفوة لما استطاع المسلم أن يحتذيها ، ولكانت مجتمعاً مثالياً ليست به مشكلات الحياة التي توجد في الأسر العادية ، وإنه ليبدو أن الله سبحانه وتعالى كونها على هذا النمط ليرى رائدها وهو يسوس جماعته ، فيتعلم منه المسلمون كيف يسوسون أسرهم ويدبرون حياة بيوتهم .

هذا ، ومن الواضح أن الله سبحانه وتعالى خصّ زوجات الرسول بخصائص كالحجاب والألا يتزوجن بعده : . . . وسنرى ذلك فيما بعد ، كما سنرى طريقة المعاملة في هذا البيت الكريم .

وسيشمل حديثنا عن « الرسول في أسرته » دراسة عن زوجاته وأولاده وأحفاده وخدمه :

زوجات الرسول

خديجة :

كانت السيدة خديجة تُدعى في الجاهلية الطاهرة ، وهي أولى زوجات الرسول وأم أولاده ، ولم يعقب الرسول من غيرها إلا من مارية ، وكانت هذه ملك يمين أنجب الرسول منها ابنه إبراهيم ، وقد سبق أن تحدثنا عن السيدة خديجة التي خطبت محمداً لنفسها ، وكان محمد معجباً بها ، فرحب بذلك ، وزُفَّت له سيدة قريش التي رفضت قبله أغنى رجالات قريش الذين تقدموا يطلبون يدها ، وقد وضعت خديجة مالها في خدمة الرسول ، فكان ينسجر فيه كما يرى ، وينفق منه كما يشاء .

وهيأت خديجة لزوجها ما يناسبه من حياة ، فلما لجأ عليه السلام للتحنُّث في غار حراء كانت تُعيدُ له ما يحتاجه من طعام وشراب خلال الفترة التي سيعتكف فيها بالغار فلما جاءه الوحي كانت أول من صدَّقه ، وعانت معه صراع قريش ضده ، وكانت البلمة الشافي لجراحه من هؤلاء المعتدين ؛ ودخلت معه الشَّعْبُ عندما قرر سادة قريش أن يقطعوا المسلمين . . . ومن الواضح أن خديجة كانت تعني بالرسول أعظم عناية ، ويقول عنها ابن هشام^(١) إنها كانت وزير صدق لمحمد ، كانت تهوِّن عليه ما يلاقى من عنت قريش ، ولم يتزوج الرسول غيرها في حياتها ، ولا تسرَّى إلى أن قضت نحبها ؛ فلما ماتت لم يطق الرسول أن يبقى بمكة ، وبدأ يُعيدُ العدة للهجرة من مسقط الرأس حيث اشتد عليه الأعداء بعد فقد أبي طالب وخديجة في عام واحد أسماء المسلمون عام الحزن .

رحم الله خديجة وأجزل ثوابها ، لقد كانت نموذجاً رفيعاً للزوجة المسلمة التي تعين زوجها بكل ما تملك من مال وجهد ولا تبتغي إلا مرضاه

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٤٦ وسير أعلام النبلاء للذهبي ج ٢ ص ٨١ .

تعالى ، وكان الرسول يذكرها بالخير دائماً ويقول : كانت خديجة خير نساء العالمين ، وإن لخديجة بيتاً في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب ، وإن لأعرف فضلها ، ولذلك كانت عائشة تغار منها ، وتقول : ما غرت من امرأة من نساء النبي غيرتي من خديجة لِمَا كنت أسمع من ذكر الرسول لها (١) ويروى أن السيدة عائشة أخذتها الغيرة مرة من ذكر الرسول لخديجة وثأنه عليها فقالت : قد أبدلك الله خيراً منها . فقال : ما أبدلني الله خيراً منها . لقد آمنت بي حين كفر الناس ، وأشركني في مالها حين حرمني الناس ، ورزقني الله منها الولد .

وقد توفيت السيدة خديجة في رمضان قبل الهجرة بثلاث سنوات ودفنت بالحجون (٢) .

سودة بنت زمعة :

لما ماتت السيدة خديجة اشتدت الأحزان بالرسول الكريم ، فقد اختفت أم العيال ورَبَّة البيت ، ولم يعد له من يكفكف آلامه وشجونه إذا عاد إلى البيت وقد نال منه الأشرار ما تعودوا أن ينالوا ، ولم يعد بالبيت من برعى بنات الرسول بعد أن فقدن أمهن ، ويُروى أن خولة بنت حكيم زوجة عثمان ابن مظعون — أحد الذين هاجروا إلى الحبشة وعادوا منها إلى مكة ظناً منهم أن قسوة قريش على المسلمين قد تراخت بعد أن زاد عدد المسلمين بمكة — قالت للرسول : لم لا تتزوج من تعوضك عن خديجة بعض حنوها وعطفها ؟ فسكت الرسول . فقالت له خولة : هل تقبل أن أخطب لك زوجة أخرى ؟

فأجاب الرسول : لا بأس إنكن معشر النساء أرفق بذلك .

قالت خولة : إن أردت بكراً فعائشة بنت أبي بكر ، وإن أردت ثيباً فسودة بنت زمعة ، وكانت عائشة لا تزال في حوالى السادسة من عمرها ، فوافق على الزواج من سودة وكانت سودة أرملة : فقد كانت متزوجة من ابن عمها

(١) البلاذرى : أنساب الأشراف ص ٤١٢ .

(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ص ٨٦ .

« السكران بن عمرو » ، وقد أسلما في مطلع الإسلام وهاجرا للحبشة ، ثم عادا لمكة ، وبعد قليل مات السكران ، فقبل الرسول الزواج منها ، وكان لا يزال في مكة لعلها تملأ عليه بعض الفراغ الذي تركه وفاة خديجة ، ثم ليجمعها من اضطهاد قريش .

وينقل الأستاذ أحمد عطية الله^(١) من مصدر لم يذكره وصفاً لحالة سودة بنت زمعة يوضح الأسباب التي دعت الرسول للزواج منها ، يقول « كانت سودة أرملة مسنة ، ثقيلة الجسم والحركة ، فدعى الرسول صلى الله عليه وسلم يده الرحيمة يسند شيخوختها ويهون عليها الذي ذاق من نكد الحياة » .

ولكن سودة لم تكن زوجة مثالية للرسول ، ولم تكن جديرة بالعبء الذي تقدمت لحمله ، وكانت علاقتها بالرسول وبناته غير مرضية ، ويذكر ابن هشام^(٢) أن سودة حينما رأت سهيل بن عمرو (أخا زوجها) ضمن أسرى بدر ويدها معقودتان إلى عنقه قالت : أي أبا يزيد سلّمت أيديكم ؟ ألا مثم كراماً ؟ فسمعها الرسول فقال لها : يا سودة ، أعلى الله ورسوله تحرضين ؟ قالت : يا رسول الله والذي بعثك بالحق ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد أن قلت ما قلت .

وقد هم الرسول بطلاق سودة ولكنها تضرعت إليه وقالت : يا رسول الله لا تطلقني وأمسك بي رحمة منك ، ولا تتركني عرضة للضياع — فقبل رجاءها ويبدو أن سودة استمرت على بعدها عن الجادة ، ولذلك يروى البلاذري^(٣) أن الرسول طلقها سنة ثمانى من الهجرة تظليقة ، ثم تضرعت إليه فراجعها .

(١) القاموس الإسلامى - ٣ ص ٥٥٧ .

(٢) سيره ابن هشام ج ٦ ص ٢٠٩ (تحقيق طه عبد الرؤوف) .

(٣) أنساب الأشراف ص ١٠٧ .

عائشة :

ونجىء بعد ذلك إلى أحب زوجات الرسول إليه بعد خديجة ، إلى السيدة عائشة بنت أبي بكر الصديق ، وتذكر الروايات أن الله سبحانه وتعالى هو الذى زوج رسوله من عائشة ، فقد رأى الرسول فى المنام شخصاً يحمل إليه قطعة من الحرير الأخضر ، وقد نقش فيها صورة ، فلما كشف عن الصورة سأله الرسول : من هذه ؟ فأجيب : هذه عائشة ، وهى زوجتك فى الدنيا والآخرة ، إنها تذهب بعض حزنك وإن فيها خلطاً لخديجة .

وكان الرسول قد عقد عليها هى وسودة فى وقت واحد تقريباً عقب وفاة خديجة ، ودخل بسودة وأجل الدخول بعائشة لصغر سنها ، فلما وجد أن سودة لم تملأ فراغ نفسه دخل بعائشة فى شوال سنة اثنتين للهجرة ، منصرفه من غزوة بدر ، وكانت فى التاسعة من العمر ، وبنى لها حجرة بجوار المسجد ، وكان جهاز عائشة بسيطاً جداً ، إنه حصير ، وسرير مشدود بالحبال ، وبعض الأواني من الفخار فى حجرة واحدة تمس اليدُ سقفها .

وتقول عائشة فى رواية الإمام البخارى : نقلنى رسول الله بالزواج منه إلى عالم آخر لم أكن أمتدى إليه بدونه ، وعشتُ معه الحياة التى رسمها ربه ، حياة النبوة ، والزهد فى متاع الدنيا ، والرغبة فى الآخرة .

وقد ولدت عائشة فى الإسلام وهى أصغر من فاطمة بحوالى ثمانى سنوات . وقد روت عائشة عن الرسول - كما يقول الذهبى - علماً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، كما روت عن أبيها وعن عمر ، وروى عنها عدد كبير من الصحابة والتابعين (١) ويروى الترمذى عن أبي موسى الأشعرى أنه قال : ما أشكل علينا حديث قط فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً (٢) وكانت أقرب نساء الرسول إليه ، وهى تحكى ذلك بقولها : فضلت على نساء الرسول بعشر ولا فخر ، كنت أحب نسائه إليه ، وكان أبى أحب رجاله إليه ، وتزوجنى بكرأ ولم يتزوج بكرأ سواى ، وتزوجنى لسبع ، وبني بى لتسع ، ونزل عذرى من السماء . واستأذن النبى صلى

(١) سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ٩٨ وما بعدها . (٢) المرجع السابق : ص ١٢٦ .

الله عليه وسلم نساءه في مرضه قائلاً له : إني لا أقوى على التردد عليكين^١ ، فأذن لي أن أبقى عند بعضكن ، فقالت أم سلمة : قد عرفنا من تريد ، تريد عائشة ، قد أذننا لك ، وكان آخر زاده في الدنيا ربي فقد استاك بسواكي ، وقبض بين حجرى ونحري ، ودفن في بيتي ،

وتقول السيدة عائشة إن الرسول أعرس بها في شهر شوال وكانت العرب تستحب أن تُعرس في هذا الشهر .

وروى أن الرسول قال لها : إني أعرف غضبك إذا غضبت ورضاءك إذا رضيت . قالت : وكيف تعرف هذا ؟ قال : إذا غضبت خاطبتني يا محمد ، وإذا رضيت خاطبتني : يا رسول الله .

وسئلت أم سلمة : هل كان الرسول يقبل وهو صائم ؟ قالت : لا . فقبل لها : إن عائشة تقول إنه كان يقبل وهو صائم . قالت أم سلمة : لعله كان يفعل ذلك مع عائشة ، أما معي فلا .

وكانت عائشة كثيرة الصدقة ، ويروى أن معاوية بعث لها بمائة ألف درهم ، ويقول عروة بن الزبير ، والله ما أمت حتى فرقها ، فقالت لها مولاتها : لو اشتريت لنا منها بلدهم لهما ، فأجابت السيدة عائشة قائلة : لو ذكرتني لفعلت ، وتوفيت السيدة عائشة سنة خمسين للهجرة وقيل سنة ثمان وخمسين ودفنت بالبيع^(١) .

زينب بنت خزيمة :

وتزوج الرسول زينب بنت خزيمة التي كانت تلقب « أم المساكين » لكثرة برها ، وزينب كانت زوجة عبيدة بن الحارث أول شهيد في غزوة بدر ، فقد سقط في المبارزة التي ابتدأت بها الغزوة فأراد الرسول إكرام زوجته وتخفيف آلامها ، ولم يطل عمر زينب بل ماتت عقب الزواج بفترة غير طويلة .

(١) انظر ترجمة النساء ، ٢ في سير أعلام النبلاء ص ٩٨ - ١٤٢ .

حفصة بنت عمر :

وتزوج الرسول بعدها حفصة بنت عمر ؛ وكانت حفصة زوجة خنيس ابن خزيمة ومات هذا الزوج بعد فترة قصيرة من الزواج بحفصة وتركها وكانت لم تصل سن العشرين ، وفكر عمر أن يقدمها زوجة لعثمان بن عفان الذي كان قد فقد زوجته رقية بنت الرسول منذ فترة قصيرة ، فذهب عمر يعرض ذلك على عثمان ، ولكن عثمان سكنت ولم يجب بشيء ، فذهب عمر يشكو ذلك لأبي بكر ويعرض عليه أن يتزوجها هو ، فواجه عمر نفس الصمت من أبي بكر ، فذهب عمر يشكو ذلك للرسول فتلق جواباً أسمى من آماله ، قال له الرسول : يتزوج حفصة من هو خير لها من عثمان وأبي بكر ويتزوج عثمان من هو خير له من حفصة ، وفهم عمر ما يقصده الرسول ، فقرح بذلك ، ويروى أن عثمان وأبا بكر لم يُقْبِلَا على الزواج من حفصة لأنهما مِمَّا الرسول يذكرها ، فأحس كل منهما أن الرسول قد يكون راغباً فيها تكريماً لعمر ، ولم يستطيعا أن يقولوا ذلك لعمر مخافة أن يكونا مخطئين في إحساسهما . وبنى الرسول حجرة بجوار حجراته تزوج فيها حفصة ، وكانت حفصة حسنة الصلة بعائشة وكانت لا تكتمها شيئاً ، إنما كان أمرهما واحداً ، وعاشت حفصة حتى زمن معاوية ابن أبي سفيان ، ولما ماتت صلى عليها والى المدينة مروان بن الحكم ^(١) .

وكانت عائشة تقول عن حفصة : إنها هي التي كانت تسامني من أزواج رسول الله ، ويقول الذهبي : إن رسول الله طلقها تطليقة ، فلما عرف عمر ذلك نال واشتد به الألم ، وقال ما يعبأ الله بعمر وابنته ، فنزل الوحي على الرسول يقول له إن الله يأمرك أن تراجع حفصة رحمة بعمر ^(٢) .

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء : ص ١٦٣ .

(٢) البلاذري : أنساب الأشراف ص ٤٢٤ .

زينب بنت جحش :

وتزوج الرسول زينب بنت جحش بنت عمه الرسول (أميمة بنت عبد المطلب) وأخوها عبد الله بن جحش الذي استشهد في غزوة أحد ، وكان الرسول قد زوجها من زيد بن حارثة مولاه ، وبقيت معه مدة عام لم تكن راضية عن هذا الزواج لعدم التكافؤ في نظرها بينها وبين زيد ، وطلقها زيد وتزوجها الرسول بأمر الله للقضاء عملياً على فكرة التبنّي ، وتحريم زوجة الابن المتبنّي كما سئرى ذلك عند الحديث عن حكمة تعدد الزوجات .

وكانت زينب تفخر بأن الله تعالى هو الذي زوجها بنص كتابه بلا ولي ولا شهود ، وكان ذلك في قوله تعالى : « فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكمها » ، ونقول عن باقي أمهات المؤمنين : أما هؤلاء فزوجهن أهلن ، وكانت زينب من خيرة النساء ديناً وورعاً وجوداً ومعروفاً ، وقد أرسل لها عمر مرة عطاء كبيراً ، فقالت : صبّوه . وأخذت تفرقه في رحمها وأيتامها ولم تُبشّر منه لنفسها شيئاً ، واتجهت إلى الله قائلة : اللهم لا يدركني عطاء عمر بعد عاي هذا . واستجاب الله لها ، فمات بعد ذلك بقليل .

وكان الرسول يقول : أسرعكن لحوقاً بي أطولكن بدأً ، فلما ماتت زينب قالت عائشة : إن طول اليد الذي قصده الرسول هو كثرة المعروف ، وكانت زينب تعمل وتتصدق ، فيروى أنها كانت تجمد دبع الجلود وتصنع منها ما يصلح للناس وتتصدق به :

ونقول عائشة واصفة زينب بنت جحش : كانت زينب تسامني

في المنزلة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما رأيت امرأة خيراً في الدين من زينب ، ولا أصدق حديثاً ، وأوصل للرحم وأعظم صدقة منها . رضى الله عنها (١) .

أم سلمة :

وتزوج الرسول هند بنت أمية وكانت زوجة عبد الله بن عبد الأسد ابن عمه الرسول ، وكان هذا قد مات متأثراً بجراح أصابته في غزوة أحد ، وكان لها منه ولد اسمه سلمة ، ولذلك كانت تسمى أم سلمة ، وقد تزوجها الرسول عقب وفاة زينب بنت خزيمة ، وأسكنها الرسول في الحجرة التي كانت هذه تعيش فيها .

وأم سلمة هي السيدة المحجة الطاهرة المخزومية بنت عم خالد بن الوليد وأبي جهل بن هشام ، وقد تزوجها الرسول سنة أربع من الهجرة ، وكانت من أجل النساء وأشرفهن نسباً ، ويروى أن زوجها قال لها وهو يحضر : إذا مت تزوجي ، واللهم ارزق أم سلمة بعدى رجلاً خيراً مني ، لا يخرىها ولا يؤذيها ، فلما مات قالت أم سلمة : من خير من أبي سلمة ؟ فلما خطبها رسول الله أدركت أن دعوة أبي سلمة قد استجيب لها .

وتقول أم سلمة إن الرسول عند ما خطبني قلت له : في خصال ثلاث : كبيرة السن ، مطلق (كثيرة الأطفال) ، غيور ، فقال لها الرسول : أما الغيرة فيذهبها الله ، وأما السن فأنا أكبر منك ، وأما الأطفال فعلى الله وعلى رسوله ، وتزوجها الرسول .

وتقول عائشة : لما تزوج الرسول أم سلمة حزنْتُ حزناً شديداً لما

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ١٤٩ وما بعدها .

ذكروا عن جمالها ، فتلطفْتُ حتى رأيتها ، فرأيت أضعاف ما وُصِفَتْ لي في الحسن ، فذكرت ذلك لحفصة ؛ وكانت قريبة مني ، فقالت لي إن هي إلا غيرة . وذهبت فرأتها ، وعادت تقول : إنها الجميلة ولكن ليس إلى الحد الذي تقولين ؛ وكانت حفصة أقرب إلى الصواب .

وأم سلمة كانت آخر من مات من أمهات المؤمنين ، وقد ابتد بها العمر حتى بلغها مقتل الحسين رضي الله عنه فوجت لذلك وغشيت عليها . وحزنت حزناً شديداً ، ولم تلبث بعد إلا يسيراً وانتقلت إلى رحمة الله (١) .

جويرية :

وفي السنة السادسة للهجرة تزوج الرسول برة بنت الحارث بن أبي ضرار سيد بني المصطلق أحد بطون خزاعة وأسمها « جويرية » وكان الحارث قد ساعد قريشاً في أحد ، ثم حاول في السنة السادسة أن يجمع جموعه ويهاجم المدينة ، فخرج له المسلمون ، وقامت معركة عند ماء يسمى « المريسيع » وتم النصر للمسلمين ، وغنم المسلمون كثيراً من المال وأسروا عدداً من النساء والصبيان ، وكانت برة ضمن الأسرى وقد وقعت في سهم ثابت بن قيس فكاكته على نفسها ولكنه أغل الفداء ، فجاءت برة إلى الرسول تستعينه في قضاء ما عليها ، وقالت له : أنا بنت الحارث ابن أبي ضرار ، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك ، فوفعت في السهم لثابت بن قيس ، فكاكته على نفسي وجثتك أستعينك على أمرى ، فتأثر الرسول بجمالها وحالات أمثالها ومثيلائها ، فقال لها : هل لك في خير من ذلك ؟ قالت : وما هو يا رسول الله ؟ قال : أقضى عنك ما عليك وأنزولك ؟ قالت : نعم يا رسول الله . قال : قد فعلت .

وخرج الخبر إلى الناس ، فقالوا كيف فسترق أصحاب رسول الله ،

(١) انتهى : سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ١٤٢ وما بعدها .

فأعتق المسلمون أسراهم . قالت عائشة : ما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة من برة ، وقد أسلم أبوها وقومها عقب ذلك ، وهناك رواية أخرى أن أباهما اقتداها ثم خطبها الرسول منه وتزوجها (١) .

وماتت جويرية سنة ٥٦ هـ وصلى عليها مروان بن الحكم والى المدينة من قبيل معاوية :

صفية بنت حيي :

ومن أمهات المسلمين كذلك صفية بنت حيي بن أخطب ، وأبوها سيد بني النضير الذين ثبت تأمرهم ضد الرسول فأخرجهم المسلمون من المدينة ، فاتجه بعضهم إلى خيبر واتجه آخرون إلى حدود الشام ، وكان حيي بن أخطب ممن اتجهوا إلى خيبر ، وفي غزوة الأحزاب وفد حيي مع المهاجرين ، ودخل حصون بني قريظة يحثهم على الغدر بالمسلمين ، ونال ماناله بنو قريظة عندما استجابوا للغدر ، فقُتِلَ مع من قتل منهم .

أما صفية بنته فكانت زوجة لأحد زعماء بني النضير واسمه سلام بن مشكم وفارقها سلام فتزوجت كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق . وهو من زعماء بني النضير أيضاً ، وهو كذلك الذي كان يشرف على أموالهم فيما يشبه الآن « البنوك » يقول ابن هشام (٢) : كان عند كنانة كنز بني النضير ، فلما سقط حصن الغموص أمنع حصون خيبر في السنة السابعة للهجرة طلب الرسول من كنانة أن يسلم ما عنده من أموال بني النضير ، فأنكر كنانة أنه يعرف أموالهم . فقال له الرسول : أرأيت إن وجدنا المال عندك أأنتك ؟ قال نعم . وكانت هناك خبرة اعترف أحد اليهود بأن كنانة بطوف بها ويحملق فيها ، فأمر الرسول بأن تحفر الخربة فحُفِرَتْ فوجد بها الكنز ، فسلم الرسول

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ١٨٦ - ١٨٧ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٢١٧ (تحقيق طه عبد الرؤوف) .

مُؤمى محمد بن مسلمة ليقبله قصاصاً لأخيه محمود بن مسلمة الذى كان كنانة قد قتلته .

وكانت صفية بين الأسرى فوقعت فى سهم الرسول صلوات الله عليه وسلم ، وبعد أن انتهى الرسول من تدبير أمر اليهود سأل صفية عن رأيها فى اليهودية والإسلام ، فقالت له : يا رسول الله لقد هويت الإسلام وصدقت بك قبل أن تدعوني إلى ذلك ، وقد كان أبى يعرف صدق دعوتك ، ولكن العصبية ذهبت به ، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله : وسألها الرسول إذا كانت توافق على الزواج منه فاستجابت مرحبةً بذلك ، فأعتقها الرسول وتزوجها ، وتم الزواج فى طريقه من خير إلى المدينة ، وكانت صفية غاية فى الإخلاص للإسلام ولرسول الإسلام ، كما كانت شريفة عافته ذات حسب وجمال ودين .

وتوفيت صفية فى منتصف القرن الأول للهجرة ودفنت مع أمهات المسلمين بالبقيع .

أم حبيبة :

وفى السنة السابعة للهجرة تزوج الرسول رملة بنت أبى سفيان بن حرب وهى من بنات غم الرسول وليس من أزواجه من هى أقرب إليه منها .

وكانت رملة متزوجة من عبيد الله بن جمحش ، وكان عبيد الله قبل الإسلام يضيق بالوثنية ويسخر منها ، وبقي على حال من الالتباس لا يدري ماذا يفعل ، فلما ظهر الإسلام دخل عبيد الله دين الإسلام ، وهرب إلى زوجته رمله يذكر لها أنه عرف مبعث محمد من التوراة والإنجيل ، وكان يلجأ إليهما وهو يبحث عن الطريق الصواب ، وأنه لذلك دخل الإسلام ، ودعاها عبيد الله إلى دخول الإسلام فاستجابت له ، وهاجرت معه إلى الحبشة .

وأنجبت رملة لعبيد الله بنتاً أسمتها « حبيبة » فأصبحت تُكنى « أم حبيبة ،

وقد فاجأها عبيد الله يوماً وهما بالحبيشة بنحبر مؤلم هو أنه اعتنق المسيحية ، فصرخت في وجهه وناقشه كثير من المسلمين الموجودين بالحبيشة ، ولكنه أصر على رأيه ، فقارفته أم حبيبة إذ لم يكن لمسلمة أن تعيش زوجة لمسيحي ، ومات عبيد الله عقب ذلك ، وعرف الرسول خبرها فأرسل بخطبها عن طريق نجاشي الحبيشة ، فسعدت بهذا الخبر ، وتم اجتماع في قصر النجاشي حضره وجوه المسلمين هناك مع النجاشي ورجاله ، وحضره كذلك عمرو بن أمية الضمري الذي أرسله محمد إلى النجاشي ليخطب له أم حبيبة وليدعو المسلمين بالحبيشة للعودة للمدينة بعد أن قوى شأن الإسلام هناك^(١) ، وفي هذا الحفل تم هذا الزواج ، وكان خالد بن سعيد بن العاص ، وكيل الزوجة ، ودفع النجاشي مهر العروس من ماله وقدره أربعمئة دينار ، ويقال أن فيها نزل قوله تعالى : « عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة »^(٢) وقد بارك أبو سفيان هذا الزواج عندما سمع به .

وعادت أم حبيبة إلى المدينة مع جعفر بن أبي طالب ومع المسلمين ، وكان وصولها عقب فتح خيبر ، ولذلك أثر عن الرسول قوله : ما أدرى بأبيها أسر ، بفتح خيبر أم بقلوم جعفر .

وماتت أم حبيبة سنة ٤٤ هـ وقبل أن تموت أرسلت إلى عائشة تقول لها : قد كان بيننا ما يكون بين الضرائر ، « قفقر الله لي ولك ما كان من ذلك » ، قالت عائشة : غفر الله لك ذلك كله فقالت أم حبيبة : سررتني مكر الله . وأرسلت إلى أم سلمة فقالت لها مثل ذلك^(٣) .

(١) لم يدع الرسول المهاجرين الحبيشة الحضور بالمدينة عقب الهجرة وذلك بسبب المشكلات الاقتصادية والعسكرية التي واجهت المسلمين بالمدينة عقب الهجرة ، وقد سبق أن ذكرناها .

(٢) سورة المتحنة الآية السابعة .

(٣) الذهبى : سير أعلام النبلاء : ص ١٥٩ .

ميمونة :

وفى عمرة القضاء تزوج الرسول ميمونة بنت الحارث ، وهى أخت أم الفضل زوجة العباس بن عبد المطلب وكانت ميمونة قد جعلت أمرها لأختها أم الفضل ، فجعلت أم الفضل أمر ميمونة إلى العباس ، فزوجها رسول الله بمكة وأصدقها عن الرسول أربعائة درهم .

وقد أراد الرسول أن يطيل مقامه بمكة بعد انقضاء الأيام الثلاثة التى كان قد تم الاتفاق عليها ليصنع طعاماً ويدعو أهل مكة إليه ويعرس بميمونة ، ولكن حويطب بن عبد العزيز قال للرسول قد انقضى أجلك ولا حاجة لنا فى طعامك فاخرج عنا ، فخرج الرسول من مكة ، وأعرس بميمونة بمكان يسمى «سرف» قرب التنعيم . وماتت ميمونة بنفس المكان سنة ٦٣ هـ (١) .

تعدد الزوجات فى الإسلام

وتعدد زوجات الرسول بوجه خاص

واستكمالاً للحديث عن زوجات الرسول اللاتى تعددن كما سبق يحدربنا أن نشرح تعدد الزوجات فى الإسلام بوجه عام ، وسر تعدد زوجات الرسول بوجه خاص ، وموضوع تعدد الزوجات موضوع مهم يتحدث عنه الناس من مسلمين وغير مسلمين . وفيهم من يدرك هدف الإسلام فيتفق على الإسلام بسبب ذلك ، وفيهم من يطعن فى الإسلام ويحمل عليه لإباحته تعدد الزوجات ؛ ومن الناس كذلك من يدرك البراءة التى دفعت الرسول ليتزوج عدة مرات (٢) ، ومنهم من يتجاوز الحد فيتهم الرسول

(١) ابن هشام : ج ٤ ص ٥ - ٦ .

(٢) تزوج الرسول بعد خديجة ثلاث عشرة زوجة دخل بإحدى عشرة منهم كما ذكرنا من قبل وطلق اثنين قبل الدخول (انظر العقد الفريد ج ٢ ص ٢٥٢ - ٢٥٤) .

تهدماً جسمانية يحل عنها ؛ والآن ، ونحن بصدد شرح أفكارنا فيما يتعلق بتعدد زوجات الرسول ، ذلك التعدد الذي ظهر في المدينة ، أى في هذه الفترة التاريخية التي وصلنا لها في عرضنا لأحداث التاريخ الإسلامى ، نرى من الأفضل أن نتحدث أولاً عن تعدد الزوجات في الإسلام عموماً حديثاً قصيراً نردُّ به عن الإسلام الفرية التي يرميه بها بعض المفكرين ، ثم ننشئ فتتحدث عن تعدد زوجات الرسول ودوافعه :

تعدد الزوجات في الإسلام :

يتجه بعض الباحثين إلى أن الأصل في الزواج في الإسلام هو الزوجة الواحدة ، ويوردون على ذلك بعض الأدلة ، ومنها ما يلي :

قوله تعالى : فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ؛ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة^(١) .

وقوله تعالى : ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم^(٢) .

ويعلق المرحوم قاسم أمين على هاتين الآيتين بقوله :

ولو أن ناظراً في الآيتين أخذ منهما الحكم بتحريم الجمع بين الزوجات لما كان حكمه بعيداً عن معناهما ، لولا أن السنة والعمل جاء بالإباحة في الجملة^(٣) .

وروى البخارى عن مسور بن مخزومة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو على المنبر : إن بنى هشام بن المغيرة استأذنوا في أن يُنكحوا بنتهم على بن أبى طالب ، فلا آذن ، ثم لا آذن ، ثم لا آذن ، إلا أن يريد على بن أبى طالب أن يطلق ابنتى وينكح ابنتهم ، فلأنما فاطمة بضعة منى ، يربىنى ما رابها ويؤذبنى ما آذاها .

(١) سورة النساء الآية الثالثة .

(٢) سورة النساء الآية ١٢٨ .

(٣) تحرير المرأة : فصل تعدد الزوجات .

وقد أخذ العلماء أو فريق منهم من هذا الحديث أن الشريعة التي يؤذيها أن يتزوج رجلها بأخرى لا يحل إيذاؤها بالتزوج عليها ، وإن اشترطت ذلك على الرجل ، أو كانت تلك هي عادة القوم ، فعليه الوفاء (١) .

والقدرة على تكاليف التعدد شرط فيه ، فقد روى أن الرسول صلوات الله عليه ، قال مخاطباً الشباب : « من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » فهو لا يرى للأعزب أن يتزوج عند عدم الباءة (وهي مسئوليات الزواج من جميع النواحي) ، ويصف له الصوم علاجاً ، ولا شك أن روح الحديث الشريف توضح ضرورة الاكتفاء بزوجة واحدة لأي زوج غير قادر على الباءة بالنسبة لزوجة أخرى ، ولو نفذنا هذا الشرط لقلَّ تعدد الزوجات بشكل ملحوظ .

فالزوجة الواحدة على ذلك هي الأصل في الإسلام ، وقد سار على ذلك الأصل الغالبية العظمى من المسلمين ، وبلغ هؤلاء مثلاً في جمهورية مصر العربية أكثر من ٩٧ ٪ .

بيد أن عوامل متعددة تدفع الرجل - مسلماً كان أو غير مسلم - إلى التزوج بزوجة أخرى ، وتكون هذه الحالة ملحة أحياناً كعدم الرلد ومرض الزوجة ، فتعدد الزوجات هنا أحسن من اتجاه المسيحية إلى طلاق العاقر أو المريضة ثم الزواج بأخرى ، وكعدم القدرة على الصبر دون الاتصال الجنسي حقبة الحيض أو النفاس ، وكالرغبة التي تغلب على بعض الرجال فتجعل حاجتهم الجنسية لا يطفئها إلا عدد من الزوجات ، وعن هذا النوع يقول الإمام ابن القيم : من الناس من يغلب عليه سلطان هذه الشهوة بحيث لا تحصنه المرأة الواحدة فيستحب لصاحبها الزيادة عن الواحدة إلى الأربع وإذا كان الباعث معلوماً فينبغي أن يكون العلاج بقلر العلة ، فالمراد تسكين النفس ، فليُنظر إليه في الكثرة والقلة (٢) .

(١) كمال أحمد حوف : المرأة في الإسلام .

(٢) أعلام الموقعين من رب العالمين ج ٢ ص ٨٤ .

فهؤلاء وأمثالهم لم يتركهم الإسلام لقيادة الشيطان ، بل رسم لهم ما يحقق رغبتهم أو بعضها في إطار حلال وهو إباحة تعدد الزوجات .

هذا من جهة الرجل ، فإذا جئنا إلى المجتمع ، وجدنا ظروفاً كثيرة تجعل تعدد الزوجات وسيلة لحل مشكلة به ، فلعل تعدد الزوجات هو الوسيلة الصالحة لحل مشكلة زيادة عدد النساء على الرجال وبخاصة بعد الحروب والفتن حيث تصبح هذه الزيادة كبيرة ، ولا نزاع أنه أكرم للمرأة حينئذ أن تتزوج متزوجاً من الرضا بعلاقة الخلية التي لا حقوق لها ولا أولادها لدى الرجل ، وأكرم لها كذلك من حياة العانس لما في هذه الحياة من حرمان وفقر .

بقي أن نقول عن تعدد الزوجات إنه ليس من صنع الإسلام ، وإنما هو تشريع قديم عرفته كل الحضارات وفي مقدمتها التوراة ، وأقره الإنجيل إلا في حالة واحدة هي حالة الأسف حيث لا يستطيع الرهينة مع تعدد الزوجات ، فليكنف بزوجة واحدة ، وقد بقي تعدد الزوجات معمولاً به في العالم المسيحي حتى حرّمته القوانين الرضعية ، ولم يقبل الإسلام تعدد الزوجات على النحو الذي عرفته حضارات الماضي ، بل حدّده بعد أن لم يكن محدداً ، ونظمه بعد أن كان لا نظام له ، وقيّده وكان من قبل مطلقاً .

تعدد زوجات الرسول :

أما تعدد زوجات الرسول فموضوع آخر ، والله قد أباح له أي عدد من الزوجات في السنوات الأولى من حياة المسلمين بالمدينة . لماذا كان هذا الإباحة ؟ ولماذا تزوج الرسول تبعاً لهذه الإباحة هذا العدد من الزوجات ؟ وهل كان ذلك كما يقول أعداء الإسلام لأن الرسول كان يحب النساء ؟

الجواب على ذلك سهل واضح ، هو أن مثل هذه التهمة لا يمكن أن تُوجّه إلى رجل أمضى عهد شبابه وعهد قوته قانعاً بزوجة واحدة كانت أكبر منه سناً وكانت ثيباً عندما تزوجها ، وهل يمكن أن يُتّهم بحب النساء رجل لا يتزوج غير واحدة وهو في الثلاثين والأربعين والخمسين ؟

فإذا تزوج الرسول بعد ذلك وبعد خمسين سنة حافلة بالكفاح والنضال فلا يمكن أن يكون قد تزوج لغرض جنسى .

ولم يعقب الرسول نسلا من النساء اللاتي تزوجهن بعد خديجة ولعل الباحث يستطيع أن يستنبط أن علاقته الجنسية بهن كانت محدودة ، وإلا فلماذا لم يعقب من أى منهن مع أنهم فيما عدا عائشة كن متزوجات قبله وكان لأكثرهن أولاد من الزيجات السابقة ؟

ولم يحدث قط أن اختار زوجة لأنها مليحة وسيمة ، مع أنه - فى مكانته وسلطانه - لم يكن عسيرا عليه أن يجمع إليه أجمل بنات العرب وأرق بنات الفرس والروم على تخوم الجزيرة العربية ، ولم يبن بعذراء إلا بعائشة التى اختارها أو اختيرت له من أجل ظروف أخرى (١) .

لماذا إذن عدّد زوجاته ؟

الجواب على ذلك سهل بعد هذه المقدمات ، فمن المعروف أنه فى الظروف الاستثنائية التى تمرّ بالدول كالحروب والمجاعات والاضطرابات ، تُعطى سلطات استثنائية للرؤساء لمواجهة هذه الظروف ، وفى مطلع الحياة بالمدينة واجه الرسول ظروفاً استثنائية تتمثل فى صراعه مع قريش واليهود وبنى المصطلق وغيرهم . ثم تمخض هذا الصراع عن أرامل من المسلمات سقط أزواجهن فى الحروب وتمخض عن غيره ذلك من المشكلات التى سبق أن ذكرناها ، وفى هذه الظروف الاستثنائية أعطيت سلطات استثنائية للرسول ليتخذ الزواج وسيلة إلى التخفيف من الصراع ومن نتائجه ، وقد عبّرت عن ذلك الآية الكريمة : عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة (٢) .

فلما خفّت حدة الصراع ، أو بلغة العصر لما زالت الظروف الاستثنائية

(١) انظر مبادئ الإسلام وأباطيل خصومه للأستاذ العقاد ١٩١ .

(٢) سورة الممتحنة الآية السابقة .

وبالإضافة إلى ذلك فإن الرسول كان قد تبنى زيداً وكان يطلق عليه زيد ابن محمد ، وكان من عادة العرب ألا يتزوجوا زوجة الابن المتبنى لاعتقادهم أن الابن المتبنى كالابن الحقيقي ، فأوحى الله لمحمد أن يتزوج زينب بعد أن طلقها زيد ليبطل الإسلام هذا التفكير عند العرب ، ويكون إبطاله عملياً حتى يكون أقوى ، لصعوبة رجوع العرب عن هذه العادة المتמكة بدون إبطال عملي ، وقد قص القرآن الكريم قصة زينب فيما يلي : (وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك ، واتق الله ، ونحن في نفسك ما الله مبديه ، ونخشى الناس والله أحق أن نخشاه ، فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكمها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً^(١) .

جويرية :

هي جويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق من خزاعة ، وقد وقعت حرب بين بني المصطلق وبين المسلمين في شعبان من السنة السادسة للهجرة ، وكان الحارث بن أبي ضرار والد جويرية قائد بني المصطلق وانتصر المسلمون وقتل الحارث ، ولكن الانتصار لم يتم فلا يزال الرجل يغلي ، وقد وقع نساء بني المصطلق سبايا في أيدي المسلمين^(٢) ، ومثل ذلك كفيل أن يزيد الحفيظة في القلوب وأن يزيد الكراهية والعداء في النفوس ، وكانت جويرية بنت الحارث إحدى الأسيرات ، وقد وقعت في سهم ثابت بن قيس فكاتبها على مال تؤديه فتعتق ، فجاءت إلى رسول الله تطلب منه العون كما ذكرنا من قبل ، ووجد الرسول الفرصة سانحة لتخفيف الأسى عن بني المصطلق فعرض عليها أن يؤدي عنها ما طلب منها ويتزوجها فوافقت ، وتم الزواج الذي كان خيراً وبركة على بني المصطلق فإن المسلمين خجلوا أن تظل نساء بني المصطلق سبايا في أيديهم ، وقالوا : أصهار رسول الله . واعتقوهن تكريماً لهذا الزواج^(٣) .

(١) سورة الأحزاب الآية ٣٧ .

(٢) ابن القيم : زاد المعاد ج ٢ ص ١١٢ .

(٣) ابن القيم : زاد المعاد ج ١ ص ٢٧ . وابن هشام ج ٢ ص ٢١٦ - ٢١٧ .

وطيب الرسول بهذا الزواج قلب جريرية وهذا الثورة التي كانت لا تزال مشتعلة ضد المسلمين في قلوب شباب بني المصطلق .

أم حبيبة بنت أبي سفيان :

كان أبو سفيان من أقسى أعداء الإسلام ولكنه ابنته حبيبة دخلت الإسلام مع زوجها عبيد الله بن جحش ، وقد تعرضت هي وزوجها إلى عنت قريش واضطهاد ذويها . فاضطرت للهجرة للحبيشة مع زوجها . ولكن زوجها تنصر وهو في الحبيشة وبقيت هي على الإسلام ، وهكذا فقدت أهلها وفقدت زوجها وهي مغتربة وعز عليها الملجأ ، ولكن قلب رسول الله يفتح لها . ويداوى جراحها . ويكافئها أسمى مكافأة على موقفها الرائع ، فيزوجها وهي بالحبيشة ويصدقها النجاشي عنه أربعائة دينار ، ونجد بيت الرسول مفتوحاً لاستقبالها بعد أن فقدت بيت الوالد وبيت الزوج^(١) .

ويعتبر زواج الرسول من أم حبيبة أقوى دليل على أن هدف الزواج لم يكن الرغبة الجنسية : فأما حبيبة كانت بعيدة جداً عن الرسول ولم يرها الرسول إلا بعد فترة طويلة عندما عادت إلى المدينة . وهذا دليل واضح على أن الزواج كان له هدف آخر .

وهناك زوجات تزوجهن الرسول لحمايتهن ولتكفل بمطالبهن بعد أن فقدن أزواجهن : وأصبحن وليس لهن من يعولن فانتسعت لهن أنفسهن الكريمة ، واتسع لهن بيته ، ومن هؤلاء سودة بنت زمعة أولى زوجاته بعد السيدة خديجة وزينب بنت خزيمة وكان زوجها من شهداء غزوة بدر

(١) ابن هشام ج ٢ ص ١٢٣ .

زالت السلطات الاستثنائية إذ نزل قوله تعالى : لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج (١) .

والزواج عند الناس جميعاً بصفة عامة وعند العرب بصفة خاصة كان ولا يزال سبباً مهماً من أسباب الربط والتقريب بين الجماعات والقبائل . وإذا كان التاريخ أثبت أن أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً كانوا في القمة بين المسلمين بدليل اختيارهم خلفاء ، فإن ذلك يوضح لماذا اتصل الرسول بهؤلاء جميعاً بطريق المصاهرة فتزوج بنتي الأولين وزوج من بناته للآخرين ، ولهذا حدث تعدد زوجات الرسول بالمدينة أى في وقت كان يعمل لتأليف القلوب حوله .

ومن أسباب التعدد العامة كذلك أن فترة الإسلام بالمدينة كانت فترة تشريع ، وتولت زوجات الرسول عبء تحمل التشريع بصفة عامة والتشريع المتصل بالمرأة والأسرة بوجه خاص ، وقد تمثل ذلك بصفة أخص مع عائشة كما سنرى .

وهناك أسباب خاصة تستدعى أن نقوم باستعراض سريع لبعض هذه الزيجات لنرى دوافعها وظروفها ، وقد سبق أن أشرنا لذلك من قبل :

عائشة :

كانت علاقة الرسول بأبي بكر قوية جداً كما نعرف ، وكان أبو بكر يعتبر ملازماً للرسول ، فزواج الرسول من بنت أبي بكر يرفع الحرج عن أبي بكر ، ويتيح له أن يدخل بيت الرسول ، وأن يكون أكثر اتصالاً به :

وكانت عائشة ناشئة عندما تزوجها الرسول ، وكان لها حدة ذكاء الناشئة ، فإذا تزوجها الرسول في المدينة بعد الهجرة ، أى في المرحلة التي ذخرت بالتشريع الإسلامي ، أصبحت مصدراً مهماً لحفظ أحاديث الرسول ، والأخذ عنه ، وتبليغ ألوان التشريع إلى الناس . وقد نسبت بعض الروايات للرسول قوله « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » .

حفصة :

كانت علاقة الرسول بأبي بكر تكاد تكون مساوية لعلاقته بعمر ولاشك أنه كان من وسائل التكريم للفاروق أن يتزوج الرسول بنته على نحو ما فعل مع أبي بكر ولهذا نجد أنه عندما طلقها جاء الوحي يطلب منه ردها تكريماً لعمر أبيها كما ذكرنا من قبل

زينب :

كانت زينب ابنة لأميمة بنت عبد المطلب عممة الرسول ، وكانت من أشراف العرب ، وقد جاء الإسلام فسوى بين الناس ، سوى بين السادة والعبيد ، سوى بين الأشراف والموالى ، وقد خضع الناس لهذه التسوية ، ولكنها في العصر الأول لم تكن بطبيعة الحال قد تمكنت في نفوس القوم ، وقصة زينب إنما هي قصة تثبيت المبدأ الجديد ، فقد خطبها الرسول لمولاه زيد بن حارثة ، وحدث صراع نفسي ، فكيف تزوج حفيدة عبد المطلب من زيد المولى ؟ ولكن كيف تُردّ خطبة الرسول ؟ وكيف لا يخضع المسلمون للإسلام الذي جعل الناس جميعاً سواء كأسيان المشط كما قال الرسول ؟ وإذن فليتّم الزواج ، وقد تم ، ولكن بقي في النفس شيء من إحساس الجاهلية ، وكان زيد مرهف الحس ، فأحسن بتعالى زينب عليه ، واعتادها من قريب أو بعيد بنفسها ، فشكا ذلك للرسول ، وذكر رغبته في طلاقها ، وأعلم الله الرسول أن هذا الزواج لن يدوم ، ولكن الرسول ما كان ليقول ذلك لزيد ، وأخذ يدعو أن يمسك عليه زوجته وأن يتقي الله ؛ ولكن هذا العلاج لم يقض على الداء ، وطلق زيد زينب وبقي في نفس زينب وفي نفس أقاربها شيء من هذا الزواج ، فأراد الله أن يزيل أثره عن زينب ، وفي الوقت نفسه أراد الله أن يقرر المساواة ويقويها ، فأوحى لرسوله أن يتزوجها ، وهكذا نجد حفيدة عبد المطلب تزوج من مولى ويظن الناس بأنها انخفضت درجة بهذا الزواج فلم تعد صالحة ليتزوجها قرشي ، ولكن الرسول نفسه يتزوجها بعد طلاقها فترقى إلى أعلى الدرجات ، ويؤمن الناس بالمبدأ الإسلامى الرشيد ، مبدأ المساواة ، الذى وضع وضعاً عملياً في هذه القصة .

وهند بنت أبي أمية (أم سلمة) وكان زوجها من شهداء أحد .

وهكذا إذا ذهبنا نبحث حالات زواج الرسول واحدة واحدة نجد في كل منها سبباً كريماً ولكل منها حكمة بالغة .

مارية :

وبعد الفراغ من الحديث عن زوجات رسول الله يتحتم علينا أن نتكلم كلمة عن مارية التي كان يمكن أن تكون زوجة ضمن زوجات الرسول؛ إذ أن الرسول عرض عليها أن يعتقها ويزوجها كما فعل ببعض نسائه ، ولكنها آثرت أن تبقى مملوكة له ، ترى فيه سيدها وصاحب السلطان عليها .

لماذا آثرت مارية هذا الاتجاه ؟ إن الجواب عن هذا سهل ، فارية كانت جارية في قصر المقوقس في مصر ومن هنا كان لها عهد بحياة الرق ، فلم ترد أن تغير من نسق حياتها الذي اعتادته ، ثم إنها كانت ذات معرفة بالآداب المسيحية التي تدعو للرهبة وتحث على الخضوع ، وهناك سبب ثالث قد يساق في هذا المجال هو أن المقوقس أرسل بها هدية لمحمد لتتعرف على أخباره أو قل لتتجسس عليه ، وأرسل معها أختها (سيرين) ونفراً من قومها لعلها تستطيع أن تنقل إليه أخبار محمد بواسطتهم ، فمن هنا لم تجيء مارية إلى بيت محمد انتزوح وتؤدي التزامات الزواج من حب وإخلاص ، وإنما لتتجسس ومكانها كجارية يبيح لها هذا التصرف .

ومن هنا آثرت مارية أن تبقى ملك يمين ، ولكنها سرعان ما قابلت شيئاً هز وجدانها ، فقد خلّفت بمصر قصوراً شاهقة كان يعيش فيها المقوقس ويعيش فيها بعض رؤساء الكنيسة ، وجاءت إلى المدينة حيث عاشت في بيت صغير شديد القرب من صوامع الرهبان ، ورأت الرسول يعيش على

"تكفاف ، ويبيت أحياناً على الطوى ، وفراشه خشن متواضع ، وملبسه بعيد كل البعد عن الترف والنعيم ، وكان الرسول يشاركها في أعمال البيت ، ويتخلق بأسمى الآداب وأرق الصفات فأدركت مارية أن محمداً ليس ملكاً ، وأنه هو بأخلاقه وبدعوته رسول الله ، بل عرفت مما سمعته من القرآن الكريم طبيعة السيد المسيح وأنه ليس إلهاً كما ادعى المسيحيون ، ولكنه عبد الله ورسوله ، فأسلمت وحنن إسلامها ، وأنجبت للرسول ابنه إبراهيم الذي فرح به الرسول والمسلمون فرحاً جماً ، وسنتحدث عن إبراهيم عند حديثنا عن أولاد الرسول .

معاملة الرسول لزوجاته :

في بيوت الرسول صلوات الله عليه وجد طرفان في مجال المعاملة ؛ الطرف الأول هو الرسول نفسه ، وهو الإنسان الكامل الذي وصفه الله تعالى بقوله « وإنك لعلی خلق عظیم ^(١) » وهذا شيء طبيعي لأن الأنبياء صفوة البشر قال تعالى « الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس ^(٢) » .

ولهذا كانت تصرفات الرسول في بيته تصرفات مثالية تعدُّ نماذج للمسلمين الذين ينبغي عليهم أن يقتلوا بالرسول وأن يغتروا من سلوكه ، ما وسعهم الطاقة .

والطرف الثاني في بيوت الرسول هو زوجاته رضي الله عنهن ، وهن بلا شك مجموعة من الفضليات ، ولكنهن لم يكن في درجة الرسول ، ولا كن في مستوى واحد في الفضل كما سئرى من الأحداث التي نرويها ، وزوجات الرسول بهذا الشكل شيء طبيعي ، إذ لو كن قما في الفضل لكان بيت الرسول في مستوى بعيد عن واقع الحياة ، ولما ظهرت به المشكلات التي يعالجها الرسول ليتخذ المسلمون من علاج الرسول لها درساً ينتفعون به فيما يواجهون من مشكلات .

(١) سورة القلم الآية الرابعة .

(٢) سورة الحج الآية ٧٥ .

ومن هنا فإن دراستنا للحياة في بيت الرسول سترينا الاتجاه المثالي التشريعي الذي قمتله تصرفات الرسول ، وسترينا كذلك اتجاهات الزوجات وموقف الرسول منها مثنياً أو مصححاً أو مهذباً ، وعلى المسلمين أن يتبعوا نهج الرسول في جميع الحالات .

والاتجاه المثالي لحياة الأسرة تبرزه أحاديث الرسول التي تُلزم كلا من الزوج والزوجة أن يرعى الآخر أسمى رعاية ، وأن تكون العشرة عامرة بالحب والوفاء وبالإخلاص ، وأحاديث الرسول في ذلك كثيرة موثقة منها :

— استوصوا بالنساء خيراً .

— خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي .

— أيتها امرأة مانت وزوجها راض عنها دخلت الجنة .

— لو كنت امرأة أحدكم أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها .

فالرسول في هذه الأحاديث وسواها يعظ ويعلم ولكنه يضرب المثل بنفسه ، ويبين أنه خير الناس في أهله ، فأحسن الناس من كان كذلك ، وليس الذي يبدو أمام الناس سمحاً طيباً فإذا دخل بيته انقلب متسلطاً عابساً ، وتقول السيدة عائشة عن ذلك « كان رسول الله في بيته ألين الناس ضاحكاً باسماء » وكان يساعدن في أعمال البيت ، وأثر عنه قوله « خدمتكم زوجتكم صدقة » وكان رسول الله يعامل زوجاته بالحسنى ، ويأخذهن بالنصيحة الطيبة ، ويسألن الرقي في أمورهن ، ويقسم بينهن بالعدل ويقول : « اللهم هذا قسمي فيما أملك : فلا تؤاخذني فيما لا أملك » أي يسأل الله ألا يؤاخذته في ميل القلب الذي لا يمكن للإنسان أن يسيطر عليه .

أما مكانة الزوج لدى زوجته فيوضحها الرسول لعائشة عندما سألته : أي الناس أعظم حقاً على المرأة ؟ أجاب : زوجها . وسألته وأي الناس أعظم حقاً على الرجل ؟ فأجاب : أمه .

وجاءت إلى الرسول زوجة من الزوجات ، فسألها الرسول : كيف أنت مع زوجك ؟ إنه جنتك ونارك ، أى أنك تدخلين الجنة أو النار حسب معاملتك له .

وكان الرسول صلوات الله عليه ينبه الرجال إلى احتمال النساء ، ففي كثيرات منهن نوع من الانحراف ينبغي أن يصبر عليه الرجل ، وهو في ذلك يقول :

— إن المرأة كالضلع إن ذهبت تقيمها كسرته ، وإن تركتها استمعت بها على عوج .

— لو أحسنت إلى المرأة الدهر ثم رأت منك شيئاً ، قالت ما رأيت منك خيراً قط .

(رواه البخارى)

ولم تكن زوجات الرسول — كما أشرنا آنفاً — على نفس واحد ومستوى واحد لدى الله ولدى الرسول ، ولذلك كان الوحي يجيء للرسول في مكة في بيت خديجة وفي المدينة في بيت عائشة ، وقد روى عن عائشة قولها « فضلى الله على الأخريتين بأن جعل الوحي ينزل على الرسول في بيتي » ولم ينزل في غير بيتها إلا قليلاً في بيت أم سلمة . وكان الرسول يقول : إن لعائشة مني شعبة ما تنزلها واحدة من النساء .

وكان الرسول كثير المداعمة لعائشة ، فقد شكت له مرة آلاماً في رأسها فداعبها بقوله : ماذا لو متُّ وأنا حي فصلبتُ عليك ودعوت لك ؟ فقالت له : فكأنى بك وقد عدت بعد دفني تعرس بإحدى نسائك على فراشي وكان يسابق عائشة فسبقته مرة وسبقها أخرى فقال لها هذه بتلك .

وكانت الغيرة موجودة في بيت الرسول ، وكان الرسول ينظم الغيرة حتى لا تكون أداة تدمير للأسرة ، ويروى عنه قوله في الغيرة من الأجانب « إن الله تعالى

بغار ، والمؤمن بغار ، وإني لغير ، وما من امرئ لا بغار إلا منكوس القلب ، ولكن من الغيرة ما يحبه الله ، ومنها ما يبغضه ، فأما الغيرة التي يحبها الله فالغيرة مع الريبة ، والغيرة التي يبغضها الله الغيرة بدون ريبة ، فإذا لم يكن هناك أدنى شك فلا داعي للغيرة ، بل يعلم الرجل زوجته أن تبعد عما قد يحدث شكاً في المستقبل ، أما مع الشك فلا بد من التعرف على أسباب الشك حتى لا تتفاقم الأمور .

أما الغيرة بين الضرائر فقد دعا الرسول ربّه أن يزيل حدّتها وقصّة ذلك أنه عند ما خطب أم سلمة ترددت في القبول وكان من أسباب ترددها ما قالته بأن عند الرسول من هي أجل منها . فأحس الرسول فيها بخلق الغيرة فقال وإن كنت تغارين من النساء فيذهب الله الغيرة منك .

وبعد أن تزوج الرسول أم سلمة نشأ في بيت الرسول حزبان ، حزب فيه عائشة وحفصة وصفية وسودة ، والحزب الآخر أم سلمة وسائر زوجاته ، ونمت الغيرة في هذا الجو ، وترتب على الغيرة بعض الكيد ، وبعض الإساءات ، ولكن الرسول وقف منصفاً حكماً ، ليخفف من غيرة النساء ويقلل من وحدتهن ، وقد أورد الذهبي بعض مظاهر الغيرة وبعض الأحداث التي جرت مرتبطة بها :

فمن ذلك ما ترويه عائشة قالت : أتاني رسول الله صلى الله عليه وسلم في غير يوم ، فدق الباب ، فسمعتُ الدق ولكن توانيت في الفتح حتى دق أكثر من مرة ، ثم فتحت له ، فقال : أما كنت تسمعين الدق ؟ قلت : سمعته ولكنني أحببت أن تكرر الدق لتعلم النساء أنك أنيتني في غير يوم^(١) .

ويروى زيد بن أسلم أن رسول الله في مرضه الذي توفي فيه قالت له صفية بنت حيي : والله يانبي الله لو ددت أن الذي بك حل بي ، فتغامزت

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ١٢٣ .

زريته فأبصرهن الرسول ، فقال لمن : استغفرون الله . فقلن : من أى شيء ؟ قال : من نغامركن بها ، والله إنها لصادقة^(١) .

وعن عطاء بن يسار قال : لما قدم رسول الله من خيبر ومعه صفيه سمع الناس يجالها فجنن لينظرن إليها ، وجاءت عائشة متنقبة ، ولكن الرسول عرفها ، فلما خرجت لحق بها الرسول وسألها : كيف رأيت ؟ قالت : رأيت يهودية . قال : لانتقولى هذا فقد أسلمت^(٢) .

فإنه كانت سياسة الرسول الحكيمه وهو يتودد للركب الذى تعددت فيه الزوجات وآن لنا أن نتحدث عن تصرفات أحدثتها بعض الزوجات ونشرح كيف كان موقف الرسول من هذه التصرفات ، وأول ما يهمنى إن حياة التقشف كانت نمط الحياة عند الرسول ، وتقول عائشة : كان خبزنا الشعير أطحنه فى الرحى ، وطعامنا التمر والماء ، وأحياناً كنا نحصل على بعض اللبن ، ويمر شهران لا توقد نار لطهي طعام ، ولم يمتلئ جوف الرسول شبعاً قط وكان الفقر أحب إليه من الغنى ، ولم تكن الزوجات تستطعن ما استطاعه الرسول من المزوف عن الدنيا ، فاجتمعت الزوجات حول الرسول يسألنه النفقة ، فاعتزلهن الرسول شهراً أو حوالى ذلك ، فنزل قوله تعالى : يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعنن وأمرحكن سراهاً جميلاً ، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً^(٣) .

فبدأ الرسول يعرض عليهن ما عرضه الله سبحانه وتعالى ، وابتدأ بعائشة قائلاً لها استشيرى أبويك فى هذا الأمر ، فقالت عائشة : أفليك استشير يا رسول الله ؟ فلما تلا عليها الآية قالت : أختار الله ورسوله والدار الآخرة . وكذلك فعلت الزوجات الأخريات . وهكذا عالج الرسول هذه

(١) المرجع السابق : ص ١٦٢ .

(٢) المرجع السابق : ص ١٦٨ .

(٣) سورة الأحزاب : الآية ٢٩ .

الأزمة بحكمة وهدوء . فيما أن ترضى الزوجات بنسق الحياة الذى يعيش فيه الزوج وإلا كان تسريحهن هو المخرج .

وهناك حادثة أخرى تأمرت فيها عائشة وحفصة على الرسول ، فقد كانت زينب بنت جحش من أحب نسائه إليه وكان يدخل عندها نهاراً وهو يمر على زوجاته فيطيل عندها الجلوس فدبرت عائشة وصفيّة مؤامرة ضده ، فما إن خرج ودخل على عائشة حتى قالت له هذه : ماذا أكلت أو شربت هند زينب ؟ إني أشم من فمك ريحاً غير طيب : قال الرسول : سقني زينب جرعة عسل . قالت : لقد رعى نحل المغاير (المغاير نبات لزج رائحته كريهة) ودخل الرسول على حفصة فقالت له ما قالت عائشة : فصدق الرسول هذا الادعاء ، وكان حريصاً على طيب رائحة فمه ، فحرّم على نفسه شرب العسل وقد كشف الله سبحانه وتعالى هذه المؤامرة فنزلت الآية الكريمة « يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ؟ تبغى مرضاة أزواجك والله غفور رحيم » إلى قوله تعالى « إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما ، وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاة وجبريل وصالح المؤمنين ^(١) » وتاب الله على زوجات الرسول وغفر لهن .

وكان من نساء الرسول من تراجع الرسول وتناقشه ، ومنهن من قالت له : تكلم ولا تقل إلا حقاً . وكان الرسول يتسم ويقول : وهل أقول غير الحق ؟ وقد سبق أن ذكرنا أن سودة لم تكن موافقة للرسول ولالبناته كما ينبغي ، وأنها قالت لسهيل بن عمرو قولة فيها تحريض للكفار على المسلمين ، ولما سمعها الرسول قال لها : يا سودة أعلّ الله ورسوله تحريضين ؟ فاعتذرت سودة ، وتقول عائشة عن سودة : ما من الناس امرأة أحب إلى أن أكون في صلاحها من سودة بنت زمعة . إلا أنها امرأة فيها حسد . وقد رأى الرسول انصراف قلبه عنها فعرض عليها الطلاق ، ولكنها توسلت إليه ألا يفعل فقبل ذلك منها ووسعتها رحمه ، وفي رواية أخرى أنه طلقها فعلاً . ولعل موقف سودة ومثيلاتها هو الذى أوحى للرسول أن يقول : إن المرأة كالضلع إن ذهبت تقيمها كسرتها وإن تركتها استمعت بها على عوج . وعلق

(١) سورة التحريم : الآيات الاول .

الإمام الشركانى على هذا الحديث بقوله : إن فيه الحث على الصبر على مالا يستقيم من أخلاق النساء .

وكان الرسول كثير الاعتراف بالفضل لزوجته خديجة حتى بعد وفاتها ، فقد كان يكثر الحديث عنها بخير ويدعو لها ، وكان يذبح الشاة ويقسمها أجزاء ويبيع بأجزائها إلى صاحبات خديجة ، وقد سبق أن ذكرنا أن عائشة كانت تقول : ما رأيت خديجة قط ولكنى كنت أغار منها أكثر مما أغار من غيرها لكثرة ما كان يمدحها ويثنى عليها ، وفى مرة أعلن الرسول لعائشة أن خديجة لا تعدلها زوجة أخرى فغضبت عائشة وقالت له : هل كانت إلا عجوزاً بذلك الله خيراً منها ؛ فقال لها بغضب : لا والله ما بدلتى الله خيراً منها ، آمنت بى إذ كفر الناس ، وصدقنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بما لها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من الزوجات وقد ذكرنا ذلك من قبل .

* * *

الحجاب :

بقيت كلمه عن الحجاب بالنسبة لأمهات المؤمنين وبالنسبة للنساء المسلمات بوجه عام ، والذي عليه الجمهور أن أمهات المؤمنين لهن حكم خاص بهن توضحه آيات سورة الأحزاب ، والحجاب عليهن معناه لزوم البيت ، وقد فُرض عليهن بعد غزوة الخندق ، كما أن نساء الرسول لا يجوز أن يتزوجن بعده ، وعن هذه الأحكام الخاصة بزوجات الرسول يقول تعالى :

— يا نساء النبي لستن كأحد من النساء ، إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا ، وقرن فى بيوتكن ، ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ، وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً^(١)

(١) سورة الأحزاب الآيتان ٣٢ - ٣٣ .

— يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ، ولكن إذا دعيتم فادخلوا ، فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ، إن ذلكم كان يؤدى النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق ، وإذا سألتهم من متاعاً فاسألوهم من وراء حجاب ، ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهم^(١) .

— وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً^(٢) .

هذا عن زوجات الرسول ، أما النساء المسلمات بوجه عام فالجمهور على أن الحجاب عليهن معناه تغطية الجسم ماعدا الوجه والكفين ، وقد تحدد ذلك بما ورد في سورة الأحزاب وسورة النور ، قال تعالى :

— يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن^(٣) .

— وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منهن وليضربن بخمرهن على جيوبهن^(٤) .

هذا ولأية مسلمة أن تغطي جسمها كله بما في ذلك الوجه ، وذلك تفضل ممن تفعل ذلك ، ولكنه ليس واجباً ، فإذا خيفت الفتنة في حالة بعينها كان الغطاء أمثل .

الرسول وأولاده :

ذلك حديث عن الرسول بين زوجاته ، فلننتقل إلى الحديث عن الرسول وأولاده ، وأولاد الرسول — ماعدا إبراهيم — من السيدة خديجة ، وهم ابنان : القاسم والطاهر ، وقد ولد القاسم قبل الإسلام وبه كان

(١) سورة الأحزاب الآية ٥٣ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٥٣ .

(٣) سورة الأحزاب الآية ٥٩ .

(٤) سورة النور الآية ٣١ .

الرسول يكنى ، ومات وعمره حوالى السنتين ، أما الطاهر فقد ولد بعد الإسلام ولذلك سمي الطاهر وقد مات رضيحاً ، وكان الرسول لا يزال فى مكة ، فقال العاص بن وائل فى شماتة بالرسول : إن محمداً أبتر . أى لا يعيش له أبناء ، فنزلت الآية الكريمة : « إن شانئك هو الأبتر » وولدت السيدة خديجة للرسول أربع بنات هن زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة .

وكبرى بناته كانت زينب وقد تزوجت قبل الإسلام من أبى العاص ابن الربيع وهو ابن خالتها هالة بنت خويلد ، فلما جاءت الرسالة آمنت به خديجة وبناته وثبت أبو العاص على الوثنية ، وأرادت زينب أن تلحق بأبيها فنعها أبو العاص ، فعاشت معه فترة دون أن يكون بينها وبينه ما بين الرجل وزوجته ، وكان أبو العاص من معدودى رجال مكة مالا وأمانة وتجارة . ففى إليه وجوه قريش وقالوا له : اردد على محمد ابنته ، ونحن نزوجك أية امرأة أحببت من قريش ، فقال : لا والله ، لا أفارق صاحبتى فلما خير صاحبة ، وهاجر الرسول بدونها إلى المدينة ، فلما جاءت غزوة بدر كان أبو العاص مع المشركين ، ووقع فى يد المسلمين أسيراً ، وبدأت قريش تفدى أسراها ، وكان فداء أبى العاص قلادة عرفها الرسول ، لأنها قلادة خديجة رضى الله عنها وهبتها لابنتها زينب حين زواجها ، فلما رأى الرسول القلادة رقى لها ، وقال للمسلمين : إن رأيتم أن تردوا قلادة زينب وتطلقوا أسيرها فافعلوا . فقالوا : نعم يا رسول الله . فأطلقه الرسول بعد أن اشترط عليه أن يعث بزيب إليه وتوثق يمينه ، ووجه الرسول زيد ابن حارثة ليتسلمها ، ولحقت زينب بأبيها فى المدينة وبقي زوجها على الشرك .

وفى سنة ست من الهجرة خرج أبو العاص فى تجارة إلى الشام ، وفى طريق عودته بعث الرسول زيد بن حارثة فى جيش من المسلمين فاعترضوا غيره واستاقوها وأمروه . فبعث أبو العاص إلى زينب يستجير بها فأجارته ، وقبل الرسول جوارها ، وقال للمسلمين : إنكم قد عرفتم مكان هذا الرجل منا ، فإن تردوا عليه ماله فإننا نحب ذلك ، وإلا فماله فىء مالمكم . فردوا عليه ماله . فعاد إلى مكة ورد الحقوق لأصحابها ثم وفد

إلى المدينة مسلماً ، فأعاد له الرسول زينب بنكاح جديد ومهر جديد^(١).

أما رقية فكانت قد تزوجت عتبة بن أبي لهب ، فلما نزلت السورة الكريمة : « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ » قالت أم عتبة واسمها أم جميل بنت حرب ابن أمية : قد هجانا محمد ، وعزمت على ابنها عتبة أن يطلق رقية ، وكذلك فعل أبوه فطلقها قبل أن يدخل بها فزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم من عثمان بن عفان وهاجرت معه إلى الحبشة ، وولدت له عبد الله ومرضت قبيل بدر ، فخلّف الرسول معها عثمان ، وتوفيت والمسلمون في بدر ، ودُفنت بالقيع ، ومات ابنها بعدها بقليل^(٢).

وأما أم كلثوم فكانت زوجة لمعتب بن أبي لهب ، وطلقها زوجها مثلما فعل أخوه عتبة ، فلما ماتت رقية زوجها الرسول من عثمان وظلت معه حتى ماتت سنة ٩ هـ وبكى عليها عثمان وأطال البكاء فسأله الرسول : ما يبكيك ؟ فقال انقطاع صهرى منك يا رسول الله فقال . الرسول : انقطاع الصهر لا يكون بالموت ، وإنما يكون بالطلاق ، ولو كان عندنا ثلاثة لزوجناك^(٣).

وأما فاطمة فقد زوجها الرسول من علي بن أبي طالب رضي الله عنه سنة اثنتين للهجرة فولدت الحسن والحسين ومحسناً وزينب وأم كلثوم ، وقد مات محسن صغيراً وتزوجت زينب بنت علي عبد الله بن جعفر ولم نتجب منه ، وتزوجت أم كلثوم عمر بن الخطاب ، فولدت له زيد بن عمر وقتل عمر عنها ، وتوفيت أم كلثوم وابنها زيد في يوم واحد ، وأنجب الحسن والحسين ابناً علي وفاطمة نسلاً كثيراً ، ومنهما وجد النسل الذي ينحدر من رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى الآن .

وفاطمة تستحق مزيداً من الحديث عنها لمكانتها من الرسول من جانب ولأن منها عاش حتى الآن نسل الرسول من جانب آخر ، ويروى الذهبي

(١) البلاذري : أنساب الأشراف ص ٣٩٧ وما بعدها والذهبي : سير أعلام النبلاء ص ١٧٥ .

(٢) أنساب الأشراف : ص ٤٠١ .

(٣) المرجع السابق : نفس الصفحة .

أن الرسول قال عنها : بأنها سيدة نساء العالمين في زمانها وكان يكنيها أم أبيها ، لما كان فيها من الحنان على الرسول صلوات الله عليه . الذي قلما يوجد في غير الأم ، وقد ولدت قبل البعثة بقليل ، وتزوجها الإمام على سنة اثنتين للهجرة عقب غزوة بدر ، ودخل بها عقب غزوة أحد ، وذلك بعد أن دخل الرسول بعائشة بأربعة أشهر ، وكانت سن فاطمة خمسة عشر عاماً ، وقد روت كثيراً من الأحاديث عن أبيها وروى عنها ابنها الحسن والسيدة عائشة ، وأم سلمة ، وأنس بن مالك ، وكان صلى الله عليه وسلم يحبها ويكرمها ويسير إليها ، وكانت صابرة دينية خيرة خاضعة شاكرة لله ، وكانت مشية فاطمة شديدة الشبه بمشية الرسول صلوات الله عليه ، وكانت تطمع في أن تثرث أباها في أرض فذك ، ولكنها أبا بكر ذكر لها أنه سمع الرسول يقول : نحن معشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة ، فوجدت عليه . كأنها لم تكن قد سمعت هذا الحديث من الرسول ، ولكنها لما مرضت أتى أبو بكر إلى بيتها واستأذن : فدخل على عليها وقال لها : يا فاطمة هذا أبو بكر يستأذن عليك . فسالت غلياً قائلة : أتحب يا علي أن آذن له ؟ قال علي : نعم ، فأذنت له . فدخل عليها أبو بكر يرضأها ، وقال لها : والله ما تركت الدار والمال والأهل والعشيرة إلا ابتغاء مرضاة الله ورسوله ومرضاتكم أهل البيت . وما زال بها حتى رضيت .

وتوفيت بعد النبي صلى الله عليه وسلم بخمسة أشهر ونحوها وكان عمرها خمساً وعشرين سنة ، وكانت وفاتها يوم الثلاثاء لثلاث خلون من رمضان سنة إحدى عشرة هجرية .

وكان على رضى الله عنه قسم العمل في البيت بين أمه وبين زوجته ، فطلب من أمه أن تكفي فاطمة الخدمة خارج البيت ، أى تحضر ما يلزم للبيت من الخارج ، وتكفيها فاطمة العمل في البيت ، فتقوم بالطحن والعجن والخبز (١) .

ورزق الرسول ابناً من مارية أسماه إبراهيم ، ولكنه مات وعمره .
حوالى العام .

هؤلاء هم أولاد الرسول ، فإذا كانت تعاليم الرسول بالنسبة للأولاد بوجه عام ؛ وماذا فعل أولاده ؟ حتى يمكن لنا أن نقف على به في هذا المضمار ؟ .

أول ما نذكره أن الرسول كان يحب أولاده ويلاطفهم ، ويروى البخارى ومسلم أن الرسول قبل الحسن بن على وعنده الأقرع بن خابس التميمي ، فقال الأقرع إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا قط . فقال له الرسول : من لا يرّحم لا يرّحم . (متفق عليه) .

ثم إن الرسول ألزم الأب أن يسوّى بين أولاده في العطاء والمعاملة ، ويروى أن زوجة بشير بن سعيد الأنصاري طلبت إليه أن يخص ولدها النعمان بمنحة فاستجاب لها ، وأرادت الزوجة توثيق هذه الحبة فطلبت من زوجها أن يشهد عليها الرسول فاستجاب بشير لرغبتها وذهب للرسول ، فسأله الرسول : هل للنعمان إخوة ؟ فأجاب نعم ، فسأله الرسول : فكليهم أعطيت مثل ما أعطيت ؟ قال بشير : لا . فقال الرسول : ليس يصلح هذا ، إن لبنيك عليك من الحق أن تعدل بينهم ، كما أن لك عليهم من الحق أن يبروك ، اتقوا الله واعدلوا بين أبنائكم^(١)

وكان الرسول يحب فاطمة حباً جماً ، وكانت إذا دخلت عليه قام إليها وقبلها وأجلسها بحواره ، وكان يحب ولديها الحسن والحسين ، ويحملهما على ظهره ويداعبهما ، وحدث مرة أن كان الرسول يصلي فأطال الصلاة فلما انتهى من الصلاة سأله أحد الصحابة عن سبب الإطالة فقال : إن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله .

وكان يحب زينب ابنته حباً شديداً . وكان يحب زوجها أبا العاص لحفاظه على زينب واحترامه لها مع اختلاف الدين ، وقد رأينا الرسول يقول عنه للمسلمين : إنكم قد عرفتم مكان هذا الرجل منا . . .

ولما ماتت زينب تركت بنتاً اسمها « أمامة » وأحبها الرسول ككل أحفاده ، وفي ليلة أهدى إليه قلادة ثمينة من خرز ثمين يوجد بظفار بجنوب

(١) انظر هذه الدراسة مفصلة في « الحياء الاجتماعية في التفكير الإسلامي » المؤلف

الجزيرة ، فقال عليه السلام : لأهدين هذه القلادة إلى أحب أهل إلى ،
فقال بعض الزوجات قد فازت بها ابنة أبي بكر ، فلما أصبح دعا بأمامة
وألبسها العقد .

ولما رزق الرسول بابنه إبراهيم في أواخر أيامه فرح به كل الفرح ،
وتصدق بوزن شعر رأسه فضة . وكان الرسول يمشي لمارية كل يوم يداعب
ابنه ويناغيه ، فلما مات إبراهيم بكى الرسول عليه وقال : تدمع العين
ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضى الرب ، وصادف أن كسفت الشمس
يوم موت إبراهيم فقال بعض الناس إنها كسفت حزناً على إبراهيم فقال
الرسول : إن الشمس والقدر آيتان من آيات الله لا تكسفان لموت أحد
ولا لحياته .

ما أجدر المسلمين أن ينتفعوا بهذا النموذج الذي شرحه الرسول ، وتعامل
به مع أولاده وأحفاده .

الرسول مع خدمه :

يمثل الخدم في كثير من البيوت عنصراً مهماً من السكان ، وقد أرشد
الرسول السادة والخدم على المعاملة المثلى من الطرفين ؛ فمن حقوق الخدم
يروى المعروف بن سويد قال : رأيت أبا ذر رضى الله عنه وعليه حلة وعلى
غلامه مثلها ، فسألت أبا ذر عن ذلك فذكر أنه مساباً خادماً على عهد
رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له النبي : إنك امرؤ فيك جاهلية هم
إخوانكم ، وخولكم . جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه
مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلهم . ومن الواضح أنه ليس
من الضروري أن يلبس الخادم من نوع لباس سيده ، وإنما كان ذلك عقوبة
لأبي ذر على موقفه من خادمه .

وعن واجبات الخدم تجاه المخدم يقول الرسول صلى الله عليه وسلم ..
والخدام راع في بيت سيده وهو مسئول عن رعيته .

فإذا جئنا إلى النموذج الواضح في بيت الرسول رأينا مثلاً علياً في هذا الشأن : كانت بركة أئامها الله حاضنة الرسول صلوات الله عليه بعد وفاة أمه ، ولذلك كان الرسول يدعوها أمه ، ولما شب الرسول وتزوج من خديجة تقدم لخطبتها عبد الله بن زيد الخزرجي وكانت بركة تميل إلى البقاء في خدمة الرسول وزوجته الطاهرة ، ولكن الرسول وزوجته شجعا بركة على قبول الزواج ، وأحست بركة بأنها أدت واجبها في خدمة محمد حتى تزوج وبدت حياته طيبة مع زوجته العظيمة فوافقت على الزواج ، ورحلت مع زوجها إلى يثرب وأنجبت ابنها « أيمن » منه فصارت تدعى أم أيمن ثم مات زوجها فعادت بابنها إلى بيت الرسول .

وتقدمت السن بأم أيمن ، وزاد صلاحها في ظل الإسلام ، ويروى أنها جاءت للرسول مرة وهو بين أصحابه فأسرت له بشيء ثم عادت . فقال الرسول : من أراد أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليزوج أم أيمن . ولما سمع زيد بن حارثة ذلك تقدم للرسول يخطبها ، وتم زواجه منها بعد وليمة سخية أقامتها السيدة خديجة لأوفى خادمة ، وأنجب هذا الزواج « أسامة بن زيد » .

ويروى أن أم أيمن قالت يوم حنين : سبَّت الله أقدامكم . فقال لها الرسول : اسكتي فإنك عسراء اللسان .

ونقف هنا وقفة لتحدث عن زيد بن حارثة الكلبي ، وقد ولد في الجاهلية ، وسبي وهو طفل في إحدى غارات القبائل ، وبيع رقيقاً في أسواق مكة ، وكان الذي اشتراه حكيم بن خزام لخديجة بنت خويلد ، ولما تزوج محمد بن عبد الله من خديجة وهبته زيداً فأحبه وأعتقه وتبناه ، وكان يدعى زيد بن محمد حتى نزلت الآية الكريمة « ادعواهم لآبائهم هو أقسط عند الله » فأصبح يدعى زيد بن حارثة .

وقد اهتدى أبوه إليه وأظهر الرسول استعدادده لردده لآبيه وذويه ،

ولكن زيدا اختار أن يبقى مع محمد ، وسقط زيدا شهيداً في موقعة مؤتة فعين الرسول ابنه أسامة قائداً للجيش الذي أعده قبل وفاته لغزو الروم ليثأر لوالده ، وكان كبار الصحابة جنوداً في هذا الجيش تحت إمرة الشاب أسامة .

ومن الذين خدموا الرسول مولاه ثوبان ، وقد أخلص هذا للرسول أيما إخلاص حتى أن الرسول لاحظ أن ثوبان يذوى ويذبل فسأله : ما بك يا ثوبان ؟ فأجاب ثوبان : إنني أذكر الآخرة التي ستجعلني في مرتبة بعيدة عنك فأحس بالأمسى والحزن لفراقك . ويقال إن الله طمأنه على مستقبله في الجنة بالآية الكريمة « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » (١).

ومن خدمه عليه السلام أنس بن مالك ، وهو يقص قصته مع الرسول بقوله : قدم الرسول إلى المدينة وليس معه خادم ، وكانت أمي (أم سليم) متزوجة من (أبي طلحة الأنصاري) بعد أبي فأسلمتني أمي لخدمة رسول الله وقال أبو طلحة للرسول وهو يقدمني : يا رسول الله إن أنسا غلام ذكي فليخدمك . وتوليت خدمة الرسول طيلة عهده بالمدينة ولقد لازمته في السفر والحضر ، وما قال لي مرة (أف) وما قال لشيء صنعت : لم صنعت ، ولا لشيء تركته : لم تركته .

ويروى أن أنسا أرسله الرسول في حاجة فانحرف إلى صبيان يلعبون في السوق ورآه الرسول وهو على هذه الحال فقال له : يا أنيس اذهب حيث أمرتك . وأرسل إحدى خدمه مرة لقضاء حاجة له فتباطأت في قضائها ، فقال لها عندما عادت : لولا خوف القصاص لأوجعتك بهذا السواك .

* * *

تلك صورة سريعة لحياة الرسول في بيته ، بين زوجاته وأولاده وخدمه ، وهي لاشك صرورة مشرقة ينبغي على المسلمين أن يتدارسوها وأن يتأسوا بها ، ففي ذلك صلاح لبيوتهم ولجتمعتهم .

الرسول بين أصحابه

وَضَعَ الرسول صلوات الله عليه أسس الحب والصدقة بين المسلمين منذ آخى بين المسلمين في مكة ثم آخى بين المهاجرين والأنصار بالمدينة ، فهو بهذه المؤاخاة يخلق رباطاً جديداً بين الأصحاب يصل إلى رباط النسب وأحياناً يزيد عليه ، واستمر الرسول في حياته اليومية يقوّي هذا الرباط ويوصي به ، وفيما يلي بعض أحاديث الرسول في هذا المجال :

— خير الأصحاب عند الله تعالى خيرهم لصاحبه . (رواه الترمذى)

فكلما كان الإنسان شديد الوفاء والإخلاص لصاحبه كان أقرب إلى الله

— لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولن تؤمنوا حتى تحابوا .

— ما لعبدى المؤمن عندى جزاء إذا قبضتُ صفيّه من أهل الدنيا ،

ثم أحتسبه إلا الجنة (رواه البخارى)

وهذا الحديث يدلنا على ألم الصديق لفراق صديقه ، ذلك الفراق الذى

يضمن للإنسان الجنة إذا صبر عليه .

ومن هذه الأحاديث الشريفة نستطيع أن ندرك قيمة الصحبة والأصحاب :

وكان سلوك الرسول صلوات الله عليه هدياً رائعاً في هذا المجال ، فهو يتحدث

عن أصدقائه أروع حديث ليضرب لنا المثل في طيب الصحبة ، وصفاء

الود ، فهو يقول عن أبي بكر :

لما أحد أعظم عندى بدءاً من أبي بكر ، واسأنى بنفسه وماله وزوجنى ابنته

ويقول عن أبي بكر وعمر : أبوبكر وعمر منى بمنزلة السمع والبصر .

ويقول عن علي : على أخى في الدنيا والآخرة .

وكان الرسول من أكثر الناس عرفاناً بالجميل ، ومن هنا كان يوصى

دائماً بالأنصار ، ويذكر أنهم فتحوا له ولأصحابه قلوبهم وبيوتهم ، وكانوا

خير رفقة للمهاجرين . وهو في آخر خطاب يلقيه يهتف بالمهاجرين قائلاً :
« استوصوا بالأنصار خيراً فإنهم كانوا عييتي (موضع سرى) التي أويت
إليها ، فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم » والرسول بهذا الحديث
الشريف يبرز للمسلمين أن الصديق بشر ، وأنه من الممكن أن يخطيء
أو يزل فلا بد أن يكون الإنسان مستعداً للعفر عن زلات صديقه . ونسيان
هناته ، لتدوم الصداقة وتزدهر ، وليس من الصداقة في شيء أن يتلمس
الصديق خطايا صديقه ، وأن يضمها بعضها إلى بعض ناسياً ما يسترجبه
الود ورحم الصداقة من عفو وغفران .

ويتحدث أنس عن الرسول صلوات الله عليه وعن صلته بأصحابه حديثاً
فيأضاً نفتبس منه بضعة سطور : كان رسول الله يتفقد أصحابه جميعاً . حتى
لا يحسب أحد منهم أن غيره أكرم منه على رسول الله ، وإذا جلس إلى
أصحابه صبر حتى ينصرف عنه أصحابه ، وكان يجب من دعاه إلى داره ،
ويقبل الهدية ويثيب عليها ، ويزور أصحابه ، ويتعرف أحوالهم . ويعود
مرضاهم ، ويلعب صبيانهم ، وكان إذا التفت أحد أذنه ليهمس له بشيء
صبر له ، ولم يُنزع عنه رأسه حتى ينتهي الرجل من كلامه . وما أخذ أحد
بيده إلا استبقاها الرسول حتى يرسلها صاحبه ، وكان ينادي الناس بأحب
أسمائهم إليهم ، ويكنيهم تكريماً لهم ، ولا يقطع على أحد منهم حديثه حتى
ينتهي منه .

وكان يتمثل في رسول الله خلق الإيثار بأسمى درجاته . فلم يعرف عنه
قط أنه خص نفسه بشيء ، وقد انعكس خلق الإيثار على أصحاب الرسول ،
ففي غزوة مؤتة قُتل الأمراء الثلاثة الذين عينهم الرسول للقيادة : زيد بن
حارثة ، وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة . فالتفت ثابت بن أكرم
الأنصاري اللواء ، وصاح في المسلمين أن اتفقوا على رجل منكم يكون أميراً
وقائداً ، فصاح بعض الناس قائلين : أنت يا ثابت . فقال ثابت : ما أخذت
اللواء لأصبح قائداً ، ونظر إلى خالد بن الوليد وقال : أنت يا خالد أحق
باللواء لأنك أعلم مني يشنون الحرب . وقال خالد لثابت : أنت أكبر سناً

ومن أصحاب الرسول قتيبة بن ربيعة ، فأجاب ثابت : يا خالد ما أخذت اللواء إلا لك ، وصاح بالمسلمين : أترضون بخالد ؟ قالوا نعم . فأصبح خالد أمير الجيش .

وكان الرسول يحاول أن يتعرف على حاجات أصحابه ويعمل على قضائها لهم ، وكان يعد نفسه كفيلاً بطعام أهل الصفّة الذين تفرغوا للعبادة بمسجد الرسول ، وقنعوا بالقليل من ضرورات الحياة ، وكان يكره أن يستخدم أصحابه في شيء يخصه ، يروى أبو هريرة أنه ذهب مع الرسول إلى السوق ليشتري سراويل ، فاشتراها من تاجر ، وسأول أبو هريرة أن يحملها عنه ، فقال الرسول : صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله ، واستكمالاً لهذه القصة يقول أبو هريرة إن الرسول كان سهلاً إذا باع وإذا اشتري وأنه أوفى التاجر وزاد ، وأن التاجر حاول أن يقبل يد الرسول ، فجذب الرسول يده منه ، وقال : هذا ما تفعله الأعاجم بملوكها ولست بملك ، إنما أنا رجل منكم .

وكان الرسول يحب الدعابة ، ويبسم لها ، ويرى أنها تخفيف عن النفس من مشكلات الحياة ، وربما شارك فيها ، فيروى أنه قال لعمته صفية وكانت قد تقدمت في السن : يا عمّة ، لا يدخل الجنة عجوز ، فأجهشت صفية بالبكاء ، إذ حسبت أنها مستحرم من الجنة ، ولكن الرسول سرعان ما قرأ لها وهو يبسم قوله تعالى : « إنا أنشأناهم إنشأاً ، فجعلناهم أبكاراً ، عرباً أتراباً » ففهمت صفية قصده ، وعادت إلى السرور والأمل . ومن دعاباته أن أحد المسلمين طلب إليه أن يحمله على بعير ، فقال له : سأحملك على ولد الناقة ، وعسب الرجل أن الرسول سيقدم له بعيراً حديث الولادة . فقال : يا رسول الله : ما أصنع بولد الناقة ؟ فأجابه الرسول : أليس البعير ولد ناقة ؟

وهناك قصة شهيرة ترينا أن الرسول كان بين أصحابه يبدو كواحد منهم ، ولا يحب أن يمتاز عنهم بشيء ، فيروى أنه كان مع بعض أصحابه ، وأرادوا إعداد الطعام ، وأعدوا لذلك شاة ، فقال أحدهم : على ذبحها ، وقال آخر : وعلى سلخها فقال الرسول : وعلى جمع الحطب . فقالوا : يا رسول الله نكفيك هذا . فأجاب : إنني أعرف أنكم تحبون أن تكفوني هذا ، ولكني

أحب أن أشارككم الأعمال ، وأن أكون كراحد منكم ولا أمتاز عليكم بشيء . ومثل ذلك ما حدث عندما جاء له وفد النجاشي زعيم الحبشة ، فقام يخدمهم بنفسه ، فقال له أصحابه : نحن نكفيك هذا . فقال : إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين ، وإنى أحب أن أخدمهم بنفسى .

ومن الأدب العالى الذى قدمه الرسول لأصحابه فى معاملتهم بعضهم لبعض قوله : من اطلع منكم فى كتاب أخيه بغير أمره ، فكأنما اطلع فى النار .

وكان الرسول يأبى أن يظهر فى أى مظهر من مظاهر السلطان أو الرئاسة ، وكان يقول لأصحابه : لا تطرونى كما أطرت النصارى المسيح بن مريم ، إنما أنا عبد الله ورسوله . وقدم على أصحابه مرة فوقفوا له . فصاح بهم : لا تقوموا كما تقوم الأعاجم ، وليجلس أحدكم حيث انتهى به المجلس .

وكان الرسول إذا جاءه أصحابه وهو يصلى خفف من صلاته ليسأل حاجتهم ، وربما عاد للصلاة بعد ذلك ، وكان أطيّب الناس نفساً وأكثرهم تبساً ما لم ينزل عليه قرآن أو يعظ أو يخطب ، وضرب لأصحابه المثل فى الاستهانة بالمال ، فلم يهتم أبداً بالادخار والغنى ، وإنما كان خلقه الرضى والإيثار حتى ليروى أنه لم يشيع قط ، وقد عانى الجوع غير مرة ، وكان زهده فى اللباس كزهده فى الطعام ، ولم يترك رسول الله دينارا ولا درهما ، ولا عبداً ولا أمة ولا شيئاً إلا بغلته الشهباء وسلاحه ، وأرضاً تركها صدقة ، وهو القائل فى ذلك : نجن معشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة ، ولذلك لم تترك زوجاته شيئاً مما كان له بخير وفدك ، فقد رد أبر بكر ما كان يملكه الرسول للمساكين ، وعاشت الزوجات بما حدد لهن من أسهم فى بيت المال^(١) .

ومن تكميم الرسول لأصحابه وجهه لهم أنه كان يغفر انحراف ذويهم ولعل أبرز مثال لذلك هو احتمال صلى الله عليه وسلم لتفارق عبد الله بن أبى وكراهيته للإسلام ولرسول الإسلام ، وكان هذا الاحتمال من أجل

(١) البلاذرى : أنساب الأشراف : ص ٥٢٠ .

عبد الله ابنه ، فقد كان هذا مسلماً حسن الإسلام على الرغم من نفاق أبيه ، وقد وصل من تكريم الرسول للابن أن قدم قيصره الطاهر ليكفن فيه الأب المتناق بعد موته .

وقد بلغ الرسول القمة التي لا يصلها أحد سواه عندما نزلت الآية الكريمة : « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم (١) » . فيروى أن الرسول لما نزلت هذه الآية استمر في تكريمه للابن الصالح وقال : لو أعلم أني إن زدت عن السبعين غفر له لزدت عليها .

وإذا كان الرسول قد بلغ هذا المدى من حبه لأصحابه ، وتعاونهم معهم ، وحياته بينهم ، فقد كافأه أصحابه بصور من التفاني فيه ، والحب له ، والتضحية من أجله بكل ما يملكون ، فأبو بكر الصديق الذي كان غنياً في مطلع الإسلام أنفق أكثر ماله في مكة ، وأخذ ما تبقى من المال معه وهو مهاجر مع الرسول . ثم أنه كان كما ذكرنا من قبل يسبق الرسول أحياناً وهما في الطريق إلى المدينة ويتبعه أحياناً ، فلما سأله الرسول عن ذلك قال : أتذكر التربص فأستقلك ، وأتذكر اللحاق فأتابعك ، فهو بذلك يريد أن يتحمل الردى عن الرسول .

ويروى كذلك أن أحد الصحابة واسمه زيد بن الدثنة ، وقع في أسر المشركين فاشتراه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه ، وأوقفه صفوان وبدأ يطلق السهام حوله من كل جانب ليخيفه ، وناداه أبو سفيان وهو في هذه الحال قائلاً : أنشدك الله يا زيد ، أتحب أن محمداً الآن يلاقى حتفه بدلاً منك وأنت في أهلك ؟ فصاح زيد قائلاً : والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه ، وأنا جالس في أهلي . قال أبو سفيان : مارأيت أحداً يحبه أصحابه كما يحب أصحاب محمد محمداً .

وفي غزوة أحد عندما اتجهت جهود المشركين للقضاء على محمد وقف

(١) سورة التوبة الآية ٨١ .

الصحابة درعا حاميا للرسول يتلقون عنه الضربات ، ويهتفون بأنه لا تطيب لهم حياة إذا اغتيل الرسول أو نزل به مكروه ، وسرى ذلك عند الحديث عن الغزوات .

وهكذا كانت حياة الرسول بين أخصابه ، وَضَعَ لهم نموذج التعاون والحب فاستجابوا ، وظهر مجتمع مثالي ما أوجبنا أن نتدارسه وأن نتمثل به ، فإن فعلنا نلنا خير الدنيا والآخرة ، وصدق الله العظيم الذى يقول « لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم^(١) .

الرسول يربي الفرد المسلم

هناك رحلة طويلة من الكفر إلى الإيمان ، وكان على العرب الذين تركوا عبادة الأوثان ودخلوا دين الإسلام أن يدركوا أبعاد هذه الرحلة ، وأن يعرفوا ما يستوجبه الإيمان الحق من التزامات ، ويروى عن علي بن أبي طالب أنه قال : كنا جلوساً عند الرسول فأقبل علينا رجل من العالية فقال أخبرني يا محمد عن أشد شيء في هذا الدين وألينه ؟ ، فقال له الرسول : يا أبا العالية : ألين شيء في هذا الدين شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وأشدّه يا أبا العالية الأمانة ، ألا إنه لا دين لمن لا أمانة له وإن صام وصلى .

وعلى هذا فقد قام الرسوم صلوات الله عليه بالمدينة بجهد كبير ليقدم للمسلمين الآداب الجديدة التي خلقها الإسلام ، والأخلاق السامية التي لم يكن للمجتمع البشري عهد بها ، وقد بذل الرسول في ذلك أقصى الجهد لإعادة بناء الفرد عقب دخوله الإسلام ، فأخذ الرسول يعمل في جانبين متوازيين ، الجانب الأول تطهير الفرد المسلم من أنواع الشرور والآثام التي كانت متفشية ، والتي تميل لها النفس الأمارة بالسوء ، أما الجانب الثاني فهو العمل ليكسب الفرد المسلم أسمى الصفات وأكرم السجايا ، وذلك بتحديد الفضائل والحث على اتباعها وانئسك بها ، وكان الرسول صلوات الله عليه يتخذ كل الوسائل لتربية الفرد المسلم وإعادة بنائه بالقول حيناً وبالسلوك حيناً آخر ، وكان تأثير الرسول بكلامه وفعله شديداً على المسلمين ، فظهرت طبقة من الصحابة برزت فيهم صفات البر ، واختفت صفات الانحراف ، وسنعيش مع سيدنا رسول الله نعرض كلامه وتصرفاته وهو يعمل على تجنب المسلمين الرذائل وعلى شدهم إلى الخير وتمكين الفضائل من نفوسهم ، وليس، ما نع. ضه هنا إلا محاولة لتجديد العهد بصلة الإسلام حتم، نستجيب لرسول الإسلام وهو يرشد ويعلم ويرجئه .

وأول ما نبدأ به من صفات الرذائل التي حاربها الرسول صفة الظلم فالظلم من أخطر الصفات التي تهدد المجتمعات ، وهو عدوانٌ قوًى على ضعيف ، كأنما ظن القوي أنه سيظل قويا ، وحسب أن الضعيف سيظل ضعيفا ، وهو حساب خاطيء ، فليس هناك شيء يديم ، ولذلك نجد سيدنا رسول الله يهاجم الظلم ويحذّر منه ، قال عليه السلام :

— اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة .

— اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب (متفق عليه) .

وبين رسول الله أن الظالم سيقاد منه ، ولن يفلت من العذاب ، قال عليه السلام : « إن الله يلمى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته .

« وإذا كان الظلم نهبا أو استيلاء فإن الظالم يطوق يوم القيامة بما نهبه أو اغتصبه ، قال عليه السلام : من ظلم قيد شبر من الأرض طوّقه من سبع أراضين » (متفق عليه) .

ويكون الظلم أبشع وأفحش لو كان واقعا من ولى الأمر على الرعية ، فولى الأمر يُفترض أن يكون حاميا من الظلم وحارسا للرعية ، فإذا انتقض عليهم ظالما وجائرا كان عقابه مضاعفا وحسابه عند الله شديدا . قال صلى الله عليه وسلم :

— ما من عبد يسترعه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة .

— اللهم من ولى من أمر أمي شيئا فشقّ عليهم فاشقق عليه . ومن ولى من أمر أمي شيئا فرفق بهم فارفق به .

ومن الظلم ظلم يُنزله الابن بوالديه وهو يسمى العقوق ، والرسول يَعُدُّ هذا العقوق نوعا من الكبائر ويخوِّف بأن عقوبته لن تكون في الآخرة فحسب ، وإنما يعجل الله بها في الدنيا ، قال صلى الله عليه وسلم :

— الكبائر ثلاثة الإشراف بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس .

— ثلاثة لا ينفع معهن عمل : الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، والفرار من الزحف .

— كل الذنوب يؤجل الله منها ما يشاء إلى يرم القيامة إلا عتق الوالدين
فإن الله يعجله لعباده في الحياة قبل الممات .

ومن الأخلاق الذميمة التي نهى الرسول عنها وكرر النهي : الرشوة ،
وهو داء يصيب بعض الناس ، ويوهمهم بأنه يجلب لهم الخير ، وهو في الحق
يجلب عليهم البلاء ، ومال الرشوة يسحق ما يواجهه من أموال عند المرتشى ،
وفي عصرنا الحاضر تنتشر الرشوة باسمها الحقيقي أحيانا ، وباسم الهدية أحيانا
أخرى ، وهي هنا وهناك سمّحت وضلال ، وقال صلى الله عليه وسلم :

— لعن الله الراشي والمرتشى . (رواية الأربعة) .

— من ارتشى في الحكم شدت يساره إلى يمينه ثم رى به في قعر جهنم :
(رواه الحاكم) .

— الرشوة في الحكم كفر . وهي بين الناس سمّحت . (رواه الطبراني) .
— هدايا العمال غلول (متفق عليه) .

ويحذر رسول الله من الكبر ، ويدلّ تحذيره على أن المتكبر جاهل
نسى تكوينه ومبدأ حياته ومنتهأها ، ولو أنه تذكر ذلك أو تذكر من سبقوه
بما كان لهم من بناء وسلطان ، ثم ما انتهى إليه أمرهم ، ما بقى في نفسه شيء
من الكبر ، وعن خلق الكبر يقول صلى الله عليه وسلم :

— من كان في قلبه مثال حبة من خردل من كبر كبّه الله على وجهه في
النار . (رواه احمد) .

— من تعظم في نفسه واختال في شئته لقي الله تعالى وهو عليه غضبان :

وفي بناء الفرد المسلم يهتم الرسول اهتماما كبيرا بالنهي عن التجسس
ومحاولة كشف مساوئ الناس وعيوبهم ، قال صلوات الله عليه :

— من اطلع في بيت قوم بغير إذنه فقد حلّ لهم أن يفتقروا عينه .

— من استمع لحديث قوم وهم له كارهون صُبّ في أذنيه الآثك
(الرضا ص المذاب) .

— كل أمتي معافٍ إلا المجاهرون (فإذا كان الله قد ستره فليس لمسلم أن يكشف ستره) .

— لا تتبعوا عورات المسلمين ، فإن من تتبع عورات المسلمين فضحه الله .

وليس من التجسس أن تتبع إنسانا غلب على الظن أنه يريد الفتك بإنسان أو ارتكاب كبيرة لتمنعه من ذلك .

وينزه الرسول الإنسان المسلم عن الخلاف ، وقد سبق أن أوردنا أن الرسول عندما أرسل عمرو بن العاص على رأس بعث ، ثم أمدّه بجند بزعامة أبي عبيده بن الجراح أوصى الرسول أبا عبيدة بقوله لا تختلفا . وكم من مفساد ترتكب بسبب الخلاف والصراع ، وفي المجتمعات أفراد كأنما يبحثون عن مواطن الخلاف ، ومثل هؤلاء يتخلقون بأخلاق تدمر المجتمع وتأتي عليه .

وفي بناء الفرد المسلم نجد الرسول صلوات الله عليه يتبع أرق ألوان الفكر عندما يقول : إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر . وينهى الرسول عن الجلوس على الطرقات إلا بعد أداء حقها ، فمن أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إياكم والجلوس على الطرقات ، فقالوا يا رسول الله : مالنا بدّ . فقال : فإن أبيتم إلا الجلوس فأعطوا الطريق حقه ، وقالوا وما حق الطريق يا رسول الله ؟ قال : غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

تلك وقفة قصيرة مع الرسول صلوات الله عليه ، وهو يحجب الفرد شرور النفس وآثامها ، فإذا جئنا إلى الجانب الآخر الذي يبحث الرسول فيه الفرد المسلم على كريم الصفات وجميل السجايا ، وجدنا ثروة هائلة تجعل من الإنسان صورة طيبة ونموزجا حيا يتناسب مع الصورة التي أرادها الله للإنسان المسلم ، وسندكر في هذا المجال بضعة أحاديث تصور أهم الجوانب في بناء الإنسان المسلم .

وأحاديث الرسول في هذا المجال تتدرج في بناء الإنسان ، فهي تتجه في

المقام الأول لتعليمه الصدق والأمانة والكرم والأخلاص في العمل وما مائل ذلك ، ثم تتجه به بعد ذلك لتعلمه رعاية الآخرين ، فتتجه على صلة الرحم وأداء حق الجار والتنفيس عن المعسر ، وتنتقل الأحاديث خطوة أخرى فتتحدث على الدقة في اختيار الصديق ، ولما كانت الحياة تحتاج لحراسة فإن الأحاديث توضح أن المجاهدين والمرابطين لهم عند الله أحسن الجزاء فهم يقدمون النفس والدم إذا قدم الكرماء المال والمتاع ، وتتجه أحاديث الرسول في مجال بناء الفرد إلى اتجاهات أخرى متعددة سنراها فيما بعد .

عن الصدق يقول صلى الله عليه وسلم :

— عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر ، والبر يهدي إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً . وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، والفجور يهدي إلى النار وما يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً ، (رواه البخاري)

— وعن الأمانة يروى على بن أبي طالب رضي الله عنه الحديث الذي سبق أن أوردناه في مطلع هذا الكلام مرتبطاً بالرجل الذي جاء من أهل العالية .

— وعن الإخلاص في العمل وإجاده يقول عليه الصلاة والسلام : إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه .

— وعن أنسب وقت للصدقة يروى أبو هريرة أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له يا رسول الله : أي الصدقة أعظم أجراً ؟ قال : أن تصدق وأنت صحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت هذا لفلان وهذا لفلان .

— وعن صلة الرحم يروى أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من أحب أن يبسط له في رزقه ويُنْسَأَ له في عمره فليصل رحمه . (متفق عليه) .

— وعن حق الجار يقول صلى الله عليه وسلم : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره . وقيل للرسول : إن فلانة تصوم النهار وتة الليل لكنها تؤذي جيرانها . فقال : هي في النار .

— وعن التنفيس عن المدين يقول أبو قتادة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من سره أن ينجاه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه ، ويروى جابر أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : رحم الله رجلا سمحا إذا باع ، وإذا اشترى ، وإذا اقتضى .

— وعن الدقة في اختيار الصديق يقول صلى الله عليه وسلم : المرء مع من أحب ، ويقول : الرجل على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل . (رواه أبو داود) .

— وعن جزاء المجاهد يقول صلى الله عليه وسلم : من قاتل في سبيل الله وجبت له الجنة .

— وعن الحث على البعد عن الفقر والحرمان والعوز يقول صلى الله عليه وسلم : اليد العليا خير من اليد السفلى ، وأبدأ بمن تعمل ، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى (متفق عليه)

— وعن الرفق بالناس يقول عليه السلام لعائشة يا عائشة عليك بالرفق ، فإنه لا يدخل شيئا إلا زانه ، ولا ينزع من شيء إلا شانه ، وإن الله رفيق يحب الرفق (رواه مسلم) .

— وعن حسن معاملة الخدم يقول ابن مسعود : كنت أضرب غلاما لي فسمعت صوتا من خلني يقول : اعلم يا ابن مسعود فلم أفهم الصوت من شدة غضبي ، فلما دنا مني صاحب الصوت وجدته رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لي : اعلم يا ابن مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام ، فقلت يا رسول الله : هر حر لوجه الله تعالى : فقال : لو لم تفعل للفتحك النار (رواه مسلم) .

تلك نماذج قليلة ، وهناك آلاف مثلها من أحاديث الرسول وهو يربّي الفرد المسلم ، مرتبطة هذه الأحاديث بأحداث ومواقف ، أو كانت من الترجية العام ، ولا شك أن هذا اللون من التربية شغل حياة الرسول في مقامه وسفره . ويجب على كل مسلم أن يتعرف على هذه التوجيهات وأن يعمل بها ليسعد في الدنيا والآخرة .

الرسول ربي المجتمع الإسلامي

عاشنا رسول الله آنفاً وهو بيني والفرء المسلم ، ورأيناك كذلك وهو يقسم
الروابط بين الأفراد بالمواخاة ، ثم وهو بيني المساجد تجتمع فيها جموع
المسلمين في الجماعة رابطة وعيوها ، ولربما أن نمايش الرسول صلوات
الله عليه وهو بيني المجتمع يخلق روابط بين أفراد وجماعته ليتألف من
هؤلاء الأفراد وهذه الجماعات مجتمع متحاب متعاون .

والذي يتبع أحاديث الرسول وتصرفاته في هذا المجال يجد قد بذل جهداً
كبيراً في الإرشاد لتكوين مجتمع الأسرة ، وهو المجتمع الصغير الذي يتكون
من وحداته المجتمع الكبير ، وقد عني الرسول بمجتمع الأسرة عناية كبيرة ،
فحث على الاهتمام باختيار الزوجة الصالحة بقوله تخبروا لنطفكم فإن العرق
دساس ، ثم حث على العناية بالأولاد والعدالة بينهم في العطاء والمعاملة ،
وأفاض في الحديث عن بيان حقوق كل من الزوج والزوجة تجاه الآخر ،
وأوضح التكافل بين الوالدين والأبناء ، وألزم الأبناء برعاية الآباء حتى مع
اختلاف الدين ، يروي أحمد أن قتيلة قدمت على ابنتها أسماء بنت أبي بكر ،
وكان أبو بكر قد طلقها في الجاهلية ، فرددت أسماء في استقبال أمها وقبول
هداياها وبعثت إلى رسول الله تسأل عن هذا ، فأخبرها الرسول أن تحسن
استقبالها وتقبل هداياها ، فنزلت الآية الكريمة « لا ينهاكم الله عن الذين
لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم » (١) .
ونظم الرسول كذلك حقوق ذوى القربى ، وغير هذه من الموضوعات
الخاصة بالأسرة ، وحسن تكوينها وتألفها وقد شرحنا ذلك بإفاضة في
مكان آخر (٢)

وفي بناء المجتمع الإسلامي اتجه الرسول اتجاهاً أشمل وأفسح ، ورسم
خطوطاً لاتباعها المسلمون لتكون منهم أعظم مجتمع عرفته البشرية ، وشملت

(١) سورة المتحنة الآية الثالثة .

(٢) الحياة الاجتماعية في التفكير الإسلامي المؤلف من ٦٣ وما بعدها .

هذه الخطوط تنظم الصلة بين الحاكم والمحكوم ، وشرح النظام الاقتصادي الذي يبرز التزامات الغنى وحقوق الفقراء ، ويؤكد ضرورة تطبيق التشريعات الإسلامية التي حفلت بها فترة المدينة ، وبجانب هذه الأسس الكبيرة كان الرسول يتلمس الوسائل لجعل كل إنسان يحس بأنه جزء من هذا المجتمع الإسلامي . وأن عليه أن يعمل لإسعاده ورفع شأنه ، وأن الفرد لا يحقق النجاح لنفسه إلا بنجاح مجتمعه .

وقد كان من أهم ما عني به الرسول صلوات الله عليه أن يحس المسلم بشمول الأخوة بينه وبين جميع المسلمين أخذاً من قوله تعالى « إنما المؤمنون إخوة » هذا المعنى الذي اهتم الرسول تمام الاهتمام بتأكيدهِ وشرحه وتكراره في أحاديث ومناسبات متعددة نذكر منها :

— المسلم أخو المسلم لا يسلّمه ولا يخذله .

ثم يتجه الرسول لبيان مستلزمات هذه الأخوة ، وأن الحرص عليها وتقويتها فيه خير للجميع ، قال عليه السلام :

— المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً . (متفق عليه) .

— لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً (رواه مسلم) .

— مثل المؤمنين في توادهم وتراحيمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر .

وينقل الرسول من تصوير الأخوة على هذا النمط إلى صورة أخرى أرفع ، هي أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه ، قال عليه السلام :

— والذي نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه (الشيخان) .

ثم يصل الرسول إلى القمة عندما ينقل الحب إلى العمل لصالح من أحب ، فإذا كان الإسلام ألزم المسلم أن يحب أخاه المسلم ، فإن عليه رعاية لهذه الأخوة أن يساعده ويعمل لإسعاده ، وفي ذلك نجد فيضاً من أحاديث

الرسول التي إن وعاما المسلمين واتبعوها حثقروا لحتتمعهم أسعد حياة ،
قال عليه السلام :

— ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ؟ قالوا :
بلى يا رسول الله ، قال إصلاح ذات البين ، فإن فساد ذات البين هي الحالقة
(رواه أبو داود) .

— من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من
كرب الآخرة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه ، ومن ستر مسلما
ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما دام العبد في عون
أخيه (متفق عليه) .

— إن شجرة كانت تؤذى المسلمين فجاء رجل فقطعها فدخل الجنة
(رواه مسلم) .

— سأل أبو بركة النبي صلى الله عليه وسلم أن يغلمه طريقا ينتفع به ،
فقال له عليه السلام اعزل الأذى عن طريق المسلمين (رواه مسلم) .
— "عرضت على أعمال أمتي حسنها ومسيئها ، فوجدت في محاسن أعمالها
الأذى يماط عن الطريق .

— أن تعدل بين الاثنين صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة (متفق عليه) .
— ما من مسلم يغرس غرسا فيأكل منه إنسان أو دابة إلا كان له صدقة
(رواه مسلم) .

وهكذا نجد أحاديث الرسول اشتملت العمل الصالح الذي يوجهه لخدمة
واحد بعينه أو يوجهه لخدمة المجتمع بدون نظر للأفراد ، وكان الرسول في
قيادة المجتمع قدوة طيبة يباشر هذه الاتجاهات والفضائل ، فكان يدعو
بعمله بمثل ما يدعو بقوله ، مما خلق مجتمعا متعاطفا متحابا ، زلزل عروش
الباطل وأقام صرح الإسلام في أقصر فترة عرفها التاريخ .

أخلاق إسلامية يترسها الرسول

هناك أحاديث شريفة ترتبط بأحداث محدودة وروينا منها ونحن نتكلم عن الرسول صلوات الله عليه وهري بنى الفرد المسلم ، أو المجتمع الإسلامى ، وهذه أشبه بالبرقة المتكامل : أرى بقاء من الزهر مستظما ، وهناك أحاديث لا نعرف أنها ارتبطت بحادثة معينة وإنما هي ثقافة عامة للجماهير المسلمين ، وهى كذلك تغرس فى نفوسهم أخلاق الإسلام فيما يقابله المسلم من شئون ، وهذه أشبه بالزهورات على النصوص الطبيعية غير مصنوعة . والأحاديث الشريفة التى جاءت لمناسبة أشبه بآيات الذكر الحكيم التى نعرف لها سبب نزول ، وأما الأحاديث العامة فأشبه بآيات القرآن الكريم التى لا ترتبط بأسباب نزول .

ونقطة أخرى نقدم بها كلامنا عن الأخلاق الإسلامية ، هى أن الإسلام قدم للمجتمع أخلاقا لم تكن موجودة من قبل ، بل لا يستطيع المجتمع البشرى حتى الآن أن يتبنى الأخلاق الإسلامية بكل اتجاهاتها ، فقبل الإسلام كانت العدالة والوفاء بالوعد تعد ضعفا ، ولهذا هجا شاعر إحدى القبائل بأنها لا تغلر ولا تنظم فقال :

قبيلته لا يغسلون بلمة ولا يظلمون الناس حبة خردل
ومثل ذلك ما قاله الآخر : ومن لا يظلم الناس يُظلم .

فجاء الإسلام وفرض العدالة ، بل أوحى بما هو أسنى من العدالة وهو الإحسان ، وقبل الإسلام لم تكن المساواة موجودة ، إذ كان العالم منقسما إلى سادة وعبيد ، ومع اختفاء الرق فى عصرنا الحاضر فإن المساواة لا توجد الآن ، فلا يزال هناك فى أرقى البلاد نزعات التفرقة العنصرية ولا يزال فى العالم ظلم ونهب يتضحان من الاستعمار أو بقاءه ولا يزال هناك جبايرة يخيفون الناس ويسعدون بأنهم مصدر خوف ورعب ، وهذا وسواه لأن المجتمع البشرى لم يصل بعد إلى الغاية التى سعى لها الفكر الإسلامى فى مجال الأخلاق .

ما الأخلاق الإسلامية التي قدّمها رسول الإسلام وجهده ليغرسها في المجتمع الإسلامي ؟ ذلك ما سنحاول الحديث عنه هنا .

ومن قراءاتي لأحاديث سيدنا رسول الله أستطيع أن أبدأ بأن أكوّن من الأحاديث المتناثرة صورة متكاملة لآداب اجتماع من الاجتماعات أو حفل من الحفلات ، فإذا كنت مقدما على اجتماع ، فإن الرسول يضع لك ارشاداً عن كل مرحلة من مراحل هذا الاجتماع أو الحفل ؛ من الاستعداد له حتى الانتهاء منه ، ومن الواضح أن الرسول لم يذكر هذه الأحاديث بهذا التسلسل ، ولكنني أستطيع أن أضخم الأحاديث بعضها إلى بعض لتشمل هذه الغاية ، وبعد ذلك نسجل مجموعة أخرى من الأحاديث عن صور أخرى من الأخلاق الإسلامية .

وأول ما نذكره متصلاً بالاشتراك في الاجتماعات أن المسلم إذا كان مقبلاً على اجتماع نخاص أو عام أن يعد نفسه لذلك بالنظافة وحسن السمت ، وألا يأكل بصلاً أو ثرماً أو طعاماً تؤذى رائحته ، وفي ذلك يقول عليه السلام :

— بني الدين على النظافة ، والنظافة من الإيمان .

— كان رسول الله يكره رائحة العرق في المسجد .

— من أكل هذه (البصل أو الثوم) ، فلا يغشى مجلسنا حتى يزول منه الريح .

— إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده .

فإذا طرقت الباب للدخول فسألك أصحاب البيت : من الطارق ، فلا تقل : « أنا » فقط وهذا ما يحدث في كثير من الأحوال ، بل قل : أنا فلان ، فعن جابر قال : أتيت الرسول صلوات الله عليه فدنقت الباب ، فقال : من ذا ؟ فقلت : أنا ، فقال أنا ! ! أنا ! ! كأن لا أحد إلا أنت . إذا دق أحدكم الباب فستل من الطارق ؟ فليقل : أنا فلان .

وإذا دخلت إلى مجتمع قليل الأشخاص وقام لك الحاضرون فصافحهم ، وإذا لم يقوموا فقل « السلام عليكم ورحمة الله » ، واجلس حيث انتهى بك المجلس .

— عن أبي الخطاب قال : قلت لأنس : أكانت المصافحة في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم .

— دخل الرسول على جماعة فقاموا له : فقال : لا تقوموا كما تقوم الأعاجم ، فإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة .

وإذا كان اللقاء مع رجل شديد الصلة بالإنسان جاز عنقه وتقبيله ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت : قدم زيد بن حارثة المدينة وجاء إلى بيتي واستأذن فاستقبله الرسول واعتنقه وتقبله .

وإذا جلس القادم فينبغي ألا يكون مجلسه في مجلس رجل قام له بدون إذنه ، وألا يفرق بين اثنين بدون إذنهما ، فعن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

— لا يقيمن أحدكم رجلا من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن توسعوا وتفسحوا .

— لا يحل لرجل أن يفرق بين اثنين في مجلس إلا بإذنهما .

وفي تقدير الإنسان للجالسين ينبغي للإنسان أن يلاحظ السنَّ وأقدار الناس ، فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : ما أكرم شاب شيخا لسنه إلا قبض الله له من يكرمه عند تقديم سنه . وعن السيدة عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنزلوا الناس منازلهم .

وإذا تكلم الناس فليترك الجالس ما لا يعنيه فلا يتكلم فيه ، قال : عليه السلام : من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه (رواه الترمذی) .

— وإذا كان هناك طعام فإن الرسول يضع آداب تناول الطعام في أروع صورة ، قال عليه السلام :

— كل بيمينك ، وكل مما يليك .

— نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع (متفق عليه) .

— عن عائشة قالت : أول بدعة حدثت بعد رسول الله ، الشيع ، ورسول الله لم يشبع قط ، وكان طعامه الكفاف .

— وعنهما أيضاً قالت : لم يمتلئ جوف النبي شبعاً قط ، وكان في أهله لا يسألهم طعاماً ولا يتشبهاء ، إن أطعموه أكل ، وما يقدم له يقبله .

— ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيات يقمن صلبه ، فإن كان لابد آكلًا ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه .

— إياكم والبطنة فإنها مكسلة عن العبادة ، ومفسدة للجسم ، ومؤذية إلى السقم ، وعليكم بالقصد في قوتكم ، فهو أبعد عن السرف وأصح للبدن وأقوى على العبادة .

— لا تميموا القلب بكثرة الطعام والشراب ، فإن القلب كالزرع يموت إذا كثر عليه الماء .

بقي بعد ذلك أن نورد مجمعة من الأحاديث عن صور أخرى رائعة من الأخلاق الإسلامية ؛ قال صلى الله عليه وسلم في الرجل يخيف الناس فيتقى الناس شره : إن شر الناس من ودَّعه الناس اتقاء شره .

وكان رسول الله يوصي بالبهايم ، ويأمر بحسن استعمالها ، ومن الأحاديث الشهيرة في ذلك قوله :

— دخلت امرأة النار في هرة حبستها ، فلا هي أطعمتها وسقتها ، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض .

— اتقوا الله في البهايم المعجمة .

— غفر الله لامرأة مذنبه لأنها رأت كلباً يلهث من العطش فقدمت له الماء .

بل كان الرسول يوصي بالأشياء التي لها ارتباط بالإنسان ، ومن هنا كان يطلق أسماء طيبة على بعض هذه الأشياء ، فكان يسمى قصعته « الغراء » ، ومرآته « المِدْلَة » .

وَيَعِدُ الرُّسُولُ أَهْلَهُ عَلَيْهِ الَّذِينَ يَقْبَضُونَ حَرَائِجَ النَّاسِ بِالزَّهْدَةِ
مِنَ النَّارِ فَيَقُولُ : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى عِبَادًا اخْتَصَمَ بِحَرَائِجِ النَّاسِ ، يَفْزَعُ إِلَيْهِمُ
النَّاسُ فِي حَرَائِجِهِمْ ، أُولَئِكَ هُمُ الْآمِنُونَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ .

ونختتم هذه المجموعة من الأحاديث بذكر حديث يوضح اختلاف
الحكم مع اختلاف الظروف ، فقد روى سلمة بن الأكوع أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال في عام من الأعوام عن الأضحية : من ضحى منكم
فلا يصبحن بعد ثلاثة وفي بيته من أضحيته شيء ، فلما كان العام المقبل قالوا :
يا رسول الله نفعل كما فعلنا في العام الماضي ؟ فأجاب : لا ، كلوا وأطعموا
وأدخروا ، فإن العام الفائت كان بالناس جهد ، فأردت أن تعينوا على الجهد .

الرسول يربي القضاة

يهم الإسلام بالقضاء اهتماماً كبيراً ، فالعدالة في القضاء مزدوجة الفائدة ، فيها إنصاف للمظلوم تهدأ نفسه ، وفيها تخويف للظالم حتى لا يتكرر ظلمه ، وقد وقف الرسول صلوات الله عليه من القضاء موقف الشارح البارع للقرآن الكريم ، المطبق للفكر الإسلامى في هذا المجال المهم ، والذي يتابع مواقف الرسول في مجال تربيته للقضاة يجد أن هذه المواقف شملت القضاء من جميع جوانبه ومراحله ، كما توضح ذلك الاقتباسات التالية :

وأول موقف يلحظه الباحث أن الرسول اتخذ المسجد مكاناً للقضاء ، واتخاذ المسجد مكاناً للقضاء يحيل معنى أشار له ابن القيم ^(١) وهو قدسية القضاء ، فإدام القضاء يعقد في بيت الله فإن قدسيته تصبح واضحة ، وإذا كان القضاء قد عقد بعد ذلك في أمكنة أخرى ، وانُخِذت له قاعات خاصة فقد انسحبت القدسية إلى كل مكان يقام فيه ، وذلك ضياعاً للعدالة وإحساساً بالمهمة الكبرى التي يزاولها القاضي .

وانعقاد جلسة القضاء في المسجد وضع أساساً ضرورياً لهذه الجلسة هو « العلنية » أى أن تكون جلسة القضاء مفتوحة للجميع ، ويمكن لأى فرد أن يدخل ساحة المسجد ويتجه إلى حيث يكون مجلس القاضي ، وحضور الجماهير هذه الجلسة سيكون نوعاً من التعليم والتدريب من جانب ، وسيضمن من جانب آخر عدالة الحكم ، لأن الجماهير ستكون بمثابة المراقب الذى بحس بقدر التهمة ، ومدى الأدلة ، ونوع الحكم .

وبعد الحديث عن مكان التقاضى نتابع الرسول صلوات الله عليه وهو يبرز لنا أهم شروط القاضي والتزاماته ، ولعل أول شرط نقبسه من كلام الرسول هو شرط العلم الذى لا يجلس الإنسان مجلس القاضي بلونه ، يقول عليه السلام :

(١) زاد المواد ج ٢ ص ٥٦ .

القضاة ثلاثة : قاض في الجنة وقاضيان في النار ، قاض عرف الحق فقضى به فهو في الجنة ، وقاض عرف الحق فقضى بخلافه فهو في النار ، وقاض قضى على جهل فهو في النار ^(١) . فالجزء الأخير من الحديث يقرر أن القاضي الجاهل بالأحكام يدفع للنار وإن أصاب في قضائه ، لأن إصابته جاءت مصادفة ، والقاضي لا بد أن يكون على درجة كافية من العلم ولا تتحكم المصادفة في أحكامه ..

ونستمر مع هذا الحديث الشريف فترى جزء الأوسط يقبل ضرورة العدالة ، ويراهنا من أبرز شروط القاضي ، فالقاضي الذي عرف الحق وقضى بسواه يدفع به إلى النار مع القاضي الجاهل ، لأنه لم ينتفع بما علم ولم يؤد حق الله ، ويتكرر هذا المعنى في حديث آخر رواه البيهقي ونصه : إذا جلس القاضي في مكانه حبط عليه ملكان يسددانه ويوفقانه ويرشدانه ، ما لم يجر ، فإن جار عرجا وتركاه . وهكذا نجد عون الله مع القاضي الذي يتجه للعدالة ، أما الذي يتجه للجور والظلم فيكاه الله لنفسه ، والويل كل الويل لمن لا يكون معه عون الله وتوفيقه .

وهناك خصلة يبرزها الرسول للحكام بوجه عام وللقضاة بوجه خاص ، تلك هي البعد عن شبهات الرشوة والهدايا ، يقول صلى الله عليه وسلم : هدايا العمال غلول ، ويعد القاضي من أول العمال الذين يحرم عليهم أي شيء . يشكك أو يؤثر في عدالتهم ، حتى أن القضاة المسلمين كانوا يكرهون أن يتخذوا أصدقاء يكثرزون التردد على منازلهم ، إذ قد يتوهم الناس أن هذا الذي يتردد على بيت القاضي له عنده منزلة قد تتخذ أساس استغلال غير مشروع .

ونتقل بنا أحاديث الرسول إلى نقطة أخرى مهمة ؛ هي التسوية بين المتخاصمين في مجلس الحكم ، وفي هذا الصدد يروى أبو داود عن عبد الله ابن الزبير أن الرسول صلى الله عليه وسلم قضى أن الخصمين يقعدان بين يدي القاضي ، ولم يكتف الرسول بالمساواة في المجلس بل ألزم القاضي أن

يسوئى بين الخصمين في نقاط دقيقة نراها في قوله صلى الله عليه وسلم :
سوئ بين الخصمين في لحظك ولفظك .

وبعد الجلسة والمساواة فيها . تجيء إرشادات الرسول حول ضرورة
سماع طرفي الخصومة قبل الحكم . وهز في ذلك بقول : إذا جلس الخصمان
بين يديك فلا تقض حتى تسمع كلام كل منهما : فإنه أحرى أن يقين
لك وجه الحق .

وعند سماع الطرفين ينبئ الرسول إلى موضع خطير هو إمكان أن يكون
أحد الطرفين فصيحا وأن يكون في الآخر عي مما قد يؤثر على القاضي ،
وفي ذلك يقول المعلم العظيم : إنكم تختصمون إليّ وإنما أنا بشر ، ولعل
بعضكم يكون أبلغ بحجته من الآخر ، وإنما أقضى بينكم على نحو ما أسمع ،
فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه . فإنما ذلك قطعة من النار يأتي
بها في عتقه يوم القيامة .

ويروى في هذا المجال أن رجلين اختلفا في ميراث وتقاضيا أمام الرسول ،
فقال لهما هذا الحديث ، وخاف كل منهما أن ينال من صاحبه أكثر من
حقه ، فقال كل منهما للآخر : تركت حتى لك . فقال الرسول لهما :
أما الآن فقمرا واقتسما وتوخيا الحق . ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه :

وبعد سماع الطرفين على النحو السابق يجيء دور الأدلة ، ويوضح
الرسول أن البيئة على من ادعى واليمين على من أنكر . وقد طلب الرسول
البيئة مرة من مدع فأجاب هذا : ما عندي شهود فالعمل الذي بيننا لم يحضره
أحد . فقال الرسول إذن اليمين على صاحبك . فقَسَل المدعى هذا ،
ولكن الرسول ذكر المنكر قل أن يقسم بأن « من حلف يمينا يقتطع بها
مال امرئ بغير حق جاء يوم القيامة وهذا الحق معلق في رقبة » فخاف
الرجل ولم يحلف اليمين ، وترك ما اختلفا عليه للمدعى .

وبعد سماع قول الطرفين وسماع الشهود أو اليمين يجيء دور الحكم
الذي يبنى على النص أو على الاجتهاد ، وقد وضع الرسول أسس التدرج

في ذلك في حديثه مع معاذ بن جبل عندما اختاره ليرسله لليمن داعية وقاضياً ، وقد ذكرنا هذه الحادثة عند كلامنا عن تربية الرسول للعلماء والدعاة ، وخلاصتها أن القاضي يتبع كلام الله ، فإن لم يجد فيه نصاً يُعينه اتّبع كلام رسول الله ، فإن لم يجد حديثاً يساعده اجتهد رأيه في حدود الإطار الإسلامي الشامل ، وعندما قال معاذ للرسول ذلك فرح الرسول وقال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضى الله ورسوله .

ومن روعة الإسلام أن المجتهد عن علم يثاب على اجتهداده ومحاولته حتى وإن أخطأ ، وفي ذلك يقول الرسول عليه السلام : إذا اجتهد القاضي فأصاب فله أجران ، وإن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد .

ومن تقدير الاجتهاد ما روى أن رجلاً جاء يشكو إلى عمر من أمر ، فأحاله عمر إلى علي بن أبي طالب ، وقضى على في المسألة برأيه إذ لم يكن هناك نص يلجأ له ؟ وبعد فترة التقى عمر بالرجل الشاكي فسأله عمر : ماذا فعل علي في شكائك ؟ فأخبره الرجل ، فقال عمر : لو كنت أنا الذي قضيت لقضيت بكذا . . .

وكان رأى عمر في صالح الرجل ، فصاح به الرجل : وما يمنعك والأمر لك ؟ قال عمر : وكيف أعرف أن رأيي أفضل من رأي علي .

ولم يغير عمر الحكم الذي قضى به علي .

ويوضح الرسول أبلغ وضوح أنه لا شفاعاة في الحكم ، وأن القوانين الإسلامية يستوى في الخضوع لها الملك المتوج والفقير البائس ، فعندما سرت امرأة من بني غزوم وهم من أشرف قریش توقع قرمها أن الرسول سيقم عليها الحد ، فتشفعوا للرسول بأسماء بن زيد ، فلما تكلم أسمامة مع الرسول في ذلك صاح فيه الرسول : أتشفع في حد من حدود الله يا أسمامة ؟ إنما هلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف عاقبوه ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها (رواه البخاري) .

وقد تأثر القضاة المسلمون تأثراً عميقاً بهذا الانجاه النبوى الكريم ، ومن ذلك ما يذكره الكندى أن توبة بن نمر الحضرمى لما ولى القضاء دعا زوجته وسألها : كيف علمت محبتي لك ؟ قالت : جزاك الله من عشير خيرا . فقال توبة والآن وقد علمت ما يُليّننا به من أمر الناس ، فأنت طالق ...

ولم تتركه الزوجة بكمل ما يريد أن يقول ، فصاحت خائفة من الطلاق ، ولكنه قال لها اصبرى حتى تسمعى ما أريد أن أقول ، أنت طالق إن كلمتني في خصم أو تشفعت في قضاء . فيروى أنها كانت ترفض أن تضع له الماء في البيوّة خشية أن يكون في ذلك إشارة إلى استعجال في قضاء^(١) .

وهكذا كان نهج الرسول في القضاء تعليماً وتهدياً للأجيال بدءاً من أسامة ابن زيد ومعاذ بن جبل واستمراراً حتى الآن ، ودائماً في كل زمان ومكان ، لأنه نهج سليم في ارشاد من هدى الله ومن موهبة الرسول ، وما أعظم النهج الذى يتخذ هذين أساساً له .

الرسول يربي القوة العسكرية

إذا كان عهد الإسلام في مكة لم يحتاج إلى قوة عسكرية إذ لم يكن الإذن بالقتال قد نزل بعد ، فإن عهد المدينة كان حافلاً بالصراع إذ نزل قوله تعالى « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير » وقوله « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » وقد بدأت سرايا والغزوات عقب الهجرة واستمرت طيلة عهد المدينة ، ومن هنا كان من الضروري أن يربي الرسول القوة العسكرية لمواجهة بها الباطل الذي اتجه لتهديد الدعوة بحمد السلاح عقب نجاح الهجرة .

ومن هنا اهتم الرسول اهتماماً كبيراً بالحث على القوة ، وتربية الرغبة في الجهاد عند المسلمين ، كما بذل جهداً كبيراً في إعداد المجاهد وفي التقليل من شأن من لم يكن له حظ في الجهاد ، فعن الحث على القرّة يقول صلى الله عليه وسلم « المؤمن القوى خير وأكرم عند الله من المؤمن الضعيف » وعن تربية الرغبة في الجهاد يقول عليه السلام :

— إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف .

— لغدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها .

— رباط يوم في سبيل الله خير مما طلعت عليه الشمس .

— من قاتل في سبيل الله وجبت له الجنة ، ومن جرح جرحاً في سبيل الله جاءت جراحه يوم القيامة لونها الزعفران وريحها المسك .

وواضح أن من الناس من لا يقوى على خوض المارك لهم أو ضعف أو ما مائل ذلك ، وهؤلاء يحثهم الرسول على مساعدة المجاهدين ما استطاعوا ، وفي ذلك يقول عليه السلام : من جهز غازياً كان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجر الغازي شيئاً .

أما الذي لا يجاهد بنفسه ، ولا يساعد المجاهدين ، فالرسول ينذره ويتوعده ، قال عليه السلام :

- من لقي الله وليس له أثر في سبيل الله ، لقي الله وفيه ثلثة (نقصان) .
- من لم يغز ، أو لم يجهز غازيا ، أو لم يخلف غازيا في أهله بخير ، أصابه الله بقارعة قبل يوم القيامة .

وفي ضوء هذه الإرشادات ، والوعد ، والوعيد تكونت حول الرسول أعظم قوة عرفتها الجزيرة العربية ، وأحاطت هذه القوة بالرسول تعمل لنيل إحدى الحسنين : النصر أو الشهادة ، وسنعيش مع الرسول صلوات الله عليه وهو يعلم المسلمين فنون الحرب وإدارة المعركة في جميع مراحلها .

ومن أهم ما عني به الرسول أنه كان إذا أراد خوض معركة ، كتم سر اتجاهه الذي يسعى إليه حتى عن أقرب الناس إليه ليفاجيء الأعداء بهجومه ، وهو هدف يحاول كبار القادة أن يتمثلوه حتى الآن ، وقد روى عن كعب ابن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد أن يغزو غزوة ورى بغيرها ، وعن أنس أن رسول الله قبيل غزوة بدر هتف بأصحابه قائلا : إن لنا هدفاً ، فمن كان ظهره حاضراً فليركب معنا ، وكان إذا عقد اللواء في سرية من السرايا لأحد أصحابه ، يركز اللواء في فناء المسجد ويختار بعض الأبطال ولا يحدد المكان لأمر السرية إلا عند التحرك ، وأحياناً كان يكب له كتاباً ويطويه ويأمره بالاتجاه نحو الشمال أو الجنوب مثلاً ، وألا يفتح الكتاب إلا في مكان محدد ، وكل ذلك حتى لا يتسرب الخبر للعدو فيبادر بالهجوم وتفشل الخطة .

ومما عني به الرسول أنه قبل المعركة كان يبذل كل الجهد ليتعرف على أخبار العدو حتى يأخذ للأمر عدته ، يروى أنس أن الرسول قبيل غزوة بدر بعث بسبئ بن بشر عينا ينقل له أخبار عير أبي سفيان ، كما أرسل طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد إلى طريق الشام يتجسسان له الأخبار ، وكان له جواسيس بمكة يأتونه بأخبارها ، ومنهم عمه العباس ويشير بن سفيان العتي (١) . ولما نزل قريبا من بدر خرج بنفسه ومعه أبو بكر يستطلعان الأخبار متكررين (٢) .

(١) عبد الحى الكتاني : التراتيب الإدارية ج ١ ص ٢٦ و ٦٢ .

(٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٦٥ .

وقد بلغ من حرصه على التعرف على أخبار العدو أنه أمر زيد بن ثابت أن يتعلم لغة اليهود ليستطيع أن يتعرف أخبارهم^(١) ، ويروى أنه أرسل عبد الله بن جحش مع ثمانية من المهاجرين ووجههم تجاه مكة دون أن يعيّن لهم الغرض من رحلتهم ، وكتب إلى عبد الله كتابا أمره ألا يفتحه إلا بعد مسيرة يومين ، وسار عبد الله مع رفاقه طيلة اليومين ثم فتح الخطاب فإذا فيه : إذا نظرت في كتابي هذا فأمعن حتى تنزل (نخلة) بين مكة والطائف) فربص بها قريشا ، وتعلم لنا من أخبارهم^(٢) .

ولما كان من الممكن ومن المتوقع أن يرسل الأعداء عيوناً لهم ليتعرفوا أخبار المسلمين فقد وضع الرسول نظاماً لمعاملة هؤلاء الجواسيس ، ومن التعاليم التي وضعها الرسول أن المسلمين إذا عرفوا الجاسوس تظاهروا بأنهم لم يعرفوه ، ثم يتركون بعض الأنبياء الزائفة تتسرب إليه ليخدعوه ويخدعوا مرسله ، وإذا اضطرو المسلمون أن يظهر الجاسوس اكتشفهم لأمره فإنهم يحاولون أن يعاملوه بلطف ويستميلوه إليهم لعلهم يحصلون منه على أخبار تنفعهم ، أو ليرسلوا عن طريقه إلى العدو أخباراً غير صحيحة ، وقد عثر المسلمون يوم بدر على واحد من عيون قريش وأراد بعض المسلمين العدوان عليه ، ولكن الرسول نهاهم عن ذلك واستدعاه وسأله عن عدد قريش فلم يعرف ، فسأله عما ينحرون من الإبل كل يوم . فأجاب : بأنهم ينحرون تسعة في يوم وعشرة في يوم آخر فاستنتج الرسول أن العدد يتراوح بين تسعائة وألف^(٣) .

واهتم الرسول اهتماماً بالغاً بتنظيم الجيش تنظيمًا شمل مسيرة الجيش وترتيبه ، فهو يسير بجيشه ، وتكون مسيرته هو في آخر الركب ليشجع الضعيف ، وليردق المنقطع ، وهو يلبس للحرب لباسه وعدته ، ويحمل الجيش الألوية ، وتشد الأناشيد للتشجيع والحامسة ، وإذا واجه الجيش

(١) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٤٢ .

(٢) الجهاد والنظم العسكرية للمؤلف : ص ٨٩ .

(٣) عبد الروف عون : الفن الحربي في صدر الإسلام ص ٢١٦ .

العدو قسمه الرسول إلى قلب وميمنة وميسرة . وجعل على كل منها قائدا ، وكان يرقف الرماة خلف الجيش لحماية ظهره . وكان يحاول أن يقوم بعملية التفاف حول العدو ، ويتخذ للجيش كلمة سر ، وكان من كلمات السر (منصور - حم) وكان يضع كل محارب مع أفراد قبيلته في مكان معين ليتعاون أفراد القبيلة وليحرضوا على ألا توجد ثغرة في موقعهم ، وكان يوصي كبار مساعديه بالصبر والثبات . ومن وصيته لعبد الله بن جبير أمير الرماة في غزوة أحد قوله : انضح الخيل عنا بالنبل ، لا تؤتينا من قبلك ، إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك ، لا تؤتينا من قبلك^(١) .

وقد قاد الرسول أكثر الغزوات الإسلامية . فكان بذلك يدرب قاداته تدريجا عليا على المعارك والصمود فيها ، وقد وصفه على بن أبي طالب في ذلك المجال بقوله : إنا كنا إذا اشتد البأس واحمرت الحدقة اتقينا برسول الله ، فما يكون أحد أقرب من العدو منه ، ووصفه عبد الله بن عمر بقوله : ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود ولا أراضى من رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢) .

وقد تأثر القادة المسلمون بأقوال الرسول وفعله تأثرا كبيرا . وحققوا في الغزوات أسمى الأهداف التي يعجز الأبطال عن تحقيقها ، حتى ليروى أن على بن أبي طالب قتل في غزوة بدر نحو ثمانية عشر رجلا من المشركين ، كان منهم نوفل بن خويلد ، فلما التقى به على بن أبي طالب صاح نوفل بلى : أسألك بالله والرحم أن تكف عني ، أنا آخر خديجة وخال فاطمة فقال على : لا قرابة بين مشرك ومسلم ، لقد جئت تقتل رسول الإسلام فحق عليك القتل ، وقتل عبيدة بن الجراح أباه عندما حاول هذا الأب أن يقتله لدخوله الإسلام ، وقال له وهو يطعنه : خذها في سبيل الله ، وهكذا علمهم الإسلام أن الله ورسوله أحب إلى الإنسان من كل قريب وكل متاع كما ذكرت الآية الكريمة « قل إن كان آباءكم وأبناءكم وإخوانكم

(١) تاريخ الطبري : ج ٢ ص ١٩٢

(٢) انظر الجهاد والنظم العسكرية في التفكير الإسلامى للمؤلف : ص ٨٢ .

وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها . وتجارة تخشون كسادها ،
ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فترضوا^(١) .

ومما عني به الرسول عناية كبيرة التحذير من الفرار وعده الرسول من
الكبائر العظمى والموبقات السبع قال عليه السلام :

— ثلاثة لا ينفع معهن عمل : الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، والفرار
من الزحف .

— اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا وما هن يا رسول الله ؟ قال :
الشرك بالله ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال
اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات ، والسحر .

وقد يجوز الفرار لتدبير حربى فى حدود قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا
إذا لقيتم الذين كفروا زحفوا زحفا فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره
إلا متحرفا لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم
وبئس المصير^(٢) .

وإذا كان الفرار مقبولا أحيانا من المسلمين لصالح المعركة فإن الرسول
صلى الله عليه وسلم لم يعط لنفسه الحق فى الفرار قط مهما كانت الأحوال .
كما حدث فى غزوة حنين . فقد فر أصحابه من هول المفاجأة ، ولكنه وقف
كالطود الشامخ لا يزل ولا يفر . وحكى القرآن الكريم هذا المرقف بقوله
« إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم »^(٣)

ونصل إلى نقطة مهمة لعل هنا أوان ذكرها؛ فإنه مع هذه البطولة الفائقة
والثبات الرائع الذى ألمنا ببعض مظاهره لم يقتل الرسول أحدا بيده إلا شخصاً
واحداً هو : أبى بن خلف . ويروى ابن هشام سبب ذلك فيقول : إن أبى

(١) سورة التوبة : الآية ٢٥ .

(٢) سورة الأنفال الآيتان ١٥-١٦ ..

(٣) سورة آل عمران الآية ١٥٣ .

ابن خلف كان يلقي الرسول بمكة فيقول له : يا محمد إن عندي « العوذ »
 فرسا أعلفه كل يوم سأقتلك عليه ، فيجيبه الرسول : بل أنا أقتلك إن شاء الله .
 فلما كانت غزوة أحد وجرح الرسول وناله الأذى جاء أبي وهز بصرخ
 قائلا : أين محمد ؟ لا نجوت أن نجا ، فهم المسلمون للقائه ، ولكن الرسول
 قال لهم : اتركوه وأخذ الحربة من الحارث بن الصمة وانتفض بها انتفاضة
 هزّت القوم ، وضرب بها أبي بن خلف ضربة أصابت عنقه ، فانقلب عن
 فرسه ، وأخذ يتدحرج ، وأسرع إلى قريش يقول : قتلني محمد . فلما
 رأوا جرحه وجدوه غير بعيد الغور ، فقالوا له : هون عليك فإنا بك من
 بأس ، فقال : أبداً كذبتهم . لقد روعني محمد ، ووالله لو بصق على لقتلني ،
 ومات في الطريق إلى مكة (١) .

وكان الرسول يختار للسرايا عمالقة الأبطال المسلمين الذين عرف فيهم
 شدة البأس وعمق الصبر ، والشجاعة ، من أمثال عبدة بن الحارث ، وسعد
 ابن أبي وقاص ، وعبد الله بن رواحه وزيد بن ثابت ، وأبي عبدة بن
 الجراح ، ثم أصبح من خيرة قواده خالد بن الوليد ، وعمر بن العاص ،
 عندما دخلوا الإسلام .

وهناك غزوة وحيدة لم تكن بقيادة الرسول . وإنما اختار لقيادتها بعض
 أبطال المسلمين ، تلك هي غزوة مؤتة ، وقد أدرك الرسول خطورة هذا
 اللقاء ، إذ كان أول لقاء مع جحافل الروم ، ولذلك اختار زيد بن جارية
 ليكون أمير القوم . وقال إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب ، فإن
 أصيب ، فعبد الله بن رواحة ، فإن أصيب فليترض المسلمون قائداً من
 بينهم ، والرسول في هذا محتاط للمعركة ، فعيّن أكثر من واحد بالتوالي
 ثم يدع الزمام للجنود ليختاروا قائدهم أن سقط الفراد الذين عينهم الرسول ،
 وكانت أهم وصية يُعنى بها الرسول هي التعاون بين المسلمين وقد سبق أن
 ذكرنا أنه أرسل عمرو بن العاص يقود ثلاثمائة رجل من المسلمين لمواجهة

جماعات من قضاة يتجمعون وراء وادي القرى ليغزوا على المدينة ، وكان ذلك عقب غزوة مؤتة ، وأحس عمرو أن قوة العدو أكبر من قوته ، فبعث إلى الرسول يطلب المدد ، فأرسل له الرسول مددا بقيادة أبي عبيدة بن الجراح ، وكانت وصية الرسول لأبي عبيدة قصيرة وحاسمة هي : ان قدمت على صاحبك فتطاوعا ولا تختلفا ، وعندما وصل المدد قال عمرو : أنا أمير الجيش وأنتم مدد لي ، وقال بعض أتباع أبي عبيدة ان أبا عبيدة هو أميرنا ، ولكن أبا عبيدة سرعان ما حسم الأمر عندما قال : أن الرسول أمرني أن نراضى ، وهأنذا أترك الإمارة لعمرو . وهذا مثل تكرر بين قواد المسلمين .

وكان من عادة الرسول إذا أرسل سرية أن يسأل الجنود عند عودتهم عن أحوالهم وصلات قائدهم بهم ، وعن مدى التعاون الذي تم بينهم .

بقيت في مجال الحديث عن تربية الفرقة العسكرية أن الرسول صلوات الله عليه وضع نموذجاً لم تقو المدنية على تبنيه حتى الآن ، وذلك النموذج يتضح من أحاديث الرسول التي نروى بعضها فيما يلي :

— عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا بعث جيوشه قال : فاخرجوا باسم الله ، تقاتلون في سبيل الله ، لا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا الرلدان ، ولا أصحاب الصوامع .

— وعن أنس أن الرسول صلوات الله عليه قال : لا تقتلوا شيخاً فانياً ، ولا طفلاً صغيراً ولا امرأة .

— وعن رباح بن ربيع أنه خرج مع الرسول في غزوة غزاها ، وكان على مقدمته خالد بن الوليد ، فرأى الرسول على امرأة مقتولة فقال : ما كانت هذه لتقتل ، ثم التفت إلى أحد أصحابه وقال له : الحق بخالد فقتل له : لا تقتلوا امرأة ولا ذرية ولا عسيفاً (أجرا) .

ومن هذه الأحاديث الشريفة اتجه المسلمون إلى إنه لا يقتل شيخ ولا صبي ولا امرأة ولا عامل مادام هؤلاء لم يشركوا في الحرب ، ولا يقطع

شجر ولا يُخْزَّبُ عامر ، ولا يؤذى حيوان ، ولا يحرق زرع وتلك كما قلنا أفكار سامية رسمها الرسول صلوات الله عليه ، وسار عليها أصحابه بعده ، وعلى الرغم من أن المدينة الحديثة اقتبست الكثير من الفكر الإسلامى فى مجال السياسة والاقتصاد وغيرهما ، فإنها لم تستطع أن تقتبس اتجاهات الإسلام وآدابه فى مجال السلم والحرب ، فالقوة لا تزال هى التى تحكم البشر ، وفى الحروب الحديثة يتعرض الأبرياء للموت ، وبُذِلَ العمران ، وبُحِرَ الزرع ، ولا يفرق المعتدون بين محارب ومسلم .

تلك هى القوة العسكرية التى بناها الرسول ، والتى قُدِّرَ لها أن تحقق فى حياته أعظم انتصار على قوى الباطل بالجزيرة العربية فى مكة وفى المدينة وخيبر وحنين والطائف وقدر لها بعد وفاته أن تنتصر على جيوش الأكاسرة والقيصرة ، وأن ترفع علم التوحيد على السوارى فى أعظم امبراطوريتين عرفهما ذلك الزمان .

الرسول يربي الولاة والحكام

لقد شاهد الرسول وهو بالمدينة اتساع الدولة الإسلامية التي أوشكت أن تشمل الجزيرة العزبية كلها ، ودعا الرسول أمراء البلاد المحيطة بالجزيرة وملوكها إلى الإسلام ، وامتدت آماله إلى دخول هذه الممالك في حوزة دين الله ، ومن هنا اتجه الرسول لتربية الولاة على الأقاليم في عهده ، وتربية الحكام من بعده ، وكان النمط الذي حرص الرسول عليه يتمشى مع قوله عليه السلام « اثنان من أمتي إذا صلحا صلح الناس ، وإذا فسدا فسد الناس : العلماء والأمراء » فالرسول صلوات الله عليه يترك أهمية الحاكم بالنسبة للرعية ، فإذا كان صالحا أحسن اختيار معاونيه ، وأحسن معاونوه بالتالي سلوكهم مع الرعية ، فتستقر الأمور ويسعد الناس ، وعلى عكس ذلك يكون الحاكم الفاسد .

وتعاليم الرسول في مجال تربية الولاة والحكام تتدرج تدرجا طبيعيا ، فهي تتحدث عن ضرورة الرئيس ، ثم تنثني للحديث عن شروطه والتزاماته ، ثم تلزمه بحسن اختيار معاونيه ، ومتابعتهم ، وسنروى من أحاديث الرسول فيما يلي ما يوضح هذه الخطوات .

فمن ضرورة الرئيس والرائد يقول صلى الله عليه وسلم :

— إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا عليهم أحدهم .

— لا يحل لثلاثة يكرنون في خلاة من الأرض إلا أمروا عليهم أحدهم .

وعن شروط الرئيس أو الحاكم يضع الرسول صلوات الله عليه العلم والعدالة في قمة هذه الشروط ، ويحذر من الظلم والجهل وغش الرعية ، وفي ذلك يقول عليه السلام :

— إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلسا أمام عادل ،

وأبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأبعدهم منه مجلسا أمام جائر .

- كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالأمير الذي على الناس راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم ، والمرأة راعية على بيت بعلها وهي مسئولة عنه .

- ما من أمير بات ليلة غاشاً لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة .

- ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة .

ويحذر رسول الله أولئك الأمراء والولاة الذين يعذبون الرعية بأية صورة من صور التعذيب ، وفي ذلك يقول صلى الله عليه وسلم : إن الله يعذب في الآخرة من يعذبون الناس في الدنيا ، ويقول : اللهم من ولى من أمر أمي شيئا فرفق بهم فارفق به .

ويوجه الرسول صلوات الله عليه اهتماما كبيرا إلى اختيار المساعدين ، وينزل المسؤولية على الرئيس إن أساء الاختيار ، أو إن أغضى الطرف عن إهمال معاونيه وهو في ذلك يقول :

- من ولى من أمر المسلمين شيئا فرلئى رجلا وهو يجد من هو أصلح منه فقد خان الله وخان رسوله وخان جماعة المسلمين .

- من قلد رجلا على عصابة وهو يجد في تلك العصابة من هو أَرْضَى منه ، فقد خان الله وخان رسوله وخان جماعة المسلمين .

وألزم الرسول الحكام والولاة أن يستشيروا استشارة خاصة أو عامة فيما يعرض لهم من شئون ليس فيها نص صريح . وأن يقبلوا رأى الأغلبية ، ففي غزوة بدر أراد الرسول أن ينزل بجنوده منزلا . فسأله الحباب بن المنذر : هل أنزلك الله هذا المنزل أو هو اجتهد من عندك ؟ فأجاب الرسول : إنه اجتهد من عندي . فقال الحباب : أما إذ كان الأمر كذلك فليس هذا بمنزل . وأشار بمكان آخر أيده فيه المسلمون فارتضاه الرسول .

وفى غزوة الأحزاب اتفق الرسول مع أهل الطائف على أن ينفصوا ويفكوا حصار المدينة ، وأعد لهم وثيقة نظير ذلك بأن يعطوا ثلث ثمار المدينة ، وعرض هذه الوثيقة على زعماء المدينة لتوقيعها فسأله سعد بن معاذ عما إذا كان للوحي دخل فى هذا الاتفاق؟ فقال له الرسول: إنما هو أمر صنعته للمسلمين راجيا من ورائه الخير . فرفض أهل المدينة التوقيع على الصحيفة ، وقال سعد : لأنهم لم ينالوا منا فى الماضى ثمرة إلا قرى ، أبعد أن أعزنا الله بك ، يأخذون ثلث ثمار المدينة عنزة ؟ لا والله . ورجح هذا رأى وارتضاه الرسول (١) .

وعن الشورى ، يقول أبو هريرة : ما رأيت أحدا قط كان أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله ، وكان أبو بكر وعمر فى مقدمة الصحابة الذين كان يعتمد عليهم فى الاستشارة ، ويروى أنه قال لهما : وأيم الله لو أنكما تتفقان على أمر ما خالفتكما فيه

ويؤكد الرسول أن الولاية على الناس مهمة ضعبة وأنه ينبغي ألا يتقدم لها إلا من عزف فى نفسه أنه أهل لها ، فإن تقدم لها من ليس أهلا لها وتخدع الناس حتى اختير لهذا المنصب ، فإنه ينطبق عليه قوله صلى الله عليه وسلم :
- من أم قوما وهم له كارهون ، لم تجز صلاته أذنيه .

- إنكم ستحرصون على الإمارة وستكون عليكم يوم القيامة ندامة .

ويوضح الرسول صلوات الله عليه وسلم أن الله يعين من اختير للرياسة بواسطة الناس ، أما الذى يسعى لها دون التأكد من التزاماتها ، فإن الله لا يعينه ويكله إلى نفسه ، وفى ذلك يقول عليه السلام لعبد الرحمن بن سمرة : لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها ، ويروى أن أبا ذر قال للرسول : ألا تستعملنى يا رسول الله ؟ فضرب الرسول بيده على منكبه وقال : يا أبا ذر إنك ضعيف ، وإنها أمانة ، وهى يوم القيامة خزي وندامة ، إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها (٢) .

وعندما يختار الرئيس على هذه الأسس يجب طاعته ما لم يأمر بمعصية فلا يجب الطاعة ، قال عليه السلام : لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

وهناك موضوع مهم اهتم به الرسول صلوات الله عايه ، ذلك هو أنه ليس من حق الحاكم أن يتجسس على الرعية وأن يبحث عن عوراتهم ، فليس له دخل في عقائدهم ولا فيما يسترّون ما دام ذلك لم ينقلب إلى إثارة أو عمل يضر بالدولة ، وفي ذلك يقول عليه السلام :

— إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم .

— لا تتبعوا عورات المسلمين فإن من تتبع عوراتهم تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو في جوف داره .

— ويروى أن رجلاً مشركاً فر أمام أسامة بن زيد في إحدى المعارك ولحق به أسامة فنطق الرجل بالشهادتين ، ولكن أسامة ضربه ضربة قاتلة ، فلما عرف الرسول ذلك صاح بأسامة : أقتلته بعد أن قالها ؟ قال أسامة : إنه قالها متعوذاً بها ، قال الرسول هل شققت عن قلبه لتعرف ذلك ؟

واهتم الرسول اهتماماً كبيراً بتحريم الهدايا على العمال إحساساً منه أنها رشوة قلعت باسم الهدية ، ويروى أبو سعيد الخدري أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال في ذلك : هدايا العمال غلول (أى سحت وضلال) . وقد سبق أن ذكرنا ذلك .

وهكذا نجد الرسول صلوات الله عليه أحاط بكل الشؤون في مجال تربية الحاكم والوالي ، ويوم ينتفع المسلمون بالتجاهات الرسول في هذا المجال ، فإن حالهم يصبح غير ما هم عليه الآن . حيث أصبح الحكم مغناً يسعى له كثيرون ممن لا كفاءة لهم ، ومن لا يعرفون الفكر الإسلامى ولا يدينون به ، ومن هنا يعيط هؤلاء أنفسهم بعناصر من طبقتهم ، فيعم الفساد ، وتنتشر البلوى ، وأغلب ما يعانيه العالم الإسلامى في العهد الحاضر يرتبط بغيبة الرئيس الصالح ، وظهور الحاكم الفاسد والأعوان الضلالة على مسرح الحكم والحياة .

الرسول والعمل

نخطيء بعض الناس إذ يظنون أن العمل هو العمل اليدوى أو الجسمانى فقط ، وأن العامل هو ذاك الذى يضرب بفأسه فى الأرض أو بآلته فى المصنع ، ويتضح هذا الخطأ لولا حظنا التقدم العلمى الهائل الذى ساد المجتمع المتمدين فى أيامنا هذه، حيث أصبح العمل فى الحقول والمصانع يتم بالآلات غالباً ، وليس على العامل إلا أن يدير هذه الآلات ، ويراقبها ، ويصلحها إن توقفت ، وعلى هذا أصبح العامل يعمل بفكره فى كثير من الحالات ، وهو بهذا ليس بعيداً عن المدرس الذى يعلمُ النشء، والطبيب الذى يعالج المرضى ، وليس بعيداً عن المهندس والمحاسب والجندى والتاجر فكل من هؤلاء يعمل بفكرة وجسمه لأداء واجبه .

ورسول الإسلام كان يعمل دائماً ، ولم يعرف الراحة منذ جاءته الرسالة ، فعندما نزل عليه قوله تعالى : « قم فأندب ... » وتصيب عرقاً بسبب لقائه مع جبريل ، قالت له زوجته السيدة خديجة فيما قالت : نخذ بعض الراحة . فأجابها : لم يعد هناك يا خديجة وقت للراحة . وبدأت جهود الرسول لأداء واجبه ، وبدأ يعمل لنشر الدعوة سرّاً حيناً وجهرّاً حيناً ، ولإقناع ألوانا من العنت فى هذا السبيل . فلما تمت الهجرة إلى المدينة ازدادت مسؤولياته ، فأخذ يعمل فى حقول متعددة نعيش فيها الآن . فهو يربى الفرد المسلم . ويربى المجتمع الإسلامى . ويربى الدعوة ، ويربى الحكام والولاة ، ويربى القوة العسكرية ، ويخوض غمار الحروب ، ويبلغ التشريعات الإسلامية ، وغير هذه من الأعمال ، وفى ضوء هذا الواقع فإننا نسخر من التفكير الشيوعى الذى يجعل « البروليتاريا » طبقة قائمة بذاتها ويطلب لها السيادة على باقى الطبقات ، كما نسخر من أى تفكير ينبثق عن هذا الوضع فجعل العمال والفلاحين فى جانب وباقى الفئات فى جانب آخر ، وبخاصة أن هذا التفكير يمزق المجتمع ، إذ يبعد الابن الذى أصبح طبيباً أو مهندساً مثلاً عن أبيه العامل أو الفلاح ، ويبعد الأخ الذى اتجه إلى الزراعة أو الصناعة عن أخيه التاجر أو المهندس . ويقلل من جهود الأمهات اللاتى يتفرغن لرعاية البيوت وتربية الأولاد وهكذا .

ومن المحتق حقا أن نجد الرسول صلوات الله عليه يفسر العمل في حدود النطاق الذى أوردناه، وهو السعى لطلب الرزق من أي باب حلال يناسب الإنسان ، قال عليه السلام : إن من الذنوب ذنوبا لا يكفرها صوم ولا صلاة ، وإنما يغفرها السعى لطلب الرزق ، وجاء أحد الصحابة ليلتحق بجيش المسلمين مجاهدا فسأله الرسول عن أبيه ، فقال : إنهما شيخان ضعيفان ، فقال له الرسول : أرجع فقيهما جاهد ، وهكذا عد الرسول السعى لطلب الرزق عملا يغفر الذنوب ، وعد قضاء حاجة الأبوبن بجهادا .

وفى ضوء هذه الدراسة يصبح معنا كلمتان فقط : هما عامل وعاطل ، فالعامل هو الذى يكدح لخدمة نفسه ومجتمعة فى أى مجال من المجالات بدءا من القاع إلى القمة ، والعاطل هو الذى لا عمل له فى أى من مجالات الحياة ، وإذا لاحظنا ذلك فإننا نجد أن الرسول كان أكثر الناس عملا ، إذ تشعبت - كما رأينا - جوانب حياته ، فعمل كرئيس وكعلم وقاض وقائد وقل أن وجد فى مجتمع المدينة ذلك العاطل الذى يعتمد على جهود الآخرين كما سنرى فى هذه الدراسة .

ومع هذا فإذا أردنا أن نخصص هذا البحث للتعرف على موقف الرسول من العمل اليدوى والجسمانى فإننا نجد مادة خصبة فى هذا النطاق ، إذ نجد الرسول يعمل ويبحث على العمل ، ويعد العمل لونا من العبادة ، يتقرب الإنسان به إلى ربه ، فيثيب الله عليه ويغفر به السيئات ، يقول صلى الله عليه وسلم : - يثاب المؤمن على كل عمل ابتغى به وجه الله ، حتى اللقمة يضعها فى فم زوجته .

- ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده .

- وفى مطلع الحياة بالمدينة بنى المسلمون مسجدا كما ذكرنا من قبل ، واشترك المسلمون فى هذا العمل ، وكان الرسول يعمل معهم كواحد منهم ، ومن أجل هذا كان المسلمون ينشدون :

لئن قعدنا والنبي يعمل لئلا كنا العمل المفضل

وابتكر الرسول نشيداً آخر. اتخذ مظهر السجع ليكون تردده دافعا
للحماسة والنشاط وهز :

اللهم إن العيش عيش الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة
ويروى أن الرسول في هذا العمل حمل مرة لبنة ثقيلة ، فأشفق عليه
أحد المسلمين وتقدم ليحملها عنه ، فقال له الرسول : اذهب فخذ غيرها
فلست بأفقر مني إلى الله .

وكان الرسول مرة في سفر مع بعض أصحابه فاتفقوا على إعداد شاة
لطعامهم ، فقال أحد الصحابة : على ذبحها يا رسول الله ، وقال آخر :
وعلى سلعها ، وقال ثالث : وعلى طبخها ، فقال الرسول وعلى جمع
الحطب ، فقالوا : يا رسول الله نكفيك العمل . فقال : إني أعلم أنكم
تكفونني ولكني أحب أن أعمل كما تعملون ولا أريد أن أتميز عليكم .
وقد سبق أن ذكرنا ذلك عند الكلام عن « الرسول بين أصحابه » .

وفي غزوة الأحزاب اشترك الرسول مع المسلمين في حفر الخندق في
شمال المدينة ، فكان الرسول يضرب بالفأس ويرفع التراب بالمكبل حتى
اغبر جلده ، وحمل أبوبكر وعمر الأثربة ، وكانا يستعملان في ذلك
أثوابهما لقلة المكاتل ، وابتكر عبد الله بن رواحة نشيدا كانوا يرددونه
وهم يعملون فيشطون ، ومنه :

يارب لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

وقد أثبتت كتب السيرة مجمعة من الأعمال المتعددة التي كان يقوم بها الرسول ؛
فقد كان يحلب شاته ، ويرقع ثوبه ، ويخصف نعله ، ويخدم نفسه .

وكانت زينب بنت جحش رضي الله عنها تبشر في بيت الرسول بعض
الأعمال ، فيروى أنها كانت تحسن دبغ الجلود ، وتصنع منها أدوات تنفع
الناس كالقرب والنعال ، وكانت تتصدق بها أو تبيعها وتتصدق بثمنها على رحمة
وعلى فقراء المسلمين .

وكانت فاطمة رضى الله عنها بنت النبي وزوجة على بن أبى طالب تعمل في شئون المنزل ما يرهقها : تطحن الحب بالرحى حتى أثَّرت ذلك في يدها وتحمل القربة في عنقها حتى أثَّرت في نحرها ، وتكنس البيت حتى اغبرت ثيابها ، ولما ذكر على للرسول ما تعانيه فاطمة من العمل وأنها تحتاج لخادما يساعدها ، التفت لها الرسول وقال : يا فاطمة اتقى الله وأدى فريضة ربك ، واعملى عمل أهلك . وقد ذكرنا ذلك عند حديثنا عند تربية الدعاة .

وعقب الهجرة لم يجد المهاجرون غضاضة من العمل في مزارع اليهود ، إذ كان لليهود مساحات واسعة من الأرض آنذاك . ولم ينهم الرسول عن هذا العمل :

وهناك فائدة غير مباشرة ينالها المسلمون الذين يشتغلون بالزراعة والرسول صلوات الله عليه يوضحها للمسلمين بقوله : ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان أو طير أو بهيمة إلا كان له أجره يوم القيامة .

وهناك نقطة مهمة مرتبطة بالعمل على الرسول بإيضاحها هي ضرورة إتقان العمل والإخلاص له ، وفي ذلك يقول صلى الله عليه وسلم : إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه .

ويوضح الرسول صلوات الله عليه كما قلنا من قبل أن العمل عبادة ، يُروى أنه كان جالسا يرمي مع أصحابه ، فرأوا شابا ذا جلد وقرّة قد بكّر يسعى للعمل ، فقال أحد الجالسين : ويح هذا ، ليت شبابه وجلده في سبيل الله . فقال الرسول : لا تقولوا هذا ، فإنه إن كان يسعى على نفسه ليكفّها عن المسألة ويغنيها عن الناس فهو في سبيل الله ، وإن كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف ليغنيهم ويكفّهم فهو في سبيل الله .

فإذا ذهبنا في دراستنا لموقف الإسلام من العاطل الذي لا يعمل نجد في كلام الرسول وتوجيهه خير إجابة لهذا السؤال :

فالرسول يستهجن موقف من ترك العمل حتى لو تفرغ للعبادة معتمداً على ما قد يقدمه له القادرون ، فقد روى أن قوما قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : إن فلانا يصوم النهار ويقوم الليل ويكثر الذكر . فقال : أيكم يكنى طعامه وشرابه فقالوا : كلنا . فقال : كلكم خير منه .

وقد حاول أحد الصحابة أن يتفرغ للعبادة ، ويعتزل الناس ، فقال له الرسول : لا تفعل ، فإن مقام أحدكم في سبيل الله أفضل من صلاته سبعين مرة ، ومن أجل هذا كان أهل الصفة وهم فقراء المسلمين الذين يعيشون في مسجد الرسول يسارعون للجهاد إذا دُعيَ المسلمون للجهاد ، كما كانوا يعملون ليحصلوا على ما يقتاتون به ، وكانوا يتصدقون بما يزيد عن حاجتهم أما العاقل الذي يسأل الناس ويمدُّ يده يطلب عونهم ومساعدتهم وهو قادر على العمل ، فإن الرسول يصيح في وجهه :

— اليد العليا خير من اليد السفلى (اليد التي تعطي خير من اليد التي تأخذ) .

— لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بحزمة من حطب فيبيعها خير له من أن يسأل الناس .

— ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة ، وليس في وجهه مزعة من لحم (لم يَنْضَبْ ماء وجهه ويخف لحمه وذلك كناية عن ضياع الشرف والإحساس) .

— إن من يسأل لغير حاجة ماسة يجيء يوم القيامة وفي وجهه نقطة سوداء .

وهكذا نجد الرسول صلوات الله عليه قد أقبل على العمل ، وزاوله ، وحث عليه ، وسوى بينه وبين العبادة ، وأحياناً فضله عليها ، وإن أصحاب الرسول اقتنوا به في هذا المضمار مما ثبت في النفوس أن كلمة المعلم ، ومبضع الطبيب ، وقلم المهندس ، وجهد الزارع والصانع ، ألوان من العبادة ، فالإسلام دين عمران يحث على خير الدنيا كما يحث على خير الآخرة .

الرسول والشباب

في مطلع حديثنا عن الرسول والشباب نجد أن نوضح أن ليس هناك حد قاصد مميز يقف بين الصبا والشباب ولا بين الشباب والكهولة ، فلا نستطيع أن نقول لإنسان أنك اليوم تطوى عهد الصبا لتبدأ عهد الشباب ، أو أنك تطوى صفحة الشباب لتبدأ عهد الكهولة والشيخوخة ، لأن الصلات بين هذه الأطوار صلات متداخلة ، وهذا شيء من فضل الله ، لإمكان أن يعيش الإنسان فترة الصبا والشباب معا ، وفترة الشباب والكهولة معا ، فينتفع بهذا وذاك أو قل ينتفع بهذا لذاك .

ونقطة أخرى تتصل بأطوار الإنسان ، هي أن الزمن ليس الشيء الوحيد الذي يحدد هذه الأطوار ، فالصحة الجسدية والصحة النفسية لهما أثر كبير في تحديد الوقت الذي ينتقل فيه الإنسان من طور إلى طور ، ومن هنا نستطيع أن نؤكد أن الرسول وكثيرين من أصحابه كانوا شبابا وهم في العقد السادس أو بعده ، وسيرة الرسول توضح أنه كان شاب الجسم والعقل والقلب حتى تجاوز الستين ، ومرض مرض الموت ، وكان هو وأصحابه يديرون أمور الدولة بأعلى درجات الكفاءة وهم حول الستين من العمر .

والشباب جيل يقف في منتصف الطريق ، يأخذ عن السابقين وينقل للأحقين ، فهو جيل يتلقى تجارب الشيوخ وقدراتهم ، ويضيف لذلك ما جده من معارف وتجارب ، ثم ينقل هذا وذاك للجيل التالي الذي سيقف شبان اليوم معلمين له ومدرسين ، فحلقة الحياة والتجارب متصلة ، وإضافات التجارب والخبرات والفكر ينبغي أن تشجع ليصبح كل جيل ملائما للعصر الذي يعيش فيه ، ولو لم يتلق الشباب عن الشيخ لفقوا خبرات الماضي وتجاربهم ، ولما كان عليهم أن يبدؤوا من جديد فيما قد بدأه الجيل السابق ووصل فيه إلى حلول ونتائج ولضاق وقتهم عن إضافة الجديد .

ومن هنا كان اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم بالشباب ، ذلك الاهتمام الذى يمثله الحديث الشريف « نصرت بالشباب » وهذا الحديث يصور عصر الرسول صلوات الله عليه أدق تصوير ، فجيل الشيوخ فى مطلع الرسالة لم يستطع أن يتخلى عن عبادة الأوثان ولا عن تقاليد العصر ، لأن نفوس هذا الجيل كانت قد ربت فيها مع طول الزمن قيم الجاهلية ونظمها ، أما جيل الشباب فكانت عبادة الأصنام لم تتعمق فى نفسه ، وكان أميل للصفاء ، وراغبا فى التعرف على ما تحمله الدعة الجديدة من فكر ، وقد حمله ذلك إلى دراسة الإسلام ففقه به الكثيرون منهم ، ووقف بذلك جيلان متعارضين ، جيل يصارع الإسلام ويبرز فيه جانب الشيوخ ، وجيل يدافع عنه ويبرز فيه جانب الشباب ، وبعض هؤلاء الشباب كانوا أبناء للشيوخ الذين عارضوا الإسلام وحاربوا المسلمين ، وبعض هؤلاء الشيوخ سقطوا فى المعارك وبضربات من أبنائهم أخيانا ، وسرى فيما بعد نماذج من شباب المسلمين الذين التفوا حول الرسول ، وكانوا عُدته فى مختلف المواقف .

الشباب والتحولات الفكرية :

فى ضوء ما ذكرناه آنفا نستطيع أن نقرر أن الشباب هم العدة الهائلة للتحولات الفكرية وبدونهم تتعثر الدعوات الجديدة ، لأن صفاء نفوسهم وفتاء عقولهم ، وعدم خضوعهم لأحمال هائلة من تقاليد الماضى يجعلهم مستعدين للدراسة والبحث وتقبل ما يعجز عن تقبله جيل الشيوخ ، بيد أننا نوضح نقطة شديدة الأهمية هى أن الشباب للأسباب التى ذكرناها آنفا قد تخدعهم دعوات لامعة المظهر ، فجئة المخبر ، فيقومون فريسة لهذه الدعوات ويعتقدونها ويتحمسون لها فترة من الزمن ، ولكنهم بعد حين يكتشفون حقيقتها ويتمردون عليها ، وهذا هو الفرق الهائل بين دعة الإسلام العميقة السامية التى تلقاها الشباب ، وزادوا حماسا لها من يوم إلى يوم ، وبين دعوات الشيوعية والاشتراكية والناصرية التى خدع بها الشباب حيناً ، وألبسوها ثم نفهموها بعد حين فانفضوا عنها ، ومن هنا نوضح أن الشباب الذين اعتنقوا الإسلام بمبادئهم كانوا يزدون حباً له وإقبالا عليه كلما مر الزمن ، إذ يتعرفون على مزيد

من مبادئه الرائعة، ويزيدون ارتباطاً برسول الإسلام الذي كان مثالا نادرا للقائد والرائد الذي يعمل للإسلام والمسلمين دون أن ينال أى شيء لنفسه وذويه ، وهذا يدفعنا أن ندعّر الشباب إلى التّريث في قبول الدّعوات الجديدة . فليست الدّعوات الجديدة من عند الله كما كانت دعوة الإسلام ، وليست لها معجزات الإسلام ، ولهذا ينبغي على الشباب أن يستعملوا الأناة ، وإلا يتدفقوا على تأييد أية دعوة جديدة بحكم الرغبة في التّغير ، وذلك حرصا على جهودهم من الضياع ، وقد رأيت وأنا أستاذ بالجامعة جماعات من الشباب يتحمسون لفكرة ، وربما ارتكبوا الشطط في تأييدها ، ولكنهم عندما تقدّم بهم العمر تخلّوا عنها ، لقد اعتنقوها بثورة عاطفية ، فلما نما العقل اجتنبوا انفعالات العاطفة .

الشباب مع الرسول :

إذا عدنا إلى مطلع الإسلام وجدنا أن الشباب - كما قلنا من قبل - كانوا خير نصير للدعوة الجديدة ، وأول من تقابل في هذا المجال عليا بن أبي طالب وهو أول من أسلم من الصبيان ، وكان آنذاك صبيا حدثا لم يبلغ الشباب بعد ، ثم تقابل أبا بكر الصديق وهو أول من أسلم من الرجال وكان أصغر عمرا من الرسول أى كان لم يكمل العقد الرابع من العمر ، ولم يستجب أبوه قحافة والد أبي بكر لدعوة الإسلام ، فقد كان من الشيوخ الذين يصعب تحوّلهم إلى الفكر الجديد كما ذكرنا من قبل ، وظل أبو قحافة على الوثنية حتى "فتحت مكة" ، أما ابنه أبو بكر فقد اتجه منذ عهد مبكر جداً إلى شباب مكة يدعوهم للدين الجديد ، ويذكر لهم مبادئه ويعرفهم بالرسول ، فاجتمع حوله نخبة رائعة من الشباب ، أخلصوا الإخلاص كله للدين الجديد ، وحملوا أليّيته معلمين ومهاجرين ومحاربين، ومن هؤلاء سعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيدالله، وأبو عبيدة بن الجراح، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف ، وكان هؤلاء في قمة الشباب لم يصل بعضهم إلى سن العشرين بعد ، وسرعان ما دخل الإسلام كذلك شابان جديان هما أبو ذر الغفّارى، وعبد الله بن مسعود، وكانا من العشرة الأوائل الذين دخلوا هذا الدين ، ثم توالى بعد

ذلك دخول مجموعات من الشباب مثل أبي سلمة، والأرقم، وعثمان بن مطعم، وعبيدة بن الحارث، وسعيد بن زيد، وزوجته فاطمة بنت الخطاب أخت عمر بن الخطاب، وأسلمت شابات صغيرات منهن أسماء بنت أبي بكر وأختها عائشة، وأسلم خباب بن الارت وعمير بن أبي وقاص أخو سعد، وعبد الله بن جحش، وجعفر بن أبي طالب، ثم أسلم حمزة، وعمر بن الخطاب وهما في ريعان الشباب، وأسلم عبد الله بن عمر وهو في الثالثة عشرة من العمر، وعندما تراجع المهاجرين في هجرة الحبشة الأولى نجدهم جميعا تقريبا من الشباب وزوجاتهم من الشابات، وقد احتمل هؤلاء كل ضيم في سبيل عقيدتهم، وربما كانوا يستطيعون أن يدافعوا عن أنفسهم، ولكن الآيات التي تبيح خوض المعارك ضد الكفار لم تكن قد نزلت بعد، فاستجاب هؤلاء للرسول وتركوا الديار والوطن فرارا بدينهم إلى حيث طمعوا في الرعاية والأمان، وعندما تمت الهجرة إلى المدينة وأذن بالقتال كان هؤلاء الشبان ليوث وغى وأبطالا مغاوير كما سرى عند الحديث عن الغزوات.

جيلان :

سبق أن أشرنا إلى وجود جيلين في مطلع الإسلام هما جيل الشيوخ وجيل أبنائهم الشباب، وقد تمسك الشيوخ بأواكبرهم بعقائدهم الوثنية، واتجه جيل الشباب إلى الإسلام وحدثت أحداث جديدة بالذكر بين الآباء والأبناء، وسنقص فيما يلي طرفا من هذه الأحداث.

وأول من تذكره هو أبو طالب عم الرسول، الذي كفله بعد وفاة عبد المطلب وأعلن حمايته عندما جاءت له الدعوة، ودافع عن الرسول دفاعا طويلا، وكانت هيئته من الأسباب التي جعلت قريشا تتردد في العدوان على الرسول، وكان درعا يحمي الرسول بقوة وصلابة، وبما ينسب له في ذلك، البيت التالي :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوْسَد في التراب دفيناً

ومع هذه العلاقة وهذا الارتباط الوثيق ، لم يدخل أبوطالب دين الإسلام على أبي جح القرين . ففهر واحد من الشيوخ الذين ضعفوا عن التحول من عقيدة إلى عقيدة .

وإذا كان هذا هو موقف الشيخ الأب ، فإن من أبنائه من أسرع في دخول الإسلام وضرب أروع الأمثال في الدفاع عنه مثل علي بن أبي طالب الذي دخل الإسلام وهو صبي كما قلنا آنفا ، وبات في فراش الرسول ليلة الهجرة مستعداً أن يضحي بنفسه من أجل نجاة الرسول ، وهو أخ للرسول في المؤاخاة ، وبطل الأبطال في كل الغزوات ، ولقد عرفه التاريخ مبارزاً مقدماً في غزوة بدر وأحُد والأحزاب .

ومن أبناء أبي طالب جعفر وكنيته أبر المساكين ، وكان الرسول يقول له : أشبهتَ خلقي ومُخلقي وتلك قمة الأوصاف العالية ، وكان الرسول يقول عنه : « طائر الجنة الغريد » وزوجته أسماء بنت عميس وهي من خيرة الزوجات ، أسلمت مع زوجها في وقت مبكر ، وقد هاجر جعفر إلى الحبشة . وطاب له المقام هناك ، فكان زعيماً للمسلمين والمتحدث باسمهم ومعلمهم ، وقد تصدى لعمر بن العاص في الحارار الذي دار بينهما أمام ملك الحبشة ، وانتصر جعفر أعظم انتصار .

وعندما عاد من الحبشة عقب انتصار المسلمين في موقعة خيبر كان ثاني القادة الذين اختارهم الرسول لقيادة الجيوش في غزوة موتة ، وهناك لاقى ربه وهو يدافع عن الإسلام .

وننتقل في المقارنة بين جيل وجيل إلى الحديث عن أبي عبيدة عامر ابن عبد الله الجراح ، وكان أبوه في قمة المعادين للإسلام ، ولكن الشاب أبا عبيدة اعتنق الإسلام عندما دعاه أبو بكر لذلك ، فقد كان قلبه نقياً ، تلقى بترحاب دعوة الإسلام وتقبلها ، وهاجر عقب ذلك إلى الحبشة ، ولكن سرعان ما عاد ليوقف بجوار الرسول ، فحضر المشاهد كلها ، وفي مطامع هذه المشاهد أى في غزوة بدر واجه أبا عبيدة امتحاناً قاسياً ، فقد كان أحد

الأبطال المسلمين في هذه الغزوة ، وكان أبوه يقف في صفوف المشركين ، ولما دارت المعركة وحمل وطبسا انضح لأبي عبيدة حرص والده على قتله ، فقد كان هذا الوالد يحاول من حين إلى آخر أن يطعن ابنه ، فكان الابن يفلت منه ليقوم بدوره في الصراع ، ولكنه سرعان ما يجد أباه يراجعه مرة أخرى ، وأدرك أبو عبيدة أن أباه يعرقل جهده ، وقارن بين إرضاء الله ورسوله وبين إرضاء أبيه فوجد من واجبه أن يعمل لمرضاة الله ورسوله فطعن أباه طعنة قضت عليه ، وبكى أبو عبيدة عقب ذلك ، فسئل : أبكى لأنك قتلت ؟ فأجاب : لا ، ولكن كنت أتمنى أن يشرح الله صدره للإسلام ، وإنى أبكى لأنه مات على الكفر .

وننتقل مرة أخرى في المقارنة بين جيل وجيل لتحدث عن أبي حذيفة ابن عتبة بن ربيعة ، وعتبة بن ربيعة هر سيد قریش في عصره ، من فصحاء العرب ، وبلغاهم وهو والد هند زوجة أبي سفيان ، وقد أرسلته قریش مرة ليعرض على محمد المال والسلطان ليكف عما جاء به مما أثار قومه ومزق صفوفهم ، فاستمع له الرسول بكثير من الصبر والأناة حتى انتهى من كلامه ثم سأله الرسول :

— أو قد فرغت ؟

— بلى .

— قال محمد : فاسمع مني قوله تعالى : « قل أنتم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ، ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسي من فوقها ، وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ، ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض لئنيا طوعا أو كرها ، قالتا أتينا طائعين ، فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح . وحفظنا ذلك تقدير العزيز العليم . فإن أعرضوا فقل أنذرهم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود (١) :

وقد ذكرنا من قبل أن عتبة بن ربيعة كان من فصحاء العرب وبلغائهم فأدرك أن هذا الكلام ليس من قول البشر ، وهزّه التهديد الذى جاء فى الآية الأخيرة ، فيُروى أنه وضع يده على فم الرسول ، وقال له : أنا شذك الله والرحم أن تكف .

وعاد عتبة إلى قومه ، ولكنهم رأوه على حال غير الذى كانوا يتوقعونه ، فقال بعضهم لبعض : لقد جاءكم أبى الوليد بغير الوجه الذى ذهب به ، ولما جلس سألوه : .

— ماوراءك ؟

— لقد سمعت قولاً ما سمعت والله بمثله قط . ماهر بالشعر ولا السحر ولا الكهانة

— قال له قومه : يحرك محمد بلسانه .

ومع هذا الإحساس الذى دب فى نفس عتبة لم يستطع أن يتخلى عن العقيدة التى كانت متغلغلة فى نفسه ، فبقى على الكفر . أما ابنه أبو حذيفة فكان له موقف آخر ، كان شاباً منفتح القلب والعقل ، لم تسيطر عليه عبادة الأوثان ، ولذلك ما إن أحس بصدق الدعوة حتى اعتنقها ، وضحى بما كان ينتظره من زعامة هريش بعد أبيه ، فقد كان أبوه يُعيدُه لهذه الزعامة كما كان أبو حذيفة ينعم بالغنى والمجد والترف ، ولكن هذا كله لم يكن شيئاً ذا بال عند أبى حذيفة ، لقد كان الإسلام يفوق عنده كل شيء ، فأثر الفقر على الوثنية ، وأصبح يعيش فى نور الإسلام بعد ظلام الشرك ، ويسعد بالمعرفة بعد أن ترك الجاهالة ، غير حافل بمال أو متاع ، وأى مال أسمى من راحة النفس ، وسعادة العقل ، وهدوء البال .

وقد سقط عتبة بن ربيعة فى المبارزة التى دارت فى مطلع غزوة بدر ، كما سقط فى هذه المبارزة شبيهة أخوه والوليد ابنه ، ولكن هؤلاء الصرعى من أقرب الناس إلى أبى حذيفة لم يؤثروا فيه ، بل أبلى بلاء حسناً فى هذه الغزوة وفى سواها .

وعندما يذكر أبو حذيفة يرتبط به اسم شاب مهم في التفكير الإسلامي هو سالم مولى أبي حذيفة الذي كان أحد أربعة أوصى الرسول أن يؤخذ القرآن منهم وهم: عبد الله بن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وكان سالم عبداً لأبي حذيفة، فلما دخل أبو حذيفة الإسلام اعتقه وتبناه، ولما أبطل الإسلام التبني سُمِّيَ سالم «مولى أبي حذيفة»، لأن أباه لم يكن معروفاً، وزوجه أبو حذيفة بنت أخيه الرليد واسمها فاطمة، وهذا يرينا صورة رائعة من صور الفكر الإسلامي أن يتزوج مولى إحدى بنات السادة، ولكن الإسلام رفع شأن هذا المولى وجعله على القدر والمقام، وظل أبو حذيفة ومولاه سالم يصارعان من أجل الإسلام في ميدان الفكر وميدان القتال حتى سقطا معا في معركة من معارك الردة وهما محاربان مسلمة الكذاب، ويروى أن بعض المسلمين رأى سالما وهو في النزاع الأخير فسأله سالم: ما فعل أبا حذيفة؟ قالوا: استشهد، قال سالم: فاضجعوني إلى جواره، فأجابوه أنه إلى جوارك يا سالم. لقد عاشا البطلان معا وماتا معا في خدمة الإسلام.

وفي المقارنة بين جيلين ننتقل هذه المرة إلى صراع بين شاب مهمل الإسلام وبين أمه التي تمسكت بعقيدة الوثنية، ذلك الشاب الذي كان لنا معه حديث من قبل إنه مصعب بن عمير. فقد كان مصعب من بيت جاه وغي، وكان يرصف في مكة بأنه من أعطرا أهل مكة. وكان زينة المجالس والتلوات، ولكن طبيعة مصعب لم تكن خاضعة لهذا الترف، وإنما كانت خاضعة للفكر، لم يكن النعيم يسيطر عليه، وإنما كان عقله هو الذي يقوده، فلما سمع عن الدعوة الجديدة تدارسها وتفهمها، فهزت وجدانه وأثرت فيه، فلم يقاومها، ولا اهتم بما قد يناله إذا اعتنقها، فقد باب الأرقم ابن أبي الأرقم وأعلن إسلامه.

وإذا كان مصعب قد وجد راحة الفكر في الدين الجديد، فقد واجه المتاعب المريرة من أمه، وكانت أمه «خناس بنت مالك». شخصية قوية لها في نفوس القوم هبة وجلال، ولذلك اضطرب مصعب أن يخفى إسلامه

عنها ، وعن عشيرته ، ولكن لإسلام شخص مثل مصعب في جاهه ومكانته لم يكن من الممكن أن يظل سراً ، فسرعان ما انكشف الأمر ، وواجه مصعب صراعاً قاسياً من عشيرته وعلى رأس العشيرة أمه خناس ، وقد حاول هؤلاء بكل الوسائل أن يردوه عن اتجاهه ، ولكنهم فشلوا بطبيعة الحال . فانتقلوا إلى التحدى . فحيسته أمه في حجرة من حجرات البيت ، وأحككت حرمانه من كل شيء ، ولكنه استطاع بحيلة من الحيل أن يفر من هذا السجن ، وأن يهاجر إلى الحبشة ، مؤثراً البعد عن الوطن والمال ليعيش في راحة النفس ، وعندما عاد من الحبشة إلى مكة ، عرفته مكة مرقع الثياب يعاني الفاقة والحاجة بعد أن كان مترفاً يرفل في ثياب النعم ، ولكن الأبطال لا يعنيتهم المظهر ، ولا تجلبهم زينة الحياة عن الخلود والخير المقيم .

وقد ذكرنا من قبل أن مصعباً كان مبعوث الرسول إلى المدينة ، ولما عاد إلى مكة من المدينة هددته أمه بحبسه مرة أخرى ، ولكنه قال لها : لأن حدث هذا لأحرصن على قتل كل من يتعرض لي ، فيئت منه أمه وتركته .

ولم يكن مصعب وحده هو الذي لاقى العناء من أمه بسبب دخوله الإسلام ، بل إن هناك شاباً عظيماً آخر واجه نفس المشكلة ، ذلك هو سعد ابن أبي وقاص ، فقد دخل الإسلام وهو في السابعة عشرة من العمر ، وكان من السابقين الأولين وروى عنه قوله : أتى على يرم وأنا ثلث المسلمين ، إذ لم يكن هناك أكثر من رجال ثلاثة دخلوا الإسلام آنذاك .

وسعد بن أبي وقاص من أقارب والده الرسول ، وكان الرسول بعده خاله ، ويفخر به قائلاً : هذا خالي فليرني أمرؤ خاله . وكان سعد بن أبي وقاص في مطلع الإسلام من الشباب صافي النفس طيب السريرة ، ليس لعبادة الأصنام جلور في نفسه ، ولذلك أسرع بقبول دعوة أبي بكر ليدخل الإسلام ، قبل أن يدخل الرسول دار الأرقم ، ولما عرفت أمه (حمنة) أنه دخل الإسلام غضبت أشد الغضب ، وأعلنت الصوم احتجاجاً على سلوك ابنها ، وأقسمت أن تتمسك بالصوم حتى تموت أو يرتد ابنها عن الإسلام .

ولم يعبأ سعد بصوم أمه ولا بقسمها فقد كانت الآية الكريمة تربيهم له خطته قال تعالى : « وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما » (١) فليست أمه هي التي تنظم حياته في هذا المضمار ، وليس لخلق طاعة في معصية الخالق . ومن هنا طال صوم أمه . وتدهورت بالتالي صحته . فأخذه بعض أهله والأم في الرمق الأخير لعله يرى حالتها فيستجيب لرغبتها . وذهب سعد ورأى أمه . ولكنه بكل الإيمان والنيات قال لها : والله يا أم لو كانت لك مائة روح فخرجت واحدة بعد الأخرى ما تركت ديني ، فكلّي أو لا تأكلّي . وأدركت الأم ألا جدوى من التهديد ، وأن ابنها يعرف ما يجب عليه . وأن الدين ليس بالأمر الذي يساوم الإنسان فيه . فعادت عن صومها .

بقى أن نثبت عن الشاب سعد بن أبي وقاص بعض ما ينبغي أن يعرف عنه . فسعد أول من رمى بسهم في سبيل الله . وكان يفخر بذلك ويقول : والله لأتقن أول رجل من العرب رمى بسهمه في سبيل الله ، وكان الرسول معجبا به ويخلصه حتى أنه دعا له أطيب دعاء فقال : اللهم سدد رميته ، وأجب دعوته . فكان سعد على مر التاريخ مسدد الرمية ومجاب الدعوة . وكان مبشرا بالجنة فقد كان الرسول مرة يجلس مع أصحابه . ثم فكر فنهى وصرح ببصره وبصيرته ثم قال لأصحابه : يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة ، فأخذ أصحاب الرسول يتطلعون هنا وهناك ليعرفوا من هذا الذي ترتبط به هذه البشارة ، فطلع عليهم سعد بن أبي وقاص . وقد سأله مرة عبد الله بن عمرو بن العاص عن الصفات التي أوتىها هذا الرضي ؟ فقال له سعد : لا شيء أكثر مما نعمل جميعا ونعبد ، غير أنني لا أحمل لأحد من المسلمين ضغنا ولا سوءا .

وتربط بسعد تلك القصة الشهيرة التي تفيد أن الغنى الحلال خير من الفقر والحاجة ، فيروى أن سعد كان مع الرسول في حجة الوداع فرفض ،

وذهب الرسول إليه ليعوده ، ولم يكن عند سعد من الأبناء آنذاك إلا بنت واحدة ، فقال سعد للرسول :

يا رسول الله إني امرؤ ذو مال ولا يرثني إلا ابنة واحدة أفأتصدق بثلثي مالي ؟

فقال الرسول :- لا : فعاد سعد يسأل : فبئصفه ؟ فقال الرسول : لا .

فقال سعد : فبثلثه ؟ قال الرسول : نعم الثلث والثلث كثير . إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عائلة يتكفون الناس ، وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت بها حتى اللقمة تضعها في فم امرأتك .

وسعد آخر من مات من المهاجرين ، وكانت وفاته سنة ٥٤ هـ ، وكان يحتفظ بثوب قاتل به في بدر فكفّن فيه . رحمه الله رحمة واسعة .

وفي مجال المقارنة بين جيل الشيوخ وجيل الشباب نصل إلى اثنين من أكبر المشاهير في مكة ، هما : الوليد بن المغيرة وابنه خالد بن الوليد ، وقد سمع الوليد بن المغيرة آيات من القرآن الكريم من سورة السجدة ، وهذه الآيات تصور أروع تصوير حالة الشيوخ التي حاولنا إبرازها يقول الله تعالى : « وقالوا قلوبنا في أكنه مما تدعونا إليه ، وفي آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب (١) » . نعم كانت قلوبهم في أكنه ، وكانت آذانهم لا تسمع ، وقد أقاموا حجابا كثيفا بينهم وبين دعوة الحق ، وعندما سمع الوليد بن المغيرة هذه الآيات وما تلاها من آيات في هذه السورة أدرك بقدرته البلاغية مكانة هذا التنزيل ، وراح يصف لقرمه ما سمعه أبلغ وصف قال : سمعت من محمد أنفا كلاما ما هو من كلام الإنس ولا كلام الجن ، إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق ، وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه .

وهزت هذه الكلمات قريشا ، وخافت أن ينجذب الوليد إلى الإسلام ،

(١) سورة فصلت « الآية الخامسة .

فأرسلت إلى الوليد ابن أخيه أبا جهل يحمله ضد محمد وضد الدين الذي جاء به ، فاستجاب الوليد لابن أخيه ، وراح يصف محمدا بأنه ليس إلا رجلا يفرق بين المرء وأهله ، وجاءت آيات القرآن الكريم بأبلغ عبارة عرفتها البلاغة العربية تصف الوليد وتهده وتزجره ، أنها قوله تعالى : « ذرفي ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا مملودا وبينن شهودا ، ومهدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أزيد ، كلا ، إنه كان لآياتنا عنيدا ، سأرهقه صعودا ، إنه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر ، سأصلبه سقر ، وما أدراك ما سقر ، (١) » :

وفي أحضان هذا الأب نشأ خالد بن الوليد . وكان حول خالد شيوخ أهل مكة الذين يحيطون بالوليد ، ومن بينهم أبو جهل ابن عم خالد وأكبر أعداء الإسلام ، ولم يجد خالد في هذه البيئة الفرصة ليتعرف على الإسلام ، ولهذا بقي عدة سنوات في صفوف الكفار ، وحارب ضد المسلمين ، وحقق على المسلمين انتصارا كبيرا في غزوة أحد ، مما يدل على قدرة عسكرية هائلة .

ومرت السنون وخالد يتيه بقوته ولا يجد السبيل للتفكير . لأنه يعيش في مكة مع أعداء الإسلام ، بعد أن هاجر المسلمون إلى المدينة ، ومن هنا طالت فترة ابتعاد خالد عن دين الحق ، فدعوة الإسلام لم تدق نفسه ، ثم جاء صلح الحديبية وهدأت السيوف والحرب التي كانت شغل خالد الشاغل ، وأتيح للعقل الصافي أن يفكر ، وللنفس السمحة أن تقدر ، وهداه تفكيره إلى شيء يعبر عنه قوله : « والله لقد استقام المنسم ، وإن الرجل لرسول ، فحتى متى أبعد عنه ، ومتى سأذهب إليه فأسلم . وكان خالد يتمنى أن يجد رفيقا في هذه الرحلة الخطيرة التي تصور تحولاً هائلا في تاريخ مكة وتاريخ المدينة ، ووجد خالد رفيقه ، وكان عثمان بن طلحة ، ولعثمان نفس الوضع

الذى تتدارسه ، إنه كذلك كان في عتقوان الشباب وكان في نفسه صفاء ، أما أبوه فهو طلحة بن أبي طلحة وهو من طبقة الوليد بن المغيرة ، ومن أخطر أعداء الإسلام ، إنه ذلك الأب الذى وقف بعنجهية وكبرياء في مطلع غزوة أحد يتحدى المسلمين ويطلب المبارزة ، وعندما بارزه على وقضى عليه ، خرج أخوه عثمان بحماسة الواله يطلب المبارزة أيضاً ، فصرعه حمزة ، وتقدم الأخ الثالث أسعد والأخ الرابع مسافع فسقطا أيضاً في ميدان المبارزة ، وهنا يدل على عمق في الباطل من هذا الجيل بهذه الأسرة ولكن عثمان ابن طلحة كان يدور في نفسه ما يدور في نفس خالد ، فلما التقى به خالد وذكر له ما يخطر بباله أسرح بالاستجابة ، وسارا معا شوطا ، فالتقيا بمعرو بن العاص وهو شاب من سراة قريش وعظماهم ودهاتهم ، قال له حديثا بعض رفاقه : عجبت لذلك يا ابن العاص ، كيف تعرض عن أقبلت عليهم الدنيا والآخرة ، وكان عمرو ينتظر الظروف التي تساعد له ليعلن ما يضممر تجاه الإسلام ، فلما التقى بخالد وعثمان بن طلحة سألهما : إلى أين المسير ؟ فأخبراه بغرضهما ، فقال : لقد دب في نفسي مادب في نفوسكما ، فرحبا به رفيقا ثالثا في هذه الرحلة ، وذهب الثلاثة إلى الرسول بالمدينة ، وأعلنوا إسلامهم وبايعوا رسول الله . وفي خجل من الماضي قال خالد للرسول : استغفر لى كل ما أوضعت فيه من صدء عن سبيل الله ، فرد الرسول ردا فيه شفاء للثلاثة جميعا قال : إن الإسلام يحب ما قبله ، وكان الرسول يقول عن عمرو بن العاص : أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص ، وحمل هؤلاء الثلاثة أعباء طويلة في خدمة الإسلام كأنما أرادوا أن يكفروا عن مواقف وقفوها من قبل مناخلين ضد الإسلام والمسلمين .

وعندما هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة كان الشباب أيضاً في مطلع من عاونوه ، ومن هؤلاء معاذ بن جبل الذى دخل الإسلام وهو في مطلع الشباب ومات في خلافة عمر وعمره ثلاثة وثلاثون عاما .

ووجد في المدينة كذلك جيل الشيخ الذين عارضوا الرسول وجيل أتباعهم الذين دخلوا الإسلام وأخلصوا ودافعوا عنه ، ومن جيل

الشيخ الذين لم يخلصوا للإسلام عبد الله بن أبي زعيم المنافق الذي امتد كيده للإسلام طيلة حياته ، أما ابنه عبد الله فكان مسلما عميق الإسلام حتى أنه عندما أحس بغضب الرسول على أبيه . وخشى أن يأمر الرسول من يقوم بقتل الأب ، تقدم يعرض استعدادة لقتل أبيه إن أمره الرسول بذلك . وقد ذكرنا هذه القصة من قبل .

وبعد ، لقد كان الشباب عدة الإسلام ؛ حملوا فكره . وحملوا السيف للدفاع عنه ، نشره بالحكمة والموعظة الحسنة ، ودافعوا عنه عندما وقفت قوى الشر تهدده ، وكان رسول الإسلام يحتفى بالشباب ، ويقبل عليهم ، ويحسن معاشرتهم ، تقديرا لهذا النور الكبير الذي قاموا به ، والذي عبر عنه الرسول أروع تعبير عندما قال : نصرت بالشباب .

توجيهات طبية يقدمها الرسول

في مطلع هذا الحديث نحب أن نوضح حقيقة قد تحق على بعض الناس عند قراءتهم عنوان هذا البحث ، تلك الحقيقة هي أن الرسول صلوات الله عليه ليس طبيا ، وقد رأينا الرسول داعية ومربيا للدعاة ، ورأيناه حاكما ومربيا للولاة ، ورأيناه قاضيا ومربيا القضاة وهذا صميم عمله ؛ يبلغ شرع الله ويشرحه ويطبِّقه .

ولا يدخل في عمل الرسل ووظائفهم - كما يقول الإمام محمد عبده - ما هو من عمل المدرسين ومعلمي الصناعات ، فليس مما جاعوا له تعليم تاريخ ، ولا تفصيل ما يحويه عالم الكواكب ، ولا طبقات الأرض ، ومقادير الطول فيها والعرض ، ولا ما تحتاج له النباتات في نموها من علم ذلك ونظائره ، يحتاج إلى الكسب والبحث ، هدى الله إليه البشر بما أودع فيهم من الإدراك والعقول ، وكل دخل الأديان في ذلك هو حراسة معتقدين حتى لا تشتط أو تزل (١) .

وعلى هذا نقرر أن الرسول صلوات الله عليه ليس طبيا ، فالطب صناعة من هذه الصناعات ، ولكننا مع ذلك نقرر أن الرسول صلوات الله عليه وضع في مجال حفظ الصحة قواعد عامة اعتبرها الأطباء باللغة العلمية في عالم الطب ، وكان اهتمام الرسول فيها بوجه خاص يتجه إلى الطب الوقائي وهو أهم أنواع الطب ، فأرقى الدول تهتم به أعظم اهتمام حتى تحول دون انتشار الأمراض والأوبئة ، واهتم الرسول كذلك بالطب العلاجي ، ولكن غالباً بدعوة المرضى إلى العلاج ، وبيان أن لكل داء دواء وفي هذا الضوء نخطو لنسجل التوجيهات الطبية التي قدمها الرسول :

الدعوة إلى القوة :

وأول ما اهتم به الرسول الدعوة إلى القوة التي تتخذ الصحة أساسا

(١) الإمام محمد عبده : رسالة الوحيد من ١٠٠ وكتاب « الإسلام » من سلسلة مقارنة الأديان المؤلف من ١٠٧ .

لها ، ومن أحاديث الرسول في الدعوة للقوة قوله : المؤمنُ القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف (رواه مسلم) ولاشك أن القوة تعين على أداء الواجب ، ودقة العمل ، والمحافظة على سلامة الأسرة والوطن ، وهناك أحاديث أخرى كثيرة في هذا المجال نروى فيما يلي بعضها :
 - إن لجسدك عليك حقًا .

- يا عباس يا عم رسول الله سل الله العافية في الدنيا والآخرة ،
 (مسند أحمد) .

- سلوا الله اليقين والعافية ، فما أعطى أحد بعد اليقين خيرا من العافية .
 (البخاري) .

- من أصبح معافى في جسده ، آمنا في سربه ، عنده قوت يومه ،
 فكأنما حيزت له الدنيا (رواه الترمذى) .

- ومن المحافظة على الصحة ما أوصى به الرسول من الرياضة والترويح عن النفس ، وكان الرسول نفسه يباشر الرياضة ، فقد سابق عائشة رضي الله عنها مرة فسبقتها ، وسابقها أخرى فسبقها فقال : هذه بتلك ، وكان كذلك يهتم بالفروسية ورمى السهام ، ولا يكره الترويح المباح .

في مجال الطب الوقائي :

وننتقل بعد ذلك لتحدث عن الطب الوقائي ، والذي يتدارس أحاديث الرسول يجد نخبة منها تفود المسلم خير قيادة لصحة الأبدان وصحة العفول والنفوس ، وأول ما نسوقه من ذلك ما روى أن المقرئ عندما أراه مارية هدية للرسول ومعها بعض أهلها ومعها كذلك طيب قبل الرسول الهدايا الأخرى وردَّ الطيب قائلاً : لا نحتاج لطيب ، فنحن قوم لا نأكل كل حيٍّ نجوع وإذا أكلنا لا نشبع ، ويقول في التحذير من التخمرة : المعدة بيت الداء ، والحمية رأس الداء ، ويعلق أحد الأطباء المحدثين على هذا الحديث بقوله : والحقيقة

أن المعدة هي السبب في كثير من الأمراض المعوية وأمراض الكبد وفقر الدم وأمراض القلب^(١) .

وقد تكررت أحاديث الرسول في الحث على عدم ملء المعدة بالطعام ، ومن هذه الأحاديث نقتبس ما يلي :

- لا تملئوا القلب بكثرة الطعام والشراب ، فإن القلب كالزرع يموت إذا كثُر عليه الماء .

- لياكم بالبطنة ، فإنها مكسلة للصلاة وفسدة للجسم ، ومؤدية إلى السقم ، وعليكم والفصد في قوتكم فمهر أبعد عن السرف ، وأصح البدن .

ومن الأشياء التي اهتم الرسول بها اهتماماً كبيراً فيما يرتبط بالطب .
الوقائي ، النظافة ، وأحاديثه في هذا المجال كثيرة منها :

- النظافة من الإيمان .

- بنى الدين على النظافة .

- كان رسول الله يكره رائحة العرق في المسجد .

- إن الله طيب يحب الطيب ، جواد يحب الجواد ، فنظفوا أنفسكم ليرضى عنكم .

- لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة .

ومن الطب الوقائي الذي اهتم به الرسول عليه السلام الاعتراف بالعلوى وضرورة المحافظة منها ، ومن أحاديث الرسول في ذلك قوله :

- فرُّ من المجذوم فرارك من الأسد .

- كلُّم المجنوم وبينك وبينه قيد رمح أو رمحين .

- إذا سمعتم بالطاعون في أرض فلا تدخلوها ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها .

(١) دكتور محمود دياب : الطب والأطباء في مختلف العصور من ١٠٣ .

— لا يُورَد ممرض على مصحح ، وإن الحرب الرطب قد يكون بالبعير ،
فإذا خالط الإبل أو حككها . أو آوى إلى مباركها وصل إليها الممرض منه .

في مجال الطب النفسى :

وتكلم الرسول كذلك عن الطب النفسى ، فقال « من كثر همه سقم
بدنه » وذلك إشارة إلى علاقة النفس بالبدن . ولقد أثبت الطب الحديث
أن كثرة الموم تمرض النفس . وممرض النفس يمرض الجسم (١) .

وجاء رجل إلى الرسول يسأله النصيحة فقال له الرسول : لا تغضب .
فكرر الرجل سؤاله وكرر الرسول نفس الإجابة . وقد أثبت التجارب
المختلفة أن الغضب كثيراً ما يسبب ألوانا من الأمراض التى تهجم على الإنسان
وهو فى ثورة غضبه . وربما قضت عليه .

الدواء :

ومع المحافظة على الجسم والحرص على الوقاية من الأمراض . فإن
المريض يصيب الإنسان لسبب أو لآخر . والرسول فى هذه الحالة يؤكد أن
لكل داء دواء . وأن المريض لابد أن يتناول الدواء ليستعيد صحته . وهو
فى ذلك يقول :

— ما أنزل الله من داء إلا أنزل له دواء .

— عندما سئل : أرايت دواء نتداوى به هل يرُد قضاء الله ؟ أجاب :
هو من قضاء الله . وكان الرسول فى قمة المرهبة عندما عارض الحرافات
وأنواع الدجل التى كانت شائعة آنذاك . وهو يقول فى ذلك : من علق
نيمة فلا أنتم الله عليه . ومن علق ودعة فلا أودع الله له .

وكانت مواقف الرسول فى مجال الطب واسعة الصدى عند المسلمين .
ويروى ابن أبى أصيبعة (٢) عن بعض الحكماء قوله : من أراد الصحة فليجو

(١) المرجع السابق .

(٢) طبقات الأطباء ج ١ ص ١١٢ .

الغذاء ، ولأكل على نقاء ، ولشرب على ظمأ ، ويتمدد بعد الغذاء ، ويتمشى بعد العشاء ، ولا ينام حتى يمرض نفسه على الخلاء ، ويحذر دخول الحمام عقب الامتلاء .

القرابة القرية في الزواج :

وهناك موضوع يرتبط بصحة الأولاد أرشد له الرسول صلى الله عليه وسلم عندما نصح ألا يختار الإنسان للزواج فتاة شديدة القرابة به فقال : « اغتريوا لا تتزوا » بمعنى أنه من الخير للفتى أن يختط فتاة بما دم يختلف عن دمه بحيث لا يكون الفتى والفتاة منحللين من أصول يقل فيها الدم الأجنبي ، ونصيحة الرسول ترمى إلى الاهتمام بسلامة الأولاد ، وقد أثبت الطب الحديث صحة هذا الاتجاه ، ففي حالة القرابة القرية قل أن ينجو الأطفال من الأمراض المرجودة بالأسرة أو العيوب الموروثة ، ولكن مع اختلاف الأمر يكثر أن يفلت الأطفال من عيوب أهل الأب وأهل الأم .

مكرمات الرسول

هذا الموضوع في تقديرى شديد الأهمية ، لأنه يصحح خطأ شائعاً ، فلا شك أن الدارس للسيرة النبوية يواجه مكرمات عظيمة حدثت للرسول صلوات الله عليه سبّروى فيها بعد نماذج منها ، ولكن بعض الناس يذكر أنها معجزات للرسول دون أن يفرّق بين المعجزة والمكرمة ، وهذا خطأ كبير ، ونريد هنا بادية ذى بدء أن نوضح كلا من المعجزة والمكرمة والمكرامة .

فالمعجزة أمر خارق للعادة . يعجز البشر عن الإتيان بمثله ، يقلعه رسول من رسل الله على وجه التحدى دليلاً على صدقه ، وتحمل المعجزة معنى قول الله تعالى : « صدق عبدى فيما يبلغه عنى » ، وعلى هذا فالمعجزة شيء يتخدى الرسول به ليؤكد للناس صدقه فى الدعوة التى جاء بها ، ورسول الله لهذا مأمورون بإظهار المعجزات ليقدموها أدلة على صدقهم حتى يجذبوا الناس للدعوة التى يقدمونها .

أما المكرمة فلون آخر يهبه الله للرسول تكريماً لهم وإضفاء لعنابته بهم ، أو حلاً لمشكلة تواجههم فى وقت من الأوقات ، ولا يقدم الرسول المكرمة للتحدى . وليس واجبا عليه إظهارها ، وهذان هما الفرق بين المعجزة وبين المكرمة .

أما الكرامة فشئ ليس عادياً يقع على يد إنسان أو يقع لإسان قريب من الله أو مجاهد فى سبيله ، ويجب على من تقع له الكرامة أن يسترها ويخفيها . ولا يجوز له أن يتحدث عنها . ولا أن يعتقد بإمكان إظهارها (١)

وعلى هذا فالقرآن الكريم هو المعجزة الخالدة للرسول صلى الله عليه

(١) الرسالة القشيرية : باب كرامات الأولياء ج ٢ ص ٧٠٣ .

وسلم ، وقد قدمه الرسول متحديا به البلغاء والفصحاء في كل زمان ومكان ، قال تعالى :

— أم يقولون تقوله . بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين^(١) .

— قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا^(٢) .

— أو يقولون افترأه قل فأتوا بعشر سور مثله مفريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله أن كنتم صادقين : فإن لم تنفعلوا ولن تفتعلوا فأتوا بالنار التي وقردها الناس والحجارة^(٣) .

— وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله^(٤) .

والقرآن الكريم يُعجز بأسلوبه ، ويُعجز بالفكر الذي ورد فيه ، فثلا هنالك كما هو معروف أحداث قطع بها ، فقد وردت سورة ثبت بدا أي لب ، وهي تقرر أن أبا لب سيصلى نارا ذات لب ، أي أنه لن يدخل الإسلام وفي هذا كل التحدي ، ومثل هذه الآيات وردت عن الوليد بن المغيرة ، وقد أوردناها من قبل ، ولم يدخل أبو لب الإسلام ولا دخل الوليد من المغيرة ، فالث سببانه عالم تماما بأن هذا وذاك لن يدخل الإسلام فقرر لهما النار ، وعلم المستقبل لا يكون لغير الله تعالى ، ويتضح هذا الوضع لو تذكرنا أن الرسول صلات الله ضاق بأبي سفيان بن حرب والحارث بن هشام وعمرو بن العاص فدعا عليهم وتمنى لهم الهلاك فنزل قوله تعالى : ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم^(٥) ، ، وبجنى هذا كما يقول ابن العسحق^(٦) ليس لك من الحكم شيء في عبادي إلا ما أمرتك به فيهم ، فقد أتوب عليهم . وقد أسلم هؤلاء جميعا وحسن إسلامهم ، ومات الحارث بن هشام شهيدا

(١) سورة الطور : الآيتان ٢٣ - ٢٤ .

(٢) سورة هود : الآية ١٣ .

(٣) سورة البقرة : الآيتان ٢٣ - ٢٤ .

(٤) سورة البقرة الآية ٢١ .

(٥) سورة آل عمران الآية ١٢٨ .

(٦) سيرة ابن هشام : ج ٣ ص ١٩ .

بالشام ، وكان الرسول يقول عن عمرو بن العاص : أسلم الناس وآمن عمرو . وهذا هو الفرق بين علم الله وعلم سواه ، وذلك نوع من إعجاز الفكر ، دليل على أن القرآن من عند الله ، أما إعجاز القرآن بأسلوبه فالحديث عنه طويل ، وقد أوردته بإفاضة في كتابي « تاريخ التشريع الإسلامي » .

في خضم هذا البيان نقرر أن الرسول صلوات الله عليه منحه الله مكرمات عظيمة لرفع قدره وشموه بعنايته تعالى . ولكن هذه ليست للتحدي فهي ليست معجزات ، ومن أهم هذه الأشياء الإسراء والمعراج الذي يقول بعض المتحججين إنه معجزة قائمين بين المعجزات بها عنصران ضروريان هما : أن تقدم للناس ، وأن تكون للتحدي ، أما الإسراء والمعراج وهما في رأي حدثا بالروح والجسد كما شرحت من قبل ، لكن لم يقدمهما الرسول للناس كدليل على نبوته ، ولم يكن يتحدى بهما ، وإنما قصصهما على الناس ، فصدقه المسلمون صادقوا الإيمان وكذبه الضالون ، وقد شرحنا ذلك من قبل ، عند حديثنا عن الإسراء والمعراج .

وهناك مكرمات كثيرة حدثت للرسول في ظروف مختلفة ، وكان أكثرها يحدث للرسول وهو بين المسلمين الذين سبق لهم الإيمان ، ولم يقدمها الرسول لغیر المسلمين دليلا على نبوته ، وهذا يخرجها من نطاق المعجزات ، وسنروى فيما يلي بعض هذه المكرمات :

في طريق الرسول من مكة إلى المدينة مهاجراً مَرَّ بِأَمِّ مَعْبِد «عاتكة بنت خالد» فأنت الرسول بشاة قليلة الدرّ ليدبحها ويأكل منها هر ورفاقه . فسمح الرسول ضرعها . فامتلاً ضرعها باللبن ، فقال الرسول لأمِّ مَعْبِد : لا تذبحيها وانضعي بلبنها ، فاستجابت له ، وأنت بشاة أخرى ذُبِحت وطبخ لحمها لحم : فأكل الرسول صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعامر بن فهيرة وأعطتهم أمِّ مَعْبِد معهم بعض لحمها لطعامهم في الطريق وبني عندها أكثر لحمها ، قالت أمِّ مَعْبِد : لقد بقيت للشاة التي مسح رسول الله ضرعها إلى عام الرمادة سنة ١٨ هجرية ، فكنا نحبها صبوحة وغبوقاً حتى عندما جفت الأرض ولم يبق من الزرع والمرعى قليل ولا كثير (١) .

(١) البلاذري : أنساب الأشراف ص ٢٦٢ والرسالة النّبانية للجاحظ ص ١١٢ .

وعندما كان المسلمون يحفرون الخندق اشتدت عليهم في بعض الأماكن كُدَيْة ، فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعا بإناء فيه ماء ، فتمضمض فيه ، ودعا الله ببعض الأدعية ، ثم نضح الماء على الكدية ، ويقسم من حضروا حفر الخندق أن الكدية أصبحت بعد ذلك كالكتيب لا ترد فأسا ولا مسحاة (١) .

وبينما كان المسلمون يحيطون بالخندق وقد مسهم الجوع ، مرت برسول الله أخت النعمان بن بشير ومعها تمر أرسلته به أمها إلى أبيها بشير بن سعد وخالها عبد الله بن رواحة ، فقال لها الرسول : تعالى يا بنية ، ما هذا الذي مأك ؟ قالت : يا رسول الله هذا تمر بعثني به أمي إلى أبي وخالى يتغديانه ، فقال : هاته . قالت : فصبيته في كفي رسول الله صلى الله عليه وسلم فما امتلأت كفاه ، ثم أمر بثوب فبسطه ، وألقى عليه التمر ، وقال لأحد جلسائه : اصرخ في أهل الخندق أن هلموا إلى الغذاء ، فاجتمع أهل الخندق عليه ، وجعلوا يأكلون منه حتى عادوا عنه ، ولا يزال فوق الثوب تمر يتساقط من أطرافه (٢) .

وقصة أخرى مماثلة حدثت في الخندق أيضاً يرويها جابر بن عبد الله بقوله : عملنا مع رسول الله في الخندق ، وكانت عندي شوية غير سمينة ، فقلت لو صنعناها لرسول الله ﷺ ؟ فذكرت ذلك لامرأتى ، فطحنت لنا شيئا من شعير وصنعت منه خبزاً ، وذبحت تلك الشاة نشويناها ، فلما أمسينا وأراد الرسول الانصراف عن الخندق - وكنا نعمل فيه نهارة فإذا أمسينا رجعنا إلى أهلنا - قلت يا رسول الله : إني قد صنعت لك شربة كانت عندنا وصنعنا معها شيئا من خبز الشعير ، وأحب أن تنصرف معي إلى منزلي ، فقال الرسول : نعم ، ثم أمر صارخا فصرخ أن انصرفوا مع رسول الله إلى بيت جابر بن عبد الله ، قال جابر : فقلت : إنا لله وإنا إليه

(١) ابن هشام ج ٣ ص ١٢٩ .

(٢) ابن هشام : ج ٣ ص ١٣٠ .

راجعون! وكيف لي بطعام لكل هؤلاء . فأقبل الرسول وأقبل الناس معه . وأخرجنا ماعتدنا من طعام . فسمي الرسول باسم الله . وبدأ يأكل هو ومن معه . وكلما فرغ قوم قاموا وجاء غيرهم . حتى نال أهل الخندق جميعا حاجاتهم من الطعام^(١) .

وأقحط الزراع حول المدينة حيناً . فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فشكوا ذلك إليه ، فصعد رسول الله المنبر واستسقى . فحالت أن انهمر المطر ، فجاءه سكان المدينة يشكون الغرق ، فدعا الرسول ربه قائلاً : اللهم حوالينا ولا علينا ، فأنجاب السحاب عن المدينة ، فصار حواليا كالإكليل . فقال رسول الله : لو أدرك أبو طالب هذا اليوم لسرّه ذلك ، وكان الرسول يشير بذلك إلى بيت من قصيدة أبي طالب يمدح الرسول ويؤكد أن الرسول يُستسقى به ... وهذا البيت هو :

وأبيض يُستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل^(٢)

وفي عام الوفود حضر إلى الرسول وفدٌ غادر أراد أن ينهز فرصة كثرة الوفود ليندس بينها للنيل من الرسول صلوات الله عليه . وكان ذلك وفد بني عامر بقيادة عامر بن الطفيل ، وإربد بن قيس ، وجبار بن سلمى ، وكان عامر قد اتفق مع إربد على أن يشغل بالحديث الرسولَ حينئذٍ يعلوه إربد بالسيف . وتم اللقاء ، وأخذ عامر يشغل الرسولَ ويناقشه وينتظر من إربد أن يتفد ما اتفقا عليه . ولكن إربد لا يفعل ، وخرج الوفد ، فصرخ عامر في إربد : كيف لم تنفذ ما اتفقنا عليه ؟ قال إربد : لا تعجل عليّ . فوالله ما هممت بالذي أمرتني به إلا دخلت بيني وبينه حتى ما أرى غيرك ، أفأضربك بالسيف^(٣) ؟

ولم يعلن الوفد إسلامه . وأحس الرسول الغدر من زعماء الوفد ،

(١) المرجع السابق : نفس الصفحة .

(٢) المرجع السابق : ج ١ ص ٢٥٢ . وثمال اليتامى أى غياثهم ومعينهم .

(٣) اس مشم ج ٤ ص ١٥٨ - ١٥٩ .

فدعا عليهم ، فلم يصلوا إلى بلادهم ، فقد أكل الطاعون عامر بن الطفيل ،
ومرت صاعقة على إربد فأحرقتة^(١) .

وأحب في ختام هذه المأذج أن أقرر أن هذا التكريم للرسول عند
بعض الأزمات شيء طبيعي ، ومثله يحدث لغير الرسل أحيانا ، فالله بكرم
أصفياه في كثير من الأحوال ، ويفتح لهم أبوابا لم يتوقعوها ، وإن أي رجل
مؤمن يمكنه أن يتذكر ألوانا من عون الله إليه ، وصدق الله العظيم الذي
يقول « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب »^(٢) .

(١) المرجع السابق .

(٢) سورة الطلاق : الآية الثالثة .

الرسول والمنافقون

طبيعة المنافقين أنهم لا يظهرون إلا إذا كان عدوهم أقوى منهم . ومن هنا فلم يكن هناك منافقون قبل الهجرة ، لأن المسلمين كانوا أقلية لا يربها المشركون ، ومن ثم لم يكن أعداء الإسلام في حاجة ليلجئوا للنفاق ، فلما اشتد ساعد الإسلام بعد الهجرة للمدينة ، وأصبح المسلمون أحباب جاه وسلطان بهذا المركز الجديد ، لم يستطيع أعداؤهم بالمدينة أن يواجهوهم بعقيدتهم المنحرفة وكراهيتهم للإسلام ، قالوا للنفاق ، أظهروا الإسلام وأنفخوا الكفر .

والنفاق أخطر من العداء الصريح ، ففي العداء السافر يتخذ المسلمون أمبتهم ويكونون على حذر ، ولكن النفاق كان سائراً لأعداء الإسلام ، وكان يمكن أن يكون مصدر خطر لولا أن الله سبحانه كشف أستارهم من حين لآخر مما جعل كيدهم يرتد إلى نخورهم في أكثر الأحوال كما سنرى فيما بعد .

عبد الله بن أبي :

وزعامة النفاق بالمدينة تركزت في عبد الله بن أبي بن سلول الخزرجي ، ويقول عنه ابن هشام (١) : لم تجتمع الأوس والخزرج قبل الإسلام على رجل غيره ، وكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه ، ثم يملكوه عليهم ، فجاءهم الله برسوله صلى الله عليه وسلم وهم على ذلك ، فلما انصرف قوم عبد الله عنه إلى الإسلام ضغن ، ورأى أن رسول الله قد استلبه ملكا ، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه ظاهراً وأسر النفاق .

أبو عامر الراهب ومسجد الضرار :

وهناك زعيم آخر آزر عبد الله بن أبي ، ذلك هو أبو عامر عبد عمرو ابن صيني من الأوس ، وكان في قومه شريفا مطاعا ، وكان قد ترهب في

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٦٦ - ١٦٧ .

الجاهلية، وليس المسوح فسمى الوهاب . ولكن هذا الرجل لم يتجه للنفاق، بل خرج من المدينة إلى مكة وانضم إلى قريش في عدائهم لمحمد، فلما فتح المسلمون مكة خرج إلى الطائف ، فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام ومات هناك ، وصلة هذا الرجل بالنفاق أنه كتب إلى بعض أتباعه من المنافقين بالمدينة أن يبنوا مسجدا بالقرب من مسجد قباء يتجمعون فيه ، ويدبرون مكائدهم ضد الإسلام ورسول الإسلام متخذين من هذا المسجد وسيلة للتخفي ، وقد استجاب هؤلاء له وبنوا هذا المسجد ، وانتهوا منه قبيل غزوة تبوك ، وطلبوا من الرسول أن يصلي فيه ، فاستمهلهم حتى يعود من تبوك

وعند عودته نزل عليه قوله تعالى « والذين اتخلوا مسجدا ضارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون ، لا تقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين (١) » .

وعندما نزلت هذه الآيات أمر الرسول بعض أصحابه أن يذهبوا ويدمروا هذا المسجد الذي سماه القرآن « مسجد الضرار » وذهب أصحاب الرسول ودمروه (٢) .

ويعدد البلاذري (٣) منافق المدينة وأهمهم من الخزرج : عبد الله بن أبي وعدى بن ربيعة وابنه سويد ، وزيد بن عمرو ، وعقبة بن قديم ، وأهمهم من الأوس الجلاس بن سويد وأخوه الحارث ، ومجاد بن عثمان ، وثعلبة بن حاطب ، وأبو حبيبة بن الأزعر وهو ممن نوا مسجد الضرار .

(١) سورة التوبة الآيتان ١٠٧ - ١٠٨

(٢) البلاذري : أنساب الأشراف ٢٨٢ - ٢٨٣ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٧٤ - ٢٧٥ .

اليهود والنفاق :

وهناك مركز آخر للنفاق بجوار مركز عبد الله بن أبي . وهو مركز تجمع اليهود الذين تظاهروا بالإسلام وهم يضمرون العداوة له ، ويتحدث ابن هشام ^(١) عن هذا المركز بقوله : وكان ممن تعوذ بالإسلام وأظهروه وهم منافقون بعض أحبار اليهود مثل : سعد بن حنيف وزيد بن اللصيت . ونعمان بن أوفى بن عمرو ، وعثمان أخوه ، ويروى عن زيد بن اللصيت أنه قال حين ضلت ناقة رسول الله : يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء ، وهو لا يدري أين ناقته ، وأوحى الله للرسول بما قال الرجل وبمكان الناقة ، ومنهم كذلك رافع بن حريملة وهو الذي قال الرسول عنه حين مات ، لقد مات اليوم منافق عظيم ، وكان هؤلاء المنافقون يحضرون المسجد ويسخرون من المسلمين حيناً ويتسمعون أحاديثهم حيناً آخر لينقلوها لباقي اليهود ولأعداء الإسلام ، وقد رآهم الرسول صلى الله عليه وسلم مرة وقد لصق بعضهم إلى بعض وأخذوا يتحدثون همساً ، فأمر بهم فأخرجوا من المسجد إخراجاً عنيفاً ، وكان المسلمون يدفعونهم خارج المسجد وهم يقولون أف لكم من منافقين خبيثاء ، أخرجوا من مسجد رسول الله ، وكان هؤلاء من يهود بني قينقاع .

وكان برؤس النفاق في المركزين (مركز ابن أبي ومركز اليهود) عقب غزوة بدر وانتصارات المسلمين فيها . وذلك تمشياً مع ما ذكرناه من قبل من أن النفاق يظهر في مواجهة القوة والنصر .

المنافقون في غزوة أحد :

وفي مسيرة المسلمين إلى غزوة أحد وَجَدَ النفاق وسيلة ليعمل ويؤثر . تتدأ تخزل عبد الله بن أبي بثلاث الجيش ، وقال عن الرسول « أطاع الأحداث وعصاني . وما ندرى علام تقتل أنفسنا أيها الناس » وحاول بعض المسلمين أن يشروه عن هذا التصرف فقال قولةً حكاهها عنه القرآن الكريم في الآية

(١) سيرة ابن هشام ص ١٢٥ .

« لو تعلم قتالا لاتبعناكم ^(١) » وقد ضعف جيش المسلمين بسبب انسحاب عبد الله وأتباعه ، ولعل ذلك كان من أسباب هزيمة أحد .

وكشف منافقو المركزين عن فرحهم بما أصاب المسلمين في غزوة أحد ، وأعلنوا شياთهم ، فتظاهر عبد الله بن أبي وأعوانه بالحكمة لأنهم لم يدخلوا هذه المعركة ، وقالوا عن القتلى « لو أطاعونا ما قُتلوا ^(٢) » وأما اليهود فراحوا يعلنون أن محمداً لو كان نبيا ما هزم ، ولكنه طالب ملك؛ يتصر أحيانا ويهزم أحيانا .

المنافقون عند حفر الخندق :

وفي الجهد الذي بذله المسلمون لحفر الخندق كان المنافقون يتسللون من العمل ويعودون لبيوتهم بدون إذن الرسول ^(٣) ، فنزل فيهم قوله الله تعالى « قد يعلم الذين يتسللون منكم لواذا ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره . أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ^(٤) » .

المنافقون عقب غزوة بني المصطلق :

ونزلت النوازل بالمركز اليهودى المنافق بعد أن طُرد بنزق قينفاع من المدينة ، وبعد أن طرد كذلك بنو النضير ، وقضى على بنى قريظة كما سرى فيما بعد ، فألقت مسئولية النفاق كله على عبد الله بن أبي وصحبه ، وقد ثابر هذا الرجل على بذل أقصى الجهد لينجح في مهمته الدنيئة ، وقد شهدت غزوة بني المصطلق موقفين خطيرين لموكب النفاق ، أما الموقف الأول فمحاولة عبد الله بن أبي أن يشعل نار الفتنة بين المهاجرين والأنصار عندما اقتبل واحد من المهاجرين مع أنصارى وهتف الأول : يا معشر المهاجرين وهتف الثانى : يا معشر الأنصار ، وقد تدخل الرسول بحزم بالغ

(١) سورة آل عمران الآية ٦٦ . (٢) ابن هشام ج ٤ ص ١٧ .

(٣) ابن هشام : السيرة ج ٣ ص ١٠٩ .

(٤) سورة النور الآية ٦٤ .

معلنا أن هذه الصيحة صيحة جاهلية وهى صيحة فتنة . وقد وحّد الإسلام الجميع فلتكن الصيحة : يا للمسلمين ، وماتت الفتنة بسبب هذا الموقف العظيم من الرسول صلوات الله عليه ، ولكن المنافق عبد الله بن أبي أن يضيع هذه الفرصة ، فصاح : قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا ، ولقد أصبحنا معهم كما قال الأول « سَمْنٌ كَلْبِكَ يَا كَلْبُكَ » أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، وكان ممن سمع ذلك منه مسلم صالح ، هو زيد بن أرقم ، فأخبر عمر بذلك وأخبر عمر الرسول قائلا : مُرْ به ابنه عبد الله فليقتله ، ولكن الرسول قال : كيف يا عمر إذا تحدث الناس بأن محمدا يقتل أصحابه ؟ وعالج الرسول الأمر بطريقة أخرى كلها حكمة وذكاء ، فقد أمر بالرحيل في ساعة لم يكن يرتحل فيها ، وأطال الرحلة دون راحة على غير عادته ، حتى تعب المسلمون ، فلما حطوا الرحال للراحة ناموا جميعا لفراط الجهد ، وبهذا لم يكن هناك وقت للنقاش حول هذا الموضوع .

وعرف عبد الله بن عبد الله بن أبي أن هناك اقترحا بقتل أبيه فذهب للرسول ليقول له : يا رسول الله ، إن كنت آمراً بقتل أبي فرتني بذلك أنفذ أمرك ، لأنني أخشى إن قتله غيري ، أن أثار لأبي فأقتل مسلماً بكافر . فقال الرسول : بل تترقب به وتحسن صحبته ما بقى معنا .

وذهب ابن أبي إلى الرسول ينكر أنه قال ما حمّله إليه زيد بن أرقم ، ولكن سرعان ما نزلت في ذلك سورة « المنافقون » وكلها حكاية لهذا الرجل المنافق ، وفيها ما قال ضد المهاجرين « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » ولكن الآية الكريمة تستمر لتقول « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون » (١) .

هذا هو الموقف الأول لهذا المنافق المرتبط بغزوة بنى المصطلق ، أما الموقف الثاني فيرتبط بحديث الإفك الذى لا نحب أن نجول فيه ولا أن نجول فيه المسلمون خضوعاً لقلوبه تعالى « ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا

(١) سورة المنافقون الآية الثامنة ، وانظر ابن هشام : السيرة النبوية ج ٣

أن تنكلم بهذا، سبحانه هذا بهتان عظيم، وكل ما نذكره عنه هو أن السيدة الطاهرة النقية بنت أبي بكر الصديق وزوجة خاتم الرسل وأعظمهم ترمى بالفاحشة ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، وعلى كل حال فقد انتهز ابن أبي هذه القرية ليصول ويجول لا اعتقاداً بصحة هذه القرية ، ولكن لمحاولة وضع الأشواك حول الرسول ، فذلك هو الهدف الذي كان يسمى له ، وقد نزلت آيات الذكر الحكيم . تقرر طهارة عائشة وتهديد الوليل والثبور أولئك الذين قالوا بهذه القرية أو أيلوها ، قال تعالى : إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ، لا تحسبوه شراً لكم . بل هو خير لكم ، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم ، والذي تورى كبره منهم له عذاب عظيم ، لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين ، لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم ، إذ تلقونه بالسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهم عند الله عظيم (١) .

المنافقون بعد فتح مكة :

وفتحت مكة في العام الثامن للهجرة ، ودخل أهل مكة في دين الله ، ولم يدخل هؤلاء جميعاً عن عقيدة وإيمان راسخ ، بل كان منهم من دخل إذ لا طريق أمامه إلا ذلك الطريق ، ومن دخل حرصاً على المغنم التي كان المسلمون ينالونها في حروبهم ضد العرب وضد اليهود ، ومن هنا وُجد منافقون مكبون انضموا لموكب المنافقين ، وكان هؤلاء من أوائل الذين فروا في غزوة حنين التي حدثت بعد أيام من فتح مكة .

المنافقون في غزوة تبوك :

كانت غزوة تبوك اختباراً عظيماً نجح فيه المؤمنون صادقوا الإيمان ، وفشل فيه المنافقون وضعاف الإيمان ، فالمعركة مع الروم ، بقوتهم ، وبعد

(٢) سورة النور الآيات ١١ وما بعدها وانظر سيرة ابن هشام ج ٣ ص ١٨٧ وما بعدها .

أرضهم ، والمركة في وقت القبط والحصاد ، فكانت هذه الغزوة وسيلة انتزها المنافقون فأعلنوا عن نفاقهم ، ومخالفتهم ، وأعلن القرآن الكريم مخطط الله على هؤلاء ومن سار سيرتهم في عدم تأييد المسلمين في هذه المركة وحدثت في هذه الغزوة أحداث من المنافقين ومماثلهم نوجزها فيما يلي :

- جاء المعذرون من الأعراب فاعتذروا للرسول ، فلم يعذرهم الله تعالى .
- خرج عبد الله بن أبي مع الرسول ، وعسكر الرسول على ثنية الوداع ، وعسكر عبد الله بن أبي على جبل ذباب غير بعيد من معسكر الرسول فلما سار الرسول بعسكره لم يتابعه عبد الله بن أبي وتخلف عنه وعاد للمدينة .
- خلف الرسول محمد بن مسلمة الأنصاري على المدينة ، وترك ابن عمه على بن أبي طالب ليقم في أهله وأهل الرسول ، فأرجف المنافقون ، بأن الرسول ترك عليا استقالا له وتخلصا منه ، فأخذ على سلاحه ولحق بالرسول ، وبلغه قول المنافقين ، فقال الرسول له : كذبوا ، لكني تركتك لتخلفني في أهلي وأهلك ، ارجع يا علي فلن يحبك إلا مؤمن ولن يبغضك إلا منافق . فعاد على ^(١)

وفي مواقف المنافقين وأمثالهم في هذه الغزوة نزلت آيات كثيرة من سورة التوبة نقتبس منها : لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ، ولكن بعدت عليهم الشقة ، وسيحلفون بالله لو استطعنا اخرجنا معكم ، يهلكون أنفسهم ، والله يعلم أنهم لكاذبون ، عفا الله عنك . لم أذن لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ^(٢) :-

نهاية عبد الله بن أبي ونهاية تجمع المنافقين :

امتد العمر بعبد الله بن أبي فلم يمض إلا بعد غزوة تبوك ، ولما مات حضر ابنه عبد الله إلى الرسول فسأله قميصه ليكفن به أباه لعل الله يغفر له ، فاستجاب له الرسول تكرما له وأعطاه القميص ، ثم سأل عبد الله أن يصلي الرسول

(١) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١١٩ وما بعدها .

(٢) سورة التوبة الآيات ٤٢ وما بعدها .

عليه ، فاستجاب الرسول أيضاً ووقف أمام جثمانه ليصلى عليه ، ويروى أن عمر بن الخطاب وقف أمام الرسول وقال له : أتصلى على عدو الله الذي قال كذا وكذا وفعل كذا وكذا وكان الرسول يبتسم لعمر ، ثم قال له : يا عمر ، تأخر عني ، إني قد خيَّرت فاخترت (١). وصلى عليه ، وسار حتى دفن والرسول واقف على قدمه ، ثم نزل قوله تعالى « ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ، ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله ومانوا وهم فاسقون » (٢) ، وبموت عبد الله بن أبي انهار موكب النفاق وتشتت المنافقون بعد أن اختفى الرجل الذي كانوا يحتمون به ويلتفون حوله .

ولتذكر في ختام هذا البحث أن سطوة عبد الله وأتباعه امتدت كما رأينا من مطلع الحياة بالمدينة إلى قبيل وفاة الرسول صلوات الله عليه ، وهذا يرينا الجهد المتواصل من أجل الدعوة الإسلامية ليس فقط في مكة ، وليس فقط من قريش أو اليهود أو الأحابيش أو هوازن بل أيضاً من جماعة المنافقين الذين تظاهروا بالإسلام وهم من ألد أعدائه ، ورحمك الله يا رسول الله على ما عانيت من جهد حتى تم نور الله .

(١) يقصد الرسول قوله تعالى « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم » فالرسول أخذ الآية على ظاهرها على أنها تخيير له .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٤٥ - ١٤٦ والآية رقم ٨٥ من سورة التوبة

الرسول والنصارى

يقول الله تعالى « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى » (١) ، والحق أن الدارس للتاريخ الإسلامى يجد مدلول هذه الآية واضحا كل الوضوح ، فقد عارض اليهود الإسلام بقسوة وقامروا على المسلمين من حين إلى آخر ، ووقف النصارى من المسلمين مواقف فيها الكثير من الود ، وكان اعتناقهم الإسلام سهلا في حالات كثيرة متعددة .

ربما يخطر ببال القارىء ما عاناه المسلمون من الصليبيين ، والإجابة أن الصليبيين يُحسبون ظلما على دين المسيح ، ولم يكن هؤلاء ولا أمثالهم المستعمرون في العصور الحديثة إلا مسيحيين بالاسم يعد أن فسدت المسيحية بالعقائد التي ابتكرها بولس (٢) . ومع أن عقائد بولس أصبحت منذ عهد مؤتمر « نيقية » سنة ٣٢٥ م هي عقائد المسيحيين في الشرق والغرب ، فإن المسيحيين الشرقيين حافظوا على بقايا من روح المسيحية جعلتهم أقرب مودة للمسلمين حتى العهد الحاضر ، وجعلت العقلاء منهم شديدي التمسك نفسيا بالتراث المسيحى الأصيل ، ويمكن أن نحس طيب التعاون والتعامل بين المسلمين والمسيحيين في مصر نتيجة لهذا الاتجاه ، وإذا واجهنا يوما اتجاه تآمر وعدوان بين المسلمين والمسيحيين في الشرق فذلك انحراف طارئ تأثر فيه بعض المسيحيين الشرقيين بالصليبية الأثيمة ، وربما جاز القول أن بعض المسلمين قد يخطئون فيعاملون المسيحيين الشرقيين كما نعودوا أن يعاملوا المسيحيين الصليبيين أو المسيحيين المستعمرين ، ولو أزلنا هذا الإحساس لعاد المسيحيون إلى الوصف الذى سجله لهم القرآن الكريم ، وأشهد الله أننى رأيت هذا اللون من التعاون والود عدة مرات ، وكان بهيج المنظر ، رائع النتائج .

(١) سورة المائدة الآية ٨٢ .

(٢) انظر هذه العقائد بكتاب « المسيحية » من سلسلة مقارنة الأديان المؤلف .

تلك مقدمة لم يكن منها بد ، لأننا رأينا موقف نجاشي الحبشة من المسلمين ، وسرى فيما يلي علاقات الرسول بالنصارى في الجزيرة العربية طيلة حياة الرسول عليه السلام :

يقول ابن هشام^(١) : قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد نصارى نجران ، وكان مكوناً من ستين راكباً ، فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم ، وضمن الأربعة عشر رجلاً ثلاثة يتولون الأمر فيهم ، أحدهم أمير القوم ، والثاني منظم الرحلة والمشرف عليها ، والثالث الأسقف وهو الحنّسبر والإمام ، واسم هذا «أبو حارثة» وكان ملك الروم قد شرفوه ومولوه وبنوا له الكنائس وبسطوا له الكرامات . وفي الطريق إلى رسول الله عثرت بغلة «أبي حارثة» فقال أخوه «كوز» : تعس الأبعد « يقصد الرسول » تنجى له وتعثر ناقتك ؟ فقال له أبو حارثة : بل أنت تعست . فدُهِشَ كوز وسائل : ولم يا أخى ؟ فأجابه : انه والله النبي الذي كنا ننتظره . فسأل أخوه : ولم لا تتبعه وقد عرفته ؟ فأجاب : الروم يا أخى ، فقد شرفونا ومولونا وأكرمونا ، وقد أبو إلا خلافه ، ويقول ابن هشام : وقد أضمر «كوز» في نفسه شيئاً وسرعان ما أعلن إسلامه .

وقد جرت محاورة بين الرسول وبين النصارى ، وأمدّ القرآن الكريم رسول الله بالهدى والرشد في هذه المحاورة فتم له النصر ، فقد قال تعالى راداً على من قال بالوهمية المسيح وأنه روح الله يمتاز بذلك عن باقي البشر : « هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء » أى أن عيسى كان ممن صُوِّر في الأرحام ، وهم لا يدفعون ذلك ولا ينكرونه كما صور غيره من بنى آدم ، فكيف يكون لها وقد كان بذلك المنزل^(٢) .

وكان دخول «كوز» الإسلام فاتحة تدفق نصارى نجران على الإسلام ، على أن جماعة منهم احتفظوا بدينهم بضع سنوات ، حتى بعث الرسول لهم خالد بن الوليد قبيل حجة الوداع وسرعان ما استجاب هؤلاء لخالد ، ودخلوا

(١) السيرة النبوية ج ٢ ص ١٥٨ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٦١ .

دين الله ، فبعث خالد وفداً منهم إلى المدينة . واستقبل الرسول هذا الوفد بالترحيب والمودة^(١) .

عدى بن حاتم :

وهناك نصراني يستحق فسحة من الفراغ هو عدى بن حاتم الطائي ، وأبوه أشهر المشاهير في الكرم والجود ، وقد روى البخاري بعض قصة عدى ، وروى ابن هشام^(٢) بعضاً منها ، وكتبها بعض المؤرخين المحدثين^(٣) و نرجزها فيما يلي :

يروى ابن هشام أن عدى بن حاتم قال : كنت امرءاً شريفاً نصرانياً ، وكنت ملكاً على قومي ، وأسير فيهم بالمرباع ، أخذ ربع الغنيمة وأدع الباقي لهم ، فلما سمعت بمحمد كرهته لخالفته لي في الدين وفي العادات ، وكنت أخاف زحف المسلمين . فقلت لفلان لي أعد لي عدداً من النوق القريبة ، واجعلها قريباً مني ، فإذا سمعت بجيش محمد يبطأ هذه البلاد ، فأذني ، ففعل . وبعد فترة جاءني مهرولاً وقال : ما كنت صانعاً إذا غشيتك خيل محمد فاصنعه الآن ، فإن رايات محمد على وشك أن تصل هذه الأرض ، قال عدى : فممت من فوري وفي عجلة من أمرى احتملت أهلي وولدي ، وقلت ألتحق بأهل ديني من النصاري بالشام ، وبسبب هذه العجلة لم يصحب عدى أخته « سفانة » التي يبدو أنها كانت بعيدة آنذاك عن خيام أخيها .

وكان الرسول صلوات الله عليه حزم أمره على الإقضاء على عبادة الأوثان في الجزيرة العربية بعد أن تم فتح مكة ، وبعد الانتصار على هوازن وثقيف ، فأرسل الرسول على بن أبي طالب على رأس جماعة لهدم صنم طيء الذي كان لا يزال هناك من عبده . وفرّ عدى كما قلنا وتصدى بعض رجال طيء لعلي بن أبي طالب ، ولكنه سرعان ما هزمهم وأسر منهم

(١) دكتور محمد حسين هيكل : حياة محمد ص ٤٧٠ .

(٢) السيرة النبوية ج ٤ ص ١٦٦ وما بعدها .

(٣) دكتور محمد حسين هيكل : حياة محمد ص ٤٢٧ - ٤٢٨ وسيرة النبي العربي

للأستاذ أحمد التاجي ج ٢ ص ٢٢٠ وما بعدها .

وغنم ، وكانت « سفانة » ضمن الأسرى الذين أخذوا للمدينة ، ووُضعت سفانة في مكان خاص بالأسرى من النساء غير بعيد من مسجد الرسول صلوات عليه بالمدينة .

وننتقل بالمشهد إلى المدينة وكانت سفانة امرأة لها هبة وقدرة بلاغية ، وحدث أن مر رسول الله بالمكان الذي به سفانة ، فاشترأت له وهفت بقوة بنات الملوك ، وأجابه الرسول بحكمة الأنبياء ، فكان الحديث التالي :

— يا محمد ، هلك الوالد ، وغاب الرافد ، فامن على من الله عليك .

— ومن رافدك يا فتاة ؟

— عدى بن حاتم

— الفار من الله ورسوله !! .

وكانما أدركت المرأة بذكائها أن أخاها لا يصلح أن تستعين باسمه في هذه الأزمة ، فغيرت من أسلوها عندما رأت الرسول في مرة تالية ، وكان الحوار التالي :

— يا محمد ، هلك الوالد ، وكان سيد قومه ، كان يفك العاني ، ويحیی النمار ، ويفرّج عن المكروب ، ويطعم الطعام ، ويفشى السلام ، ويقضى حاجة من سألته أية حاجة ، أنا ابنة حاتم الطائي .

— يا جارية هذه صفات المؤمنين ومن حَقَّك أن نكرمك من أجل أبيك ، والتفت إلى من حرله وقال لهم : خلوا سبيلها فإن أباه كان يحب مكارم الأخلاق ، ولكن لا تعجل يا فتاة بالعودة حتى تجدى مَنْ يكون لك ثقة ليلغك إلى أهلك ، وآذيني قبل الرحيل .

وبعد فترة قضتها سفانة حرة طليقة بالمدينة جاءت للرسول لتقول له : يا محمد هنا رهط من قومي لي فيهم ثقة وبلاغ فأذن لي أن أصحبهم ، فكساها الرسول وحملها على راحلة وأعطاهم نفقة مناسبة تبلغها مآربها وسيرها معززة مكرمة ، فقالت له عبارات دعاء تعتبر قمة من البلاغة والفكر ونصها :

شكرتلك يد افتقرت بعد غنى ، ولا ملكتك يد استغنت بعد فقر ، وأصاب الله بمعروفك موضعه ، ولا جعل لك إلى لثيم حاجة ، وجعلك وسيلة لرد نعمة سئلت من كريم ، فسُرَّ الرسول بدعائها وسأل الله الهداية لقومها .

وبرحلة سفانة إلى الشام ينتقل المشهد إلى خيمة عدى الواسعة التي أقامها في أحضان نصارى الشام ودار حوار بين سفانة وأخيها عدى كالآتي :

— مرحبا يا ابنة حاتم .

— اغرب عني أيها القاطع رحمه ، احتملت أهلك وولدك ، وتركت عورتك وبقية أبيك .

— غفرانك يا أختي فما صنعت ما ذكرت إلا في ساعة هزل ، ولكن قولى لى ماذا رأيت في هذا الرجل ؟

— والله ما رأيت فيه إلا خيراً وقصّت عليه قصتها معه ، ثم قالت له : أرى والله أن تلحق به سريعا ، فإن يكن الرجل نبيا فللسابق إليه فضيلة ، وإن كان ملكا فلن تذلل عنده .

— هذا والله هو الرأى .

وانتقل المشهد إلى مسجد رسول الله بالمدينة ، فبينما كان الرسول جالسا في المسجد إذ دخل عليه رجل أعرابي تبدو عليه النعمة والمجد ، وسلم على الرسول فرد الرسول السلام ، وسأل الرسول : من الرجل ؟ فأجاب : عدى ابن حاتم ، وقد وصفه الرسول من قبل بأنه فر من الله ورسوله ، ولكن الفار عاد ودخل المسجد ، ولذلك احتفى به الرسول كعادته مع النصارى وكعادته مع الوافدين عليه ، وبخاصة الرؤساء وأصحاب الجاه الذين يُرجى أن يفتح إسلامهم الباب لإسلام العديد من أتباعهم ، ولهذا نهض الرسول إلى عدى ، وفرش له عباته وأجلسه بجواره ، ثم — بعد فترة — أخذ بيده ، وصحبه إلى بيته .

وفى الطريق عرضت للرسول امرأة لها حاجة فاستوقفت الرسول ، فوقف لها ، وطالت وقفته ليستمع إلى شكاة المرأة وليقضى حاجتها ، فقال عدى في نفسه : ما هذا ملك فالملوك لا يفعلون ذلك ، وفى بيت الرسول لم يجد عدى فراشا وثيرا ولا أى مظهر من مظاهر الترف ، وقدم الرسول لعدى حشية من ليف ليجلس عليها ، ولم تكن هناك حشية أخرى ليجلس عليها

الرسول ، فحدث عدى نفسه بأن محمداً ليس مملِكاً في مسكنه ومظهره
وخلقه ، ودار بين الرسول وبين عدى هذا الحوار :

— يا عدى تعتق النصرانية ولا تتبعها .

— كيف ذلك ؟

— تسير في قومك بالمرباع وليس هذا من المسيحية في شيء .

— هل أنت تعلم ديني أكثر مني ؟

— نعم ، فالقرآن الكريم فيه كثير عن النصرانية الحققة ، وأما ما تتبعه
فهو عادات عربية تحاول أن تخلطها بالدين .

يا عدى اسلم تسلم ، وإذا كنت ترى فينا فقراً الآن فوالله ليوشكن
المال أن يفيض على المسلمين فلا يجد من يأخذه ، وإذا كنت ترى فينا
ضعفاً فوالله لينتصرن المسلمون على أعنى قوى الأرض بعد وقت ليس
بالطويل ، وإذا كان الملك والسلطان في غيرنا فوالله ليوشكن أن تسمع
بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت للمسلمين ، يا عدى اسلم تسلم
فقال عدى : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

ويروى عن عدي قوله : وعشت حتى رأيت القصور البيض قد فتحت
للمسلمين ، ورأيت المال يفيض فيضا عليهم .

وهكذا كانت علاقة المسلمين بالنصارى علاقة فيها ود ، وفي كثير من
الحالات دخل المسيحيون الإسلام دون تردد طويل ، ولكن المسيحية عانت من
اضطراب في العقائد بسبب ولس ، ومن اتجاه للدم والسلب ، بسبب الفكر
الأوربي الذي كان فكراً دماً يا قبل أن تدخل المسيحية أوروبا ، فلما دخلت
المسيحية أوروبا صبغوها بالدم والأنانية بدل أن يأخذوا منها الرحمة والإيثار ،
لقد خسرت المسيحية خسارة كبيرة باتصالها بأوروبا ، خسرت عقائدها لأن
أفكار بولس تربت بأوربا ، وخسرت سماحتها لأن شعوب أوربا كانت
شعوب حرب وغارات فانعكس ذلك على الدين المسيحي ، ليت المسيحيين
بالشرق يرجعون إلى طبيعة المسيحية الحققة ، ولا يقتبسوا المسيحية الغربية .

اليهود والمسلمون

سبق أن قلنا إن اليهود كانوا يعرفون أن نبيا آن له أن يبعث ، لأن ذلك كان مدوّنًا في كتبهم المقدسة : وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله : (الذين يتبعون النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل . . .)^(١) وكان اليهود يذيعون ذلك ، وكانوا كلما تغلب عليهم عرب يثرب يقولون لهم : غداً نتبع النبي الجديد ونقوى به عليهم ، ونقتلكم قتل عاد وإرم^(٢) وبعث محمد وهدى الله أكثر الأوس والخزرج لقبول دعوته ، أما اليهود فلم يدخل الإسلام منهم إلا عدد ضئيل مثل عبد الله بن سلام بن الحارث^(٣) ، أما غالبيتهم العظمى فقد حكى القرآن موقفهم بقوله (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به)^(٤) وربما نتساءل : لماذا كفروا به مع أنهم كانوا ينتظرونه ؟ والجواب أنهم أرادوه أن يكون منهم ولهم ، وأن يقوى سلطانهم على الناس ويعلى مكانتهم ، ولكن الإسلام جاء على يد رجل من العرب وليس من اليهود ، وسوى الإسلام بين الناس فلم يُبغضهم شعباً مختاراً كما كانوا يقولون ، وأسرع عرب يثرب ودخلوا هذا الدين وكان اليهود يريدون الدين الجديد لينتصروا به على العرب ، فأما وقد دخله العرب قبلهم فلا فائدة فيه لهم بناء على تفكيرهم .

ومع هذا فقد أحسن الرسول معاملتهم ، وعقد معهم المعاهدة التي سبق أن تحدثنا عنها ، وترك لهم حرية العبادة وأعطاهم الحقوق التي كفّلها لهم الإسلام . وفي مقابل ذلك التزم اليهود بالتعاون مع المسلمين عسكرياً لحماية وطنهم المشترك إذا تعرض لعدوان ، والتزموا كذلك بالتعاون مادياً إذا حدث ما يحتاج إلى التعاون المادى . وكانت روح المعاهدة هو العمل المشترك لهدف مشترك ، غير أن اليهود - كما أثبت التاريخ ذلك - لم يكونوا

(١) سورة الأعراف الآية ١٥٧ (٢) ابن هشام ٢ : ٢٩٢

(٣) الذوى : تهذيب الأسماء ، القسم الأول ج ١ ص ٢٧١

(٤) سورة البقرة الآية ٨٩ .

مخلصين في عهدهم ، ولم يدخلوا في هذا العهد إلا ريثما يجدون لأنفسهم طريقاً آخر . فقد أحسوا منذ اللحظة الأولى أن الدين الجديد ينتزع منهم القيادة التي طالما افتخروا بها وهي الصلة بالله عن طريق الوحي ، وهي كذلك الافتخار بكتاب مقدس من عند الله .

وزاد حقد اليهود حيناً رأوا دين محمد ينمو نمواً واسعاً في أقصر مدة عرفها التاريخ ، فاليهود يعرفون كيف تعثرت اليهودية ، وكيف حوربت المسيحية عدة قرون ، ولكن انتصار محمد بدا يتحقق في حياته وبعد سنين قليلة من بدء دعوته وبخاصة عند ما تمت الهجرة وظهر الطريق ممهداً للنجاح الكامل .

وعقد اليهود العزم على المقاومة واتخذت مقاومتهم للإسلام جانب الصراع الفكري تاركين الصراع العسكري لقريش ، فبدءوا بالجدل الذي قصدوا به أن يشككوا الناس ويردون المسلمين عن الإسلام ، وأثاروا لذلك مسائل كالقضاء والقدر وخلق الأفعال ، وقد حكى القرآن ذلك الموقف بقوله (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره) (١) :

ومن ضلال اليهود أن قريشاً لما سألتهم لما لهم من معرفة بالأديان : يا معشر اليهود أنتم أعلم بالكتاب منا ، أفديننا خير أم دين محمد ؟ فأجابهم اليهود بأن دينهم أفضل من دين محمد ، وجاءت في ذلك الآية الكريمة « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجلبت والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً ، أولئك لعنهم الله ومن يلعبن الله فلن نعدهن له نصيراً » (٢) .

ومن التشكيك والتفصيل أيضاً تلك القصة التي نزلت فيها الآية الكريمة :

(١) سورة البقرة الآية ١٠٩ (٢) سورة النساء الآيات ٥١ ، ٥٢

(وقالت طائفة من أهل الكتاب : آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون^(١)) ، ويذكر المفسرون فى سبب نزولها أنه قد تواطأ اثنا عشر حبراً من أحبار يهود خيبر ، فقال بعضهم لبعض : ادخلوا فى دين محمد أول النهار باللسان دون اعتقاد بالقلب ، ثم أعلنوا كفركم آخر النهار وقولوا : إنا نظرنا فى كتبنا وشاورنا علماءنا ، فوجدنا أن محمداً ليس هو المبعوث الذى كنا ننتظره ، وظهر لنا كذبه . فلماذا فعلتم ذلك شك أصحاب محمد فى دينه واتهموه ، وقالوا عنا إنا أهل الكتاب ، وأعلم بذلك .

ولعل هذه الشبهة تجعلهم يشكون فى دينهم فيرجعون عنه .

ولما دبروا هذه الحيلة ، أخبر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بها ، فلم تتم لهم ، ولم يحصل لها أثر فى قلوب المؤمنين^(٢) .

وهكذا لم يأت هذا الطريق بفائدة فلم يستطع اليهود أن يفتنوا مسلماً عن دينه ، ولم يستطيعوا أن يصدوا الناس عن دخول الإسلام ، ولذلك أدركوا أن الطريق للقضاء على الإسلام هو قوة الحسام وليس قوة اللسان ، وكان اليهود قد اتجهوا فى بدء الأمر كما قلنا إلى ترك قوة السيف إلى قريش ليقتضى العرب على العرب وليتولى العرب إخماد هذا الصوت الجديد ، ثم ظهر لليهود أن قوة قريش اضمحلت ، وأن محمداً هاجر وأصبح ذا قوة وعصية ، وأنه يستطيع أن يقاوم وأن يحمى دينه وأتباعه ، وتأكد لهم هذا المعنى عند ما تم للمسلمين النصر فى غزوة بدر ، ولذلك وجد اليهود ألا مناص من أن يدخلوا ميدان النضال بأنفسهم ليرجحوا كفة قريش أو - عند الزوم - ليحملوا هم عبء هذا الكفاح ، وستذكر فيما يلى مراحل الصراع العسكرى بين المسلمين واليهود .

(١) سورة آل عمران الآية ٧٢ .

(٢) الجبل على الجبالين : ج ١ ص ٢٨٧ .

بنو قينقاع (العام الثاني للهجرة) :

كان بنو قينقاع أقوى جماعات اليهود الذين شملتهم المعاهدة مع المسلمين ، وكانوا أول من نكث العهد ، ويروى في ذلك أنه بعد غزوة بدر وانتصار المسلمين أبدى اليهود السخط والغضب ، وكان بنو قينقاع أكبر اليهود سخطاً وغضباً واستهانة بهذا النصر وتهويًا من شأنه ، وحدث أن ذهبت امرأة من الأنصار إلى سرق الصاغة حيث يكثر اليهود ، فتسلل خلفها رجل يهودى وهى جالسة وعقد طرف ثوبها إلى أعلاه ، فلما وقفت المرأة تكشف ظهرها فتضاحك اليهود : وصرخت المرأة شاكية ، فوثب رجل من المسلمين على اليهودى فقتله ، وشد اليهود على المسلم فصرعوه ، وأعلنوا نبذهم للعهد ، واستعدوا للحرب^(١) ، ولما كلمهم الرسول في ذلك وأنذرهم قالوا له في استهتار ظاهر : يا محمد ، إنك تحسب أننا كقومك ، لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصيت منهم فرصة ، إنما والله لن حاربنا لتعلمن أننا الناس . وكان هذا تهديدا ظاهرا ، وإنذارا بخيانة جسيمة ، ونزل بعد ذلك قوله تعالى (وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء)^(٢) . ويروى أن الرسول قال عندما نزلت هذه الآية : إني أخاف خيانة بنى قينقاع . وخرج الرسول في جمع من أصحابه وحاصر دورهم فقتل الله في قلوبهم الرعب ، فما استطاعوا الظهور ، ونزلوا على حكم الرسول ، حينئذ تقدم عبد الله بن أبى وكان حليفهم قبل الإسلام فقال للرسول : أمّن في موالى ، فتركهم الرسول له واكتفى بإبعادهم عن المدينة ، فخرجوا منها ونزلوا أذرعات الشام ولم يلبثوا حتى هلك أكثرهم وكانوا حوالى ستمائة ، وكانوا يشتغلون بالصياغة والتجارة^(٣) .

(١) ابن الأثير ج ٢ ص ٥٦ ودكتور جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٦ ص ١٤٤ .

(٢) سورة الأنفال الآية ٥٨ .

(٣) ابن هشام ج ٢ : ١٢٠ والطبرى ج ٢ : ١٧٢ وزاد المقداد ج ٢ : ٧١ وتروح البلدان ج ٢٣ .

بنو النضير (العام الرابع للهجرة) :

كان بين المسلمين واليهود - في المعاهدة التي أشرنا إليها - حلف يقضى بالتعاون بين الفريقين مادياً عند الحاجة ، وحدث أن قتل أحد المسلمين رجلين خطأ ، فوجب على المسلمين أن يدفعوا الدية عنها ^(١) ، وأثقلت الدية المسلمين لأنهم كانوا لم يستقروا بعد من الناحية المالية بسبب كثرة المهاجرين الذين فروا بدينهم تاركين أموالهم وثوراتهم بمكة . ورأى الرسول أن يسأل بني النضير أن يسلموا في دفع هذه الدية عملاً بالحلف السابق ، فذهب بنفسه إلى الحى الذى يسكنون فيه ، وذكر لهم الخبر فقالوا له : « نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه » وطلبوا منه الجلوس ريثما يدبرون له المال الذى طلبه ، فجلس الرسول بجانب جدار ومعه من أصحابه أبو بكر وعمر وعلى .

وذهب اليهود ليفكروا فيها يدفعون من المال ، ولكن سرعان ما هتف واحد منهم : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه .

وقال آخر : من منا يعلو هذا الجدار فيلقى عليه حجراً فيرمينا منه ؟ قال عمرو بن جحاش . أنا لذلك :

وصعد عمرو ، ولكن سرعان ما أوحى الله لمحمد أن اليهود يأتمرون به ليقتلوه ، وطلب منه الانسحاب في صمت ^(٢) ، وانسحب الرسول وانتظره أصحابه ، وانتظر عمرو بن جحاش عودته . ولكن هيهات ، فلحق أبو بكر وعمر وعلى بالرسول . وسأله عن السبب في أنه تركهم ، فذكره

(١) كان الذى قتلها عمرو بن أمية الضمري ، وهو الوحيد الذى نجا من عمار بن الطفيل ومن أهل نجد الذين قتلوا جميع المسلمين الذين أرسلهم الرسول لدعوة أهل نجد للإسلام وكانت الموقعة عند بئر معونة ، وعندما كان عمرو بن أمية عائداً قابل رجلين من بني كلاب ابن ربيعة بينهما وبين الرسول عهد لم يملحه عمرو ، وقد خانها هذا على نفسه فاغتالها ، فالتزم الرسول بدينهما (البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٣ - ٢٤) .

(٢) ابن هشام ٢ : ٤١ ، ١٧٦ . ويحيى بن آدم : الخراج ص ٢٩ .

لهم وأشيع خبر المؤامرة . وراح بعض اليهود يلوم البعض الآخر على هذه الجريمة الشنعاء ، وفي هذه الحادثة نزل قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن ييسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم)^(١) .

وأدرك المسلمون ألا مقام لبني النضير بينهم ، فقد كانت قریش تجمعهم عنها للفتك بالمسلمين . فإذا كانت الجبهة الداخلية غير أمينة ، وإذا كان للمسلمين أعداء غادرون في معقلهم الوحيد ، فلا أمل للمسلمين في الانتصار ، لذلك كان طبيعياً جداً أن يصل المسلمون على القضاء على بني النضير بالمدينة حتى يأمنوا في عقر دارهم ، وحتى يفرغوا لعدوهم الأكبر الذي يتربص بالوسائل بعد غزوة أحد ليقضى على المسلمين قضاء مبرماً .

وعلى هذا تهيأ المسلمون للخروج لبني النضير ، وسرعان ما التفت جيوش المسلمين حول حصون بني النضير ودورهم ، ولم يستطع بنو النضير أن يقابلوا المسلمين وجهاً لوجه محاربين ، فتحصنوا بالحي الذي يسكنون فيه ، وقللوا المسالك عليهم ، وحاصروهم المسلمون مدة ستة أيام ، ثم ألقى الله في قلوبهم الرعب . فطلبوا من الرسول أن يسمح لهم بالخروج من المدينة ومعهم ما تحمل الإبل إلا الدروع^(٢) ، فقبل الرسول منهم ذلك ، وخرجوا حيث نزل بعضهم خيبر ونزل آخرون الشام ، وكان من أشرفهم الذين نزلوا خيبر حي بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق وكنانة بن الربيع^(٣) . وقد استطاعوا بشرفهم ووثافتهم أن ينزلوا من خيبر في مكان الرؤساء والأمراء ، وكانت حادثة بني النضير هذه في السنة الرابعة من الهجرة . -

وهناك ملاحظتان هامتان نختم بهما حديثنا عن بني النضير وهما :

١ - أن بني قريظة بالمدينة لم يحسم أي سره لأنهم لم يشتركوا في المؤامرة ، مع ما لهم من صلة ببني النضير .

(١) سورة المائدة الآية ١١ وانظر تفسير الكشاف .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٤ .

(٣) ابن هشام ٢ : ١٧٨ .

٢ - أن الاكتفاء من بني النضير بالخروج من المدينة ومعهم ثرواتهم كان حكماً في منتهى التسامح إذا قيس بالعمل الإجرامى الذى دبره هؤلاء .
بنو قريظة (العام الخامس للهجرة) :

قلنا آنفاً إن الاكتفاء من بني النضير بالخروج من المدينة ومعهم ثراؤهم الواسع كان عملاً في منتهى التسامح ، وقد تغلب الباعث الإنسانى الذى قضى بهذا الحكم على الحق القانونى وعلى الحرص اللازم لحراسة أمة ناشئة ودين جديد ، وإننا فى الحقيقة ننظر إلى هذا التسامح فنجده سمحاً مبالغاً فيه . لأنه ممكن بني النضير من العمل بحرية كاملة بعيدين عن عين تنظر ، أو معاهدة تقيد أو منافس يراقب ، ونستطيع أن نقارن موقف الرسول بموقف قريش عندما اجتمعت قبيل الهجرة لتقرر مصير محمد ، وعندما رفضت دون تردد إخراجهم من مكة خوفاً من أن يعود إلى مكة مهاجماً بعد وقت قصير أو طويلاً ونسأل : لماذا لم ينتفع الرسول صلوات الله عليه بهذه التجربة وبغيرها من الأحداث المماثلة فيحكم على بني النضير بالقتل أو بحكم آخر أقسى من الإخراج ؟

ونجيب بأن عامل الرحمة كان قوياً جداً فى نفس الرسول وبأنه لم يلجأ قط للقتل إلا عندما لم يجد سواه سبيلاً .

المهم أن بني النضير لم يكونوا جديرين بالعطف الذى عاملهم به الرسول ، إذ أنهم سرعان ما غدروا وأخذوا يجمعون الجموع ويشربون الناس للمهاجمة المسلمين والقضاء عليهم ، وقد استجابت لهم جماعات كثيرة كان يربط بينها كراهية الإسلام والكيد له ، ومن أهم هؤلاء قريش ، وخطفان ، وبنو مرة ، وغيرهم ، وزحفت هذه الجماعات أو هؤلاء الأحزاب على المدينة فى الغزوة التى سميت بغزوة الأحزاب والتى سنتكلم عنها فيما بعد .

والمهم الآن أن نقول إن غزوة الأحزاب كانت من أشد ما عاناه المسلمون من ويلات ، لقد جاعوا فيها حتى ربطوا الحجارة على بطونهم ، وعاشوا فى سجن ضيق يحيط بهم الأعداء من كل جانب ، ثم - فى هذه الحالة الرهيبة - اتصل جحي بن أخطب أحد سادة بني النضير الذين هاجروا إلى خيبر ، بكعب ابن أسد سيد بني قريظة ، ودعاه أن ينقض عهده مع المسلمين وأن ينضم هم

وجماعة بنو قريظة إلى الأحزاب ، واستجاب كعب إلى هتاف حبي والأمل
يرأود الاثنين أن في ذلك قضاء نهائياً على المسلمين ^(١) ، فقد أصبح جناحهم
مهيباً بالهجوم الشامل عليهم من الخارج ، ولم يبق إلا ضربة من داخل
المدينة تنضم إلى هذه الضربات التي تنزل من الخارج فتقضى على الإسلام
والمسلمين ، وقد صور القرآن الكريم حالة المسلمين أدق تصوير فقال :
(إذ جاءوكم من فوقكم ، ومن أسفل منكم ، وإذا زاغت الأبصار ، وبلفت القلوب
الخناجر ، وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً) ^(٢) .

وهكذا غدر بنو قريظة في أخرج الأوقات ، ووجد المسلمون أنفسهم
بين عدو من الأمام وعدو من الخلف ، عدو من الخارج وعدو من الداخل ،
وإن نستمر في الكلام عن غزوة الأحزاب الآن ونتائجها ، فالكلام عن
الغزوات له مكان آخر ، ولكننا هنا نواصل كلامنا عن بني قريظة .

لما سمع الرسول بغدر بني قريظة أرسل لهم سعد بن معاذ سيد الأوس ،
وسعد بن عباد سيد الخزرج ليريا الأمر : ولينمنا بني قريظة عن هذا
الغدر الفاجر . فذهب سيدا الأوس والخزرج . وقابلا كعب بن أسد ،
وسألاه وحذراه ، فسخر منهما ، وأظهر لهما الخشونة والبغى ، ولم يسمع
لرجاء منهما أو تحذير ^(٣) .

وانتهت غزوة الأحزاب وعاد المهاجرون دون أن ينجحوا شيئاً ، وتركوا
المدينة وفيها فريقان يشهر كل منهما سيفه في وجه الآخر ، وأحاط المسلمون
بمساكن بني قريظة وشددوا عليهم الحصار ، وندم بنو قريظة على ما ارتكبوا
ولأت ساعة مندم ، واستمر الحصار خمسة وعشرين يوماً وعرض عليهم
المسلمون أن يدخلوا الإسلام فيأمنوا على دماءهم وأموالهم وأبنائهم فأبوا ^(٤) ،
ورضوا أن يسلموا بما يحكم به سعد بن معاذ في أمرهم ، وجرى بسعد فسلم له
المسلمون واليهود زمام القضية ، وفكر سعد ، ولا بد أنه وضع نصب
عينه العوامل الآتية :

-
- (١) ابن هشام ج ٢ ص ١٨٩ - ١٩٠ .
(٢) سورة الأحزاب الآيتان ١٠ - ١١ .
(٣) ابن هشام ٢ : ١٩ .
(٤) فيليب حتى : تاريخ العرب ص ١٨٤ .

١ - لقد سمح المسلمون لبني النضير بالخروج من المدينة ، وكانت نتيجة ذلك إهدار دماء المسلمين وتعريضهم وتعريض دينهم للخطر بسبب هجوم بني النضير وتآليبهم الأحزاب ، فلا يمكن والحالة هذه أن تتجه الأفكار لإخراج بني قريظة .

٢ - لقد كان ذنب بني قريظة عظيماً ولولا عون الله لهلك المسلمون .

٣ - رأى سعد بنفسه سمخية بني قريظة منه ومن صاحبه عندما ذهبوا إليهم ، كما تذكر تحذيره إياهم ووقوعهم في الرسول أمامه وسبهم المسلمين بغير حق .

٤ - العفو عن بني قريظة وإخراجهم من المدينة سيعنى بلا شك انضمامهم إلى بني النضير حيث يتضاعف الخطر اليهودي على المسلمين .

لهذه الأسباب كان حكم سعد بديها : لقد حكم على الخوذة الغادرين بالقتل ، قتل الرجال وسبي النساء والأطفال ، وكان ذلك في العام الخامس للهجرة إثر غزوة الأحزاب ، وربما ادعى بعض المتحذلقين أن هذا الحكم قاس ، والإجابة سهلة ، هي أن هذا الحكم هو الذي يحكم به حتى الآن في كل دول العالم ضد من ارتكبوا مثل هذه الحياة العظمى وخاصة وقت الحروب .

خير (العام السابع للهجرة) :

(لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) (١)
صدق الله العظيم - وقد برهنت الأحداث طوال القرون على شدة عداوة اليهود للمسلمين ، لقد أساء يهود المدينة - كما قلنا - حتى عندما أحسن المسلمون إليهم ، وبعد يهود المدينة جاء دور اليهود في الشمال ، وقد وجد الرسول أن جانب هؤلاء ليس مأمونا ، فلم يكن بُدَّ من القضاء على هذا الخطر الداهم ، فهؤلاء هم الذين سببوا غزوة الأحزاب ، والذين بدعوا يدبرون

المؤامرات الأخرى للهجوم على المدينة بعد أن فشلوا في غزوة الأحزاب ، ولذلك نجد الرسول يُعيدُ العدة للزحف على يهود خيبر ووادي القرى وفدك وتيما ، وكانت خيبر أقوى حصون اليهود وأخطرها ، لقد كان بها يهود من قبل ، ثم انضم لهم مهاجرو بني النضير ، فأصبحت خيبر أكثر بلاد اليهود في الجزيرة العربية عدداً وأعظمها قوة وأكثرها تحدياً للمسلمين ، ولذلك بدأ الرسول بها عندما اتجه إلى الزحف على مناطق اليهود بالشمال ، وكان ذلك في السنة السابعة للهجرة بعد أن هدأت العداوة بين المسلمين وبين قريش وعُمَيدَ بينهما صلح الحديبية الذي سنتكلم عنه فيما بعد ، وحاصر المسلمون خيبر وامتد الحصار وطال ، وأخذت حصون اليهود بها تتساقط بسهولة أو بصعوبة في يد المسلمين^(١) ، ولم يجد اليهود بداً من أن يستسلموا ، واتفق معهم المسلمون اتفاقاً سمحاً مرة أخرى ، فقد تركهم الرسول يزرعون الأرض التي أصبحت للمسلمين بحكم الفتح ، وأصبح لليهود شطر الزرع والثمار نظير عملهم^(٢) . كما صار للمسلمين الإشراف على اليهود حتى لا يعودوا إلى ألوان الغدر مرة أخرى .

ولما تهافت حصون خيبر طلب يهود فدك الصلح فصالحهم الرسول على نصف الثمر ونصف الأرض^(٣) ، أما يهود وادي القرى وتيما فقد امتنعوا وقاتلوا فهزمهم المسلمون ، ثم تركوهم على نظام خيبر^(٤) ، وانكسرت بذلك شوكة اليهود وإن كانت الشوكة لم تنزل نهائياً وبقيت قليلة حيناً ، ومدمية كالها وجدت سبيلاً إلى الإيذاء .

وما يتصل بخيبر أنه بعد الانتهاء منها قدّمت امرأة يهودية اسمها زينب بنت الحارث بن سلام شاة مشوية للرسول دسّت فيها السم وأكثرت منه في ذراعي الشاة حيث عرفت أن الرسول يحب من الشاة ذراعها ، فلما

(١) ابن حشام ٢ : ٢٣٩ - ٢٤٠ .

(٢) أبو عبيد : الأموال ص ٩ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) البلاذري ص ٢٤٧ .

وُضعت الشاة بين يدي الرسول تناول الذراع فلاك منها مضغة فلم يستسغها ولفظها ، وكان يأكل معه بشر بن البراء ولكنه تعجل فابتلع ما وضعه في فمه ، وقال الرسول إن هذه الذراع لتخبرني أن الشاة مسمومة ، ودعا الرسول المرأة فاعترفت ، فسألها الرسول : ما حملك على ذلك ؟ فقالت بلغت من قومي ما لم يخف عليك ، فقلت إن كان ملكا استرحنا منه وإن كان نبياً فسيخبر . وقيل إنها دخلت الإسلام فعفا عنها الرسول ، وقيل قتلها الرسول قصاصاً ، لأن بشر بن البراء مات من هذا الطعام^(١)

نهاية اليهود بالجزيرة العربية :

ابتداء من العام السابع للهجرة . بدأت الآمال تتطلع إلى نشر الإسلام خارج الجزيرة العربية ، وبدأت وفود المسلمين تحمل رسائل الرسول ، أو تحمل دعة الإسلام إلى أكثر الجهات . وأصبح واضحاً أن بقاء اليهود خلف هذه الوفود لا يؤمن ظهراً ، ولذلك روى عن الرسول قوله : لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع فيها إلا مسلماً .

وفي عهد الخلفاء الراشدين امتد الإسلام وتجاوز أرض خيبر في طريقه إلى فارس والروم ، وأصبح يهود خيبر في ظهر المسلمين ، فخاف عمر خطرهم وخشى أن يضربوا المسلمين من الخلف كما فعل اليهود من قبل ، ورأى عمر ضرورة ضمان السلامة والوحدة في الجزيرة العربية قبل أن تتعمق جيوشه خارج هذه الجزيرة ، وزيادة على ذلك يروى البلاذري^(٢) ، أن يهود خيبر ، عاثوا في المسلمين فألقوا ابن عمر من فوق بيت وقدغوا يديه ، لكل ذلك استقر رأى عمر على إجلالهم .

وقد عاملهم عمر طبقاً للشروط التي كانت بينهم وبين المسلمين ، فأهل فذلك كان لهم نصف الأرض فاشتراها عمر منهم ، وفي بعض الروايات أن

(١) ابن هشام ج ٢ ص ٢٤٠ - ٢٤٢ .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ٣٦ و ٤٢ .

الرسول كان قد اشترى هذا النصف منهم في حياته ليكونوا على قدم المساواة مع باقي يهود الجزيرة ، وأذن لهم عمر ، ببيع ما يريدون ، وقبض ما كان لهم من متاع لم يستطيعوا حمله ودفع ثمنه لهم ، وأجلهم^(١) .

المستشرقون واليهود :

المستشرقون هم أولئك الغربيون الذين اشتغلوا بالدراسات الإسلامية والشرقية ، وكثير من المستشرقين أدى لهذه الدراسات خدمات ديرة ، وبخاصة في طرق البحث التي سبقوا المسلمين في معرفتها وإيجادتها ، ولكن مع الأسف كان أكثر المستشرقين من اليهود ، ولم يستطع هؤلاء أن ينسوا عواطفهم وهم يبحثون في الدراسات الإسلامية ، فاستعمل بعضهم أقسى الألفاظ وهو يتحدث عن الدين الإسلامي وعن الرسول محمد ، وهاجموا الإسلام في جميع مسائله سواء منها ما اتصل باليهود أو ما لم يتصل بهم ، وكانت دراسة بعضهم سلسلة من القذف أو الهجاء^(٢) ، ويعتد هذا عودة إلى النضال الفكري الذي نشره اليهود ضد الإسلام في مطلع الإسلام ، وليس لنا على كل حال أن نجاريهم في القذف والتعصب ، وإنما نقولها كلمة قوية قالها المنصفون من المستشرقين ، هي أن مبادئ الإسلام تعد من أرقى الفلسفات في شئون الدين وإدارة الدنيا ، وإن معاملة المسلمين غير المسلمين كانت دائماً سلسلة من التسامح والبسر . وكان هذا طابعها حتى مع من فتكوا بهم واستحوا دماءهم ، وليست الحروب الصليبية وموقف صلاح الدين الأيوبي من الصليبيين ببعيد^(٣) .

(١) أبو عبيد : الأموال ص ٩ و ٩٨ .

(٢) ارجع المقدمة لهذا الكتاب ، بكون نموذج لكتابة المستشرقين من هذا النوع .

ارجع القارئ مؤلفات جولدنبرغ .

(٣) اقرأ عن الحروب الصليبية الجزء الخامس من هذه الموسوعة .

الاسلام والقتال

هناك عنصران رئيسيان للحديث عن الإسلام منذ الهجرة حتى وفاة الرسول ، وهذان العنصران هما :

١ - تكوين المجتمع الإسلامى ، ونشر الدعوة الإسلامية ، وتربية الدعاة على نحو ما ذكرنا من قبل .

٢ - حماية هذا المجتمع والدفاع عنه .

وقد تكلمنا عن العنصر الأول بإفاضة فيما سبق ، وآن لنا أن نتحدث عن العنصر الثانى .

وقد ذكرنا آنفاً أن المسلمين قضوا على اليهود بالجزيرة العربية حماية للإسلام والمسلمين وستحدث الآن عن حماية أوسع ، وعن حروب كثيرة حصلت فى عهد الرسول وبعد وفاته ، وستجعل سبيلنا فى الحديث - كما نحاول دائماً - أن يكون بحثاً عملياً نبرز فيه اتجاه الإسلام واتجاه المسلمين درن أن يكون هناك مجال للتعصب .

ويعتقد بعض المستشرقين وبعض من لم تتح لهم الفرصة للتعمق فى الدراسات الإسلامية أن القوة كانت عاملاً هاماً فى انتشار الإسلام . ويتخذون من الحروب التى حدثت فى حياة الرسول ، وبعد وفاته دليلاً على ذلك ، ولناقشة هذا الاتجاه نسأل هنا سؤالين هامين :

١ - هل انتشر الإسلام بالدعوة أو بالقوة ، وما الدليل على ذلك ؟

٢ - وإذا كان قد انتشر بالدعوة فلماذا حدثت الحروب بين المسلمين وغيرهم ؟

وللإجابة عن السؤال الأول نقول فى قوة وإصرار : إن الإسلام لم ينتشر بالسيف وإنما انتشر بالدعوة ، ونضع البراهين الواحد بعد الآخر فى سلسلة من آيات القرآن الكريم ، ثم فى سلسلة من أحداث التاريخ بحيث لا يبقى للشك مجال .

فأما عن القرآن فهناك قوله تعالى :

— لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي^(١) .

— ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة^(٢) .

— لكم دينكم ولي دين^(٣) .

— فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب^(٤) .

— فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر^(٥) .

وأما سلسلة التاريخ فترينا بوضوح أن الإسلام سلك طريقه بالدعوة متبعاً هذه الآيات البينات ، وإلى القارىء بيان ذلك :

١ — حينما كان الرسول في مكة . وحينما بدأ دعوته وحيدا لاسلاح معه ولا مال ، دخلها مجموعة من عظماء الرجال من أمثال أبي بكر وعثمان وسعد ابن أبي وقاص وطلحة والزبير ثم عمر بن الخطاب وحزرة بن عبد المطلب فهل يمكن أن نقول إن هؤلاء دخلوا بالقوة . وأين القوة في ذلك الوقت ؟ . وعن مسلمى مكة يقول الأستاذ العقاد^(٦) : إن كثيرين من الناس لم يخضعوا للسيف ليسلموا ، ولكنهم تعرضوا بإسلامهم للسيف ، واحتملوا السيوف في سبيل الله .

٢ — واضطهدت قريش المسلمين اضطهاداً قاسياً ، وأنزلت بمحمد وأتباعه ألواناً من العذاب ، وفي وسط هذا العناء حينما كان محمد والمسلمون معه بمكة مغلوبين على أمرهم مستضعفين ، كان أهل المدينة يسعون للإسلام ويعتقونه ويدعون له ذويهم وأهلهم ، فهل يمكن أن نقول إن الإسلام انتشر بالقوة بين سكان المدينة ؟

٣ — جاء الصليبيون إلى الشرق إبان ضعف الخلافة العباسية لمحو الإسلام والقضاء عليه ، وإذا بالإسلام يجذب جموعاً منهم فيدخلونه ويحاربون

(١) سورة البقرة الآية ٢٥ . (٢) سورة النحل الآية ١٢٥ .

(٣) سورة آل عمران الآية السادسة . (٤) سورة النحل الآية ١٤٢ .

(٥) سورة الفاشية الآيتان ٢١ ، ٢٢ . (٦) عبقرية محمد ص ٤٨ .

في صفوف المسلمين ، يقول توماس أرنولد : « لقد اجتذبت الدعوة المحمدية إلى أحضانها من الصليبيين عدداً مذكوراً حتى في العهد الأول أى في القرن الثاني عشر ، ولم يقتصر ذلك على عامة النصارى بل إن بعض أمراءهم وقادتهم انضموا أيضاً إلى المسلمين حتى في ساعات انتصارات المسيحيين » .

ويروى توماس أرنولد عن بعض مؤرخي النصارى قوله : إن سنة من أمراء مملكة القدس استولى عليهم الشيطان ليلة معركة حطين ، فأسلموا وانضموا إلى صفوف الأعداء دون أن يقهروا من أحد على ذلك ، ويعال توماس أرنولد لانتشار الإسلام بين الصليبيين بقوله : ويظهر أن أخلاق صلاح الدين وحياته التي انطوت على البطولة قد أحدثت في أذهان المسيحيين في عصره تأثيراً سحرياً خاصاً ، حتى أن نفرأ من الفرسان المسيحيين قد بلغ من قوة انجذابهم إليه أن هجروا ديانتهم المسيحية وهجروا قومهم وانضموا إلى المسلمين . وكذلك كانت الحال عندما طرح النصراية : مثلاً ، فارس إنجليزى من فرسان المعبد ، يدعى روبرت أوف سانت ألبانس واعتنق الإسلام ، ثم تزوج بإحدى حفيدات صلاح الدين^(١) .

فهل يمكن أن نقول إن الإسلام انتشر بين الصليبيين بالقوة .

٤ - في القرن السابع الهجرى هاجم المغول الجانب الشرقى من العالم الإسلامى ، وكان هجومهم وحشياً قاسياً مدمراً سفكوا الدماء فسانت أنهاراً ، وحطموا مظاهر الحضارة الإسلامية به ، وهدموا القصور والمساجد ، وأحرقوا الكتب وقتلوا العلماء ، وامتدت أيديهم إلى الخليفة فقتلوه وقتلوا معه أهله ، وأزالوا الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ وأصبحت للمغول اليد العليا ، وهوت أمامهم كل قوى المسلمين في عاصمة الخلافة وما حولها . وسرعان ما جذب الإسلام إليه هؤلاء الفاتحين الغزاة ، فدخل المغول الدين الذى هاجموا وعملوا على تقويضه . فهل يمكن أن نقول إن الإسلام انتشر بين المغول بالقوة ؟ .

(١) إنقرأ ما كتبه توماس أرنولد عن « حالات التحول إلى الإسلام بين الصليبيين » في كتابه الدعوة إلى الإسلام ص ١٣٨ وما بعدها . من الترجمة العربية

يقول سير توماس أرنولد في ذلك : « لا يعرف الإسلام من بين ما نزل به من خطوب وويلات خطباً أعنف قسوة من غزوات المغول ، فلقد انسابت جيوش جنكيزخان ، واكتسحت في طريقها العواصم الإسلامية وقضت على ما كان بها من مدنية وحضارة ، على أن الإسلام لم يلبث أن نهض من رقده وظهر من بين الأطلال ، واستطاع بواسطة دعائه أن يجذب أولئك الفاتحين البرابرة ويحملهم على اعتناقه (١) » .

٥ - وأين الدم في غزوات الرسول ؟

إن الإحصاء الدقيق الذي يعتمد على ما أورده ابن هشام نقلاً عن ابن إسحق بالنسبة لعدد الشهداء في الغزوات وأسمائهم ، وعدد قتلى المشركين ، يبين أن شهداء المسلمين في جميع الغزوات كانوا ١٣٩ شهيداً ، وقتلى المشركين في جميع الغزوات كانوا حوالي ١١٢ قتيلاً ، وتوزيعهم على الغزوات كالآتي :

الغزوة	شهداء المسلمين	قتلى المشركين	ملاحظات
بدر	١٤	٧٠	
أحد	٧٠	٢٢	
الخنندق	٦	٣	
بنو المصطلق	-	٣	
خير	١٩	-	لم يدخل اليهود في هذه الإحصائية
			فلهؤلاء حكم آخر بسبب خيانتهم .
مؤتة	١٤	١٤	بعضهم من المشركين وبعضهم من نصارى العرب والروم .
حنين	٤	-	لم يذكر ابن هشام قتلى للمشركين في
الطائف	١٢	-	هذين الموقعين .
تبوك	-	-	لا حرب ولا ضحايا .
	١٣٩	١١٢	

٦ - ومحدثنا التاريخ بصراحة ووضوح أن أهم فترة انتشر فيها الإسلام هي فترة السلم الذي تلا صلح الحديبية بين قريش والمسلمين كما سيأتى ، وكانت فترة السلم سنتين ، ويقول المؤرخون إن من دخل الإسلام في خلال هاتين السنتين أكثر ممن دخلوه في المدة التي تقرب من عشرين عاما منذ بدء الإسلام حتى الصلح . وهذا يدلنا على أن انتشار الإسلام تبع السلم ولم يتبع الحرب .

٧ - وهناك فكرة هامة يجدر بنا أن نوضحها تماما ، ويجدر بالقارىء أن يفهمها ، تلك الفكرة هي أنه لاعلاقة بين انتشار الإسلام وبين حروب المسلمين مع الفرس والروم ، فقد كانت الحروب تشتعل ، وكان المسلمون ينتصرون ، ثم تتوقف الحروب وتتوارى السيوف . وحينئذ يتقدم الدعاة والمعلمون فيشرحون نظم الإسلام ومبادئه وفلسفاته (سيأتى الحديث عن فلسفة الإسلام ومبادئه فيما بعد) . وكانت هذه الدعوة السمحة تجذب لها الناس وبخاصة عندما رأت الشعوب المغلوبة الفرق الكبير بين حكم قيصر وطغيانه ، وبين بساطة عمر بن الخطاب وسماحته وتواضعه ، وبالذات دخول الناس أفواجا في الدين الجديد ، فمنهم من أسرع في الدخول . ومنهم من دخل بعد عام أو خمسة أعوام أو عشرة أو مائة ويقول Kirk^(١) (إن غالبية أهل الشام ومصر السفلى في القرن التاسع الميلادى كانت لا تزال مسيحية على الرغم من أن الإسلام كان قد مضى عليه في هذه البقاع أكثر من قرنين) ونضيف أن من سكان مصر والشام من لم يدخل الإسلام حتى الآن ، وتستطيع أن ترى اليوم الآلاف أو الملايين من المسيحيين في مصر وسوريا وغيرها من البلاد الإسلامية .

مرة أخرى لاعلاقة بين انتشار الإسلام وبين الحروب .

وأوضح من هذا ما ذكره Fage Roland Oliver من أن الإسلام لم يأخذ طريقه خلف الصحراء بإفريقية إلا بعد انحلال دولته الكبرى في

المغرب ، وكانت وسيلة الإسلام لهذه البقاع هي الثقافة والفكر والدعوة فانتهى الإسلام بين شعوب البربر ، وقامت خلف الصحراء دول إسلامية لعبت في التاريخ دوراً كبيراً^(١) .

٨ - وانتشر الإسلام انتشاراً واسعاً في إندونيسيا وماليزيا وإفريقية ، فأين القوة التي نشرته في هذه البلاد الفسيحة وجذبت له قلوب الملايين ؟

وكتب هذه السطور عاش في إندونيسيا عدة سنين ، ورأى بنفسه الإسلام وهو ينتشر بين الإندونيسيين ببساطة ، رآه وهو يهزم الديانات الأخرى والأفكار المتعددة ويتقدم إلى الطليعة لاندفعه إلا مبادئه السمحة وتعاليمه المعقولة المهادنة البسيطة ، فقد رأيت في إندونيسيا صراعاً بين الأديان والأفكار ، كل منها يريد أن يكون أسرع وصولاً إلى قلوب الإندونيسيين ، ولكل منها وسائل وطرق تعمل على تحقيق هذه الغاية ، فقد كانت المسيحية يساعدها أو قل يفرضها بطش المستعمر وماله ورجاله ، والكنفوشية يساعدها ملايين الصينيين الذين يقيمون في إندونيسيا ، وتدفعها الثروات الضخمة التي يملكها هؤلاء الصينيون ، والهندوكية والبوذية تساعدهما صلات الهند بإندونيسيا ، تلك الصلات الثقافية والحضارية التي تضرب في أعماق التاريخ ، ورأيت الإسلام تدفعه مبادئه ويرعاه الله ، يعلمه عرب هاجروا من بلادهم النائية في حضرموت بثقافة محدودة وبدون مال ولا سلطان على الإطلاق ، أو يقلمه إندونيسيون ينطبق عليهم وصف العرب في فقرهم وقلة سلطانهم ، فماذا كانت نتيجة هذا الصراع ؟

أما الكنفوشية فقد خرجت صفر اليدين ولم تجذب إليها فرداً واحداً تقريباً من أبناء إندونيسيا ، وقنعت الهندوكية والبوذية بنصيب ضئيل حصلت عليه غالباً قبل زحف الإسلام ، وجابت مدارس المسيحيين ومستشفياتهم ووظائفهم عدداً قليلاً لا يتجاوز المليونين ، وأغلبهم سقطوا في المسيحية مخدوعين ، فالطفل يدخل مدرسة مسيحية ويتلقى تعاليم هذه الديانة ثم يخرج مسيحياً ولا يعرف غير المسيحية ، والمريض يشترك في

الصلوات والأدعية التي تقام في المستشفيات وليس له إلا الاشتراك أو الطرد، وهكذا دواليك . أما الإسلام فقد سار وتسرب في النور وبالدعوة السلمية إلى أكثر من تسعين في المائة من سكان إندونيسيا وهم حوالى مائة مليون .

أما انتشار الإسلام في إفريقيا فندع الحديث عنه إلى شاهد عيان آخر ، ذلك هو الكاتب المسيحي الفرنسي هوبير ديشان حاكم المستعمرات الفرنسية بإفريقية حتى سنة ١٩٥٠ وهو يقول (١) :

إن انتشار دعوة الإسلام بإفريقية لم يتم على القسر ، وإنما قام على الإقناع الذي كان يقوم به دعاة متفرقون لا يملكون حولا ولا طولا إلا لإيمانهم العميق بدينهم ، وكثيراً ما انتشر الإسلام بالتسرب السلمى البطيء من قوم إلى قوم ، فكان إذا ما اعتنقته الأرستقراطية وهى هدف الدعاة الأول تبعها بقية القبيلة ، وقد يسر انتشار الإسلام أمر آخر هو أنه دين فطرة بطبيعته ، سهل التناول ، لا لبس ولا تعقيد في مبادئه ، سهل التكيف والتطبيق في مختلف الظروف ، ووسائل الانتساب إليه أيسر وأيسر ، إذ لا يطلب من الشخص لإعلان إسلامه سوى النطق بالشهادتين حتى يصبح في عداد المسلمين ، وقد حجب الإسلام إلى الإفريقيين مظاهره البعيدة عن التكلف مثل الثوب الفضفاض ، والمسبحة ، والكتابة العربية ، والوقار الدينى ، وشعائر الصلاة ، مما يضفى على المسلم مكانة مرموقة وجاذبية ساحرة ، فالذى يدخل في الإسلام ولو في الظاهر يشعر بأنه أصبح ذا شخصية محترمة وأنه قد ازداد من القوة والحيوية .

وفي عام ١٩٧٣ أعلن الرئيس البير برنار بونجو رئيس جمهورية جابون أنه اعتنق الإسلام بعد أن درسه وتعرف على ما به من اتجاهات ونظم (٢) فكان هذا دفعة جديدة للزحف الإسلامى بإفريقية .

(١) للديانات في إفريقيا السوداء ص ١٢٨ - ١٢٩ .

(٢) صحيفة الأخبار القاهرية في ١٠/١/١٩٧٣ .

وربما نستطيع أن نضيف هنا ما لم يستطع روبر ديشان أن يذكره ، وهو أن الدخول في الإسلام كان معناه السعي للتحرر من الاستعمار ، واستيرية طبيعة في النفوس ، والجموع المسلمة هي التي حملت راية الجهاد ضد المستعمرين بأفريقية وآسيا .

٩ - ونقول الياحثة الألمانية الدكتورة Ilse Lietenstadter (١) إن التخيير ببلاد الفرس والروم لم يكن بين الإسلام والسيف ، وإنما بين الإسلام والجزية ، وهي الخطوة التي استحدثت البناء لاستنارتها حين اتبعت بعد ذلك في إنجلترا إبان حكم الملائكة اليبصبات .

ونجىء بعد ذلك إلى السؤال الثاني : لماذا حدثت الحروب بين المسلمين وغيرهم ؟

والإجابة على هذا السؤال سهلة يسيرة أشرنا إلى بعضها فيما سبق ، وسندكر فيما يلي موجزاً شاملاً لها :

١ - الدفاع عن النفس : يقرر التاريخ أن المسلمين قبل الهجرة لم يؤذن لهم بقتال وقد ضرب عمار وبلال وياسر ، وضرب محمد وأبو بكر ، ومات ياسر تحت العذاب كما ذكرنا من قبل ، ولم يرفع هؤلاء أيديهم لرد الاعتداء الذي وقع عليهم ، ولكن المشركين أسرفوا في ذلك ووصلوا إلى حد تقرير قتل محمد ، وكان المسلمون كلما همت نفوسهم لرد الظلم ، أو تطلعت إلى القصاص من الظالمين ردهم رسول الله إلى الصبر وانتظار أمر الله قائلًا : لم أؤمر بقتال ،

لم أؤمر بقتال . فلما أفلت محمد من قريش وأفلت منهم المسلمون بالهجرة ، وضع المشركون خططهم على أن يقضوا قضاء عاجلا على المدينة حتى تتخلص الجزيرة العربية من الإسلام والمسلمين . فكان من الضروري أن يدافع المسلمون عن أنفسهم ، فأذن الله لهم بالدفاع قال تعالى : «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ^(١) » ويتضح من الآية للذي يعمن النظر أن الإسلام لا يجب القتال . فالفعل (أذن) مبنى للمجهول وفاعله عندنا كان مبنياً للمعلوم هو الله سبحانه وتعالى ، وقد بنى الفعل للمجهول لأن الله لم يرد - فيما أفهم - أن يذكر اسمه الكريم متصلاً بالإذن بالقتال ، ثم إن نائب الفاعل محذوف تقديره : (القتال) أى أذن لهم القتال ، ولم يذكر نائب الفاعل أيضاً لأنه كلمة (القتال) وبدل نائب الفاعل ذكر سبب الإذن وهو (بأنهم ظلموا) قال الضحاك هي أول آية نزلت في القتال ، قال ابن عباس وابن جبير نزلت عند هجرة الرسول إلى المدينة . وروى النسائي والترمذي عن ابن عباس قال : لما أخرج الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة قال أبو بكر : أخرجوا نبيهم !! ليهلكن ، فأنزل الله تعالى : (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا) ثم نزلت آية أخرى أكثر صراحة في الإذن بالقتال والدفاع عن النفس هي قوله تعالى : (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ^(٢)) ومع أن الإذن هنا صريح إلا أنه مشروط بأن يكون في سبيل الله لا في سبيل المال أو الجاه . وأن يكون للدفاع عن النفس ، وبدون اعتداء ، فالاعتداء يسبب سخط الله .

وهكذا كان السبب الرئيسى للقتال هو الدفاع عن النفس والعرض والمال . وهنا يبدو موضوع مهم يتصل بالحيشة : تلك البلاد التي ليست بعيدة عن الجزيرة العربية ، والتي للمسلمين بها عهد منذ مطلع الإسلام فقد هاجروا إليها كما سبق القول ، والموضوع المهم هو أن المسلمين لم يهاجروا الحيشة :

(١) سورة الحج الآية ٣٧ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٩٠ .

لأن الحبشة لم تمسهم بسوء، ولو كان المقصود نشر الإسلام بالقوة لهاجموها فهي أقل قوة من الفرس والروم، وقد يقال إن البحر يحميها منهم، والجواب سهل، فقد ملك المسلمون بحرية قرية هاجموا بها القسطنطينية وسيطروا بواسطتها على أهم جزر البحر الأبيض المتوسط، ولكنهم لم يتجهوا للحبشة فما كانت أعمال المسلمين الحربية إلا دفاعاً ورداً لا اعتداء.

٢ - تأمين الدعوة وإتاحة الفرصة للضعفاء الذين يريدون اعتناقها :

كانت الدعوة الإسلامية مهددة، وكانت قريش تسلك كل السبل للقضاء عليها، ثم كان هناك كثير من سكان مكة ومن العرب يميلون للإسلام ويريدون الدخول فيه، ولكنهم كانوا يخافون أن ينزل بهم ما نزل بمن سبقهم إلى الإسلام من عذاب وإيذاء، حتى اضطروا كثيرون ممن أحبوا الإسلام أن يعتنقوه سرا دون أن يعلنوا ذلك، وفي هؤلاء نزلت الآية الكريمة « ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطأوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم... » (١) فأذن الله لرسوله وللمؤمنين أن يحموا الدعوة ويؤثروا مؤمنين من يدخل فيها قال تعالى : (وما لكم لا تتقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان) (٢).

٣ - الدفاع عن الأمة الإسلامية حتى لا تذكها جيوش الفرس والروم :

قبل الإسلام لم تكن هناك أمة عربية، وإنما كانت هناك قبائل عربية متحاربة متنافرة، ولذلك لم يكن الفرس والروم يقيمون حساباً للعرب : إذ كان العرب داخل جزيرتهم يضطرون صراعاً يكاد يكون متصلاً، وعلى هذا غض الفرس والروم بصرهم عن الجزيرة العربية لأنها لم تكون وحدة يمكن أن تصبح خطراً على الدولتين المجاورتين : الفرس والروم.

فلما جاء الإسلام آمن به بعض العرب وكف به آخرون، وقام نزاع عنيف

(١) سورة الفتح الآية ٢٥ .

(٢) سورة النساء الآية ٢٥ .

في الجزيرة العربية بين المسلمين وغير المسلمين (قريش واليهود) ، وفي هذه المرحلة لم يهتم الفرس والروم أيضاً بهذا الدين الجديد ، وقالوا إنها حركة قام بها عربى وسيقتلها العرب واليهود ، وظنوا أنها نوع من الصراع بين القبائل العربية لا يلبث أن يموت .

ولكن سرعان ما بدأ الإسلام ينتصر على أعدائه وينتشر بين العرب ، وسرعان ما تكونت في الجزيرة العربية دولة قوية متحدة ، وبالإضافة إلى قوتها واتحادها كانت لها مبادئ الدين الجديد الذي اجتمع العرب حوله ، والذي استلزم الدعوة له ، وقد فوجئ كسرى وقيصر بحقيقة خطيرة هي أن الرسول أرسل لهما يدعوها للإسلام في العام السابع للهجرة ، ويدعو قومهما كذلك واعتقد المملكان أن محمداً لم يفتع بتأسيس دولة عربية وإنما أخذ يطمع في مد سلطانة إلى أرضهما ، وكل هذا أدخل الذعر والخوف في نفوس الفرس والروم ، فقد أصبحت الجزيرة العربية منافساً خطيراً ، قوياً متحداً ، وأصبحت دولة لها دين ولها مبادئ ، تعمل على نشر هذا الدين وإذاعة أخباره واكتساب الأنصار إليه ، ومن أجل هذا دخل الفرس والروم المعركة ، وقررتا ضرورة القضاء على الدولة الإسلامية الجديدة والقضاء على الوحدة التي تكونت عند العرب ، وقد بدأ ذلك والرسول صلى الله عليه وسلم لا يزال خياً :

يروى أنه في سنة ٦٢٧ م (السادسة للهجرة) أسلم فروة بن عمر الجذامي هامل الروم على عثمان ، وأرسل مع مسعود بن سعد الجذامي بغلاً أشهب وفرساً وحماراً ، وأقصه كتابية وعباءة حريرية هدية للنبي ، ولما بلغ الرومان ذلك حاولوا إقناعه ليرتد فأبى ، فما كان منهم إلا أن ألقوا القبض عليه وسجنوه ثم صلبوه على ماء يقال له (عفرى) بفلسطين .

وفي سنة ٦٢٩ (٨ هـ) أوفد النبي جماعة قوامها خمسة عشر رجلاً إلى حدود شرق الأردن ليدعوا الناس إلى الإسلام ، وليستطلعوا أخبار الروم ، فخرج عليهم جمع غفير في مكان يقال له (طلة) بين الكرك والطفيلة وقتلهم كلهم إلا واحداً لاذ بالفرار (١) .

(١) كولونيل فريدريك : تاريخ شرق الأردن وقبائلها ص ٨٥ نقل عن « الرسالة الخالدة » لعبد الرحمن عزام ص ٢٢٨ .

وكانت تجمعات الروم تهدد المسلمين دائماً حتى كان المسلمون يتوقعون هجوم الروم عليهم كل لحظة ، ومما يدل على ذلك أن صحابيا في أثناء حياة الرسول دق باب عمر بن الخطاب في ليلة وعمر نائم ، فهب عمره ، نوم مذعورا وهو يقول : ما هو ؟ أ جاءت غسان ؟

وكما تحرش الروم بالمسلمين تحرش بهم الفرس أيضاً . فالتاريخ يروى لنا أن القبائل المراتية للفرس كانت توالى الإغارة على أرض المسلمين . ولم تكن حرب المسلمين مع الفرس إلا امتداداً للدفاع الذي قام به المسلمون ليحموا أنفسهم وذويهم من هؤلاء المغيرين .

على أن الحروب لم تكن في الحقيقة مع الشعوب . وإنما كانت مع قيصر وكسرى وجيوشهما ، هؤلاء الجبابرة الطفافة الذين كانوا يقفون حاجزاً يحول بين الناس وبين الدين الجديد ، فلما سقط هذا الحاجز بدأت الشعوب التي كانت خاضعة مغلوبة على أمرها : تفكر في الإسلام وتقبل عليه وتستعذب الحرية في ظلاله .

ويتجه البحث الحديث إلى اعتبار الزحف الإسلامي ضد الفرس والروم ليس إلا حركة تحرير قامت بها القبائل العربية لصالح الشعوب المستعمرة التي كانت خاضعة للاستعمار الفارسي أو الروماني .

ومبادئ الإسلام واضحة في أن أي قتال إنما هو لرد عدوان كما سبق ، وينص القرآن على أن على المسلمين أن يلجأوا للسلم إذا لجأ له أعداؤهم ، قال تعالى : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » (١) . وقال : « فإن اعتزلكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم . فاجعل الله لكم عليهم سبيلاً » (٢) . وقد سار الرسول على هدى هذه الآية الكريمة فراه يخرج للملاقاة الروم عندما بلغه أن جموعهم تجمعت على أطراف الجزيرة ، وأنها تريد الهجوم ، فلما وصل إلى تبوك وجد أن جيوش الروم تراجعت فلم يفكر في مهاجمة الروم ، وإنما عاد أدراجه إلى المدينة .

ويتضح من الدراسات السابقة مايلي :

— أنه لا توجد آية واحدة في القرآن الكريم أو حادثة واحدة في تاريخه

(٢) سورة النساء الآية ٩٠ .

(١) سورة الأنفال الآية ٦١ .

صدر الإسلام تدل أو تشير إلى أن القتال في الإسلام كان لحمل الناس على اعتناقه .
 - وأن سبب القتال ينحصر في رد العدوان وحماية الدعوة وحرية الدين
 قال تعالى « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فإن انتهوا فلا
 عدوان إلا على الظالمين » (١) . فهذه الآية تقرر أن القرآن لم يقصد بالقتال
 أن يرغم الناس على التدين بما لا يريدون ، وإنما أراد به تحقيق حرية التدين
 للناس ، فأمر بالقتال حتى يصبح الدين لله دون إكراه أو إرغام ، إذ كانت
 قریش تحارب من دخل الإسلام .

- وأن المقصود من « الكفار » في قوله تعالى (قاتلوا الذين يلونكم من
 الكفار) هم المحاربون المعتدون ومثله كلمة « الناس » في الحديث الشريف
 أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ألا إله إلا الله (٢) أو المقصود مشركو
 الجزيرة العربية ، فهؤلاء لهم حكم خاص قال تعالى (إلا الذين عاهدتم من
 المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ، ولم يظاهروا عليكم أحداً ، فأتموا إليهم
 عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين ، فإذا انسלخ الأشهر الحرم فاقتلوا
 المشركين حيث وجدتموهم . . . كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم
 إلا ولأزمة ، يرضونكم بأفواههم ، وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون) (٣) .
 ويقرر المفسرون أن هذا الحكم (الإسلام أو القتال) خاص بمشركي الجزيرة
 للتعليل الذي ذكرته الآية الأخيرة ، وهو خطورتهم على الدعوة ونفائهم .
 وكامة « يلونكم » تؤيد هذا الاتجاه فعناها المجاورون والأقربون .
 علاقة الحالة الاقتصادية بالغروب :

بقى موضوع نحب أن نحققه بإنصاف وعمق وهو مكانة الناحية الاقتصادية
 في الفتح ، وقداهتم بهذه الناحية كثير من الباحثين ، وعددها بعضهم العامل
 الرئيسي في التوسع الذي قام به العرب ، يقول توماس أرنولد (٤) إن العرب

(١) سورة البقرة الآية ١٩٣ .

(٢) الأستاذ الأكبر الشيخ شلتوت : الإسلام والعلاقات الدولية ص ٣٧-٣٨ وانظر كتاب
 « الجهاد في التفكير الإسلامي » للمؤلف .

(٣) سورة التوبة الآيات ٤ - ٨ .

(٤) The Preaching of Islam p. 49 (٤)

شعب نشيط فعال ، دفعته يد الجوع والحاجة إلى ترك صحاريه القاحلة واجتياح الأراضي الغنية للشعوب المجاورة المترفة .

ويقول داويت دونلدش^(١) : ونشك في الحقيقة فيما إذا كان الحماس الديني وحده كافياً لحملهم على القيام بهذه الغزوات الواسعة على البلاد المجاورة ، ويبدو أنهم واصلوا اندفاعهم بسبب الحاجة الاقتصادية الشديدة . ويقول الدكتور فيليب حتى^(٢) : إن الحاجة المادية هي التي دفعت بمعاشر البدو ، وأكثر جيوش المسلمين منهم ، إلى ما وراء تخوم البادية الفقراء ؛ إلى مواطن الخصب في بلدان الشمال ، ولئن كانت الآخرة أو شوق البعض إلى بلوغ جنة النعيم قد حجب لهم الوغى ، فإن ابتغاء الكثيرين حياة الهناء واليدخ في أحضان المدنية التي ازدهر بها الهلال الخصيب كان الدافع الذي حجب لهم القتال .

هل هذا الكلام صحيح ؟ وهل كان البدوي تواقاً إلى حياة الهناء واليدخ ؟ وهل ذلك كان الدافع لهذا البدوي أن يخرج ليهزم أكبر إمبراطوريتين عرفهما تاريخ العلم في ذلك الوقت ؟
نحب أن نقرر أن فكرة ربط الدعوة الإسلامية بالرغبة في الحصول على المال قديمة جداً ، بدأت منذ بدء الإسلام واتهم بها محمد نفسه قبل أن يهجم بها العرب والبدو بمدة طويلة ، ووجدت أدلة كثيرة تقوض هذه التهمة ، ولكنها مع ذلك لا تزال حية .

لقد اتهمت قريش محمداً بأنه طالب مال وعرضت عليه ثرواتها لتكفه عن دعوته ، فصاح : والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي ما تركت ذلك الأمر

وافتقر محمد بعد غنى ، وافتقر أبو بكر بعد غنى ، وافتقر عمر الذي آل له السلطان على الإمبراطوريتين العظيمتين وظل يعيش في تمشف ظاهر ، وافتقر عثمان بعد غنى عظيم ، ومع هذا بقيت التهمة بأن المسلمين حاربوا لأنهم كانوا طالبي مال وثراء .

وعند البدء في غزو فارس برزت هذه التهمة في عقل رسم قائد الفرس

(١) عقيدة الشيعة ص ١٨ .

History of the Arabs Vol, I, pp 195-196 (٢)

وظن أنه يستطيع أن يرضى هؤلاء البدو بخفئات من ذهب الفرس وينجو من قتالهم ، فطالب من سعد بن أبي وقاص أن يوجه إليه بعض أصحابه فوجه إليه المغيرة بن شعبة ، فقال رسم له قد علمت أنه لم يحملكم على ما أنتم فيه إلا ضيق المعاش وشدة الجهد ، ونحن نعطيكم ما تشبعون به ونصرفكم ببعض ما تحبون^(١) والعجيب أن الدكتور حتى ذكر هذه القصة حجة لدعواه ونسى أن رأى رسم المغيرة من رسم ومن رأيه ومن ماله ، وحيث صاخب به بالأمناس لكم من واحدة من ثلاث : الإسلام أو الجزية أو القتال .

والذي ظنه رسم ظنه فيما بعد ملك الصين عندما زحف قتيبة بن مسلم على هذه الأصقاع وأتاب عنه هيرة الكلاني لمقابلة ذلك الملك ، فقال له الملك : قل لصاحبك (يقصد قتيبة) إني عرفت حرصه وقلة أصحابه ، فليصرف وإلا بعثت عليه من يهلكه . فصاح به هيرة : كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون ! وكيف يكون حريصاً من خلف الدنيا قادراً عليها وغزاًك ؟ وأما تخوفك إيانا بالموت فإن لنا أجالا إذا حضرت فأكرمها القتل فلسنا نكرهه أو نخافه .

وعلى هذا فهذه التهمة قديمة وردّها أيضاً قديم كما ترى ، على أننا لا نحاول أن ننكر أنه كان بين المحاربين العرب من كان يحب المال أو يسعى إليه ، ولكن الذي ننكره بقوة وإيمان هو أن يكون الدافع لهذه الحروب هو المال ، ومعنى الدافع هو القوة التي ترسم الخطط وتوجهه ، وهو كذلك الإحساس الداخلي الذي يحث المحاربين على العمل لتحقيق الأهداف التي رسمت لهم ، هذا الدافع كان إسلامياً صرفاً ، وإذا جاء المال فهو تابع له ولكنه لم يكن قط هدفاً لذاته ، ولعل Stanley Lane - poole كان أقرب المستشرقين إلى هذا الانجاء أنسلم فهو يقول : إن المحقق أن تمس العرب للفتوح كان يؤججه عنصر قوى من التعصب للدين ، والرغبة في نشره ، فقد حاربوا لأن مثوبة الشهداء وكثوس السعادة والنعم كانت تنتظر من يقتلون في سبيل الله ، غير أننا

لاستطيع أن ننكر أن ثروة الفياصرة والأكاسرة ، والأراضي الخصبة ، والمدن العامرة في الممالك المجاورة ، كانت عاملاً كبيراً في تحمس المسلمين^(١) . ربما كانت الرغبة في الثراء عند بعض المحاربين عاملاً ، ولكنها لم تكن قط الدافع الرئيسي لهذا الصراع ، ونضع فيما يلي بعض الأدلة لإبراز هذا الرأي .

أولاً - صارع المسلمون الشرك في قلب الجزيرة العربية أكثر من عشرين عاماً سقط فيها الكثيرون من خيرة المسلمين في الغزوات وحروب المرتدين والمتذبذبين ومناعى الزكاة ، وكانت كل هذه الحروب تدور في البادية الفقراء كما سماها الدكتور حتّى ، بعيدة عن الأطماع في الأرض التي سماها مواطن الخصب وحياة الهناء بالشمال ، فما الدافع لكل هذه الضحايا ؟ أضف إلى ذلك أن المسلمين طالما حاولوا الانتصار دون حرب ودون غنائم كما سئرى في فتح مكة ، وطالما ردوا غنائم حصلوا عليها إذا أسلم أصحابها كما سئرى في غزوة حنين والطائف .

ثانياً - أى مال كان يمكن أن يتطلع إليه المسلمون والوصول إليه مخوف بالمخاطر ، وقد سبق أن أوردنا أن عمر بن الخطاب حينما دق بابّه أحدُ الصحابة وهو نائم ليلا هبّ مذعوراً وهو يقول : ما هو ؟ أجاءت غسان ؟ وقد عاش البدو آلاف السنين في هذه الجزيرة القاحلة وكانوا يعرفون الخيرات في الشمال ، ولكن أحلام أحدهم لم تصل إلى أن يطمع أن يملك عروش الملوك وأن يجعلها تخضع لسلطان البدو الذين لا سلاح لهم ولا درية ولا عدد ، في حين كان للروم والفرس جيوش جرارة ، وعناد قوى ، ونظام كامل . وقد كان العرب لذلك يخافون حرب الروم ، وسئرى الهزيمة التي ستقع بهم في غزوة مؤتة ، وسئرى ترددهم في غزوة تبوك . وقد عبر عمر بن الخطاب وهو من هو قوة وبقينا عن قوة الروم بقوله : إنها الروم ربنا الأصفر ، عزم حديد وبأس شديد .

ثالثاً - لقد حافظ المسلمون قبل أن تكتسحهم الأطماع الدخية . على حياة التقشف والزهد ، وعندما حاصروا حصن بابلين بعد أن فرغوا من

لشام وغارس كانوا لا يزالون على بساطتهم وصفاتهم ، وقد أرسل لهم
ثلاثون رسلاً ليتعرفوا له أحوالهم فعاد الرسل إلى المقوقس وقالوا له : رأينا
نوماً الموت أحب إليهم من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من الرفعة ، ليس
لأحد منهم في الدنيا رغبة ولا نعمة ، جلوسهم على التراب ، وأميرهم كواحد
منهم ، ما يعرف كبيرهم من صغيرهم ولا السيد فيهم من العبد

رابعاً - طال حرب المسلمين مع سكان شمال إفريقيا وامتدت ،
وسقط فيها عدد من الضحايا ، وكثير من بقاع الشمال الإفريقي صحراء قاحلة .
خامساً - لقد وقعت معارك شنيعة في داخل صفوف المسلمين ،
بدأت بموقعة الجمل واستمرت بعد ذلك ، وسقط آلاف الضحايا في هذه
المعارك ، وما كانت تضيف أرضاً خصبة ولا حياة هناك وبذخ .

ما الدافع الحقيقي لهذه الحروب ؟

إنها العقيدة التي رخص من أجلها كل شيء ، إنها الرغبة في الحصول على
إحدى الحسنيين ، وهانت من أجل ذلك كل تضحية ، لقد كانت هناك أطماع
مالية ، ولكن هذه بدأت متأخرة وكانت عند من لم يتعمق الإيمان في نفسه ،
وكانت على العموم عاملاً ثانوياً ، من ذا الذي يحمل رأسه على يده ويقابل بها
أقوى جيوش الدمار والفتك لينال من بذخ العيش في أحضان الهلال
الخصيب ، والتاريخ الإسلامي مملوء بقصص البطولة ، وبهؤلاء الذين نسيمهم
بالفدائين الذين يلقون بأنفسهم في مراكز الخطر ليهلكوا وينجو الإسلام
وترتفع راية هذا الدين ، أين المال وترف الدنيا لهؤلاء الشهداء ؟

وقد استمرت الحروب دائرة بين الفرس والروم مئات السنين ، وكانت
حروب أطماع ودنيا ، ولكن هؤلاء أو أولئك لم يستطيعوا أن يحرزوا نصراً
مؤزراً ، لشيء واحد هو قلة العقيدة ؛ فلما هاجهم البدو بسلاح العقيدة
فلَّ سلاحهم كل سلاح وهاوت جيوش الفرس والروم تحت أقدامهم .

والآن بعد أن أوضحنا براءة الإسلام من تهمة انتشاره بالقوة ، وأوضحنا
أن العامل الاقتصادي لم يكن هدف المسلمين وسبب انتصارهم ، وأوضحنا
السبب في الحروب التي قام بها الرسول وأصحابه من بعده ، نخطو خطوة

جديدة لتقدم دراسة عن الحروب التي تمت في عهد الرسول . ثم تتبعها فيما بعد - عند الكلام عن الخلفاء الراشدين - بالحديث عن الحروب التي وقعت ضد الفرس والروم .

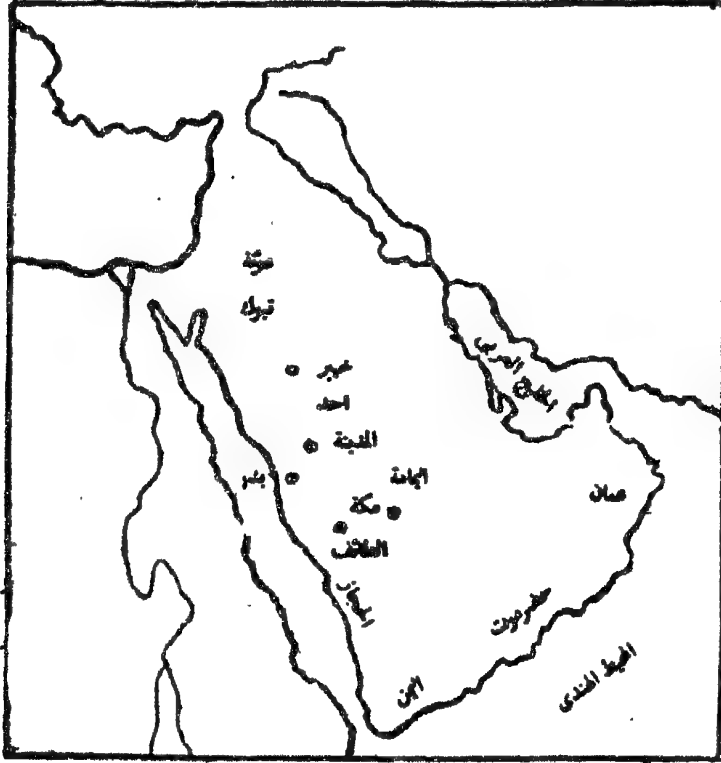
الغزوات والسرايا

تطلق الغزوة على الجيش الذي قاده الرسول بنفسه لمقابلة عدو ، سواء حصل قتال أو لم يحصل ، أما السريّة فتطلق على الجيش الذي وكل الرسول عنه نائباً لرياسته . وهذا اصطلاح غالب ، فقد تطلق كلمة « غزوة » على ما هو في الحقيقة سرية . كغزوة مؤتة .

وكتابة تاريخ الغزوات أو تدريسها يختلف باختلاف ثقافة القارئ أو الطالب ، فإذا كانت الكتابة بالحلقات العسكرية أو كان التدريس بالكتليات العسكرية فإن الاهتمام يتجه للمواقع الاستراتيجية . والتكتيك الحربي ، والحيل التي يقوم بها كل فريق رجاء النصر ، كما يتجه لدراسة التدريب والأسلحة والإمدادات وغير ذلك ، ولكن كتابة تاريخ الغزوات والسرايا أو تدريسها للمدنيين يختلف عن ذلك ، لأنه يتجه أكثر بما يتجه إلى دراسة نتائج المعركة لا إلى سيرها ، ويُعنى بإيضاح ما ترتب على النصر أو الهزيمة من نظم وحضارات أما سير المعركة فليس كبير الخطر بالنسبة لطلاب ، وسُئني في دراسة الغزوات والسرايا هنا بالانجائين جميعاً ، مولين أهمية أكبر إلى ما ترتب على التوسع الإسلامي من سير الإسلام وانتشار حضارته .

ويقول المؤرخون إن الرسول اشترك في سبع وعشرين غزوة وقاتل في تسع منها : وإنه أرسل ما يقرب من ستين سرية ، ولا نزاع أن بعض هذه لم يكن بعيد الخطر ولم يذكر عنه المؤرخون معلومات كافية ، ولذلك سنكتفي هنا بالحديث عن الغزوات والسرايا ذات الأثر في سير الإسلام وتقدم المسلمين^(١) (انظر الخريطة رقم ٣) .

(١) اورد ابن القيم معلومات كافية منظمة عن مغازي الرسول وبعوثه . انظر زاد المعاد : الجزء الثاني والثالث ، وانظر الغزوات والسرايا في ابن هشام ٣ : ٣٥٤ وما بعدها .



(خريطة جيم ٣)

مواقع أشهر النزوات

غزوة بدر الكبرى

زمنها : في السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة .
مكانها : عند بئر بين مكة والمدينة ، وكانت هذه البئر مملوكة لرجل اسمه بدر فسميت باسمه^(١) .

مقدمة :

في شهر إبريل سنة ١٩٧٧ أتيح لي أن أزور مواقع هذه الغزوة ، وأن أرى بئر بدر وأمس ماءها ، وماؤها لا يزال يندفع ، ولكن المجرى الذي يستقبل هذه المياه بعيد عن النظافة ، ورأيت كذلك المكان الذي دارت فيه المعركة بين الحق والباطل ، والمكان الذي دفن فيه شهداء بدر ، وقرأنا لهم الفاتحة وبعض سور من القرآن الكريم ، كما رأينا المسجد الذي يقال إنه بُني في مكان العريش الذي كان الرسول يدير منه المعركة .

ولقد تخيلت وأنا هناك أبطال المسلمين الأول وهم يسخرون من قوة أعدائهم ويقابلونهم بقلوب ملؤها الإيمان ، فيُنزلون بهم بعون الله أفدح هزيمة . ما أحوجنا قادة وشعباً إلى التعرف على أجداد السابقين لننصير على شراذم البشر من الصهاينة الذين اغتصبوا الديار وهاجموا الدمار .

سبب غزوة بدر :

إن غزوة بدر كانت نتيجة طبيعية للهجرة إلى المدينة ، فقد أرادت قريش أن تقتل محمداً وهو بنكة ، ولكن محمداً نجا من هذه المؤامرة وهاجر إلى المدينة ، وأصبحت المدينة مركزاً إسلامياً حراً طليقاً ، وهو بالإضافة إلى تهديده لأوثان قريش ، يهدد تجارتها الصاعدة والهابطة بين مكة والشام ، وإذا نجح المسلمون في تهديد تجارة قريش ، وجبسوا تجار مكة بحيث لا يصعدون للشمال ، فالويل والبوار لهؤلاء التجار ولتجارهم ، ومن

(١) ياقوت : معجم البلدان : ١٢٨ .

أجل هذا أصرت قريش على أن تقضى على هذا المركز الجديد الذى يهدد حياتها الدينية والاقتصادية جميعاً ، وراحت تُعيدُ العدة لزحف يكتسح من الطريق هؤلاء الذين يريدون أن يربضوا فيه .

هذا من جهة قريش ، وأما من ناحية المسلمين فإن تاريخهم يقرر أنهم احتملوا ألواناً من الضغط والعدوان إبَّان إقامتهم فى مكة ، فلما اشتد عليهم الطغيان تركوا ديارهم وأموالهم ، وهاجروا بدنيهم إلى المدينة ، ولكن قريشاً لاحقهم ، ودبَّرت الوسائل للقضاء عليهم بالمدينة حتى لا يهددوا تجارتهم وحتى لا يستمروا فى ذم آلتهم ، فوجد المسلمون أن القوة هى الطريق الوحيد لحمايتهم بعد أن عجزت كل الطرق السلمية لمنحهم هذه الحماية . وهكذا يرى الباحث أن الأمر قد أصبح بحيث صارت المعركة هى الشيء الوحيد الذى يحسم الأمر ، وأن هؤلاء وأولئك استقر رأيهم على النزول إلى ميدان القتال ، ليعتد ذلك الميدان نتيجة هذه الحصومة الطويلة .

وحدثت حادثة صغيرة يمكن أن نسميها (القشة التى قصمت ظهر البعير) تلك هى حادثة قافلة قريش التجارية ، التى كانت عائدة بتجارها من الشام إلى مكة ، وكان يقودها أبو سفيان بن حرب ، فقرر المسلمون أن يتعرَّضوا طريقها ليشبثوا لقريش قوتهم ، ولينالوا من أموالهم إن أمكن ذلك ، فطَّارَ أموال المسلمين التى سلبتها قريش عقب هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة ، إذ كان المشركون قد استولوا على أموال من هاجر من المسلمين ، حتى أن الرسول عندما عاد لمكة معتمراً فى العام السابع سأله أسامة : فى أى المنازل تنزل ؟ فأجاب : وهل ترك لنا عقيل منزلاً ؟ نحن نازلون بوادى كنانة . فقد كان عقيل قد استولى على منزل الرسول وباعه ، كما استولى هو وأخوه طالب - وكانا كافرين - على منازل أبيهما أبى طالب وحرماً منها أخويهما علياً وجعفر المسلمين (رواه البخارى) .

وعلى هذا خرج المسلمون لملاقاة القافلة ، ولكن أباً سفيان علم بخروجهم عن طريق عيونه وجواسيسه الذين كانوا يتقدمون القافلة ، فأرسل إلى مكة يطلب من قريش أن تسرع لحماية أموالها التى يريد المسلمون أن يأخذوها ، فخرج جيش قريش ، وكان عدده حوالى الألف فيهم أبطال

قريش وعظماؤها . وفي الوقت نفسه استطاع أبو سفيان أن يغير الطريق الذي قصده المسلمون ، وأن يتجه محاذياً البحر وينجو بتجارته .

الجيشان والمعركة :

أفلتت تجارة قريش كما قلنا ، ولكنها في الحقيقة لم تكن الهدف الأساسي الذي تحرك له الجيشان ، ولو كانت الهدف الحقيقي لعادت قريش بعد أن نجحت تجارتها ، ولعاد المسلمون بعد أن يشعروا بالاستيلاء على هذه التجارة ، وعلى كل حال فقد أفلتت القافلة التجارية ولكنها تركت في وادي بدر جيشين على أهبة القتال ، وكل من هذين الجيشين تدفعه عوامل عميقة ليعمل جاهدا رجاء أن يقضى على الجيش الآخر ، وكل من هذين الجيشين يدرك ألاطمأنينة له ولاهدوء ، وهناك الجيش الآخر يتربص به ، حتى أصبحت المسألة قضية حياة أو موت . تعال بنا نستعرض بإيجاز الدوافع الحقيقية التي كانت وراء كل من هذين الجيشين .

فمن ناحية قريش أصبحت شكوكهم حقائق مؤلمة لهم ، لقد كانوا يخافون هجرة المسلمين ظنا منهم أن المسلمين سيعترضون طريق تجارتهم ويهددون حياتهم الاقتصادية ، فأصبح هذا الشك حقيقة واقعة ، فإن محمداً ما كاد يستقر بأصحابه بالمدينة حتى خرج بهم وبدأ يهدد القوافل التجارية ويحاول الاستيلاء عليها ، ولذلك لم يكن هنالك بلدٌ من أن تحارب قريش المسلمين لتقضى عليهم ولتعيد الأمن لطرقها التجارية .

ولايزال هتاف الأصنام يدوى في عقول قريش ، ويحشهم على الانتقام لآلهتهم التي أوشك أن ينتصر عليها إله المسلمين .

وكان أبو جهل من القادة في جيش قريش ، وعداوة أبي جهل للإسلام قديمة وعميقة ، ورثها عن عمه الوليد بن المغيرة صاحب الثروة الضخمة التي تحدث عنها القرآن الكريم في الآيات : . . . وجعلت له ملاممدوداً ، وبنين شعوداً ، ومهدت له تمهيدا (١) فن الضروري لأبي جهل أن يحرس

أفكاره وأفكار عمه ، وماله ومال ذويه ، وأى حراسة أهم من القضاء على العدوان الذى يجثم فى الطريق يهدد التجارة الهابطة والصاعدة ؟

وفى المعسكر الآخر بوادى بدر كان يقف ٣١٤ رجلاً بعضهم من الأنصار الذين تتعرض لمدينتهم لهجوم غادر ، وأكثرهم من المهاجرين الذين كظموا الغيظ سنين طويلة ، واحتملوا الاعتداء المتصل المتلون بمكة ، ثم هاجروا إلى المدينة تاركين المال والأهل ، وإذا بجيوش قريش تلاحقهم .

هل كان من الممكن أن يرتد هذان الجيشان مع هذه اللواحق دون قتال ؟

الجواب . لا ، وهذا ما كان .

بيد أنه فى هذه المواجهة برز شيء جديد ، هو عدم التكافؤ بين الجيشين المتقابلين من ناحية العدد ، ومن ناحية الاقتصاد ، ومن ناحية الحماس المترتب عليهما ، فمن ناحية العدد لم يكن فى مقدور المدينة وحدها أن تقاوم قريشاً وأتباعها ، ومن ناحية الاقتصاد كان جيش المسلمين مثقلاً بتبعات عظام ، فإن المدينة لم يكن من السهل عليها أن تؤوى المهاجرين كلهم ، وتقدم بالحاجات الضرورية فى تلك الفترة الوجيزة من هجرتهم حتى مطلع هذه المعركة . وفى الجانب الآخر كان اقتصاد مكة راسخاً قوياً يمدهم بما يحتاجه المارك من سلاح وطعام ووسائل مختلفة ، ومن ناحية الحماس كانت قريش قوة صاخبة يحسب لها ألف حساب ، تزجروا وتلهف على النيل من المسلمين ، ولم يكن سهلاً على القلة المسلمة أن تواجه هذه الزجوة وهذا الصخب ، وكانت قريش تحظى بتأييد كافة العرب ضد المسلمين الذين كانوا يُعكدون فى نظر الكثيرين متمردين على الوثنية المألوفة .

وهنا تتدخل يد الله لترجح الكفة التى كانت شائلة ، ولتقوى الجماعة التى أحست الضعف ، وفى سورة الأنفال آيات كريمة تصوره حال المسلمين ، كما تصور قوة الله وهى تدخل المعركة وترجح جانب المسلمين على جانب قريش ، قال تعالى :

— إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة

مردفين . وما جعله الله إلا بشري ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم ، إذ يفشيكم النعاس أمة منهم ، وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ، ويذهب عنكم رجز الشيطان ، وليربط على قلوبكم ، ويثبت به الأقدام ، إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم ، فثبتوا الذين آمنوا ، سألني في قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان (١)

— إذ يريكمهم الله في منامك قليلاً ولو أراكمهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ، ولكن الله سلم ، إنه عليم بذات الصدور ، وإذ يريكمهم إذ التقيم في أعينكم قليلاً وبقلالكم في أعينهم ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ، وإلى الله ترجع الأمور (٢)

والناظر في هذه الآيات يرى المدد المادي الذي قدمه الله لأهل بدر من المسلمين ، إذ بعث لهم ملائكة تقاتل في صفوفهم ، كما يدرك المدد المعنوي الذي أمدهم الله به ، فقد أرى رسوله في منامه أن عدد قريش قليل ، فشجعت هذه الرؤيا المسلمين على خوض المعركة ، وأبعدت التنازع من صفوفهم بعد أن طمأنتهم هذه الرؤيا إلى قلة عدد أعدائهم ، وفي نفس الانجاء سحج الله الرؤيا جزئياً عند اللقاء فرآهم المسلمون قليلاً ، وشجعهم ذلك على خوض المعركة ، ومثل هذا حدث لقريش فقد رأت المسلمين أقل من الحقيقة فاستخفوا بهم ، ثم هناك أيضاً القوة المعنوية التي ثبتت المسلمين وألقت الرعب في قلوب قريش .

ومن أجل هذا نقرر أن قوة الله كانت في المعركة وبها تحقق النصر قال تعالى : فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى (٣) .

(١) سورة الأنفال الآيات ٩ - ١٢

(٢) نفس السورة الآيات ٤٣ - ٤٤ .

(٣) نفس السورة الآية ١٧ .

عود إلى المعركة :

وتحدثنا الروايات التاريخية عن بعض الجهورد التي بذلها حكيم بن حزام وآخرون لمنع الحرب ^(١) ، ولكن هذه الجهود توقفت بسبب إصرار أبي جهل على الحرب ^(٢) ، وسرعان مابرز من قريش ثلاثة يعدون من خيرة أبطالها ، وهم ينتسبون إلى عتد رفيع وأرومة عريقة ، وهم في الوقت نفسه أساطين بيت واحد ، أولئك كانوا : عتبة بن ربيعة وابنه الوليد وأخوه شبة ، وعتبة هذا جد معاوية بن أبي سفيان لأمه ، فهو أبو هند ، والوليد أخوها ، وشبة عمها . وانخلع هؤلاء الأبطال من معسكر قريش واتجهوا إلى الفراغ الذي يفصل بين الجيشين وصرخوا في المعسكر الإسلامي : من يبارز ؟ .

ولم يكن من الممكن أن يحتفل المسلمون هذا التحدي ، وهم الذين هانت عليهم الدنيا . وضخوا بأغلى ما فيها ، بالمسال والبنين من أجل العقيدة ، وحينئذ اختار الرسول من معسكره ثلاثة قريبي الصلة به ، وقدمهم للمبارزة ، وكان هؤلاء عمه حمزة وأبني عمه عبيدة بن الحارث وعلى بن أبي طالب ، ودار صراع عنيف بين هؤلاء الأبطال الستة ، وثار الغيار وكثف حتى لم يعد الناس يستطيعون رؤية المتبارزين ، وكان لمعان السيوف يبدو للناس بين الغبار كأنه البرق بين الغمام ، وكانت صيحات الأبطال تشق الفضاء الصامت حولهم بعد أن خيم على الناس الوجوم والحذر ، ثم انجلت الموقعة عن قتل المشركين الثلاثة : قتل على قرنه الوليد ، وقتل حمزة قرنه عتبة ، وسقط شبة بسيف الثلاثة ، وعاد حمزة وعلى سالمين وأصيب عبيدة بجراح بليغة مات بها ^(٣) .

وصارت تلك المبارزة عاملاً كبيراً يدعوا للحرب له فروية الدم أثارت الحمية والحماسة في الجانبين ، وهزيمة أبطال قريش كانت العار كل العار ، وبنو

(١) ابن هشام ٢ : ٦٧ وابن القيم : زاد المعاد ٢ : ٨٨

(٢) المرجعان السابقان .

(٣) ابن هشام ٢ : ٦٧ .

عبد شمس أصحاب العير والنفير الذين يضرب بهم المثل في القوة ما كان لهم أن يعودوا في ذلك الجؤ من الخزى والمزيمة .

وعلى هذا التقى الجيشان ، ودار صراع مرير ، بين القوة في جانب قريش ، والعقيدة في جانب المسلمين ، بين اعتداء المشركين ودفاع المسلمين ، أو قل بين جماعة قريش التي تستطيع أن تعيش إن انهزمت أو انتصرت ، وبين المسلمين الذين كانوا يدركون أنهم إن انهزموا فعنى ذلك فناؤهم والقضاء عليهم وعلى الدين الذي اعتنقوه ، وفي ضوء هذه الدوافع سجل المسلمون انتصاراً باهراً ، ومزقوا شمل علوهم ، وقتلوا سبعين من خيرة أبطالهم فيهم القائد أبو جهل ، الذي أجهز عليه عبد الله بن مسعود ^(١) ، وفيهم كذلك أمية بن خلف الذي خر بسيف بلال ، فانتقم بذلك بلال لنفسه من التنكيل الذي عاناه قبل الهجرة من أمية بن خلف سالف الذكر ^(٢) ، أما المسلمون فسقط منهم أربعة عشر شهيداً ، وأسر من المشركين جملة من عظمائهم فدوا أنفسهم بالمال وغير المال صاغرين ، وكانوا على وشك أن تضرب رقابهم لولا سماحة محمد وشفاعته أبي بكر ^(٣) ، ولم يقتل من الأسرى إلا اثنان هما النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط ، فقد كانا شديدي السخرية والإيذاء للرسول وللمسلمين في مكة .

أهمية غزوة بدر :

من الممكن أن نقول إن غزوة بدر هي الغزوة الوحيدة التي انتصر المسلمون فيها انتصاراً حقيقياً ، وقد سقط من المسلمين عدد كبير في غزوة أحد ، وأحاط بهم الأحزاب في غزوة الخندق حتى أصابتهم ألوان من العناء ، وانسحبوا في غزوة مؤتة ، وغير ذلك . ولكن هزائمهم هذه لم تضعف شوكتهم بعد أن رسخت أقدامهم

(١) النوى تهذيب الأسماء القسم الأول ج ١ ص ٢٨٨ .

(٢) النوى : تهذيب الأسماء ص ١٣٦ . وفي بعض الروايات أن الذي قتل أمية

هو حبيب بن اساف الخزرجي .

(٣) اقرأ موضوع أسرى بدر في كتاب المجتمع الإسلامي المؤلف : وقرأه كذلك

في زاد المعاد لابن القيم ٢ : ٦٧ .

بالانتصار الذي أحرزوه في غزوة بدر ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يدرك أهمية هذه الغزوة تمام الإدراك، ولذلك كان يهتف مناجياً ربه والمعركة تلور : يارب ، إن تهاك هذه الطائفة فلن تعبد في الأرض^(١) .

ومن هنا تتضح أهمية هذه الغزوة، تلك الأهمية البالغة التي كانت أساساً متيناً لمستقبل الإسلام ، ولذلك سماها القرآن الكريم « يوم الفرقان » قال تعالى : (ويوم الفرقان يوم التقى الجمعان)^(٢) ، ويسمى المسلمون « غزوة الفرقان » لأن الله فرق بها بين الحق والباطل، ومن أجل هذا اهتم المسلمون بذكرى هذه الغزوة ولا يزالون يحتفلون بها في كثير من بلدان العالم الإسلامي حتى اليوم ، وقد سمي كل من حضرها^(٣) من المسلمين « بدرياً » وكانت هذه التسمية شرفاً لا يعدله شرف ، ولو هزم المسلمون في هذه الغزوة لكان من المحتمل أن يتغير وجه التاريخ ، كما أشار لذلك حديث الرسول الذي أوردناه آنفاً وقد كان عون الله أكبر أسباب النصر الذي أحرزه المسلمون ، وقد سجل القرآن الكريم عون الله في الآية الكريمة (ولقد نصركم الله بيدر وأنتم أذلة)^(٤) .

ومن أهم آثار غزوة بدر أن اليهود أزعجهم انتصار المسلمين فأخذوا يصغرون من شأن هذا الانتصار حتى لا يغتر به المسلمون ، وقد أدى ذلك إلى إخراج بني قينقاع كما سبق القول ، كما أدرك اليهود أن هزيمة قريش تختم على اليهود أن يدخلوا الميدان محاربين بعد أن ضعف أملهم في أن قريشاً ستستطيع

(١) ابن هشام : ٦٨ .

(٢) سورة الأنفال الآية ٤١ .

(٣) شخص واحد لم يحضر غزوة بدر ولكنه عد « بدرياً » وهو طلحة بن عبيد الله فقد سافر قبلها بأمر الرسول في تجارة إلى الشام ، ولعل ذلك كان وسيلة من الوسائل التي قام بها المسلمون لتخفيف الضائقة المالية التي كان يعانيها المهاجرون بالمدينة ، واختيار طلحة لذلك له مغزى ، فقد كان معروفاً في مجال التجارة بدقة الحس والمهارة ، وقد عده الرسول من أجل ذلك « بدرياً » وضرب له بأجره (ابن حجر : تهذيب التهذيب وابن عبد البر : الدرر) .

(٤) سورة آل عمران الآية ١٢٢ .

وحدها القضاء على الإسلام والمسلمين ، فبدؤوا يدبرون المكائد للقضاء على الرسول وعلى الدين الذي جاء به كما ذكرنا آنفاً

من أحداث غزوة بدر

الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم :

هناك فتية دخلوا الاسلام بمكة من بنى أسد وبنى غزوم وبنى سهم ، فلما هاجر الرسول إلى المدينة حبسهم أبائهم وأهلهم بمكة ، وفتنهم فافتنوا ، ثم ساروا مع المشركين إلى غزوة بدر ، فأصيبوا جميعا ، ونزل فيهم قوله تعالى « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين في الأرض ، قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأؤلئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا » (١) .

نهاية أمية بن خلف وابنه على :

قبيل نهاية غزوة بدر أدرك أمية بن خلف هو وابنه على أن الدائرة دارت على قريش ، فألقيا نفسيهما أسيرين في يدى عبد الرحمن بن عوف ، وأطمعاه في فدية واسعة ، وفرح بهما عبد الرحمن ، ولكن بلالا مؤذن الرسول رآهما فصاح : ، رأس الكفر لانجوث أن نجا ، وكان أمية يعذب بلالا بمكة أقسى العذاب ليخرجه من الاسلام ، ولكن بلالا احتمل في سبيل الله ، وجاء الدور لبلال ليثار لنفسه في هذه الغزوة ، وتجمع آخرون من المسلمين معه ، وحاول عبد الرحمن أن يحمى أسيريه رغبة في الفداء ، ولكن بلالا وأعوانه تكاثروا على أمية وابنه ، وقضوا عليهما (٢) .

حزمة في بدر :

عندما ألقى أمية بن خلف نفسه أسيرا في يد عبد الرحمن بن عوف ، وقبل أن يقتله بلال ، سأل أمية عبد الرحمن قائلا : من الرجل منك

(١) ابن هشام - ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ والآية من سورة النساء رقم ٩٧

(٢) ابن هشام - ، ص ١٩٨ - ١٩٩ .

المعلم بريشة نعامه في صدره ؟ فأجاب عبد الرحمن : هو حمزة بن عبد المطلب قال أمية : ذلك الذي فعل بنا الأفاعيل ^(١) .

المسلمون قتلوا أقاربهم المشركين في بدر :

ذكرنا من قبل أن أبا عبيدة بن عبد الله بن الجراح قتل أباه في غزوة بدر عندما رأى أن أباه يتصدى له ويحاول قتله ، ولم يكن ذلك هو المثال الوحيد لقتل الأقارب ، فيروى أن عمر بن الخطاب قتل خاله سعيد بن العاص ، وكان سعيد من سرقة قريش وسادتهم ، وفي هؤلاء نزل قوله تعالى « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر ، يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو عشيقتهم ، أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه » ^(٢) .

الرسول يوحى بعدم قتل بعض قريش :

طلب الرسول صلوات الله عليه إلى المسلمين أن يتحاشوا بقدر الإمكان قتل أعداد من القرشيين كانوا في صفوف المشركين يوم بدر ، وكان ضمن هؤلاء بنو هاشم لشدة ما عانوا مع المسلمين وهم يحمون محمداً في مكة ، ولأن بعضهم كان مسلماً يكتّم إسلامه بأمر الرسول ليظل عيناً للمسلمين ، وكان ضمنهم كذلك أولئك الذين بذلوا جهداً لنقض صحيفة المقاطعة حينما كان المسلمون في الشعب يعانون الفاقة والجوع ^(٣) .

مصائب أبي سفيان وزوجته في بدر :

كانت مصائب أبي سفيان وزوجته هند في أغزوة بدر مصائب شديدة قاسية ، فقد قتل عتبة بن ربيعة سيد قومه والهند ، كما قتل عمها شيبة وأخوها الوليد ، وقتل حنظلة بن أبي سفيان ، وأسر ابنه عمرو ، ولذلك لما طلب إلى أبي سفيان أن يفتدى ابنه عمراً قال : أجمع عليّ دى ومالى ،

(١) المرجع السابق ص ١٩٩ .

(٢) سورة المجادلة الآية ٢٢

(٣) سيرة ابن هشام - ٢ ص ٢١٠

قتلوا حنظلة وأفدى عمرا ؟ وحدث أن ذهب شيخ مسلم اسمه سعد بن النعمان إلى مكة معتمرا ، فأخذ أبو سفيان وحيسه وقال : لا أطلقه حتى يطلقوا . عمرا ، وذهب أهل سعد للرسول وطلبوا منه أن يعطيهم عمرا ليفتدوا به أصحابهم ، فاستجاب لهم الرسول^(١) .

نهاية أبي لهب :

كان أبو لهب قد تخلف عن معركة بدر ، وأرسل مكانه العاصي بن هشام ابن المغيرة ، وكان أبو لهب يجلس قلقا ينتظر الأخبار ، فرأى أبا سفيان ابن الحارث عائدا من المعركة ، فقال له أبو لهب : هلم إلى ، فعندك لعمرى الخبر ، فجلس إليه أبو سفيان وأحاط الناس بهما ، فقال أبو لهب : يا ابن أخي ، أخبرني كيف كان أمر الناس ، فأجاب : والله ما هو إلا أن لقينا القوم حتى منحناهم أكتافنا فأخذوا يقتلون فينا ويأسرون كيف شاءوا ، وأيم الله مع ذلك ما ملت الناس ، لقد كان مع محمد رجال بيض على خيل بلق بين السماء والأرض ، والله ما تبقى شيئا ، ولا يقوم لها معارض فاغتم أبو لهب وقام موليا ذليلا ، وما عاش بعد ذلك إلا سبع ليال ، ثم مات^(٢) .

ويقال أنه مات بمرض معد جعلت الناس يتحاشون لمس جثمانه بعد موته ، ويجذبونه بفراشه ويدفعونه بالعصى إلى حفرة .

كعب بن الأشرف يحرض للنار :

كان كعب بن الأشرف أعظم شعراء بني النضير وكان يهجو الرسول والمسلمين ويُشَبِّب بالحرائر من المسلمات (يتغزل فيهن) ، وبعد بدر ذهب إلى مكة ، وهناك أخذ يندب قتلى قريش ويحرض على الأخذ بثأرهم .

وأحس الرسول خطر هذا الرجل فقال : من يكفيني ؟

(١) المرجع السابق ص ٢١٣ .

(٢) سيرة ابن هشام - ٢ - ص ٢١٠ .

قال محمد بن مسلمة الأنصاري : أنا لذلك يارسول الله .

قال الرسول : افعل إن استطعت .

فقال محمد بن مسلمة : فأذن لي يارسول الله أن أقول ببعض ما
لأعتقد حتى أجد طريقا لثقة الرجل . فأذن له الرسول بذلك ، وبدأ محمد بن
مسلمة يعقد صداقة صورية مع عدو الله ، ويظهر له أن الأنصار نالهم الضرر
بسبب ترحيبهم بمحمد وبالمسلمين وخشع عدو الله اليهودي بذلك
فشجع محمد بن مسلمة ليقوم بعمل ضد المسلمين بالمدينة في الوقت الذي
تتجه قريش للنار لقتلها .

وفي لقاء أعده محمد بن مسلمة أيوهم كعب بن الأشرف بتنظيم خطة
العمل بالمدينة ، خلا المسكان لمحمد ورفاقه بكعب فتناول محمد ناصيته بقوة
وسرعان ما اعتورته سيوف المسلمين وأتت عليه .

غزوة بدر وتعاليم الحروب في الاسلام :

وضعت سورة الأنفال التي نزلت في هذه المعركة ، أدق التعاليم
الإسلامية للحروب ، ومن هذه التعاليم مايلي :

— الاستعداد للقاء العدو بكل ما ينبغي من أهبة قال تعالى : (وأعدوا
لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم)^(١).

— الوحدة وعدم التنازع والشقاق ، وإذا كانت هذه الصفات لازمة
في كل حال ، فهي عند الحروب ألزم ، قال تعالى (وأطيعوا الله ورسوله
ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين)^(٢) .

— الثبات في المعركة حتى النهاية بحيث يكون المسلم كالطود الأشم ،

(١) سورة الأنفال الآية ٦٠ .

(٢) سورة الأنفال الآية ٤٦ .

ينتصر أو يقتل وهو بصارع ، قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير) (١) .

— إذا اشتد بالمسلمين الأمر والمعركة تدور فليذكروا الله ، فإنهم يقوون بذكره ، قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) (٢) .

غزوة بدر والتشريع :

ارتبطت ألوان من التشريعات الإسلامية السامية بغزوة بدر ، ونورد هنا من هذه التشريعات بعض النماذج :

أولاً — المشورة وأن ينزل الرئيس عن رأيه إلى رأى المرءوسين إذا كان فى ذلك الخير للمسلمين ، فقد حدث فى غزوة بدر أن أراد الرسول أن ينزل بمجنوده منزلاً ، فسأله الحباب بن المنذر : هل أنزلك الله هذا المنزل أو هو اجتهاد من عندك ؟ فأجاب الرسول بأنه اجتهاد من عنده ، فقال الحباب : أما إذا كان الأمر كذلك فليس هذا بمنزل ، وأشار بإمكان آخر هو مكان بدر ، وارتضى المسلمون هذا المكان ، فانتقل له الرسول بجيشه .

ثانياً — تحذير المسلمين من أن يتطلعوا للأهداف المادية فى الحروب ، بل أن يكون هدفهم النصر لإعلاء لكلمة الله ، قال تعالى (وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين) (٣) .

(١) سورة الأنفال الآية السابعة .

(٢) سورة الأنفال الآيتان ١٥ - ١٦ .

(٣) سورة الأنفال الآية ٤٥ .

ثالثاً - التشريع في توزيع الغنائم وقد ورد ذلك في قوله تعالى (واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) (١) .

تلك هي غزوة بدر وذلك حديثها بإجمال ، إنها معلم من معالم العظمة في التاريخ الإسلامي ، وموقف بطولي وقفته قوة صغيرة فسحقت قوة عاتية جبارة ، وحمى الدمار بعد أن عجزت العدالة والسياسة عن الحماية ، وسيظل رجالها قدوة للشبان المسلمين الذين يريدون الخلود ولو ضحوا بأنفسهم في سبيل الدين والوطن ، فقد برهنت غزوة بدر على أن إطالة العمر ليست بوضع سنوات يضيفها الإنسان بالجن ، فذلك هو الموت الحقيقي ، وكَم من أحياء هم في الحقيقة أموات ، وإنما إطالة العمر تكون بتحقيق هدف وخلود ذكر ، فالموت لا بد أن يعطى الشجاع والجبان ، والسعيد هو الذي يتغلب عليه بذكر طيب يبقى على مر الزمن ، وستكون قوة الله دائماً مع المسلمين في المعركة لو اتجه المسلمون لله وعملوا على نصر دينه قال تعالى (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) (٢)

(١) سورة الأنفال الآية ٤ .

(٢) سورة محمد الآية السابعة .

غزوة أحد

زمنها : في منتصف شوال من السنة الثالثة للهجرة .

مكانها . سفح جبل أحد الذي يقع في الشمال من المدينة .

سببها : كانت هزيمة قريش في غزوة بدر كارثة قاسية عليهم ، وقد عقدوا العزم منذ ذلك التاريخ على الأخذ بالثأر ، وقد أفلتت قافلة التجارة التي سببت غزوة بدر ، ولكن المسلمين عرفوا الطريق الذي سلكه أبو سفيان بالقافلة وقرروا أن يعترضوه ، وحاول صفوان بن أمية بن خلف أن يتخذ طريق نجد إلى العراق ، ولكن المسلمين واجهوه أيضاً وغنموا ما في القافلة من بضائع .

ومن هنا انجبت كل القوى القرشية للملاقاة المسلمين في حرب أخرى ووصلوا لهذه الحرب أموالاً جمّة ، بل وصلوا لها السنة شعراء الكفر مثل ابن عزة الجمحي وسافع بن عبد مناف ^(١) .

وكانت قريش تخاف أن تتكرر هزيمة بدر ، ولذلك نجدهم يستعدون لغزوة أحد استعداداً كبيراً ، فيجمع أبو سفيان حوله ثلاثة آلاف من المقاتلين من قريش ومن عرب تهامة ومن الأحابيش ، والأحابيش هم بنو الحارث وبنو الهون من كنانة وبنو المصطلق من خزاعة ، والكنمة مأخوذة من تحبشوا أى تجمعوا ^(٢) . كما صحب أبو سفيان نساء كبارهم حتى يكون ذلك حائلاً دون فرار الرجال ، كما كانت تقضى بذلك عادة العرب ^(٣) .

ولما سمع الرسول بقدوم هذا الجيش استشار أصحابه فيما يفعل ، فأشار الشبان ومن لم يحضر بدرأ عليه بالخروج للملاقاة جيش الأعداء ، وأشار

(١) ابن هشام ٢ : ١٢٦ وتاريخ الطبري ١ : ١٨٧

(٢) الروض الآنف ٤ : ٢٣١ .

(٣) ابن هشام ٢ : ١٢٦ - ١٢٧ . وابن القيم ٢ : ٩١

بعض الصحابة أن يتحصن المسلمون بالمدينة وأن يتولوا الدفاع من دورها وحاراتها . وكان الرسول يميل إلى هذا الاتجاه ولكن الاتجاه الأول حظى بتأييد أغلب المسلمين وبخاصة من لم يحضر بدرأ رجاء أن ينالوا ما ناله البديريون من شرفه ، وعلى هذا خرج الرسول ومعه ألف مقاتل ، ولكن سرعان ما عاد عبد الله بن أبي بن سلول ومعه جماعة من المنافقين وكان هؤلاء حوالى ثلث الجيش وكانت حجة عبد الله في عودته هي أن الرسول عصاه واتباع رأى الولدان الذين أشاروا بمواجهة الأعداء خارج المدينة ، وسارت المئات الباقية ولكن في تناقل ظاهر سببه هذا الانقسام الذى أحدثه المنافقون^(١) وقد ذكرنا ذلك عند الحديث عن « الرسول والمنافقون » .

ووصل الرسول بجيشه إلى جبل أحد ، وأخذ ينظم هذا الجيش تنظيمًا دقيقًا وإعياً ، واهتم اهتماماً كبيراً بظهر المسلمين خوفاً عليهم من خالد بن الوليد أن يلتف ومعه فرسان قريش الذين كانوا تحت إمرة فيضرب المسلمين من الخلف ، ولذلك اختار الرسول عدداً من خيرة الرماة ، وأمر عليهم عبد الله ابن جبير ، وأوقفهم لحماية ظهر المسلمين من خالد بن الوليد وأتباعه ، وأوصى الرسول عبد الله بقوله : انضح الخيل عنا بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا فائت مكانك ، لا تؤتينا من قبلك^(٢) .

المعركة :

وبدأت المعركة بالمبارزة كالعادة ، فخرج من قريش طلحة بن أبي طلحة فبرز له عليٌّ فقتله ، فتبعة أخوه عثمان فصرعه حمزة ، فخرج أخوهما أسعد فقتله هلى ، فتقدم الأخ الرابع مسافع فقتله عاصم بن ثابت ، ثم بدأت المعركة الشاملة وأظهر المسلمون في مطلعها بطولة رائعة ، وزحزحوا قريشا عن أمكنتها ، وحاول خالد بن الوليد أن يلتف حول المسلمين ولكن المسلمين ردوه^(٣) .

وظهرت طلائع النصر ، وتراجعت قوات قريش ، وبدأ المسلمون

(١) ابن هشام ٢ : ١٢٧ - ١٢٨ .

(٢) تاريخ الطبرى ٢ : ١٩٢ .

(٣) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٩٣ .

يجمعون بعض الغنائم من الضحايا أو الفارين الذين يلقون متاعهم ويولون الأدبار ، ولكن النصر لم يكن قد كمل ، وأخطأ الرماة فأخلوا أمكنتهم ظناً منهم أن المعركة قد انتهت ، وحرصاً منهم على أن يسهموا في إيقاع الهزيمة بأعدائهم ، وعلى أن يأخذوا نصيبهم من الأسلاب^(١) ، إذ كانت الأسلاب التي يجمعها الجندي في ذلك الوقت هي أهم مورد له ، وكانت كثرتها دليل بطولة المقاتل وخوضه المعركة بنجاح ، أما الذي لا يحصل منها على نصيب كبير فكان بعد متخاذلاً لم يخض غمارها ولم يندمج في نارها .

وقد أعطى خطأ الرماة فرصة لخالد بن الوليد الذي كان غتيداً يترقب أن يخلو الطريق إليه ليدور ويضرب المسلمين من الخلف . فلما أخطى الرماة أماكنهم نفذ خالد تدبيره ، وكانت هذه المفاجأة بعيدة الأثر في صفوف المسلمين ، فاضطربوا واختلط عليهم الأمر ، وعمهم الذعر حتى ضرب بعضهم بعضاً^(٢) .

وأصيب الرسول بجراح في وجنته وشُج في رأسه، وكسرت رباطه ، وسقط في إحدى الحفر وقد خضبته الدماء^(٣) . وصاح صائح قريش إن محمداً قد قتل ، ولعل المشركين صدقوا ذلك فاكثفوا بهذا وأوقفوا القتال ، وقد حاول كعب بن مالك الأنصاري أن يعلن أن محمداً لم يمُت ، ولكن الرسول أسكنه خوفاً من أن تستمر المعركة فتزيد الضحايا من المسلمين^(٤) . وقد قتل في هذه المعركة سبعون رجلاً من المسلمين فيهم البطل حمزة عم النبي ، وقد مثلت هند بنت عتبة (الذي قتله حمزة يوم بدر) وزوجة أبي سفيان ، بجثة حمزة وشقت بطنه وأخرجت كبده ، وحاولت أكلها^(٥) . ولذلك يقال لماوية : ابن آكلة الأكباد^(٦) . وقاتل حمزة غلام

(١) ابن قتيبة : المعارف ص ٩٧ .

(٢) ابن القيم : زاد المعاد ٢ : ٩٣ .

(٣) تاريخ الطبري ٢ : ٢٩٨ وابن هشام ٢ : ١٣٦ .

(٤) ابن هشام ٢ : ١٣٦ - ١٣٧ وابن القيم ٢ : ٩٤ .

(٥) ابن هشام ٢ : ١٣٦ .

(٦) الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ص ٩١ .

حبشي اسمه «وحشى» كان يجيد قذف النبال ، وقد أغراه بقتل حمزه سيده جبير ابن مطعم ، وقال له : إن قتلت حمزة بعني طعيمة بن عدى فأنت حر ، فخرج وحشى وأخذ يترصد من حمزة فرصة حتى لاحت له ؛ فأطلق نباله خلصة ، فمخر حمزة صريعاً ، وقد أسلم وحشى بعد ذلك واشترك في حرب المتنبئين ، ويروى أنه قتل مسيلمة الكذاب ، ولذلك كان يقول : قتلت شر الناس وقتلت خير الناس بعد الرسول^(١) .

القرآن الكريم وغزوة أحد :

لقد صورت سورة آل عمران غزوة أحد أدق تصوير ، قال تعالى في هذه السورة « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ، إن بمسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداؤها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ، وليعلم الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ، أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ، ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون ، وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين ، وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ، ومن يرد ثواب الدنيا ينؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها ، وسنجزي الشاكرين^(٢)

وقال تعالى : « ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسنهم بإذنه ، حتى إذ فشلتم وتنازعتم في الأمر ، وعصيتهم من بعد ما أراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين . إذ تصعدون ولا تلوون على أحد ، والرسول يدعوكم في أخراكم^(٣) ،

(١) ابن هشام - ٢ من ١٢٧ و ١٢٢

(٢) سورة آل عمران : الآيات ١٣٩ إلى ١٤٤

(٣) سورة آل عمران الآية ١٥٢ - ١٥٣ .

ونورد هنا تعليقات وشروحات سريعة لهذه الآيات :

١ - حقق الله لكم النصر أول الأمر في أحد كما وعدكم ، فأعلمتم في أعدائكم القتل والضرب « ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم (تقتلونهم) بإذنه » ، ولكنكم بعد ذلك دب فيكم الفشل والزراع وعصيتكم أمر القائد الأعلى ، وظهر منكم من يسمعون للمال وللدنيا ، فحققت عليكم الهزيمة للابتلاء والاختبار أولاً وحتى لا تعودوا لذلك مرة أخرى .

٢ - وكان ثبات الرسول عملاً عظيماً فقد وقف كالطود الشامخ يدعوكم للسودة للنضال « إذ تصعدون ولا تلون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم » .

٣ - ولا تكن هزيمتكم سبب ضعف واستكانة فإنكم الأعلون وكفتمكم في النهاية هي الراجحة ما دمت متمسكين بإيمانكم « ولا تنهوا ولا تخزنوا وأتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » .

٤ - الحرب هكذا يوم لك ويوم عليك . فإذا كنتم قد أصابكم قتل أو جراح في الأجسام ، وترك هذا في النفوس جراحاً فقد حدث مثل ذلك لأعدائكم من قبل ، فهذه طبيعة الحرب « إن يمسخكم قرح » .

• - هذه الهزيمة الوقتية ذات فائدة لأنها تنقي وتطهر جماعة المؤمنين من ضعاف القلوب ومن المترددين « ولیمحص الله الذين آمنوا . . . » .

٦ - إن الثواب بقدر المشقة والصبر على الشدائد والكوارث من أهم عوامل دخول الجنة .

٧ - ولقد كنتم تمنون الموت في سبيل الله ، فهذا هو وقع لأهليكم أمامكم فعليكم أن ترضوا بما حدث .

٨ - محمد رسول الله السابقين وسيموت كما ماتوا ، فلا يكن موته سبب اضطراب أو ارتداد .

٩ - الموت آت لا محالة ، والانتشاد أشرف أنواع الموت .

١٠ - لا يضعفنكم ما أصابكم يوم أحد فستقذف الخوف والرعب في قلوب أعدائكم المشركين ليتحقق لكم ألوان جديدة من النصر .

غزوة حمراء الأسد

تعتبر غزوة حمراء الأسد جزءاً من غزوة أحد ، فالرسول أراد بها أن يوقف نتائج غزوة أحد عند الحد الذي وقع يوم الغزوة ، وكان يوم السبت منتصف شوال ، فاتجه في اليوم التالي (يوم الأحد السادس عشر من شوال) لما سمي غزوة حمراء الأسد ليضعف حماسة قريش إلى العودة لاستئصال المسلمين بعد هزيمتهم في أحد ، وكان هذا التصرف من الرسول دليل عبقرية عسكرية هائلة ، وتقدير للأمر من مختلف نواحيها .

وكان الرسول عقب غزوة أحد يتوقع غدراً من قريش ، ولم ينتظر الرسول ليرى مظاهر هذا الغدر ، بل احتاط حيطة رائعة ، فراه يطلب أن يؤذن مؤذنه في الناس أن هلموا لطلب العدو ، وأضاف الرسول أنه لن يخرج معنا أحد لم يحضر معنا معركة الأمس وحينئذ جاء جابر بن عبد الله ليقول له : يا رسول الله إن أبي كان قد خلفني على أخواني السبع ، وآثر نفسه بالجهاد معك أمس وسقط في المعركة . فأذن لي أن التحق بجيشك اليوم فإن لم أتخلف أمس إلا لهذا العذر ، فأذن له الرسول بذلك وخرج الرسول وصحبه إلى حمراء الأسد على بعد ثمانية أميال من المدينة واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم .

وعلى الطرف الآخر يُروى أن أبا سفيان بن حرب ومن معه من قريش أجمعوا أن يعودوا من الطريق للقضاء على المسلمين ، وكانوا يقولون قتلنا أشرفهم وقادتهم ، ثم نرجع قبل أن نستأصلهم ؟ إن هذا خطأ كبير ، وعلينا أن : ود إليهم لنأتى على بقيتهم ولنفرغ منهم .

وبيما كان أبو سفيان يأخذ أهبة للعودة إلى المدينة مر به معبد بن أبي معبد الخزاعي ، ويقول ابن هشام إن خداعة مسلمهم ومشرِكهم كانت مكن سر الرسول صلوات الله عليه ، وموضع تقديره وكان معبد يومئذ مشركاً فقال للرسول عقب هزيمة أحد : يا محمد أما والله لقد عزَّ علينا ما أصابك ولوددنا أن الله نصرَك عليهم ، وسار معبد فقابل أبا سفيان بن حرب

بالروحاء ، ورآه وهو يستعد للعودة إلى المدينة ، فلما رأى أبو سفيان معبداً قال له : ما وراءك يامعبد ؟ قال معبد : محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط ، يتحرقون عليكم تحرقاً ، قد اجتمع معه من كان قد تخلف عنه في يومكم ؛ وندموا على ما صنعوا ، وفيهم من الحق عليكم شيء لم يعرف مثله ، قال أبو سفيان : ويحك يامعبد ما تقول ؟ لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم ، قال معبد : إني أنهارك عن ذلك ، وقد أردت لكم السلامة .

وبقى الرسول في حمراء الأسد ثلاثة أيام هي يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء ، ثم رجع إلى المدينة بعد أن تأكد له أن قريشاً تنافرت إلى مكة ، وفي عودته ألقى المسلمون القبض على الشاعر الخائن « أبو عزة - الجمحي » الذي أكثر الهجاء ضد المسلمين وقد ذكرنا أنه كان ضمن أسرى بدر ، وأن الرسول من عليه على أن يكف عن هجاء المسلمين ، وتعهد أبو حرة بذلك واكتفه حنث في وعده ، وصاح يؤلب العرب على الثأر لقتلى بدر فلما أسره المسلمون بعد حمراء الأسد عاد يقول للرسول : يارسول الله أفلنى ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : والله لا تمسح عارضيك بمكة وتقول خدعت محمداً مرتين : اضرب عنقه يازبير . فضرب عنقه^(١) .

وهكذا استطاع الرسول بموهبته أن يهرب العدو ويفت في عضدهم ويوهمهم أن بالمسلمين قوة ، وأن الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم ، وفي غزوة حمراء الأسد نزلت الآية الكريمة « الذين استجابوا لله وللرسول من بعد ما أصابهم القرح ، للذين أحسنوا منهم واتفقوا أجر عظيم ، الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل ، لم يمسه سوء ، واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم^(٢) » .

(١) سيرة ابن هشام ج ٥ ص ٤٤

(٢) سورة آل عمران الآيات ١٧٢ - ١٧٤

الهزيمة التي أخافت المنتصر :

ولنعد إلى غزوة أحد لنقرر أن هزيمة المسلمين في هذه الغزوة أبرزت مجموعة من صفات المجد التي يتحلى بها المسلمون ، فمع الهزيمة برزت أنبل الصفات من ثبات وتضحية وصمود وعزيمة وإيمان وبطولة وسواها من صفات الشرف ، فكانت هزيمة لانهيار فيها ولا استسلام ، هزيمة يطيب ل أن أصنفها بعد طول قراءة وتريث أنها أخافت المنتصر ، وجعلته يدرك أن الحصول على الانتصار على المسلمين ليس أمراً هيناً ، وأنه إن حدث مرة لسبب أو لآخر فليس من السهل أن يتكرر حدوثه .

ويمكننا أن نقول إنه بسبب انتصار المسلمين في غزوة بدر وبسبب موقفهم المشرف أو قل هزيمتهم المشرقة في غزوة أحد قررت قريش أن تكف عن حرب المسلمين وإن كانت لم تعلن هذا القرار ، والباحث في ثنايا التاريخ يجد الهدوء والنكوص والتردد تحل محل ما كانت تتصف به قريش من حماسة وعدوانية ضد المسلمين ، حتى أن قريشاً عندما هاجمت المسلمين بعد هذا في غزوة الأحزاب لم تكن وحدها ولم تكن هي مدبرة الهجوم ، بل إن اليهود هم الذين دبروه وجمعوا له جموع الأحزاب ومن بينهم قريش على ما سيظهر عند الحديث عن غزوة الأحزاب ، وكانت قريش أسرع المنسحبين في غزوة الأحزاب ، كما سنرى ، ويروى عن الرسول أنه قال عقب انسحابهم : لن تغزوكم قريش بعد عامكم . وبعد غزوة الأحزاب لجأت قريش إلى الصلح عام الحديبية ، وكانت قد وهنت عظامها ، وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله : (ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً^(١)) .

ولنبرز فيما يلي بعض جوانب المجد التي أبرزها المسلمون في غزوة أحد .
وأول من نتحدث عنه في غزوة أحد هو محمد صلى الله عليه وسلم الذي انجحت ضده كل قوة المشركين ، وجعلت القضاء عليه هدفها الأسمى ،

ولكنه وقف كالطود الأشم لا يززع ، ولقد أدركه أبي بن خلف الجمحي وقد أخذ منه الإعياء مأخذه ، فقال أبي : أين محمد لأقتله ؟ فأراد بعض المسلمين أن يتصدى له ولكن الرسول قال لهم اتركوه ، وتناول الحربة من الحارث بن الصمة الأنصاري ثم طعنه بها في عنقه فكدّر أبي منهزماً وهو يصرخ قتلني محمد ، ففحص المشركون جراحه وقالوا له : ما بك من بأس فجراحك ليست عميقة الغور . فقال : كذبتم ، والله لو يصبق على لقتلني ، وصدق حدس عدو الله ، فات من جراحه في مرجعه إلى مكة ، وقد سبق أن أوردنا هذه الحادثة عند الكلام عند تربية الرسول للقوة العسكرية.

وعندما تجمعت قوى الشر كلها ضد الرسول ، وقف سبعة من الأنصار ينددون عنه وصارعوا صراعاً مريراً حتى قتلوا جميعاً دونه وكان آخرهم عمارة بن يزيد بن السكن ، ووقف أبو دجانة متخذاً من ظهره ترساً يقي به الرسول ، فأخذ النبل يقع فيه وهو لا يتحرك ، وصارع عبد الرحمن بن عوف صراعاً طويلاً وانهاكت عليه الضربات دون أن يتراجع ، ولما انتهت المعركة وجدوا به عشرين جراحاً بعضها في رجله سببت له العرج إلى أن مات ، وأشيع أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد مات ، فذهب أنس بن النضر إلى جماعة من الصحابة ورأى فيهم عمق الحزن فقال لهم ما يحزنكم ؟ قالوا : قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال لهم : وما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فرتوا على ما مات عليه ، ونزل المعركة فصارع صراعاً طويلاً عنيداً حتى قتل . وقد وجد المسلمون بجسمه أكثر من سبعين جرحاً بين ضربة وطعنة ورمية ، ولم يميزه أحد من كثرة ما به من دماء وجراح إلا أخته عرفته بريحانة كانت في بنائه .

ولتتحول إلى مثل آخر من أمثلة الصراع المجيدة التي برزت في غزوة أحد ، ذلك هو عمرو بن ثابت الذي كان يلقب « الأصيرم » ، وكان عمرو يأبى الإسلام فلما كان يوم أحد قذف الله بالإسلام في قلبه فأسلم ، وأخذ سيفه ولحق بالنبي وقاتل قتالاً عنيفاً ، ثم سقط بين الجرحى ، ولما انجلت الحرب طاف الناس يلتمسون قتلاهم ، فوجدوا الأصيرم وبه رمق ، فدهشوا وتساءلوا

ما جاء بهذا الرجل ؟ لقد تركناه وهو منكر لهذا الأمر ، ثم سألوه ما الذى جاء بك إلى هذا المشهد ؟ أحذب على قومك أم رغبة فى الإسلام ؟ فقال : بل رغبة فى الإسلام آمنت بالله وبرسوله ، ثم لحقت بالرسول أقاتل معه فى سبيل الله حتى أصابني ماترون . وسرعان ما مات متأثراً بجراحه ، وقد ذكره القوم للرسول فشهد له بالجنة ، فكان يقال رجل دخل الجنة من أول يوم ولم يصل قط^(١) .

وفى غزوة أحد قاتلت أم عمارة الانصارية ؛ وهى نسيبة بنت كعب قتالا شديداً ، ودافعت عن الرسول دفاعاً يصوره قوله عليه السلام : ما التفت يميناً أو شمالاً إلا رأيت أم عمارة تقاتل دوني . وقد ضربت عمرو بن قنينة بالسيف ضربات قوية : فوقاه درعان كانتا عليه ، وضربها عمرو بالسيف فجرحها جرحاً عظيماً فى عاتقها ، وكان معها فى هذه الغزوة زوجها زيد بن عاصم ، وولداها حبيب وعبد الله^(٢) وقد رأى النبي عليه السلام أحد المشركين وهو يضرب ابنها ضربة قاتلة . فناداهما الرسول وقال لهما : هذا ضارب ابنك . فسارعت نحوه وضربتته فى ساقه فسقط على الأرض . ثم سارعت فأجهزت عليه .

ومما أصاب الرسول صلوات الله عليه ، فى هذه الغزوة أن نشبت حلقتان من حلق المغفر فى وجهه ، فعض عليهما أبو عبيدة بن الجراح لينزععهما ، ولم يتم له ذلك إلا وقد سقطت ثنيتاه من فرط الجهد ، وكان أبو عبيدة يفخر بالهتيم الذى حدث له وهو يزيل الأسى عن الرسول .

ولنأت بعد ذلك إلى دور طلحة بن عبيد الله فى هذه الغزوة القاسية ، ويقرر التاريخ أن طلحة كان من الأربعة الذين برزوا فى هذه الغزوة وأبلوا فيها أحسن البلاء وهم على حمزة وأبو دجانة وطلحة ، ويبدو أن طلحة جاهد فيها جهاداً جعله فى مكان يسبق منافسيه فى الفضل ، فقد كان أبو بكر يقول

(١) ابن عبد البر : الدور فى اختصار المغازى والسير ص ١٦٠ - ١٦١ .

(٢) ابن عبد البر : المرجع السابق : ص ١٥٨ .

عندما تذكر أحد (ذلك يوم كله لطلحة) وبالإضافة إلى جهده حين دوران المعركة نجده بعد أن سقط الأنصار السبعة الذين كانوا يدافعون عن الرسول يتصدى وحده للدفاع ، ويقطى الرسول بجسمه ويتلقى عنه الضربات ، وفي نفس الوقت يتلمس الوسيلة ليرى المهاجمين ، وقد أصاب الشلل يده من كثرة ما نزل بها من ضربات ، وعاش بيد شلاء بقية عمرة تذكّره بالجد الذي ناله وهو يدافع عن الإسلام وعن نبي الإسلام ، وقد عرض طلحة نفسه بذلك للموت أو لما هو أشد من الموت ، حتى كان الرسول يدهش لأن طلحة لم يمت مع تحديه للموت ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول عنه ، مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى شَهِيدٍ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى طَلْحَةَ . ولما سقط صلى الله عليه وسلم في الحفرة التي حفرها أبو عامر الراهب ، ألقى طلحة بنفسه في الحفرة وانتزع منها الرسول وأراد الرسول أن يصعد صخرة ولكن قواه لم تساعد ف جعل طلحة من جسمه سلماً إذ انحنى للرسول فلما صعد الرسول على ظهره ارتفع بجسمه حتى مكّن الرسول من الصعود إلى الصخرة .

وفقدت امرأة من بنى دينار في غزوة أحد زوجها وأخاها وأباها ، فلما عرفت ذلك سألت : ما فعل رسول الله ؟ قالوا لها : هو بخير . فقالت كل مصيبة تخطئه صغيره ^(١) .

وهكذا كان لكثير من المسلمين في غزوة أحد أدوار جديدة بأن ينتفع بها الأبطال الباحثون عن الخلود ، وهكذا كانت هزيمة مشرفة ، أبرزت المنهزم في أرقى حالات الكفاح والصراع والتضحية والثبات ، وأثبتت للمتصرفة قوة خصمه حتى تردد فيها بعد أن يشن عليه الهجوم أو ينازله في معركة .

ويتجه بعض الباحثين إلى اعتبار غزوة أحد جراحاً كما وصفها القرآن الكريم وليست هزيمة ؛ فالهزيمة لا ترتبط بعدد القتلى ، وإنما بتحقيق الفرار ، أو الاستسلام ، أو فقدان أرض ، وذلك لم يحصل من المسلمين .

بعد المعركة :

رأينا المسلمين وقد انتصروا انتصاراً باهراً في غزوة بدر ، وقد انتزعوا انتصارهم بالصراع الرائع وبجدارة فائقة ، وسخر اليهود من انتصار المسلمين في بدر كما رأينا من قبل ، وظنت قريش أن هذا الانتصار مصادفة لن تتكرر ، ولذلك كانت غزوة أحد في منتهى الأهمية ، وهزم المسلمون فيها تلك الهزيمة المشرفة التي وصفناها ، فلم تعط هذه الغزوة لقريش ولاليهود النتيجة التي ترقبوها وهي القضاء على المسلمين أو إضعافهم ، وقد تركت هذه الغزوة أعداء المسلمين وهم في تردد وظاهر واضطراب واضح ، وكان على المسلمين في نفس الرقب أن ينتصروا على آثار الهزيمة ، وأن يستعيدوا بسرعة قوتهم ومكانتهم ، وأصبح واضحاً أن قريش وحدها لن تستطيع أن تقضي على المسلمين ، بل أصبح واضحاً أن قريشا لن تمسك بزمام المبادرة لحرب ضد المسلمين .

مزيد من علاج آثار أحد :

علان كبير ان قام بهما الرسول لاسترداد الزمام بعد غزوة أحد ، أما العمل الأول فهو أن الرسول عليه السلام أرسل بعد شهرين من غزوة أحد سرية إلى بني أسد الذين كانوا قد اعتزموا مهاجمة يثرب تقرباً إلى قريش وقد أنزلت هذه السرية ببني أسد هزيمة ساحقة .

أما العمل الثاني فهو موقف الرسول من بني النضير في العام الرابع من الهجرة ، ذلك الموقف الذي قلم من أظفار اليهود ، وأعاد للمسلمين كثيراً من الثقة في قوتهم ، كما منحهم رصيماً من المال ، وبهذين العملين استعاد المسلمون زمام الانتصار في معاركهم ضد أعدائهم .

وقد أصبح واضحاً أن علواً جديداً لا بد أن يتلقى زمام المبادرة ضد المسلمين ، وقد التقط يهود بني النضير هذا الزمام بعد أن طردهم المسلمين من المدينة ، فأخذ هؤلاء يجمعون الجموع لحرب المسلمين ، وفي هذا الجو القلق جاءت غزوة الأحزاب .

غزوة الأحزاب أو الخندق

زمنها ، شوال من السنة الخامسة للهجرة .

مكانها : حول المدينة وبخاصة من الشمال .

سببها :

غزوة الأحزاب معروفة من اسمها ؛ إنها تجمعات من هنا ومن هناك تقصد القضاء على قوة الإسلام والمسلمين . وكان يهود خيبر وبخاصة بنو النضير الذين طردوا من المدينة هم الذين جمعوا هذه الجموع وحزبوا الأحزاب على رسول الله ، يروى ابن هشام^(١) أنهم خرجوا حتى قدموا مكة على قريش فدعواهم إلى حرب محمد وقالوا إنا ستكون معكم عليه حتى نستأصله ثم خرج هؤلاء اليهود إلى غطفان وبني مرة وأشجع وأثاروهم كذلك .

وكانت قريش تدرك أن هذه الغزوة ستكون آخر محاولة جدية بين مكة والمدينة بعد أن طال النضال عدة سنين ، ولذلك استجاب أبوسفيان لدعوة اليهود وحشد لهذه الغزوة كل قواه ، وعمل لها كل حيلة رجاء أن تنجح .

وتجمعت قوى الأحزاب في جيش هائل ؛ لعل الجزيرة العربية لم تشهد من قبل ، إذ كان عدده يربو على عشرة آلاف مقاتل^(٢) .

واتخذ المسلمون في هذه الموقعة موقف الدفاع ، إذ أشار سلمان الفارسي على الرسول أن يحفر خندقاً عميقاً واسعاً شمال المدينة ويلتف حولها من الغرب ، إذ كانت الجهات الأخرى محصنة بالجبال والنخيل ، كما أشار بأن تشبك أبنية المدينة وتسد مسالكها حتى تصبح حصناً واحداً ، وأن يخرج

(١) ابن هشام ٢ : ١٨٧ - ١٨٨ .

(٢) المرجع السابق ص ١٨٩ .

الرجال ليحرموا المدينة خلف الخندق ، وقبل الرسول زلزالهم سلمان واشتغل بنفسه في حفر الخندق مع المسلمين وتمت التحصينة ، ومن الممكن أن نفهم أن المسلمين اتخذوا هذا الرأي عوداً إلى الفكرة التي عرضت قبيل غزوة أحد بأن يبقى المسلمون في المدينة ويكون الدفاع من الداخل ، وقد هُزم هذا الرأي في غزوة أحد ، ولكن هزيمة المسلمين في أحد رجحت هذا الرأي عند تجمعات الأحزاب ووضع المسلمون التراب الناتج عن حفر الخندق في ناحية المدينة لیساعد تراكم التراب في حماية المسلمين وليستمر به المسلمون الذين وقفوا خلف الخندق يدافعون عنه .

ولما وصلت جموع قريش وحلفاؤها وجدوا الخندق يحول بينهم وبين الالتقاء بالمسلمين ووجدوا جيش المسلمين خلف الخندق لحمايته ، فعسكر الجيشان متقابلين ، وتراميا بالنبال والسهم أياماً دون نتيجة تذكر ، وكان جيش المسلمين حوالي ثلاثة آلاف مقاتل ، وقد حاول أفراد من جيش المشركين أن يقوموا بمجازفة عبر الخندق ، ولكن المسلمين كانوا يحرسونه بقوة وإصرار ، وقد لقي بطل قرشي اسمه عمرو حتفه على يد علي بن أبي طالب حينما قام بذلك ، وعبره أيضاً عكرمة بن أبي جهل فتصدى له علي وضيق عليه الخناق فلم يجسد عكرمة بدأ من الرجوع والفرار^(١) ، وضرب الزبير بن العوام يوم الخندق عثمان بن عبد الله بن المغيرة ضربة هشمته ووصلت إلى مرج الفرس ، فقبل للزبير . ما أحد سيفك ، فغضب وقال : إن العمل لليد لا للسيف^(٢) .

وعند زيارتي للأرض المقدسة زرت بقايا الخندق ، ورأيت مواقع المدافعين وقد بنيت في أمكنتها مجموعة من المساجد تمتد مع الخندق كما كانت تمتد حصون الدفاع . وتسمى هذه المساجد الآن « مساجد الخندق » وتحتل الموقعة الصامدة الناجحة التي وقفها أسلافنا ضد قوى الشر المعتدية.

ولنعد إلى الأحزاب ، لنقرر أنه عندما طال الحصار وجد الخلفاء

(١) انظر ابن هشام ٢ : ١٩١ - ١٩٢ وابن القيم ٢ : ١١٨ .

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ١ ص ٢١٢ .

طريقه ليدبّ بينهم . فقد جاءوا معاً ليعملوا السيف في رقاب المسلمين فحال بينهم الخندق وعسكروا حوله ، وطالت أيامهم ونقصت مؤنهم ، وصدرت أوامر متناقضة ، وكل هذا أظهر حقيقة هامة هي أن الجيش المهاجم تفككت وحدته وظهر بينه البفور وأعلنت المنافسة ، وكان أبو سفيان يعد نفسه القائد العام ، ولكن أي سلطان لأبي سفيان على طلحة بن خويلد ، وعتيبة بن حصن ، والحارث بن عوف وغيرهم من الأبطال الذين كانوا يقودون قبائلهم للاشتراك في هذه المعركة ؟

وأوشك الخلاف أن يظهر وبخاصة بين هؤلاء الذين لم تكن لهم مصلحة حقيقية في هذا القتال ، إذ كان واضحاً أن قريشاً واليهود هما وحدهما الجماعتان اللتان تهتان كل الاهتمام بالقضاء على الإسلام والمسلمين ، ولما أدرك حيي بن أخطب قرب وقوع الانقسام بين صفوف الأحزاب أسرع إلى كعب بن أسد زعيم بني قريظة وأغراه بالانضمام إلى الأحزاب وبأن يضرب المسلمين من الخلف ، وحذّره من العاقبة إن تراخى . فتلك آخر فرصة إن أفلت منها المسلمون قريت شوكتهم ^(١) . فاستجاب كعب ونقض العهد على ما ذكرناه من قبل .

وحينئذ عظم البلاء على المسلمين « إذا جاءكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذا زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ^(٢) » .

وفي غمرة الآلام والشدة بدأت مظاهر النصر ؛ فقد جاء زعيم من زعماء العرب هو نعيم بن مسعود مسلماً ، وأبدى استعدادَه للقيام بأي عمل يشترك به في الدفاع عن المدينة ، فطلب منه الرسول أن يخفي إسلامه وقال له : خذْل عنا فإن الحرب خدعة . فذهب نعيم إلى بني قريظة وقال لهم إن قريشاً لو عادت لسبب من الأسباب إلى مكة لكان جزاء بني قريظة قاسياً من المسلمين ؛ وأشار عليهم أن يطلبوا رهائن من سادة قريش ليتأكدوا أن

(١) ابن هشام ٢ : ١٨٩ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٣٠ .

قريشاً لن تدعهم وحدهم لمواجهة جيش المسلمين ؛ ومضى نعيم أيضاً إلى قريش فذكر لهم أن بنى قريظة اصطلحوا مع المسلمين سرّاً وأنهم سيطلبون برهائن من قريش ليقدموها إلى محمد . وحذر نعيم قريشاً من مكر اليهود ، وسرعان ما طلب بنو قريظة الرهائن مما أكد لقريش صحة ما قاله نعيم ، فلما رفضت قريش تسليم الرهائن تأكد بنو قريظة من عدم إخلاص قريش^(١) ، وهكذا وقع الشقاق بين الأحلاف مما أندر بالنهاية الفاشلة .

وجاء العون من الله ، ذلك العون العظيم الذى بحكبة القرآن الكريم فى قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيراً^(٢) » . وقوله ، « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قريباً عزيزاً^(٣) » .

وكانت هذه الريح التى أرسلها الله عاتية ، كفأت القدور ، ونزعت الخيام ، وملاأت الخلوq والعيون بالرماد ، لقد كانت قوة هائلة ممينة ، ولم يكن فى طاقة الأحزاب أن يحاربوها ، ولم يجدوا وسيلة إلا أن يتنادوا بالرحيل فى خيبة أمل ظاهرة بعد أن استمر الحصار مدة شهر .

وفى صحيح مسلم حديث يرينا نتائج البرد والريح من جهة ؛ ونتائج الوقعة التى قام بها نعيم بن مسعود بين بنى قريظة والأحزاب من جهة أخرى ، يروى حذيفة بن اليمان أن الرسول صلى الله عليه وسلم استدعاه فى إحدى ليالى الخندق وقال له : يا حذيفة اذهب فادخل فى القوم فانظر ما يفعلون ولا تحدثن شيئاً حتى تأتينا ، قال : فذهبت فدخلت فى القوم والريح وجنود الله عز وجل تفعل بهم ما تفعل ، لا يقر لهم قرار ، ولا تهدأ لهم نار ، فقال أبو سفيان : يا معشر قريش لينظر كل امرئ من جليسه ، قال حذيفة رضى الله عنه : فأسرعت آخذ بيد الرجل الذى إلى جنبى لأوهمه أنى مع قريش ،

(١) ابن هشام ٢ : ١٩٣ وابن القيم ٢ : ١١٨ .

(٢) سورة الأحزاب الآية التاسعة .

(٣) سورة الأحزاب الآية ٢٥ .

فقات له : من أنت ؟ فقال : أنا فلان بن فلان ، ثم قال أبو سفيان ؛ يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذى نكره ، ولقينا من هذه الريح ما ترون ، والله ما تطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فإنى مرتحل ، ثم قام إلى جملة وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث فما أطلق عقاله إلا وهو قائم . ولولا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن لا أسدث شيئاً لقتلته بهم ، قال حذيفة رضى الله عنه : فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قائم يصلى ، فلما انتهى من صلاته أخبرته الخبر ، وسمعت غطفان بما فعلت قريش فأتتمروا راجعين إلى بلادهم^(١) .

أثر هذه الغزوة :

لقد عانى المسلمون فى غزوة الأحزاب ألواناً من العناء والجد من أثر الحصار الطويل . ولذلك نجد الرسول يغير من خطته الحربية بعد هذه الغزوة ، فلا يكتفى بالدفاع لأن اكتفائه بالدفاع أوشك أن يقضى على المسلمين ، ولكنه فى الوقت نفسه لا يريد الهجوم لأنه لم يؤذن له إلا بالدفاع فقط ، ولذلك نجده يعتمد إلى ما يسميه العسكريون « الهجوم الدفاعى » أى أن يهجم - مدافعاً - على تكتلات الأعداء التى تستعد للزحف على المسلمين ، وكانت هذه هى خطة المسلمين بعد ذلك فيما قاموا به من حروب .

غزوة الأحزاب وبدور المستشفيات فى الإسلام :

حدث فى غزوة الأحزاب حدث ذو بال فى تاريخ الحضارة الإسلامية ، ذلك هو قيام المستشفيات فى أول صورها فى التاريخ الإسلامى ، وفى مجد المدينة كانت هناك خيمة مخصصة لجرحى المعركة ، وكانت بالخيمة امرأة اسمها « رفيدة الأنصارية » لها خبرة بالطب ، فكانت تداوى الجرحى

(١) صحيح مسلم .

وتحبس نفسها لخدمة المرضى ، ولما أصيب سعد بن معاذ في هذه المعركة بسهم رماه به رجل قرشي أمر الرسول أن يوضع سعد في هذه الخيمة لتداويه « رفيذة » من جانب ، وليكون من السهل على الرسول أن يعود من حين إلى آخر وهو يدير المعركة (١) .

وفي ختام الحديث عن غزوة الخندق نعطى فيما يلي نبذة قصيرة للتعريف بسلمان الفارسي الذي أشار بحفر الخندق :

سلمان الفارسي :

ينسب سلمان إلى بلاد فارس لأنه فارسي الأصل ، قيل كان من أصفهان ، وقيل من رام هرمز ، وكان ثائراً على عبادة النار وعبادة الأصنام ، وكان يطلب دين الله ، فدخل النصرانية ثم لم يرض عن طقوسها وتعتيقاتها وتثليثها ، فراح يقرأ ويسمع لعله يصل إلى الحق .

ورحل إلى يثرب قبل الهجرة وتعرف على اليهود وعرف ديانتهم ولم يقبلها ، وهاجر الرسول صلوات الله عليه فاتصل به سلمان سرّاً وجلس إليه واستمع منه ، ففتّح قلبه للإسلام ودخل دين الله وأصبح من مشهوري الصحابة ، وكانت له جلسات خاصة مع الرسول تلقى عنه فيها الكثير من الفكر الديني ، وتقول عائشة رضي الله عنها في ذلك : كان لسلمان مجلس من رسول الله ينفرد به في الليل حتى كان يغلبنا على رسول الله .

ولم يحضر سلمان غزوة بدر ولا غزوة أحد ، وأعلن إسلامه عقب ذلك ، فلما تحزبت الأحزاب للهجوم على يثرب أشار سلمان بحفر الخندق ، وقبل المسلمون مشورته وعملوا في الحفر وسمل فيه الرسول بنفسه ، وقد نجحت فكرة سلمان نجاحاً عظيماً وردّ المهاجمون على أعقابهم لم ينالوا من المسلمين شيئاً ، وكانت مشورة سلمان موضع فخر له ، فقعد قال الانتصار سلمان منا لأنه جاء يثرب قبل الهجرة ، وقال المهاجرون سليمان منا

(١) انظر الإصابة (ترجمة سعد ورفيذة) .

لأنه هاجر يطلب الحق كما فعلنا ، وحسم الرسول الخلاف فأعطى سلمان مزيذا من القرني بقوله : سلمان منا أهل البيت (١) .

واشترك سلمان بعد ذلك في كل الغزوات ، كما اشترك في كثير من الفتوح .

واشتهر سلمان بالزهد والتقشف ، فكان يتصدق بكل عطائه ، ويقنع بلباس خشن وخبز الشعير ، وكان من أهل الصفة ومن مؤسسي التصوف : ومات سلمان في أواخر عهد عثمان حوالي سنة ٣٥ هـ .

غزوة بني المصطلق

زمنها : شعبان من السنة السادسة :

مكانها : ماء يقال له « المريسيع » على مقربة من مكة .

سببها ، بنو المصطلق هم فرع من خزيمه سموا بني المصطلق إذ كان جدهم رقيق الصوت ، فالمصطلق على وزن مفتعل من الصلق وهو الصوت ، ويروى في سبب هذه الغزوة أن الرسول تلقى أنباء تفيد أن بني المصطلق . بعد هزيمة الأحزاب والقضاء على يهود المدينة . تصدوا لأمر المسلمين ، وعملوا على تدبير اغتيال الرسول عليه السلام ، وكان قائدهم الحارث بن أبي ضرار .

ولما سمع الرسول ذلك وتأكد من موقف بني المصطلق العدائي . أسرع فاستعد لهم ونادى بالخروج إليهم ، وجعل لواء المهاجرين لأبي بكر ولواء الأنصار لسعد بن عباد ، وزحف المسلمون ونزلوا على ماء قريب من بني المصطلق يقال له « المريسيع » وأحاطوا ببني المصطلق ، ففر من جاءوا المشاركة بني المصطلق في هذه المؤامرة ، ووقف بنو المصطلق وحدهم في مواجهة المسلمين ، وجرى تراشق النبال ، وسرعان ما أحس بنو المصطلق بأنهم لا يستطيعون الوقوف في وجه المسلمين ، وأن الحرب ستأكلهم ، فاستسلموا . وأخذوا أسرى هم ونساؤهم وغنم أموالهم .

وعلى هذا فالحديث عن غزوة بني المصطلق حديث قصير ، لأن الحرب لم تكن شديدة ، وكان التسليم سريعاً ، ولكن لهذه الغزوة أهمية عظيمة في التاريخ ، إذا ارتبط بها حادثان خطيران أولهما الفتنة التي أوشكت أن تحدث بين المهاجرين والأنصار ، تلك التي حاول المنافق عبد الله بن أبي أن ينتهزها فيشعل دعوة الجاهلية ، لتعظم وتأكل صفوف المسلمين ، وثانيهما حادثة الإفك التي حملها الرأس الأسود رأس ابن أبي أيضاً ، وقد تصدى

الرسول للحادث الأول ففضى عليه ، وتصدى القرآن الكريم لتبرئة السيدة
الفاضلة زوج الرسول وبنت أبي بكر ، وقد تحدثنا من قبل بشيء من
التفصيل عن هذين الحادثين .

ومما يتصل بهذه الغزوة ما سبق أن أوردناه من زواج الرسول من
جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار ، وكيف كان هذا الزواج يمناً وبركة
على أسيرات بني المصطلق فأعتقهن المسلمون وهم يهنئون ، كيف نأسر
أصهار رسول الله ؟

الحديبية بين الحرب والسلم (*)

مرت شهور بعد غزوة الأحزاب ؛ ودخلت السنة السادسة للهجرة ؛ سنوات ست كانت طويلة على المهاجرين ؛ لم يروا خلالها مَنْ تخلف بمكة من أهلهم ، ولم تكتحل عيونهم بوطنهم ؛ وخرموا زيارة الكعبة التي يحنون إليها ، ويتوجهون من بُعد للصلاة نحوها ؛ وأحس الرسول بما أحسنه به باقي المسلمين من شوق لمسقط الرأس ورغبة في زيارة الكعبة .

والبيت الحرام معظم قبل الإسلام وبعده ؛ وهو معظم عند المسلمين وعند قريش ؛ والأشهر الحرم لا يجوز فيها الحرب ولا القتال ؛ فلماذا لا يقدم محمد وأصحابه معتمرين ؟ وبأى حق تمنعهم قريش من دخول مكة للزيارة ثم العودة ؟ وليبق العدا بعد ذلك أو فليتوقف ، وكانت هذه الأفكار هي شغل المسلمين الشاغل ، وفي هذه الفترة رأى الرسول رؤيا تفيد أن المسلمين سيدخلون مكة ، وبينما كان المسلمون بالمسجد ذكر الرسول للمسلمين خبر هذه الرؤيا ، فاجت جمعهم طرباً ، وطمعوا في زيارة سريعة إلى البيت الحرام : وسرعان ما أذن محمد في أصحابه بالرحيل إلى مكة ؛ ففرحوا واستجابوا وبدءوا رحلتهم في شهر ذى القعدة من السنة السادسة للهجرة وكانوا حوالى الألف .

ودعا الرسول بعض العرب من غير المسلمين ليصبحوا المسلمين في الذهاب للعمرة ؛ حتى يكون في ذلك إعلان للعرب جميعاً ولقريش بوجه خاص بأن الرحلة لا هدف لها إلا العمرة .

ستقول قريش إن المسلمين جاءوا للقتال ، وأنهم يدعون الاعتراف ولا يقصدونه ، وإذا فلبسهم المسلمون لقريش على حد نيتهم بأن يلبسوا ملابس الإحرام قبل أن يبعدوا عن المدينة ، ويتركوا آلات الحرب إلا

(*) عرفت الحديبية بعدة أسماء مثل صلح الحديبية ، وأمر الحديبية . وغزوة الحديبية ، ولذلك أسماها « الحديبية بين السلم والحرب » وذلك تبعاً لطبيعة هذا الموقف .

السيوف في القرب للحراسة والدفاع طول الطريق ، وساق المسلمون الهدى سبعين بدنة ليكون ذلك تأكيداً لحسن نيتهم .

ولكن كل ذلك لم تستسغه قريش . فإن دخول المسلمين عليهم مدينتهم تحت أى اسم من الأسماء هو انتصار للإسلام وهزيمة للمشركين ، ومع هذا فرد معتمرٌ مُحَرَّمٌ يعتبر عند العرب اعتداء صارخاً . والحرب في نطاق الحرم لا تجوز ، ما الحيلة ؟ هي أن ترد قريش المسلمين قبل أن يقربوا من مكة ، وعلى هذا أرسلت قريش خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل على مجموعة من الفرسان ليصدوا المسلمين عن غايثهم^(١) ، ولكن المسلمين تحاشوا طريق خالد وعكرمة^(٢) ، واندفعوا في طريق آخر قادم إلى الحديبية على بعد بضعة أميال من مكة ، حيث أصبح القتال محظوراً ، وفي هذا المكان بركت « القصواء » ناقة الرسول ، فظن بعض الناس أنها بركت من الجهد والتعب ، ولكن الرسول فسر ذلك بقوله ، حبسها حابس القيل ، ولم يكن بهذا المكان ماء ، فأعطى الرسول رجلاً من الصحابة سهماً من كنانته وأمره أن يغرزه في بئر من الآبار الجافة هناك ، ففعل الرجل . وانبثق الماء .

وبدأت في الجرو مشكلة كبرى ، وأخذت الوساطة تلعب دورها للغثور على حل ، فأرسلت قريش بديل بن ورقاء في رجال من خزاعة ليتعرفوا القصد الحقيقي من زحف المسلمين ، وسرعان ما تبين لهؤلاء أن المسلمين جاءوا معتمرين ولا يقصدون أى سوء ، فنقل بديل وأصحابه هذا الرأى لقريش ، ونصحوهم بأن يخلوا بين المسلمين وبين العمرة ، ولكن قريشاً رفضت قبول هذه النصيحة .

ثم أرسلت قريش حليفها الحلييس بن علقمة سيد الأحابيش لنفس الغرض ، فلما رأى الرسول أطلق الهدى أمامه ، وكان ذلك خير جواب قنع به الحلييس وعاد دون أن يقابل الرسول ليؤكد لقريش أن المسلمين ينوون

(١) ابن هشام ٢ : ٢٢٦ .

(٢) ابن القيم زاد المعاد ٢ : ١٢٣ .

العمرة لا سواها . وقد أغلظت قريش القول للحليس ورماه بعض القرشيين بالغفلة ، وبأنه — لقلّة خبرته بشئون السياسة — انطلت عليه حيلة المسلمين فاكتفى برؤية بعض البدن وعاد أدراجه ، ولكن الحليس ثار لذلك . وهدد بأن الحلف الذي بين الأحابيش وقريش لا يتخذ الظلم دعامة له ، وأن التصدي للمعتمرين سيقابل من الأحابيش بالغضب والاتحدى ، ولكن قريشاً استرضته واستجهلته لتتأكد من أهداف المسلمين .

ثم أرسلت قريش رجلاً عرف بالحكمة وبعد الرأي وهو عروة بن مسعود الثقفي ، وعاد هذا ليصرخ في قريش : إني جئت كسرى في ملكه وقيصر في جبروته ، والنخاشي في أهته ، وإني والله ما رأيت ملكاً يطاق في قومه قط مثل محمد في أصحابه . . وإني لن يسلموه أبداً ، ونصح قريشاً بأن تدع المسلمين يعتمرون .

ورأى الرسول أن يلتقط زمام المبادرة ، وأن يرسل هو الرسل لتشرح لقريش رأى المسلمين : فأرسل خراش بن أمية الخزاعي رسولا إلى أهل مكة فهموا بقتله ، ولكنه استطاع الفرار بعون بعض الأحابيش الذين دافعوا عنه ومنعوه ، فلما عاد دعا الرسول بعمر ليعثه فقال عمر : إني أخافهم على نفسي لما عرفت من عداوتي إياهم ، ولكنني أدلك على رجل هو أعز بمكة مني وأحب لأهلها : عثمان بن عفان . فبعث به الرسول إلى مكة ليفاوض قريشاً ، وعندما دخل عثمان مكة لقيه أبان بن سعيد ، فأدخله في جواره طيلة بقائه بمكة ، ولما قابل عثمان زعماء قريش شرح لهم هدف المسلمين ، فقالوا له : إن شئت أن تطوف بأبيي فلك ذلك ، فأجاب عثمان : والله ما كنت لأطوف بالبيت ورسول الله والمسلمون ممنوعون من ذلك .

، وطالت بمكة غيبة عثمان أثر مما توقع المسلمون ، وأشيع بين المسلمين أنه قتل ^(١) فأدرك المسلمون أنه لا بد من القتال ، وتمت « بيعة الرضوان »

(١) ابن هشام ٢ : ٢٢٩ . وانظر تفسير النسخ ج ٤ ص ١٣٢ والكشاف ج ٢ ص ٤٦٥ .

التي أقسم فيها المسلمون على الحرب حتى الموت أو النصر ، وقد أثنى الله على هؤلاء المتبايعين بقوله « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً » (١) وهكذا اتخذ المسلمون السلم وسيلة لتحقيق هدفهم ، فلما لم ينفع السلم اتجهوا للاستعداد للحرب على أعلى مستوى .

ولكن عثمان سرعان ما عاد بعد أن نجح فى تهدئة قريش والقضاء على مخاوفهم ، وبعد أن ألان جانبهم نحو المسلمين .

بدأت بعد ذلك مفاوضات ترمى لإيجاد حل لهذه المشكلة ، وقد ظهر واضحاً من الاتصالات والحادثات أن أهم نقطة تعنى بها قريش هى عودة المسلمين هذا العام دون أن يقتحموا مكة على سكانها حفظاً لكرامتهم وخوفاً من أن يعيثرهم العرب بذلك (٢) . ولما وافق الرسول على هذا المبدأ أصبح من السهل أن تبدأ مفاوضة شاملة هدفها وضع حد للعداء بين قريش وبين المسلمين ، ومثل قريشاً فى هذه المفاوضات وفد على رأسه سهيل بن عمرو ، وتم صلح الحديبية بعد أن أحاطت غيوم كثيرة بالموقف ، وبعد أن كانت الحرب قاب قوسين أو أدنى .

شروط صلح الحديبية ومناقشتها :

وأسس هذا الصلح هى :

- ١ - أن تكون هناك هدنة بين الطرفين مدتها عشر سنوات .
- ٢ - يرد المسلمون من يأتهم من قريش مسلماً بدون إذن وليه .
- ٣ - لا ترد قريش من يعود لها من المسلمين .
- ٤ - من أراد أن يدخل فى عهد قريش دخل فيه ، ومن أراد أن يدخل فى عهد محمد من غير قريش دخل فيه .

(١) سورة الفتح الآية ١٨ .

(٢) انظر ابن هشام ٢ : ٢٢٩ وزاد المعاد ٢ : ١٢٥

٥ - ألا تم عمرة المسلمين هذا العام، بل تؤجل إلى العام القادم، ويدخل المسلمون مكة في العام القادم بعد أن تخرج منها قريش، وليس مع المسلمين من السلاح إلا السيوف في القرب، ويبقى المسلمون بمكة ثلاثة أيام بلياليها^(١) نظرة في هذه الشروط :

لقد كان المسلمون قريبين من مكة، ففتحهم هذه الشروط من دخولها، ولذلك تغلبت عليهم - فيما أعتقد - الناحية العاطفية فاستاءوا لهذه النتيجة، وعدوا أنفسهم مغلوبين أذلاء، وكانت نفوسهم تغلي بالألم، وكان عمر جريئاً كعادته، ولذلك نجده يترجم ما في نفسه وما في نفوس المسلمين من ثورة في المحاوراة التي دارت بينه وبين الرسول والتي ننقل نصها فيما يلي :

عمر : أأنت رسول الله ؟

الرسول : بلى .

عمر : أولسنا بالمسلمين ؟

الرسول : بلى :

عمر : أو ليسوا بالمشركين ؟

الرسول : بلى ؟

عمر : فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟

الرسول : إني عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني^(٢) .

على أن الباحث المنصف يدرك أن هذه المعاهدة كانت عظيمة الخیر للمسلمين، كبيرة النفع لهم، وكانت انتقالاً من العسر إلى اليسر وأن الرسول كان في منتهى الحكمة عندما قبلها وعقدها، وقد دلت الأحداث التي ظهرت بعد ذلك على هذه النتيجة الطيبة، وفيما يلي إيضاح لما في هذه المعاهدة من مزايا .

١ - اعترفت قريش في هذه المعاهدة بكيان المسلمين، فالمعاهدة دائماً

(١) انظر هذه الشروط في ابن هشام : ٢٣٠ - ٢٣١ وزاد المعاد ٣ : ٧٦ ، ١٢٥ .

(٢) ابن القيم : زاد المعاد ج ٣ ص ١٢٥ .

تكون بن نديين ، ولم يعد محمد وأصحابه ثائرين ، وإنما أصبحوا هيئة لها وجود ولها حقوق .

٢ - أعطت هذه الهدنة فرصة لنشر الدعوة والتفرغ لتعريف الناس بها وعندما مشت الدعوة مرتبطة باستسلام قريش دخلها الناس وحدانا وجماعات ، حتى قال المؤرخون إن من دخلوا الإسلام من تاريخ المعاهدة إلى فتح مكة أى فى أقل من سنتين أكثر ممن دخلوا الإسلام فى جميع السنين التى سبقت ذلك الصلح ، وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك الصلح بكلمة « الفتح » فى قوله تعالى : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً ، وينصرك الله نصراً عزيزاً » (١)

وقد نزلت هذه الآيات عقب صلح الحديبية ، ويقول المفسرون إن المقصود بالفتح هو الانتصارات التى تلت هذا الصلح وجعلت حاكماً عظيماً يدخلون الإسلام .

وقد طمأننت هذه السورة جماعة المسلمين ووعدتهم بتحقيق ما رآه الرسول فى رؤياه ، قال تعالى : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون ، فعلم ما لم تعلموا ، فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً » (٢) .

٣ - وفى فترات النضال بين قريش وبين المسلمين لم يترك النضال للناس وقتاً للتفكير ، ولذلك نرى أنه عندما تمت الهدنة ، وعندما أخذ الإسلام فى أثناء هذه الهدنة ينتشر وينتشر ، بدأ كثيرون من أبطال قريش يفكرون فى الإسلام ومبادئه ، فأمرعوا إلى المدينة معلنين إسلامهم ، ومن هؤلاء البطل العظيم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة (٣) ، وقد كان ذلك نذيراً باستسلام مكة .

(١) سورة الفتح الآيات ١-٢ .

(٢) سورة الفتح الآية ٢٧ .

(٣) . النووى : تهذيب الأسماء القسم الأول ج ١ ص ١٢٠

٤ - أعطت هذه المعاهدة للمسلمين فرصة ليفرغوا لليهود ولينخلصوا منهم بعد أن فرقت هذه المعاهدة بين قريش وبين اليهود ، ولذلك غزا الرسول بعدها خيبر (سنة ٧ هـ) وانتصر كما ذكرنا من قبل ، ويقول بعض المفسرين إن المقصود بالفتح في الآية السابقة هو فتح خيبر وفدك .

٥ - والباحث المدقق يرى أن دخول المسلمين مكة للعمرة في العام القادم بعد خروج قريش منها إنما هو مزيد من الانتصار لا يعده أن يدخلوا مكة والحذر يملأ قلوبهم ، لقد دخلوا مكة آمنين ، وانطلقت جموعهم تهتف بقوة وإيمان : لا إله إلا الله وحده ، نصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، وقد رأت قريش من شعاب الجبال حول مكة جموع المسلمين ، وسمعت أصواتهم التي تحمل التكبير والإيمان ، فاهتزت قريش لما رأت ، ووصل هتاف المؤمنين إلى قلوب الكثيرين .

٦ - في هذا الهدوء الذي أعقب العاصفة خطا التشريع الإسلامي خطوات مباركة ورسم هذا التشريع للمسلمين حياتهم في مختلف الواحي .

٧ - عد بعض المسلمين من الانهزام الواضح أن يلتزموا إعادة من يأتي لهم مسلماً من قريش بدون إذن وليه ، في حين لا يلتزم قريش برد من يأتي لها من المسلمين ، ورأوا في هذا الشرط عدم تكافؤ ، ولكن الأحداث برهنت على الخير الوفير في قبول هذا الشرط ، وقد وضَّح الرسول صلى الله عليه وسلم موقفه بقوله « إن من ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم فردناه فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً » وطبعاً أنه لا خير فيمن يتردد عن دينه ويعود لقريش بعد الإسلام . وأما هؤلاء الذين جاءوا من قريش مسلمين وردهم الرسول ، فقد برهنت الأحداث السريعة على أن هؤلاء دافعوا عن أنفسهم وأصبحوا خطراً على قريش نفسها ، لأن الرسول عندما ردهم - وفاء بالعهد - والتأثر ظاهر عليه ، لم يعد هؤلاء إلى مكة وإنما عسكروا في طريق قزافل قريش عند موضع يقال له « العيص » وأخذوا يعتدون على هذه القوافل اعتداء متصلاً ، ووصل عددهم حوالي ثلثائة ، وكان يزعهم

رجل اشتهر اسمه في هذه الأحداث هو « أبو بصير » ، فاضطرت قريش أن تطلب من الرسول أن يضمهم إليه^(١) .

ومع أبي بصير هناك رجل اشتهر أيضا هو « أبو جندل بن سهيل » وكان هذا شديداً على قريش ، قطع طريق تجارتهم الساحلى إلى الشام ، ومن شعره في ذلك :

أبلغ قريشا عن أبي جندل أنى بذى المروة بالساحل
في معشر تحقق راياتهم بالبيض فيها والقنا الذابل
ليجعل الله لهم مخرجاً والحق لا يغلب بالباطل

ولكن في مجال إعادة من وفد مسلما إلى المدينة حدث شيء لم يكن في الحسبان ، ذلك أنه وفد إلى المدينة بعض النساء مسلمات ، فقد هاجرت من مكة للمدينة أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط فخرج أخوها عمارة والوليد يطلبان من الرسول ردها عملا بنصوص صلح الحديبية ، لكن الرسول رأى أن هذه النصوص لا تنطبق على النساء ، وكيف تعاد زوجة دخلت الإسلام لترغم على الحياة مع زوج مشرك؟ وسرعان ما نزلت في ذلك آية كريمة قطعت كل تردد ، وهى قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتنحنوهن الله أعلم بإيمانهن ، فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار ، لاهن حل لهم ، ولا هم يحلون لهن ، وآتوهن ما أنفقوا ، ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتوهن أجورهن^(٢) »

فبينت هذه الآية أن إسلام زوجة وبقاء زوجها على الشرك يقطع عقد الزوجية ، ويصبح من حق المسلمين أن يتزوجوا هذه الزوجة بعد رد ما قدم لها من صداق .

٨ - وكان مما أثار المسلمين أن سهيل بن عمرو رفض أن يكتب في عهد الصلح : محمد رسول الله ، وقال : لو كنا نعرف أنك رسول الله ما خالفناك ،

(١) سيرة ابن هشام - ٢ ص ٢٢٢

(٢) سورة المتحة الآية العاشرة وانظر سيرة ابن هشام - ٣ ص ١٠٩ .

وقد قبل الرسول أن يحدف الوصف واكتفى باسمه ، ولكن هل غير هذا من الحقيقة شيئاً ! ألم يستمر محمد رسول الله كما كان (١) .

وهكذا كان هذا الصلح فتحاً مبيناً كما وصفه القرآن الكريم .

ومما يذكر أن سهيل بن عمرو هذا أسلم يوم فتح مكة وحسن إسلامه وكان من شهداء اليرموك .

ولنعد إلى سورة الفتح ، تلك السورة الكريمة التي نزلت في مرجع رسول الله من الحديبية ، والتي حكى بعض أحداث هذه الغزوة . وكشفت الكثير من أسرارها ، وقد أتبع لى أن أشرح هذه السورة في التلخيص المصغر ضمن ما شرحت من سور ، فتعرفت عن طريق السورة وشرحها على معلومات لم يوردها أكثر المؤرخين ، وفيما يلي لمحات مضيئة تقتبسها من الذكر الحكيم وتفسره مما يرتبط بحديث الحديبية :

- وأول ما نذكره أن سررة الفتح تنل في ترتيب السور بالمصحف سورة محمد (تسمى أيضاً سورة القتال) وبين السورتين في تاريخ النزول حوالي ثلاث سنوات ، وهي مدة ليست بطويلة ، ومع هذا فسورة القتال طابعها الصراع المرير من أجل الحياة ، ثم تبدلت الأمور في تلك السنوات الثلاث ، فلما جاءت سورة الفتح اتضح منها أن النعمة والبشر واليسر قد أصبحت طابع الحياة عند المساجين .

- ونجىء بعد ذلك إلى آيات السورة فنقتبس منها ونعلق عليها ، قال تعالى : (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً^(٢)) وفي تفسير هذه الآية يتجه أكثر المفسرين إلى أن الفتح هو صلح الحديبية الذي كان بعيد النتائج وكان فتح مكة أحد نتائجه .

ويتشعب الفتح الوارد في الآية - كما يرى المفسرون - إلى فتح في النفوس وفتح في الدعوة ، وفتح في الأرض : فقد كشفت أزمة الحديبية

(١) انظر بعض الحكم التي تضمنتها الهدنة في زاد المعاد ج ٢ ص ١٣٠ - ١٣٢ .

(٢) سورة الفتح الآية الأولى .

عن موقف المنافقين ، وهاجت نفوسهم المريضة ، كما وضحت صفاء المسلمين واتجاههم إلى بيعة الرضوان وذلك استعداداً للتضحية دون حدود ، وقد أوضحت آيات السورة اعتذارات المنافقين من الأعراب لأنهم لم يلحقوا بركب الرسول وهو قاصد مكة للعمرة ، ومع أنهم كانوا كاذبين في اعتذارهم فإن نفوسهم بدأت تعرف طريقها إلى الحق والنور ، أما نفوس المؤمنين فقد غمرها السرور حين عاهدت الرسول على الصمود مهما كانت النتائج .

وأما الفتح في الدعوة فيتضح من أن الدعوة الإسلامية سارت بعد الحديدية سبراً سلساً ، وانهارت كل العقبات من طريقها .

وأما الفتح في الأرض فإن المسلمين بعد الحديدية لم يبقوا محصورين في المدينة بل ذهبوا ففرضوا على قوة اليهود في خيبر وتبء ووادي القرى ، وكانوا من قبل قد قضوا على يهود المدينة ، وبانهيار قوة اليهود وتوقف الصراع مع قريش فتحت الآفاق للدعوة الجديدة ودخلت دعوة الإسلام بقاءً واسعة في الأرض .

— في سورة الفتح آيات ثلاث^(١) تصف حال قريش وحال المسلمين عندما تأزمت الأمور وظهر شبح الحرب ، وعندما كانت المفاوضات تدور ، فقد كان معسكر الكفار تسيطر عليه حمية الجاهلية وأنفها ، تلك الحمية التي لا تعتمد على منهج أو عقيدة ، وكانت جماعة المسلمين تسيطر على قلوبهم السكينة والطمأنينة ، يبايعون الرسول في ثقة وإيمان ، فهم يستعدون للحرب والتضحية بكل شيء ، ولكن في هدوء واستقرار وطاعة كاملة للقائد ، وتقوى شاملة لله العلي العظيم .

وهذه الآيات هي :

— هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم والله جنود السموات والأرض وكان الله عليمًا حكيمًا .

— لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً .

— إذا جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وألزمهم كلمة التقوى ، وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليماً .

— وفي سورة الفتح آية كريمة كشفت أسرار قريش هي قوله تعالى :
(ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأديار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً^(١)) .
ويتضح من هذه الآية أنه لم يكن لدى قريش أى أمل فى النصر ، وأن الانهيار كان متغلباً فى أنفسهم ، ولم يعد فى طاقتهم أن يواجهوا المسلمين وأن يصلدوا أمامهم .

— وآية أخيرة نقتبسها من هذه السورة الكريمة توضح لنا السبب فى عدم سطوت الحرب مع رجحان كفة المسلمين ، وهذه الآية هي قوله تعالى :
(ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطأوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ، ليدخل الله فى رحمته من يشاء ، لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً^(٢)) فقد كانت هناك جموع من رجال مكة ونساءها دخلوا الإسلام سرراً ، ولم يستطيعوا أن يعلنوا إسلامهم وسط عناد قريش وقسوتها ، ولو اشتعلت الحرب لكان من الممكن أن يصاب هؤلاء بسوء ، لأن المسلمين لم يعرفوا خبر إسلامهم ، ولو أنزل بهم المسلمون بعض الأذى ثم عرفوا فيما بعد خبر إيمانهم فإن المسلمين يحسون بالعار والألم ، ولو تميز هؤلاء من أولئك لكان من الممكن أن تقوم الحرب ويسلط الله فيها المؤمنين على الكافرين ، وهكذا شاء الله أن يكرم المجموع من أجل بعض أفرادها .

(١) الآية رقم ٢٢ .

(٢) الآية رقم ٢٠ .

كتب الرسول للملوك والرؤساء

واتساع نطاق الدعوة للإسلام

قلنا آنفاً إن القضاء على شوكة اليهود من جانب، وبمهادنة قريش من جانب آخر فتحاً باباً أوسع لنشر الدعوة للإسلام وقد رأينا من قبل مراحل الدعوة الثلاثة: الدعوة السرية، ودعوة بني هاشم، والدعوة العلنية وجاء الآن دور اتساع الدعوة وعاملاتها تحقيقاً لقوله تعالى:

— تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً^(١).

— وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين^(٢).

ولم يضع الرسول الوقت، بل سرعان ما أرسل البعوث والكتب لرؤساء العشائر والإمارات بالجزيرة العربية، والملوك والرؤساء بالأقطار المحيطة بالجزيرة، يدعوهم أن يدخلواهم وأتباعهم وشعوبهم دين الله، ويبين لهم مبادئ هذا الدين وقواعده. وقد أفاضت المراجع العربية بالحديث عن هذه الكتب، فورد ذكرها في صحيح مسلم وتحدث عنها الواقدي^(٣) وأورد أبو عبيد نصرص كتب الرسول إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين. وملوك عمان، ولحاکم اليمن، ولبنى عبد كلال، وإلى النجاشي وكسرى وقبصر^(٤)، وأورد ابن القيم تفاصيلها شملت أسماء حاملها، وما حصل لهم، ونتائج هذه المحاولة^(٥) ويقول الخثعمي السهيلي^(٦) إن من الملوك من اتبع محمداً كملوك اليمن وملك عمان، ومنهم من هادنه وأهدى إليه كالمقوقس، ومنهم من تعصى عليه كملك الغساسنة وكسرى فارس، ويقول النووي^(٧): إن جابط ابن بلتعنة كان رسول النبي عليه السلام إلى المقوقس؛ وكان دحية بن حنيف الكلبي رسوله إلى قبصر، وعبد الله بن حذافة السهمي رسوله إلى كسرى، وعمر بن أمية رسوله إلى النجاشي، والعلاء بن الحضرمي رسوله إلى المنذر ابن ساوى ملك البحرين. وكان كل منهم يعرف لغة الذين أرسل إليهم^(٨)،

(١) تاريخ الواقدي ج ٢ ص ٣٣. (٢) الأموال ص ٢٠ - ٢٤.

(٣) زاد المعاد ج ١ ص ٣٠ - ٣٣. (٤) انظر الروض الأوفى ج ١ ص ٢٥٠.

(٥) تهذيب الأسماء القسم الأول ج ٢ ص ١٥٠.

(٦) انظر كذلك عبد الحى الكتاني: التراثيب الإدارية ج ١ ص ١٩٤ - ١٩٥.

وقد أوردنا هذه المراجع كلها عن هذا الموضوع لأن بعض المؤرخين لا يوافق على أن الرسول كتب للرؤساء والملوك بالدعوة ، وحجة هؤلاء المؤرخين أن كتب الرسول لم توجد في سجلات هؤلاء الملوك والرؤساء ، واعتقادى أن ذلك لا ينهض دليلاً ، فقد يكون هؤلاء الملوك قد استهانوا بهذه الكتب فأغفلوها ولم يثبتوها في سجلاتهم ، وقد تكون يد التدمير أتت عليها في الاضطرابات الكثيرة التي نزلت بهذه الدول بعد إرسال الكتب ، على أن بعض المستشرقين ذكر هذه الكتب وأيد إرسالها ومن هؤلاء Wells^(١) ، ثم إننا لا نعتقد أن الرسول يتوانى في إرسال كتب يدعو فيها لدين الله وقد أتاحت له الفرصة بعد مهادنة قريش والقضاء على اليهود ، فطبيعة الدين الإسلامى أنه دين الناس جميعاً ، ولا بد أن يكون محمد بن عبد الله قد خطا في هذا سبيل ما استطاعه من خطوات .

وقد شهد عام ١٩٧٧ حدثاً خطيراً يتصل بهذه الرسائل ؛ إذ أعلن الملك حسين ملك المملكة الأردنية الهاشمية في مطلع ذلك العام أنه عثر على النسخة الأصلية التي أرسلها الرسول ﷺ إلى هرقل ملك الروم ، وقال الملك : إنه لم يعلن ذلك إلا بعد فحوص ودراسات علمية دقيقة ، قام بها علماء غربيون ، وقد أثبتت هذه الدراسات والتحليل أن الوثيقة التي عثر عليها قد كتبت على الرقاع التي كانت مستعملة آنذاك للكتابة ، وأن نوع الحبر هو النوع الذى كان مستعملاً ، وأن الخط والأقلام هي خطوط ذلك الزمان وأقلامه .

وقد أودع الملك حسين هذه الوثيقة في متحف خاص ، ويمكن الاطلاع عليها .

وهذا الكشف التاريخي الخطير يضع حداً للاختلاف حول هذه الكتب والرسائل ، ويؤكد صدق الروايات الإسلامية حول هذا الموضوع .

والذى يقرأ كتب الرسول إلى الملوك والرؤساء يجد فيها صيغة بمنتهى الحكمة والعروة ، فالرسول فيها سمح يدعو ولا يهدد ولا يقلل من مكانة

الملوك والرؤساء، بل يكتب لهم بالفاهم، ويعترف بمكانتهم، ويقرر أن سلطانهم في ظل الإسلام باق لهم، وهو بذلك يؤكد أنه ليس طالب ملك، ثم هو يذكر أن هناك زكاة في أموال الأغنياء، ولكنه يؤكد أن الزكوات والصدقات لا نحل لمحمد ولا لآل محمد، وإنما تؤخذ من أغنياء المسلمين وترد على فقرائهم. وهو بهذا يؤكد أنه ليس طالب مال، وهو عليه السلام مخاطب كل ملك حسب ظروفه، فإن كان من أهل الكتاب أشار إلى ما بين الأديان السماوية من روابط، وإن كان من غيرهم أشار إلى التزام البشرية بالعودة إلى الله وترك عادة ما سواه.

وينبغي لإيضاح ذلك أن نقتبس هنا بعض نماذج من هذه الرسائل :

١ - إلى هرقل الروم :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم :

سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإنني أدعوك بدعوة الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم جميع الأرتبيين^(١) « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

٢ - إلى كسرى الفرس :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم الفرس :

سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله :

(١) نسبة إلى أريوس وهو داعية مصري مسيحي كان يقول بالتوحيد الخالص (توفي

أدعوك بدعوة الله ، فإنى رسول الله إلى الناس كافة . لأنذر من كان
حياً ، وليحق القول على الكافرين .

أسلم تسلم فإن أبيت فعليك لثم كل المحجوس .

٤ - إلى أمير دمشق :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شميم .

سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله وصدق برسوله .

إنى أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له ، يبق ملكك .

٤ - إلى المقوقس عظيم مصر :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط . سلام على من اتبع الهدى ،
أما بعد فإنى أدعوك للإسلام ؛ فاسلم تسلم ، وإن يسلم قومك يؤتك الله أجره
مرتين (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا
الله ولا نشرك به شيئاً ؛ ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ؛ فإن
تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)

غزوة مؤتة

وبدء الصراع مع غير العرب

زمن الغزوة : جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة .

مكانها : قرية في شمال الجزيرة العربية على حدود الشام .

سببها : كانت غزوة مؤتة نتيجة لكتب الرسول إلى الملوك والرؤساء التي تحدثنا عنها آنفاً ، فإن الرسول بعث كتابه إلى الغساسنة مع الحارث بن عمير الأزدي ، وكان الغساسنة خاضعين لملك الروم ، ويرون أنفسهم أقرباء بسلطان الروم ، فقتلوا حامل كتاب الرسول ، وسخروا بمن أرسله ، وكان ذلك عدواناً يستحق التأديب من جانب ، ومن جانب آخر فإن الأوان كان قد آن لتطهير الجزيرة العربية من الأعداء المتأهضين للإسلام .

.. وأعد الرسول لحرب الغساسنة جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل ، ولأول مرة لم يعين الرسول قائداً واحداً للجيش ، بل عين زيد بن حارثة أميراً للجيش وقال : فإن أصيب فجعفر بن أبي طالب يصيح أمير الجيش ، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة ، وكان هذا إحساساً من الرسول بصعوبة المعركة ، كما ترك هذا التصرف إحساساً لدى المسلمين بخطورة الأمر . وسار جيش المسلمين إلى الشمال ، وما إن وصل إلى قرب مؤتة حتى فوجئوا بأنهم يواجهون جيشاً قوامه حوالي مائة ألف بعضهم من الروم وبعضهم من الغساسنة ومن حضر لمساعدتهم من العرب المحيطين بهم الذين كانوا لا يزالون على الشرك .

وجلس المسلمون للمشورة ، وأنجبه بعضهم إلى الكتابة للرسول بالأمر ليرشدتهم إلى ما يجب أن يفعلوا أو ليرسل لهم مدداً من الرجال والسلاح ، وليكن عبد الله بن رواحة صاح في الناس قائلاً : أيها المسلمون ، والله إن التي خرجتم لطلبها هي الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ،

فانطلقوا بنا إلى إحدى الحسينين ، النصر أو الشهادة . فقال الناس : صدق والله ابن رواحة .

وتقدم المسلمون وبدأت المعركة ، وسرعان ما ظهر فيها عدم التكافؤ ، فقتل القادة الثلاثة الواحد بعد الآخر ، ثم آلت الراية إلى خالد بن الوليد الذي سرعان ما أدرك أن الاستمرار في المعركة سيؤدي إلى فناء جيش المسلمين دون طائل ، فرأى أن ينسحب بجيش المسلمين ليضمن النجاة لجيشه حتى تكون عدة المسلمين أوفر للقاء الروم ومن معهم .

وعند ما أضمر خالد هذا الرأي ، ومال له أصحابه واجه جيش الروم في أول أيام قيادته بتنظيم جديد أوحى إلى الروم بأن وجوها جديدة انضمت لجيش المسلمين ، كما أمر بعض أتباعه أن يثيروا الغبار خلف الجيش ليوهم الروم أن مزيداً من المساعدات ينال على جيش المسلمين من المدينة ، وفي ظل هذا التصرف انسحب خالد بالجيش .

وغزوة مؤتة جذيرة ببعض التعليقات المهمة :

أولاً : إن هول المعركة لم يكن بكثرة الشهداء وإنما بالجيوش الصاخبة التي أعدها الروم وعرب الشمال لها ، أما الشهداء فهم اثنا عشر شهيداً فقط فيهم القادة الثلاثة ، ويبدو أن حامل الراية في هذه المعركة الخطيرة كان يتقدم الجموع ، ولا يقتصر على إدارة المعركة . ومن هنا سقط حاملو الراية مع قلة من سقطوا من المسلمين ، ويروى أن جيش الأعداء سقط فيه نفس العدد أيضاً .

ثانياً : يبدو للناظر في هذه الغزوة أن الهبة المشتركة هي التي منعت الاستمرار في المعركة ، وجعلت كلاً من الجيشين يقنع بالمناورة والمناوشة ، فجيش الروم كان يعرف ما حققه المسلمون من انتصارات في الغزوات وضد اليهود ، والمسلمون كانوا يعرفون قدرات الجيوش الرومية التي كانت قد حققت حديثاً نصراً ضد الفرس ، وفي جو هذه الهبة المشتركة وقفت المعركة عند هذا الحد .

ثالثاً : لم يقبل المسلمون بالمدينة أن ينسحب خالد بالجيش ، وعدوا ذلك قراراً ، ولذلك جعل الناس يحثون الأتارب على الجيش ويصفونهم بأنهم فرار ، ويهزمون بهم فيقولون : فررتم في سبيل الله ، ولذلك خجل كثير من هؤلاء الفارين فتوقفوا عن الظهور أمام الناس مخافة هذا الهجوم ، فقد روى ابن هشام^(١) أن أم سامة زوج الرسول صلوات الله عليه وسلم سألت زوجة سلمة بن هشام بن العاص قائلة : ما لي لا أرى سلمة يحضر الصلاة مع رسول الله ؟ فأجابت : والله ما يستطيع أن يخرج ، كلما خرج صاح به الناس : يا فرار ، فررتم في سبيل الله . حتى قعد في البيت فما يخرج .

ولكن الرسول صلوات الله عليه قدّر الموقف ، وسماهم « الكرار » مدركاً الأسباب التي جعلتهم ينسحبون^(٢).

وقد أضمر خالد بن الوليد ذلك في نفسه ، ولذلك ثار من الروم في صراعه معهم إبان فتح الشام ، فغسل عن نفسه هذا الوصف الذي أطلقه عليه المتسرعون ، وهبّات لخالد بن الوليد أن يفر إلا عن حكمة وخطة .

رابعاً : أدرك المسلمون من هذه الغزوة أن الجولة الحربية الحقيقية ستكون ضد الروم ، وأخذوا يعدون العدة لها ليبدءوا بها في الوقت المناسب.

خامساً : رأينا الرسول بعد هزيمة أحد يسرع فيسير إلى حراء الأسد ليروهم قريشاً بقوة المسلمين ، وهو بعد غزوة مؤتة يفعل نفس الشيء فقد أرسل جيشاً بقيادة عمرو بن العاص إلى الشمال ، وأمدّه بجماعة فيهم أبو بكر وعمر بقيادة أبي عبيدة بن الجراح ، وأوصى الرسول أبا عبيدة بقوله : لا تختلفا . وقد أشرنا لذلك من قبل وعلق الدكتور محمد حسين هيكل على هذه الغزوة بقوله : « وتقدم الجيش فشتت جموع أهل الشام الذين أرادوا محاربتة ، وعادت بذلك هيبة المسلمين في تلك النواحي »^(٣).

(١) السيرة النبوية ج ٤ ص ١٧ .

(٢) حياة محمد ص ٣٩٦ .

غزوة الفتح أو فتح مكة

زمنها : في رمضان من السنة الثامنة للهجرة ، وخروج الرسول إليها
كان في العاشر منه .

مكانها : مكة المكرمة .

سببها :

مهدت لفتح مكة ظروف كثيرة أشرنا لبعضها فيما سبق . فقد قضى المسلمون في فترة الهدنة على أقوى وأوفى نصير لقريش وهو اليهود ، وأخذ نفوذ المسلمين يمتد فأحاط بمكة من كل جانب ، انضمت لهم كثير من بلاد الجنوب وتبعهم كثير من القبائل في الشمال وبقيت مكة في منتصف الجزيرة وحدها -- تقريباً -- على الشرك ، ولكن أهل مكة الآن غيرهم في الماضي ، فقد مضت إحدى وعشرون سنة ومكة تناضل ، ناضلت قبل الهجرة وناضلت بعدها ، وفي خلال هذه السنين تغيرت أحوال مكة ، فقد خسر في الحروب عدد كبير ممن كان يدعو للقضاء على محمد ، كآبي جهل وعتبة وشيبة ، وكان هناك أبطال مغاوير تعتمد عليهم مكة عند الضرر كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة بن أبي طلحة ، ولكن هؤلاء لحقوا بمحمد وخلفوا مكانهم خالياً ، وأهل مكة الباقون على الشرك هزتهم انتصارات المسلمين ، وأوشكوا أن يهتفوا معهم من مشارف مكة حينما كان المسلمون يرفعون أصواتهم مهللين ملين عند طوافهم بالبيت بعد أن أخلت قريش مكة لهم . ونشأ جيل جديد سمع بالإسلام منذ المهد ونعومة الأطفار فلم تتعمق عبادة الأصنام في نفسه ، وأحس كثير من أهل مكة بالعقوق ، فالذين الذين نبع من مكة اعتنقه أكثر بلدان العرب إلا مكة ، ومحمد القرشي أصبح حظياً عند أكثر العرب ولكن القرشيين يعادونه . يا للعار !!!

ولنعد لخالد بن الوليد وأنداده لنذكر أن خالد بن الوليد هو ابن الوليد ابن المغيرة الذي كان من أقسى أعداء الإسلام ، والذي نزلت فيه الآيات

الكريمة « ذرني ومن خلقت وحيداً ، وجعلت له مالا مملوفاً ، وبنى شهوداً ومهدت له تمهيداً » . ثم يطمع أن أزيد ، كلا ، إنه كان لآياتنا عنيداً » (١) وعثمان بن طلحة أبوه طلحة بن أبي طلحة الذي ذكرنا في غزوة أحد أنه خرج من صفوف المشركين يدعو المسلمين للمبارزة ولذلك فإسلام خالد وعثمان وكثيرين من أندادهما كان يمثل تحولاً خطيراً من جيل إلى جيل ، وبهى العاصمة الروحية العنيدة لتلقى الزمام للإسلام .

ثم إن قريشاً رأت نفسها تقف وجهاً لوجه ضد العرب أجمعين تقريباً ، وأدركت قريش أن وفود الحجاج التي لم تنقطع عن مكة منذ عهد إبراهيم سيقطعها عداة قريش للعرب ، واستمرار قريش على عبادة الأوثان بينما دخل أغلب العرب في دين الله ، وفطنت قريش إلى أن تجارتها لا يمكن أن تستمر في أمن إلى الشمال أو الجنوب بعد أن امتد نفوذ المسلمين إلى جميع هذه الجهات .

وهكذا وقفت مكة تنهادى على وشك السقوط مما جعل محمداً يوقن أن دخول مكة ليس إلا كما يقول العسكريون « عملية إنزال جنود » لن يحدث فيها حرب ولا قتال ، وأتيحت للمسلمين الفرصة للدخول مكة ، فقد نقضت قريش عهدها مع المسلمين ، إذ حدث قتال بين بني بكر وخزاعة ، وبني بكر حلفاء قريش ، وخزاعة حلفاء المسلمين ، وانضمت قريش لحلفائها في هذه الحرب واستنجدت خزاعة بالمسلمين (٢) .

وأعد الرسول جيشاً عظيماً ، لم تشهده الجزيرة العربية من قبل ، إذ كان عدده عشرة آلاف شخص ، يسبرون في طاعة مطلقة لقائدهم العظيم .

حاطب بن بلتعنة يحذر أهل مكة :

يقول ابن هشام (٣) : لما أجمع الرسول السير إلى مكة كتب حاطب بن بلتعنة كتاباً إلى قريش يخبرهم فيه بما أزمع عليه الرسول ليأخذوا حذرهم ، وأعطى الكتاب لامرأة قيل إنها مولاة لبعض بني عبد المطلب ، وجعل لها جعلاً على ذلك ،

(١) سورة المدثر الآيات ١١ - ١٦ .

(٢) ابن هشام - ٢ : ٢٦٣ .

(٣) السيرة النبوية ج ٤ ص ٢٩ - ٢٠ .

ولكن الله سبحانه وتعالى أوحى للرسول بذلك . فبعث الرسول علياً ابن أبي طالب والزبير بن العوام لأخذ الكتاب من المرأة ومنعها من السير ، فلحقا بها في الطريق ، وقال علي : أين الكتاب الذي أرسله معك حاطب ؟ فأنكرت أن معها كتاباً . ففتش على رحلها فلم يجده ، فقال لها : والله ما كُذِّب رسول الله ولا كُذِّبنا . فإما أن تظهره وإلا انكشفنا . فلما رأت الجِدَّ منه استخرجته من صفائر شعرها ، وعاد به علياً إلى الرسول ، فقال الرسول لحاطب : ما حملك على هذا ؟ فأجاب حاطب : يا رسول الله ، والله إنني لمؤمن بالله ورسوله ، ولكني امرؤ ليس لي في القوم أصل ولا عشيرة ، ولي بين قريش ولد وأهل فأردت أن تكون لي صنيعة عندهم . قال عمر : مرني يا رسول الله لأضرب عنقه . فقال الرسول : وما يدريك . يا عمر أن الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم .

ونزل في هذه الحادثة قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة . . . » (١) .

العباس وأبو سفيان :

وعلى هذا لم تعرف قريش هدف الرسول حتى أصبح على مقربة من مكة ، وأخذت قريش على غرة فأسقط في أمرها ، وبينما كانوا في جدل من أمرهم خرج العباس والتقى بالمسلمين عند الجحفة . ويقال إن العباس كان مسلماً يكتُم إسلامه بأمر الرسول .

ولعب العباس دوراً مهماً في هذه الفترة مخافة أن يدخل جيش المسلمين مكة في حالة حرب . فلا تقوم لقريش بعدها قائمة ، فأخذ العباس بغلة الرسول ليدخل بها مكة ويحذر أهلها من جيوش المسلمين ، وعند ما كان في الطريق سمع صوت أبي سفيان بن حرب . وكان هذا خرج مع بُدَيْل بن ورقاء ليتجسس الأخبار . وسمع العباس صوت أبي سفيان فناداه : أبا حنظلة . ففرح أبو سفيان بصوت العباس وقال : أبا الفضل ؟ فقال العباس :

ويحك يا أبا سفيان ، لقد خرج لكم رسول الله في قوة لا تقهر ، فاركب خلقي بغلة رسول الله لعل أنال لك النجاة . فركب خلفه ولما رآه المسلمون حاولوا القضاء عليه ، ولكن العباس كان يهتف : قد أجرتهم .

وعرض العباس الأمر على الرسول ولكن الرسول بحكمته أراد أن يبقى الخوف في نفس أبي سفيان فترة ، فقال للعباس : خذه إلى رحلك وأتني به في الصباح . وفي الصباح استقبل الرسول أبا سفيان بن حرب الذي فقد كل أمل ، والذي لم يعد يهتم إلا بأن يمنع الأذى والذل عن قومه ، وهتف به الرسول : ألم يأن لك يا أبا سفيان أن تعلم أنه لا إله إلا الله !

قال أبو سفيان : بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، والله لقد ظننت أنه لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئاً^(١) .

فعاد الرسول يسأله : أما آن لك أن تشهد أني رسول الله ؟ فأجاب أبو سفيان في اضطراب : أمّا هذه ففي النفس منها شيء . فغمزة العباس وحذره وطلب منه أن يتخلى عن تعصب الجاهلية ، فأعلن إيمانه بالله ورسوله .

وآمن أبو سفيان ، ولكن الرسول لم يتركه يعود إلى مكة حتى شهد بنفسه موكب الجيوش الإسلامية ، فرأى أبو سفيان ما لم يخطر له ببال ، حتى إذا انتهى المرض العسكري اللجب ترك أبو سفيان ليعود إلى مكة ، وكان أبو سفيان هناك لسانا يحدث الناس عن الزحف الذي لا يستطيع أحد إيقافه ، فقتل كل أمل في المقاومة^(٢) .

ودخلت جيوش المسلمين من جهات أربع ، وكان خالد بن الوليد من قادة الفتح ، ونادى منادى الرسول : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه عليه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن^(٣) . واستسلمت مكة .

وطاف المسلمون بالكعبة وأزالوا منها التماثيل والصور وحطموا الأصنام وهم يهتفون : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً^(٤) .

(١) ابن القيم : زاد المعاد ٢ : ٣٦٣ .

(٢) انظر ابن هشام ٢ ، ٢٦٩ .

(٣) المرجع السابق والبلاذري ص ٥٢ .

(٤) ابن القيم : زاد المعاد ٢ : ١٦٥ وانظر الأصنام لابن الكلبي ص ٤١ وما بعدها .

الفاطميون في مكة :

هل عرف التاريخ جماعة غلبت على أمرها وطردت ، فلما استطاعت العودة إلى الوطن لم تمتد لهم يد ، ولم يحاولوا أن يأخذوا بثأر ! .
وهل عرف التاريخ عدوين يلتقيان بعد طول صراع مخضب بالدماء فلا يكون في لقاءهما شحنة ولا بغضاء ؟ .

إنها روح الإسلام ، وسيطرة القائد الأعلى على أتباعه . ورحمته بمن كانوا بالأمس أعداءه ، فلقد اجتمعوا حوله حيث هتف فيهم : ما نتمنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم . قال محمد : اذهبوا فأنتم الطلقاء^(١) .

وكان هذا هو كل الحساب بين الجيش الزاحف من المدينة وبين أهل مكة المستسلمين .

بعد الفتح

كان استسلام مكة عملاً هائلاً في تاريخ الدعوة الإسلامية . فقد توقف النشاط المعادي للإسلام من أخطر مركز باشر العداء للدين الجديد أكثر من عشرين عاماً ، وهناك أحداث مهمة برزت بعد فتح مكة نتحدث عنها فيما يلي :

١ - تخوف الأنصار أن يبقى الرسول بمكة :

بعد فتح مكة قام الرسول على الصفا يدعو الله ويشكره . وكان الأنصار يحيطون به ، فقال بعضهم لبعض سرأ : أترون رسول الله وقد فتح الله عليه أرضه ودياره يقيم بها ؟ فلما فرغ الرسول من دعائه سأله : ماذا قلتم ؟ فقالوا : لا شيء يا رسول الله . فلم يزل بهم حتى أخبروه . فقال : معاذ الله ، ألهيا محياكم ، والمات بما نكم^(٢) .

(١) ابن هشام ٢ : ٢٧٤ وانظر أيضا البلاذري ص ٥٥ .

(٢) ابن هشام ٣ : ٤٣ تحقيق طه عبد الرؤوف .

٢ - العفو الشامل إلا عن قليلين :

قلنا آنفا إن الرسول قدم عفوا شاملا لأهل مكة ، وكان قد عهد إلى أمراء الجيش ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم ، ولم يبع الرسول دم أحد إلا عددا قليلا لأسباب مهمة ، وهؤلاء هم :

عبد الله بن سعد : أخو عثمان من الرضاعة ، وكان عبد الله من كتبة الوحي ؛ ثم ارتد عن الإسلام ، ولكن عثمان شفع له فقبل الرسول شفاعته وعفا عنه .

عبد الله بن خطل : كان مسلما وله مولى ، فطلب من مولاه إعداد طعام ولكن الخادم نام ولم يصنع الطعام فقتله عبد الله ، وخاف القصاص فارتد عن الإسلام وهرب إلى مكة ، فأبيع دمه لأنه قاتل ، ولأنه مرتد .

الحويرث بن وهب : كان يؤذى الرسول بمكة ، واعتدى على ابنتي الرسول وهما في طريقهما للهجرة من مكة إلى المدينة .

عكرمة بن أبي جهل : كان يساعد أباه في العدوان على المسلمين ، وبعد مقتل أبيه في غزوة بدر استمر على العدوان ، فلما فتحت مكة هرب إلى اليمن . وأسلمت امرأته أم حكيم بنت الحارث بن هشام واستأمنت له فعفا عنه الرسول فخرجت في طلبه وأعادته إلى مكة .

مقيس بن حبابه : قتل أحد الأنصار ؛ وفر إلى مكة وارتد عن الإسلام قينتان : هذا بالإضافة إلى قيتين كانتا تتغيبان بمن يقتل الرسول وتشجعان على الهجوم عليه ولكن الرسول عفا عن إحداهما (١) .

٣ - إسلام والد أبي بكر :

لما دخل الرسول مكة ودخل المسجد ، أتى أبو بكر بأبيه يقوده ،

(١) ابن هشام ٤ - ص ٣٨ - ٤٠ .

فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : هلا تركت الشيخ في هيمته حتى آتبه أنا فيه ؟ فقال أبو بكر : هو أحق أن يمشی إليك يا رسول الله ؛ فأجلسه الرسول بين يديه ثم مسح صدره ، وأعلن الشيخ إسلامه ^(١).

٤ - إسلام صفوان بن أمية :

عقب فتح مكة أسرع صفوان بن أمية بن خلف إلى وجدته ليركب منها إلى اليمن ، فجاء عمير بن وهب إلى الرسول وقال له : يا نبي الله : صفوان ابن أمية سيد قرمه ، وقد خرج هارباً منك ليقتد نفسه في البحر فأمنته يا رسول الله ، قال الرسول دون تردد ، هو آمن ، قال عمير : أعطني يا رسول الله آية له يعرف بها أمانك فأعطاه عمامته . فخرج بها حتى أدركه وصاح به : يا صفوان : هذا أمان من رسول الله إليك ، أمان جاءك من أفضل الناس وأبر الناس وأحلم الناس ، من عزه عزك وشرفه شرفك ، قال صفوان إنى أخافه على نفسي ، قال عمير ؟ هو أحلم من ذلك وأكرم ، فرجع صفوان مع عمير إلى الرسول ، ودخلا عليه وقال صفوان للرسول : إن هذا يزعم أنك قد أمستني . قال الرسول : لقد صدق ، قال صفوان : اجعلني في أمرى بالخيار مدة شهرين ، قال الرسول : أنت في الخيار فيه أربعة أشهر .

ويوماً بعد يوم بدأت صلوات صفوان تتوثق بالرسول ، وبدأ إعجابه به يظهر ، ولم تمض إلا أيام قلائل حتى كان صفوان في صفوف المسلمين في موقعة حنين قبل أن يدخل الإسلام ، وعندما تقول المنافقون على الرسول لآثر هزيمة المسلمين في الجولة الأولى بهذه الموقعة تصدى لهم صفوان معارضاً ومؤيلاً . ولم يلبث أن دخل الإسلام قبل الأجل الذي منحه له الرسول ^(٢) .

٥ - إسلام كعب بن زهير :

لما عاد الرسول من غزوة حنين والطائف كتب بجوير بن زهير بن

(١) سيرة- ابن هشام ج ٤ ص ٣٤ .

(٢) ابن هشام : ج ٤ ص ٤٤ وما بعدها .

أبى سلمى إلى أخيه كعب يخبره أن الرسول قتل رجلاً بمكة ممن كانوا يهجونهم ويؤذونه ، وأن بعض شعراء قريش المهاجرين قد هربوا في كل وجه ، فإن كانت لك في نفسك حاجة ، فطهر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه لا يقتل أحداً جاءه تائباً .

فلما تلقى كعب كتاب أخيه ضاقت به الأرض . وأشفق على نفسه ، فنظم قصيدة يمدح فيها الرسول . ويذكر خوفه وإرجاف الوشاة به ، ودخل على الرسول في المسجد ومعه صديق من المسلمين من جهينة . وكان الرسول لا يعرف كعب بن زهير ، فقال الجهيني للرسول : إن كعب بن زهير جاء تائباً مسلماً يطلب الأمان . فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به ؟ قال الرسول صاوات الله عليه : نعم ، فتقدم كعب بن زهير وقال : أنا كعب بن زهير يا رسول الله ، وأتني قصيدته التي جاء فيها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول	مقيم إثرها لم يثقد مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا	إلا أغن غصيفي الطرف مكحول
هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة	لا يشتكى قصر منها ولا طول
.....
إن الرسول لنور يستضاء به	مهتد من سيوف الله مسلول (١)

٦ - مفتاح الكعبة :

عندما دخل الرسول المسجد بعد فتح مكة ، جاء له على بن أبي طالب وفي يده مفتاح الكعبة وقال : يا رسول الله ، هذا مفتاح الكعبة ، فاجعل لنا الحجابة مع السقاية ، صلى الله عليك ، فقال الرسول : أين عثمان بن طلحة ؟ فدعى له ، فأعطاه الرسول المفتاح وقال : هاك مفتاح الكعبة يا عثمان ، اليوم يوم بر ووفاء (١) .

(١) ابن هشام ج ٤ ص ١٠٧ وما بعدها .

(٢) ابن هشام ج ٤ ص ٤١

٧ - الجزيرة العربية في الطريق إلى الاستسلام :

كان من الطبيعي أن استسلام مكة مهد الطريق لاستسلام الجزيرة العربية كلها ، لقد همد الخصم العنيد وألقى السلاح . وأصبح المسلمون سادة الكعبة وحماة البيت الحرام . وسارت سيرتهم في البر وحسن المعاملة مع الوافدين والركبان .

ومن أسماء مكة « أم القرى » وهذا يدل على مدى أهميتها بين بلدان الجزيرة العربية ، وبها الكعبة المشرفة التي يحج لها العرب من كل الأصقاع العربية ، وباسم الكعبة كانت لقريش الزعامة الروحية ، وبهذا كان استسلام قريش واستيلاء المسلمين على الكعبة وتحطيم الأصنام مطلع عهد جديد سعيد على الإسلام والمسلمين .

وكان هدف الرسول بعد استسلام مكة تطهير الجزيرة العربية كلها من أعداء الإسلام ليخلق منها وحدة لها ثقافتها ولها دينها ولها مبادئها ونظمها ، حتى يستطيع - بوحدة الجزيرة العربية واستقرارها - أن يواجه عدوه في الشمال ، ذلك العدو الذي يتحرش بالمسلمين ، ويعد العدة للتدخل في شئون الجزيرة العربية ، ولذلك سارع الرسول بأن دعا إلى الإسلام قبائل البدو المتناثرة حول مكة ، كما دعا مسيحي نجران وأمرء الجنوب الذين لم يكونوا قد انضموا للإسلام بعد ، وقد استجاب كل هؤلاء لدعوة الإسلام .

ثم هبت عقب ذلك من الطائف ومن بعض بلاد نجد حركة ضد الإسلام والمسلمين استلزمت أن يخوض المسلمون معركة حنين وغزوة الطائف وسنتكلم عنهما فيما يلي بشيء من التفصيل :

غزوة حنين والطائف

مقدمة :

تعتبر غزوة الطائف امتداداً لغزوة حنين ، ذلك لأن جموع هوازن التي كانت تنتشر بطونهم انتشاراً واسعاً في نجد ، وجموع ثقيف التي كانت تسكن الطائف المدينة الغنية التي تقع في الجنوب الشرقى من مكة . هؤلاء وأولئك حاربوا المسلمين في وادى حنين ، فلما انهزموا وتقهقروا لجثوا إلى الطائف وتحصنوا بها ، ولحق المسلمون بهم حيث استمرت المعركة ، ومن هنا كان الحديث عن معركة حنين ومعركة الطائف تحت عنوان واحد ، وسيأتى تفصيل ذلك .

الزمن : السنة الثامنة للهجرة بعد فتح مكة بأقل من شهر .

المكان : وادى حنين ومدينة الطائف . ووادى حنين يقع بين مكة والطائف وراء عرفات بينه وبين مكة بضعة عشر ميلاً^(١) .

السبب :

سبق أن قلنا إنه كانت هناك قوى كثيرة تعارض الإسلام وتعمل على القضاء عليه ، وأن هذه القوى ظهرت الواحدة تلو الأخرى ، فهناك قوى بكرت في الظهور ، فلما أخفقت ظهرت قوى أخرى وهكذا .

كانت قريش تعتقد أن الدعوة الإسلامية خرافة لا تثبت أن تموت من تلقاء نفسها ولذلك لم تترك داعياً أن تقاومها في بدء أمرها ، فلما لم تمت من تلقاء نفسها هبت قريش في وجهها للقضاء عليها .

وكان اليهود يظنون أن قريشاً كفيفة بالقضاء على الإسلام ، فلما أفلت الإسلام من مكة وهُزمت قريش في بدر انضم اليهود إلى المناضلين .

ولما بدأت هزائم اليهود بإخراج بنى النضير تجمعت قوى الأحزاب للقضاء على الإسلام .

(١) النوى : تهذيب الأسماء واللغات ج ١ ص ٨٦ .

وقضى على اليهود ، واستسلمت مكة ، فهبت هوازن وثقيف للوقوف في وجه الإسلام ؟

فلما استسلمت الجزيرة العربية كلها هب الفرس والروم للقضاء على القوة الهائلة الناشئة في شبه الجزيرة العربية .

فلما انتصر الإسلام في كفاحه ضد الفرس والروم هبت أوروبا تحت راية الصليب فيما يسمى بالحروب الصليبية للقضاء على الإسلام .

وانهزم فرسان الصليبيين واندكت بمالكهم التي أقاموها بالشرق ، فبدأ الاستعمار الأوروبي يزحف على العالم الإسلامي ليقضى على الإسلام بالقوة أو برسائل أخرى حديثة كالتبشير والتشكيك ونشر الإباحية والخلاعة باسم المدنية والحضارة .

وانتصر الإسلام في جميع الميادين ولا يزال ينتصر .

ونحن هنا نتحدث عن حلقة من حلقات هذا النضال ؛ عن نضال المسلمين ضد هوازن وثقيف في وادي حنين ومدينة الطائف .

لقد استسلمت مكة ودخلها محمد مرفوع الرأس منتصراً ، وامتد سلطانه إلى الكعبة ، البيت المقدس عند العرب جميعاً ، وخضع لفوذه أغلب الجزيرة العربية في الشمال والجنوب ، ولم يبق خارجاً عليه إلا قلة أهمها هوازن وثقيف ، ومن هنا أدركت هوازن وثقيف أنه لم يبق قوة تستطيع الوقوف في وجه المسلمين إلا قوتها ، وأحست هوازن وثقيف بهتاف اللات والعزى ومناة يدوي في القلوب المظلمة ، ويحثها على النار للأوثان التي كسرها المسلمون بالكعبة ؛ وللأصنام التي كبها المسلمون على الوجوه .

وهبت هوازن وثقيف بقيادة مالك بن عوف^(١) (من بني نصر من هوازن) ولم يكن قد مضى على فتح مكة غير بضعة عشر يوماً كما جاء في رواية ، أو بضعة وعشرون يوماً كما جاء في رواية أخرى^(٢) .

ولم يشمل المسلمون بالنصر الذي أحرزوه بفتح مكة ، ولذلك سرعان ما أعدَّ الرسول جيشاً كبيراً يبلغ عشرة آلاف أو يزيد ، ومشى الجيش

ولكن في شيء غير قليل من الزهو ؛ فقد همدت قریشُ العدو الأكبر للمسلمين ، وها هم القرشيون يلحقون بجيش المسلمين لحاربة هوازن وثقيف ، وقد همدت أنفاسُ اليهود أقسى أعداء المسلمين ، فإذا عسى أن تكون هوازن ؟ وماذا عسى أن تكون ثقيف ؟

وأدرك مالك بن عوف أن هذه آخر محاولة يقوم بها عبدة الأوثان ضد الإسلام ، ولذلك نجده يُعَمِّلُ الحيلة للحصول على النصر ، فاختر للموقعة أرضاً جبلية بها مرتفعات ولها مسالك لا يعرفها أغلب المسلمين ولا يجيدون القتل فيها ، وحشد مالك خلف الجند النساء والأطفال حتى يدرك المحارب أن هزيمته ستكون فناءً لأهله وماله ، وبذلك يستमित في القتال حتى النصر^(١) وعسكر مالك بجنده في شعاب الجبال فأصبح هؤلاء الجنود مشرفين على الطرق الضيقة حيث يمر جيش المسلمين .

وبينما كان جيش المسلمين يعبر المسالك الضيقة بجبال تهامة والزهو يشع فيهم بسبب ضخامة العدة وكثرة العدد ، انقضَّ عليهم العدو من مكانه في الشعاب والمرتفعات ، وفوجيء المسلمون بالضرب ينصب عليهم انصباباً ، فاضطربوا وتفرقت جموعهم وغلبوا على أمرهم وولوا متقهقرين ، وقد حكى القرآن الكريم هذه الهزيمة بقوله (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً ، وضائق عليكم الأرض بما رحبت ، ثم ولستم مدبرين^(٢))

وننقل فيما يال عبارة ابن إسحق في ذلك الموضوع قال : حدثني عاصم ابن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه جابر بن عبد الله قال : لما استقبلنا وادي حنين انحدرنا في واد من أودية تهامة أجوف حطوط إنما ننحدر فيه انحداراً ، وفي عماية الصبح وكان القوم قد سبقونا إلى الوادي ، فكمنوا لنا في شعابة وأجنابه ومضايقه ، قد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا ، فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتاب قد شدت علينا شدة رجل واحد ،

(١) ابن هشام ج ٢ ص ٢٨٢ .

(٢) سورة التوبة الآية ٢٥ .

وانتشر الناس راجعين لا يلوى أحد منهم على أحد^(١) .

ولم تكن انتصار هوازن وثقيف حاسماً ، ولم يكن إلا أثراً للمفاجأة التي لم يتوقعها المسلمون ، وإذا كانت جموع المسلمين قد فرت وكتبت على نفسها الهزيمة ، فإن الرسول وقف مكانه كالطود الشامخ الذي لا يعرف الفرار ، ووقف مع الرسول جماعة من المهاجرين والأنصار فيهم العباس عم النبي ، ولعل وقفة هؤلاء الرفقاء لم تكن طلباً للنصر وإنما كانت ليموتوا مع الرسول أو يعيشوا معه فلا معنى للفرار وتركه وحده أباً كانت نتائج المعركة (ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها^(٢)) .

وهكذا سرعان ما بدأ الاستعداد لمعركة حقيقية ، فهتف الرسول بأصحابه ونادى المهاجرين والأنصار ، وأمرعه العباس أن ينادى وكان صوته قوياً ففعل^(٣) ، واجتمع المسلمون حول قائدهم وواجهوا الأعداء ، وتوقف الجيش المنتصر عن تعقب المهزومين ليقابل المخارين ، ونظر المسلمون الفارون خلفهم فلم يجدوا أحداً يتعقبهم ، بل رأوا معركة تدور وسمعوا صياح العباس يهتف بهم ؛ فارتدوا للمعركة وتكاثروا ، وحاربوا بشجاعة فائقة فانقلبوا من مدافعين إلى مهاجمين ، وتقدم البطل العظيم على بن أبي طالب إلى صاحب راية المشركين فعقر جملة فهوت الراية ، ثم قتل حاملها ، واضطرب المشركون ، وتفرق جمعهم ، وولوا الأدبار ، وغنم المسلمون في هذه الموقعة غنائم كثيرة وسبايا عظيمة^(٤) .

أما المشركون فقد فارقوا أرض المعركة متفرقين فانجه بعضهم إلى سهل أوطاس واتجه آخرون إلى نخلة ، كما ارتد مالك بن عوف وجهرة أتباعه إلى الطائف حيث نزلوا مع ثقيف مدينتهم الحصينة الغنية ، وقد تتبع

(١) ابن هشام ٢ : ٢٨٩ .

(٢) سورة التوبة الآية ٢٦ .

(٣) ابن هشام ٢ : ٢٩٠ وابن القيم ٢ : ١٨٧ .

(٤) ابن هشام ٢ : ٢٩٠ .

وحدات من جيش المسلمين أولئك الفارين ، واتجه الرسول ومعه أغلب الجيش لحصار الطائف^(١) .

وحول الطائف بدأت معركة جديدة لها ظروف خاصة ، فالطائف مدينة حصينة قوية الجدران ، وقد رأيتُ بقايا أسوار حول الطائف عرضها حوالى مترين ويُعتقد أنها بقايا أسوار الطائف الشهيرة ، ثم إن الطائف مدينة غنية كثيرة الخيرات تستطيع أن تمتدَّ المحاصرين بمثونة وافرة لمدة طويلة ، ويقول البلاذرى^(٢) إن أهل الطائف رمُّوا حصونهم وجمعوا الميرة ، ثم إن أهل الطائف لهم خبرة عظيمة بالرمي بالنبال ، ورد الذين يحاولون أن يتسللوا إليهم أو يقتحموا عليهم مدينتهم .

وللمسلمين خبرة واسعة في الحصار ، فقد حاصروا بنى النضير وبنى قريظة وخير من قبل ، وانتهى حصارهم بالنجاح الذى أرادوه . ولكن قوة الطائف وقوة أهل الطائف كانت تفوق اليهود ومدن اليهود بدرجات كثيرة . ولذلك كان على المسلمين أن يقترحوا وسائل جديدة للنجاح في الحصار ، وكان على هوازن وثقيف أن تجد السبل التى ترد بها وسائل المسلمين ، ولذلك نجد ما يمكن أن نسميه حرباً فكرية ؛ فالمسلمون يستعملون المنجنيق وهو أداة ترمى الحجارة على الأعداء وتقوض الجدران ، ولكن جدران الطائف كانت أقوى من أن تهتز لهذه الضربات ، فاستعمل المسلمون الدبابة وهى أداة مصنوعة من الخشب أو الجلود يدخل المسلمون فيها ويتحركون فى حمايتها إلى الهدف ، فإذا وصلوا الأسوار نقبوها فى حين يحميهم سطح الدبابة من نبال الأعداء^(٣) ولكن أهل الطائف ألقوا على المهاجمين قطع الحديد المتهب فتعرضت الدبابة للاحتراق ، فتغلب المسلمون على ذلك بأن غطوا ظهر الدبابة بألواح من الحديد أو الصفائح ، فألقى المحاصرون عليها حجارة

(١) المرجع السابق ٣٠١ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٦٧ .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٦٧ • ٦٨ .

ثقيلة دسوت بعضها ، وحاول المسلمون أن يحرقوا كروم الطائف ، وهي أغلى ما يعتزُّ به أهل الطائف ، فأرسل هؤلاء إلى الرسول يخبرونه ألا يحرق الكروم ويخبرونه أن يأخذها لنفسه أوبدعها لله وللرحم (١) .

أما إذا تكلم أهل الطائف عن الله والرحم فقد أخذت عريكتهم تلين ، ثم إن الأشهر الحرم قد قرب دخولها ، والحصار قد طال مداه حتى كرهه المسلمون وبخاصة عندما تأكدوا من كثرة المثونة داخل الطائف ، وبَعْدُ الأمل في الاستسلام القريب ، وإزاء هذه الظروف لجأ الرسول إلى حل آخر هو حصار الطائف حصاراً أوسع : فهل تستطيع الطائف أن تعيش وحدها على الوثنية بعد أن دخلت الجزيرة العربية كلها في الاسلام ! وهل تستطيع الطائف أن تقف موقف العداء من العرب جميعاً !

ورفع الرسول الحصار عن الطائف وعاد إلى الجعرانة حيث كانت تنتظره السبائا والأسلاب التي حصل عليها المسلمون عند هزيمة هوازن ، وفي الجعرانة جاءه وفد من هوازن مسلمين تائبين وطلبوا أن يرد الرسول إليهم أموالهم وأهلهم : فنزل لهم الرسول عن حقه وحق بني عبد المطلب في المال والسبي وحجب الرسول للمسلمين التنازل عن حقوقهم ، ووعد من غلبه الحرص بجزاء أوفى مما قد يجي من غنائم ، فاقتدى المسلمون بالرسول وتنازلوا عن حقوقهم في الأموال والسبائا (٢) .

وأعلن الرسول أن مالك بن عوف لو جاءه مسلماً لعفا عنه ورد إليه أهله وماله ، فعخرج مالك من الطائف وقصد الرسول وأعلن إسلامه واسترد ماله وذوبه (٣) .

(١) ابن القيم : زاد الماد : ص ١٩٧ .

(٢) ابن هشام ٢ : ٣٠٦ .

(٣) المراجع السابق ص ٣٠٧ .

أما الطائفتان فسرعان ما أدركت قوة الحصار الواسع الذي فرضه عليهما المسلمون ، وقد عبر بعضهم عن هذا الحصار بقوله « أفلا ترون أنه لا يأمن لكم سرب ، ولا يخرج منكم أحد إلا اقتطع »^(١) ولذلك كونت ثقيف وفداً جاء إلى الرسول وأعلن إسلام أهل الطائفتين ودخول ثقيف فيما دخل فيه العرب جميعاً^(٢) ، وقد تم إسلام الطائفتين بعد غزوة تبوك التي تفهقر فيها الروم ولم يواجهوا المسلمين ، فأدركت الطائفتان أن قوة المسلمين أعظم من أن يفكروا في مقاومتها ، وتم إسلام ثقيف في رمضان سنة ٩ هـ

ومن الطوائف التي يجدر ذكرها هنا أن بني ثقيف حاولوا أن يشترطوا أو أن يلتزموا أن تبقى لهم إلهتهم « اللات » ولوفرة من الزمن ، ولكن هذا الالتماس قوبل بالسخرية ، فليس في الإسلام سبيل لاجتماع الوثنية والتوحيد ، وأمر الرسول من حطمت هذا الصنم كما تحطمت أصنام مكة من قبل^(٣) .

وهكذا أصبحت الجزيرة العربية لأول مرة في التاريخ دولة متحدة قوية ، لها مبادئها ولها حضارة ، ولم يبق في الجزيرة العربية إلا دين واحد التفت حوله الناس من الشمال ومن الجنوب .

(١) المرجع السابق ص ٣٢٥ .

(٢) إبي القيم : زاد المعاد ٢ : ١٩٧ والبلاذري ص ٦٢

(٣) انظر كتاب الأصنام لأبن الكبي - في عدة مواضع

غزوة تبوك

زمنها : رمضان من السنة التاسعة للهجرة .

مكانها : مدينة تبوك في شمال الجزيرة العربية .

سببها :

سبق أن تحدثنا عن غزوة مؤتة ، وقررنا أنه سقط فيها عدد من المسلمين فهم القادة الثلاثة الذين تولوا قيادة الجيش ، الواحد بعد الآخر ، وقتلنا لأنه لما تولى خالد بن الوليد قيادة جيش المسلمين استطاع أن يحتال حتى عاد بالجيش دون أن تقع هزيمة كاملة . وذكرنا كذلك أن الروم سقط منهم نفس العدد الذي سقط من المسلمين ، وأنهم لم يتابعوا المسلمين بعد انسحابهم وقنعوا بهذه النتيجة ، ولكن بقي نفوس الروم وفي نفوس المسلمين قلق كل من الآخر ، وعند ما حقق المسلمون بعد مؤتة ألواناً من الانتصارات ففتحوا مكة ، وهزموا هوازن وثقيف ، أدرك الروم أن مسئوليتهم في مصارعة المسلمين ضرورية ، وأنه لم يبق غيرهم يلتزم بمواجهة المسلمين ، إذ لم يعد هناك أمل أن يتولى العرب القضاء على الإسلام ، فجمعت الروم جموعاً كثيرة بالشام ، ورزق هرقل أصحابه أجر سنة مقدماً ، وأجلبت مع هرقل الخيول وغسان وغيرها (١) .

وزحف ذلك الجيش إلى أطراف الجزيرة العربية ، وجد الرسول في أعداد جيش يقابل به جيش الروم ، ولكن الظروف هذه المرة كانت غير الظروف في الحروب السابقة ، ونستطيع أن نقرر شيئاً لم يذكره كثير من المؤرخين ، وهو أن العرب أرعبهم أن يقفوا وجهاً لوجه أمام الروم ، فالروم قوم غير قوة العرب في معداتهم وحصونهم وتدريبهم ، والعربي ملرب على القتال ولكن تبعاً لوسائل الحزب في الجزيرة العربية ، ثم إن الهزيمة التي لحقت بجيش مؤتة كانت لا تزال عالقة بالأذهان ، فخاف العرب من

(١) ابن القيم : زاد المعاد ٢ : ٧ .

تكرارها ، وألروم بلاد بعيدة عن عاصمة المسلمين ، والوصول إليها شاق عصيب يتعب الزاحف وينال منه ، ويجعله بعيداً عن مراكز التموين والإمدادات ، ثم إن الوقت كان شديد الحرارة ، وكان وقت حصاد^(١) ، وكل هذه الظروف جعلت الرسول يعلن أصحابه قبل الخروج بهدفه حتى يستعدوا ، وكان من عادته أن يخرج بهم دون أن يخبرهم إلا بعد الخروج^(٢) . وكل هذه الظروف أيضاً جعلت المنافقين يعلنون نفاقهم ويتخلفون عن ركب المجاهدين ، بل جعلتهم يحاولون تثبيط الهمم وإضعاف العزائم ، وكانوا يجتمعون في بيت سويلم اليهودي ليذبروا تثبيط همم المسلمين عن الغزوة ، فوكل الرسول لطلحة بن عبيد الله ونفر من المسلمين أن يهرقوا هذا البيت ، وقد أورد القرآن الكريم ظروف هذه القصة في آيات كثيرة من سورة التوبة نورد منها الآيات الآتية :

— يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله أثأقلمت إلى الأرض أَرْضَيْتُمْ بالحياة الدنيا من الآخرة ؟ فامتناع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل^(٣) .

— لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك، ولكن بعدت عليهم الشقة، وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم ، يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون^(٤) .

— فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، وقالوا لا تنفروا في الحر ، قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون ، فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون ، فإن رجعت الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج ، فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدوا ، إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين^(٥) .

(١) ابن هشام ٢ : ٣١٦ وابن القيم ٢ : ٢ .

(٢) المرجعان السابقان . (٣) سورة التوبة الآية ٢٨ .

(٤) سورة التوبة الآية ٩٢ .

(٥) سورة التوبة الآيات ٨١-٨٣ .

وبيّنا كان هناك عرب يرعبهم أن يقفوا في وجه الروم ، وبيّنا مكان
هناك منافقون ينشرون الخوف ويتلمسون الحيل حتى لا يلحقوا بجيش
المسلمين ، كان هناك مسلمون امتلأت قلوبهم بالإيمان ، يستجيبون إذا
دُعوا ، ويعرضون نفوسهم وأموالهم لخدمة الإسلام دون تردد أو خوف ،
هؤلاء الذين أدركوا أنه لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ،
ولا يطنون موطئاً يغيظ الكفار ، ولا ينالوك من عدو نيلاً إلا كتب لهم به
عمل صالح ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين ، ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا
كبيرة ، ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ، ليجزيهم الله أحسن ما كانوا
يعملون^(١) . وكان عثمان بن عفان من أهم من سعى واحتسب في هذه
الغزوة ، فقد روى أنه قدم مئات من الإبل بأقنابها وعدتها ، وبعض الخيول ،
وآلف دينار^(٢) .

ومن هؤلاء الأبطال تكون جيش المسلمين في هذه الظروف الحرجة ،
وقد سمي هذا الجيش « جيش العسرة » للصعوبات التي أحاطت بتكوينه
وحظى أفراد هذا الجيش برضاء الله ﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين
والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة ﴾^(٣) .

وزحف الجيش مستعداً للفداء ، وإن جل الفداء ، وكان تعدادة ثلاثين
ألفاً ، وقيل أربعين وقيل سبعين ، ولم يكن الروم ينتظرون أن يستجيب هذا
العدد الضخم من المسلمين للحاق بالجيش في فترة الحصاد وزمن الحر القاسي ،
ولذلك راعهم أن يقدم لهم هذا الجيش الكبير يقوده أبطال لا يعرفون
الانهازم ، من أمثال أميد بن حضير والحباب بن المنذر وخالد بن الوليد ،
ولذلك نجد جيش الروم يتقهقر ليتخذ سكانه داخل بلاده مدافعاً بعد أن كان
يريد الهجوم .

(١) سورة التوبة الآيات ١٢٠ : ١٢١ .

(٢) تختلف الروايات في تقدير عدد الإبل التي قدمها عثمان ولذلك آثرت أن أذكرها
هكذا بحملة (انظر زاد المعاد ١ : تهذيب الأسماء للنووي ١ : ٢٢٣ وابن هشام ٢ : ١٣٦ ، ٢٥٢)

(٣) سورة التوبة الآية ١١٧ .

ولم يرد الرسول أن يهاجم العدو بعد أن تفهقر ، وإذا فليذكر الرسول بجيشه عند تبوك حيث أُرهب الأعداء ، وعمل المعاهدات مع سكان الحدود بين الجزيرة العربية والشام ، وقد شملت هذه المعاهدات سكان تبوك وأيلة ، كما أرسل النبي خالد بن الوليد مع فريق من الجيش إلى دومة الجندل ، فخضعت له (١) .

وانتهت بذلك غزوة تبوك ، وهي آخر غزوات الرسول صلوات الله عليه .

الثلاثة الذين خلفوا

تخلف عن غزوة تبوك حوالي ثمانين شخصاً ، فلما عاد الرسول منها عودة مباركة جاء أكثر المتخلفين يعتذرون بمعاذير كاذبة ، فقبل رسول الله معاذيرهم الظاهرة وترك أمرهم إلى الله ، وقد نزلت آيات سورة التوبة تهاجمهم وتكشف سترهم ، ولكن كان من بين المتخلفين ثلاثة صدقوا الرسول واعترفوا أنهم لم يكن لهم عذر يمنعهم من المشاركة في هذه الغزوة وهؤلاء الثلاثة هم : كعب بن مالك ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، وقد عاملهم الرسول معاملة المذنبين ، فأمر بمقاطعتهم ، فأعرض المسلمون عنهم خمسين ليلة ، لا يكلمهم أحد ولا يعاملهم أحد حتى ضاقت عليهم الأرض لكنهم كانوا ثابتين عند موقفهم ، ويرون أن ذلك أيسر عند الله ورسوله من الكذب في اختلاق الأعذار ، وقد عانى هؤلاء أشد العناء حتى عفا الله عنهم ونزل فيهم قوله تعالى « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في سبعة الهجرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم » ، وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم (٢)

(١) ابن هشام ٢ : ٣١٩ .

(٢) سورة التوبة الآيتان ١١٧ - ١١٨ .

عام الوفود

قال ابن إسحق أول من دون السيرة النبوية : لما فتح رسول الله مكة ، وفرغ من تبوك ، وأسلمت ثقيف وبايعت ، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه ، ولذلك سمي العام التاسع للهجرة عام الوفود^(١) .

ويذكر ابن هشام^(٢) ، هذه الوفود ويقتبس مما ألفاه خطباؤها وشعراؤها ، ومن هذه الوفود وفد بني تميم : وبني عامر ، وبني ساعد بن بكر ، ووفد عبد القيس ، وبني خثيفة ، ووفد بني غلي ، وبني زيد وكندة ، ووفد همدان ، وغيرها^(٣) ، وهكذا يلاحظ الباحث أمراً عجيباً ، ففي عشر سنوات - وما أقصرها في عمر الدول - نرى الرجل الذي كان يعرض نفسه على القبائل ، قد أصبح مجلس في داره حيث تفقد له وفود القبائل التي تقطن قريناً من المدينة لمواعدة عبا ، ونجد الإسلام الذي كان محدود الانتشار قليل الأتباع يصبح دين الجزيرة كلها ، وصيحه لأتباعه صولة وكلمة مسموعة ، ونرى الرجل الذي خرج من مكة في جنح الظلام متسللاً والأعداء يحيطون به من كل جانب ، يعود إلى مكة منتصراً في جيش عظيم ، وتقف له مكة ؛ تحسن استقباله وتتبع دعوته ، وهكذا عمت الدعوة الإسلامية شبه الجزيرة العربية ، ونعم محمد بأن رأى زرعه يثمر - ودين الله ينتشر على يديه .

حج أبي بكر بالمسلمين سنة ٩ هـ

وعلى بن أبي طالب يؤدي عن الرسول بعض الأحكام

بعد شهر من غزوة تبوك بعث الرسول صلوات الله عليه أبا بكر أميراً على الحج في السنة التاسعة ليقم للمسلمين حجهم ، وكان هناك أناس من العرب ممن لا يزالون على الشرك يحجون إلى البيت الحرام تبعاً لتقاليدهم

(١) ابن هشام : ٢ : ٢٢٢ .

(٢) المرجع السابق ٢٢٢ - ٢٥٠ .

(٣) انظر بعض الوفود أيضاً العقد العربي ج ٢ ص ٣١ وما بعدها .

التي كانت قبل الإسلام ، وقد سمح المسلمون لهم بذلك بناء على معاهدات كانت بينهم وبين الرسول ، ويقول ابن هشام^(١) : إنه كانت هناك عهود بين الرسول وبين بعض المشركين على أن لا يُصَدَّ عن البيت أحد جاءه وبعض العهود كانت إلى آجال مسماة ، وقد نزلت سورة براءة تحسم هذه الأمور ، واختار الرسول على بن أبي طالب ليؤدي عنه هذه التعاليم الجديدة ، وليُسمع جميع الحجيج أوامر الله الجديدة في هذا الشأن ، وعندما لحق على أبي بكر في الطريق سأله أبو بكر : أمر أو مأمور ؟ فقال على : بل مأمور من رسول الله لأداء عمل غير الامارة التي وُكِّلْتُ إليك لتنفذ الحجج ، فأقام أبو بكر للناس الحج في تلك السنة على منازلهم من الحج التي كانوا عليها من قبل ، حتى إذا كان يوم النحر قام على بن أبي طالب فأذن في الناس بالذي أمره به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أيها الناس إنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله عهد فهو له إلى مدته ، وأجل الناس أربعة أشهر من يرمه ذاك ليرجع كل قوم إلى ما منهم أو بلادهم ، ثم لاعهد لمشرك ، ولا ذمة إلا لا تحكَّ كان له عند رسول الله عهد إلى مدة فهو إلى مدته ، وقرأ على آيات مطلع سورة براءة في هذا الشأن ، ونقتبس منها الآيات التالية :

— براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ، فسيحوا في الأرض أربعة أشهر ، واعلموا أنكم غير معجزي الله ، وأن الله مخزي الكافرين ، وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله ، فإن تبتم فهو خير لكم ، وأن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله ، وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ، إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ، ولم يظاهروا عليكم أحداً ، فاتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ، إن الله يحب المتقين .

— يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس ، فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا .

ومنذ ذلك اليوم لم يحج مشرك ، ولم يطف بالبيت عريان .

تمام الدعوة

يروى المؤرخون أنه عندما نزلت سورة النصر ، إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ، فسبح بحمد ربك واستغفره ، إنه كان توابا ، ، عندما نزلت هذه السورة بكى بعض من معها ، قيل : ما يبكيك ! قال : إن معنى هذه السورة قرب وفاة الرسول ، فقد جاء نصر الله وفتحت مكة ، وجاءت أفواج الناس تدخل في دين الله ، وأمر محمد بالاستغفار بعد ذلك ، ومعنى هذا أن مهمة الرسول قد تمت بنجاح ، وبإتمام مهمته العظمى يطلب الله منه أن يستغفر لذنبه ، وأن يستعد للقائه .

ومثل هذا ما قيل في الآية الكريمة التي كانت خاتمة القرآن الكريم :
(اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً)^(١) فقد دلت على كمال الدين وتمسك القرآن ، وأصبحت بذلك إشارة للرحيل .

حجة الوداع

تمت حجة الوداع في السنة العاشرة للهجرة ، وقد خرج الرسول لها في مائة ألف مسلم أو يزيدون ، وخطب الرسول في هذا الجمع الكبير من المسلمين خطابه الخالد ليُشهدهم على أنفسهم بأنه بلغ وأوفى . وليضع أسمى دستور للبشرية ، ومما جاء في خطابه قوله : (أيها الناس اسمعوا قولي فإني لا أدرى لعل لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً ، أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلا بحقها ، وإن كل ربا موضوع ، ولكم رموس أموالكم ، لا تظلمون ولا تظلمون ، وإن كل دم كان في الجاهلية فهو موضوع ، وإن الشيطان يشس أن يعبد في أرضكم هذه ولكنه يطمع فيما سوى ذلك فاحذروه ، أيها الناس إن ربكم واحد وأباكم واحد . كلكم لآدم وآدم من

(١) سورة المائدة : آية الثالثة .

تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، لافضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى (١) .

مرض الرسول ووفاته

- بعد حجة الوداع بحوالى ثلاثة شهور مرض الرسول بالحُمى ، واشتد عليه المرض فلم يستطع أن يخرج للصلاة بالناس ، فأمر أبا بكر أن يصلى بهم (٢) ، وقد أحس الرسول بجزع المسلمين لمرضه وتوقع وفاته ، وعرف أنهم أحاطوا بالمسجد محزونين ، فخرج إليهم متوكئاً على عمه العباس وابن عمه على بن أبي طالب ، وجلس على أول مرقاة من المنبر وأحاط به المهاجرون والأنصار فخطب فيهم قائلاً : أيها الناس . بلغني أنكم تخافون موت نبيكم ، هل خلد نبي قبلي فأخلد فيكم ؟ ألا إنى لاحق بربي وأنتم لاحقون بي ثم أوصى المهاجرين بالأنصار وأوصى الأنصار بالمهاجرين ، ولم يطل مرض الرسول بعد ذلك ، فانتقل لجوار ربه يوم الاثنين الثانى عشر من ربيع الأول سنة ١١ هـ ، وكان صلى الله عليه وسلم فى الثالثة والستين من عمره .

وقد وقع خبر وفاة الرسول ومةً شديداً على المسلمين على الرغم مما قاله الرسول منذ مدة وجيزة ، وكان مفاجأة لم يصدقها الكثيرون منهم (٣) ، ووصل الجزع إلى الأبطال المغاوير ، فإن عمر بن الخطاب صرخ قائلاً : زعموا أن محمدًا قد مات ، وإنه والله مامات ، لكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى ، والله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) وعلم أبو بكر بخبر الوفاة فحضر على عجل . ودلف إلى حجرة الرسول فرآه مسجياً ، فكشف عن وجهه وقبله وقال : طبت حياً وميتاً ، ولولأ أنك نهيت عن البكاء لأنفدنا عليك ماء الشئون . ثم خرج أبو بكر إلى الناس

(١) انظر الخطبة كلها فى ابن هشام ٢ ص ٣٥٠ .

(٢) ابن هشام ص ٣٧٠ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ٢ : ٢١٩ .

(٤) ابن هشام ٢ : ٣٧٢ .

فأيقظهم من غفلتهم ورد لهم أحلامهم بخطابه الرائع الذي جاء فيه : أيها الناس ، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أوقتل أنقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ﴾ ^(١) . وأفاف الناس وأفاف عمر حتى ليروى أن عمر قال : والله لظننت أنه ليس في القرآن آية كهذه حتى ذكرنيها أبو بكر .

وصلى الناس على الرسول أفواجاً ، ودفن في المكان الذي توفي فيه ، صلى الله عليه وسلم .

ومات محمد بعد أن أرسى معالم النور في عالم كان مليئاً بالظلمات ، ونشر العدالة في دنيا كان العادل فيها يعد ضعيفاً مغلوباً على أمره ، ونادى بالمساواة حيث كان نظام الطبقات أساس خضارة العالم . مات محمد ولكن تعاليمه حية خالدة ، تنساب من مكان إلى مكان ، فتهدى الفضال وترشد التائه ، وتمر السنون ودين الإسلام يشع جلالاً وعظمة ويفيض بأسمى المبادئ التي تعد غذاء لأرق الحضارات .

لمحة من صفات الرسول

قلت في كتابي « المجتمع الإسلامي : أسس تكوينه ، أسباب ضعفه ، وسائل نهضته » إن أخلاق الرسول وصفاته الشخصية كانت من أهم العوامل التي ساعدت على نجاح المجتمع الإسلامي الأول ، فقد كانت أخلاقه رخاءاً وسماحة وصفاء ، وحسبك أن الله سبحانه وتعالى وصفه بقوله : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ ^(٢) ، ووصف الرسول نفسه بقوله : « أدبني ربى فأحسن تأديبي » وقد كانت هذه الأخلاق من الأسباب التي جمعت الناس حول محمد ﴿ ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ ^(٣) .

(١) سورة آل عمران : الآية ١٤٤ .

(٢) سورة القلم الآية ٤ .

(٣) سورة آل عمران الآية ١٥٩ .

وأخلاق الرسول السمحة بدأت قبل البعثة ، فلم يسجد لضمم قط ، وكان معروفاً بين أهله وقومه بالصادق الأمين ، ولم يشترك فيما تعود شبان قريش أن يقوموا به من عبث ومجون .

وبعث محمد وتبعه بعض الناس وعاداه آخرون ، ولكن أعداءه لم يستطيعوا أن يجدوا في أخلاقه مطعناً ، ولم يستطيعوا أن يزعموا أن فيه نقيصه ، أو ثلثة .

وعظم شأن الإسلام وانتشر ، وكبر سلطان محمد باعتباره الرئيس الديني والرئيس السياسي ، ولكن مظاهر السلطان لم تعرف طريقها إليه ، فقد ظل يحلب شاته ، ويرقع ثوبه ، ويخصف نعله ، ويخدم نفسه ، ويأكل مع الخادم ، ولم ير أصحابه فيه إلا رائداً وصديقاً ، كان ينههم عن الوقوف له إذا أقبل عليهم ، وكان يجلس معهم كواحد منهم ، وإذا قدم وهم جالسون اتخذ مكانه حيث انتهى به المجلس ، وكان يمازحهم ، ويداعب صبيانهم . ويجلسهم في حجره ، ويجيب دعوة الخمر والعبد والأمة والمسكين ، ويعود المرضى في أقصى المدينة^(١) .

ولم تقف سماحة نفسه عند أتباعه ، بل امتدت إلى أهل الكتاب . فكان يقبل دعوتهم ، ويحسن استقبالهم ، وقد فرش عباءته لنصارى نجران عندما وفدوا عليه وطلب منهم الجلوس عليها ، وكان يزور مرضاهم ويشيع جنازاتهم .

وكان زاهداً في الدنيا ، يؤثر على نفسه ولو كانت به خصاصة ، وكان لا يدخر شيئاً لغده ، حتى لقد توفي وقد رهن درعه عند يهودى في قوت عياله ، وكان شديد الزهد في الحياة المادية ، اتخذ فراشاً خشبياً ، وطعاماً بسيطاً ، بل لقد عانى الجوع أكثر من مرة ، وكان زهده في اللباس كزهده في الطعام .

وكان لا مع الذكاء ، عميق التفكير ، سريع البديهة ، وكانت تحيط به

(١) أفاض الإمام الغزالي في وصفه لأخلاق الرسول في أكثر من موضع بكتاب

الإحياء . انظر كذلك زاد المعاد ج ١ : ٣٤-٤٧ .

أحياناً مشكلات جنسية ولكنه لم ينهزم أمام واحدة منها ، بل كان يبحث عن الحلول في وقت تقف فيه العقول عن التفكير ؛ وحسبك أن تذكر موقفه عندما اضطرب جيشه في غزوة أحد ، وخر صفوة من أتباعه ، وتشتت أفراد جيشه ، ومسه هو الضر وسقط في حفرة والدم ينزف منه ، ونادى منادى قريش إن محمداً قد مات ؛ فأراد أحد المسلمين أن يكذبه ، وأن يصيح بأن محمداً لا يزال حياً ، ولكن الرسول أسكته فقد أدرك - وهو في حالة تلك - أن خبر موته سيوقف نشاط المنتصرين ، ويضمن السلامة لكثير من أتباعه . وهذا ما كان .

ومحمد : ككل مصلح وكل رسول - كان له أعداء ، ولا يزال له أعداء ؛ ولكن أحداً من هؤلاء لم يستطع أن يجرحه في أخلاقه ، أو أن يجد في صفاته ما ينال منه . وكثير من المستشرقين الخائفين على الإسلام يذكر أن نجاح محمد كان نتيجة لذكائه ، وخلقه ، وحسن معالجته للأمور ، وتفوقه الذهني والخلقي على رجالاته عصره .

ومن خصائص الدين الذي جاء على يد محمد التوحيد المطلق الذي لا هوادة فيه ، وخلوه من التعقيدات اللاهوتية ، وبعده عن الكهنة والقرايين ، وقد اتخذ محمد كل الاحتياطات ليحول دون تأليه بعد مماته ، كما أن من أهم خصائص هذا الدين إصراره على أن المسلمين جميعاً إخوة متساوون تماماً مهما اختلفت ألوانهم أو أصولهم أو مراكزهم (١) .

رحم الله محمداً ! لقد كان نفحة سماوية أمدها الله بالتأييد ، و - كما - كريم الصفات ونبيل السجايا ، ومنح العالم على يده ديناً جديراً بأن يكون خاتم الأديان لما يكفله للبشرية من تنظيم أمور الدين وأمور الدنيا .

الدَّعْوَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ وَفَلَسَفَتُهَا

انتشر دين الاسلام في حياة الرسول بين سكان الجزيرة العربية كلها ، وانتشر بعد الرسول في كثير من بقاع الأرض ، ومن أجل هذا يحسن بنا أن نقف هنا وقفة نبين فيها مبادئ هذا الدين ، ووسائل انتشاره ، وأثره على العرب الذين حملوا مبادئه ، وناضلوا تحت رايته ، وبالتالي أثره على الإنسانية ، وقد درسنا حضارة الإسلام في كتب خاصة (١) ، ولكن قارئنا الآن قد لا يكون في وسعه أن يطلع على ما كتبناه هناك ومن أجل هذا نورد له هنا طيفاً من هذه الدراسة تكفي للقانع ، وتنفذ الطموح إلى المزيد من الاطلاع :

١ - لمحة عن مبادئ الإسلام

وضع الإسلام الحلول لأشور الدين والدنيا : في أمور الدين يعف التوحيد المطلق في القصة ، فليس في الإسلام أية شبهة من خبثات التعدد (٢) ويحجى بعد ذلك الاعتراف برسالة محمد ، مع تأكيد أنه يظهر جاء برسالة من عند ربه فأداها أحسن أداء ، وهو معصوم في تبليغها ، ويمكن أن ينفو فيها سوى تبليغ الرسالة (٣) ، وبعد هذا تفسر أركان الإسلام لتقرر ضرورة إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً ، وتسمى هذه الأمور الأربعة العبادات ، وللعبادات في الإسلام فلسفة رائعة تثبت أنها ذات فائدة عظيمة للروح والجسم جميعاً (٤) :

-
- (١) انظر كتاب الإسلام وهو الجزء الثالث من سلسلة مقارنة الأديان . وانظر موسوعة النظم والحضارة الإسلامية ، وهي في عشرة أجزاء للمؤلف .
 (٢) يراجع فصل « الله في التفكير الإسلامي » من كتاب « الإسلام » للمؤلف .
 (٣) يراجع فصل « النبوة » من كتاب « الإسلام » للمؤلف .
 (٤) يراجع فصل « فلسفة العبادات في الإسلام » في الكتاب السابق .

وفي أمور الدنيا يرسم الإسلام النظام السياسي والنظام الاقتصادي للمجتمع الإسلامي ، فيقرر أسس نظم الديمقراطية ، وأبدع اتجاهات العدالة الاجتماعية^(١) وفي أمور المجتمع ينظم الإسلام شئون الأسرة وشئون الميراث ويقرر أسس النظم الأخلاقية ، وقد كتبت هذه الأمور بإضافة في كتاب « الحياة الاجتماعية في التفكير الإسلامي » وكتاب « الإسلام » . فليرجع إليهما من يشاء .

٢ - طرق نشر الإسلام

أما نشر الإسلام فله شعبتان تتصل إحداهما بالدعوة الإسلامية بين من يعرفون اللغة العربية ، وتعم الأخرى من يعرفون اللغة العربية ومن لا يعرفونها ، أو قل إن دعوة الإسلام اتخذت سبيلها إلى قلوب الناس بطريق من اثنين أو بهما معاً . وهذان الطريقتان هما :

(١) إعجاز القرآن . (ب) سمر المبادئ الإسلامية .

سننتحدث عن كل من هذين الموضوعين بشيء من التفصيل :

١ - القرآن الكريم وأثره في انتشار الإسلام :

نريد هنا أن نتحدث عن القرآن الكريم ، ثم عن أثره في انتشار الإسلام وحديثنا عن القرآن الكريم يتضمن الكلام عن الوحي ، وطرقه ، وعن المحتويات الإجمالية لهذا الكتاب المقدس الذي "يعد" المصدر الأول للتشريع الإسلامي^(٢) .

أما عن الوحي فقد ذكر ابن القيم مراتبه وعددها ثمانية ، وأشار إلى أن أهمها ذلك الطريق الذي صورته الآية الكريمة « وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين »^(٣) .

(١) اقرأ « السياسة والاقتصاد في التفكير الإسلامي » للمؤلف .

(٢) انظر دراسة شاملة عن القرآن الكريم في الجزء السابع من موسوعة النظم والحفارة الإسلامية .

(٣) سورة الشعراء الآيات ١٩٢ - ١٩٤ .

ومعنى الآيات أن جبريل ينزل فيتصل بالرسول اتصالاً كاملاً حتى كأنهما شخص واحد ، ويلقى جبريل إلى الرسول الآيات التي أمر بحملها ، وقد روى أن الرسول كان يتفصد عرقاً عندما كان جبريل يأتيه على هذه الحالة ، ويحجب هذه الحالة ذكر ابن القيم حالات أخرى منها أن جبريل كان يأتي أحياناً في صورته كملك ، ويلقى للرسول ما يريد أن يلقيه ، وأحياناً كان جبريل يلقي ما جاء به في روع الرسول دون أن يظهر وبدون أن يتصل بالرسول ، وقد روى أن الرسول قال : إن روح القدس نفث في روعي ومن الحالات التي ذكرها ابن القيم أن الله سبحانه وتعالى قد يكلم الرسول بلا واسطة ملك^(١) .

أما محتويات القرآن فيمكن القول بإيجاز إنها — بالإضافة إلى المواعظ والأخبار — تُنظم الإسلام وقوانينه الخاصة بالدين والدنيا ، وقد ورد عن القرآن قوله تعالى « ما فرطنا في الكتاب من شيء »^(٢) والمقصود أنه لا يوجد أمر ذو بال إلا وقد كشف القرآن عنه النقاب إجمالاً أو تفصيلاً حسب أهميته ، وقد كان القرآن كما سنرى مصدر إعجاز ، وكان مصدر تشريع ، ومصدر أخلاق ، وقد أمدنا القرآن الكريم في الدراسة التي عقدناها عن الحضارة الإسلامية^(٣) بمادة غزيرة كانت بمثابة الكنز الذي أخذنا منه لنشرح هذا الموضوع الخطير ، ويمكن أن نقول هنا بإيجاز إن بعض القرآن نزل في مكة وإن بعضه الآخر نزل في المدينة ، وما نزل في مكة حوالى الثلثين وما نزل في المدينة حوالى الثلث ، وقد اتجه الجانب المسكى من القرآن إلى إبراز توحيد الله ، وإقامة الدليل على ذلك « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا »^(٤) كما اهتم هذا الجانب بالدعوة لمكارم الأخلاق ، وضرب الأمثال بالأمم الماضية وما حصل لها عندما كذبت الرسل ، أما الجانب المدني من القرآن فقد ظهر فيه التشريع

(١) زاد المعاد ج ١ ص ٨١ . وما بعدها

(٢) سورة الأنعام الآية ٢٨ .

(٣) المؤلف موسوعة في النظم والحضارة الإسلامية تتكون من عشرة أجزاء يراها القارئ ضمن قائمة « كتب المؤلف » في مطلع هذا الكتاب .

(٤) سورة الأنبياء الآية ٢٢ .

الإسلامى بتفصيله وإحاطته كنظم الميراث ، ونظم الدين ، ونظم الزواج ، والمحرمات من النساء على الرجال ، ونظم الطلاق وغيرها^(١) .

والقرآن الكريم هو معجزة الرسول الأولى ، وهو كذلك معجزة خالدة تشهد - على مر السنين وتعاقب الأجيال - على صدق محمد وسمو رسالته ، وأكثر الذين يجيدون اللغة العربية يعترفون دون تردد - سواء دخلوا الإسلام أو لم يدخلوه - أن القرآن لا يمكن أن يكون من قول البشر ، لأنه أسمى بأفكاره وأسلوبه من كل ما استطاعه البلغاء وما توصل له اللغويون ، أما الأقلية من العرب التي لم تعترف بإعجاز القرآن فقد كانت متأثرة بمؤثرات أخرى قوية حملتهم هذا المحمل الصعب الذى ظهر أحيانا في تحديهم للقرآن ومحاولة الإتيان بمثله .

وعلى هذا كان العرب بالنسبة للقرآن ثلاث طوائف :

١ - طائفة عرفت بالقوة والشجاعة فاعترفت بإعجاز القرآن ، واتبعت الرسول .

٢ - طائفة اعترفت بإعجاز القرآن ولكن صدتها أسباب أخرى عن اتباع محمد .

٣ - طائفة قليلة آثرت المكابرة ، وتحدت القرآن بدافع من غصبية أو حسد ، ولكنها على كل حال انهزمت في تحديها هزيمة منكرة .

وستعطى بعض التفاصيل عن كل من هذه الطوائف .

١ - وتمتاز الطائفة الأولى بأنها جماعة آثرت العدالة وكان في نفوس أصحابها طهارة من الأحقاد والأدناس ، كما كانت فيهم شجاعة وصراحة ، فما إن أدركوا إعجاز القرآن ، وأحسوا بالمعجزة قوية غلبة حتى انضموا لمحمد واعتنقوا الإسلام وتمسكوا به ، ولعل زعيم هذه الجماعة هو الخليفة طيب الذكر عمر بن الخطاب . فقد كان قبل إسلامه شديداً على المسلمين ، وقد روى

(١) انظر كتاب تاريخ التشريع الإسلامى (للمؤلف) .

ابن هشام^(١) عن ابن إسحاق أن عمر خرج متوشحاً بسيفه ، فلقبه نعيم بن عبد الله فسأله ؛ إلى أين ؟ قال عمر : أريد أن أقتل محمداً ذلك الذي فرق أمر قريش وسب آلها . قال نعيم : خير لك أن ترجع إلى أهل بيتك فنتقم أمرهم ؛ فقد التحقت أمختك فاطمة وزوجها سعيد بن زيد بمحمد ، فثار عمر ، وقصد دار أخته وزوجها . فلما شاف الدار سمع صوت تلاوة إذ كان عندهما خباب بن الأرت يقرئهما سورة « طه » فأيقن عمر بصدق ما سمعه عن أخته ؛ واندفع إلى الدار غاضباً ، فلما أحس به خباب اختفى وأخفت فاطمة الصحيفة ، فصاح عمر بأخته : ماذا كنتم تقرأون ؟ فاضطربت أخته ؛ فامطمتها عمر ولطم زوجها ، فصاحت به أخته : إنه ليس من حقلك أن تلمطنا . وسال منها الدم ، فأدرك عمر سخطاً وهدأ ، ثم طلب أن يرى هذه الصحيفة فقرأ فيها « طه » ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ؛ إلا تذكرة لمن يخشى ، تنزيلاً من خلق الأرض والسموات العلى ، الرحمن على العرش استوى ، له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى : الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى . .) وكان عمر مثالا فى البلاغة والفصاحة ووزن الكلام ؛ فأدرك ما فى هذا الكلام من روعة وجلال وإعجاز ؛ فقصده محمداً وأعلن إسلامه .

وهناك رواية أخرى عن إسلام عمر يروىها ابن هشام ، عن ابن إسحاق عن عمر نفسه ، قال عمر : كنت للإسلام مباعداً ، وكنت صاحب خمر فى الجاهلية ، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال قريش ، فعزجت يوماً أريد جالساً فجئت مجلسهم فلم أجد أحداً منهم ، فذهبت إلى خمار لأشرب عنده بعض الخمر فلم أجدّه ، فتحولت إلى الكعبة لأطوف بها قبل عودتى للبيت ، فلما جئت المسجد رأيت رسول الله قائماً يصلى ويقرأ القرآن فى صلاته ، فقلت : ماذا لو استمعت من محمد الليلة حتى أرى ما يقول ؟ فدنوت منه ولكنى لم أرد أن أروّعه ، فدخلت قبل أن يرانى تحت أستار الكعبة وجعلت أمشى رويداً رويداً حتى قتت مواجهاً الرسول وليس بينى وبينه إلا ثياب

الكعبة ، وجلس استمع له ، وطالت قراءته وعمقت نبراته ، وطال استماعي وعنت تأثري ، ورق قلبي ، فبكيت ، ودخلني الإسلام ، ولم أزل قائماً في مكاني ذلك حتى قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته ثم انصرف ، فلحقت به وأعلنت له إسلامي فكبر وحمد الله (١) .

وابن هشام بعد أن يروى عن ابن إسحاق هاتين الروايتين يروى عنه أيضاً خاتمته التي تعبر أن يقولها وهي : والله أعلم أى ذلك كان .

والذى نراه احتمال حدوث السببين جميعاً ، واحتمال وقوع القصةين كليهما ، وقد تكون القصة الأخيرة وقعت له فرق قلبه للإسلام ثم دخل الإسلام بعد قصته مع أنته وختنه .

ونهج هذا النهج كثير من الفصحاء الشجعان ، ولحق بهم كثيرون من الفصحاء الذين كانت تنقصهم الشجاعة ؛ وظل هؤلاء يتغنون بجمال القرآن ويشيدون بما فيه من إعجاز وإبداع ، فقد روى أن لبيد بن ربيعة أحد شعراء المعلقات توقف عن قول الشعر بعد أن أسلم ؛ ولم يُرو عنه أنه قال شعراً في الأربعين سنة التي أمضاها في ظل الإسلام إلا قوله :

الحمد لله إذ لم يأتني أجل حتى اكتسيت من الإسلام سريالاً
وكان إذا سئل عن شعره تلا سورة من القرآن ؛ وقال : أبدلني الله خيراً منه .

ويروى أن عربياً مرّ بفنّاة تنشد الرّجز التالى :

استغفر الله للذنب كله
فقلت إنساناً بغير حله
مثل غزال ناعم فى دله
وانتصف الليل ولم أصله (٢)

فقال لها العربى : يافنّاة ، أرجوزتك أبلغ ما سمعت من القول .
قالت الفتاة . وهل ترك القرآن لنا بلاغة بأعماه؟ لو قرأت القرآن لوجدت
أن أقوالنا هباء .

(١) المرجع السابق .

(٢) أى لم أنته الدفء والرعاية .

قال لها العربي . ماذا تقصدين ؟

قالت الفتاة . هذه ياعماء آية واحدة من قصار الآيات ، بها أمران ، ونهيان ، ووعدان ، مع جزالة وروعة أسلوب . (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ، ولا تخافي ، ولا تحزني ، إنا رادوه إليك ، وجاعلوه من المرسلين) (١) .

فأخذ العربي يكرر الآية ويقول : نعم هذا نوع آخر من القول لاعهد لنا به .

٢ - ونجىء الآن للطائفة الثانية ، هؤلاء الذين لم يتبعوا محمداً لسبب أو لآخر ، ولكنهم خضعوا للقرآن واعترفوا اعترافات جازمة بما للقرآن من حلالة ، وما لأسلوبه من سحر وروعة ، إعجاز ومن هؤلاء الوليد بن المغيرة (أبو خالد بن الوليد) الذي - كما يقول البيضاوي (٢) .
سمع محمداً وهو يقرأ سورة السجدة فجاء قومه وقال لهم : لقد سمعت من محمد أنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه ليعلوه ولا يُعلَى عليه . وكان كثيرون من قريش يحسون بإحساس الوليد ولكن قل فيهم من كان مثل الوليد شجاعة وجاهاً يستطيع أن يصرح بما في نفسه ، ولقد كان تصریح الوليد ذلك فاجعة لقريش ، لأن مثل ذلك دليل على ميل الوليد للإسلام .
وللذلك صاحت قريش : صبا الوليد . قال ابن أخيه أبو جهل : أنا أكفيكموه ، وقام فقعده إليه حزيناً وكلمه بما أحماه فتأثر الوليد بكلام أبي جهل وقام إلى قريش وهتف فيهم : تقولون إن محمداً مجنون فهل رأيتموه يحنق ؟ وتقولون إنه كاهن فهل رأيتموه يتكهن ؟ وتزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى

(١) سورة القصص الآية السابعة .

(٢) ابن هشام ج ١ ص ٢١٨ .

شعراً ! فقالوا في كل منها : لا . فقال : ما هو إلا ساحر ، أما رأيتموه
يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه . ففرحت قريش بذلك بعد أن
ظنت أن الوليد مال للإسلام ، وقد روى القرآن الكريم هذه القصة مهبطاً
للوليد بالربيل والتبور ، قال تعالى : (ذرني ومن خلقت وحيداً . وجعلت له
مالاً ممدوداً ، وبينت شهوداً ، ومهدت له تمهيداً ، ثم يطمع أن أزيده ،
كلاً ، إنه كان لآياتنا عنيداً ، سأرهقه صعوداً ، إنه فكر وقدر ، فقتل
كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر
واستكبر ، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر ، سأصليه
سقر ، وما أدراك ما سقر ؟ لا تبق ولا تذر ، لواحة للبشر)^(١) وسمع
الوليد هذا الكلام الملتب في معناه الرائع في نهجه وأسلوبه ، سمعه ولسان
حاله يقول : يتوعدني ولكنه جميل الأسلوب حتى في توعدده وتهديده .

وهناك قصة أخرى من هذا النوع تروها كتب الأدب والتاريخ عن
ثلاثة من قريش هم أبو سفيان وأبو جهل والأخنس بن شريق ، فهؤلاء لم
يتبعوا محمداً وكانوا من أقسى أعدائه . ولكنهم كانوا يتسللون فرادى إلى
جدار بيت الأرقم ليتسمعوا من الكوثر والنوافذ إلى محمد وهم يتلو القرآن ،
وكان كل منهم يظن أنه وحده الذي يفعل ذلك ولا يدري شيئاً عن صاحبيه ،
وكان كل منهم يتخذ مجلسه في مكان مظلم بحيث لا تراه العيون ، وحدث مرة
بعد أن انتهى محمد من تلاوته للقرآن أن التقى الثلاثة بالقرب من دار الأرقم
وهم يتخذون طريقهم عائدين إلى بيوتهم ، وسأل كل منهم صاحبيه : من
أين جئنا ؟ وفي غمرة الدهشة لم يجرأ أحد منهم جواباً . وأنتم كل منهم الآخرين
بالذهاب لسماع محمد ، واعترفوا بأنهم في الذنب سواء ، ولكنهم أضافوا إلى
ذلك اعترافهم بخطورة العمل الذي عملوه : فإقبالهم على سماع القرآن قد يقودهم
لاتباع محمد وهذا ما لا يحبونه ، ولذلك أقسموا ألا يعودوا إلى ذلك مرة
أخرى ، وعادوا إلى بيوتهم .

وفي الليلة التالية تحدث أحدهم إلى نفسه قائلاً : إن أحداً من هذين

الرفيقين لن يذهب الليلة لسماع القرآن ، فما على^١ إن حثت في يميني وذهبت
لأسمع هذا الكلام العذب ؟ وذهب . ولكن كلا من الرفيقين الآخرين
كان قد حدث نفسه بمثل ذلك وانتهى إلى نفس النتيجة ، ولما فرغ محمد من
التلاوة أراد كل منهم أن يتأكد أنه وحده الذي جاء ، فأخذ يطوف حول
دار الأرقم ، فتقابل الثلاثة . ودار عتاب وشجار وأسف ممزوج بالضعف
وأقسموا مرة أخرى ، ولكنهم حثوا أيضاً مرة أخرى ، واقترح أحدهم
في هذه المرة أن يجتمعوا في المساء في بيت أحدهم ليرقب بعضهم
بعضاً ، إذ أن الواحد منهم وحده لا يستطيع أن يتغلب على دوافع الرغبة
في نفسه ، وبذلك استطاعوا أن يتوقفوا عن استمرار ذهابهم لسماع
القرآن (١).

٣ - أما الطائفة الثالثة فتشمل هؤلاء العرب الذين أعماهم الضلال
فأرادوا أن يمحذوا ضوء الشمس الساطعة ، فأنكروا إعجاز القرآن وادعوا
استطاعتهم أن يأتوا بمثله . وبدءوا ذلك ، وإذا بالإعجاز يأتيهم من ناحية
أخرى هي أنهم تهاوؤا ، وأغلق عليهم ، فقالوا سخفاً أقل بكثير من
كلامهم الذي تعودوا أن يقولوه في مناسبات غير مناسبات تحديهم القرآن
ومحاولتهم تقليده والإتيان بمثله .

وقد تحدى الله سبحانه وتعالى كل البلغاء والقصحاء : غداهم إلى
الإتيان بمثل هذا القرآن إن استطاعوا وأكد لهم أنهم لن يستطيعوا -
ولو تعاونوا بحماس - أن يبلغوا هذه الغاية ، قال تعالى : « قل لئن
اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان
بعضهم لبعض ظهيراً » (٢).

(١) ابن هشام ج ١ ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

(٢) سورة الإسراء : الآية ٨٨ .

ثم تحداهم الله بأن يأتوا بعشر سور فقط ؛ قال تعالى : « أم يقولون افتراء ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات زادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين » (١) . فلما عجزوا تحداهم الله أن يأتوا بسورة واحدة قال تعالى (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين » (٢) .

ولا شك أن السخف الذي قالوه لم يكن يستحق أن يروى ولكننا ثبت منه نموذجاً واحداً مصداقاً لما قلناه .

سورة الضفدع

يا ضفدع يا بئبة ضفدع . نقي ما تنقين . أعلاك في الماء . وأسندك في الطين . لا الشارب تمنعين ولا الماء تكدرين (٣) .

ومن الواضح أن محاولة هؤلاء المعاندين أن يأتوا بمثل القرآن تحمل في طياتها تقديرهم للقرآن الكريم وإعجابهم به . ولو كان القرآن لم ينل إجلالهم وإعجابهم لما حاولوا تقليده ، ولما بذلوا الجهد لتحقيق ذلك .

وقد روى لنا التاريخ أنه عندما زالت مؤثرات العصبية والحسد عن هؤلاء عاد أكثرهم يعترفون بجلال القرآن ، وكثيرون منهم اعتنقوا الإسلام وأصبحوا من خيرة تابعيه ، ومن هؤلاء سجاح التي ادعت النبوة يوماً في بني نعيم وذكرت أنه أوحى إليها بقرآن . ثم فشلت في إقناع الناس وربما فشلت في إقناع نفسها ، وعندما خف داعي العصبية في التأثير عليها اعتنقت الإسلام ورجعت توكل القرآن الكريم . ومسحت من قلبها تلك الحرافات التي توهمت حيناً أنها تنافس آي الذكر الحكيم . ومن هؤلاء كذلك طليحة بن خويلد الذي ادعى النبوة وادعى الرحي والقرآن ، ثم لم تساعده بضاعته على إطالة الرقوف في وجه الحق فعاد يؤمن بإعجاز القرآن ويعتق الإسلام بحماسة ظهر أثرها في مواقفه الحربية المناضلاً مع المسلمين في حروبهم ضد الفرس . وقد سبقت الإشارة لذلك ، ولم يحن طليحة من التنبؤ الذي زعمه إلا تصغير

(١) سورة هود : الآية ١٣ . (٢) سورة البقرة : الآية ٢٢ .

(٣) نقل عن عبد المتعال الصمدي : دراسات إسلامية ص ١٠٤ .

شأنه بتصغير اسمه واسم أبيه فأصبح اسمه طليحة بن خويلد وكان في الأصل طليحة بن خالد ، وظل الاسم المصغر علماً على الرجل حتى بعد أن تاب وأتاب ، كأن العرب لم يستطيعوا أن يغفروا له غفراناً تاماً محاولته خديعتهم بما أسماه قرآناً .

ومن تقدير العرب للقرآن وإعجازه أن جميع من ادعوا النبوة منهم أحسوا بسطوة القرآن وأثره في نفوس الناس ، وكيف أنه جعل الكثيرين يدينون بالإسلام . ولهذا اتخذوا فصيح القول معجزة لهم فادعوا جميعاً نزول الرحي عليهم ، وادعوا أنه جاءهم بقرآن : وهذا دليل واضح على ما لفصيح القول من أثر عند العرب ، ولسنا في حاجة إلى مزيد من القول عن قيمة الأسلوب الرائع عند العرب ، فطالما كانت جموعهم تلتف حول الشعراء يسمعون قصائدهم ويطربون لها ، وقد دعاهم تفديسهم للفصيح من القول أن يعلفواخير قصائد الجاهلية في الكعبة لتكون في مكان واحد مع معبوداتهم . ولتوضع في المكان الذي يحجون إليه ويتبركون به .

المبادئ الإسلامية وأثرها في انتشار الإسلام :

كان القرآن الكريم — كما قلنا آنفاً — من أهم الأسباب التي دعت الكثيرين من العرب إلى الدخول في الإسلام ، ولكن كيف دخل غير العرب من المصريين والسوريين والعراقيين والفرس وغيرهم في ذلك الدين ؟ هذا ما سنتحدث عنه هنا :

لقد قلت في كتابي « السياسة في التفكير الإسلامي » إن عمل الحكومة الإسلامية هو أن تعيش للمحكومين وأن تعمل على إسماعدهم ، فالحكومة الإسلامية تتعب ليستريح المحكومون ، والحكومة الإسلامية تسهر لينام المحكومون في هدوء وأمن ، ومثل هذا أو أبعد من هذا كانت الحكومة الإسلامية في عهد الرسول وعهد الخلفاء الراشدين .

لقد طالع الإسلام على الناس بمبادئ كانت أكثر مما يأملون . وأبعد مما يتصورون ، وطبّق الرسول والخلفاء الراشدون هذه المبادئ . أو قل إنهم تحدسوا لها . واختلطت بدمائهم ، ووجدوا فيها لذة ونعماً ، فساروا

عليها ، بل ربما بالفوا في تطبيقها باسم هذه اللذة وذلك التعميم .

ما هذه المبادئ

وما فلسفة الدعوة التي سببت تدفق الناس على الدين الجديد ؟

إن هذه المبادئ تجمعها كلمات قليلة ، ولكنها تعني ثورة كبيرة .

إنها ألقاها معدودة ولكنها تحقق أحلاماً أو ما هو أبعد من الأحلام .

إنها :

- المساواة .

- العدالة .

- الحاكم الفقير :

إنها هذه الكلمات أو هذه الصواعق التي قلبت الأرضاع وغيرت الاتجاهات .

لقد نادى الإسلام بالمساواة في وقت كان النظام الطبقي متأصلاً في جميع النواحي ومختلف الأقطار في العالم كله .

ونادى الإسلام بالعدالة في عهد كانت العدالة تعتبر ضعفاً وخزياً . وهذا

شاعر عربي يعبر رجلاً بأنه من قبيلة ضعيفة لا تغدر بالعهد ولا تستطيع أن تظلم ، قال ذاك الشاعر :

قبيلته لا يغدوون بدمية - ولا يظلمون الناس حجة خردل

وأهاب الإسلام بالحاكم أن يعمل للناس لا أن يعمل لنفسه ، فخلق بذلك

حاكماً من نوع جديد ، حاكماً فقيراً يوجد بين رعاياه من يفرقه غنى ويملك أضعاف ما يملك ، وقد حصل هذا في وقت كان الحاكم يعتبر نفسه مالئكا للناس ولما ملكه الناس ، كان سيداً يملك الأرض وزميت الأرض ، كان يرتع في الملاذ ، وكان الناس يعملون ليحققوا له دوام هذه المتع وتلك الملاذ .

وعن المساواة والعدالة نذكر أنه قبل الإسلام كان بفارس ملوك يدعون

أن دماء إلهية تجري في عروقهم ، وأنهم من طبيعة غير طبيعة البشر ، أسمى

درجة وأعز شأناً ، وجاء الإسلام فحقق المساواة بين محمد أو الخليفة من

بعده وبين كل من أفراد الأمة ، فهذا زيد بن سفة اليهودي دان الرسول

صلى الله عليه وسلم بدين ، وتأخر الرسول صلى الله عليه وسلم في أداء الدين

لعسرة أَلَسْتُ ، به ، وجاء زيد فأمسك بتلابيه وجذبه بقسوة وقال له :
أما آن لك يا محمد أن تسدد ما عليك من دين ؟ وارتاع عمر لقسوة زيد ،
فأخرج سيفه وهم بضربه ، فصاح به الرسول : ضع يا عمر سيفك في جرابه !
لقد كان خيراً لك أن تنصحتني بحسن الأداء وتنصحه بحسن الطلب ، وذهل
اليهودي عما رآه من خلق رائع ومساواة تامة مع اختلاف المكانة والدين ،
فأعلن إسلامه .

وهناك يهودي آخر له حادثة أخرى مع عمر ، فقد روى أن سيف عمر
ضاع ثم رآه عمر مع يهودي فادعاه ، وادعى اليهودي أن السيف سيفه ، فقاضاه
عمر إلى قاضيه ، فلما ذهب للقاضي جلس عمر واليهودي بين يدي القاضي ،
وسأل القاضي عمر ، فادعى السيف ، وسأل اليهودي فأنكر ، وطالب
القاضي عمر بالبينة فلم تكن له بينة ، فحكم بالسيف إلى اليهودي ، وعجب
اليهودي كيف يحقق الإسلام المساواة بين الخليفة عظيم الشئ وبين فرد عادي
من أتباع ديانة أخرى ، وكيف يجلس معه عمر بين يدي القاضي ، ثم كيف
يكون الحكم لصالح اليهودي ولا يقبل القاضي قول عمر . ولم يستطع
اليهودي المقاومة فاعترف بأن السيف سيف عمر ودخل الإسلام .

وهناك قصة أخرى شهيرة عن عمر وجبله بن الأيهم آخر ملوك
الغساسنة ؛ فقد دخل جبلة الإسلام وكان عمر يكرمه ويُجبله ، ولكن
حدث مرة أن ولى أحد العامة ذبل إزار جبلة وجبلة بطوف بالبيت ،
فاستدار جبلة وضرب الرجل بقسوة على أنفه فذهب الرجل وشكا إلى عمر ،
فاستدعى عمر جبلة وأجلسه بجوار خصمه للقضاء ، فاعترف جبلة بأنه
ضرب الرجل ، فحكم عمر بالقصاص . قال جبلة : أنا ملك وهذا سوقة
تجلسه بجوارى وتقتصص له منى ؟ فأجابه عمر : لقد سوى الإسلام بينكما ^(١) .

ولم يستطع جبلة أن يفهم هذه الفلسفة الجديدة التي جاء بها الإسلام ،
فاستهمل عمر حتى يُرضي خصمه ويطيب خاطره ، فأمهله عمر ، فهرب جبلة
وارتد عن الإسلام . لقد خسر الإسلام جبلة ؛ ولكن كم ألفاً من الناس

(١) انظر البلاذري : فتوح البلدان ص ١٤١ ج ١٤٢ والعقبة الفريد ج ٢ ص ٥٦ - ٩ :

دخلوا الإسلام على أثر هذه الحادثة ؟ إنهم آلاف وآلاف دخلوا الإسلام حباً في هذه المساواة التي لم يكن لهم بها عهد .

بل يروى أن جبلة نفسه بعد أن صحا من تسرعه وفكر في أمره أسف لما حدث منه ، وتغنى لو بقي على الإسلام وتأدب بآدابه . : وما يروى عنه في ذلك قوله :

تنصرتُ الأشراف من عار لطمه وما كان فيها لو صبرتُ لها ضرر
تكتفني منها الجاج ونخرة وبعثُ لها العين الصحيحة بالمرور
فيا ليت أُمي لم تلدني وليتني رجعت إلى الأمر الذي لي قال عمر (١)

تلك كانت فلسفة الإسلام ، تلك كانت النافذة التي هب منها عطر الإسلام فجذب الناس إليه من كل جانب . فاعتنقته الملايين بإخلاص وإيمان (٢) .

أما عن الحاكم الفقير فقد دهش الناس عندما رأوا لأول مرة حكاما يفقدون أموالهم ، وينزلون من صفوف الأغنياء إلى صفوف الفقراء ، وكان المهمل بالحاكم أن يجمع الأموال ويزيد في ثروته ، فقد كان محمد - وكان بعض العرب يسمونه ملك الملوك - يرفع ثوبه ويخسف نعله ، ويبعث على الطوى ، وكان له مال وغنى بعد أن تزوج خديجة ، ألم يجدك يتيماً فآوى ، ووجدك ضالاً فهدى ، ووجدك عائلاً فأغنى (٣) ، ولكنه لم يصف شيئاً

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٦٦ :

(٢) قد يخطر ببال القارئ : أن العدالة والمساواة أصبحتا من الأخلاق العالمية ولا يمتاز بهما الإسلام ، ونجيب بأن أوروبا التي يُظن أن العدالة والمساواة تسودان بها الآن كانت بعيدة كل البعد عنها في العصور الماضية وفي ظلال الإقطاع ، ثم إن ما يوجد من عدالة الآن إنما هو عدالة محلية ، بين البيض فقط بعضهم والبيض ، فليس هناك من يطعم في عدالة الإنجليز في السودان أو إفريقية أو مصر أيام احتلالها لهذه البلاد ولا من يطعم في عدالة الهولنديين نحو الأندونيسيين ، بل ليس هناك من يطعم في عدالة ومساواة بين الأمريكيين البيض والأمريكيين الملونين . إن العدالة في الإسلام عامة وعالية وهي منحة السماء لسكان الأرض . أما عدالة اللدنيات الحديثة فمحلية ، وقد أخذتها الشعوب من الحاكم قسراً وبعد صراع طويل ولا نمدو الحق إذا قلنا أن ذلك كان اقتباساً من الإسلام :

(٣) سورة الفصحى : الآيات ٦ - ٨ :

إلى هذا المال ، ولم يحتفظ به ، بل فقده ، فلما مات كان مديناً ، وكان أبوبكر غنياً قبل الإسلام ثم أنفق أكثر ماله في سبيل الله ، ولما ولى الخلافة حمل تجارته على كتفه واتجه للسوق يريد أن يربح رزقه ورزق أولاده ؛ وكان عمر وتحت سلطانه فارس وسوريا ومصر يعيش في بيت صغير وينام في المسجد ويرتدى لباس الفقراء ، وفقد عثمان ماله مع أنه كان من أغنى تجار العرب ، وكان علىَّ يقدم ماعنده من الطعام إلى المحتاجين مع أنه في حاجة إلى ذلك الطعام حتى استحق أن تنزل فيه الآية الكريمة « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » (١) .

وأدرك الفرس والسيوريون والمصريون هذه الأحوال المثالية ، ووازنوا بين هؤلاء الحكام وبين الحكام الذين عرفوهم من قبل ، هؤلاء الذين كان لاهمَّ لهم إلا جمع المال وحرمان الرعية .

ولم يكن الحاكم فقط هو الذى انتبه من غفلته وعرف ربه ، ولكن المحكوم أيضاً انتبه من غفوته وعرف حقه ، وكان من قبل يؤمن بأنه وما يملك ملك لكسرى أو قيصر .

وانهال الناس يدخلون في هذا الدين الذى حقق لهم ما هو أبعد من الأحلام .

وتوضح لنا المراجع التاريخية أن انتشار الإسلام ارتبط بجهود العدالة والمساواة لا بجهود القوة والقسر ، فكلما جاء خليفة عادل كلما انتشر الإسلام ودخله الناس أفواجا — وقد عقد زميلنا الدكتور عبد المنعم ماجد فصلا عن « إسلام المغرب ، المفتوحة » (٢) في عهد الخليفة طيب الذكر عمر بن عبدالعزيز ، يبين كيف انهال الناس على الإسلام يمتثلون في ذلك العهد ، حتى أصبح الإسلام دين الأكثرية الغالبة بين المصريين والفرس وأهل خراسان وسكان الشمال الإفريقي ، وحتى أعلن كثير من ملوك السند وملوك ما وراء النهر دخولهم الدين الإسلامى .

(١) سورة الحشر : الآية التاسعة .

(٢) التاريخ السياسى للدولة العربية ، الجزء الثانى .

٣- أثر الإسلام في العرب

بقي علينا أن نعرض للنقطة الأخيرة من نقاط هذا الموضوع وهي أثر الإسلام في العرب ، وهذه النقطة قد شرحتها بإطناب في كتابي « المجتمع الإسلامي » فبيّنت أثر الإسلام في الفرد وأثر الإسلام في المجتمع الجديد ، فمن أثر الإسلام في الفرد شرحت كيف نقل الإسلام الفرد من السيف إلى المسالمة ، ومن القوة إلى القانون ، ومن الثأر إلى القصاص ، ومن الإباحية إلى العُلهر ، ومن النهب إلى الأمانة ، ومن الحياة القبلية إلى المسؤولية الشخصية ، ومن الوثنية إلى التوحيد ، ومن امتهان المراءه إلى إجلالها ، ومن نظام الطبقات إلى المساواة^(١) .

وعن أثر الإسلام في المجتمع الجديد أبينت القول في أسس تكوين هذا المجتمع بما في ذلك المؤاخاة بين المسلمين ، وتنظيم العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين ، وبما في ذلك تقرير نظم الإسلام في أمور السياسة والحكم والأمور الاقتصادية والاجتماعية وغيرها^(٢) .

ولاشك أن الإسلام حقق معجزة كبرى في المجتمع العربي ، ونقله من نمط إلى نمط ، وشمل تأثيره الأخلاق والنظم التي تهم شئون الدين وأمر الدنيا ، وفي الكتاب الذي أشرنا إليه دراسة وافية لاتدع استزادة لدارس . وقد تحدثنا عند الكلام عن الرسول في المدينة عن بعض هذه الاتجاهات ، ووضحنا كيف ربي الرسول الفرد المسلم وربى المجتمع الإسلامي وهكذا .

(١) اقرأ الفصل الثاني من كتاب المجتمع الإسلامي للمؤلف ص ٢٩ - ٤٤ .

(٢) اقرأ الفصل الثالث من كتاب المجتمع الإسلامي للمؤلف ص ٤٥ - ١٥٠ .

عصر الخلفاء الراشدين

١١ - ٤٠ هـ = ٦٣٢ - ٦٦١ م

أبو بكر الصديق

١١ - ١٣ هـ = ٦٣٢ - ٦٣٤ م

تعريف به

هو عبد الله بن أبي قحافة التيمي ، كان اسمه في الجاهلية : عبد الكعبة فسماه الرسول عبد الله ، وكنيته : أبوبكر ، قيل لأنه بكّر في دخول الإسلام ، ولقبه الصديق ، لأنه بادر بتصديق الرسول في مواقف كثيرة حرجية ، وبخاصة في حادثة الإسراء والمعراج .

وكان في الجاهلية يشتغل بالتجارة ، وكانت تجارته واسعة ، فلما دخل الإسلام أنجه لخدمته ونشره ، ولم يوجه عناية للتجارة إلا بمقدار ما يكسب به قوته وقوت أهله ، وقد عرف في الجاهلية بالأمانة والهمة ، ولما جاء الإسلام بادر بدخوله ، ثم قام بدعاية ناجحة له ، فأسلم على يده مجموعة من أبطال الإسلام سبق أن ذكرناهم ، وهاجر مع الرسول إلى المدينة وكان « ثاني اثنين » لحآ للغار ليلة الهجرة ، ولعل من الحق أن نقرر أن طول الصحبة ، وإخلاص أبي بكر ، وصفاء نفسه ، جعلته أكثر المسلمين انتفاعاً بروح الإسلام واتجاهاته .

بيعته ومجلس شوراہ :

بعد وفاة الرسول أُرِزاد الأنصار أن يكون الخليفة منهم ، وطمع على ابن أبي طالب في الخلافة ، لمكانته في الإسلام ، وإصهاره الرسول وقرابته إليه (١) .

(١) ابن الأثير : الكامل ٣ : ٩٨ .

ولكن الأغلبية الساحقة انجذبت إلى أبي بكر وبايعته خليفة (١) وسرعان ما اجتمع حوله من تردد في بادئ الأمر في مبايعته . وعقب بيعته التي أبوبكر خطابه الرائع الذي أعلن فيه سياسته ، ومما جاء في هذا الخطاب من المبادئ السامية قوله : أيها الناس ، إني وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فتابعوني وإن أسأت فقوموني ، القوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق ، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم .

وكان الرسول مع مكانته من ربه ومع إمداده بالوحي يلجأ للشورى فيما لا وحي فيه ، ومن هنا أدرك أبوبكر أن حاجته للشورى أشد وأعظم ، فكون « مجلس شوري » من كبار الصحابة وكان يلجأ له كلما جد أمر ذو بال

المشكلات التي واجهها أبوبكر :

رأينا في حديثنا عن الغزوات وانتشار الإسلام أن الإسلام بدأ ينبشر بعد صلح الحديبية ، أي بعد السنة السادسة للهجرة ، وأنه بعد هزيمة هوازن وثقيف بدأت الوفود ترد إلى الرسول معلنة إسلامها ، وكان ذلك في العام التاسع ، ومن هذا يتضح لنا أن كثيرين ممن دخلوا الإسلام آنذاك لم يدخلوه عن اقتناع تام ؛ فهم من دخله مع الداخلين دون دراسة ودون إيمان ، ومنهم من رأى الحروب ولم يفهم أنها دفاعية فدخل الإسلام تجنباً لخصوص الحروب ضد المسلمين ، ومنهم من دخل الإسلام طمعاً في مغنم أو جاه ، فلما توفي الرسول أبرَزَ هؤلاء ما كانوا يخفون . وضعاف الإيمان هؤلاء كانوا يظهرون عدم ولائهم للإسلام كلما سنحت لهم فرصة ، كما فعل المنافقون بعد غزوة بني المصطلق ، وفي مطلع غزوة تبوك ، وكالأعراب الذين وصف القرآن إيمانهم في الآية : (قالت الأعراب آمنا .

(١) للاطلاع على الاتجاهات المختلفة حول اختيار الخليفة عقب وفاة الرسول ، راجع ابن هشام : ٣٧٢ - ٣٧٣ و « السيرة في التفكير الإسلامي » للزلف ص ٢٧ وما بعدها .

قل لم تؤمنوا ولكن قولوا : أسلمنا . ولما يدخل الإيمان قلوبكم^(١) ، ولكن وفاة الرسول كانت أعظم فرصة لهؤلاء ، ليظهروا ما أخفوا وليعلنوا ارتدادهم .

وبجانب عدم التعمق في الإسلام كانت هناك العصبية ، وقد حارب الإسلام العصبية ودعا لتكوين أسرة واحدة هي أسرة الإسلام ، ولكن العصبية كانت تتجدد من حين لآخر ، وكان الرسول عدو العصبية يهجم عليها بعنف كلما ظهرت ، ومع ذلك لم تمت العصبية بل ظلت تظهر كلما أتتحت لها فرصة ، وكان كثيرون من العرب يرون في الإسلام وسيلة فرضت عليهم سلطان قريش ، فلما مات الرسول ، وظهر للعرب أن قريشاً أخذت السلطة ولن تدعها ، قويت هذه الحركات واشتدت . فظهر في كثير من القبائل من ادعى النبوة وأيده قومه باسم العصبية . مع أنه كان واضحاً لهم كذبه وبهتانه .

وهناك فريق ثالث أساء تأويل بعض آيات القرآن وبخاصة تلك المرتبطة بالزكاة ، أو أساء فهمها ، فضل^٢ واتبع طريقاً غير طريق المسلمين .

ولهذه الأسباب نجد الجزيرة العربية تنقلب على عقبيها بعد وفاة الرسول ، ونجد الإسلام يواجه أزمة قاسية أوشكت أن تقوّض أركانه ، فهنا جماعة ارتدوا عن الإسلام ، وهناك آخرون أعلنوا أنهم أنبياء وتبعهم حواريون وأشياع ، وفريق ثالث منعوا الزكاة . وتمردوا على ماسمونه الإنطاوة والضريبة .

وهكذا ظهر المرتدون والمنتبشون ومانعو الزكاة . وشمل هؤلاء أغلب الجزيرة العربية . ولم يبق تابعاً لدين الإسلام إلا مكة والمدينة والطائف ، وقد قامت هذه المدن بواجبها خير قيام . في إعادة الحق إلى نصابه ، ولم تبخل بشيء لإعادة مجد الإسلام وإعلاء شأنه ، وحملت قريش أكبر العبء في ذلك .

وكان التنبؤ ظاهرة تدعو لسخرية الباحث بهؤلاء المنتبشين ، لأن العرب وجدوا أنه في حساب النبي محمد تحققت معجزة لم يصل لها خيال العرب ، وهي وحدة العرب وتآلفهم ، وبذلك ظهر المنتبشون معخذين ادعاء النبوة وسيلة لجمع الناس حولهم ، وقد بدأ ذلك الانحياز في أواخر

حياة الرسول عندما بدأ نجاح رسالته يظهر ، وقوى ذلك الاتجاه بعد وفاة الرسول وانتشار الفتن في الجزيرة العربية :

ومن أكثر المتنبيين خطراً مسيلمة الكذاب في بني حنيفة^(١) بالهامة ، وقد بدأ ادعائه في حياة الرسول ، إذ كتب إليه يقول : من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ، أما بعد فإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ، ولكن قریشاً لا ينصفون ، والسلام عليك ؛ فكتب له الرسول يقول :

بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب ، أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . والسلام على من اتبع الهدى^(٢) .

وهناك عوامل ساعدت على ازدياد خطر مسيلمة وهي :

- ١ - قوة بني حنيفة وبطولتهم الحربية .
- ٢ - استطاع مسيلمة أن يخدع الرجال بن جنوة الذي أرسله محمد ليعظه ويردّه عن غيّه ، ولما خدع الرجال كذب ولعل أن محمداً أشرك مسيلمة في الأمر .

- ٣ - تزوج مسيلمة من امرأة تدعى سمجاء كانت قد اذعت النبوة أيضاً في بني تميم ، الذين كانت ديارهم على مقربة من بني حنيفة ، وكانت مطاعة فيهم ، فانضم أتباعها إلى أتباع مسيلمة^(٣) .

ويروى ابن طباطبا^(٤) قصة هذا الزواج ، ولا بأس من إيراد هذه القصة هنا لطرافتها مع حذف بعض الكلمات الصريحة التي أوردها ابن طباطبا متصلة بالعلاقات الجنسية ؛ قال ابن طباطبا :

(١) أوردنا دراسة شاملة عن مسيلمة وبني حنيفة في الجزء السابع من هذه الموسوعة عند الكلام من نجد .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ٩٧ - ٩٨ .

(٣) المرجع السابق . ص ١٠٨ وقد دخلت الإسلام بعد أن قتل مسيلمة ، انظر كذلك

الكامل لابن الأثير ٢ : ٢٨٠ .

(٤) الفخرى في الآداب السلطانية ص ٥١ - ٥٢ .

وظهرت امرأة من العرب اسمها سجاح ادعت أيضاً أنها نبيية وأن الوحي ينزل عليها ، وتبعها بنو تميم وهم قبيلتها ، ثم سارت لقتال مسيلمة وكانت جموعها أكثر من جموعه ، فلما علم مسيلمة بمسيرها إليه فكر ، وكان داهية ذكياً ، فأرسل لها وقال : ينبغي أن نجتمع أنا وأنت في موضع ونتدارس ما نزل علينا من الوحي ، فن كان على الحق اتبعه الآخر ، فأجابته إلى ذلك ، وأمر مسيلمة أن تضرب قبة من آدم (الجلد المدبوغ) ويستكثر فيها من العود والبخور وقال : إن المرأة إذا اختلت برجل بين العود والبخور نشطت أنوثتها . وهذا ما كان ، ففي هذه الخلوة الشاعرية أصبحا رجلاً وامرأة بعد أن كانا نبياً ونبيية ، واتفقا في النهاية على أن ما ورد لهما من الوحي يصدر عن معين واحد ، وعلى أن تعلن تصديقها له ويعلن تصديقه لها ، كما يعلن رغبته في الزواج منها ليقوما معاً بأداء الرسالة ، وأعلننا ذلك للقوم ، وقدر مسيلمة المهر لأصحاره ، وكان ذلك المهر إعفاءهم — دون الناس — من صلاة العصر . ويقول ابن طباطبا إن كثيرين من بنى تميم لا يصلون العصر حتى الآن ، فقد توارثوا هذه العادة منذ ذلك الحين ، ومنهم من يعلن أنه لا يصلى العصر لأنه مهر فتاة القوم .

وقد أعطت وفاة الرسول فرصة — كما سبق القول — لأتباع مسيلمة ليزداد أملهم في النصر .

ومن الذين ادعوا النبوة أيضاً عبلة ذو الحمار باليمن ، وهو المعروف بالأسود العنسي ، وطليحة بن خويلد في بنى أسد ، وقد بدءا ادعاءهما في حياة الرسول أيضاً ، وكان من أتباع هؤلاء الأنبياء المزيفين كثيرون أدركوا ضلال المدّعين ولكنهم انضموا إليهم ليقفوا بهم ضد قریش التي تريد أن تستأثر بالحكم فيهم ، كما انضم هؤلاء أيضاً كثيرون من المرتدين ليستعينوا بهم في الوقوف في وجه الإسلام .

وهناك مرتدون آخرون لم ينضموا إلى أحد من المتنبيين ، ولكنهم اكتفوا بترك الإسلام ومن هؤلاء سكان البحرين (١) .

(١) انظر الحديث المنفصل عن هؤلاء في الجزء السابع من هذه الموسوعة .

أما مانع الزكاة فأغلبهم من اليمن واليمامة ، وقيل منها بعضهم عناداً ورأى فيها ضريبة إجبارية لم يرد أن يخضع لها ، ومن هؤلاء فيما يبدو مالك بن نويرة سيد بني حنظلة ، وقد اتهم أيضاً بأنه يساعد سجاح ويؤيدها ^(١) ولكن أغلب مانعي الزكاة أساءوا فهم الآية الكريمة (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) ^(٢) وظنوا أن الرسول وحده - والخطاب في الآية له - هو الذي يجوز له أن يأخذ الزكاة ، ففي ذلك تطهير وتزكية لهم ، وقد نسي هؤلاء التفسير الدقيق للآية الكريمة ، كما نسوا الآيات الأخرى التي تقرر أن للفقير حقاً في مال الغني ، مثل قوله تعالى «والذين في أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم» ^(٣)

واستشار أبو بكر الصحابة والمسلمين فيما يفعل أمام هذه المشكلات العظام ، فرأى أكثر المسلمين ألا طاقة لهم بحرب العرب أجمعين ، كما رأى بعضهم أنه لا داعي لحرب مانعي الزكاة ماداموا ثابتين على إيمانهم ، ولكن أبا بكر صاح مقسماً ليحاربن الجميع حتى يثوب الجميع إلى الحق أو حتى يموت أبو بكر مجاهداً في سبيل إعلاء كلمة الله ، فاستجاب أغلب المسلمين أوكلهم إلى اتجاه أبي بكر ^(٤) ، ووضعت قريش أفلاذ أكبادهما تحت أمرته وبدأ يعمل ، فكون أحد عشر جيشاً يقود كل منها بطل من أبطال العرب المشاهير ، مثل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعكرمة بن أبي جهل وشريحبيل بن حسنة وغيرهم ، وقد هزمت هذه الجيوش الجزيرة العربية ،

(١) قتل خالد بن الوليد مالك من نويرة هذا ، وقصة خالد مع مالك وزواج الأول من زوجة الثاني بعد قتله من الموضوعات التي أفاض المؤرخون المحدثون في شرحها وهناك فيها اتجاهان مختلفان : يمثل الدكتور هيكل أحدهما في كتابه «الفاروق عمر» فيدين خالداً ويمثل الأستاذ صادق مرجون الاتجاه الثاني في كتابه «خالد بن الوليد» فيدافع عن خالد ويبرئه . وإل هذا نميل .

(٢) - سورة التوبة الآية ١٠٣ .

(٣) - سورة المعارج الآية ٢٤ ، ٢٥ .

(٤) - البلاذري : فتوح البلدان ص ١٠٤ .

وقبل أن يوجهها أبو بكر في اتجاهاتها المرسومة أرسل كتاباً للخارجين أجاب لهم فيه عن الشبه التي كانت قد خطرت لهم ، ودعاهم إلى العودة إلى رحاب الإسلام ، وأنذرهم إن استمروا على غيهم ، وقد نجحت الكتب مع بعض الناس ، وبقي آخرون على ضلالهم ، فانجهت لهم الجيوش ، وكانت جولة هذه الجيوش ناجحة مظفرة فلم تلبث أن دكت الأرض حولهم . ومن أهم المعارك التي خاضها المسلمون ضد المتنبيين معركةهم ضد أربعين ألفاً^(١) من بني حنيفة وأتباعهم اتفوا حول مسيلمة ، ولما التقى الفريقان سرعان ما سقط الخائن الرجال بن عنفوة ثم شد المسلمون على أعدائهم فتفقهروا ، وأراد مسيلمة أن يحتجى بحديقة فسيحة لها سور مرتفع فتراجع لها ودخلها ونادى أصحابه أن فلحقوا به ، ولكن المسلمين تسوروها عليهم ودارت بها معركة عنيفة سقط فيها آلاف من الفريقين حتى سميت « حديقة الموت » وقتل مسيلمة على يد وحشى قاتل حمزة ، وقيل على يد معاوية ، وقيل اشترك في قتله جماعة من المسلمين^(٢) في طليعتهم وحشى الذى رماه بحربة ، وعبد الله بن زايد بن عاصم الأنصارى الذى أجهز عليه بسيفه^(٣) ، وكان قائد جيش المسلمين في هذه المعركة البطل العظيم خالد بن الوليد^(٤) .

وانهزمت كذلك جيوش الأسود الذى كان يلقب نفسه رحمان اليمن وقتل غيلة في الليلة التي توفي الرسول في صبيحتها^(٥) وكان قد استولى على نجران وصنعاء وحضر موت وعدن والبحرين والاحساء ، ولم تطل مدته أكثر من أربعة اشهر .

أما طليحة بن خويلد فقد اتبعه قومه بنو أسد كما اتبعته طيء وخطمان ،

(١) ابن الأثير - الكامل ٢ : ٢٤٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٩٨ .

(٣) النووى : تهذيب الاسماء : القسم الأول ج ١ ص ٢٣٨ .

(٤) زرت وادى حنيفة الذى جرت به هذه المعارك ، ودونت مزيداً من التفصيل عنها

في الجزء السابع من هذه الموسوعة .

(٥) للطبرى ج ٣ ص ٢٥٢ وابن الأثير ج ٢ ص ١١٤ .

وعظم أمره . عقب وفاة الرسول ، فأرسل له أبو بكر خالد بن الوليد على رأس جيش عظيم ، فتخلت عنه طيء وعادت للإسلام وظل معه بنو أسد ، ولكن طليحة انهار أمله أمام خالد ففر إلى الشام واختفى ثم أسلم في عهد عمر^(١) وحسن إسلامه واشترك في الفتوح .

ومما يذكر أن القراء (حفظة القرآن الكريم) كان لهم دور كبير في هذه الحروب ، فقد استطاعوا بصمودهم أن يبرهنوا على عزيمة قوية وعلى بطولة فائقة ، وبروح أنهم كانوا حماة اللواء في هذه الحروب ، ولما انكشف المسلمون في إحدى مواقع هذه الحرب كان غضب القراء بالغاً وصاحوا : ما هكذا كنا نفعل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخذ كل واحد منهم يخط في الأرض خطاً بحيث لا يتجاوزهُ إلى الوراء ، ويقا تل مستميتاً دون أن يتقهقر حتى ينتصر أو يموت .

ويُنسب للقراء أنهم في هذه الحروب ألّفوا كتائب فدائية انتحارية كان شعارها النصر أو الموت ، وقد استطاعوا بذلك أن يسحقوا الأعداء في مواقف كثيرة وبحققوا النصر للإسلام والمسلمين .

وعلى كل حال فقد جالت الجيوش الإسلامية جولة في الجزيرة العربية أعادت خلالها النائر إلى الهدوء . والفضال إلى الهداية ، وعادت الجيوش إلى المدينة وقد عادت للجزيرة العربية وحدتها وتمسكها بالدين الحنيف بعد أن زالت الشبهات والترهات بالحكمة عند من عرف الحكمة ، أو بالسيف عند من دفعته العصبية الضائلة إلى السيف ولم تعرف الحكمة إلى نفسه سييلاً .

التوسع الإسلامي في عهد أبي بكر :

إن اتفاح الجزيرة العربية جدد الأمل عند الفرس والروم بأن العرب سيقضون على الإسلام ، وقدمت الفرس والروم للعرب الثائرين على الحكم الإسلامي كثيراً من المساعدات وآوت الفارين منهم ، ولذلك لم يكذب المسلمون يعيدون الجزيرة إلى وحدتها حتى كان الأوان قد آن للزحف نحو

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٢ ص ١٠٥ .

الشمال لمواجهة العدوين الكبيرين اللذين يتربصان بالإسلام ، ويعملان على القضاء عليه ؛ ومات أبو بكر والمبارك دائرة بين المسلمين من جهة والفرس والروم من جهة أخرى ، وظهرت ثمرة هذا العمل في عهد عمر ؛ ولذلك سرّجىء الكلام عن هذا التوسع الذى تم في عهد الخليفة لتحدث عنه عند الحديث عن الخليفة عمر .

وفاة أبي بكر :

مرض أبو بكر وتوفي بعد أن أمضى في الخلافة عامين وبضعة شهور ، وهى مدة وجيزة ولكنها حاسمة في تاريخ الإسلام ، لقد واجه أبو بكر فيها أخرج المواقف ، ويمكن القول إنه في فترة منها كان يقف وحده^(١) ، ولكنه بليمانه وبقينه سرعان ما ضم المسلمين إلى رأيه ، ثم سار بهم يدك صروح الشرك ويقوض الشكوك والأوهام ، بل سار بهم يحطم قصور كسرى وقيصر ، ولانكاد نجد موقفاً عظيماً في الصلوة الإسلامية إلا واسم أبي بكر بارز فيه ، رحم الله أبي بكر ، لقد تمثلت فيه كل المعاني الإسلامية الرائعة .

(١) ذلك عند إصراره على محاربة المرتدين والمنتهين ومانعي الزكاة في حين اتجه باقى المسلمين إلى المسألة قائلين : كيف نحارب الجزيرة العربية كلها .

عمر بن الخطاب

١٣ - ٢٣ هـ (٦٣٤ - ٦٤٤ م)

تعريف به :

هو عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي من بني عدى الذين كان لهم بين قريش - قبل الإسلام وبعده - شرف ومجد ومكانة عظيمة ، وكان عمر يشتغل بالتجارة ، وفي الجاهلية كان سفير قومه إذا تأزمت الأمور بينهم وبين الآخرين ، واشتهرت عنه قبل إسلامه وبعده شجاعة لاتعرف الخوف وعزيمة لاتعرف التردد .

وكانت الدعوة الإسلامية في مطلعها ضعيفة تحتاج إلى قوة ، ولذلك أثار عن الرسول أنه قال : اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين (عمرو بن هشام (أبو جهل) أو عمر بن الخطاب) وقد استجاب له الله فأسلم عمر في السنة الخامسة للدعوة ، وكان إسلامه فتحاً مبيناً ، وروى عن عبد الله بن مسعود أنه قال : كان إسلام عمر فتحاً ، وكانت هجرته نصراً ، وكانت إمارته رحمة ، لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلى في البيت خوفاً من قريش ، فلما أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا فصليناً^(١) ، وقصة إسلام عمر مشهورة ، وقد تحدثنا عنها عند كلامنا عن أثر القرآن في انتشار الإسلام .

توليته الخلافة :

شهد أبو بكر الخلاقات التي حدثت عقب وفاة الرسول ، والأطباع التي أوشكت أن تفرق كلمة المسلمين ، وقبيل وفاة أبي بكر كانت الجيوش الإسلامية تخوض أقصى المعارك التي عرفها التاريخ في ذلك الحين ، إذ كانت الحروب دائرة بين المسلمين من جهة وبين الفرس والروم من جهة أخرى ، والجيوش في ميدان القتال تحتاج إلى عون متصل من العاصمة ، عون بالرأى والسلاح والرجال وغير ذلك ، ورأى أبو بكر أنه لو ترك المسلمين بلا خليفة فإنهم قد يختلفون اختلافاً كثيراً أو قليلاً ، واضطراب العاصمة سيؤدي إلى

هزيمة كبيرة للجيش المحاربة ، وقد عمد الخلفاء إلى الجيوش نفسها فيؤيد قائد مرشحاً ، ويؤيد قائد آخر مرشحاً آخر ، فتقلب الحروب إلى معارك داخلية وهزائم قاتلة ، ومن أجل هذا رأى أبو بكر أن يعين خلفه بعد أن يستشير الناس ، أو أن يستشير الناس ويعين لهم من يرضونه ، وكان عمر هو مرشح الخليفة ومرشح الناس ؛ ومن غير عمر لهذا المكان وهناك عمر ؟ ولذلك كتب أبو بكر وثيقة تعين عمر بعد الاستشارة واتحاد الكلمة (١) .

التوسع الإسلامي في عهد أبي بكر وعمر :

تحدثنا من قبل عن أسباب تفكير المسلمين في محاربة الفرس والروم ، ونريد هنا أن نتبع مراحل هذا التوسع ، وقد بدأ النضال بين المسلمين من جانب والفساسنة ومعهم أحلافهم الروم من جانب آخر في غزوة مؤتة التي كان يقودها زيد بن حارثة مولى الرسول ، وقد قتل فيها هو واثنان توليا القيادة بعده ، ثم جاءت غزوة تبوك ولكن المسلمين لم يثأروا فيها لقتلهم بسبب انسحاب جيش الروم وعدم وقوع حرب كما سبق .

فلما تمت انتصارات الإسلام في الجزيرة العربية ، ولما كانت مكاييد الفرس والروم مستمرة ، فقد أعد الرسول جيشاً عظيماً ولى أسامة بن زيد قيادته ليثأر لأبيه ولقتل المسلمين ، ولكن الرسول مات قبل أن يسير هذا الجيش ، فسيره أبو بكر (٢) .

ولكن تسير أبي بكر لهذا الجيش كان عملاً سياسياً أكثر منه حربيّاً ؛ فليس من الطبيعي أن يرسل خليفة المسلمين جيشاً لمحاربة الروم في حين تنتفض عليه أغلبية العرب ، ولذلك رأى أبو بكر أن يرسل هذا الجيش سيجعل المتمردين يحسون أن بالمسلمين قوة كبيرة لولاها ما أقدموا على حرب الروم في هذه الظروف ، ونجحت سياسة أبي بكر . فأرسل هذا الجيش خوف الروم وخوف الثائرين العرب وحقق هذا الجيش انتصارات طيبة في الغارات السريعة

(١) انظر تفاصيل البيعة لعمر في كتاب « السياسة في التفكير الإسلامي » للمؤلف .

(٢) ابن هشام - ٢ ص ٣٦٥ وابن الأثير ٢ : ١٩٢ .

التي شنها على الروم . . . والتي كانت فاتحة المعارك الطويلة بين المسلمين وبين الفرس والروم . تلك المعارك التي سنوجزها فيما يلي :

الفرس والروم قبل الزحف الإسلامي وعوامل انتصار المسلمين :

سبق أن قلنا إن قبيلتي هوازن وثقيف في حربهما مع المسلمين حشدتا النساء والأموال خلف الجيوش ، حتى يعرف المحارب أن هزيمته معناها فناء أسرته وماله : ويفهم النقاد من ذلك أن هؤلاء الجنود لم يكونوا مخلصين في المعارك التي يخوضونها . ولو كانوا مخلصين لمحاربوا من أجل العقيدة بشجاعة أكثر من محاربهم من أجل النساء والأموال . وقد حارب المسلمون من أجل عقيدتهم . فكسبوا انتصارات حاسمة في مختلف الميادين دون أن يكون خلفهم نساء ولا أموال . وفي ضوء ذلك نحب أن نعرف شعور الجندي الفارسي أو الجندي الرومي وهو في هذه المعارك الطاحنة بحارب المسلمين .

لقد مضى على ظهور الإسلام حينذاك حوالي ربع قرن وقد سمعت عنه الشعوب ببلاد الفرس والروم ، وسمعوا عما حققه من انتصارات . وسمعوا عن مبادئ السمحة ، ولأول مرة يسمعون عن دين سوى دين الملك والسوقة ، ولأول مرة يسمعون عن حكام فقراء يرقعون الثياب ويخسفون النعال . وبينما كانوا يسمعون عن ذلك ويعرفونه . كانوا يعيشون في حياة بعيدة كل البعد عنه . كانت دولهم دولا شاخت وآن لها أن تزول . عظماءهم أضعفهم التنافس على السلطان وهدمهم البذخ . وشعوبهم أضعفها الخلافات الدينية واستبداد الملوك وظلم الحكام ، وكان الجندي يدرك أنه يدافع عن شيء لا حق له فيه . يدافع عن وطن يملكه السادة ويستمتع به الملوك ، فلماذا يبذل من أجله نفسه ؟ ولماذا يريق دمه ! ولقد كان الفرس يدركون أن جنودهم يحاربون دون رغبة . حتى اضطر القائد الفارسي في موقعة نهاوند أن يقيد جنوده بالسلاسل حتى لا يفروا ، وقد سميت هذه الموقعة « موقعة ذات السلاسل »^(١) وسيأتي الكلام عنها . وقد فعل الروم مثل ذلك أيضاً ،

يروى البلاذري^(١) أن الروم في موقعة اليرموك تسلسلوا لثلاثا يطعموا أنفسهم في الحرب .

وانتشر في فارس مبدأ الحق الإلهي المقدس ، وذلك بجعل الملوك ظل الله على الأرض ، ويُسبِّحُ الهوة بينهم وبين شعوبهم^(٢) .

وكان الفرس والروم في معارك تكاد تكون متصلة ، وكان الفرس أو كان الروم ينالون النصر ، ولكن الحرب تفضي المهزوم والمتضرر .

والإمبراطورية الرومانية كانت واسعة تمتد من الشام فصر وشمال إفريقيا إلى شبه جزيرة إيبيريا . وهي بذلك تشمل عدة دول وعدة أجناس ، وأباطرة الرومان قساة محتلون ، تثور عليهم الدول الخاضعة لهم من حين إلى آخر ، فيقتلون في تأديبهم ، يريقون دماءهم ، ويأخذون أموالهم إذا انتصروا عليهم ، وإذا لم تثر هذه الدول فعنى ذلك أن الثورة كامنة ، لأنها نار تتأجج في صدورهم ضد الاستعمار والاستبداد والضررائب الفادحة التي كانت تؤخذ على الرعوس والملابس وأثاث المنازل بل ، على الأموات .

وكان السكان يصبغون تحت حكم الرومان ، ولذلك كثيراً ما رُحِبوا بحكم المسلمين وانضموا إليهم في الكفاح ، يروى البلاذري^(٣) أن المسلمين بعد أن أخذوا حصص أعداء الرومان جيشاً كبيراً ليستميلوا به هذه المدينة : ولكن أهل حصص انضموا للمسلمين وقالوا : لولا يتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعن جندهرقل عن المدينة معكم وأقسموا ألا ينخل عامل هرقل المدينة إلا إذا طلبوا .

وحسبك أن تعرف أن مصر كانت تعرف عند الرومان بمزرعة القمح ، حيث يزرع المصريون وتُنبت أرض مصر ، ويحصده المصريون ، ثم يؤخذ منهم نتاجهم دون عدل أو رحمة . وقبل أن يزحف المسلمون على الروم كانت الإمبراطورية قد بدأت تتصدع ، فقد أغار القوط على أسبانيا وأخذوها . وهاض الجناح الغربي ، وأوشك الجناح الشرقي أن يتحطم على يد العرب .

(١) المرجع السابق ص ١٤١ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٩٣١

(٣) فتوح البلدان ١ ص ٤٣ .

ويقول Kirk^(١) : إن غمار أهل المدن والريف في دول الشرق الأوسط الخاضعة للروم كانوا يعيشون في ضنك من جراء ثقل الضرائب الباهظة وفساد الموظفين ؛ فلم يدينوا بشيء من الولاء لهذا الحكم . ومن جهة أخرى نجد الكنيسة المسيحية باضطباعها بالصبغة الرسمية دخلت في دور الجمود المسيطر على رجال الحكم ؛ ولم يبق في الكنيسة شيء من الإخاء الذي امتاز به صدر المسيحية ، وحصل انشقاق في الكنيسة كان عامل الوطنية من أسبابه ، ولو أنه اتخذ شكلاً دينياً حول تفسير طبيعة المسيح ، ولم تثمر محاولات التقريب بين الطوائف المسيحية لأن الكنائس المحلية بدول الشرق الأوسط كانت تبغض الأباطرة وحكوماتهم فكانت النتيجة أن توقفت محاولات الأباطرة لاسترضاء شعوب الشرق الأوسط ، وحلت محلها اضطهادات شنيعة وحشية فاستعادت الهوة بذلك بين الفريقين إلى الأبد ، وتطورت الأمور في بلاد شرق البحر الأبيض المتوسط حتى بلغت الحد الذي يجعلها لقمة سائغة لأي فاتح يعرض عليهم من الحرية في شؤونهم مالم ينالوه على يد أباطرة الرومان .

وكانت الفرس تستعمر بلاد العراق ، وكان الاضطهاد الديني ببلاد الفرس على أشده ، وضعف سلطان الساسانيين الذي امتد حوالى أربعة قرون ، وآل الحكم إلى يزديجر الثالث آخر ملوكهم ، وكان شاباً في الحادية والعشرين من عمره قليل التجارب ، ورث دولة ضعيفة لا يستطيع المسير بها في ركب الحياة .

وبتجه البحث الحديث كما ذكرنا من قبل إلى اعتبار الزحف الإسلامي حركة قامت بها القبائل العربية المتحررة بالجزيرة العربية لتحرير الشعوب العربية التي كانت ترواح تحت الاحتلال الفارسي أو الروماني .

في ضوء هذه الاعتبارات قامت الحرب بين المسلمين وبين الفرس والروم ، وآذنت دولة الباطل بالخضوع ، وقد كان هجوم المسلمين على

(١) موجز تاريخ الشرق الأوسط ص ١٤ بتصرف : وانظر كتاب « المسيحية » للمؤلف

الفرس والروم في وقت واحد لونا من الإرهاب ساعد في الحصول على النهاية الطيبة ، وسنرسم فيما يلي سير الحملات الحربية ونذكر أهم المواقع الحاسمة في إنجاز ، وقبل أن نشرع في هذا يجدر بنا أن نشير إلى أن الذي يقرأ كتب الفتوح مثل فتوح البلدان للبلاذري وفتوح الشام للواقدي ، وفتوح الشام للأزدى ، وفتوح مصر لابن عبد الحكم ، يرى اختلافاً كبيراً في الروايات التي توردها هذه الكتب أو حتى تلك التي يوردها الكتاب الواحد منها ، وهذا الاختلاف يتصل بالتواريخ ويتسلسل الفتوح وغيرها ، ولن نغني كثيراً بهذا الاختلاف إذ لا أرى كبير فائدة في معرفة ما إذا كانت دمشق فتحت قبل اليرموك أو بعدها ، وأي أجزائها فتحت على يد خالد وأياها فتح على يد أبي عبيدة ، وأي أجزائها فتح صلحاً وأياها فتح عنوة وهكذا ، وهناك بلاد يرد ذكرها على أنها فتحت في عهد عثمان ، ثم ترد مرة ثانية على أنها فتحت في عهد معاوية ، وترد مرة ثالثة على أنها فتحت في عهد الوليد ولعل ذلك يرجع إلى أن فتحها الأول كان صلحاً على جزية ، ثم توقف السكان عن دفع الجزية فأعيد فتحها ، أو كان فتح ، فتورث على الفتح ، فاستعادة الفتح ،

المهم مرة أخرى أن هذا الاختلاف قابل الغناء فيما أرى ، ولذلك آثرت أن اكتفي هنا بإيراد الفتوح مسلسلة حسبما استطعت فهمها من التوفيق بين الروايات المختلفة التي وردت في الكتب السابقة وغيرها ، مع ملاحظة أن البلاذري كان أكثر هذه الكتب دقة وشمولا ، ولذلك فسنعتمد عليه أكثر من سواه .

العراق وفارس ،

جرت المناوشات الأولى بين العرب والفرس في بلاد العراق على يد المنثى ابن حارثة الشيباني ، وكان ذلك في مطلع عهد أبي بكر وبتكليف من الخليفة (١) ولكن أبا بكر بعد أن شاهد نجاح المنثى مع قلة ما معه من العدة وقلة من معه من العدد أرسل إليه جيشاً عظيماً يقوده سيف الله خالد بن الوليد ، وكتب

أبو بكر للمثنى يأمره بتلقى خالد والسمع والطاعة له^(١) ووصل خالد العراق فأخذت مدنه تصالحه وتخضع وتدفع له الجزية وتعهده على أن تكون معه على الفرس ، وأهم البلاد التي صالحها خالد أرض الحيرة^(٢) .

وسار خالد من الحيرة إلى الأنبار فحاصرها . ولكن مقاومتها لم تطل فطلب الصلح واستسلمت^(٣) ، وكذلك استسلمت « عين التمر » بعد فترة من القتال والحصار ، وقد وجد خالد في عين التمر مجموعة من العرب أسرى الفرس وأودعهم مبعداً في هذه المدينة فأطلق خالد سراحهم^(٤) .

ومن أهم المعارك التي خاضها خالد بفارس موقعة « الأبله » وتسمى موقعة « ذات السلاسل » لأن الفرس ربطوا فيها جنودهم بالسلاسل^(٥) حتى لا يفروا من المعركة ، ولكن ذلك لم يغنهم شيئاً . فقد فر منهم من وجد حيلة للفرار وسقط الباقيون صرعى ، وقد ترتب على هذه الموقعة الاستيلاء على ميناء الأبله على الخليج الفارسي^(٦) .

وبينما كان خالد في تقدمه ذلك ، كانت الحملة على الروم تجتاز مرحلة صعبة ، فعول أبو بكر خالد بن الوليد إلى الروم ، وبذلك لم يقو جيش المثنى على الوقوف في وجه الفرس فارتد إلى أطراف الجزيرة العربية .

وفي عهد عمر كانت كفة المسلمين قد رجحت على الروم بعد انتصارهم في معركة أجنادين ، فاتجه عمر إلى معاودة الزحف على بلاد الفرس . وفيما يلي فكرة سريعة عن أهم المعارك الحربية التي دارت بين المسلمين وبين الفرس في عهد عمر ، والتي وضعت حداً لمقاومة الفرس وأدخلتها إلى الأبد جزءاً من العالم الإسلامي .

يوم الجسر : حدثت هذه الموقعة سنة ١٣ هـ ، وكان يقود جيش المسلمين فيها أبو عبيد بن عمر الثقفي أبو المختار بن أبي عبيد المشهور ، ومعه سليط

(١) المرجع السابق ص ٢٤٢ (٢) المرجع السابق (٣) المرجع السابق ص ٢٧٢

(٤) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٤٨ ،

(٥) ابن الأثير ، الكامل ٢ : ٢٩٢ .

(٦) ياقوت : معجم البلدان ١ : ٨٢ .

ابن قيس الأنصاري ، وكتب عمر للمثنى أن يكون في طاعة أبي عبيد، وكان يقود جيش الفرس قائد عظيم اسمه مرءانشاه ويقال إن اسمه رسم ، وتنسب هذه المعركة إلى جسر عند الحبرة عبرة المسلمون والتقوا بجيش الفرس ، وانتصر الفرس في هذه المعركة وقتل أبو عبيد وسليط^(١) .

يوم مهران أو يوم النخيلة : استمر عمر عاما بعد يوم الجسر لا يغزو فارس ، ولما دخلت سنة ١٥ بدأ يعاود غزوها ، فأرسل لها جيشاً يقوده جرير بن عبد الله مع المثنى بن حارثة ، وكان يقود جيش الفرس قائد اسمه مهران ، وقد ثار المسلمون في هذه الموقعة لقتلهم في يوم الجسر . وقتل مهران وكثير من أتباعه^(٢) .

القادسية : حدثت موقعة القادسية في السنة السادسة عشرة ، وكان قائد المسلمين فيها سعد بن أبي وقاص وبلغ جيش المسلمين فيها جوالى عشرة آلاف وكان قائد الفرس رسم ذا الجاجب، ويتكون جيشه من مائة وعشرين ألف مقاتل . وقد مات المثنى بن حارثة قبل المعركة ، ومن القادة الذين كانوا يساعدون سعد بن أبي وقاص ، المغيرة بن شعبه وقيس بن هبيرة وطلحة ابن خويلد الذي كان قد ادعى النبوة ثم تاب وأناب ، وقبيل المعركة تم اتصال بين المسلمين والفرس رجاء الوصول إلى اتفاق يمنع الحرب ، ولكن هذا الاتصال لم يفر عن نقيحة ، فقامت المعركة ، وهى من المعارك الهامة في تاريخ الحروب بين المسلمين والفرس فر فيها رسم وعشرات الآلاف من جنوده ، وغنم المسلمون فيها مغنم كثيرة ، وقد استمرت هذه المعركة عدة أيام^(٣) .

ومن الأحداث الهامة التي وقعت في هذه المعركة أن أبا محجن الثقفي أحد مشاهير الأبطال شرب الخمر في معسكر سعد ، فضربه سعد وحبيه ،

(١) البلاذرى : ص ٢٥٢ :

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ٢٥٢ - ٢٥٤ .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٢٠ : ٢٠٩ ، ٢٦٥ .

(م ٢٧-التاريخ)

ولما قامت المعركة حزن أبو محجن لأنه لم يشترك فيها . فتقدم « إلى زبراء » وهي أم ولد لسعد وطلب منها أن تطلق سراحه وتعيده فرساً لسعد ليشهد المعركة ، وحلف لها أن يعود إلى سجنه عقب المعركة ، فأطلقتة وأعطته الفرس .

ورأى المسلمون فارساً مغواراً يشق الصفوف ويطعن في العدو يمنة ويسرة فلا تخطيء طعنته ، فقال سعد : لولا أن أبا محجن في السجن لظننت أن هذا هو أبو محجن ، وقبيل انتهاء المعركة انسحب أبو محجن وأعاد الفرس إلى مربطه وعاد هو إلى سجنه ، وعرف سعد فيما بعد ذلك الخبر ، فأتى إلى أبي محجن وأطلق سراحه وقال له : إنك تستحق العفو بعد ما رأيت منك . قال أبو محجن وأنا والله لا أشرب الخمر أبداً فقد كانت على وشك أن تحرمي من الجهاد ^(١) .

المدائن : كان انتصار المسلمين في القادسية دافعاً لهم أن يستمروا في زحفهم ، واتجهوا في تقدمهم إلى القلب ليضربوه ، إلى العاصمة طيسفون ^(٢) التي أسماها العرب « المدائن » لكثرة ضواحيها حتى بدت للعرب كأنها مدائن لا مدينة واحدة ، وتقع المدائن على ضفتي نهر دجلة واستطاع المسلمون أن يستولوا على الجانب الغربي من المدينة فأسرع الفرس وأخذوا السفن للجانب الشرقي كما هدموا الجصور حتى لا يستطيع العرب عبور النهر ، ولكن المسلمين سرعان ما عبروا النهر بنحوهم ، فاضطرب الفرس وقالوا والله ما هؤلاء إلى جن . وحاق عليهم الهزيمة وهرب يزيد جرد بن شمر يار إلى حلوان ومعه وجوه قومه وأسرتة وما خف من متاعه .

وسقطت العاصمة الفارسية العريقة في أيدي المسلمين بما تحويه من فن وذخائر ، ولا شك أن سقوط العاصمة آذن بالانهيار الكامل لبلاد الفرس كلها ، وكان سقوط العاصمة في العام السادس عشر ^(٣) .

جلولاء : أعداء يزيد جرد عدته ليقابل المسلمين ، وبعث إلى كل النواحي

(١) انظر فتوح البلدان للبلاذري ٢٥٥ - ٢٧٩ .

(٢) ياقوت : معجم البلدان ٦ : ١٣٤ .

(٣) فتوح البلدان ٢٦٢ - ٢٦٣ وانظر أيضاً ابن الأثير ٢ ، ٣٥٤ .



الخريطة رقم (٤)
الجيش الإسلامي بفارس

يطلب العون فانهاالت عليه الإمدادات ، وعسكر بمنطقة جلولاء وحفر الخنادق حول معسكره ، ولكن المسلمين اقتحموا عليهم خنادقهم ، ودارت معركة من أعنف معارك فارس بقول البلاذري عنها ^(١) إن المتحاربين استعملوا الرماح حتى تقصفت وتجالدوا بالسيوف حتى انثنت ، ولكن المسلمين ثبتوا حتى كتب لهم النصر وفر يزدجرد مرة ثانية من حلوان ، وعقب الانهائ من جلولاء أصبح للمسلمين كل أرض السواد ، وكانت هذه الموقعة سنة ١٦ أيضاً تبعاً لرواية البلاذري ^(٢) .

نهاوند : موقعة نهاوند تسمى فتح الفتوح ، وقد أورد البلاذري أنها وقعت سنة ١٩ ، قال البلاذري : ويقال إنها وقعت سنة ٢٠ أو ٢١ ، ويبدو أن نهاوند كانت آخر محاولة جديية يقوم بها يزدجرد ، فقد جمع لها جرعاً يرى بعض المؤرخين أنها وصلت ١٠٠ ألف ^(٣) ، وولى قيادتها قائداً عظيماً يسمى الفيرزان وحرص على ألا يهرب المحاربون فقيدهم بالسلاسل ^(٤) ، وقد استمات الفرس في الدفاع والحرب ولكن المسلمين هزمهم . وكان قائد المسلمين في هذه المعركة نهمان بن مقرن المزني الذي ولاه عمر بعد أن عزل سعد بن أبي وقاص الذي لم يرض عمر عن بعض تصرفاته بالكوفة ^(٥) وقد سقط النهمان في مطامع المعركة فتولى مكانه حذيفة بن اليمان وتم على يده النصر ^(٦)

بعد نهاوند : سار المسلمون بعد نهاوند فاستولوا على الأهواز ثم استولوا على قم وكاشان . ودانت لهم كذلك منطقة أذربيجان وكانت هذه الانتصارات الباهرة سبباً في إضعاف الروح المعنوية عند الفرس ، فاستسلم صلحاً عدد كبير منهم . واستسلم آخرون عنوة ، ولم يستطيع يزدجرد أن يقابل المسلمين

(١) المرجع السابق ١٦٤ .

(٢) المرجع السابق ١٦٣ - ٢٦٤ .

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٠٥ .

(٤) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٢٠١ .

(٥) ابن سعد ٣ / ص ٧٩ .

(٦) البلاذري ٢٠٠ - ٣٠١ .

بعند ذلك مقابلة قوية، وظل أمره في نقصان حتى قتل بخراسان سنة ٥٣١ هـ في عهد عثمان وبموته انتهت دولة (آل ساسان) .

بقيت كلمة مهمة عن الفرس، فقد سقطوا في الميدان العسكري. ولكنهم ظلوا يصارعون الإسلام فكرياً فترات طويلة، كما أنهم شنوا على المسلمين حروباً شعواء بأسماء مختلفة يمكن القول إنها كانت من أهم أسباب ضعف العالم الإسلامي، ولا شك أن بلاد الفرس كانت سبب الانحراف في بعض الاتجاهات الشيعية، وأن التعاليم الفارسية القديمة ومحاولة التأثير للكرامة الفارسية ظهرت في حركات الزنادقة والزيج والقرامطة وسنباذو المنع المروزي وبابك الخرمي وغيرهم ولا يوجد نظير لهذه الحركات الهدامة في الشام ومصر والشمال الإفريقي ...

الروم

كان اهتمام المسلمين بغزو الروم يفوق اهتمامهم بغزو فارس لأن شغب الروم على المسلمين سبق شغب الفرس . ولأن الشام ومصر وفلسطين دول محتلة ليست مخصصة للروم، وأمل المسلمون أن يجدوا من الأهلين بعض المساعدة لطرد هؤلاء المستعمرين القساة، وقد جمع أبو بكر جيوشاً عظيمة وجهها نحو الروم في فيالتي أربعة كبيرة يقردها :

١ - أبو عبيدة بن الجراح الذي لقبه الرسول بأمين الأمة ^(١) ويتجه لغزو حمص وله القيادة العامة .

٢ - يزيد بن أبي سفيان ويتجه لغزو دمشق .

٣ - شريح بن جهم ويتجه لغزو وادي الأردن .

٤ - عمرو بن العاص ويتجه لغزو فلسطين ^(٢) (انظر الخريطة رقم ٥). وكان تعداد الجيوش التي سيرت إلى الشام اثني عشر ألفاً ولكنها زبذت إلى أربعة وعشرين ألفاً ^(٣) .

(١) ابن الأثير الكامل ج ٢ ص ٢٢٠ .

(٢) اقرأ تفاسيل اختيار هؤلاء القادة وصايا أبي بكر له . في فتح الشام للواقدي

ص ٣ - ١٠ وأقرأ كذلك البلاذري : فتوح البلدان ص ١١٦ وهذيب الأسماء للزوي

القسم الثاني ج ١ - ١٨ .

(٣) فتح الشام وفتح البلدان .

وقد سارت هذه الجيوش كلٌّ في الاتجاه الذي حدّد له ، ولما علم الروم بخطّة العرب قسموا جندهم إلى أربعة أقسام كبيرة ليقاتلوا جيوش المسلمين الزاحفة ، وكانت حصون الروم قوية ساعدت على إضعاف تقدم المسلمين ، وقد استطاعت جيوش المسلمين أن تحرز نصراً ملحوظاً كالنصر الباهر الذي ناله عمرو بن العاص في المعارك التي قام بها على حدود فلسطين ، وهناك جيوش أخرى لم تستطع أن تحقق نصراً يذكر أمام الآلاف المحتشدة من جند الروم ، وأمام الحصون القوية التي تمطر وابلاً من المقذوفات التي سببت كثيراً من الخسائر للمسلمين .

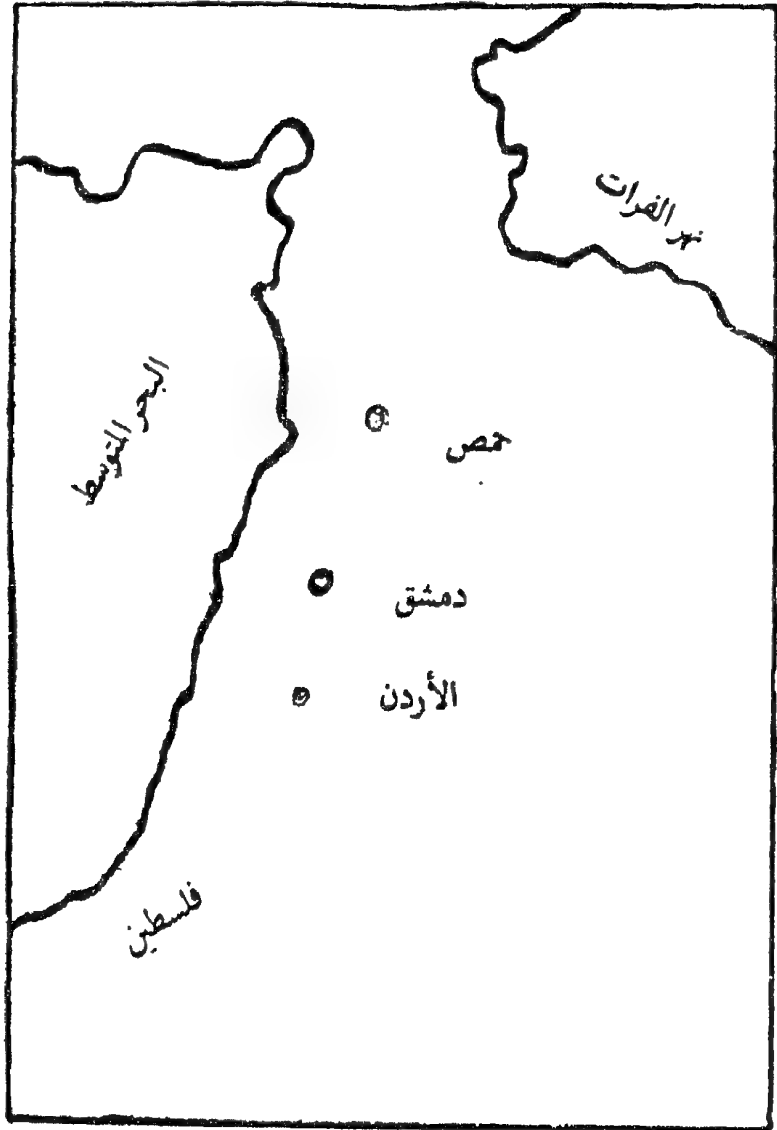
وهنا حصل تغيير في خطة المسلمين إذ وجدوا أن جيوش الروم كثيرة العدد والعدد ، وأن جيوش المسلمين لن تنال منها ما تريد ما دامت متفرقة إلى فيالق أربعة ، وعرف الخليفة أبو بكر ذلك فأنهى الأمر إلى :
أولاً - تتوحد جيوش المسلمين لمقابلة الروم .

ثانياً - يتجه خالد بن الوليد من العراق للشام ليساعد جيوش المسلمين ويتولى القيادة العامة (١) .

وبدأت الجيوش تقترب وتتجمع ، وبدأ خالد يقوم برحلته التاريخية متخطياً المفاوز والصحارى ، وقد رأى خالد أنه إن اتخذ الطريق العادى من فارس إلى الروم فإن أخباره ستصل إلى الروم ، وربما اعترضته جيوشهم وحالت بينه وبين جيوش المسلمين ، ولذلك كان عليه أن يقتحم الصعاب ، وأن يتخذ طريقاً غير مأهول ، وهو بذلك يبعد عن الآبار ومنابع الماء ، ويعرض نفسه وجيشه لمجازفة لا يقوم بها إلا الأبطال الموهوبون .

واتخذ خالد عدته لهذا العمل ، وحمل معه ما استطاع جملة من الماء ، ثم أتى بجبال فعطشها ، ولما اشتد بها العطش أطلقها على الماء فلأت منه أكراشها ، ثم ربط أفواهاها حتى لا تنجر ، وسار بجيشه الصغير الذي لم يصل إلى الألف ، وكان يعطى الماء لجنوده بقدر ، حتى إذا انتهى ماتحملة الإبل

(١) الواقدي : فتوح الشام - ١ ص ١٣ .



الخريطة رقم (٥)
اتجاهات الجيوش الإسلامية بالشام

من الماء ، عمد إلى الإبل التي اكتنز الماء بكروشها فذبح واحداً في كل مرحلة وأخذ مافي كروشها من ماء فانتفع به ، ويروى أن الماء قد نفذ ولم يصل الجيش بعد إلى عين ماء . فصاح خالد يرأئده واسمه رافع بن عمير ، ولكن الرائد طمأثهم أنهم على وشك أن يصلوا ، ولم تطل عليهم الشقة بعد ذلك حتى نزلوا بمنايع الماء ^(١) ، وفجأة ظهر خالد ببلاد الشام والتقى بجيوش المسلمين واستغرقت رحلته ثمانية عشر يوماً .

وقد دارت بين جيوش المسلمين وجيوش الروم مجموعة كبيرة من المعارك ولكن تسجيل هذه المعارك وتسجيل سير الفتوح هو موضع خلاف كبير بين المؤرخين كما سبق القول عن فتوح فارس ، فقد اختلفت بعض الأسماء وبعض الأحداث ومأحاول أن أختار أهم المعارك وأذكرها سلسلة بقلر فهمي لها .

أجنادين : وقعت موقعة أجنادين ^(٢) سنة ١٣ هـ وكان خالد بن الوليد قائداً لجيوش المسلمين التي بلغت حوالى ثلاثين ألفاً ، وكان تيودور أخو هرقل قائداً لجيوش الروم التي أربت على مائة ألف ، وكان جيش الروم كثير الأسلحة والعتاد ، أما جيش المسلمين فكان قليل الأسلحة اللهم إلا الروح المعنوية القوية والثقة الهائلة في نصر ميين ، ودارت رحى الحرب ، فغزمن جيش الروم أكثر من نصفه ، وأسرع الباقون بولون الأديار ، وكانت هزيمتهم صاعقة على هرقل الذي لم يتوقع مثل هذه الهزيمة الساحقة ، ولذلك ترك حصص وهرب منها إلى أنطاكية ^(٣) .

وهناك بيت من الشعر يجدر بي أن أقتبسه من البلاذري فهو قوى الدلالة على الرعب الذي ملأ نفوس الروم من بطش المسلمين ، وهذا البيت كان يردده بعض جند الروم من العرب وهم يشربون ويتغنون وهو :

(١) الواقدي : فتوح البلدان ١ : ١٤ وانظر كذلك البلاذري ص ١١٨

(٢) انظرها في تهذيب الأسماء للنوى ج ١ ص ١٧ .

(٣) البلاذري ١٢٠ - ١٢١ .

ألا عللاًني قبل جيش أبي بكر لعل منا يانا قريبيذ ولا ندرى^(١)

دمشق : أما المعركة الثانية الحاسمة في بلاد الشام فكانت حول دمشق ، وقد أحاط المسلمون بالمدينة الباسمة وبالغوطة بالجميلة ، وتحصن الروم بالمدينة وأغلقت أبوابها ، ووقف خالد بمنجوده على الباب الشرقي ، ونزل أبو عبيدة على باب الجابية ، وعمر بن العاص على باب توما ، وشرحبيل على باب الفراديس ويزيد بن أبي سفيان على الباب الصغير ، وقد دارت مناوشات بين المهاجمين والمدافعين ، كما دارت اتصالات بين المسلمين وبعض الأساقفة بالمدينة المحاصرة ودخل المسلمون دمشق من ناحيتين : دخلها أبو عبيدة من الباب الشرقي قسراً ودخلها أبو عبيدة من باب الجابية سلماً على أصح الروايات^(٢) وكان ذلك سنة ١٤ هـ .

والذي نميل له أن أمير المسلمين وقت حصار دمشق كان أبا عبيدة ، أما خالد فكان عمر قد عزله قبل ذلك في أذيال معركة أجنادين ، عقب وفاة أبي بكر وتولية عمر الخلافة ، ومما يذكر بالفخر والإعجاب لسيف الله المسلول خالد بن الوليد أنه تلقى خبر عزله برضاً وقبول مع أنه كان في أوج النصر ، وأنه استمر يحارب في جلد وإخلاص تحت إمرة القائد الجديد ، وقد سبق أن وقف أبو عبيدة نفس الموقف الرائع عندما طلب منه أبو بكر أن يسلم القيادة العامة لخالد ، إنها في الحقيقة نماذج إسلامية رائعة ستظل ذكرها عاطرة على مر السنين .

وقد وضح عمر سبب عزل خالد وعزل المثني بن حارثة بقوله : إني لم أعزلها عن ريبة ، ولكن للناس عظموهم فخشيت أن يفتنوا بهما . ويرى ابن الأثير^(٣) أن غضب عمر سببه أن خالداً أبد إسناد الخلافة لعل ابن أبي طالب عقب وفاة الرسول ، ويرى بعض المؤرخين أن عزل خالد وتولية أبي عبيدة كان براعة سياسة من عمر ، فإن أبا عبيدة كان أكثر

(١) المرجع السابق ١١٨ .

(٢) الواقدي : ص ٤٦ - ٥٠ والبلاذري ١٢٧ - ١٢٨ .

(٣) الكامل في التاريخ ٣٠٦٦ .

قدرة على المسالمة والإدارة من خالده الذي كانت مقدرته أبرز في شئون الحرب وميادين القتال^(١)

اليرموك : وأعد هرقل العدة إلى لقاء فاصل جمع فيه كل قواه ، مصمماً على الانتصار على المسلمين أو البأس عند الهزيمة ، وقد بلغت جموعه مائتي ألف جندي وتبالغ بعض الروايات العربية فتصل بالرقم إلى مليون أو مليون ونصف ، وقاد الجيش جبلة بن الأيهم آخر ملوك الفساسنة والقائد الأرمني ماهان ، وكان جيش المسلمين حوالى أربعة وعشرين ألفاً يقوده أبو عبيدة ، ودارت معركة عنيفة بالقرب من نهر اليرموك ، واستعداداً لهذه المعركة أخلى العرب دمشق وحمص وغيرها ، وتراجعوا لتكوين المعركة على حافة الصحراء ، إذ أن العرب أقدر على المعارك في مثل هذه البقاع^(٢).

وتسلت الروم وأتباعهم لئلا يطعموا أنفسهم في الحرب ، وقد درأت الدائرة عليهم وفرّ منهم حوالى سبعين ألفاً ، وتشتت الباقيون إلى مختلف النواحي ، وكانت نساء المسلمين يخضن المعركة مع الرجال .

ولما بلغ هرقل هزيمة جنده فرّ من أنطاكية إلى القسطنطينية ، ويروى أنه ودع سوريا وداعاً حزيناً فقال : السلام عليك يا سورية ، سلام مودع لا يرجو اللقاء^(٣) .

تلك هي المواقف الحاسمة التي حدثت في الشام بين المسلمين وبين الروم وخاضتها جيوش المسلمين مجتمعة تحت قيادة واحدة ، ويجدر بنا أن نوضح أن الجيوش الإسلامية كانت تفترق بعد كل انتصار فتتجه اتجاهات مختلفة ، وكان لكل منها يحرز انتصارات ملبية^(٤) . ثم تجتمع كل الجيوش الإسلامية مرة أخرى للقائات الجيوش المتكسرة التي كان هرقل يعدّها كما سبق .

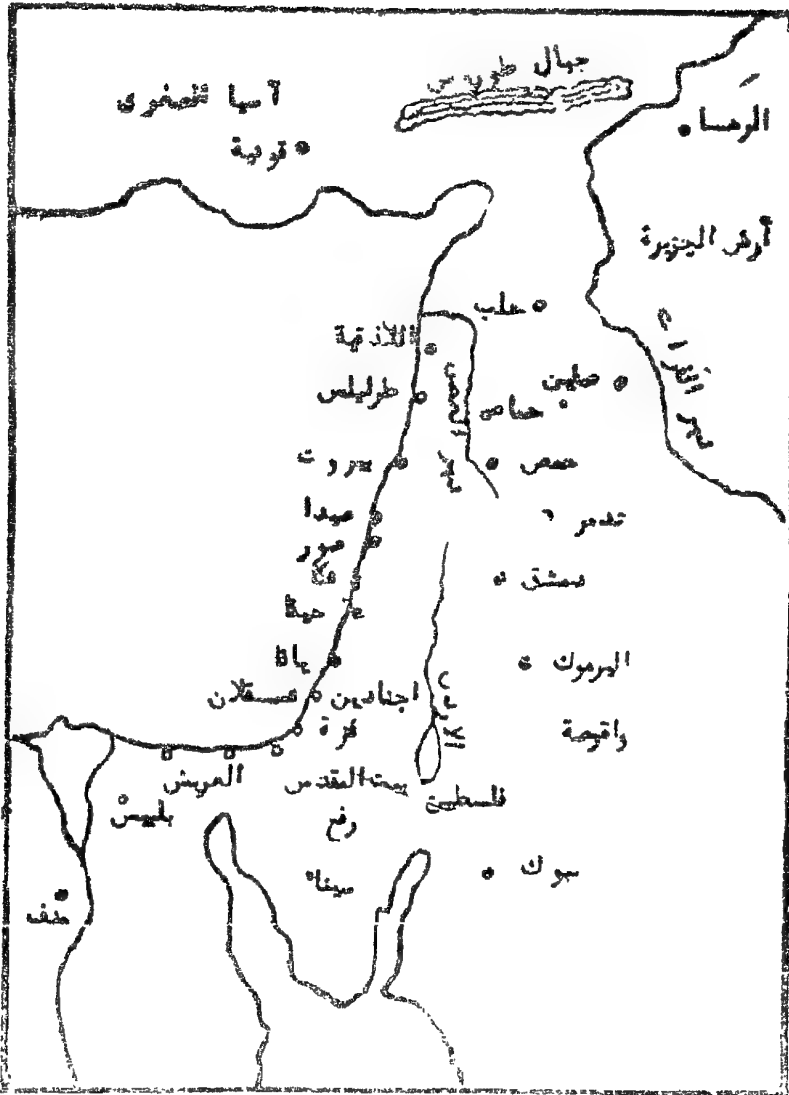
وبعد موقعة اليرموك انقسم جيش المسلمين قسمين اتجه قسم إلى الشمال

(١) فيليب حتى : تاريخ سوريا ص ١٥ .

(٢) المرجع السابق ص ١١ .

(٣) الوائلي . فتوح الشام ص ٩٦ وما بعدها والبلاذرى . فتوح البلدان ١٤٠ - ١٤٢ .

(٤) البلاذرى ص ٢٢ .



(الخريطة رقم ٦)
الفتح الإسلامي للشام

بقيادة أبي عبيدة ومعه خالد بن الوليد ، واتجه قسم آخر إلى الجنوب بقيادة عمرو بن العاص وشرجيل ، وبقي يزيد بن أبي سفيان في منطقة دمشق - وكان قد أرسل قبل ذلك لها - ليحمي ماحقه المسلمون من انتصارات بها .

وقد استطاع أبو عبيدة وخالد أن يستوليا على حصن وحماة وقنسرين واللاذقية وحلب ، واستطاع عمرو بن العاص وشرجيل أن يستوليا على عكا وحيفا ويافا وغزة وغيرها (١) .

ولم يبق أمام المسلمين إلا بيت المقدس ، وقد دافع عنه الروم دفاعاً شديداً أنزل كثيراً من الخسائر بجنود المسلمين ، ولكن جنود المسلمين صبروا ولعبت السياسة دورها فقد أقبل المسلمون بالمسيحيين بيت المقدس ، وكان المسيحيون يعانون المتاعب من حكم الروم ، كما كان المسلمون يعظمون بيت المقدس ولا يريدون مواصلة الضحايا من الجانبين ، وأحسن أرطبون قائد الروم هذه المناورات تدور حوله فهرب إلى بصرى ، وطلب المسيحيون الصلح على أن يحضر الخليفة بنفسه لتسلم المدينة ويتعهد لسكانها بالحرية الدينية فكتب عمرو إلى عمر بذلك فحضر عمر وكتب بنفسه كتاب الأمان (٢) المسمى « العهد العبري » .

واتجه عمرو بعد ذلك لمقابلة قسطنطين بن هرقل عند قيسارية ، ولكن عوامل الذعر كانت قد استولت على الأمير الشاب فهرب تاركاً جيشه ، وسافر إلى القسطنطينية في ظلام الليل ، كما هرب أبوه من قبل من أنطاكية إلى القسطنطينية على أثر هزائم الروم في اليرموك .

لقد بذل المسلمون آلاف الضحايا في حروبهم ضد الروم في سوريا وفلسطين ، فأصبحت هذه الديار بذلك غالية عليهم . فكم لهم بها من أرواح أزهقت ودماء أريق .

(١) انظر تفاصيل فتح هذه المدن في الواقدي ج ١ ص ٦٣ ، ٦٥ ، ٨٥٥ ، و ج ٢

ص ٩ ، ١٦ .

(٢) الواقدي : فتح الشام ص ١١١ وما بعدها والبلاذري : فتوح البلدان ص ١١١٠

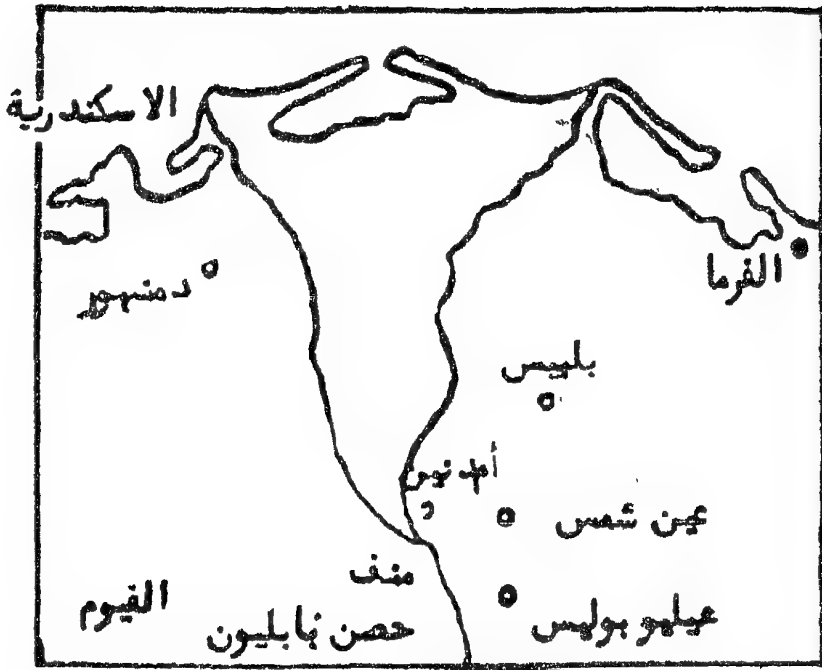
مصر : ليس بين مصر وفلسطين حدود طبيعية ، فإلى أين يقف عمرو . ابن العاص في زحفة نحو الجنوب ؟ وفي مصر كما كان في فلسطين وسوريا جيش الروم ، ولن يحس المسلمون بالاستقرار في سوريا وفلسطين وهناك جيش كبير على مقربة منهم يتبع علومم الخائق عليهم . ومن هنا كان الزحف إلى مصر طبيعياً ، وكانت مصر تعاني ما عانتها سوريا وفلسطين من تعسف الروم وظلمهم وطغيانهم ، ثم كانت مصر كالعهد بها دائماً غنية ، درة الشرق ، وأرضها خصبة ، ونيلها الخالد ينساب بالخير وعلى جانبيه تمتد الرياض والمزارع الفينانة ، ولمصر سيرتها المحيدة التي تضرب آلاف السنين في أعماق التاريخ ، والاستيلاء على مصر إنما هو ضمان لاستقرار الإسلام في كل هذه البقاع بآسيا وإفريقية التي آذنت بالتححرر من سلطة دولة الروم .

ففتح مصر إذاً كان عملاً طبيعياً ؛ وبدونه ما كانت جيوش المسلمين بفلسطين تنعم بأمن أو استقرار ، ومن هنا لا مجال - فيما أعتقد - لتصديق الروايات التي تثير خلافاً بين الخليفة وبين قائده عمرو بن العاص حول الزحف على مصر^(١) ؛ وما كانت هذه المعارك الضخمة تنشب في جو من التردد كالذي تصوره هذه الروايات : وما كان عمرو بن العاص بمستطيع أن يقف من الخليفة العظيم عمر بن الخطاب هذا الموقف الذي تحاول هذه الروايات أن تثبته ، وقد أورد الواقدي ما يقطع هذه الشكوك فقال : أرسل عمر بن الخطاب كتاباً إلى أبي عبيدة يقول فيه « وإذا قرأت كتابي هذا فأمر عمرو ابن العاص أن يترجعه إلى مصر بعسكره ... »^(٢) .

وعلى هذا يبدو أن الرأي كان قد استقر بين الخليفة والقائد على فتح مصر ، فسار عمرو مخترباً صحراء سيناء حتى وصل إلى العريش فآثر أن يمر عليها دون مقاومة تذكر ، ثم سار حتى وصل الفرما وقد حاصرها بجيشه أكثر من شهر ، ولعب المصريون دوراً هاماً في مساعدة المسلمين ضد الروم حتى سقطت الفرما في يد المسلمين سنة ١٩ هـ (انظر الخريطة رقم ٧) .

(١) انظر بعض هذه الروايات في ابن عبد الحكم ص ٥٣ وما بعدها وفي البلاذري

(٢) الواقدي : فتوح الشام - ١ ص ٢٢ .



وتقدم المسلمون إلى بلبس ، وكان بها جيش كبير يقوده أرتوبون الذى فر من بيت المقدس ، وقد دار قتال كبير حول بلبس استمر مدة شهر قضى فيه المسلمون على قوة الروم وتسلموا المدينة ، ويقال إنه كان بها ابنة المقوقس وهو الحاكم المصرى الذى عينه قيصر الروم ليحكم البلاد باسمه ، ولما استولى عمرو على بلبس أكرم ابنة المقوقس وأرسلها معززة مكرمة إلى أبيها ، وكانت تلك سيامة رشيدة ساعدت على تقوية العلاقة بين العرب والمصريين .

وسار جيش المسلمين إلى أم دنين (المقس) ، ودار حوله قتال عنيف لم يستطع المسلمون الفوز فيه ، فأرسل عمرو يطلب عوناً من الخليفة فأرسل له الخليفة أربعة آلاف فيهم الزبير وعبادة بن الصامت والمقداد بن الأسود ، وكتب له بقوله « قد أمددتك بأربعة آلاف فيهم رجال الواحد منهم بألف رجل » والتقى جيش المسلمين بجيش الروم وكان تعداده عشرين ألفاً يقوده قائد عظيم اسمه « تيودور » وجرت المعركة عند عين شمس وقد هزم فيها جيش الروم هزيمة منكورة بسبب التقسيم الرائع الذى اقترحه عمرو ، إذ قسم جيشه ثلاثة أقسام كبيرة قابل الروم بقسم منها ، وفى أثناء المعركة هجم القسم الثانى من جهة وهجم القسم الثالث من الجهة المقابلة فحوصر جيش الروم واختل نظامه وكثرت الضحايا ، وفر منه من فر إلى حصن بابلون .

حصن بابلون : ودخلت سنة ٢٠ هـ . وكانت أهم معركة يستعد لها الطرفان هى معركة حصن بابلون : وقد حاصره المسلمون حصاراً طويلاً امتد ستة شهور : ثم بدأت المفاوضات للصلح فأرسل المقوقس وفداً يتحدث باسمه إلى عمرو : فاستبقي عمرو الوفد يومين ليتعرفوا على أحوال المسلمين ، ثم طلب منهم أن ينقلوا للمقوقس أن يختار بين :

١ - الإسلام وبذلك يكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين .

٢ - الجزية نظير الحماية ونظير الاستمتاع بمرافق الدواة من شرطة وقضاء وغيرها .

٣ - الحرب .

وعاد رسل المقوقس إليه لانهذه الثلاثة فقط ، بل بوصف حجب الإسلام إلى المصريين . قالوا ؛ رأينا قوماً الموت أحب إليهم من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من الرفعة ، ليس لأحد منهم في الدنيا رغبة ولا تهمة ؛ جلوسهم على التراب ، وأميرهم كواحد منهم . ما يعرف كبيرهم من وضعهم ، ولا السيد فيهم من العبد . وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحد ، ينسلون أطرافهم بالماء ويخشعون في صلاتهم .

ورأى المقوقس ضرورة الصلح مع هؤلاء . فمقده على الجزية . فهي أقل كثيراً مما يأخذه الروم من المصريين ، ولم يوافق هرقل على هذا الصلح ولكن المقوقس أمضاه .

الإسكندرية: لم يبق أمام المسلمين بعد حصن بابليون من المواقع المهمة بمصر إلا الإسكندرية وكانت عاصمة الديار المصرية ، وقد سار إليها المسلمون وفتحوا في الطريق إليها ما قابلهم من حصون ، وكانت الإسكندرية منيعة متصلة بالبحر ، ويأتى إليها المدد من القسطنطينية عن طريق البحر ، وبها أكبر حامية للروم بمصر ، وقد كانت هذه الظروف سبباً في طول إقامة المسلمين حول الإسكندرية حتى ضعف الأمل في فتحها ، وقد أحسن الخليفة عمر بذلك فكتب لعمر وكتاباً شديداً يلومه فيه ويلوم المسلمين على ترددهم ، ويدكرهم أنهم إن لم يفتحوا الإسكندرية فإن حياتهم معرضة لخطر هجوم قوى من الروم يقضى عليهم بعد أن تضعف روحهم المعنوية ، ولما تسلم عمرو الكتاب قرأه على المسلمين ، فعقدوا العزم على العمل بإصرار وأمل ، وقاموا بحملة قوية على العاصمة أضعفت أمامهم قوى الروم ، وتمكنوا من التسلل إلى داخل الأسوار ، وأعملوا القتل والذعر في نفوس الجنود فهرب هؤلاء إلى سفنهم بالبحر ، وأسر منهم عدد كبير ، وتقدم المقوقس مرة أخرى فأجرى الصلح مع المسلمين سنة ٢١ هـ على شروط أهمها :

١ - الجزية . ٢ - حرية العبادة .

٣ - أن ترحل حامية الروم وأن يبقى مع المسلمين رهينة منهم حتى لا يهاجموا مصر مرة أخرى^(١) .

وأصبحت مصر تابعة للخلافة الإسلامية .

(١) الواقدي : فتح الشام ج ٢ ص ٤٥ وما بعدها .

الغالبون والمغلوبون :

هل كان الفتح الإسلامى انتصاراً للعرب وهزيمة للسوريين والمصريين ؟
لعل أدق إجابة هى تلك التى يذكرها الدكتور حنّى فى كتابه « تاريخ
العرب » (١) وهى : « كان السوريون والمصريون يعتبرون العرب الفاتحين قوماً
من بنى جنسهم يربطهم بهم ما لا يربطهم بأولئك الحكام السابقين الذين كانوا
من الأجانب الغاصبين ، فالفتوحات الإسلامية من هذه الوجهة هى عند
المتحقيق انقلاب اجتماعى سياسى استرد به الشرق الأدنى مجده السامى الغابر ،
فقد جاء الإسلام مهيباً بالشرق إلى النهوض من كبوته بعد ألف سنة اجتاحته
فيها سطوة الغريب ، فاستطاع الشرق بالإسلام أن يسترجع ماضيه لا فى
ميدان السياسة فحسب بل فى ميدان الثقافة أيضاً حيث تمنى له أن يعيد
قيادته الفكرية . »

ويمكن القول إن الفرس والعراقيين والمصريين والسوريين رأوا فى
الإسلام متغصناً وسماحةً أنقذتهم من الطغيان والإكراه والاستغلال التى
عاشوا تحت ضغطها مدة طويلة ، لقد ضمن الإسلام لهم حرية الأديان وأعفاهم
من الأعمال العسكرية نظير دفع جزية ضئيلة إلا من شاء أن يدخل صفوف
المدافعين عن البلاد فله أن يدخل ويعفى من الجزية مع بقاءه على دينه ، وترك
المسلمون الأرض للمصريين والسوريين والعراقيين على أن يدفعواخراجها
وهو أقل بكثير مما كان يأخذه الأكاسرة والقباصرة الذين كانوا يعتبرون
أنفسهم ملاكاً للأرض ولرفيق الأرض ، وأمن المسلمون الأهلين على أموالهم
ونسائهم وأولادهم ، « ورأى الأهلون فى المسلمين المساواة التى كانوا لا يحلمون
بها ، وقام المسلمون بكثير من الإصلاحات التى تنهض بالقضاء والشرطة
والطرق والرئ والمهندسة والجسور ، وكان القانون الإسلامى يسرى على المسلمين
أما غير المسلمين فقد ترك القمصل فى شؤونهم القانون المدنى الذى كان

معمولاً به قبل الفتح ، ووضع أمر تنفيذه في يد رؤسائهم الدينيين ، وهذا هو منشأ استقلال الطوائف الدينية بشئونها المالية ، ذلك النظام الذي ظل سائداً في البلاد الإسلامية إلى وقت انهيار الدولة العثمانية ، والذي لا يزال معمولاً به في الشئون المالية في معظم ممالك الشرق الأوسط التي لم يوحّد فيها القضاء بمجمله مدنياً بحثاً لا دخل فيه للشريعة^(١) .

وفي الوقت نفسه قام الدعاة والفقهاء يتحدثون عن الإسلام وأخلاقه ومبادئه فلا عجب أن أقبل أهل هذه البلاد على الإسلام يعتقونه ويدنسون به ، فأخذ الإسلام ينتشر رويداً رويداً ، وأخذت اللغة العربية أيضاً تنتشر ، وبما ساعد على انتشارها نزوح كثيرين من العرب الرحل من البادية وانخراطهم في غمار حياة الاستقرار بالمدن الغنية المزدهرة^(٢) حتى كان رجال الكنيسة القبطية في القرن العاشر يضعون كتاباتهم باللغة العربية لكي يفهمها أتباعهم^(٣) .

عمر باني الدولة الإسلامية :

كانت مهمة الرسول العظمى هي تبليغ الرسالة ، وتعليم المسلمين ما فيه خير دينهم ودنياهم ، وقد قام الرسول صلوات الله عليه بتبليغ الرسالة خير قيام ، وكذلك علّم الناس ما فيه صلاح دينهم ودنياهم ، ووضع للمسلمين أسس حياة سامية ، وحلّ كل المشكلات التي بدت لهم في عهده .

(١) Kirk : A Short History of the Middle East p. 29.

(٢) يرى الدكتور فيليب حتى (تاريخ العرب ١ : ١٥ - ١٤) أن البريزة العربية هي مهد الساميين وأن هذه الهجرة التي أشرنا إليها هي آخر هجرات الجنس السامي إلى الهلال الخصيب ومصر وشمال إفريقيا ، وقبل هذه الهجرة جاءت موجات من الهجرات من الجزيرة العربية حيث اختلط المهاجرون الساميون بالعناصر الأصلية بالبلاد التي هاجروا إليها ، وقد بدأ هذه الهجرات قبل الميلاد بمدة آلاف من السنين وتكررت كلها ضاقت الجزيرة العربية بسكانها ، وقد كان الفراغ القدام نتيجة الامتزاج بين الساميين والحاميين ، وكان البابليون نتيجة امتزاج الساميين بالسومريين . وكان الفينيقيون نتيجة الامتزاج بين الساميين والسكان الأصليين بساحل الشام هذا ويرجع من جهة أخرى أن هجرات كبيرة جاءت إلى الجزيرة العربية من أواسط أفريقيا عبر باب العندب .

(٣) تاريخ الطبري ج ٦ ص ٢٧٧ والكامل للمبرد ج ٢ ص ٤٨٨ .

ولكن الإسلام لم يتجاوز جزيرة العرب في حياة الرسول ، وحياة العرب بطبيعتها سهلة بسيطة ، فلما امتد الإسلام إلى الشام ومصر والفرس ، واتصل الإسلام بمحضارات هذه البلاد ، قابل الإسلام ظروفاً جديدة ، وظهرت مشكلات لم يكن للمسلمين بها عهد ، ولم تتضح هذه المشكلات بطبيعة الحال في عهد أبي بكر ، فقد كان عهده قصيراً ومات رضى الله عنه والنصر لم يكتمل في الحروب الدائرة بين المسلمين وبين الفرس والروم ، بل إنه قد مات والحروب مع هؤلاء في مطلعها ، ومن ثم فنبأ المشكلات الجديدة وقع على عاتق الخليفة العظيم عمر بن الخطاب .

وكان عمر ملهماً ، فوفق أجل توفيق في الاستجابة للحياة الجديدة وفي بناء الدولة الإسلامية ، فهو الذي دوّن الدواوين^(١) . وأنشأ بيت المال ، وصك النقود ، وكون جيشاً محترفاً لحماية الحدود ، ونظم المرتبات ، وعين الولاة والقضاة ، ورتب البريد ، وأنشأ نظام الحسبة ، وثبت الهجرة لتكون مبدأ للتاريخ عند المسلمين ، بحيث لا يترك التأريخ بها إلى أى حادث آخر قد يجرى ، وقد شرحنا ذلك عند الحديث عن الهجرة .

ولم يكتف عمر باقتراح ما دعت له الضرورة من نظم ، بل عدل فيما وُضِع من قبل عندما ظهرت ضرورة التعديل ، فهو الذى قرر أن تبقى الأرض المفتوحة في أيدي أصحابها واقترح لذلك نظام الخراج ، وكان المفروض أن يستولى المحاربون على ما فتحوه عنوة ، وهو الذى أعاد النظر في إعطاء المؤلفة قلوبهم ، ووضع شروطاً لمن يستحق هذا العطاء ، وغير ذلك من الأشياء^(٢) .

لقد ملأ محمد الدنيا نورا بدين الإسلام ، وأوشك هذا النور أن يخبو بعد وفاته في خضم الأحداث العاتية ، فحفظته همة أبي بكر ، ثم جاء عمر فزين البناء الشامخ وأمد به بأروع النظم وأحسنها ، ولا زال العالم الإسلامى يعيش حتى اليوم وأعظم النور الذى يستمتع به مصدره الرسول الكريم وصاحبه العظيمان .

(١) Kirk : A Short History of the Middle East p 37

ومن انتشار الدين الإسلامى واللغة العربية بين السكان الأصليين بسوريا ومصر أعطينا تفاصيل وافية في الجزء الخامس من هذه الموسوعة .

(٢) انظر « الاقتصاد في التفكير الإسلامى » المؤلف .

كلمة عن البريد :

ذكرنا آنفاً أن من أبرز أعمال عمر أنه مرتب البريد ، ونريد أن نعطي هنا مزيداً من التفصيل عن هذا الموضوع .

والبريد أهم لمسافة محددة هي اثنا عشر ميلاً ، ثم أطلق اللفظ على من يحمل الرسائل ويسير بها هذه المسافة ليسلمها إلى آخر يسير بها مسافة أخرى مماثلة وهكذا ، ثم أطلق اللفظ أخيراً على الرسائل نفسها ، وقد عرف البريد عند المسلمين منذ اتساع الدولة الإسلامية في مطلع عهد الخلفاء الراشدين ، واشتهر أمر البريد في خلافة عمر بن الخطاب ، بسبب اتساع الدولة وضرورة الصلة بين الخليفة وبين قواده وعماله عن طريق البريد ، ولم يكن البريد في عهد عمر خاصاً بأعمال الحكومة ، بل إن عمر كان يأمر منادياً ينادى في الناس بأن بريد المسلمين يريد أن يخرج إلى ناحية كذا فمن كانت له حاجة فليكتب . وكان عمر نفسه يتولى الكتابة أحياناً لمن لا يعرفون الكتابة ويريدون أن يكتبوا لذوهم المجاهدين^(١) .

وعلى هذا كان بريد المسلمين يشمل رسائل من الخليفة إلى عماله وإلى رؤساء جند المسلمين ، كما كان يحمل الرسائل من الناس إلى ذويهم بالميدان . وفي عهد معاوية رُتب البريد ترتيباً أدق ، وأصبحت له مناهج وطرق ومواعيد منتظمة ، ومحطات محددة ، وفي عهد الدولة العباسية بلغت محطات البريد نحو ألف محطة تربط العاصمة بمختلف النواحي ، وعين لكل محطة رئيس للملاحظة سير السعاة والخيالة وحالة المحطات وكان جميع هؤلاء الرؤساء يقدمون تقاريراتهم عن كل ما يحدث في الخطوط إلى إدارة البريد العامة بالعاصمة التي كانت تعرض الأمر على الخليفة دون تأخير . وأصبح البريد يخدم أغراض الخلافة برجه خاص ، وكان الخليفة يعين عامل البريد من أقرب المتصلين به ، كما كان عامل البريد يدخل على الخليفة دون حجاب . وقد استعمل العرب في أول الأمر الإبل لنقل البريد ، ثم استبدلوا بها البغال ثم الخيل لسرعتها ، وكانت الخيول تقف في كل محطة مستعدة لتلقى

(١) انظر كتاب الاعتماد في التفكير الإسلامي ، للمؤلف .

الرسائل من المحطة السابقة ، وتوصيلها للمحطة التالية وهكذا . وكانت شبكة البريد تغطي المملكة الإسلامية كلها ، وتوثق الصلات بين أجزائها .

عين عمر :

يخس كثير من الغربيين بالدهشة إذ استطاع عمر أن يسيطر على العالم الإسلامي مع اتساعه في عهد المواصلات البدائية ، والإجابة سهلة ، فقد كان عمر يهتم اهتماماً كبيراً باختيار ولاته ، ويراقبهم بوسائل مختلفة بعد الاختيار ، حتى يتمكن القول بأن عيّن عمر كانت في كل مكان .

مقاتل عمر وعثمان وعلى :

إن بين مقتل عمر وعثمان وعلى رباطاً قوياً : ومن هنا فإني أؤثر أن أتكلم عن مقاتلهم في مكان واحد .

وسأتكلم هنا بالفكر الجديد الذي أملته على دراساتى في كتابي الأخير : « حركات فارسية لضرب الإسلام والمسلمين عَبرَ العصور » فالدراسات التي وضعتها هذا الكتاب - معتمدة على أدق المصادر - تؤكد أن حركات نبئت في بلاد فارس فور انتصار المسلمين على الفرس في المعارك العسكرية ، فلقد كان سقوط فارس بسرعة عملاً مذهلاً ، أبرز انهيار هذه الدولة التي كانت قد استنفدت قوتها بسبب فساد مجتمعها الذي عششت فيه الماوية والمزدكية والطبقية التي وصلت إلى اعتبار الملوك آلهة لهم حقوق إلهية مقلسة .

وفي هذا الجو كان اليهود الذين استوطنوا فارس منذ أن أطلقهم « قورش » من سجن بابل ، ينشرون الفوضى الأخلاقية ، ويعملون على أن يكسبوا الأموال بأي طريق .

وانتصر المسلمون انتصاراً سريعاً على جيوش الفرس الجرارة ، واستولوا على الأماكن الشاسعة التي كان الفرس قد مدّوا سلطانهم لها ، ووقف الفرس حيارى لا يستطيعون مقابلة القوة بالقوة ، فلجئوا إلى المؤامرات والثورات ، وكان عدوهم الأول هو عمر بن الخطاب الذي أعدّ الجيوش لاقتحام فارس وأعدّ الخطط التي تكفل النصر .

هل يقيمون بثورة في عهد عمر كالثورات التي قاموا بها في عهد عثمان وعلى ، وكالثورات العسكرية والفكرية التي قامت بها جماعات منهم فيما بعد كالقرامطة والزنادة والباطنية وغيرهم ؟

الإجابة يوضحها لنا خالد بن الوليد ، فعندما عزل عمرُ خالداً من قيادة الجيش غضب خالد وقال لمن حوله : إن أمير المؤمنين استعملني على الشام ، فلما استقر الأمر وأصبحت الحال حنطة وعسلا عزلني وولى غيري . فنهض رجل من السامعين وصاح : مهلاً يا خالد فإن كلمتك تنير الفتنة . فقال خالد : لا فتنة وعمر بن الخطاب حي .

نعم لم يكن من الممكن أن تقوم فتنة أو ثورة في عهد عمر ، فقد كان معروفاً بالعزم والحزم ، وأنه يضرب بقوة كل من يحاول أن يحدث أية فتنة أو يوحى بأية ثورة في عهده .

وعلى هذا كان الطريق لقتل عمر هو أن تدبّر مؤامرة سرّية في الظلام ، يقوم بها مجموعة من الفرس الحانقين ، وفي مقدمتهم أبو لؤلؤة الذي كان من أشد الفرس تعصباً لقومه ، وكان كلما مرّ به صبي فارسي مسح رأسه بيديه وقال : أكل كبدي عمر ، واشترك أبو لؤلؤة والهرمزان وهو سيد من سادة الفرس فقد سلطانه ، وجفينة وهو فارسي حائق ، في التدبير لهذه الجريمة ولإعداد السلاح لها كما سرى بعد قليل ، ونفذها أبو لؤلؤة .

والعجيب أن الخديعة وصفت أبا لؤلؤة بأنه « المجرم » ولم تصفه بأنه « الفارسي » وكان يقصد بذلك إلقاء الظلام والضباب على هذا الحادث حتى لا تنتشر حقيقة الدور الفارسي في هذه الجريمة .

وهكذا قتل عمر بهذه المؤامرة السرية :

وجاء دور عثمان وعلى ، والخليفةان بعيدان كل البعد عن نهج عمر ، فعثمان يكره الدم وبمبل للين والدعة حتى في الظروف التي تستوجب الحزم والقوة ، وقد أشار المغيرة بن شعبه عليه أن يقتل المتبردين ، فقال : لا والله لا أكون أول من يخلف الرسول في أمته بسفك الدماء ، وما أحب أن ألقى الله وفي عنقي قطرة دم لأحد .

وعرض عليه معاوية أن يحرسه بجيش من أهل الشام فقال : لا ،
إنهم سيشاركون أهل المدينة طعامهم ، وسيزحمون المدينة على المهاجرين
والأنصار .

وعلى رضى الله عنه من هذا النوع ، فقد ظهر له أن الأشعث بن
قيس منافق وأنه معا في الظاهر . ولكنه على صلة بأعدائه ، ومع هذا
رفض أن يقتله ، وكان يقول لولائه : إياكم وسفك الدماء فإن أول ما
يسأل عنه المرء عند ربه ما سفك من دماء ،

وهكذا سمحت أخلاق عثمان وعلى للمتمردين بإعلان ثوراتهم غير
خافين على أنفسهم ، وخدعوا بعض المسلمين فجذبوهم لصفوفهم كأبي
ذر الغفاري الذي كان يكره المال ويدين الأغنياء .

وهكذا قامت الثورات الفارسية متخذة هذا الطريق أو ذاك متعللة
بسبب أو بآخر ، فاشتدت الثورات وهي آمنة في عهد عثمان حتى راح
ضحية لها ، واستمرت في عهد على حتى قضت عليه يدُ نسبها المؤرخون
للخوارج ولكنها في الحق مدفوعة بدافع فارسي كان يرمى للفتك بزعماء
العصر : على ومعاوية وعمرو بن العاص ولكن الله سلم الأخيرين .

ذلك هو المعنى الذي أريد أن أوضحه ، مؤامرة فارسية تؤيدها الأصابع
اليهودية قتلت عمر ، ثم ثورات خطط لها الفرس واليهود وقادوها ووجهوها
وخدعوا بعض الأبرياء فجذبوهم لها ، فقتلت عثمان وعلياً وآلافاً غيرهما في
عهد على ، ثم انطلقت المؤامرات الفارسية على نطاق واسع باسم الشعوبية
والباطنية والزنادقة والخرمية والقرامطة والدرزية والبايعة والبهائية فقتلت
الملايين من المسلمين ولا تزال تقتل وتضرب ، حتى اليوم بصيحة الحميني .

تلك هي الأسباب الحقيقية لمقاتل الحلفاء الثلاثة ، أما الدراسات التقليدية
فإليك حديثها عن عمر ، وسيجيء فيما بعد حديثها عن عثمان وعلى رحمهم
الله واقتصر من أبحاثهم .

مقتل عمر :

قتل عمر بن الخطاب في مؤامرة دبرها بعض أعداء الإسلام من الفرس واليهود ونفذها أبو لؤلؤة ، وهو مولى فارسي أسر في نهاوند وأصبح ملكاً للمغيرة بن شعبة ، ومن الواضح أن عمر أزال ملك الفرس وقضى على سلطانهم ، ولهذا كانت الطبقة العليا من الفرس هي وأتباعها تحقد على عمر وتتمنى الخلاص منه ، وقد تسلل القاتل إلى المسجد وعمر يبدأ في صلاة الفجر ولم ينتشر الضوء بعد ، فطمع الخليفة فخنجر عدة طعنات إحداها تحت سترته فخرقت أمعاءه ، وصاح عمر ، فأقبل المسلمون يقبضون على القاتل ، فأنهال عليهم طعنات حتى قتل وجرح عددا منهم ، ثم استطاعوا القبض عليه فطمع نفسه وانتحر .

ومات الخليفة العظيم بعد ذلك ببضعة أيام تاركا أعظم الذكريات ، ومخلّفا سيرة من أعظم السير الي يرويها التاريخ .

وكاد سر الجريمة ينطوى بموت القاتل ، ولكن شعاعا من الضوء ظهر فأوضح المؤامرة ، فقد ذكر عبد الرحمن بن أبي بكر أنه رأى في اليوم السابق اطمعن عمر ثلاثة يتهامون هم الهرمزان وهو سيد من سادة الفرس ، فقد سلطاته ومكانته وأصبح يعيش بين عامة الناس بعد أن فقد الأمل في استرجاع نفوذه ، وجفينة وكان نصرانيا من أهل الحيرة يعلم الكتابة بالمدينة وأبو لؤلؤة . ويقول عبد الرحمن إن المتآمرين فوجئوا به فار تبكوا وسقط منهم خنجر له رأسان ، ولما رأى عبد الرحمن الخنجر الذي طعن به عمر قرر أنه نفس الخنجر الذي رآه أمس . وكان ذلك صبيبا في أن عبيد الله بن عمر حمل سيفه بعد موت أبيه وقتل الهرمزان وجفينة وابنة صغيرة لأبي لؤلؤة^(١) . وسأيت فيما بعد شرح موقف المسلمين من عبيد الله الذي حملته الحماسة أو قل الرعونة للفتك بالناس ، فالقصص - على فرض ثبوت الجريمة - يتم بحكم المقضاء وبأمر الخليفة .

عثمان بن عفان

٢٣ - ٣٥ هـ (٦٤٤ - ٦٥٧)

تعريف به :

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية ، ولد بعد ميلاد الرسول بـ خمس سنين ، ودخل الإسلام على يد أبي بكر الصديق ، وكان من كبار الأثرياء قبل الإسلام وبعده ، وكان سخياً جداً بذل المال لخدمة الإسلام ، ففى جيش العسرة أمدَّ المسلمين بمئات من الإبل بأقتابها وعدتها ، وعدد من الخيول ، وألف دينار كما سبق القول ، وفى مناسبات أخرى كثيرة كان يعطى ماله ليلون حساب لخدمة الإسلام ومساعدة المسلمين .

وعثمان من المبشرين بالجنة ، وقد أثر عن الرسول قوله : لكل نبي رفيق ورفيقي فى الجنة عثمان . ولقوة صلته بالرسول وزوجه الرسول من ابنته رقية فلما ماتت فى أثناء غزوة بدر زوجه الرسول بابنته الثانية أم كلثوم وقد بقيت معه حتى ماتت فى السنة التاسعة للهجرة ، ولذلك يسمى « ذا النورين » وقد أثر عن الرسول أنه قال له بعد موت أم كلثوم : لو أن لنا ثلاثة لزوجناك .

وقد مر بنا أن عثمان كان سفير الرسول لقريش وقت الحديبية ، وهذا يدل على علو مكانته . وكانت سفارته ناجحة .

توليته الخلافة :

عندما طعن عمر لم يكن فى نيته أن يولى خلفاً له ؛ فالظروف التى دعت أبا بكر أن يعين خلفاً له قد زالت إذ انتصرت جيوش المسلمين واستقرت الأحوال ، ولكن المسلمين خافوا الفرقة بعد موت الخليفة فعرضوا على عمر أن يعين خلفه ، وقد أثر عنه قوله ، إن استخلفت فقد استخلف من هو خير منى (يقصد أبا بكر) ، وإن أترك فقد ترك من هو خير منى (يقصد الرسول صلوات الله عليه) . ويبدو لنا من دراسة هذه الفترة أن عمر كان متردداً ؛ فهو لا يريد أن يتحمل مسئوليات الناس بعد موته ،

ولا يريد في الوقت نفسه للمسلمين الفرقة بعده ، ولذلك نجده يقترح طريقاً وسطاً بين التعيين وعدم التعيين ، فيعين الستة المبشرين بالجنة ، وهم خيرة المسلمين ولن يكون الخليفة بطبيعة الحال إلا منهم ، ويطلب من هؤلاء الستة أن يختاروا من بينهم الخليفة بعد استشارة المسلمين . وهؤلاء الستة هم :

عثمان - علي بن أبي طالب - طلحة بن عبيد الله - الزبير بن العوام - سعد بن أبي وقاص - عبد الرحمن بن عوف .

وضم عمر إليهم ابنه عبد الله ليكون له رأى في الاختيار على ألا يختار للخلافة ، وحدد عمر ثلاثة أيام تنتهى المشاورة خلالها .

ومات عمر واجتمع هؤلاء للمشاورة ، فاقترح عبد الرحمن بن عوف أن يخرج أحدهم نفسه ويتولى الذي يخرج مشاوره الناس واختيار الخليفة من بين الخمسة الآخرين ، فقبلوا ذلك المبدأ ، ثم عرض عليهم استعداده ليكون هو ذلك الشخص فقبلوا ، وعاهدوه على ذلك ، وعاهدتهم على الحق والعدل . واستشار عبد الرحمن الخاصة والعامة واستشار المرشحين ، فوجد أن الإجماع يكاد يكون منعقداً على عثمان أو على ، فانحصرت الخلافة فيهما ، فاختار عثمان لكبر سنه وسهولة طبعه^(١) .

وأول قضية بحسبها عثمان هي قضية عبيد الله بن عمر الذي قتل الهرمزان وجنيته وابنة صغيرة لأبي لؤلؤة كما سبق ، وقد اختلف رأى المسلمين في هذه القضية ، فقال بعضهم بوجوب قتل عبيد الله ، ورأى آخرون أن من الصعب قتل عمر أمس وقتل ابنه اليوم ، وتحلص عثمان من هذه المشكلة بأن حكم بالدية لأهل القتل وتحمل الدية في ماله . وقيل إن عثمان حكم بالقصاص ولكن أهل القتل عفوا عن عبيد الله واكتفوا بالدية^(٢) .

(١) ابن عدي ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ٣٠٣ وقرأ التفاصيل الدقيقة في كتاب السياسة في التفكير الإسلامي ، للمؤلف .

(٢) انظر تفاصيل هذه القصة في تهذيب الأسماء للنووي القسم الأول ج ١ ص ٣١٥-٣١٦ .

سياسة عثمان :

إن الدارس لتاريخ عثمان رضى الله عنه يرى أن سياسته في الحكم كانت تتَّجه للبين والعظلة ولا تتجه للحمم والعزم والتخويف ، وهو بهذا كان مختلف عن أبي بكر وعمر ، ويمكن أن نلاحظ علامات السياسة التي اتَّبعها عثمان من خطابه الذى بدأ به خلافته ، قال رضى الله عنه للناس :

« إنكم في دار الزوال ، لا في دار البقاء ، وفي بقية أعمار (أى تقدمت بكم الأعمار) فبادروا بخير ما تقدرون عليه ، وإن الدنيا طُويت على الغرور فلا تغرَّكنم هذه الحياة ، واعتبروا بمن مضى . أين الذين عمرَّوا الأرض ونالوا منها ؟ ألم يأتوا إلى نهاية ؟ لا تغفلوا عن الواجب فإنه لا يغفل عنكم ارمؤا الدنيا واطلبوا الآخرة . »

التوسعة واليسر على الناس :

وكما اتَّجه عثمان في سياسته إلى الرفق واللين اتجه كذلك للتوسعة على المسلمين ، فقد زاد في الأعطيات ، وأطلق للمسلمين حرية التنعم بالنعم الحلال ليشكروا الله على ما رزقهم من نعم ، وأباح للصحابة أن ينتشروا في البلاد رجاء أن يدعوا إلى الله ، وأن يستفيدوا من الاتصالات بالحضارات الأخرى ، وكان عمر رضى الله عنه قد منع الصحابة من مغادرة المدينة .

نسخه عدة صور من القرآن :

يروى أن حذيفة بن اليمان عاد إلى المدينة في عهد عثمان بعد أن كان يشترك في الفتوحات الإسلامية بعدة بلاد ، وقد فزَّع حذيفة عند ما رأى اختلافات الناس هنا وهناك في قراءة القرآن الكريم ، فجاء إلى عثمان وقال له : يا أمير المؤمنين ، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في كتاب الله كما اختلف اليهود والنصارى .

فأرسل عثمان إلى حفصة بنت عمر بطلب أن ترسل إليه المصحف الذى

كان قد جُمع في عهد أبي بكر : لكتابة عدة نسخ منه للأقطار المختلفة ، على أن يعيد الأصل إلى حفصة بعد ذلك .

وتسلم عثمان المصحف من حفصة ، وجمع مجموعة من القراء هم زيد ابن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث ابن هشام ، وطلب منهم أن يكتبوا عدة نسخ من هذا المصحف ولما تم ذلك أرسل عثمان نسخة إلى كل من البصرة والكوفة والشام ومكة ، وخصص نسخة لأهل المدينة ، كما حصل هو نفسه على نسخة .

وعثمان بذلك قد خدم الذكر الحكيم أجل خدمة ، وجمع الناس على قراءة واحدة هي ما ورد في هذا المصحف الشريف ، وأمرهم بحرق ما سواه من صحف أو كتابات .

لمحة من صفات عثمان

ان الدارس لحياة عثمان قبل الإسلام وبعده ، وقبل أن يتولى الخلافة وبعد أن تولاهما يجد صورة زاهية لمسلم اجتمعت فيه أسمى الصفات وأرقى السجايا ، وسنورد فيما يلي خلاصة بصفات عثمان رضي الله عنه .

قمة في الطهر والتعفف :

وأول ما نذكره أن عثمان لم يشرب خمرأ في الجاهلية ، وكان يقول قبل الإسلام : إنها تذهب العقل ، والعقل أسمى ما منحه الله للإنسان ، وعلى الإنسان أن يسمو به ، لا أن يصارعه ، وفي الجاهلية كذلك لم تجذبه أغاني الشباب ولا حلقات اللهو ، ثم إن عثمان كان يتعفف عن أن يرى عورة .

حب الناس له :

ومن أطرف ما يروى عن حب الناس لعثمان لما تجتمع فيه من صفات الخير أن المرأة العربية في عصره كانت تغنى لطفلها أغنية تحمل تقدير الناس له وثناءهم عليه ، ومن الكلمات الماثورة لهذه الأغاني ما يلي :

أحبك والرحمن
حب قريش لعثمان

الحركات العسكرية في عهد عثمان :

١ - تتلخص الحركات العسكرية في عهد عثمان في ناحيتين .

القضاء على التمرد والثورات التي قامت في بعض النواحي التي دخلها الإسلام في عهد عمر .

٢ - استمرار التوسع الإسلامي في الميادين المختلفة التي انتهى عندها التوسع الإسلامي في عهد عمر .

وسنذكر فيما يلي كلمة موجزة عن كل من هاتين الناحيتين :

١ - القضاء على التمرد والثورات : بعد موت عمر بن الخطاب تمردت بعض الولايات على الحكم الإسلامي وقام بهذا التمرد عناصر توالى عهد ما قبل الفتح ، أو قامت بها قوى الاحتلال التي كان لها السلطان قبل الزحف الإسلامي ، وبرزت أهم الانتفاضات في خراسان والإسكندرية ، وقد قام بثورة خراسان أنصار الحكم السابق ، وأما الإسكندرية فقد هاجمها الروم بجيش كثيف يقوده بطل أرمني كبير اسمه مانويل ، وقد استطاع عثمان أن يقضى على الثورتين قضاء حاسماً ، إذ أرسل لكل جيشا كبير العدد والعدة ، فأعاد البلاد إلى الطاعة ، وقضى على الثائرين أو المهاجين :

٢ - التوسع الإسلامي : شمل التوسع الإسلامي تقريباً كل الميادين التي كانت الجيوش الإسلامية قد وصلت إليها في عهد عمر ، فزاد التوسع من الناحية البحرية ، إذ أصبح للمسلمين بحرية في عهد عثمان ، وعلى ذلك فقد انضم إلى الدولة الإسلامية برقة وطرابلس غرب مصر^(١) ، وانضم لها جزء من بلاد النوبة^(٢) في الجنوب ، ونضمت لها بلاد أرمينية^(٣) وأجزاء من طبرستان وهي المنطقة الجبلية جنوبي قزوین^(٤) ، وتخطت جيوش المسلمين نهر جيحون ودخلت بلاد ما وراء النهر في الدولة الإسلامية ، فاستولى المسلمون على بلخ وهراة وكابول وغزنة من بلاد الأتراك^(٥) .

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص ٣١٥ - ٢٢٨ .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٣٨ - ٢٣٩ .

(٣) انظر فتوح أرمينية في البلاذري ص ١٩٧ وما بعدها .

(٤) المرجع السابق ص ٢٣٠ . (٥) المرجع السابق ص ٣٩٨ .

وعن طريق البحرية الإسلامية دخلت قبرص إطار الدولة الإسلامية ،
وقد قام بغزوها معاوية بن أبي سفيان سنة ٢٨ هـ (١) ، ومن أهم المواقع
البحرية موقعة ذات السوارى أو ذات الصوارى ، وقد حدثت سنة ٣١ هـ
في البحر الأبيض المتوسط بالقرب من الإسكندرية بين جيش الروم يقوده
قسطنطين وبين عبد الله بن أبي مرجم إلى مصر ، وصيبت « ذات السوارى »
نسبة إلى سوارى البواخر التي اشتركت فيها ، ويقال إنه اشترك فيها ألف
سفينة منها مائتان للمسلمين والباقي للروم ، وقد كسب المسلمون النصر في هذه
الموقعة (٢) (انظر الخريطة رقم ٨) .

نهاية عثمان ودراسة الفتنة التي أدت إلى قتله :

إن دراسة الفتنة التي أدت إلى قتل عثمان عمل واسع ، خصه كثير من
الباحثين بدراسات مستقلة ، وسنحاول هنا إيجاز الموضوع في غير إهمال :

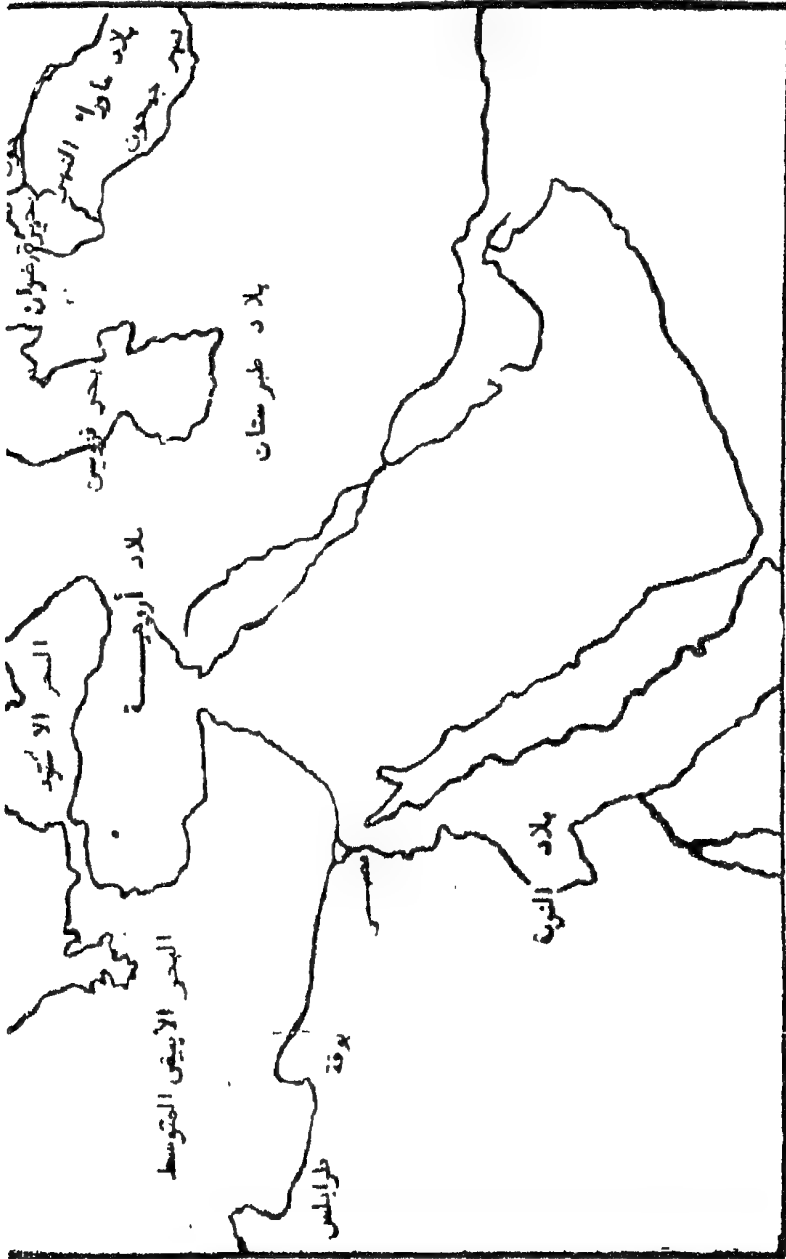
من الواضح أن بنى أمية كانوا في مطلع الإسلام أعداء هذا الدين ، وهم الذين
قادوا الجيوش عدة مرات للقضاء عليه ، ثم استسلم بنو أمية ودخلوا الإسلام
عند فتح مكة ، ولما مات الرسول صلى الله عليه وسلم لم يطمع بنو أمية في
الخلافة لقرب عهدهم بالإسلام ولموقفهم العدائي منه مدة طويلة ، ولكن
الأحداث التي مر بها الإسلام خلال خلافة أبي بكر وعمر أتاحت الفرصة
لبنى أمية ليعرضوا ما فاتهم ، فلمعت أسماء قادة معاوير منهم في حروب الردة
والمتنبئين ، وفي الحروب ضد الفرس والروم ، ومن هؤلاء يزيد بن أبي سفيان
ومعاوية ، وهند أم معاوية التي كانت تخاصم مع الرجال موقعة اليرموك (٣)
وبهذا استعداد بنو أمية مكائهم ، وبالتالي طمعوا في الحصول على الخلافة .

وعندما مات عمر كانت هناك أسرتان كبيرتان قطمعان في هذه الخلافة ،
هما أسرة بنى هاشم وأسرة بنى أمية . وكان بنو هاشم أقدم طمعا في الخلافة
من بنى أمية . فقد كان على يراها حقا له عقب وفاة الرسول ، ولكن المسلمين

(١) المرجع السابق ص ١٥٧ - ١٤٨ .

(٢) النوى : تهذيب الاسماء : القسم الأول ج ١ ص ٣٧٠ .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٩٤١ .



الخريطة رقم ٨
اتساع الدولة الإسلامية في عهد عثمان

لم يستجيبوا له حينذاك إذ رأت أغليبيتهم أن الخلافة لو أسندت إلى هاشمي لأصبح من المتعذر إخراجها من بني هاشم .

وانتهت المشورة بعد موت عمر كما قلنا إلى واحد من اثنين : عثمان وعلى ، أو بعارة أخرى إلى بني أمية أو بني هاشم ، وهنا أوشكت أن ترجع كفة بني هاشم لكن عاملين كبيرين ظهرا فرجحا كفة بني أمية ، وهذان العاملان هما :

أولاً - أن الأمل في إمكان إخراج الخلافة من بني أمية كان أقوى من الأمل في إخراجها من بني هاشم .

ثانياً - شدة عمر وصرامته جعلت الناس يرغبون عن علي حتى لا تمتد الشدة والصرامة ، ومالوا إلى عثمان حيث الدعة واليسر والتسامح .

وأُسند الأمر إلى عثمان ، وإذا سرنا مع عثمان في خلافته فلإننا نقرر أن عثمان تولى في ظروف يمكن تلخيصها في أن الناس كانوا فريقين ، أحدهما لا يرضى عن عثمان ولا يزيكه ، والفريق الثاني يؤيده لا تقديراً له بل طمعاً فيه ، ومن هنا يبدو الوضع الحرج الذي وضع فيه عثمان من أول الأمر .

ثم إن عثمان كان قد أتم السبعين من عمره عندما تولى الخلافة ، وتلك سن تؤذن بالزوال .

وجاء عثمان بعد عمر أو قل جاء اليسر بعد الصرامة ، والتردد بعد العزيمة القوية ، فانفلت المكبوت ، وانطلق السجين ، وأقدم الخائف .

وكان من اجتهاد عمر أنه منع كبار الصحابة من مغادرة المدينة إلا بإذن ولا أجل محدود ، فلما تولى عثمان لم ير ما رآه عمر أو ضعف عن أن ينفذه ، ففرجوا ، وكان خروجهم مطلع تشتت أذركه عمر ببصيرته النافذة ، فإن كل واحد من كبار الصحابة سافر إلى جهة واتخذ له مستقراً فيها ، وراح يتحدث عن مواقفه مع الرسول ، وكفاحه من أجل الإسلام ، وولتف حوله معجبون كثيرون ، كما التفت حوله أيضاً الطامعون ، وتفرقت الأمة ، وأصبح كل واحد من هؤلاء يمثل ملكاً له مظاهر العظمة وكثير من الأتباع .

وبدأ الغنى يظهر في العالم الإسلامى فى أخريات عهد عمر ، والغنى وسيلة للبدخ والشرطان ، إن لم تكن هناك رقابة شديدة وتوجيه رشيد ، وبموت عمر ضعفت الرقابة وقل التوجيه ، فظهرت الآثام وانتشرت الشرور بين بعض الناس .

وبدأ الخليفة نفسه يعمل أشياء لم يعملها سابقوه . أشياء رآها بعض المسلمين أخطاء ورآها عثمان صواباً أو ضرورة . وكانت هذه الأعمال هى الشرارة التى انطلقت منها الفتنة العارمة . وأحب قبل أن أذكر هذه الأعمال أن أعيد أن عثمان لم يقيم بها ارتجالاً أو استهانة . وإنما قام بها عن فلسفة وفكر واجتهاد هداه إلى أن من حقه أن يقوم بما قام به ، وهذا - فيما نرى - لا يلحق به ذنباً إن رأى بعض الناس أن طبيعة ما قام به عثمان مما يستدعى الذنوب .

وفلسفة عثمان هذه يمكن أن نجعلها ذات شقين . فشق منها يتصل بسياسته فى ناحية الحكم ، وشق يتصل بسياسته فى الناحية الاقتصادية .

أما فلسفة عثمان فيما يتعلق بالحكم فيمكن تلخيصها فى أن سن عثمان كانت متقدمة عندما تولى الخلافة كما سبق القول . وهولذلك كان أكثر من أبى بكر وعمر حاجة لمن يساعده فى حمل أعناء الحكم ، ثم إن عثمان من أسرة كبيرة كما قلنا آنفاً . ولكثيرين من أفراد أسرته مكانة مرموقة فى الحياة العربية والإسلامية . وكان منهم قادة وأمراء من قبل عهد عثمان .

وبمرور الزمن وظهور الشيخوخة فى عثمان زادت حاجته إلى من يركن إليه . ورأى عثمان أن يعتمد فى الماصمة وخارجها على أقاربه ، فهم موضع ثقته . وهم أحرص على إعانته والإخلاص له . ثم إن كفاءتهم لا ينكرها أحد ، ومكانة بنى أمية بين العرب ليست موضع شك ، ولذلك ولاهم عثمان واستكثر منهم ، فالكوفة كانت للمغيرة بن شعبة فنقل ولايتها إلى سعيد بن العاص ، وكانت حصص إلى عمير بن سعد فضمها إلى معاوية وإلى دمشق . ومصر كانت لعمر بن العاص فنقلت إلى عبد الله بن أبى سرح أخى عثمان من الرضاعة . وهكذا .

على أن هؤلاء الولاة الجدد في الحقيقة غير مطعون في كفاءتهم كما دافع بذلك عثمان عن نفسه ، ولكنني أحس على كل حال أن هؤلاء الولاة لم يعودوا يخافون الخليفة كما كان ولاة عمر يخافونه ، وبخاصة إذا كان الوالي من بني أمية وفي دار الخلافة مروان بن الحكم وهو من بني أمية أيضا . وكان عثمان قد اتخذ مشيره ومدبره وأعطاه خاتمه .

تلك هي فلسفة عثمان في ناجية الحكم ، ميل لتولية أقاربه لثقتهم فيه ، ولأمنه جانبهم ، واطمئنانه إلى مساعدتهم .

أما فلسفة عثمان فيما يتعلق بالاقتصاد فيمكن تلخيصها في أن عثمان كان من قلة غنياً جداً وسمحاً جداً ، كان يعيش في رخاء ، وكان مبسوط اليد ، لا يعرف البخل طريقه إليه ، وكان يملك ما يوسع به على نفسه وما يعطيه للآخرين ، ثم أنفق ماله كله في الإنفاق والعطاء وفي سبيل الله ، ولكنه وجد أمامه بيت المال فأخذ منه انفسه وأعطى منه أقاربه وسائليه ، وأسرف أحياناً - كما تروى بعض الروايات - في الإنفاق وفي العطاء ، ونسى أنه في هذه المرة ينفق ويعطي مما لا يملك .

وحجة عثمان في ذلك أنه كان قبل الإسلام ذا مال كثير وتجارة واسعة ، ولو أنه استمر يرعى ماله وتجارته لدام ثراؤه فاكتفى وأعطى ذويه ، وأن شئون المسلمين وشئون الخلافة هي التي ذهبت بهذا الثراء ، بين منح للمسلمين عند حاجتهم وبين انشغال عن تروجية التجارة وإدارة المال ، ورأى عثمان أن من حقه - والحالة كما وصفنا - أن يتسع له بيت المال حتى لا يعيش في عسرة ، أو حتى لا يدع أقاربه في عسرة ، وإذا كان أبو بكر وعمر لم يفعلوا ذلك فقد تركا حقهما وهذا لا يرغمه أن يترك حقه ، أو قل إنهما لم يتعدوا السعة التي عاش فيها عثمان ، ولم يتكفلا بأقاربهما كما تكفل عثمان .

على أن عثمان عندما أعطى المسلمين في غزوة تبوك أو في غيرها كان مانحاً ولم يكن مقرضاً ، فهل له الحق أن يسترد من بيت المال بدل ما منحه لإعلاء كلمة الله ؟ ويجب عثمان بأنه لا يأخذ بدلا وإنما يأخذ حاجته نظير

تفرغه لخلافة المسلمين . ولكن حاجة عثمان لنفسه ولذويه كانت أكثر مما تعودده المسلمون .

وبدأت الثورات همساً . ثم ارتفع الهمس ، وأحس الخليفة أن الفتنة بدأت تظهر ، ولكن الخليفة أصر على ألا يقسو على النافرين واتسع لهم حلمه وحيأؤه ، وفي ظل هذين الخلفين نمت الفتنة غير خائفة من بطش الخليفة أو من انتقامه ، وكان عثمان يشوّر أحياناً ولكنها ثورة الشفوق لا تلبث أن تموت ، وهي تضر في فورتها وتضر في هلوها .

وكان على كلما اشتكى الناس إليه أمر عثمان أرسل ابنه الحسن إليه ، فلما أكثر على عليه قال له عثمان : إن أباك يرى أن أحداً لا يعلم ما يعلم ، ونحن أعلم بما نفعل فكف عنا . فلم يبعث على ابنه في شيء بعد ذلك^(١) .

وسارت الأمور في السنوات الست الأولى من خلافة عثمان مدفوعة بالقوة التي بنها ابن الخطاب ، وظل الضوء الذي أشعله عمر بنبر الناس ، ولكن الخليفة الجديد لم يمد المصباح بالزيت ؛ فلما أوشك الزيت أن يجف بدأ الظلام يدخل ، وبدأت الدولة تهتز ، وليس معنى هذا أن أعمال عثمان التي سببت حنق الناس وغضبهم لم تظهر إلا بعد ست سنرات من حكمه ؛ لا ، فقد ظهرت منذ اللحظات الأولى ، ولكنها كانت أشبه بالمرض يذب في الجسم السليم فيقاومه الجسم ، ولا يبدو عليه الضر ويظل المرض يشتد ما دام المريض لا يجد علاجاً حتى تضعف الصحة وينهار المريض ؛ وهكذا جاءت السنوات الست الثانية . وقد بدأت الدولة تهتز وأخذت المشكلة تستعصى ، وتقدم الناصحون للخليفة الشيخ يطلبون منه الاعتزال والراحة ولكن الخليفة صاح بهم قائلاً : كيف أخلع لباساً البسنيه الله تعالى ؟

واشتعلت الثورة ضد عثمان ، وبدأ منظموها في الكوفة والبصرة ومصر يعلمون ما كانوا من قبل يضمرون ، وظهر مع النافرين أعلام من الصحابة

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ٢٠٨ .

أنكروا بعض تصرفات عثمان ، فأصرع ابن سبأ^(١) وهو الزعيم الحقيقي للثورة فاجتذبهم أو اجتذب آراءهم إليه ، لتقوى بهم حجته ، وترجح كفته ، ومن هؤلاء الصحابة أبو ذر الغفاري وعمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود .

وعبد الله بن سبأ هو الشخص الذى نقل الثورة من الكلام إلى العمل ولم يكن ابن سبأ مخلصاً في حركته ، فقد كان يهودياً ادعى أنه دخل الإسلام ولم يكن يضمّر للإسلام ولا للمسلمين خيراً ، فأنهز هذه الفرصة ليشعل الفتنة وينزل بالعالم الإسلامى ناراً ظلت متأججة عشرات السنين .

من الممكن أن يخطئ شخص أو يزل ، ولكن لإصلاح الخطأ طرقات كثيرة عندما تحسن النية ، وابن سبأ كان أبعد ما يكون عن حسن النية ، فقد

.. (١) اتبعنا المراجع الشهيرة في حديثنا عن عبد الله بن سبأ وعن تصريح الدور الذى قام به لتجميع الشيعة في جماعة ؛ بعد أن كانوا أفراداً ، وقد إدخال كثير من الانحرافات والصلالات على مذهبهم متبعين الفرص المختلفة لذلك ، ووضعت في الجزء الثانى من هذه الموسوعة الفقرة بين الشيعة الحقيقيين وبين مدعى التشيع هؤلاء الذين لم يكونوا شيعة ولا مسلمين ، وإنما ادعوا التشيع لإدخال الأكاذيب على المذهب الشيعى لأغراض في نفوسهم

ولقد اطلعت حديثاً على كتاب « عبد الله بن سبأ » للأستاذ مرتضى العسكري عيد كلية أصول الدين بالعراق ؛ وفيه يذكر المؤلف أن عبد الله بن سبأ أسطورة خلقها وضاع اسمه سيف بن عمر (توفى بعد السبعين والمائة للهجرة) وذكر المؤلف مواقف متعددة كانت الرواية فيها عن سيف مختلفة عن الرواية عن سواه ، وأبرز في رواياته صوراً من الأعراف .

بقى أن نورد سؤالاً مهماً هو . من الذى أدخل الانحرافات إلى المذهب الشيعى الذى نعرف في أصوله السليمة بعد ما نراه فيه من انحرافات وترهات .

في اعتقادى أن قوى كثيرة دفعت نفسها إلى صفوف آل البيت وشبههم لانفرا من مبومهم ، وطالما كشف أهل البيت نواياهم فصدومهم ، ولكن طالما استطاع هؤلاء بطريق أو بآخر أن يلقوا شحنة السم التى كانوا يحملونها ؛ وقد وضعت ذلك في الجزء الثانى من هذه الموسوعة .

ولهذا فأتانا أقرر هنا أن ضالة بدأت هذا الشوط هى عبد الله بن سبأ أو شخص ما أطلق عليه هذا الاسم ، وأن مريدن كثيرين أخذوا عنه هذا الضلال وساروا فيه أزيمة طوييلة وأشواطاً واسعة . فالاسم لا همنا ولكن يهنا أن شخصاً قام بالدور الذى نسب إلى عبد الله بن سبأ وأن أشخاصاً قاموا بالأدوار التى تنسب للبشيين ولأعداء الشيعة وأعداء الإسلام الذين أسيناهم (مدعى التشريع) .

طاب له أن يجد ما عدّه هو وأصحابه أخطاء لعثمان ليجعلها سبباً لهوة ينزلق فيها المسلمون .

ونجح ابن سبأ في الخطوة التي وضعها : ونجده - ليضمن النجاح - يقوم بالدعوة لعل ، فينشر مذهب الوصاية ، أى أن علياً وصي محمد كما أن لكل نبي وصياً ، وأن علياً خاتم الأوصياء كما كان محمد خاتم الأنبياء ، وأيد رأيه بأحاديث وضعها ، كما أشاع نظرية الحق الإلهي ، وهي نظرية فارسية عبرت مع الفرس إلى اليمن موطن ابن سبأ ، إذ كان الفرس يحتلون اليمن قبل أن يدخلها الإسلام ، ومغزى هذه النظرية أن علياً هو صاحب الحق الأول في الخلافة

وأثار ابن سبأ الشبهات ، وجمع حوله أنصاره ، كما جمع الساخطين على عثمان ، وزحف الثائرون إلى المدينة من الكوفة والبصرة حيث كانت مبادئ ابن سبأ قد وجدت مرعى خصباً بين البسطاء من أتباع علي . وزحف ثائرو مصر كذلك حيث كان ابن سبأ يعيش في ذلك الوقت ، وحيث وجد الوسيلة لإثارة المصريين ضد عبد الله بن أبي سرح وإلى عثمان وأخيه من الرضاغة ، ويبدو أن تخطيطاً دقيقاً دفع هؤلاء وأولئك ليسيروا في نفس الوقت ثائرين من بلدان مختلفة إلى المدينة .

وفي المدينة التقت هذه الجموع الساخطة ، ولكن علياً تصدى لهم ، وشرح لهم أن أى اعتداء على الخليفة هو إضعاف للإسلام وتفرقة للمسلمين كما أن عثمان دافع عن نفسه دفاعاً مقبولاً ، وظهرت الآمال بأن الأحوال ستصلح ، ففعل الثائرون راجعين .

وأدرك ابن سبأ أنه هزم ، وأن الفرصة التي عمل لها عدة سنوات أوشكت أن تضيع ، ولذلك عمل الحيلة ودبر أمره ، فبروى أن الثائرين حال عودتهم رأوا رجلاً أسود يمشى على بعد منهم وأنه يحاول أن يختنق عنهم ، فشكوا في أمره ، فلحقوا به وقبضوا عليه وقتلوه فوجدوا معه خطاباً عليه خاتم عثمان . وفي الخطاب أمر لوالى مصر أن يقتل هؤلاء الثائرين ويقتل معهم محمد بن أبي بكر^(١) الذي كان من زعمائهم ويمثل بمثل الجميع ، وهكذا أصبحت المسألة

(١) يقول بروكلمان أن محمداً هذا هو ابن أبي حذيفة وينسب إلى أبي بكر بالتبني (تاريخ الشعوب الإسلامية ١ . ١٧٥) وقد كان محمد هذا من أشيع على لأنه تربى في بيته إذ تزوج على بأمه بعد موت أبي بكر .

و نظر الثائرين دفاعاً عن النفس لأنهم أدركوا أن دماءهم مباحة ، فعادوا أدراجهم إلى المدينة ، وواجهوا عثمان بالأمر ، فأقسم عثمان إنه لم يكتب الكتاب ، ولا أمر به ، وليس له به علم ، فطلبوا منه أن يسلمهم حامل خاتمه أو يقتص منه ، فأبى ، وقال إن حامل الخاتم لا يعمل هذا أبداً ، وأن أبناء السوء قتلوا خاتمه وزوروا عليه هذا الخطاب .

ويبدو أنه من المحقق أن هذا الخطاب حيلة دبرها ابن سبأ ليعيد إلى ثورته الحياة بعد أن أوشكت أن تموت .

وقد وضح لنا ابن عبد ربه مسألة الاختلاق ووضع الكتب والرسائل بأسماء الآخرين ، وكيف لعب ذلك دوراً هاماً في إشعال هذه الثورة ، ونحن ننقل عبارة ابن عبد ربه بنصها ، فهي تلقى ضوءاً ساطعاً على موضوع كثرفيه التخبط وتعددت الآراء ، قال :

لما قدم القواد قالوا لعلی : قم معنا إلى هذا الرجل . قال : لا والله لا أقوم معكم . قالوا : فلم كتبت إلينا ؟ قال : والله ما كتبت إليكم كتاباً قط . فنظر القوم بعضهم إلى بعض . وخرج على من المدينة . :

واستنكرت عائشة قتل عثمان فقال لها مروان : هذا عملك ، كتبت للناس تأمرينهم بالخروج عليه . فقالت : والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ما كتبت إليهم بسواد في بياض حتى جلست في مجلسي هذا فكانوا يرون أنه كتب على لسان علي وعلى لسانها : كما كتب أيضاً على لسان عثمان مع الأسود إلى عامل مصر ؛ فكان اختلاق هذه الكتب كلها سبباً في الفتنة (١) .

وعلى كل حال فإن اختلاق هذا الخطاب لم يكتشف في ذلك الحين ، وظن القوم أنه من عمل عثمان أو من عمل مروان ، وأن حياتهم أصبحت مهددة : فلم يعد هناك مجال للنقاش ، ولم يعد في طاقة علي بن أبي طالب وأمثاله أن يقوموا بأي دور للوساطة ، ولم يعد الثائرون مستعدين لأية تسوية لا يكون فيها دم الخليفة أو اعتزاله ، وأحاط الثائرون ببيت عثمان وحاصروا الخليفة وتوقف الآن عن السير مع هذه الأحداث لنسأل :

ما موقف كبار المسلمين من الدفاع عن عثمان ؟ وما موقف بني أمية من ذلك ؟

(١) العقد الفريد ج ٤ ص ٣٩٢ - ٣٩٣ .

يروى لنا التاريخ أن بعض كبار المسلمين هجروا المدينة في الفتنة، وأن بعضهم اعتزل الفتنة خوفاً منها ولزم داره، ولكن كثيرين من شباب المسلمين وقفوا بباب عثمان يحرسونه. ويبدوون عنه، وكان في مقدمة هؤلاء الحسن والحسين وعبد الله بن الزبير.

أما بنو أمية فإن موقفهم يحيط به بعض الغموض؛ لقد كان معاوية يترك ماسوف ينزل بابن عمه الخليفة، فعرض معاوية على عثمان أن يذهب معه للشام فامتنع وأثر أن يبيت حيث عاش ومات الرسول وصاحبه، فعرض عليه أن يرسل له حرساً فأبى، وقال: لا أريد أن يشاركوا أهل المدينة زادهم وطعاهم، ثم تأزمت الأمور بعد ذلك ولكن معاوية لم يسرع لنجدة الخليفة، وقتل عثمان قبل أن تصل المدينة القوة الصغيرة التي أرسلها معاوية فعادت أدراجها من منتصف الطريق^(١) : ويروى أن عامر بن وائلة الصحابي دخل على معاوية إبان خلافته فقال له معاوية، أأست من قتله عثمان : فقال عامر : لا ولكني ممن حضره فلم ينصره... ثم سأل عامر معاوية : وما منعك أنت من نصره ومعك أهل الشام ؟ فأجاب معاوية : أليس طلبى بدمه نصرة له ؟ فضحك عامر وقال : أنت وعثمان كما قال الشاعر :

لا أليفنك بعد الموت تندبني وفي حياتي ما زودتني زاداً^(٢)

ومثل ذلك ما قاله أبو أيوب الأنصاري لمعاوية، فقد روى ابن قتيبة أن أبا أيوب كتب إلى معاوية يقول : إن الذي تربص بعثمان وثبط أهل الشام عن نصرته لأن^(٣)، وأوضح تعليل اعتقده لموقف بني أمية أنهم ظنوا أن تدخلهم سينقل الخلاف من دائرة إلى دائرة، سينقله من خلاف بين المسلمين وبين خليفة المسلمين، إلى خلاف بين المسلمين وبين أمية، ولم يكن بنو أمية بطبيعة الحال يريدون ذلك.

على أن عثمان استطاع أن يرسل إلى الحجاج في موسم الحج الذي عقد

(١) المرجع السابق، ص ٢٩٨ وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ج ٤ - ص ١٢٢

(٢) السيوطي. تاريخ الخلفاء، ص ٢٠٠

(٣) الإمامة والسياسة ج ١ ص ١٠٦

وهو محاصر يطالب عونهم ، فتحركت شهامة الكثيرين للدفاع عن الخليفة ، واتجهوا إلى المدينة ، وفي نفس الوقت كان جند الشام قد بدءوا الزحف للمدينة لإرغام المحاصرين على فك الحصار ، فأدرك الثائرون أن الفرصة أو شكت أن تفلت من أيديهم ، فتسور بضعة منهم للدار بعد أن استمر حصارها اثنين وعشرين يوماً ، وهجم الذين تسوروا الدار على الخليفة وهو يقرأ القرآن ، وضربه الغافقي بحديدة كانت في يده ، وضربه آخر بالسيف ، ولما حاولت زوجته أن تدافع عنه قطعت أصابعها وهي تتلقى عنه الضربات .

وخر الشيخ فكان مصرعه باباً لفتنة شعواء دفع المسلمون عنها آلاف من أرواح الشباب الذين لا ذنب لهم ولا جريرة .

ولعل من المناسب أن نذكر أن القنلة الحقيقيين كانوا قلائل عرف منهم الغافقي ولم يعرف الآخرون ، وقد فر الغافقي بعد ذلك ولم يُعثر له على أثر ، وأما الآخرون فلم تعرف شخصياتهم ، ولهذا أسند قتل عثمان إلى الثائرين والمحرضين مما وسع الهوة وسبب ألواناً من النكبات^(١) .

واختفاء الغافقي والقضاء عليه يذكرنا بقتل قاتل كيندى ، إنها سياسة واحدة ، بها بصمات يهودية ، يراد بها دفن السر مع صاحبه .

(١) دوايت دونالدش . عقيدة الشيعة ص ٤١ .

على بن أبي طالب

٣٥ - ٤٠ هـ (٦٥٦ - ٦٦١ م)

تعريف به :

هو على بن أبي طالب بن عبد المطلب ، ابن عم الرسول وزوج ابنته فاطمة ، وهي البنت الوحيدة من نسل الرسول التي أعقبت وعن طريقها وُجدت ذرية سيدنا رسول الله حتى العهد الحاضر .

وقد سبق لنا أن قلنا إن أبا طالب كفل محمداً بعد موت جده عبد المطلب ، فلما كبر محمد أراد أن يسدد هذا الدين لعمه ، فأخذ علياً ورباه في بيته ، وبخاصة أن أبا طالب كان كثير الأولاد ، وأن مكة أصابها جَدب ، فست الضائقة حياة أبي طالب .

ولما بُعث محمد كان علياً صبيها قائم به . ولذلك يقال إن علياً أول من آمن من الصبيان ، وبات علياً في فراش الرسول ليلة الهجرة مع علمه بأن الموت يطوف حول هذا الفراش ، ويوشك أن ينزل بمن يتنام فيه .

وقد رضع علياً آداب الإسلام منذ الصبا ، وكان في الفصاحة بالغاً للغاية ، ولعله كان الراوية الأول لأحاديث الرسول : وكان في العلم سباقاً لا يشق له غبار ، أما شجاعته فكانت مضرب الأمثال . وقد رأيناه في الطليعة دائماً في جميع غزوات الرسول ، ولا تكاد تخلو غزوة من على مصارعاً ومبارزاً غير هباب للموت ، ولا مقبلاً للخوف وزنا ، وطالما كسب بسيفه النصر للمسلمين ، ومن الواضح أن بطولة على والدماء التي سفكها مدافعاً عن الإسلام وراداً عنه مهاجمه ؛ أو ثمة كثيراً من الأعداء ، فقد كانت هناك جراح في قلوب الكثيرين من الطعنات القاتلة التي وجهها على إلى أبطال منهم أو إلى ذويهم تقدموا مزهوين ببطلتهم ، معارضين للإسلام ، فلاقوا مصرعهم على يده كرم الله وجهه .

وفي ذلك المعنى يقول زيد بن علي زين العابدين إمام الزيدية ما يلي :
كان على بن أبي طالب رضى الله عنه أفضل الصحابة ؛ إلا أن الخلافة

فَوُضِّتْ إلى أبي بكر لمصلحة رَأَوْهَا ، وقاعدة دينية راعوها ، من تسكين
ثائرة الفتنة ، وتطبيب قلوب العامة ، فإن عهد الحروب التي جرت في أيام
النبوّة كان قريباً ، وسيف أمير المؤمنين على من دماء المشركين من قریش
وغيرهم لم يجف بعد ، والضغائن في صدور القوم من طلب الثأر كما هي . .
فما كانت القلوب تميل إليه كل الميل ، ولا تنقاد له الرقاب كل الانقياد ،
فكانت المصلحة أن يكون القائم بهذا الشأن في ذلك الوقت غيره ^(١) .

وأخلاق على : زهده ، ووفائوه ، وعدله ، وسماحته ، وصفاء نفسه ،
تجعله ثالث ثلاثة أخذوا عن الرسول العلم والخلق والروح ، فكان أبو بكر
وعمر وعلى مشاعل ينبعث ضوؤها في كل اتجاه .

البيعة لعلي :

ممكنتنا من الدراسة السابقة أن نستنبط أن علياً لم يكن مرغوباً فيه ،
فقد كان على غرة بني هاشم ، وكان يطالب بالخلافة باسم القرابة من الرسول ،
ومعنى هذا أن إسناده للخلافة إليه يعني أن تظل الخلافة في بنيهِ ، وهذا مبدأ
لا يقره الإسلام ، ولا تقبله العرب ، ولا يرضيه الطامعون ، وكان لعلي - كما
قلنا آنفاً - أعداء كثيرون يكتمون العداوة أو يظهرونها ، لأنه الذي
قتل بسيفه زهرات الشباب في الغزوات المتعددة ، ثم كان حكم على معناه
العودة إلى حكم عمر في صلابته وحزمه ، وقد وجد كثير من الناس الراحة
في سهولة عثمان فكيف لهم بالعودة إلى الدقة والصرامة والحساب ؟ وكان
هناك كثيرون أثروا بالباطل ، وحصلوا ظملاً على نفوذ كبير ، ومعنى حكم
على ضياع ثروتهم وفقدان سلطانهم ، لهذه الاعتبارات وغيرها لم يكن على
مرغوباً فيه .

ولكن حل كان هناك حينذاك غير على يطمع في الخلافة مع وجود أبي الحسن ؟
لقد كان على على وشك أن يناهض بعد عمر فكيف يمكن أن يحرمها بعد عثمان ؟
وإذا كانت السن قد لعبت دورها في تأخير تولية على ، فقد أصبح الآن في
العقد السادس بل قد تخطى نصفه فلم يعد هناك طعن في مسألة السن .

(١) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ١٢٨ .

ومن هنا ندرك أن تولية على كانت طبيعية رضى الطامعون أو كرهوا ، على أننا إذا لاحظنا الأسباب التي ذكرناها آنفاً والتي جعلت على غير مرغوب فيه نجد أنها كانت متصلة بالطبقة العليا ، تلك التي أزحق على أرواح شبابها في حروبهم ضد الإسلام ، وتلك التي كانت تنافسه ونخشي على ثرواتها ونفوذها من عدائته ، أما الجاهل والشعب فلم يكن لهم ملجأ سواه ، وكانوا يتطلعون إليه لينقذهم مما ألم بهم .

ومن هنا كانت البيعة على بيعة قامت بها الجاهل ، فهؤلاء الذين فتكوا بعثمان ومعهم من انضم إليهم هرعوا إلى على يبايعونه ، وقد أدرك على أن سيل الناس إليه سيل شعبي ، فصاح فيهم : إن هذا الأمر ليس لكم ، إنه لأهل بدر ، أين طاحنة والزير وسعد ولم يكن أحد من هؤلاء الخاصة يستطيع أن يواجه العاصفة فيمتنع عن بيعه على ذلك الوقت . فبايع هؤلاء راضين أو كارهين ^(١) وتبعهم كثير من المهاجرين والأنصار وتلاههم عامة الناس ، ولم تكن البيعة إجماعية بطبيعة الحال وكان بنو أمية قادة الممتنعين .

سياسة على :

سياسة الإنسان جزء منه ومراة لأخلاقه ، وعلى محبول على الصراحة ، لا يعرف في الحق لومة لائم ، فكانت سياسته صدى لهذه الأخلاق ، فقد بادر على عقب بيعته فأصدر أمرين في منتهى الصرامة ، وهذان الأمران هما :

١ - عزل ولاية عثمان ، وقد أرسل على ولاية بدلهم ، ولكن أكثر ولايته عادوا إليه ولم يستطيعوا أن يدخلوا الولايات التي حددتها لهم ^(٢) .

٢ - استرداد القطائع التي أقطعها عثمان لأقاربه من بيت المال مما يرى على مجافاته للحق ، وكذلك استرداد الهبات الكبيرة التي منحها عثمان كذلك من بيت المال .

ولم يسمع على لنصح أتباعه وأقاربه الذين أشاروا عليه أن يؤجل هذا

(١) انظر الطبري ج ٣ ص ٤٥٦ وما بعدها .

(٢) تاريخ الطبري ٤٦٢: ٢ - ٤٦٣ .

التصرف ريثما تستقر له الأمور ^(١) . إذ توةموا أن تصرفه هذا سينتج تمرد
بنى أمية ، ويجعل معاوية يهب في وجهه يناضله ويحاربه .
ويوشك المؤرخون والمستشرقون أن يجمعوا على لوم علي ^{عليه السلام} هذا العمل ،
وهم جميعاً تقريباً يصرحون أن التوفيق أخطأ علياً فيه ، وأن ذلك لم يكن من
الحكمة ، والذي أعتقده أن ذلك الحكم على علي ^{عليه السلام} مبالغ فيه ، وأنه من
الأقوال التي تشاع فيأخذها الناس دون دراسة وبغير تمحيص ، وللتدليل على
ذلك نسأل الأسئلة التالية :

- ١ - هل كان من الممكن أن يحتج علي ^{عليه السلام} على الولاة الظالمين وأن يطلب
من عثمان عزلم ، حتى إذا تولى هو الخلافة تركهم ؟
- ٢ - وهل كان من الممكن أن يثور على القاطنات التي أعطيت بغير حق
واضح لأقارب الخليفة حتى إذا تولى هو الخلافة أقرها ؟
- ٣ - وهل كان التمرد الذي عاناه علي ناشأ عن عزل الولاة واسترداد
القاطنات ؟ وإذا كان كذلك فلماذا ثار عليه طلحة والزبير واشتركا في حرب الجمل ؟
- ٤ - وهل يتخيل المؤرخون أن معاوية كان سيبايع علياً ويسير في
ركابه لو لم يعزل ؟

٥ - وأخيراً هل يمكن أن نطلب من علي ^{عليه السلام} أن يكون شخصاً آخر غير
علي ^{عليه السلام} إن مطالبة علي ^{عليه السلام} بترك والي يعتقد أنه ظالم ، أو الإغضاء عن مال يرى أنه
أخل من بيت مال المسلمين بدون حق هو بمثابة أن نطلب من الأسد أن يصبح
هرا وحيات أن يكون ذلك .

لعل من الأفضل للمؤرخين أن يقولوا إن ذلك الوقت لم يكن الوقت
الملائم لعلي ليصبح خليفة ، وكان من الخير للمسلمين أن يتولى الخلافة في ذلك
الوقت شخص آخر غير علي ^(٢) ، شخص يستطيع أن يدور وأن يداهن ،
شخص لم يشترك في الأحداث السابقة أو اشترك فيها بنصيب ضئيل ، ولكن
يجب ألا ننسى أن أية محاولة لتولية شخص غير علي ^{عليه السلام} حينذاك كان لا بد من
فشها ، فتولية علي ^{عليه السلام} كانت قد أصبحت أمراً طبيعياً كما سبق القول .

(١) تاريخ الطبري ٣ : ٤٥٩ وما بعدها .

(٢) تاريخ الطبري ٣ : ٤٥٩ .

والخلاصة أن تولية على كانت طبيعية ، وأن سلوكه كان طبيعياً ، وأن التمرد الذى واجهه كان طبيعياً أيضاً وكان نتيجة لسير الأحداث ؛ وكان صراعاً على السلطة ، وإن اتخذ من أسبابه قتل عثمان ، أو المطالبة بثأره ، أو عزل الولاة ، أو استرداد ما سلب من بيت المال ويقول ، محمد بن سيرين : ما علمت أن علياً اتهم في دم عثمان حتى يورع ، فلما يورع اتهمه الناس ^(١) .

وقد تمخض هذا التمرد الذى عاناه على عن موقعتين حريبتين كبيرتين هما موقعة الجمل وموقعة صفين ؛ وسنتكلم عن كل منهما فيما يلى :

موقعة الجمل :

أخذت هذه الموقعة اسمها من الجمل الذى كانت تركبه عائشة رضى الله عنها زوجة الرسول وبنت أبى بكر الصديق ؛ وخروج عائشة إلى المعركة لتحارب علياً كان حدثاً غير عادى ، ومن ثم ارتبطت هذه الموقعة بعائشة وبجملها ، وإن كان دور عائشة فى الحقيقة ضئيلاً جداً فى هذه المعركة .

وتحليل موقف عائشة يحتاج إلى شيء من الفراغ لن نضن به ، فقد كانت هناك عوامل تحث عائشة على عدم الاشتراك فى هذه المعركة ، وهناك عوامل أخرى كانت تدفع عائشة إلى الاشتراك فيها ، وقبل أن نتكلم عن هذه العوامل وتلك نذكر أن عائشة - كأغلب المسلمين - كانت نائرة على عثمان ، وكانت هى وطلحة من أشد الناس انتقاداً له ، ولما حوضر عثمان تركت عائشة المدينة وذهبت إلى مكة ، فلما قتل عثمان خرجت من مكة تقصد المدينة . فلما عرفت أن البيعة تمت لعلى غضبت ^(٢) وقالت : والله لا يكون هذا الأمر أبداً ، قُتِلَ عثمان مظلوماً ، والله لأطالبن بدمه ، وعادت إلى مكة وقدم عليها بمكة طلحة والزبير ، وقد استأذنا علياً بحجة أنهما يريدان العمرة ^(٣) كما قدم يعلى ابن أمية عامل عثمان على اليمن ومعه ما كان فى بيت مال اليمن من الأموال . وقدم كذلك

(١) ابن هبدره : العقد الفريد ج ٤ ص ٣٠٥ .

(٢) ابن طباطبغا : الفخرى ٦٠ .

(٣) الطبرى ٣ : ٤٦٥ وقد أذن لهما على مع أنه لم يكن يخفى عليه عرضهما ، وقد روى أن قال لهما ؛ والله ما العمرة تريدان .

عبد الله بن عامر من البصرة بمال كثير ، والتف حول عائشة بطبيعة الحال
بنو أمية الذين كانوا بالحجاز وحشت عائشة الجميع على المطالبة بدم عثمان ،
وخرجت ومعها أتباعها تريد البصرة لتستعين بسكانها فيما أقلمت عليه^(١) .

هل كان حزن عائشة على عثمان هو الذى دفعها إلى ذلك العمل ؟ الحقيقة
لا ، فقد كانت هناك دوافع أبعد غوراً ، نذكر أهمها فيما يلي :

١ - كانت هناك وحشة بين على وعائشة عبرت عنها عائشة بقولها :

إنه والله ما كان بينى وبين على إلا ما يكون بين المرأة وأختها^(٢) . ولعل
بعضها يرجع إلى موقف على من عائشة فى حادثة الإفك^(٣) .

٢ - نفيس على على أبى بكر الخلافة وامتنع عن مبايعته زمناً ، فلماذا
تسرع عائشة لمبايعة على ! ولماذا تركه حيناً بهذه الخلافة من أول يوم ؟

٣ - العامل الأكبر والمهم هو عبد الله بن الزبير ؟ فهو ابن أختها أسماء ،
وإذ لم يكن لعائشة أولاد فقد أخذته من أختها ورأته فى بيتها وصار كأنه

(١) المرجع السابق ص ٤٦٩ - ٤٧٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٤٧ .

(٣) حديث الإفك حديث معروف تمتدت عدم ذكره فى هذا الكتاب تأدياً بأدب
القرآن الكريم الذى حثنا على عدم الخوض فيه ، قال تعالى : « ولولا إذ سمعتموه قلتم ما
يكون لنا أن نتكلم بهذا » (النور ١٦) . ورأى أن روى عائشة بالزنا كبيرة بشعة ، وليس
فى تاريخ العرب ما يجعلهم هكذا يستهزلون روى الحرائر بالمهر ، وإنما المسألة كانت من الأشواك
التي توضع حول الرسول والتي يقصد بها عرقلة الدعوة ، وقد لعب المنافقون وعلى رأسهم عبدالله بن
أبى دوراً كبيراً فى ترويع هذه الفرية ، كما ذكرنا من قبل عند الكلام عن « الرسول والمنافقون »
ولكن آيات القرآن الكريم نزلت فقصت على ألسنة السوء قال تعالى « إن الذين جاءوا بالإفك
عصية منكم لانتحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولى
كبره منهم له عذاب عظيم » (اقرأ سورة النور الآية ١١ وما بعدها) ولم يشترك على قط على اتهام
عائشة ولكنه لم يدافع عنها ، ما أغضب عائشة عليه (البخارى وزاد المعاد ٢ : ١١٣ - ١١٥
وابن هشام ٢ : ٢٢٠ - ٢٢٢) وقد رأيت حديثاً كتاباً نشر عن موضوع الإفك ورأى بناء
على ما ذكرت آنفاً أن هذا الكتاب ما كان ينبغي أن ينشر .

ابن لها حتى كانت تسمى أم عبدالله ، وكان عبد الله طموحاً يطمع في الخلافة ، ولكن وجوده على كان يحول بينه وبين تحقيق هذه الأمنية ، فدفع خالته عائشة لتخوض هذه المعركة ضد عليّ ، لعل عليا يسقط فيها فيخلوله الجور ، وكثيراً ما ترددت عائشة في مواصلة العمل لهذه المعركة ، ولكن عبد الله كان يحاول دائماً أن يزيل ترددها ويحملها هذا الحمل الصعب ، فمن الممكن أن نقول إن عائشة دُفعت لهذا العمل وإن الذي دفعها هو عبد الله ، والمرأة هي المرأة على كل حال ، تضعف أمام حيل الرجال ، ولا تقوى أمام وسائلهم ، وقد روى أن عائشة سمعت منازعة أصحابها وكثرة صياحهم فقالت : المنازعة في الحرب خور ، والصياح فيها فشل ، وما برأني خرجت مع هؤلاء^(١). وفي الحوار الرائع الذي جرى بين ابن الزبير ومعاوية في خلافة الأخير يقول معاوية لابن الزبير : . . . وخدمتم أم المؤمنين ، ولم تراعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أبرزتم زوجته للحتوف ومقارعة السيوف^(٢) ، ولعل عبد الله هو الذي دفع أباه أيضاً ليشترك في هذه الموقعة ، وهناك أدلة كثيرة تقود إلى هذه النتيجة ، فمن ذلك ما روى أن علياً قال للزبير : كنا نعدك من بني عبد المطلب حتى بلغ ابنك ابن السوء ، ففرق بيننا^(٣) . ومن ذلك ما روى أن علياً ذكر الزبير بقول الرسول صلى الله عليه وسلم له : ستقاتل علياً وأنت له ظالم ، فتذكر الزبير ذلك وعزم على أن يدع الحرب ، وأعلن عزمه ، فجاءه ابنه عبد الله وحمسه بقوله : لعلك خشيت رايات ابن أبي طالب وعلمت أنها تحملها فتية أمجاد وأن تحتها الموت الأحمر ، فجبنتم^(٤) .

ولعلنا نستطيع أن نسبق التاريخ فنقرر أن طموح عبد الله بن الزبير استمر يدفعه بعد فشل معركة الجمل لينتظر فرصة أخرى ليضع نفسه خليفة ، وقد واثته الفرصة بعد مقتل الحسين في عهد يزيد بن معاوية ، فأعلن

(١) ابن عبد ربه المقد الفريد ج ١ ص ١١٠ .

(٢) المرجع السابق ج ٤ ص ١٨ .

(٣) ابن قتيبة ؛ الإمامة والسياسة ج ١ ص ١٠ .

(٤) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٥١٥ ، ٥١٩ .

نفسه خليفة : وظل يكافح عن ملكه المزعوم حتى دفع رأسه ورموس الآلاف فداء لهذا الطموح . وقد أوردنا تفصيل ذلك في الجزء الثاني من هذه الموسوعة^(١) .

هذه هي العوامل التي دفعت عائشة لتشارك في قيادة الثائرين على علي^٢ أما العوامل التي كانت تعوقها عن الخروج فهي :

- ١ - شهدت عائشة بكاء الآلاف يوم خرجت من مكة لهذه الرحلة المشثومة ، حتى سمى ذلك اليوم يوم النحيب ، ولكن ذلك لم يمنعها من الخروج .
- ٢ - تلقت عائشة خطاباً طويلاً من أم سلمة تعظها وتذكرها أن خروجها للحرب هتك للحجاب الذي ضربه عليها الرسول^(٣) .
- ٣ - أهم من هذا كله الآية الكريمة « وقرن في بيوتكن »^(٤) التي لم ينب عن عائشة مغزاها .

ولكن دفع عبد الله بن الزبير كان أقوى من كل شيء ، فإذا عائشة تفقد كل مقاومة ، وإذا بها ترضع في الهودج ويمشي بها الركب ، وكانت تتجدد فيها المقاومة ، ولكن ابن الزبير كان يسرع فيخمد هذا الخاطر ؛ روى أن كلاباً نبحتها في الطريق فسألت : أين نحن ؟ فقيل لها : عند ماء الحوآب . فقالت : ما أراي إلا راجعة لأنني سمعت الرسول يقول لنسائه : كآئي بإحداكن تبيحها كلاب الحوآب : ولكن ابن الزبير سرعان ما جاءها بمن يقسم لها إن ذلك ليس ماء الحوآب ، واستشهد لها ببعض الأعراب وكان قد أكثرهم لذلك^(٥) .

وينبغي أن نذكر أن حديث الحوآب غير مسلم به ، وقد أنكره كثير

(١) ص ٢١٨ - ٢٢٨ من الطبعة السادسة .

(٢) انظر كتاب أم سلمة لعائشة ورد عائشة عليها في العقد الفريد ج ٤ ص ٣١٦ -

٣١٧ والإمامة والسياسة ج ١ ص ٥٥ .

(٣) سورة الأحزاب الآية ٣٣ .

(٤) تاريخ الطبري ج ٥ ص ١٧٠ وابن قتيبة ؛ الإمامة والسياسة ج ١ ص ٦١ .

من الباحثين القدامى والمحدثين^(١) .

ووصلت عائشة وطلحة والزبير إلى البصرة ، وانضم إليهم خلق كثير ، كان فيهم مروان بن الحكم وبمض بنى أمية ، وأيدها بعض أهل البصرة وعارضها آخرون ، ووقعت مناوشات بين الطرفين قُتل فيها بضع مئات وبخاصة من معارضي عائشة^(٢) . ثم قدم على بجيشه الكبير ، وفيه كثيرون من السبئيين ومن الذين اشتركوا في الثورة على عثمان ، وحاول على أن يثنى عائشة وأصحابها عن قصدهم . ويذكر الذين بايعوه منهم يبيعهم ، وأوشكت هذه السفارات أن تنجح وأن يكفى الله المؤمنين شر القتال^(٣) . ولكن السبئيين الذين أشعلوا الثورة على عثمان وحرصوا على قتله أدركوا أن الصلح بين الطائفتين سيكون على حساب رقابهم ، فعقدوا العزم على بدء الحرب ؛ مدركين أن الحرب وحدها هي التي يمكن أن تحميمهم من المفصلة ، وهكذا بدءوا المعركة في غفلة من على ، وأجابهم أتباع عائشة ، والتحم الفريقان^(٤) .

لأنه يؤخذ على على أن سلطانه على جيشه لم يكن تاما ، ولم يكن شاملا ، بل ربما أخذ عليه أنه اصطحب معه هؤلاء الشياطين من السبئيين واستعان بهم ، ولكن هل كان يستطيع على غير ذلك ؟ ومن معه غير هؤلاء بعد أن اعزله طلحة والزبير وعائشة ، ووقف عن بيعته عبد الله بن عمرو وسعد بن أبي وقاص ، واستعد لحربة معاوية وبنو أمية بالشام . كل ذلك يجعل بعض الباحثين يلومون على لقبوله الخلافة في ذلك الوقت ، وكان ابنه الحسن من أول من لومه على ذلك ، ولكن ألم يبايعه طلحة والزبير ؟ وألم يجتمع عليه وجوه الناس بعد عثمان ؟ وهل كان هناك من يجروء على التقدم لها حينذاك وأبو الحسن هناك كما قلنا ؟

وكانت معركة عتيقة فر منها الزبير لاجئاً ولا خوفاً من الموت ، ولكن لعدم

(١) القاضي أبو بكر بن العربي . المواسم من القواصم ص ١٠٩ وانظر تعليق الناشر في نفس الصفحة .

(٢) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٥٠٣ . (٣) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٣) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٥٣٨ ومنهاج السنة لابن تيمية ج ٥ ص ١٨٥ و ج ٣ ص ٢٢٥ و ٢٤١

إيمانه بأنه على حق فيما أقدم عليه ، وعند عودته مر بماء لبني تميم ، فرآه الأحنف بن قيس فقال : جمع الزبير هذين العسكرين ثم ولى وتركهما ، فثار عمرو بن جرموز لذلك ، وكان في مجلس الأحنف ، فلحق بالزبير خفية حتى جلس دلاً تحت شجرة ليستريح ثم اضطجع وغفا ، فقتله عمرو وهو نائم^(١) . أما طلحة فيروى أن مروان بن الحكم عندما رآه في مطلع المعركة قال : لا أنتظر بعد اليوم بثأري في عثمان فانتزع له سهماً فقتله^(٢) : أما عبد الله بن الزبير فقد ضربه الأشتر أحد قادة على الأشداء حتى سقط ، ولكن لم يجهز عليه وبقى في خندق فلم يشترك في المعركة بعد ذلك واعتبر ذلك منه فراراً^(٣) ، وقد ظل ابن الزبير يعير بفراره وفرار أبيه من هذه المعركة ، فقد روى أنه هاجم عبد الله بن العباس مرة في المسجد الحرام ، فكان مما قاله ابن العباس له مدافعاً عن نفسه . وأما قرك يا ابن الزبير إني قاتلت أم المؤمنين ، فأنت أخرجتها وأبوك وخالك ، أما أنت وأبوك فقد قاتلتما علياً ، فلأن كان علي مؤمناً فقد ضللتكم بقتالكم المؤمنين ، وإن كان كافراً فقد يؤتم بسخط من الله بفراركم من الزحف^(٤) .

وبعد أن اختفى هؤلاء القادة بالموت أو الفرار ظلت المعركة تدور بدون قائد أو تحت قيادة عاتشة شكلياً ، وسقط الآلاف في حماية الحمل وحماية أم المؤمنين أو في الهجوم على عاتشة وعلى حملها كما قلنا ، ثم عتق الحمل وانتهت المعركة بنجاح على ، ولكنه أكرم عاتشة وأعادها إلى مكة معززة مكرمة .

من المسئول عن موقعة الجمل :

لقد كانت هذه أول معركة تدور رحاها بين جيشين مسلمين ، وقد سقط فيها عدد من المسلمين يقدره بعض المؤرخين بعشرة آلاف ويقلده آخرون بأكثر من ذلك^(٥) ، فمن المسئول عن هذه المعركة الخطيرة ؟

(١) العقد الفريد ج ٤ ص ٣٢٣ .

(٢) المرجع السابق ٣٢١ .

(٣) المرجع السابق ص ٤٢٦ و ص ٤١٤ .

(٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ٤١٤ .

(٥) انظر الطبري ج ٢ ص ٤٤٣ وانظر العقد الفريد ج ٤ ص ٣٢٦ .

يجدر بي أن أبين رأيي بوضوح في هذا الصراع ، وفي مسئولية الذين قاموا به ، وطوائف المسلمين تختلف اختلافاً بيناً في تحديد المسئول ؛ ومن طوائف المسلمين من سكّت عن الخوض في هذا الموضوع ، أما السكوت فليس من المصلحة في شيء ، لأن هذه كانت أول معركة - كما قلنا - تدور بين جيشين مسلمين ، ويقف فيها المسلم يواجه المسلم . ويكذب ليريق دمه ، ويفخر بانتبصاره في إراقة دماء إخوته المسلمين . ولم تكن هذه آخر المعارك بين المسلمين ، بل تلاها عشرات أومئات مثلاً ، ولا تزال حتى اليوم نرى في كثير من الأحيان جيشاً مسلماً مهاجماً أو مستعداً للجورم على جيش مسلم آخر ، فليس من المصلحة في شيء أن نسكت ، بل لابد أن نبين المسئولية . ونلقينا على من يستحقها رجاء أن يرتدع الطامعون بعد ذلك ، فلا يضعوا أنفسهم في هذا الموضع الشائك ، فيستحقوا لعنات الناس ، وعذاب الله ، وقسوة التاريخ .

وأما الاختلاف في إثبات المسئولية فارجعه - عندي - سبيان :

أولاً : أن أغلب الباحثين لا يدرسون هذه المشكلة دراسة موضوعية ، بل يتأثرون بأشخاصها فيدفعهم تأثيرهم إلى هذا الجانب أو ذاك دون عمق وبدون إعمال فكر .

ثانياً : أن شيوخ الفرق الإسلامية أنفسهم متأثرون بمكائنتهم في هذه الفرق ، فيغلب أن يتبع الواحد منهم رأى الفرقة التي هو منها ولا يشد عنها : فأهل السنة تراهم أمهل حكماء عدلوا الصحابة جميعاً وتولواهم واعتقدوا نجاحهم ، وقليلاً ما يحاولون أن يحكموا على هذا أو ذاك بالخطأ ، وأحياناً أخرى يذكرون أن الأمر التبس عليهم فيلزمون أنفسهم السكوت ، والحقيقة أنه لم يلتبس وإنما أوشك أن يتضح وأن يقودهم إلى حكم قاس على المذهب ، وهم لا يطيقون أن يصرحوا بإدانة المذهب من هؤلاء ، فيؤثرون أن يغمضوا عيونهم .

وأما الشيعة فإنهم بدون حاجة إلى دراسة ، وبإدء ذي بدء يلقون كل المسئولية على عائشة وأصحابها ، وربما كان الأمر كذلك ، ولكنهم لا يأخذون للنتيجة سبلها بل يصلون لها دون عناء ، ومثل الشيعة الخوارج في هذا الموضوع

وَسَمِهِمْ مَنْ لَا يَكْفُرُونَ بِتَأْنِيهِمْ أَصْحَابُ هَاشِمَةَ بَلْ يَقُولُونَ بِتَكْفِيرِهِمْ .
وَالْمَعْتَزَلَةُ وَهُمْ زُعَمَاءُ الْحَرَكَةِ الْعَقْلِيَّةِ فِي التَّفْكِيرِ الْإِسْلَامِيِّ يَتَأَثَّرُونَ أَيْضاً ،
وَلِلْمَلِكِ نَرِي زُعَمَاءُ هُمْ الْأَفْئَازُ أَمْثَالُ وَاصِلُ بْنُ عَطَاءٍ وَعَمْرُو بْنُ عَبْدِوَالِيٍّ هَذَا
الْعَلَّافُ يَقُولُونَ إِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْفَرِيقَيْنِ مَخْطِئٌ خَطِئاً يَفْسُقُ بِهِ ، وَلَكِنْ أَيْ
الْفَرِيقَيْنِ ذَلِكَ ؟ لَا يَمِينُونَ ^(١) وَرَبِّمَا جَازَى أَنْ أَصْنَعُهُمْ بِأَنَّهُمْ يَسْتَطِيعُونَ التَّعْيِينَ
وَلَكِنَّهُمْ لَا يَرِيدُونَ .

هَلْ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَنْظُرَ إِلَى هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ نَظَرَةً مَوْضُوعِيَّةً بِضَرْفِ النَّظَرِ عَنْ
أَشْخَاصِهَا ، بَلْ مَعَ كَامِلِ التَّقْدِيرِ وَالْإِجْلَالِ لِمَاضِي كُلِّ مَنْ هَؤُلَاءِ الْأَشْخَاصُ ؟
أَرْجُو هَذَا . وَقَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ نَحْبُ أَنْ نَسْتَعِجِلَ الْكُفْرَ ، فَلَيْسَ لِإِنْسَانٍ أَنْ يَكْفُرَ
مَنْ قَالَ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ» مَعْتَقِداً لَهَا ، وَزُعَمَاءُ هَذِهِ لِلْمَعْرَكَةِ مِنْ
هَذَا الْجَانِبِ أَوْ ذَاكَ مِنْ خَيْرَةٍ مِنْ قَالِهَا مُؤْمِناً بِهَا ، وَقَدْ رَوَى عَنْ الرَّسُولِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْلُهُ : طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ جَارَايَ فِي الْجَنَّةِ ، وَسُئِلَ عَلِيٌّ عَنْ
أَصْحَابِ الْجَمَلِ : أَمْشُرُكُمْ هَمْ ؟ قَالَ : مِنَ الشُّرْكِ فَرَوْا . قِيلَ : فَتَنَافَقُونَ هَمْ ؟
قَالَ : إِنْ الْمَنَافِقُونَ لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً . قِيلَ : فَمَا هُمْ . قَالَ : إِخْوَانُنَا
بَغَوْا عَلَيْنَا ^(٢) . فَالَّذِي نَتَكَلَّمُ عَنْهُنَا هُوَ الْمَسْئُولِيَّةُ تَجَاهَ هَذِهِ الْحَرْبِ الضَّرُوسِ
الَّتِي أَكَلَتْ كَثِيرِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَلِنَعِدَ لِتَحْدِيدِ الْمَسْئُولِيَّةِ فَتَسْأَلُ سَوْالاً هَاماً هُوَ :
هَلْ كَانَتْ هَذِهِ الْحَرْبُ حَرْبَ مَبَادِيءٍ ؟ وَهَلْ حَقِيقَةٌ ثَارَتْ عَائِشَةُ لِدَمِ
عُثْمَانَ ؟ وَثَارَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ لِلذَّكَاءِ ؟

لَوْ كَانَتْ الْحَالُ كَذَلِكَ لَمَّا كَانَ الْأَمْرُ ، وَلَمَّا عَدَا اجْتِهَاداً أَخْطَأَ فِيهِ الْمُجْتَبِدُ ،
وَلَكِنْ يَبْدُو أَنَّ هَذِهِ الْحَرْبَ لَمْ تَكُنْ حَرْبَ مَبَادِيءٍ وَلَمْ تَكُنْ مِنْ أَجْلِ دَمِ عُمَرَ .
وَقَدْ سُئِلَ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ - وَكَانَ فِي جَيْشِ هَاشِمَةَ - إِلَى أَيْنَ تَسِيرُونَ .
فَأَجَابَ : لِنَقْتُلَ عُثْمَانَ . فَقَالَ السَّائِلُ : فَاقْتُلُوا قَادَةَ جَيْشِكُمْ فَهَمْ قَتَلَةُ
عُثْمَانَ . وَقَدْ تَرَكَ الزُّبَيْرُ الْمَعْرَكَةَ كَمَا قَتَلْنَا لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ عَلَى حَقٍّ ، وَلَمْ يَكُنْ
يُدَافِعُ عَنْ عَقِيدَةٍ ، وَضَرَبَ مَرْوَانَ طَلْحَةَ بِسَهْمٍ فَأَرَادَهُ . وَلَمْ تَنْجُ إِلَّا عَائِشَةُ ،

(١) الشَّهْرُ سَنَانِي : الْمَلَلُ وَالنَّحْلُ ٢٥ - ٢٦ .

(٢) ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ : الْمَقْدُ الْفَرِيدُ ج ٤ ص ٣٣٠

نجت لأنها أم المؤمنين، وقد ظلت — كما يقول المؤرخون — طول عمرها حزينة تمني لو كانت ماتت قبل معركة الجمل بعشرين عاماً^(١). ويروى أنها لما مرضت مرض الموت قيل لها : تدفينين مع رسول الله ! قالت : لا ، إني أحدثت بعده حدثاً ، فادفنونى مع إخوتى بالقيع^(٢).

إن هذه المعركة كانت لأطماع شخصية^١، وكانت تنفيساً عن كراهية شخصية. والأطماع الشخصية تتمثل فى عبد الله بن الزبير^(٣)، والكراهية الشخصية تتمثل فى عائشة. أما عبد الله فقد حل أكبر قسط من المسؤولية لأنه دفع خالته لتحقيق أحلامه، وأما الكراهية الشخصية فقد كانت تتمثل فى عائشة، فلما لم تكن على وفاق مع على وبيوء طلحة والزبير بقسط من المسؤولية لأنهما اشتركا فى دفع الناس إلى هذا الأتون.

وخطأ على^٤ ينحصر — كما قلنا سابقاً — فى أنه لم يكن له سلطان كامل على جيشه، فكان هو يسعى للصلح، وبين أتباعه من يعد المؤامرات لإشغال النار. ولو كان له سلطان كامل على جيشه لكان من الممكن ألا تقوم الحرب. فعبد الله بن الزبير — قبل الجميع — هو المسئول عن هذه الحرب الضروس وأقرر أتى لم أجده من المؤرخين من ألقى التبعة على عبد الله بن الزبير، حتى فى الكتب التى خصصت لهذا البحث مثل «عائشة والسياسة» للأستاذ سعيد الأفغانى و«على وعائشة» للأستاذ عمر أبو النصر، والباحثون القدامى والمحدثون أياً كانت ميولهم يلقون التبعة على طلحة أو الزبير أو عائشة أو على، ونسوا ابن الزبير وهو عندى مشعل هذه النار وإن استتر خلف الثلاثة الكبار.

وهناك شيء آخر نحب أن نبرزه عند الحديث عن القتل، وهو أن التاريخ يروى أن الآلاف الذين سقطوا فى هذه المعركة سقطوا باسم التمخوة والمروعة مدافعين عن أم المؤمنين وجملها، فأما المؤمنين وجملها كلفا المسلمين آلاف الأنفس من المدافعين والمهاجمين، فلما خرب الجمل وقفت المعركة

(١) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٥١١.

(٢) المقد الفريد ج ٤ ص ٣٣١.

(٣) أوردنا فى الصفحات السابقة مزيداً من القول عن الدور الذى لعبه ابن الزبير لإشغال

الحرب، والذى استحق به أن يتحمل المسؤولية.

رباه ! إن تكن قد غفرت للمخطئين في هذه المعركة فألهم المسلمين
التوفيق حتى لا يقف مسلم مرة أخرى يقتل أخاه ، ويجد الفخر في إزهاق
أرواح إخوته المسلمين .

بقيت كلمة أخرى نضيفها إلى ما ذكرناه عن عبد الله بن الزبير لعلها
تلي مزيداً من الضوء على شخصيته ، وهذه الكلمة تتعلق بارتباطه بالسيدة
عائشة في قصة أوردها ابن حزم ، وذكر فيها أن عائشة تصدقت مرة بسعة
وكرم ، ولكن يبدو أن ابن الزبير كان يتطلع لمال عائشة لينحدر إليه عن
طريق ميراث أمه أو عن أى طريق آخر ، فاعترض على تصرفات عائشة ،
وهدد بالحجر عليها ، وغضبت عائشة لذلك وقاطعته ،

وفيما يلي نص كلام ابن حزم :

نروى هذا الخبر عن طريق عبد الرازق عن معمر عن الزهري عن عوف
ابن الحارث ابن أخي عائشة أم المؤمنين لأمها ، إن عائشة حدثت أن عبد الله
ابن الزبير قال في بيع أو عطاء أعطته : والله لئن تئنين عائشة أو لأحجرن
عليها ، فقالت عائشة : أو قال هذا ؟ قالوا : نعم : فقالت : والله لا أكلم
ابن الزبير كلمة أبداً ، وقاطعته ، ولكنه تشفع لها وبكى لعبد الرحمن بن
الأسود والمسور ابن مخزومة حتى كلمته وكفرت عن يمينها .

ويعلق ابن حزم على ذلك بقوله : إنها طامة الأبد ، لاندري كيف استحل
ابن الزبير أن يرتكب هذه الخطيئة ، والله يغفر له إذ أراد مثله في كونه من
أصاغر الصحابة أن يحجر على مثل أم المؤمنين وهو لا يكاد يتجزى منها في
الفضل عند الله تعالى ، ولا يخلو الأمر من أن يكون ابن الزبير أخطأ وأصاب
مى وهو كذلك بلا شك ، أو يكون أصاب وأخطأ ومعاذ الله من هذا^(١)

(١) المجلد ٨ من ٢٩٢ - ٢٩٣ .

موقعة صفين^(١) :

حدثت موقعة صفين بين علي ومعاوية ، وقبل الحديث عنها يجدر بنا أن نستعرض حالة القوى العسكرية والإمدادات الحربية في العالم الإسلامي قبل بدء المعركة :

كان علي وأتباعه يعتقدون أن معركتهم الأولى والأخيرة يجب أن تكون ضد الأمويين الذين يقودهم معاوية بن أبي سفيان مؤيداً بأهل الشام ، فعاوية هو ابن عم عثمان ، وهو زعيم بني أمية ، وله جاء عريض بين جنده وأتباعه بالشام ، ولم يكن طلحة والزبير - بعد بيعتهما لعلي - محسوبين من الأعداء الألداء . وكذلك لم يظن ظان أن الحماسة والكرامية بين عائشة وعلى مستلغ بأم المؤمنين أن تقود الجيوش وتخوض معارك الحرب ، وعلى هذا فاستعداد على اتجه لمقاومة معاوية من أول الأمر ، ولكن الأحداث تطورت ورأى على أنه لا بد من الاطمئنان إلى ظهوره قبل أن يفرغ لأهل الشام ، فخاص معركة الجمل .

ما نتيجة معركة الجمل ؟

تبعها الساذجة أن علياً انتصر ، ولكن نتائجها الحقيقية كانت أعمن من ذلك ، لقد خر من جيش على عدة آلاف يقدرها المؤرخون بخمسة آلاف أو أكثر^(٢) ، فضعف بذلك جيش على ، وخر من أهل مكة والمدينة والبصرة ممن تبعوا عائشة وأصحابها عدد أكبر من ذلك ، وخطف هؤلاء القتل جراحاً تثير الحقد على علي ، ثم إن جيوش على كانت حديثة الصلة به فليس له عليها يد ، وليس معه مال يغدق على الأبطال وينعم على الشجعان ، وإن كان معه مال فليس على بالذي يعطى من مال الله في ضروجه . وعلى هذا كان مع على أشنات من الناس أكلت منهم الحروب وليس هناك ما يكمل جراحهم . وفي الجانب الآخر من العالم الإسلامي كان يقف معاوية متمخذاً من دمشق عاصمة لإمارته التي تولاها منذ عهد عمر بن الخطاب ، وقد أضاف إلى إمارته

(١) من أهم المراجع التي نوصي بقراءتها في هذا الموضوع كتاب « وقعة صفين » لنصر

ابن مزاحم الذي حققه الأستاذ عبد السلام هارون .

(٢) هذا هو المشهور في أكثر الروايات ، ويرى ابن عبد ربه أن من مات من جيشه

على كان خمسمائة فقط أما جيش عائشة فقد خر منه عشرون ألفاً (انظر المقد الفريد ج

ص ٢٢٦) وذلك تقدير مبالغ فيه فيما أعتقد .

التي تولاهما منذ عهد عمر بلداناً أخرى ضمها إليه عثمان ، وهكذا امتدت
 الستون بابين أبي سفيان في الشام وهو سياسي ضليع ، يعرف الوميلة إلى قلوب
 الناس عن طريق الدهاء أو العطاء ، والشام بلاد غنية فتيه لم يعرف سكانها
 منذ دخلوا الإسلام أو دخل الإسلام بلادهم حكماً أزهى ولا أطول من حكم
 معاوية ، وانضم حول معاوية آلهة الدهاء في الجزيرة العربية وعلى رأسهم عمرو
 ابن العاص ، كما تجتمع حوله بنو أمية أو أكثرهم وكثير غيرهم من بطون
 العرب وقبائلها ، وكان لدى معاوية جيش لا يعرف غيره ولا يطيع سواه ،
 وزاد نفوذ معاوية إبان حكم عثمان فأصبح في الواقع الحاكم الأعلى والمرجع
 النهائي لكل الأمور ، وبينما كان على ميخوض معركة الجمل ويفقد من جيشه
 عناصر صالحة ، كان معاوية يقوى جيشه ويدعمه ، ويفرق على أتباعه المال
 ويشيرهم ضد قتلة عثمان ، وينصب لهم على المنبر فيص الخليفة ملوثاً
 بدمه وقد علقت به أصابع زوجته التي قطعها الذائرون وهي تنلق عن زوجها
 الضربات ، ويتخذ من ذلك أساساً لفيض من الكراهية ينميه ضد علي المذني
 أنهم بأنه كان يحمي القتلة ويستعين بهم ، وكان أهل الشام - كما لا يزالون
 دائماً - يحملون فكرة هامة هي أن إسناد الخلافة إلى علي معناه ثبوت الأمر
 لبني هاشم ، وكانوا يرون كما يرى أغلب المسلمين وجميع الباحثين أن الخلافة
 من حق المسلمين كافة لا يختص بها بنوهاشم ، كما أن حياتهم قد طالت وطابت
 في ظل معاوية ، فلماذا لا يحرصون عليه ، ويشدون أزره ، لتدوم لهم هذه الحياة ؟

في مثل هذا الجو زحف على لمقابلة جيوش معاوية ، والتقى الجيشان في
 موضع سهل على الفرات يقال له صفين ، والحق يقال إن علياً كان كالعهد به
 دائماً يميل إلى السلم والمودعة ، فقد قلب أول الأمر أتباع معاوية على الماء
 ومنحرا عنه أتباع علي ، فناهضهم على حتى أجلاهم عن الماء ثم لم يمنهم
 عنه (١) ، وكتب على عدة كتب وأرسل عدة رسل لدعوة معاوية إلى البيعة
 وإلى الاتفاق ، ولكن هل كان سهلاً على معاوية أن يترك ملكاً شامخاً
 ويستجيب لدعوة علي ؟

والتقى الجيشان ووقعت المعارك عدة أيام ، وكان من أبرز أنصار على ، القائد العظيم مالك الأشتر واستطاع على ببطولته الشخصيه وبحماسة بعض أتباعه أن يكرن من جيشه قوة غالبية كسبت له النصر ، وبما ضمن لعلى النصر في هذه الموقعة إيمانه العظيم بالقضاء والقدر ، وأخذه من هذه العقيدة قوة غلاله ولاصحابه ، يروى ابن عبدربه^(١) أن علياً كان يخرج كل يوم بصفين حتى يقف بين الجيشين ويقول :

أى يومى من الموت أفرّ يوم لا يُقدَّر أو يوم قُدِّر
يوم لا يقدر لا أربه ومن المقدور لا ينجى الخمر

ولما أدرك معاوية هزيمة جيشه صاح بعمر بن العاص : هلم مخباتك يا ابن العاص فقد هلكنا . فهتف عمرو بجنده : من كان معه مصحف فليرفعه على رجمه . فرفعوا المصاحف وقالوا : كتاب الله بيننا وبينكم ، وكأنما صادف هذا الحثاف هوى فى نفوس أتباع على الذين كانت الحرب قد أرهقتهم . فاستجاب أكثرهم ، وحاول على أن يحثهم على مواصلة الحرب حتى ينالوا النصر الكامل ولكنهم لم يستجيبوا له وأرغموه على إعلان إيقافها ، ففعل^(٢) ويروى أن بعض أتباع على ثاروا في وجهه قائلين : القوم يدعوننا لكب الله وأنت تدعوننا للسيف . وهددوه بأنهم سيقاتلونهم إن لم يتوقف عن قتال المسلمين^(٣)

هل كان مع أهل الشام مصاحف يرفعونها والحرب دائرة ؟ ربما ، ولكن ابن قتبية يروى لنا رواية أقرب إلى المنطق من تلك الرواية الشائعة التي أوردناها آنفاً ، يقول ابن قتبية : إن الهزيمة ظهرت في جيش معارية وبدأ الوهن ، فقام على في ليلة من الليالي يتوعد أهل الشام ويذكر أنه سيخوض المعركة بنفسه خذاً ليصل إلى نهاية حاسمة ينجي بها ثمار ما أحرزه جيشه من انتصارات ، فلما بلغ معاوية قول على هذا استشار عمرو بن العاص فقال له عمرو : إن رجالك

(١) المقد الفريد ج ١ ص ١٢٣ .

(٢) قدريخ الطبرى ج ٤ ص ٣٤ وما بعدها .

(٣) الشهر ستاني . الملل والنحل ج ١ ص ١٥٠ .

لا يقومون لرجالهم ، ولا أقوم أنا ولا أنت له ، فأنت تقاتله على أمروقاتك على غيره ، وأنت تريد البقاء وعلى يريد القضاء ، وليس يخاف أهل الشام من على ما يخافه منك أهل العراق ، فادعهم إلى كتاب الله فإنك تقضي منه حاجتك قبل أن ينشب غلبه فيك . فأمر معاوية أهل الشام أن ينادوا في سواد الليل نداء فيه صراخ واستغاثة يقولون : يا أبا الحسن منْ للربنا من الروم إن قَتَلنا ؟ الله الله البقيا ، كتاب الله بيننا وبينكم . وأصبحوا وقد رفعوا المصاحف على الرماح وقلدوها أعناق الخيل ^(١) .

وجاءت الهزيمة إلى على من هذا الطريق ، وإن المؤرخ ليستعرض حياة على العسكرية فيجده قد انتصر في المعارك التي خاضها كلها ، انتصر في موقعة الجمل ، وفي موقعة صفين ، وفي مواقعه ضد الخوارج ، ولكنه كان يهزم في مواقف الدعاة ، لأنه فيما اعتقد لم يؤثر الدنيا على الدين ، ولأن أتباعه أشد من كفا وصفنا آنفاً ، ليس له عليهم يد قوية . ولعل ذلك ليس من أخطائه بل من فعل الظروف التي لم يخلقها على ، وقد وضع معاوية أسباب انتصاره على على بقوله : أعنتُ على على بأربع ، كنت رجلاً أكرم سرى وكان رجلاً يظهره ، وكنت في أطوع جند وأصلحه وكان في أخبث جند وأعصاه ، وتركته وأصحاب الجمل وقتل : إن ظفروا به كانوا أهون على منه وإن ظفروا بهم اعتددت بها عليه في دينه ، وكنت أحب إلى قريش منه . فيالك من جامع إلى ومفرق عنه ، وعرون لي وعرون عليه ^(٢) .

التحكيم :

وهكذا توقفت الحرب بين على ومعاوية واتجه الأمر إلى التحكيم واتفق الرأي على أن يولى أهل العراق حكماً وأن يولى أهل الشام حكماً ، وأن يجتمع الرجلان لبحث أسباب الخلاف رجاء الوصول إلى حل ، وقد ارتضى أهل الشام عمرو بن العاص بإجماع منهم ، واختلف أتباع على ، وقدم أغلبهم

(١) الإمامة والسياسة ج ١ ص ١٤٠ تصنع على مزيداً من التفاصيل الدقيقة لهذا الموضوع في الجزء الثاني من هذه الموسوعة عند الكلام عن قيام الدولة الأموية .

(٢) المبرد : الكامل ج ٢ ص ٦٩٩ - ٧٠٠ .

أبا موسى الأشعري على غير رغبة من علي ، واجتمع الحشكان في شهر رمضان سنة ٢٧ هـ ولم يكن هناك تكافؤ في هذا التحكيم فعمر بن العاص استأذ الداه في الجزيرة العربية ، وأبو موسى فيه طيبة وبسر : وعمر ويربط مصيره بمصير معاوية وليس كذلك أبو موسى ، وخلفاء عمرو قوة موحدة إن كانت قد هُزمت في المعركة فإن الهزيمة لم تتم ، وقد أعلن اسماء أحرارهم واستعدوا من جديد ، وخلفاء أبي موسى أثبات متفرقوا الكعبة عطفوا للرأي . وفي الاجتماع دار نقاش طويل يرويه الطبري (١) والمصعودي (٢) ، وقد لعب فيه دهاء عمرو دوراً كبيراً وانتهى فيه إلى أن عثمان قتل مظلوماً ، أن من قتل مظلوماً فإن لوليه سلطاناً ، وأن معاوية هو أولى الناس بالمطالبة بدم عثمان . . ثم تحول النقاش إلى اقتراح عزل علي ومعاوية وترك الأمر للمسلمين ليولوا أمرهم من يشاءون ، وقدم أبو موسى الاقتراح فوافق عليه عمرو : وتقدم أبو موسى فأعلن الاقتراح ، وتبعه عمرو فأعلن موافقته على عزل علي وأعلن تثبيتته لمعاوية (٣)

على أن الناقدين المحققين في العصر الحاضر يميلون إلى الاعتقاد بأن الذي جرى فعلاً هو أن الحشكين خطعا كلا الزعيمين ، وهذا مؤداه أن علياً ومعه هو الذي خلع إذ لم يكن معاوية خليفة بعد (٤) .

وعلى أي حال فإن خبر التحكيم على هذا الوضع يقبله بعض المؤرخين ويرده بعضهم ، وليس هذا الخبر بأكبر الأهمية عندى لأنه لم يرد به قتل نتيجة مرضية ، وإنما يلجأ له معاوية لينجو من هزيمة بدأت تظهر ، وقد نجا فعلاً من الهزيمة ، وهب أن عمراً قرر فعلاً عزل معاوية فهل كان عزل معاوية موضوعاً يستطيعه عمرو بن العاص أو أبو موسى الأشعري ؟ وهناك تفصيلات مهمة لها صلة بهذا الموضوع أوردناها عند الحديث عن الخوارج في الجزء الثاني من هذه الموسوعة (٥) .

(١) انظر تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٤٩ وما بعدها .

(٢) أنظر مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤ وما بعدها .

(٣) ابن طباطبة ، الفخرى ص ٦٦ (٤) فيليب خن ، تاريخ سوريا ص ٢٢ .

(٥) ص ٢١٤ وما بعدها .

بعد التحكيم :

كانت نتيجة التحكيم في صالح معاوية لا لإعلان عزل علي وتثبيت معاوية ، ولكن لأن الانقسام بعد التحكيم قد ظهر واضحاً في جيش علي ؛ وبدأ الجوارح يثرون على علي ويعزلونه لأنه قبل التحكيم^(١) ، والعجيب أنه كان بين الجوارح كثيرون ممن أرغموا علياً على قبول التحكيم ؛ وكانوا يعترفون بذلك ويقولون لعلي : أخطأنا فلماذا تتبعنا في خطئنا ، وأنت الخليفة يجب أن تكون أبعد نظراً وأعق رأياً . ولم يكتف الجوارح باعتزال علي ، بل أخذوا يرتكبون الآثام ويعتدون على الناس في العراق ، وحاول علي أن يرشدهم للحق بمختلف الطرق فلم يستطع ، ولم يجد بداً من محاربتهم ، وكان كلما انتصر على جيش منهم ظهر جيش آخر ، وبدأ كبار الصحابة كسعد بن أبي وقاص وعبدالله بن عمر بذهيرون إلى الشام وينضمون إلى معاوية لتبوث أمره ولتوفر الاستقرار عنده ، واستطاع معاوية بدهائه أن يضم مصر إليه بعد معركة قادها عمرو بن العاص ، وتبعاً لما برويه المؤرخون فإن الطريقة التي اتبعها معاوية حتى ضم مصر إليه كانت لوناً من ألوان دهائه وحذقه السيامي ، ولا شك أنها تحسب - إن صح - من غفلات أمير المؤمنين ، فقد روى المؤرخون أن قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري كان والياً على مصر من قبيل علي بن أبي طالب ، وكان ضابطاً لها ، ولم يستطع معاوية أن يأتيه من أية ناحية من نواحيه ، فأعمل الحيلة ، وانتهى إلى أن تشاع أن قيساً من أنصاره وأنه يعاونه سراً ، وجازت الحيلة على علي وبخاصة أنه كان بمصر جماعة من أنصار عثمان ولكن قيساً وادعهم ، وهم وادعوه ، وهدأت البلاد ، ففهم علي من مواده قيس لهم أنه حقيقة على اتصال بمعاوية وأنه يميل إلى أنصار عثمان ، فعزله ، وعين بدله محمد بن أبي بكر ، ولم يكن محمد في كياسة قيس ، فاشتبك في حرب مع أنصار عثمان ، وزحفت جيوش معاوية بقيادة عمرو بن العاص ومعه معاوية بن خديج ألد أعداء محمد

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٤٦ وما بعدها .

ابن أبي بكر، وانضم جيش عمرو لأهداه عميد . وكان تقتصر عمرو، وقتل محمد بن أبي بكر^(١)، وهكذا كان أمر علي في نقصان، في حين كان أمر معاوية في ازدياد متصل .

نهاية علي :

لم يستقر الأمر على يوماً واحداً طيلة مدة خلافته ، وكان يرفع خرقاً فتظهر له ألوان أخرى من البلى . ويظهر الثوب متهاطلا . ومن هنا يبدو النصيب والحظ فيما يمرض من أمور : وبينما كان عليّ بعد العدة لحملة جديدة على معاوية كانت هناك مؤامرة ثلاثية تدبر للقضاء على عليّ ومعاوية وعمرو ابن العاص ، ومدير هذه المؤامرة هم ثلاثة من الخوارج اتفقوا على التخلص من الزعماء الثلاثة في ليلة واحدة . فاتجه عبد الرحمن بن ملجم لقتل علي بالكوفة ، واتجه البرك بن عبد الله التميمي إلى الشام لقتل معاوية . واتجه عمرو بن بكر التميمي إلى مصر لقتل عمرو بن العاص . وقد نجح ابن ملجم من بين هؤلاء الثلاثة . فطعن علياً بسيفه طعنة قاتلة وهو نأدى للصلاة . وأمسك به المصلون ، فلما مات علي قتل ابن ملجم فيه ، أما البرك فقد طعن

(١) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٥٥١ - ٥٥٢ وتنسب المراجع التاريخية لمازاة قصصاً ماثلة لهذه القصة استطاع بها معاوية أن يقضى على أعد خصومه ، فيروى المبرد أن أحد بطارقة الروم كان شديد الكيد للإسلام : شديد الرغبة في الإيقاع بالمسلمين كلما سحت له فرصة ؛ فعرف معاوية ذلك ، فسأل ، أي الطرف في أرض المسلمين يجلب هذا الطريق ، فلما عرف ما يجلب الطريق أهداه له ، وتكررت هداية للطريق حتى عرف ما بين معاوية والطريق من صلة ، وظل الطريق مستمرا في الكيد للمسلمين حتى لا يظن أحد أن قبوله هدايا المسلمين ربط بينه وبينهم ، ثم إن معاوية كتب لهذا الطريق رسالة جعلها في وضع كأنها سر من الأسرار ، وأبدى معاوية في هذه الرسالة رضاه عن سلوك الطريق في تطاهره بالكيد للمسلمين ، وأكد له ثقته فيه وفي رسالته الأخيرة التي رسم فيها ما بعده من ثورة على الإمبراطور . وطلب معاوية من حامل رسالته أن يتعرض لأن يظهر الكتاب بطريقة خفية ، وضبط الكتاب وجلب الطريق ونجحت مكيدة معاوية (انظر السكامل للمبرد - ص ٤٥٥) .

معاوية طعنة غير قاتلة ؛ وأما عمرو بن بكر فقد جالس يرقب عمر ابن العاص ليخرج لصلاة الفجر ؛ ولكن هذا لم يخرج لمرض ألم به ، وأتاب عنه خارجة ابن حبيب السهمي ليصل بالناس فظعن عمرو بن بكر خارجة وهو يحسبه عمراً بن العاص^(١) .

وانتهى بذلك على صاحب أفصح لسان ، وأقوم حسام ، وأعمق عرفان ، بين أتباع الرسول صلوات الله عليه ، وانتهى بهلى عهد الخلفاء الراشدين .

مصرع عمر وعثمان وعلى :

وآلآن بعد أن تحدثنا عن مصرع كل من هؤلاء الخلفاء على حدة ، وعن اليد الأثيمة التي امتدت لكل منهم ، نحب أن نتحدث عن الدوافع الحقيقية لهذا العدوان ، وعن اليد التي كانت تبعث من وراء سنار فتحرك أبا لؤلؤة والسبثيين وابن ملجم .

وتكاد النصوص تزيج السنار عن حقيقة مؤلة هي أن الموالي هم الذين دبروا المؤامرات لقتل الخلفاء الثلاثة ، فقد صعب على رؤساء الفرس أن يزول مجدهم وأن ينقل السلطان للعرب ، فدبروا هذه المؤامرات ، لا لاستعادة السلطان فلم يكن لذلك من سبيل ، بل للثأر لكبريائهم ولأناداهم الذين فتكت بهم أو شردتهم سيوف المسلمين ، وقد وجد رؤساء الفرس من يساعدهم من بين الأتباع الذين كان لهم حياه ومال في النظام القديم وفقدوه في ظل الإسلام ، فاستهانوا بالحياة ، ويروى ابن سعد^(٢) أن أبا لؤلؤة كان من أشد الموالي تعصباً لقومه . وكان كلما مر به صبي من السبي مسح رأسه بيده وقال : أكل كبدي عمر . وقتل أبو لؤلؤة عمر ثاراً لقومه .

ولا تبرأ يد الموالي من قتل عثمان : فإنهم هم الذين أذاعوا الأراجيف ونظموا الدسائس ، ووضعوا الأحاديث ، وحركوا الجموع وقادوهم حتى تمت هذه الجريمة النكراء^(٣) .

(١) ابن مطاطبا ؛ القفرى في الآداب السلطانية ص ٧٢ - ٧٣ .

(٧) الطبقات ج ٥ ص ٢٦٣٢ .

(٤) انظر الصراع بين الموالي والعرب للدكتور محمد بدیع شریف ص ٣١ .

وعن اغتيال علي يروى لنا المبرد نصاً يربط الحادثة الزكراء بالموالى أيضاً ، فقد ذكر أن المؤامرة التي ذهب عليّ ضحيتها لا تختلف عن المؤامرة التي ذهب الخليفة الثاني ضحية لها ، فقد رأس تلك الهرمزان ودبر هذه زداويه فلم تكن مجرد نقمة من الخوارج بل مؤامرة لعبت فيها أيدي الموالى^(١) على في الميزان .:

تحدثنا في مطلع الكلام عن عليّ ، عن الصفات النادرة التي امتاز بها كرم الله وجهه عليّ أنداده . وكذلك تحدثنا عن مواقفه الخالدة مدافعاً عن الإسلام وراداً عنه أعداءه ، وكذلك تحدثنا عن سابقته وفضله وعلمه وفصاحته ، والحديث عن عليّ في هذا المجال طويل ، وربما كان من الحديث المعاد ، فلن تستطيع هذه العجالة أن تلم بما له من فضل ، وأن تحوى ما امتاز به من مكانة سامية في شتى النواحي .

ولاستكمال البحث نورد هنا بعض ما أخذ عليه ، وأهم ما أخذ عليه اعتقاده أنه صاحب الحق الأول في الخلافة بعد الرسول ، وأنه أولى بها دون سائر الناس ، وأن منحها لسواه قبله كان تخطياً له غير مشروع .

وبما أخذ عليه عدم استشارته شيوخ عصره في الأمور ، وإهماله لمشورهم إن تقدموا بها ، ولما عاتبه طلحة والزبير في ذلك قال لهما : أي شيء جهلته حتى أستشير فيهما ؟

وفي قضية عبيد الله بن عمر وقتله الهرمزان (وقد سبق إيراده) نجد علياً يريد أن يعيد محاكمته وقتله مع أن عثمان قضى فيها منذ اثني عشر عاماً ونحمل مسئوليتها ، ولذلك نجد عبيد الله يهرب إلى الشام وبصير من القادة في جيش معاوية^(٢)

وكان عل كثر التشكيك في عماله ، وربما تأثر بالشك فاتهمهم ، ولم يسلم من ذلك عبدالله بن العباس مما جعله يترك البصرة مقر ولابته ويعزل بمكة ويقول أستاذنا الخضرى : إن من أكبر الأسباب في عدم استقامة الأمر لعلي يرجع إل عقيدته في نفسه ، وثقته المتناهية بما يراة ، واستغنائه عن

(١) المبرد : الكامل ٢ ص ٥٤٩ : وما بعدها .

(٢) النورى ، تهذيب الأسماء القسم الأول ١ ص ٣١ .

رأى الأشياخ من قریش : شدته عليهم ، ويقارن أستاذنا الحضري بين عمر وعلى في الشدة فيقول : إن عمر كان يشتد والأمة كلها معه ولكن علياً كان يشتد ومعظم الأمة عليه^(١) .

أما موقف المسلمين من علي فيلخصه الشعبي بقوله : كان علي بن أبي طالب في هذه الأمة مثل المسيح عيسى بن مريم في بني إسرائيل : أحبه قوم فكفروا في سبه ، وأبغضه قوم فكفروا في بغضه^(٢) .

والحمد لله في البدء والختام

وإلى اللقاء في الجزء الثاني

(١) تاريخ الأمم الإسلامية - ٢ ص ٨٤ .

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد - ٤ ص ٣١٢ .

ثبت المراجع

ملاحظتان :

١ - المصادر المذكورة هنا هي التي اعتمد عليها هذا الكتاب ووردت في ذيل صفحاته أما المراجع التي أسهمت بطريق غير مباشر فلم تذكر في هذه القائمة .

٣ - رتب هذه المصادر حسب الترتيب الأبجدي لأسماء مؤلفيها ، مع اعتبار الاسم المشهور للمؤلف (فتلا ابن خلدون وليس عبد الرحمن بن محمد) ومع عدم اعتبار [ابن - ال] .

- ١ - القرآن الكريم.
- ٢ - مجموعة من كتب التفسير
- ٣ - كتب الأحاديث الستة
- ٤ - مجموعة من كتب الفقه
- ٥ - دراسات موقعية (على الطبيعة)
- ٦ - Encyclopaedia of Islam
- ٧ - بعض المحلات العلمية
- ٨ - ابن أبي أصيبعة طبقات الأطباء
- ٩ - ابن الأثير الكامل في التاريخ
- ١٠ - أحمد أمين ضحى الإسلام
- ١١ - أحمد أمين يوم الإسلام
- ١٢ - أحمد التاجي سيرة النبي العربي
- ١٣ - دكتور أحمد الحوفي : الحياة العربية من الشعر الجاهلي
- ١٤ - دكتور أحمد شلبي (الأجزاء الأخرى من هذه الموسوعة)
- ١٥ - المجتمع الإسلامي
- ١٦ - تاريخ التربية الإسلامية

- ١٧ - دكتور أحمد شلبي تاريخ التشريع الإسلامى وتاريخ النظم القضائية فى الإسلام .
- ١٨ - دكتور أحمد شلبي السياسة فى التفكير الإسلامى
- ١٩ - دكتور أحمد شلبي الاقتصاد فى التفكير الإسلامى
- ٢٠ - دكتور أحمد شلبي الحياة الاجتماعية فى التفكير الإسلامى
- ٢١ - دكتور أحمد شلبي الجهاد والنظم العسكرية فى التفكير الإسلامى
- ٢٢ - دكتور أحمد شلبي مقارنة الأديان والمسيحية
- ٢٣ - دكتور أحمد شلبي الإسلام
- ٢٤ - Edward Carr : What is History
- ٢٥ - الأزدي فتوح الشام
- ٢٦ - الأزرق أخبار مكة
- ٢٧ - الأصمغاني الأغاني
- ٢٨ - Iies Lictenstrdter Islam and the Modern Age
- ٢٩ - isaiah Berlin Karl Marx
- ٣٠ - Browne A Literary History of Persia
- ٣١ - ابن بشر عنوان المجد
- ٣٢ - البلاذرى فتوح البلدان
- ٣٣ - البلاذرى أنساب الأشراف
- ٣٤ - البغدادى : عبدالقاهر : الفرق بين الفرق
- ٣٥ - البغدادى : محمد أمين : سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب
- ٣٦ - التبريزى شرح المعلقات العشر
- ٣٧ - Collingwood The idea of History :
- ٣٨ - Thomas Arnold The Caliphate
- ٣٩ - Thomas Arnold The Preaching of Islam
- ٤٠ - الجاحظ كتاب التاج فى أخلاق الملوك
- ٤١ - الجاحظ البيان والتبيين

- ٤٢ الجاحظ الرسالة العثمانية
- ٤٣ — Gibb Muhammadanism
- ٤٤ — Goldziher مذاهب التفسير الإسلامى «ترجمة الدكتور النجار»
- ٤٥ — الجهشيارى كتاب الوزراء والكتاب
- ٤٦ — د. جواد على تاريخ العرب قبل الإسلام (الطبعة الأولى)
- ٤٧ — جورجى زيدان تاريخ التمدن الإسلامى
- ٤٨ — جوزيف هورس قيمة التاريخ (ترجمة الشيخ نسيب وهبة الحازن)
- ٤٩ — حاجى خليفة كشف الظنون
- ٥٠ — حافظ وهبة جزيرة العرب فى القرن العشرين
- ٥١ — ابن حزم الفصل فى الملل والأهواء والنحل
- ٥٢ — ابن حزم المحلى
- ٥٣ — ابن حجر تهذيب التهذيب
- ٥٤ — دكتور حسن إبراهيم تاريخ الإسلام السياسى
- ٥٥ — خالد محمد خالد رجال حول الرسول
- ٥٦ — الحضرى تاريخ الأمم الإسلامية
- ٥٧ — الخطيب البغدادى تقييد العلم
- ٥٨ — ابن خلدون المقدمة
- ٥٩ — ابن خلدون العبر
- ٦٠ — دوايت دونالدش عقيدة الشيعة
- ٦١ — الذهبى تاريخ الإسلام
- ٦٢ — الذهبى سير أعلام النبلاء
- ٦٣ — A Short History of Africa : Roland Oliver and J Fage
- ٦٤ — les Religion de l'Afrique Noire : Hubere deschands
- ٦٥ — السبكى طبقات الشافعية الكبرى
- ٦٦ — السخاوى الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ
- ٦٧ — سعيد الأفغانى عائشة والسياسة
- ٦٨ — سيد المرصنى أسرار الحماسة (الطبعة الأولى)

- ٦٩ - سيديو تاريخ العرب العام (ترجمة عادل زعير)
- ٧٠ - ابن سعد الطبقات
- ٧١ - A Short History of the Saracens : Sayid Ameer Ali
- ٧٢ - السيد قاضي أبو العزائم أسرار القرآن
- ٧٣ - السيوطي تاريخ الخلفاء
- ٧٤ - السيوطي حسن المحاضرة
- ٧٥ - الشهرستاني الملل والنحل
- ٧٦ - صادق غرجون خالد بن الوليد
- ٧٧ - صلاح الدين المنجد خطط دمشق
- ٧٨ - ابن طباطبا الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية
- ٧٩ - الطبري تاريخ الأمم والملوك
- ٨٠ - دكتور طه حسين الفتنة الكبرى « عثمان »
- ٨١ - دكتور طه حسين الفتنة الكبرى « علي وبنوه »
- ٨٢ - دكتور عائشة عبد الرحمن نساء النبي
- ٨٣ - عباس العقاد مبادئ الإسلام وأباطيل خصومه
- ٨٤ - « » عبقرية محمد
- ٨٥ - « » عبقرية الصديق
- ٨٦ - « » عبقرية عمر
- ٨٧ - « » الصديقة بنت الصديق
- ٨٨ - عباس العقاد فاطمة الزهراء والفاطميون
- ٨٩ - ابن عبد البر الدرر في اختصار المغازي والسير
- ٩٠ - « » الاستيعاب في معرفة الأصحاب
- ٩١ - ابن عبد ربه العقد الفريد
- ٩٢ - ابن عبد الحكم فتوح مصر
- ٩٣ - عبد الحى الكتاني التراتيب الإدارية
- ٩٤ - عبد الرعوف عوف الفن الحربى في صدر الإسلام
- ٩٥ - عبد الرحمن عزام الرسالة الخالدة

- ٩٦ - عبد الكريم الخطيب الله ذاتاً وموضوعاً
- ٩٧ - دكتور عبد المنعم ماجد التاريخ السياسي للدولة العربية
- ٩٨ - عبد المتعال الصعدي السياسة الإسلامية في عهد النبوة
- ٩٩ - , , , دراسات إسلامية
- ١٠٠ - ابن العبري مختصر تاريخ الدول
- ١٠١ - أبو عبيد الأموال
- ١٠٢ - ابن العربي أحكام القرآن
- ١٠٣ - حروة بن الورد ديوان حروة (طبعة بيروت)
- ١٠٤ - دكتور هز الدين إسماعيل الشعر العربي المعاصر
- ١٠٥ - ابن حساكر تاريخ دمشق
- ١٠٦ - علي بن أبي طالب (الإمام) نهج البلاغة
- ١٠٧ - دكتور علي النشار شهاب الإسلام في عهد النبوة
- ١٠٨ - عمر المدسوقي الفتوة (الطبعة الثانية)
- ١٠٩ - الغزالي الإحياء
- ١١٠ - أبو الفدا المختصر في أخبار البشر
- ١١١ - كولونيل فريدريك تاريخ شرق الأردن وقبائلها
- ١١٢ - Aistory of the Arabs : Philip Hitti
- ١١٣ - فؤاد حمزة قلب الجزيرة العربية (مصر ١٩٣٣)
- ١١٤ - قاسم أمين تحرير المرأة
- ١١٥ - ابن قتيبة عيون الأخبار
- ١١٦ - ابن قتيبة الإمامة والسياسة
- ١١٧ - ابن قتيبة المعارف
- ١١٨ - القزويني آثار البلاد وأخبار العباد
- ١١٩ - القشيري (الإمام) الرسالة القشيرية
- ١٢٠ - القلقشندي صبح الأعشى
- ١٢١ - ابن القيم زاد المعاد
- ١٢٢ - كيرك موجز تاريخ الشرق الأوسط (ترجمة عمر الاسكندري)

- (م ٤١ - الشاربخ)

- ١٥٠ - المقریزی الخطط
١٥١ - الميدانی مجمع الأمثال
١٥٢ - Macdonald Muslim Theology
١٥٣ - موریس دیمومین النظم الإسلامية (الترجمة العربية)
١٥٤ - ابن تافیا البغدادی الجمان فی تشبیہات القرآن
١٥٥ - نصر بن مزاحم وقعة صفین ()
١٥٦ - النووی تهذیب الأسماء
١٥٧ - Nicholson A Literary History of the Arabs
١٥٨ - ابن هشام السيرة النبوية
١٥٩ - Heernshaw علم التاريخ (ترجمة الأستاذ العبادي)
١٦٠ - Wasyf Ghali Tradition chevaleresque des Arabs
١٦١ - Wells : A Short History of the World
١٦٢ - الهمدانی صفة جزيرة العرب
١٦٣ - الواقدي فتوح الشام
١٦٤ - باقوت معجم البلدان
١٦٥ - يحيى بن آدم الخراج
١٦٦ - دكتور يوسف خليف الشراء الصماليك في العصر الجاهلي
١٦٧ - يوسف عبد الرازق معالم الهجرة

فهرس الأعلام

- ١ — تحاشيا للاطالة لم أضْمَنَ هذه الفهارس أسماء المؤلفين اكتفاء بورودها في ذيل صفحات الكتاب ، وفي قائمة المراجع .
- ٢ — ولم أضْمَنَ هذا الكتاف اسم الرسول صلوات الله عليه ولا أسماء الخلفاء الراشدين (أبى بكر— عمر— عثمان— على) لأن هذه الأسماء الخمسة وردت في أكثر صفحات الكتاب ، مما يجعل إيرادها هنا قليل الجدوى لمن يستعمل هذا الكشف .
- ٣ — رتبته هذه الأسماء ترتيبا أبجديا مع عدم اعتبار الملحقات (ابن — الن) .
- ٤ — حرف «م» يوضع بعد الريم للدلالة على أن الاسم ورد في الصفحة أكثر من مرة .

حرف الألف

أبو الأيوب الأنصارى : ٢٧٥ ، ٦٢٩	أبو الدرداء : ٧٢
أبان بن سعيد : ٥١٧	أبو دجاجة : ٤٩٧ ، ٤٩٨
ابراهيم الخليل : ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤	أبو ذر الغفارى : ٣٠٧ ، ٣١٦ ،
عليه السلام ١١٥ ، ٣٥٨ ، ٣٦٠	٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٩٨
برهة : ١٠١ ، ١٢٠	أبى رُوَيْحَة القشعمى : ٢٨٤
أبو البخترى : العاص بن هشام :	أبوسفيان : ١٢٧ ، ٢٣٠ ، ٣٨٩
٢٣٠ — ٢٣٣	٤٢٥ ، ٤٧٦ ، ٥٣١
أبو جهل : ٢١٨ ، ٢٣٠ ، ٢٦٩ ،	أبوسلمى الخزومى : ٢١٦
٥٦٤	أبوطالب : ١٨٧ ، ٢٢٤ ، ٢٢٩ ،
أبو حذيفة : ٢١٧ ، ٢٢٥ ، ٤١٠	٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ،
	٢٣٥ ، ٤١٢

- أبو عامر الراهب : ٤٣٠
 أبو عبيد للثقي : ٥٩١ ، ٥٩٠
 أبو عبيدة بن الجراح : ٢١٤ ،
 ٣١٣ ، ٣١٢ ، ٢٢٢
 ٣٩٣ ، ٣٩١ ، ٣١٤
 أبو لب : ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٣٠ ،
 ٣٣٥
 أبو لؤلؤة : ٥١٤ ، ٥١٥
 أبو محجن الثقفي : ٥٩١ ، ٥٩٢
 أبو العاص بن الربيع : ٢٨٢
 أبو قحافة : ٤١٧
 أبو مسعود الأنصاري : ٣١٦
 أبو موسى الأشعري : ٦٤٩ ، ٦٥٠
 أبو هذيل العلاف : ٤٦٤
 أبي بن خلف الجمحي : ٣٩٣ ، ٤٩٧
 أبي بن كعب : ٣٠٦ ، ٤١٤
 الأحنف بن قيس : ٦٤٠
 الأحيمر الأسدي : ١٣٧
 الاخنس بن شريق : ٥٦٤
 أذينة : ١٠٥
 الأرقم بن أبي الأرقم : ٢١٦ ، ٤٠٨
 إربد بن قيس : ٤٢٨
 أردشير بن بابك : ١٠٨
 أرياط : ١٠١ ، ١١٩
 أرطبون : ٦٠٥ ، ٦٠٦
 إساف : ١٦٧
 أسامة بن زيد : ٢٧٢ ، ٣٨٦ ، ٣٩٩
 أسعد بن زرارة : ٣٠٩
 أسعد بن أبي طلحة : ٣٢٢
 أسعد بن خضير : ٣٠٩
 الاسكندر المقدوني : ١٠٨ ، ١٠٩
 اسماعيل (عليه السلام) : ٨٨ ،
 ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٥
 أساء : ٣٨٢ ، ٤٠٨ ، ٦٣١
 أسيد بن خضير : ٥٤٦
 أكنم بن صيفي : ١٩٠
 امامة : ٣٥٩ ، ٣٦٠
 أم جميل : ٢١٧ ، ٢١٨
 أم حبيبة : ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٤٦
 أم سلمة : ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٤٠ ،
 ٣٤١
 أم الفضل : ٢١٦ ، ٣٣٨
 أم كلثوم بنت عقبة : ٥١٧
 أم كلثوم : ٣٥٧
 امرؤ القيس : ٩٣
 آمنة بنت وهب : ١٨٨
 أمية بن خلف : ١٤٧ ، ٢٣٠ ،
 ٤٨١ ، ٤٨٣
 أمية بن أبي الصلت : ١٦٣ ،
 ١٦٩
 أنس بن مالك : ٣٥٨ ، ٣٦٢ ، ٣٦٤
 أنس بن النضر : ١١٥
 أورليانوس : ١٠٥ ، ١٠٦
 أوس بن حارثة : ١٧٧
 اياس بن قبيصة : ١٠٨

روستم : ٤٧٠ ، ٥٩١

رقية بنت الرسول : ٢٧٨ ، ٣٣١

الكاهنة رقية بنت نوفل : ١٨٨

رفيدة الانصارية : ٣٣٨

روبرت أوف سانت اليانس : ٢٩١

حرف الزاي

الزبير بن العوام : ٤٤ ، ٢٠٤ ،

٥٩٩ ، ٢١٥ ، ٢١٣

زبراء : ٤١٣

زنوبيا : ١٠٥ ، ١٠٦

زياد بن أبيه : ١٢٢

زياد بن الهيولة : ١٠٩

زيد بن أسلم : ٣٥١

زيد بن ثابت : ٦٨ ، ٣٩٠ ، ٣٩٣

زيد بن حارثة : ١٩٠ ، ٣٥٦ ،

٣٦١ ، ٣٦٤ ، ٥٦٥

زيد بن الدثنة : ٣٦٧

زيد بن سفنة : ٥٦٦

زيد بن عاصم : ٤٩٨

زيد بن علي : ٦٣١

زيد بن عمرو : ١٦٨ ، ١٧٣

زيد بن اللصيت : ٤٣٢

زينب بنت جحش : ٣٣٢ ، ٣٣٣ ،

٣٥٣ ، ٣٤٤

زينب بنت الحارث : ٤٥٣

زينت بنت خزيمه : ٣٣٠

زينب بنت محمد : ٢٧٨

زهير بن أبي سلمى : ١٤١ ، ١٦٠

زهير بن أبي أمية : ٢٣٣

حرف السين

سالم بن عوف : ٢٧٤

سالم مولى أبي حذيفة : ٣٠٥ ، ٢٩٣ ،

٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣١٢ ، ٣٩٣

سجاح : ٥٦٦ ، ٥٧٩ ، ٥٨٠

سعد بن أبي وقاص : ٢١٤ ، ٢٩٠

٤٠٧ ، ٤١٣ ، ٦٣٣

سعد بن حنيف : ٤١٤ ، ٤٣٢

سعد بن الربيع : ٢٨٣ ، ٢٨٥

سعد زغلول : ٤٧

سعد بن عباد : ٤٥١ ، ٥٠٨

سعد بن معاذ : ٢٨٣ ، ٣٠٩

سعيد بن العاص : ٤٤٣

سعيد بن زيد : ٢٢٠ ، ٣١٨

سفانة بنت حاتم : ٤٤١ ، ٤٤٢

سفيان الثوري : ٦٩

سفيان بن حرب : ٢١٧

السكران بن عمرو : ٣٢٨

سلام بن أبي الحقيق : ٤٤٩

سلمان الفارسي : ٥٠١ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧

سلمى بنت عمرو : ١٧٨

سلمى بن الاكوع : ٣٨٢

سلمى بن هشام : ٢١٧ ، ٥٢٧

طلحة بن عبيد الله : ٤٤ ، ٢١٤ ،

٢١٦ ، ٢٢٤ ، ٣٨٩ ،

٤١٧ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩ ،

٦١٨

طلحة بن الحسن : ١٥٩

طلحة بن عمرو : ١٥٨

طلحة بن عبد الله بن خنوف : ١٥٩

طلحة بن عبد الله بن عوف : ١٥٩

طلحة بن خويلد : ٥٠٣ ، ٥٦٧

٥٨١ ، ٥٩١

أبو الطمحان القيني : ٩٣٤

حرف العين

عائشة : ٤٤ ، ٢٨٢ ، ٣٠٥ ،

٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ،

٣٣٣ ، ٣٥١ ، ٤٢١ ،

٦٢٨ ، ٦٣٤

عاتكة : ٢٣٧ ، ٤٢٦

العاص بن وائل : ٢٣٠

عاصم بن ثابت : ٤٩٠

عاصم بن عمرو : ٣٦١

عامر بن طفيل : ٢٧٧

عامر بن فهيرة : ٢٢٢ ، ٢٧٠

٢٨٧ ، ٤٢٦

عامر بن وائلة : ٦٢٩

عبادة بن الصامت : ٥٩١ ، ٢٦٧ ، ٦٠٥

العباس : ٢١٦ ، ٢٦٦ ، ٣٣٨

٥٣٠

سليط بن قيس الأنصاري : ٥٩٠

٥٩١

سليمان (النبي) : ٩٧

سمية : ٢٢٢

سنياذ : ٥٩٥

سهيل بن عمرو : ٢٧٤ ، ٢٧٥

٤١٣ ، ٥١٧

سودة بنت زمعة : ٢٧٥ ، ٢٨٣

٣٢٩ ، ٣٥٣

سيف بن ذي يزن : ١٠٢ م

حرف الشين

شاور الأول : ١٠٥

شر حبيب بن حسنة : ٥٩٥ ، ٥٩٩

شيبه بن ربيعة : ٢٣٠ ، ٤٨٠

شيبه بن هاشم : ١٨٥ ، ١٩٠

حرف الصاء

صلاح الدين الأيوبي : ٤٧

صفوان بن أمية : ٣٦٧ ، ٥٣٥

صفية : ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٥١ ،

٣٥٢

صفية زغلول : ٤٧

صهيب بن سنان : ٢٦٧

حرف الطاء

الطاهر : ٣٥٥

طعيمة بن عدي : ٣٢٤

طلحة بن أبي طلحة : ٤١٧

عبد الله بن حذافة: ٥١١
 عبد الله بن الزبير: ١١٥، ٣٨٤،
 ٦٣٦، ٦٣٧، ٦٣٨
 عبد الله بن زيد الخزرجي: ٢٩٣
 ٣٦١
 عبد الله بن زيد بن عاصم: ٤٠١
 عبد الله بن سبأ: ٦٢٦، ٦٢٧
 عبد الله بن سعد: ٥٣٣
 عبد الله بن سلام: ٣٠١، ٣٠٢،
 ٤٤٤
 عبد الله بن عامر: ٤٥٨
 عبد الله بن عبد الأسد: ٣٣٣
 عبد الله بن العباس: ٤٦٢، ٤٧٧
 عبد الله بن عبد المطلب: ١٧٢،
 ١٨٦
 عبد الله بن عمر: ٣٩١، ٥١٦
 عبد الله بن مسعود: ٦٩، ٣٧٤،
 ٤٠٧، ٤١٢، ٤٨١
 عبد المطلب: ١٠١، ١١٤،
 ١١٨، ١١٩، ١٢٠
 ١٨٤
 عبد الملك بن مهران: ١١٥، ٢٨٥
 عبد مناف: ١١٩، ١٢٧
 عبيدة الثاني: ١٠٤
 عبد الله بن جحش: ١٦٨، ٢٢٥
 عبيدة بن الحارث: ٤٠٨، ٤٨١
 عبيد الله بن عمر: ٦١٦، ٦٥١

عبد الجليل عيسى: ٢٤٠، ٢٦٠
 عبد الدار: ١١٩، ٢٣٠
 عبد الرحمن بن الأسود: ٤٦٧
 عبد الرحمن بن أبي بكر: ٦١١
 عبد الرحمن بن جابر: ٥٣٩
 عبد الرحمن بن عوف: ٢٨٣،
 ٤٩٧، ٤١٧، ٢٨٥
 عبد الرحمن بن ملجم: ٦٥١، ٦٥٢
 عبد شمس: ١٢٧
 الحارث بن عامر: ١٥٥
 عبد القيس: ٨١
 عبد الله بن أبي ربيعة: ٢٢٦
 عبد الله بن أبي بكر: ٢٧٠
 عبد الله بن أبي رواحة: ٣٦٤،
 ٣٩١، ٤٠٢، ٤٢٧
 ٥٢٥
 عبد الله بن أبي سرح: ٦٢٣،
 ٦٢٧
 عبد الله بن أبي بن سلول: ٣٦٧
 ٤١٨، ٤٣٢
 عبد الله بن جبير: ٣٩١، ٤٣٤،
 ٤٣٦
 عبد الله بن خطل: ٥٣٣
 عبد الله بن أريقط: ٢٧٢، ٢٧٤
 عبد الله التميمي: ٤٧٥
 عبد الله بن جحش: ٣٩٠، ٤٠٨
 عبد الله بن جدعان: ١١٦

- عبدالله : ٥٨٢
عتبان بن مالك : ٢٧٤
عتبة بن ربيعة : ٢٣٠ ، ٢١٧ ، ٤٨٠ ، ٤١١
عتبة بن حصن : ٤٨٩ ، ٥٠٣
عثمان بن الحويرث : ١٦٨ ، ١١١
عثمان بن طلحة : ٥١٥ ، ٥٢٨ ، ٥٣٥
عثمان بن عبد الله : ٣٣٤
عثمان بن مظعون : ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٤٠٨ ، ٣٢٧ ، ٢٢٧
عداس : ٢٣٧
عدى بن حاتم : ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٣
عرايه بن أوس : ١٣١
عروة بن الورد : ١٣٣ ، ١٣٥ م
١٣٧ ، ١٣٨
عروة بن مسعود : ٥١٢
عفراء بنت عبيد : ٣٣٥
عقبة بن أبي معيط : ٢٣٦ ، ٤٨١
عكرمة بن أبي جهل : ٥١١ ، ٥٨٠
عمار بن ياسر : ٢٢٢
عمارة بن الوليد بن المغيرة : ٢٣١
عمارة بن عقبة : ٥١٧
عمارة بن يزيد : ٣٢٩
عمر بن لحي : ١٦٦
عمر بن عبد العزيز : ٥٧١
عمرو بن أمية الضمري : ٢٧٨
عمرو بن بكر التميمي : ٦٥١
عمرو بن ثابت : ٤٩٧
عمرو بن جحاش : ٤٤٨
عمرو بن جرموز : ٦٤٠
عمرو بن العاص : ٢٢٦ ، ٢٣٠ ، ٢٩٠ ، ٣١٣ ، ٣٧٢
٣٩٣ ، ٤١٧ ، ٤٢٥
٥٢٨ ، ٥٨٠ ، ٥٩٥
عمرو بن حزم الأنصاري : ٣٢١
عمرو بن عبيد : ٦٤٢
عمرو بن عثمان : ٢١٦
عمرو بن عدى : ١٠٨
عمرو بن عوف : ٢٧٤
عمرو بن كلثوم : ١٧٦ م
عمرو بن قينة : ٤٩٨
عمرو بن معد يكرب : ١٦٠
عمرو بن المنذر بن ماء السماء : ١٧٦
عمرو بن ود : ٣١١
عمير بن سعد : ٤٠٨ ، ٢٢٣
عمير بن عثمان : ٢١٦
عيسى (عليه السلام) : ٢٤
حرف الفين
الغافقي : ٦٣٠
غطفان : ٨٨
حرف الفاء
الفضل بن الربيع : ٢٦

كنانة بن الربيع : ٤٤٩

حرف اللام

ليبد : ١٢٩ ، ٢٣١ م ، ٥٦٢

ليلى بنت مهلهل : ١٧٦ ، ١٧٧

حرف الميم

مارية القبطية : ٣٤٧ ، ٣٤٨

مالك بن الأشتر : ٦٤٠

مالك بن عوف : ٥٣٩ ، ٥٤٢

مالك بن كنانة : ١٢٠

مالك بن النجار : ٢٧٤

مالك بن نويرة : ٥٨٠

مانويل : ٦١٩

ماهان : ٦٠٠

المثنى بن حارثة : ٥٩١ ، ٥٩٩

محمد بن أبى بكر : ٦٢٧

محمد بن القاسم : ١٢٢

محمد عبده : ٤٧

محمد بن مسلمة الأنصارى : ٤٨٦

المختار بن أبى عبيد : ٥٩٠

مرارة بن الربيع : ٥٤٧

مردا نشاه : ٥٩١

المرزبان : ١٠٢

مروان بن الحكم : ٦٢٤ ، ٦٢٨

مسافع بن أبى طلحة : ٤٩٠

مسروق بن أبرهة : ١٠١

ابن مسعود : ٧٢

أحبة الزهراء : ٢٨٢ ، ٣٠٦

٣١١ ، ٣٥٧ ، ٣٨٦

٣٩١

فاطمة بنت الخطاب : ٢١٦

فروة بن عمر الجزامى : ٤٦٦

الفيروزان : ٥٩٤

حرف القاف

القاسم : ٣٥٥

قاسم أمين : ٣٣٩

قتيبة بن مسلم : ٤٧٠

قريش : ١٨٣

قس بن ساعدة : ١٦٩ ، ١٩٠

قسطنطين بن هرقل : ٦٠٢

قصى بن كلاب : ١١٦ ، ١١٨

١١٩

قيس بن سعد الأنصارى : ٦٥٠

قيس بن عاصم : ١٤١ ، ١٥٩

قيس بن هبيرة : ٥٩٦

حرف الكاف

كارل ماركس : ١٣٥

كسرى : ١٠٢ ، ١٠٧ ، ٢٢٤

كعب بن أسد : ٤٥١

كعب بن زهير : ٥٣٤

كعب بن الأشرف : ٤٨٥

كعب بن مالك : ٤٩١ ، ٥٤٧

كليب بن ربيعة : ١٥٧ م

- مسعود بن سعد الجزامي : ٤٥٦
 المسور بن مخرمة : ٣٣٦
 مسيلمة الكذاب : ٥٧٨
 مصعب بن عمير : ٢٦٦ ، ٣٠٨ ،
 ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١٤
 المطلب بن عبد مناف : ١٢٧
 المطعم بن عدى : ٢٣٣
 مضاض بن عمرو : ١١٧
 معاذ بن جبل : ٣٠٥ ، ٣٠٦ ،
 ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣٢٠
 معاذ بن عفراء : ٢٧٤ ، ٢٧٥
 معاوية : ٦٣ ، ٣١٩ ، ٦٢٩ ،
 ٦٤٢ ، ٦٤٥ ، ٦٤٦ ،
 ٦٤٧
 معاوية بن خديج : ٦٥٠
 معبد بن أبي معبد الخزاعي : ٤٩٤ ،
 ٤٩٥
 معتب بن أبي لهب : ٣٥٧
 المغيرة بن شعبة : ١٢٢ ، ٤٧٠ ،
 ٥٩١ ، ٥١٤
 مضاض بن عمرو : ١١٧
 المقداد بن الأسود : ٦٠٥
 المقوقس : ٦٠٥ ، ٦٠٦
 مقيس بن حبابه : ٥٣٣
 المقنع المروزي : ٥٩٥
 المنذر بن الحارث : ١١٠
 المنذر بن ساوى : ٥٢١ ، ٥٢٢
 المنذر بن ماء السماء : ١٠٨
 ميسرة : ١٨٤
 ميسون : ١٧٨
 ميمونة بنت الحارث : ٣٣٨
 مهران : ٥٩٢
 مهلهل بن ربيعة : ١٥٧
 حرف النون
 نابغة بنى جعدة : ١٥٨
 نائلة : ١٦٧
 النجاشي : ١٠٠ ، ١٠١ م ، ١١٩ ،
 ٢٢٦
 النخيرجان : ١٠٨
 نزار : ٨٨
 النضر بن الحارث : ٤٨١
 نسطورا : ١٩٥
 نسيبة بنت كعب : ٤٩٨
 النعمان بن مقرن : ٥٨٠ ، ٥٩٤
 النعمان بن المنذر : ١٠٧ ، ١٠٨ ،
 ١٧٨
 نعيم بن عبد الله : ٥٦١
 نعيم بن مسعود : ٥٠٣ ، ٥٠٤
 نوح : ١٦٥
 نوفل بن خويلد : ٢٢٣ ، ٣٩١
 نوفل بن عبد مناف : ١٢٧
 حرف الهاء
 هاجر : ١١٢
 هاشم بن عبد مناف : ١٢٧

ورقة بن نوفل : ١٦٣ ، ١٦٨	هالة بنت خويلد : ٣٥٦
الوليد بن عبد الملك : ٦٣	هيرة الكلابي : ٤٧٠
الوليد بن عتبة : ٤٨٠	هرقل : ٥٩٨
الوليد بن المغيرة : ١٤٧ ، ٢١٧ م ،	الهرمزان : ٦١١ ، ٦٤٨
٤١٦ ، ٤١٥ ، ٢٢٦	هرم بن سنان : ١٤١
وهرز : ١٠١ ، ١٠٢	هشام بن المغيرة : ٢٦٥
حرف الياء	هلال بن أمية : ٥٤٧
ياسر : ٤٦٣	هند (أم عمرو بن المنذر) : ١٧٦ ،
يزدجرد : ٥٩٤ ، ٥٩٥	١٧٧
يزيد بن أبي سفيان : ٥٩٥ ، ٦٢٠	هند بنت عتبة : ٣١٠ ، ٤٨٤ ،
يزيد بن معاوية : ١٧٨	٤٩١
يعلى بن أمية : ٦٣٥	حرف الواو
يكسوم : ١٠١	واصل بن عطاء : ٦٢٨
	الوضين بن عطاء : ١٢٣
	وحشى : ٥٨١

فهرس الأمكنة

ملاحظة : تحاشياً للإطالة لم أضْمَنَ فهرس الأمكنة كلمتى « مكة والمدينة »
لكثرة ورودهما فى هذا الكتاب ، مما يجعل إيرادهما قليل الجدوى لمن يستعمل هذا
الكشاف .

الأحقاف : ٨٥ ، ٨٦	حرف الألف	أذرعات الشام : ٥٨١
أذربيجان : ٥٩٤		الأبلة : ٥٩٠ ، ٥٤٧
أرمينيا : ٦١٩		أجنادين : ٥٩٠ ، ٥٩٨ ، ٦٠١
أسبانيا : ٥٨٧		أحد : ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٤٩٤ ، ٤٩٦
الاسكندرية : ٦٠٦ ، ٦١٣		الاحساء : ٨٦
افريقية : ٨٩ ، ٥٨٧ ، ٦٠٣		

تشاد : ٥٨
 تياء : ٥١٩
 حرف الجيم
 الجمرانة : ٥٤٢
 جلولا : ٥٩٢
 حرف الحاء
 الحبشة : ١٠٠ ، ٨٩
 الحجاز : ١٠٣ ، ٩٤ ، ٨١
 الحديدية : ٤٥٣ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٣
 حصن بابليون : ٦٠٥
 حضرموت : ٨٦ ، ٩٦ ، ١٢٤ ،
 حطين : ٤٥٨
 حلب : ٥٩٢
 حلوان : ٥٩٣
 حصص : ٥٩٠ ، ٦٢٣
 حماة : ٥٩٢
 حنين : ٥٣٧
 الحوالب : ٦٣٨
 الحيرة : ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٣ ، ١٤٥
 حيفا : ٥٩٢
 حرف الحاء
 خراسان : ٦١٩
 خير : ٤٥٢ ، ٤٥٣
 حرف الدال
 دار الندوة : ١٤٧
 دمشق : (جلق) ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٩

أفغانستان : ٥٨
 أم دنين (المقدس) ٦٠٥
 الأنياب : ٦٩ ، ٨٦ ، ٩٤ ، ١٠٣
 إندونيسيا : ٢٤ ، ٥٨ ، ٨١ ، ٩٥
 أنطاكية : ٦٠٠ ، ٦٠٣
 الأهواز : ٥٩٤
 أوطاس : ٨٩
 أيريا : ٥٨٧
 إيران : ٥٧
 حرف الباء
 باب المنذب : ٧٩ ، ٩٥ ، ٩٦
 باكستان : ٥٨
 البتراء : ٨٦ ، ١٠٣ ، ١٠٤
 البحرين : ٨٦ ، ٨٩ ، ٩٨
 بدر : ٣١٩ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦ ،
 ٤٧٧ ، ٤٧٨
 البصرة : ٦٣٩
 برقة : ٦١٩
 بغداد : ٥٧
 البقيع : ٦٤٣
 بلخ : ٦١٩
 بنجلاديش : ٥٨
 بيت المقدس : ١٤٤ ، ٦٠٥
 حرف التاء
 تبوك : ٧٠ ، ٥٤٤ ، ٥٤٨
 تدمر : ٦٩ ، ٨٦ ، ٩٤ ، ١٠٤ ،
 ١٠٥

الطفيلة : ٤٦٦	دومة الجندل : ١٧٠ ، ٥٤٧
طله : ٤٥٢ ، ٤٦٦	حرف الزاي
طيسفون : ٥٩٣	زمزم : ١١٢ م ، ١١٣
حرف الظاء	زنجيار : ٥٨
ظفار : ١٢٤	حرف السين
حرف العين	سبأ : ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٩
عدن : ١٢٠ ، ١٢٦	السفال : ٥٥
العراق : ٥٧ ، ٥٨٨	السند : ٥٥٥
العريش : ٥٩٣	سومطره : ٩٨
عسير : ١٢٣	سيناء : ٦٠٣
العقبة : ٢٤١ ، ٢٤٢	حرف الشين
عكا : ٥٩٢	الشام (سوريا) : ٨٩ ، ٩٥
عكاظ : ١٤٦	١٠٩ ، ١٢٤
عمان : ٨٤ ، ٨٦ ، ١٢٣	شرق الأردن : ١٠٣
عين التمر : ٥٩٠	حرف الصاد
عين شمس : ٥٠٦	الصفاء : ١١٢
حرف الغين	صفين : ٦٤٥ ، ٦٤٧
غار ثور : ٢١٣ ، ٢٧١	صنعاء : ١٠٢ ، ١٢٦
غار حراء : ٢١٢ ، ٢١٥	الصومال : ٥٨ ، ٩٨
غزة : ٥٠٢	الصين : ٩٨ ، ٩٩
غزة : ٦١٩	حرف الطاء
غسان : ٨٦ ، ٩٤ ، ١٤٥	إطائف : ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٧٠ ،
حرف الفاء	٣٩٩ ، ٥٧٧
فارس : ٥٨٨	طرابلس : ٦١٩
فدك : ٤٥٣ ، ٤٥٥	طبرستان : ٦١٩

الملايو: ٥٥	الفرما: ٦٠٣
موتة: ٥٨٥	الفراديس: ٥٩٩
موريتانيا: ٥٨	فلسطين: ١٢٤، ٥٩٦
مهرة: ٨٦، ١٢٣	حرف القاف
حرف النون	القادسية: ٥٩١
نجد: ٦٧، ٨٥	قبرص: ٦١٩
نجران: ١٠٠، ٣٠٢	القسطنطينية: ٦٠٠، ٦٠٢
نهاوند: ٥٩٤، ٥٩٥، ٦١١	القليلس: ١٢٠
النوبة: ٦١٩	قنسرين: ٦٠٢
النيجر: ٥٨	قم: ٥٩٥
نيجيريا: ٥٨	قناة السويس: ١٥٣
حرف الهاء	قيسارية: ٦٠٢
هراة: ٦١٩	حرف الكاف
الهند: ٩٥، ٩٨	كابول: ٦١٩
حرف الواو	الكرك: ٤٦٧
وادي الأردن: ٦٠٠	كنانة: ١٤٩، ٤٧٦
وادي القرى: ٥١٩	كندة: ٩٣
حرف الياء	الكوفة: ٦٢٣
يافا: ٦٠٢	حرف الميم
اليرموك: ٦٠٠، ٦٠٢، ٦٢٠	ماليزيا: ٥٨
اليمامة: ٥٧٨، ٥٨٠	مالى: ٥٥
اليمن: ٥٧، ٦٩، ٨٦، ٩٤	المدائن: ١٠٣، ٥٩٢
١٤٥، ١٤٠، ٩٥	المروة: ١١٢
	مسقط: ١٢٤
	مصر: ٨٢، ٥٨٧

رقم الايداع : ٣٤٥٧ لسنة ١٩٨١
رقم الايداع الدولي ٩٤ - ٧٠٠١ - ١٧٧



مطبعة الاسراء

